فتح المجيد

شرح كتاب التوحيد

تأليف
الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ
(ت ١٢٨٥ هـ)

راجع حواشيه وصححها وعلق عليها
سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز

مكتبة الإيمان
المنصورة ـ أمام جامعة الأزهر
ت: ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

بطاقة الفهرسة

فهرسة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

عبد الرحمن بن الحسن ، عبد الرحمن بن حسن بن محمد ،.. ـ ١٨٦٩

فتح المجيد شرح كتاب التوحيد / تأليف عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ،راجع حواشيه وصححها وعلق عليها عبد العزيز بن عبد الله بن باز . ـ ط٢. ـ المنصورة : مكتبة الإيمان ، ٢٠٠٦

٤٣٢ص ،١٧ x٢٤سم .

تدمك 4 ـ 252 ـ 290 ـ977

١ـ الشريعة الإسلامية .

أ ـ ابن باز،عبد العزيز بن عبد الله (مراجع ، مصحح ،معلق)

ب ـ العنوان ٢٥٠

رقم الإيداع : ٢٠٠٦/٧٥٥٥

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(مقدمة الشارح)

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبةُ للمتقين ، ولا عُدْوان إلا على الظالمين ، كالمبتدعة والمشركين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له ، إله الأولين والآخرين ، وقَيُّوم السماوات والأرضين . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخيرته من خلقه أجمعين. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصحابه ومَنْ تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدين . وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فإن كتابَ التوحيد - الذى ألَّفه الإمام شيخُ الإسلام « محمد بن عبد الوهاب» [1] أجزلَ الله له الأجرَ والثوابَ ، وغفر له ولمن أجابَ دعوته إلى يوم يقوم الحساب - قد جاء بديعاً فى معناه : من بيان التوحيد ببراهينه ، وجمع جُملاً من أدلته لإيضاحه وتبيينه. فصار عَلماً للموحدين وحُجَّة على الملحدين . فانتفع به الخلق الكثير ، والجمُّ الغفير . فإن هذا الإمام - رحمه الله - فى مبدأ مَنْشئه قد شرح الله صدره للحق المبين ، الذى بعث الله به المرسلين : من إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله رب العالمين، وإنكار ما كان عليه الكثير من شرك المشركين ، فأعلى الله همته ، وقوّى عزيمته ؛ وتصدّى لدعوة أهل نجد إلى التوحيد ، الذى هو أساس الإسلام والإيمان ، ونهاهم عن عبادة الأشجار والأحجار والقبور ، والطواغيت والأوثان ، وعن الإيمان بالسَّحرَة والمنجِّمين والكُهَّان . فأبطل الله بدعوته كل بدعة وضلالة يدعو إليها كل شيطان ، وأقام الله به عَلم الجهاد ، وأدْحَضَ به شُبَه المعارضين من أهل الشرك والعناد ، ودانَ بالإسلام أكثر أهل تلك البلاد ، الحاضر منهم والباد . وانتشرت دعوته ومؤلفاته فى الآفاق ، حتى أقرّ له بالفضل من كان من أهل الشقاق . إلا من استحوذ عليه الشيطان ، وكرّه إليه الإيمان، فأصر على العناد والطغيان .

وقد أصبح أهل جزيرة العرب بدعوته ، كما قال قتادة رحمه الله عن حال أول هذه الأمة : « إن المسلمين لما قالوا : (لا إله إلا الله) أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم ، وضاق بها إبليس وجنوده ، فأبى الله إلا أن يُمْضَيها ويظهرها ، ويُفْلجها وينصرها على من ناوأها ، إنها كلمة من خاصم بها فَلَج ، ومن قاتل بها نُصر ، إنما يعرفها أهل هذه

---

(١) ولد فى العيينة سنة ١١١٥ هـ . وتوفى بالدرعية سنة ١٢٠٦ هـ رحمه الله .

الجزيرة التى يقطعها الراكب فى ليال قلائل ، ويسيرٍ من الدهر ، فى فِئامٍ من الناس ، لا يعرفونها ولا يُقرُّون بها » .

وقد شرح الله صدور كثير من العلماء لدعوته ، وسرُّوا واستبشروا بطلعته ، وأثنوا عليه نثراً ونظماً .

فمن ذلك ما قاله عالم صنعاء : محمد بن إسماعيل الأمير [١] فى هذا الشيخ - رحمه الله تعالى - :

وقد جـــاءت الأخـــبارُ عنه بأنه	يعيد لنا الشــرعَ الشريف بما يبدِى
وينْشــر جـهراً ما طَوَى كل جاهل	ومُبتـدع منه ، فوافــقَ ما عـندى
ويَعمُــر أركانَ الشـــريعة هادماً	مشاهدَ ، ضلّ الناس فيها عن الرشـد
أعـادوا بهــا معــنى سُــواع ومثله	يَغـوث وَوَدٍّ ، بئس ذلك مـن وَد
وقد هتفـوا عند الشـــدائد باسـمها	كما يَهتفُ الْمُضطر بالصَّمَد الفرد
وكم عَقَروا فى سوحــها من عَقيرة	أهـلَّت لغير الله جَهــراً على عمـد
وكم طــائفٍ حــولَ القبـور مُقـبِّل	ومُسْــتَلم الأركان منهـــنّ بالأيدى

وقال شيخنا عالم الإحساء أبو بكر حسين بن غَنّام - رحمه الله تعالى - فيه [٢] :

لقد رفــعَ المولـى به رُتبة الهـــدَى	بوقـتٍ به يعــلَى الضـــلالُ ويُرفع
ســـقاه نمير الفهم مولاه ، فارتوَى	وعـام بتيّار المعـــارف يقطـــــع
فأحــيا به التوحيد بعد اندراســـه	وأوهَى به من مطلع الشرك مهيع [٣]
سَما ذِرْوة المجد التى ما ارتقى لها	سواه، ولا حاذَى فناها سَمَيْذَع [٤]

---

(١) ولد بصنعاء سنة ١٠٥٩ ، وتوفى فى شعبان سنة ١١٨٢ ، وكان إماماً جليلاً ، له المؤلفات الكثيرة النافعة ، منها سبل السلام شرح بلوغ المرام ، ومنحة الغفار على ضوء النهار ، والعدة على شرح العمدة لابن دقيق العيد ، وشرح التنقيح فى علوم الحديث .

(٢) قالها فى رثاء الشيخ رحمه الله ، وهى تسعة وثلاثون بيتاً مذكورة بتمامها فى كتاب « عنوان المجد فى تاريخ نجد » فى حوادث سنة ١٢٠٦ (ج١ ص٥٩) ، توفى ابن غنام سنة ١٢٢٥ ، وله ترجمة فى عنوان المجد (ج١ ص١٤٩) .

(٣) فى عنوان المجد « وأقوى به من مظلم الشرك » والمهيع : الطريق الواسع .

(٤) فى عنوان المجد « ولا حاذاه فيها » والسميذع : الشجاع القوى .

وشـــمّر فى منهـــاج سُـنة أحـمْد	يشـــيد ويَحيى ما تعفّى ، ويرفع
يناظـــر بالآيات والســـــنة التى	أمرنا إليهـــا فى التنازع نرجـــع
فأضحـــت به السمحاء يبسمُ ثَغرها	وأمســـى محـــياها يُضـــيء ويلمع
وعاد به نهـــج الغواية طامســـاً	وقد كان مســـلوكاً به الناس تَرْتع
وجـــرّت به نجـــد ذيولَ افتخـارها	وحُـــقَّ لهـا بالألْمَعِـــىِّ ترفُّـــع
فآثاره فيهـــا سَـــوامٍ ســـوافرٌ	وأنواره فيهـــا تضـــىء وتلمـــع

وأما كتابه المذكور فموضوعه فى بيان ما بعث الله به رسله : من توحيد العبادة ، وبيانه بالأدلة من الكتاب والسنة ، وذكر ما ينافيه من الشرك الأكبر ، أو ينافى كماله الواجب من الشرك الأصغر ونحوه ، وما يقرُب من ذلك أو يوصل إليه .

وقد تصدّى لشرحه حَفيد المصنف ، وهو الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله تعالى[1] فوضع عليه شرحاً أجاد فيه وأفاد ، وأبرز فيه من البيان ما يجب أن يطلب منه ويراد ، وسماه « تيسير العزيز الحميد ، فى شرح كتاب التوحيد » .

وحيث أطلق « شيخ الإسلام » فالمراد به : أبو العباس أحمدُ بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية ، و« الحافظ » فالمراد به : أحمد بن حجر العسقلانى .

ولما قرأتُ شرحه رأيته أطنبَ فى مواضع ، وفى بعضها تكرار يستغنى بالبعض منه عن الكل ، ولم يكمله . فأخذت فى تهذيبه وتقريبه وتكميله ، وربما أدخلت فيه بعض النقول المستحسنة تتميماً للفائدة وسميته « فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد » .

وأسأل الله أن ينفع به كل طالب للعلم ومستفيد ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وموصلاً مَنْ سَعى فيه إلى جنات النعيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

قال المصنف رحمه الله تعالى :

---

(١) كان عالماً فاضلاً بارعاً فى الحديث والتفسير والفقه ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، صَادق الاتصال بالله ، قُتل رحمه الله فى آخر سنة ١٢٣٣ ، وشى به بعض المنافقين إلى إبراهيم باشا بن محمد على باشا ، بعد دخوله الدرعية واستيلائه عليها ، فأحضره إبراهيم ؛ وأظهر بين يديه آلات اللهو والمنكر إغاظة للشيخ ، ثم أخرجه إلى المقبرة وأمر العساكر أن يرموه بالرصاص جميعاً فمزقوا جسمه رحمه الله ورضى عنه . ا هـ . (عنوان المجد ج١ ص ٢١٠) .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(بسم الله الرحمن الرحيم)

ابتدأ كتابه بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز ، وعملاً بحديث : « كل أمر ذى بال لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أَقْطَعُ » أخرجه ابن حبان من طريقين . قال ابن الصلاح : والحديث حسن . ولأبى داود وابن ماجه : « كل أمرٍ ذى بال لا يبدأ فيه بالحمدُ لله أو بالحمد فهو أقطع » ولأحمد « كل أمرٍ ذى بال لا يُفتتح بذكرِ الله فهوَ أبْتَرُ أو أقطع » وللدارقطنى عن أبى هريرة مرفوعاً : « كل أمرٍ ذى بالٍ لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أقطع » (*) .

والمصنف قد اقتصر فى بعض نسخه على البسملة ، لأنها من أبلغ الثناء والذكر للحديث المتقدم . وكان النبى ﷺ يقتصر عليها فى مراسلاته ، كما فى كتابه لِهِرَقْلَ عظيم الروم (١) . ووقع لى نسخة بخطه - رحمه الله تعالى - بدأ فيها بالبسملة ، وثَنَّى بالحمد والصلاة على النبى ﷺ وآله . وعلى هذا : فالابتداء بالبسملة حقيقى ، وبالحمدلة نِسْبى إضافى ، أى بالنسبة إلى ما بعد الحمد يكون مبدوءاً به .

والباء فى (بسم الله) متعلقة بمحذوف، واختار كثير من المتأخرين كونه فعلاً خاصاً متأخراً.

أما كونه فعلاً ، فلأن الأصل فى العمل للأفعال .

وأما كونه خاصاً ، فلأن كل مبتدىء بالبسملة فى أمر يُضْمِرُ ما جَعل البسملة مبدأ له .

وأما كونه متأخراً ، فلدلالته على الاختصاص ، وأدخل فى التعظيم ، وأوفق للوجود ؛ ولأنّ أهمّ ما يُبدأ به ذكرُ الله تعالى .

وذكر العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : لحذف العامل فوائد . منها : أنه موطن لا ينبغى أن يتقدم فيه غير ذكر الله . ومنها : أن الفعل إذا حُذف صح الابتداء بالبسملة فى كل عمل وقول وحركة . فكان الحذفُ أعمّ . انتهى ملخصاً .

وباء « بسم الله » للمصاحبة . وقيل : للاستعانة . فيكون التقدير : بسم الله أؤلف حالَ كونى مستعيناً بذكره ، متبركاً به . وأما ظهوره فى ﴿ اقْرَأْ باسْمِ ربِّكَ ﴾ وفى ﴿ بِسْمِ اللهِ مَجْراها ﴾ فلأنَّ المقام يقتضى ذلك كما لا يخفى .

والاسم مشتق من السُّمُوّ وهو العلو . وقيل : من الوَسْم وهو العلامة ، لأن كل ما سُمِّى فقد نُوِّهَ باسمه وَوُسِمَ .

(*) لا يصح من هذه الأحاديث شىء . راجع فى ذلك الأحاديث الأولى من إرواء الغليل للشيخ الألبانى حفظه الله . وصححه السيوطى فى زالجامع الصغير (٦٣٣٧) .

(١) رواه البخارى فى حديث أبى سفيان الطويل الذى رواه عن ابن عباس فى كتاب بدء الوحى .

قوله : « الله » قال الكسائى والفَرّاء : أصله الإله ، حذفوا الهمزة وأدغموا اللام فى اللام ، فصارتا لاماً واحدة مشددةً مُفَخَّمة . قال العلامة ابن القيم -رحمه الله -: الصحيح: أنه مشتق، وأن أصله الإله ، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شَذّ . وهو الجامع لمعانى الأسماء الحسنى والصفات العُلى. والذين قالوا بالاشتقاق إنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى. وهى الإلهية ، كسائر أسمائه الحسنى ؛ كالعليم ، والقدير ، والسميع ، والبصير ؛ ونحو ذلك. فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب ، وهى قديمة ؛ ونحن لا نعنى بالاشتقاق إلا أنها ملاقيةٌ لمصادرها فى اللفظ والمعنى ، لا أنها متَولدة منه تَوَلُّد الفَرْع من أصله . وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه : أصلاً وفرعاً . ليس معناه : أن أحدهما متولد من الآخر . وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة .

قال أبو جعفر بن جرير : « الله » أصله « الإله » أسقطت الهمزة التى هى فاء الاسم فالتقت اللام التى هى عين الاسم واللام الزائدة وهى ساكنة فأدغمت فى الأخرى ؛ فصارتا فى اللفظ لاماً واحدة مشدّدة . وأما تأويل « الله » فإنه على معنى ما روى لنا عن عبد الله بن عباس قال : « هو الذى يألهه كل شىء ويعبده كل خلق » وساق بسنده عن الضحاك عن عبد الله بن عباس قال : « الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين » فإن قال لنا قائل : وما دلّ على أن الألوهية هى العبادة ، وأن الإله هو المعبود ؛ وأن له أصلاً فى فَعِل ويَفْعَل ؛ وذكر بيت رؤبة بن العجاج [(١)] :

لله دَرّ الغانيــــات المُـــــدّهِ سبّحنَ واسترجعن من تألُّهى [(٢)]

يعنى من تَعَبُّدى وطلبى اللهَ بعملى . ولا شك أن التألُّه التفعل ، من أله يأله ، وأن معنى « أله » إذا نطق به : عبدَ اللهَ . وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقت منه بفعل يفعَل بغير زيادة . وذلك ما حدثنا به سفيان بن وكيع وساق السند إلى ابن عباس « أنه قرأ ﴿وَيَذَرَكَ وَإِلاهَتَكَ﴾ [(٣)] قال : عبادتك ، ويقول : إنه كان يُعبد ولا يَعْبُد » وساق بسند آخر

---

(١) كذا فى الأصل . والعبارة ناقصة . ونصها : فإن قال لنا قائل : فهل لذلك فى فعل ويفعل أصل كان منه بناء هذا الاسم ؟ قيل : إما سماعاً من العرب فلا . ولكن استدلالاً . فإن قال : وما دل على أن الألوهية هى العبادة وأن الإله هو المعبود ، وأن له أصلاً فى فعل يفعل ؟ قيل : لا تمانع العرب فى الحكم لقول القائل يصف رجلاً بعبادة الله ويطلب مما عند الله « تأله فلان » بالصحة ولا خلاف . ومن ذلك قول رؤبة . إلخ .

(٢) قال فى اللسان : مدهه يمدهه مدهاً ، مثل مدحه ، والجمع : المده ، أى المستحقات المدح لحسنهن وجمالهن ، والتأله : التنسك والتعبد . واسترجعن : قلن : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٣) الآية ١٢٧ من سورة الأعراف : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ﴾ .

عن ابن عباس : « ويذرك وإلاهتك . قال : إنما كان فرعون يُعبد ولا يعبد » وذكر مثله عن مجاهد، ثم قال : فقد بيَّن قولُ ابن عباس ومجاهد هذا : أن « أله » : عبد . وأن الآلهة مصدره وساق حديثاً عن أبى سعيد مرفوعاً : « أن عيسى أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه. فقال له المعلم : اكتب بسم الله . فقال عيسى : أتدرى ما الله ؟ الله إله الآلهة » .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - : لهذا الاسم الشريف عشر خصائص لفظية؛ وساقها. ثم قال : وأما خصائصه المعنوية فقد قال أعلم الخلق ﷺ : « لا أُحْصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وكيف نحصى خصائص اسم لمسماه كل كمال على الإطلاق ، وكل مدح وحمد ، وكل ثناء وكل مجد ، وكل جلال وكل كمال ، وكل عز وكل جمال ، وكل خير وإحسان ؛ وكل جود وفضل وبرٍّ فله ومنه ؟ فما ذكر هذا الاسم فى قليل إلا كثَّره ، ولا عند خوف إلا أزاله ، ولا عند كَرْبٍ إلا كشفه ، ولا عند هَمٍّ وَغَمٍّ إلا فَرَّجه ، ولا عند ضيق إلا وَسَّعَه ، ولا تعلق به ضعيف إلّا أفاده القوة ، ولا ذليل إلا أناله العزّ ، ولا فقير إلا أصاره غنياً ، ولا مستوحش إلا آنسه ، ولا مغلوب إلا أيَّده ونصره ، ولا مضطر إلا كشف ضره ، ولا شريد إلا آواه . فهو الاسم الذى تكشف به الكربات ، وتستنزل به البركات ، وتجاب به الدعوات ، وتقال به العثرات ، وتستدفع به السيئات ، وتستجلب به الحسنات . وهو الاسم الذى قامت به الأرض والسماوات ، وبه أنزلت الكتب ، وبه أرسلت الرسل ، وبه شرعت الشرائع ، وبه قامت الحدود ، وبه شرع الجهاد ، وبه انقسمت الخليقة إلى السعداء والأشقياء ، وبه حَقَّت الحاقة ، ووقعت الواقعة ، وبه وُضعت الموازين القسْط ونصب الصراط ، وقام سوق الجنة والنار وبه عبد رب العالمين وحمد ، وبحقه بعثت الرسل ، وعنه السؤال فى القبر ويوم البعث والنشور، وبه الخصام وإليه المحاكمة ، وفيه الموالاة والمعاداة ، وبه سَعد من عَرفه وقام بحقه ، وبه شَقِىَ من جهله وترك حقه ؛ فهو سر الخلق والأمر ، وبه قاما وثبتا ، وإليه انتهيا، فالخلق به وإليه ولأجله . فما وجد خلق ولا أمر ولا ثواب ولا عقاب إلا مبتدئاً منه منتهياً إليه. وذلك موجبه ومقتضاه (٣ : ١٩١) : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى .

قوله : « الرحمن الرحيم » قال ابن جرير : حدثنى السَّرِىُّ بن يحيى حدثنا عثمان بن زُفَر سمعت الْعَزْرَمِىّ يقول : « الرحمن بجميع الخلق ، والرحيم بالمؤمنين » . وساق بسنده عن أبى سعيد - يعنى الخُدرىّ - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن عيسى ابن مريم قال : الرحمن : رحمن الآخرة والدنيا ، والرحيم : رحيم الآخرة » .

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - [١] : فاسمه « الله » دل على كونه مألوهاً معبوداً .

(١) فى مدارج السالكين (ج١ ص١٨) .

[الحمدُ للهِ ، وصَلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلهِ وسلم] [1] .

يألهه الخلائق: محبة وتعظيماً وخضوعاً ، ومفزعاً إليه في الحوائج والنوائب . وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد ، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه : مستلزم لجميع صفات كماله . إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحى ، ولا سميع ، ولا بصير، ولا قادر ، ولا متكلم ، ولا فعال لما يريد ، ولا حكيم في أقواله وأفعاله . فصفات الجلال والجمال: أخص باسم « الله » وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة : أخص باسم « الرب » وصفات الإحسان والجود والبر والحنان والمنة والرأفة واللطف : أخص باسم « الرحمن » .

وقال - رحمه الله أيضاً - : « الرحمن » دال على الصفة القائمة به سبحانه « والرحيم » دال على تعلقها بالمرحوم . وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى (٣٣ : ٤٣) : ﴿ وكان بالمؤمنينَ رَحيماً ﴾ ، (٩ : ١١٧) ﴿ إنَّه بهم رءوفٌ رَحيمٌ ﴾ ولم يجئ قطُّ رحمانٌ بهم .

وقال : إن أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت ، فإنها دالة على صفات كماله ، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية . فالرحمن اسمه تعالى ووصفه . فمن حيث هو صفة جرى تابعاً لاسم الله ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع ، بل ورد الاسم العلم . كقوله تعالى (٢٠ : ٥) : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى ﴾ انتهى ملخصاً .

قوله : « الحمد لله » معناه : الثناء بالكلام على الجميل الاختياري على وجه التعظيم . فمورده: اللسان والقلب . والشكر يكون باللسان والجنان والأركان . فهو أعمُّ من الحمد مُتَعَلَقاً، وأخص منه سبباً ؛ لأنه يكون في مقابلة النعمة ، والحمد أعم سبباً وأخص مُتعلقاً ؛ لأنه يكون في مقابلة النعمة وغيرها . فبينهما عموم وخصوص وجهي ؛ يجتمعان في مادة وينفرد كل واحد عن الآخر في مادة .

قوله : « وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم » أصح ما قيل في معنى صلاة الله على عبده: ما ذكره البخاري - رحمه الله تعالى - عن أبي العالية قال : « صلاة الله على عبده ثناؤه عليه عند الملائكة » وقرره ابن القيم - رحمه الله - ونصره في كتابيه « جلاء الأفهام » و« بدائع الفوائد » .

قلت : وقد يراد بها الدعاء ، كما في المسند عن عليّ مرفوعاً : « الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه » .

قوله : « وعلى آله » أي أتباعه على دينه . نص عليه الإمام أحمد هنا . وعليه أكثر الأصحاب . وعلى هذا : فيشمل الصحابة وغيرهم من المؤمنين [2] .

---

(١) هذه الجملة في بعض النسخ دون بعض .

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتاب « جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام » ، للعلامة المحقق ابن القيم رحمه الله ، فإنه استوفى المذاهب في ذلك ، وبين الحق فيها ، وأن المراد من الآل أتباعه الذين آمنوا به .



(كتاب التوحيد)

كتاب : مصدر كتب يكتب كتاباً وكتابة وكتباً ، ومدار المادة على الجمع . ومنه : تكتّب بنو فلان : إذا اجتمعوا . والكتيبة : لجماعة الخيل ، والكتابة بالقلم : لاجتماع الكلمات والحروف وسمى الكتاب كتاباً : لجمعه ما وُضع له .

والتوحيد نوعان : توحيد فى المعرفة والإثبات . وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات . وتوحيد فى الطلب والقصد ، وهو توحيد الإلهية والعبادة .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - : وأما التوحيد الذى دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب فهو نوعان : توحيد فى المعرفة والإثبات ، وتوحيد فى الطلب والقصد .

فالأول : هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه ، وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده ، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمته ؛ وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جدّ الإفصاح ، كما فى أول سورة الحديد ، وسورة طه ، وآخر الحشر ، وأول تنزيل : السجدة ، وأول آل عمران ، وسورة الإخلاص بكمالها ، وغير ذلك .

النوع الثانى : ما تضمنته سورة ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون ﴾ وقوله تعالى (٣ : ٦٤) : ﴿ قُلْ يَاَ أهلَ الكتابِ تَعالوْا إلى كلمة سواء بَيْننا وبَيْنكُم أَنْ لا نَعْبدَ إلا اللهَ ولا نُشْرِكَ به شَيْئاً ولا يتَّخِذَ بعْضُنا بعْضاً أَرْباباً منْ دُونِ اللهِ ، فإنْ تَوَلّوْا فَقُولوا : اشْهدُوا بأنّا مُسْلمُونَ ﴾ وأول سورة تنزيل الكتاب ، وآخرها . وأول سورة المؤمن ، ووسطها ، وآخرها . وأول سورة الأعراف ، وآخرها . وأول سورة المؤمن ، ووسطها ، وآخرها . وأول سورة الأعراف ، وآخرها . وجملة سورة الأنعام ، وغالب سور القرآن . بل كل سورة فى القرآن فهى متضمنة لنوعى التوحيد ، شاهدة به داعية إليه .

فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله ، فهو التوحيد العلمى الخبرى وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخَلْعُ ما يعبد من دونه ؛ فهو التوحيد الإرادى الطلبى. وإما أمر ونهى ، وإلزام بطاعته وأمره ونهيه ؛ فهو حقوق التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما فعل بهم فى الدنيا وما يكرمهم به فى الآخرة ، فهو جزاء توحيده ، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم فى الدنيا من النكال وما يَحُلّ بهم فى العُقْبَى من العذاب . فهو جزاء منْ خَرج عن حكم التوحيد . فالقرآن كله فى التوحيد وحقوقه وجزائه وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم . انتهى .

قال شيخ الإسلام : التوحيد الذى جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده بأن

يشهد أن لا إله إلا الله : لا يعبد إلا إياه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يوالى إلا له ، ولا يعادى إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله. وذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات .

قال تعالى (٢ : ١٦٣) : ﴿ وَإلهكُمْ إلَهٌ واحدٌ لا إله إلا هُو الرَّحمنُ الرَّحيم ﴾ ، وقال تعالى (١٦ : ٥١) : ﴿ وقالَ اللهُ : لا تتّخذوا إلهين اثْنَين إنّما هو إلهٌ واحدٌ فإيّاىَ فارْهبُون﴾ وقال تعالى (٢٣ : ١١٧) : ﴿ ومنْ يدعُ مَع الله إلهاً آخر لا برهانَ له به فإنما حسابُه عند ربِّه إنه لا يُفلحُ الكافرون ﴾ ، وقال تعالى (٤٣ : ٤٥) : ﴿ واسْأل منْ أرْسلنا منْ قَبلكَ منْ رُسُلنا : أجَعَلْنا منْ دُون الرّحمن آلهةً يُعْبدُون ؟ ﴾ وأخبر عن كل نبى من الأنبياء أنهم دعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وقال (٦٠ : ٤) : ﴿ قَدْ كانتْ لكم أُسْوَةٌ حسنةٌ فى إبراهيمَ وَالّذين معهُ ؛ إذْ قالوا لقَوْمهم : إنّا بُرآءُ منكم ومما تعْبدُونَ منْ دُون الله . كَفَرْنا بكم وبَدَا بيننا وبينكُمُ العداوةُ والبغضاءُ أبداً حتى تُؤْمنوا بالله وحده ﴾ وقال عن المشركين (٣٧: ٣٥ ، ٣٦) : ﴿ إنهم كانوا إذا قيلَ لهم : لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعرٍ مجنون ﴾ وهذا فى القرآن كثير .

وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية . وهو اعتقاد : أن الله وحده خلق العالم ؛ كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف . ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد . وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه ، فقد فنوا فى غاية التوحيد فإن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ، ونزّهه عن كل ما يُنزّه عنه ، وأقرّ بأنه وحده خالق كل شىء : لم يكن موحداً حتى يشهد أن لا إله إلا الله وحده . فيقرّ بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة . ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له . و« الإله » هو المألوه المعبود الذى يستحق العبادة . وليس هو الإله بمعنى القادر على الاختراع . فإذا فَسّر المفسر « الإله » بمعنى القادر على الاختراع ، واعتقد أن هذا المعنى هو أخص وصف الإله . وجعل إثبات هذا هو الغاية فى التوحيد - كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية . وهو الذى يقولونه عن أبى الحسن وأتباعه - لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذى بعث الله به رسوله ﷺ . فإن مشركى العرب كانوا مقرّين بأن الله وحده خالقُ كل شىء ، وكانوا مع هذا مشركين . قال تعالى (١٢: ١٠٦): ﴿ وَما يؤْمنُ أكثرهُمْ بالله إلا وَهُمْ مُشركون ﴾ قال طائفة من السلف: «تسألهم: من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون : الله . وهم مع هذا يعبدون غيره » [1] قال تعالى (٢٣: ٨٤ - ٨٩) : ﴿ قُلْ لمن الأرضُ ومنْ فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله * قل : أفلا تَذَكَّرُونَ ؟ قل : منْ رَبُّ السمواتِ السبع وربُّ العرش العظيم ؟ سيقولون : لله * قلْ :

(١) ذكره ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والشعبى وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

أفلا تتقون ؟ قلْ : منْ بيده ملَكُوتُ كلِّ شيء وهو يُجيرُ ولا يُجارُ عَلَيْه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله * قل : فأنّى تُسْحَرُون ؟ ﴾ فليس كل من أقرَّ بأن الله تعالى ربُّ كل شيء وخالقه يكون عابداً له . دون ما سواه داعياً له دون ما سواه راجياً له خائفاً منه دون ما سواه . . يُوالى فيه ويعادى فيه . ويطيع رسله ، ويأمر بما أمر به . وينهى عما نهى عنه : وعامّةُ المشركين أقرُّوا بأن الله خالق كل شيء . وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به . وجعلوا له أنداداً . قال تعالى (٣٩ : ٤٣ ، ٤٤) : ﴿ أم اتّخَذُوا من دون الله شُفعاء ؟ قل : أولَوْ كانوا لا يملكون شيئاً ولا يَعْقلون ؟ قل : لله الشفاعةُ جميعاً ، له ملك السموات والأرض ثُم إلَيْه تُرْجَعُون ﴾ وقال تعالى (١٠ : ١٨) : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرُّهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل : أتنبِّئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ وقال تعالى (٦ : ٩٤) : ﴿ ولقَدْ جئتُمونا فُرادَى كما خلقناكم أولَ مَرة وتركتُمْ ما خولّنا كم وراء ظُهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زَعَمْتم أنهم فيكم شركاءَ لقد تقطَّع بينكم وضلَّ عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ وقال تعالى (٢ : ١٦٥) : ﴿ ومنَ الناس مَنْ يتخذ من دون الله أنداداً يحبُّونهم كحبِّ الله ﴾ ولهذا كان من أتباع هؤلاء [1] من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها . ويصوم وينسك لها ويتقرب إليها [1] ثم يقول : إن هذا ليس بشرك . إنما الشرك إذا اعتقدت أنها المدبرة لى . فإذا جعلتها سبباً وواسطة لم أكن مشركاً . ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك . انتهى كلامه .

قوله : وقول الله تعالى (٥١ : ٥٦) : ﴿ وما خلقتُ الجنّ والإنس إلا ليعبدون ﴾ بالجر عطف على التوحيد . ويجوز الرفع على الابتداء .

قال شيخ الإسلام : العبادة هى طاعة الله بامتثال ما أمر الله به على ألسنة الرسل .

وقال أيضاً : العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

قال ابن القيم : ومدارها على خمس عشرة قاعدة . من كملها كمل مراتب العبودية .

وبيان ذلك : أن العبادة منقسمة على القلب واللسان والجوارح . والأحكام التى للعبودية خمسة : واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح . وهنّ لكل واحد من القلب واللسان والجوارح .

وقال القرطبى : أصل العبادة التذلل والخضوع . وسُمِّيت وظائف الشرع على المكلفين عبادات . لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى .

---

(١) أى ممن يزعمون معرفة التوحيد على هذا المعنى . ككثير ممن ينتسبون إلى الإسلام ، ويشتغل بالسحر الذى هو عبادة الكواكب والشياطين بأنواع العزائم والبخور وذبح الحيوان الأسود أو الأحمر ، وغير ذلك مما سيأتى تفصيله .

(٢) أى يذبح لها الذبائح ، ويصنع الأطعمة ، كما يفعل الحاج لبيت الله من المناسك .

ومعنى الآية : أن الله تعالى أخبر أنه ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته . فهذا هو الحكمة فى خلقهم .

قلت : وهى الحكمة الشرعية الدينية .

قال العماد ابن كثير : وعبادته هى طاعته بفعل المأمور وترك المحظور . وذلك هو حقيقة دين الإسلام لأن معنى الإسلام : الاستسلام لله تعالى ، المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع . انتهى .

وقال أيضاً فى تفسير هذه الآية : ومعنى الآية : أن الله خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له . فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء . ومن عصاه عذبه أشد العذاب . وأخبر أنه غير محتاج إليهم . بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم وهو خالقهم ورازقهم . وقال عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى الآية : « إلا لآمرهم أن يعبدونى وأدعوَهم إلى عبادتى » وقال مجاهد: « إلا لآمرهم وأنهاهم » اختاره الزجاج وشيخ الإسلام . قال : ويدل على هذا قوله (٧٥ : ٣٦) : ﴿ أيحسبُ الإنسان أن يتركَ سُدًى ؟ ﴾ قال الشافعى : « لا يؤمر ولا ينهى » وقال فى القرآن فى غير موضع : ﴿ اعبدوا ربكم ﴾ ، ﴿ اتقوا ربَكم ﴾ فقد أمرهم بما خلقوا له. وأرسل الرسل بذلك . وهذا المعنى هو الذى قصد بالآية قطعاً ؛ وهو الذى يفهمه جماهير المسلمين ويحتجون بالآية عليه .

قال : وهذه الآية تشبه قوله تعالى (٤ : ٦٤) : ﴿ وما أرْسلنا من رسولٍ إلا لِيطاعَ بإذْنِ الله ﴾ ثم قد يطاع وقد يعصى . وكذلكَ ما خلقهم إلا لعبادته . ثم قد يَعبدونَ وقد لا يعبدونَ وهو سبحانه لم يقل : إنه فعلَ الأول . وهو خَلقهم . ليفعل بهم كلهم . الثانى : وهو عبادته ولكن ذكر أنه فعل الأول ليفعلوا هم الثانى . فيكونوا هم الفاعلين له . فيحصل لهم بفعله سعادتهم ، ويحصل ما يحبه ويرضاه منه ولهم . انتهى .

ويشهد لهذا المعنى : ما تواترت به الأحاديث .

فمنها : ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً : لو كانت لك الدنيا وما فيها ومثلها معها أكنت مفتدياً بها ؟ فيقول : نعم . فيقول : قد أردتُ منك أهون من هذا وأنت فى صلب آدم. أن لا تشرك - أحسبه قال : ولا أدخلك النار - فأبيت إلا الشرك » [1] فهذا المشرك قد خالف ما أراده الله تعالى منه : من توحيده وأن لا يشرك به شيئاً . فخالف ما أراده الله منه فأشرك به غيره . وهذه هى الإرادة الشرعية الدينية كما تقدم .

فبين الإرادة الشرعية الدينية والإرادة الكونية القدرية عموم وخصوص مطلق . يجتمعان فى حق المخلص المطيع . وتنفرد الإرادة الكونية القدرية فى حق العاصى . فافهم ذلك تنجُ من جهالات أرباب الكلام وتابعيهم .

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخارى .

وقوله (١٦ : ٣٦) : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنا فى كلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً : أَنِ اعْبُدُوا اللهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ .

قال : وقوله (١٦ : ٣٦) : ﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ الطاغوت : مشتق من الطغيان ، وهو مجاوزة الحدّ . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : «الطاغوت : الشيطان» [1] . وقال جابر رضى الله عنه : «الطاغوت : كهان كانت تنزل عليهم الشياطين » رواهما ابن أبى حاتم . وقال مالك : « الطاغوت : كل ما عُبد من دون الله » .

قلت : وذلك المذكور بعضُ أفراده ، وقد حدّه العلامة ابن القيم حداً جامعاً فقال : الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده : من معبود أو متبوع أو مطاع . فطاغوت كل قوم : من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله . فهذه طواغيت العالم . إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت ، وعن طاعة رسول الله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته .

وأما معنى الآية : فأخبر تعالى أنه بعث فى كل طائفة من الناس رسولاً بهذه الكلمة : ﴿أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ أى : اعبدوا الله وحده واتركوا عبادة ما سواه ، كما قال تعالى (٢ : ٢٥٦) : ﴿ فمنْ يكْفُرْ بالطاغوت ويؤمنْ بالله فقد استمسكَ بالعرْوة الوُثقى لا انفصام لها ﴾ وهذا معنى « لا إله إلا الله » فإنها هى العروة الوثقى .

قال العماد ابن كثير فى هذه الآية : وكلهم - أى الرسل - يدعو إلى عبادة الله ، وينهى عن عبادة ما سواه . فلم يزل - سبحانه - يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك فى بنى آدم فى قوم نوح الذين أرسل إليهم ، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ ، الذى طبقت دعوته الإنس والجن فى المشارق والمغارب ، وكلهم كما قال الله تعالى (٢١ : ٢٥) : ﴿ وما أرْسلنا من قبلكَ من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ؟ ﴾ فمشيئة الله تعالى الشرعية عنهم منفية ؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسن رسله ، وأما مشيئته الكونية - وهى تمكينهم من ذلك قدراً - فلا حجة لهم فيها ، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة ، وهو لا يرضى لعباده الكفر وله فى ذلك

---

(١) ذكره ابن كثير عن حسان بن فائد العبيسى عن عمر قال : « إن الجبت السحر ، والطاغوت الشيطان . وإن الشجاعة والجبن تكون غرائز فى الرجال إلخ » قال الحافظ : ومعنى قوله فى الطاغوت : « إنه الشيطان » قوى جداً ، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان ، والتحاكم إليها ، والاستنصار بها . وكذلك رواه ابن جرير .

وقوله : (١٧ : ٢٣ ، ٢٤) ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ ألا تَعْبُدُوا إلا إيَّاهُ وبالْوَالدَيْنِ إحْسَاناً ، إمَّا يَبْلُغَنَّ عنْدَكَ الْكبرَ أحَدُهُمَا أوْ كلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا : أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَما رَبَّيانى صَغيرًا ﴾ .

الحجة البالغة والحكمة القاطعة ، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة فى الدنيا بعد إنذار الرسل ، فلهذا قال (١٦ : ٣٦) : ﴿ فمنهم منْ هدَى اللهُ ومنهم من حقتْ عليه الضلالة ﴾ انتهى .

قلت : وهذه الآية تفسير الآية التى قبلها . وذلك قوله : ﴿ فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ فتدبر .

ودلت هذه الآية على أن الحكمة فى إرسال الرسل : دعوتهم أممهم إلى عبادة الله وحده ، والنهى عن عبادة ما سواه ، وأن هذا هو دين الأنبياء والمرسلين ، وإن اختلفت شريعتهم . كما قال تعالى (٥ : ٤٨) : ﴿ لكلٍّ جعلنا منكم شرْعة ومنهاجاً ﴾ وأنه لا بد فى الإيمان من عمل القلب والجوارح .

قال : وقوله تعالى (١٧ : ٢٣) : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾.

قال مجاهد : (قضى) يعنى : وصى . وكذا قرأ أُبَىّ بن كعب وابنُ مسعود وغيرهم . ولابن جرير عن ابن عباس ﴿ وقضى ربك ﴾ يعنى : أمر .

وقوله تعالى : ﴿ ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ المعنى : أن تعبدوه وحده دون ما سواه ، وهذا معنى « لا إله إلا الله » .

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - : والنفى المحض ليس توحيداً . وكذلك الإثبات بدون النفى. فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفى والإثبات . وهذا هو حقيقة التوحيد .

وقوله : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ أى : وقضى أن تحسنوا بالوالدين إحساناً ، كما قضى بعبادته وحده لا شريك له . كما قال تعالى فى الآية الأخرى (٣١ : ١٤) : ﴿ أن اشْكر لى ولوالديك إلىَّ المصير ﴾ .

وقوله : ﴿ إما يبلغن عندك الكبر ، أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما ﴾ أى : لا تسمعهما قولاً سيئاً ، حتى ولا التأفيف الذى هو أدنى مراتب القول السيئ ، ﴿ ولا تنهرهما ﴾ أى : لا يصدر منك إليهما فعل قبيح ، كما قال عطاء بن أبى رباح : « لا تنفض يديك عليهما » .

ولما نهاه عن الفعل القبيح والقول القبيح أمره بالفعل الحسن والقول الحسن ، فقال : ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ أى : ليناً طيباً بأدبٍ وتوقير . وقوله : ﴿ واخفض لهما جناح الذُّلِّ من الرحمة ﴾ أى : تواضع لهما ، ﴿ وقلْ : ربِّ ارحمهما ﴾ أى : فى كبرهما وعند وفاتهما ﴿كما ربيانى صغيراً ﴾ وقد ورد فى برِّ الوالدين أحاديث كثيرة . منها : الحديث المروى من

طُرق عن أنس وغيره : « أن رسول الله ﷺ لما صعد المنبر قال : آمين، آمين ، آمين . فقالوا: يا رسول الله ، على ما أمّنت ؟ قال : أتانى جبريل فقال : يا محمد ، رَغِمَ أنفُ امرىء ذُكرتَ عنده فلم يصلِّ عليك ، قل : آمين ، فقلت : آمين ، ثم قال : رغم أنفُ امرىء دخل عليه شهر رمضان ، ثم خرج ولم يغفر له ، قل : آمين ، فقلت : آمين ، ثم قال : رغم أنفُ امرىء أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، قل : آمين ، فقلت : آمين » [١] ، وروى الإمام أحمد من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ : « رغم أنف ، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه - أحدهما أو كلاهما - لم يدخل الجنة » قال العماد ابن كثير : صحيح من هذا الوجه ، وعن أبى بكْرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس ، فقال : ألا وقولُ الزور ، ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليتهُ سكتَ » رواه البخارى ومسلم . وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « رضَى الربِّ فى رضى الوالدين ، وسخطه فى سخط الوالدين » رواه الترمذى ، وصححه ابن حبان والحاكم . وعن أبى أسيد الساعدى - رضى الله عنه - قال: بينا نحن جلوس عند النبى ﷺ: إذ جاءه رجل من بنى سَلِمة فقال : يا رسول الله ، هل بقى من برِّ أبوى شىء أبرُّهما به بعد موتهما ؟ فقال : نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما » رواه أبو داود وابن ماجه. والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة جداً .

وقوله (٤ : ٣٦) : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴾ [٢] قال العماد ابن كثير - رحمه

---

(١) أخرجه عن أنس : ابن أبى شيبة والبزار فى مسنديهما من طريق سلمة بن وردان عنه ، وسلمة ضعيف . ورواه الحاكم فى المستدرك وقال : صحيح الإسناد . وابن حبان فى ثقاته وصحيحه ، والطبرانى فى الكبير ، والبخارى فى بر الوالدين ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، والضياء المقدسى فى المختاره ، كلهم عن كعب بن عجرة ، ورجاله ثقات . وأخرجه ابن حبان فى الصحيح والثقات والطبرانى ورجاله ثقات عن مالك بن الحويرث ، ورواه البخارى فى الأدب المفرد والطبرانى فى تهذيبه والدارقطنى فى الأفراد . وأشار إليه الترمذى وأخرجه النسائى وابن السنى فى اليوم والليلة والضياء المقدسى فى المختارة ، كلهم عن جابر بن عبد الله . وأخرجه البزار والطبرانى عن عمار بن ياسر . وأخرجه البزار عن ابن مسعود وأخرجه الطبرانى عن ابن عباس وأبى ذر . وأخرجه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما عن أبى هريرة وهو عند البيهقى فى الدعوات مختصراً . وعند الترمذى وأحمد وقال الترمذى : حسن غريب . وأخرجه الدارقطنى فى الأفراد والبزار فى مسنده والطبرانى فى الكبير عن جابر بن سمرة وأخرجه البزار والطبرانى وابن أبى عاصم عن عبد الله بن الحرث بن جزء الزبيدى .

(٢) قال فى قرة العيون : وهذه الآية تبين العبادة التى خلقوا لها أيضاً فإنه تعالى قرن الأمر بالعبادة التى فرضها بالنهى عن الشرك الذى حرمه وهو الشرك فى العبادة فدلت هذه الآية على أن اجتناب الشرك شرط فى صحة العبادة =

الله - فى هذه الآية : يأمر الله تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له ، فإنه الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه فى جميع الحالات ، وهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته . انتهى .

وهذه الآية هى التى تسمى آية الحقوق العشرة ، وفى بعض النسخ المعتمدة من نسخ هذا الكتاب تقديم هذه الآية على آية الأنعام ، ولهذا قدمتها لمناسبة كلام ابن مسعود الآتى لآية الأنعام ، ليكون ذكره بعدها أنسب .

وقوله تعالى (٦ : ١٥١ - ١٥٣) : ﴿ قل : تعالَوْا أتلُ ما حرّمَ ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ﴾ [1] الآيات .

= فلا تصح بدونه أصلاً كما قال تعالى : ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ [٦ : ٨٨] ، وقال تعالى: ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ [٣٩ : ٦٥ ، ٦٦] ، فتقديم المعمول يفيد الحصر أى بل الله فاعبده وحده لا غيره كما فى فاتحة الكتاب : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وقرر تعالى هذا التوحيد بقوله : ﴿ قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ [٣٩ : ١١] ، والدين هو العبادة بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ، كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

والأمر والنهى الذى هو دينه وجـــزاؤه يوم المعاد الثانى

وتقدم أن أصله وأساسه توحيد العبادة فلا تغفل عما تقدم .

(١) فى قرة العيون : وقد وقع الأكثر من متأخرى هذه الأمة فى هذا الشرك الذى هو أعظم المحرمات ؛ كما وقع فيه أهل الجاهلية قبل مبعث النبى ﷺ ، عبدوا القبور والمشاهد والأشجار والأحجار والطواغيت والجن ، كما عبد أولئك اللات والعزى ومناة وهبل وغيرها من الأصنام والأوثان ، واتخذوا هذا الشرك ديناً ، ونفروا إذا دعو إلى التوحيد أشد نفرة ؛ واشتد غضبهم لمعبوداتهم كما قال تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ [٣٩ : ٤٥] ، وقال تعالى : ﴿ وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفوراً ﴾ [١٧ : ٤٦] ، وقال : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ [٣٧ : ٣٥ ، ٣٦] علموا أن لا إله إلا الله تنفى الشرك الذى وقعوا فيه، وأنكروا التوحيد الذى دلت عليه . فصار أولئك المشركون أعلم بمعنى هذه الكلمة « لا إله إلا الله » من أكثر متأخرى هذه الأمة لا سيما أهل العلم منهم ، الذين لهم دراية فى بعض الأحكام وعلم الكلام ؛ فجهلوا توحيد العبادة فوقعوا فى الشرك المنافى له وزينوه ، وجهلوا توحيد الأسماء والصفات وأنكروه ؛ فوقعوا فى نفيه أيضاً . وصنفوا فيه الكتب ، لاعتقادهم أن ذلك حق وهو باطل ، وقد اشتدت غربة الإسلام حتى عاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، فنشأ على هذا الصغير ، وهرم عليه الكبير . وقد قال النبى ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ » وقد قال ﷺ : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة ، قالوا : ومن هى يا رسول الله ؟ قال : من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابى » وهذا الحديث قد صح من طرق كما ذكره العماد ابن كثير وغيره من الحفاظ ، وهو فى السنن وغيرها . ورواه محمد بن نصر فى كتاب الاعتصام ، وقد وقع ما أخبر به النبى ﷺ بعد القرون الثلاثة . =

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾
﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ

قال العماد ابن كثير – رحمه الله – : يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ : ﴿ قل ﴾ لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ، وحرموا ما رزقهم الله ﴿ تعالوا ﴾ أى : هلموا وأقبلوا ﴿ أتل﴾ أقص عليكم ﴿ ما حرم ربكم عليكم ﴾ حقاً ، لا تخرُّصاً ولا ظناً ، بل وحياً منه وأمراً من عنده ﴿ ألا تشركوا به شيئاً ﴾ وكأن فى الكلام محذوفاً دل عليه السياق ، تقديره : وصاكم أن لا تشركوا به شيئاً ، ولهذا قال فى آخر الآية : ﴿ ذلكم وصاكم به ﴾ ا هـ .

قلت : فيكون المعنى : حرّم عليكم ما وصاكم بتركه من الإشراك به . وفى المغنى لابن هشام فى قوله تعالى: ﴿ ألا تشركوا به شيئاً ﴾ سبعة أقوال ، أحسنها : هذا الذى ذكره ابن كثير ، ويليه : بيّن لكم ذلك لئلا تشركوا ، فحذفت الجملة من أحدهما ، وهى ﴿ وصاكم ﴾ وحرف الجر وما قبله من الأخرى . ولهذا إذا سئلوا عما يقول لهم رسول الله ﷺ قالوا : يقول : «اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم » كما قال أبو سفيان لهرقل [1] وهذا هو الذى فهمه أبو سفيان وغيره من قول رسول الله ﷺ لهم: «قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» .

وقوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ قال القرطبى : الإحسان إلى الوالدين : برهما وحفظهما وصيانتهما ، وامتثال أمرهما ، وإزالة الرق عنهما ، وترك السلطنة عليهما . و«إحساناً» نصب على المصدرية ، وناصبه فعل من لفظه، تقديره : وأحسنوا بالوالدين إحساناً.

وقوله : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ الإملاق : الفقر ، أى : لا تئدوا بناتكم خشية العيلة والفقر ؛ فإنى رازقهم وإياكم ، وكان منهم من يفعل ذلك بالذكور خشية الفقر ، ذكره القرطبى . وفى الصحيحين عن ابن مسعود – رضى الله عنه – « قلت : يا رسول الله ، أىُّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قلت : ثم أىُّ ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يَطعَم معك . قلت : ثم أىَ ؟ قال : أن تزانى بحليلة جارك . ثم تلا رسول الله ﷺ (٢٥ : ٦٨ - ٧٠) : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يَلْقَ أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً . إلا من تاب وآمن وعملاً عملاً صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ » .

= فلهذا عم الجهل بالتوحيد الذى هو أصل دين الإسلام ؛ فإن أصله أن لا يعبد إلا الله وأن لا يعبد إلا بما شرع ، وقد ترك هذا وصارت عبادة الأكثرين مشوبة بالشرك والبدع ، ولكن الله تعالى وله الحمد لم يخل الأرض من قائم له بحججه ، وداع إليه على بصيرة ، لكيلا تبطل حجج الله وبيناته التى أنزلها على أنبيائه ورسله ؛ فله الحمد والشكر على ذلك .

(١) رواه البخارى فى بدء الوحى ، فى حديث أبى سفيان الطويل .

وَلا تقربُوا الفَواحش ما ظَهَرَ منها وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إلا بالْحقِّ * ذَلكُم وَصَّاكُم بِه لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ ، وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتيم إلا بالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حتَى يَبْلُغَ أَشَدَّه ، وأوْفُوا الْكَيْلَ والميزَانَ بالْقِسْط لا نُكلِّفُ نَفْساً إلا وُسْعها . وإذَا قُلْتم فاعْدلوا ولَو كانَ ذَا قُربَى ، وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلكم وصّاكم بِهِ لَعَلَّكم تَذَكَّرُونَ ،

وقوله : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ قال ابن عطية : نهىٌ عام عن جميع أنواع الفواحش ، وهى المعاصى . و« ظهر » و« بطن » حالتان تستوفيان أقسام ما جلتا له من الأشياء . انتهى .

وقوله : ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ فى الصحيحين : عن ابن مسعود – رضى الله عنه – مرفوعاً : « لا يحلُّ دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيّبُ الزانى ، والنفسُ بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

وقوله : ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ قال ابن عطية : « ذلكم » إشارة إلى هذه المحرمات ، والوصية الأمر المؤكد المقرر .

وقوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ (لعل) للتعليل : أى إن الله تعالى وصانا بهذه الوصايا لنعقلها عنه ونعمل بها . وفى تفسير الطبرى الحنفى : ذكر أولاً « تعقلون » ثم « تذكرون » ثم « تتقون » لأنهم إذا عقلوا تذكروا ، فإذا تذكروا خافوا واتقوا .

وقوله : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ﴾ قال ابن عطية : هذا نهىٌ عام عن القرب الذى يعمُّ وجوه التصرف ، وفيه سد الذريعة . ثم استثنى ما يحسن وهى السعى فى نمائه ، قال مجاهد : « التى هى أحسن : التجارة فيه » .

وقوله : ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ قال مالك وغيره : هو الرشد وزوال السفه مع البلوغ ، وروى نحو هذا عن زيد بن أسلم والشعبى وربيعة وغيرهم .

وقوله : ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ قال ابن كثير : يأمر تعالى بإقامة العدل فى الأخذ والإعطاء ، ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ أى : من اجتهد بأداء الحق وأخذه ، فإن أخطأ بعد استفراغ الوسع وبذل جهده فلا حرج عليه .

وقوله : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ هذا أمر بالعدل فى القول والفعل على القريب والبعيد . قال الحنفى : العدل فى القول فى حق الولى والعدو لا يتغير فى الرضى والغضب ، بل يكون على الحق وإن كان ذا قربى ، فلا يميل إلى الحبيب والقريب ، (٥ :٨) ﴿ ولا يَجرمنكم شَنَآنُ قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .

وقوله : ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ قال ابن جرير : وبوصية الله تعالى التى وصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك . بأن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم عنه ، وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله ﷺ ، وذلك هو الوفاء بعهد الله ، وكذا قال غيره .

وأَنَّ هَذَا صراطى مُستقيماً فاتَّبعوهُ وَلا تَتَّبعوا السُّبُلَ فتفرّقَ بِكُم عَن سَبِيلِه ، ذلكم وَصَّاكم بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقون ﴾ .

وقوله : ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه .

وقوله : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ قال القرطبى : هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم ؛ فإنه نهى وأمر وحذّر عن اتباع غير سبيله على ما بينته الأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف ، و« أنَّ » فى موضع نصب : أي . أتلوا أنَّ هذا صراطى ، عن الفراء والكسائى ، ويجوز أن يكون خفضاً : أى وصاكم به وبأن هذا صراطى، قال : والصراط : الطريق الذى هو دين الإسلام . « مستقيماً » نصب على الحال ، ومعناه : مستوياً قيِّماً لا اعوجاج فيه ، فأمر باتباع طريقه الذى طَرّقه على لسان محمد ﷺ وشرعه ، ونهايته الجنة ، وتشعبت منه طرق ، فمن سلك الجادّة نجا ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار . قال الله تعالى : ﴿ ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ أى : تميل. انتهى .

وروى الإمام أحمد والنسائى والدارمى وابن أبى حاتم والحاكم - وصححه - عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « خط رسول الله ﷺ خطاً بيده . ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ، ثم قال : وهذه السبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل - الآية ﴾ » وعن مجاهد : ﴿ ولا تتبعوا السبل ﴾ قال : « البدع والشهوات » .

قال ابن القيم - رحمه الله - : ولنذكر فى الصراط المستقيم قولاً وجيزاً ، فإن الناس قد تنوعت عباراتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته ، وحقيقته شىء واحد ، وهو طريق الله الذى نصبه لعباده موصلاً لهم إليه ، ولا طريق إليه سواه ، بل الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذى نصبه على ألسُن رسله ، وجعله موصلاً لعباده إليه ، وهو إفراده بالعبادة ، وإفراد رسله بالطاعة ، فلا يشرك به أحداً فى عبادته ، ولا يشرك برسوله ﷺ أحداً فى طاعته . فيجرد التوحيد ، ويجرد متابعة الرسول ﷺ ، وهذا كله مضمون « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » فأى شىء فسّر به الصراط المستقيم فهو داخل فى هذين الأصلين . ونكتة ذلك أن تحبه بقلبك ، وتُرضيه بجهدك كله ، فلا يكون فى قلبك موضع إلا معموراً بحبه ، ولا يكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته . فالأول يحصل بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، والثانى يحصل بتحقيق شهادة أن محمداً رسول الله . وهذا هو الهدى ودين الحق ، وهو معرفة الحق والعمل به ، وهو معرفة ما بعث الله به رسوله والقيام به ، وقل ما شئت من العبارات التى هذا آخِيَّتها [1] وقطب رحاها . قال : وقال سهل بن عبد الله : عليكم بالأثر

---

(١) الآخية - بالمد والتشديد - حبيل ، أو عويد يعرض فى الحائط ويدفن طرفاء فيه ويصير طرفه كالعروة تشد فيها الدابة ، وجمعها الأواخى .

قال ابن مسعود : « من أراد أن ينظرَ إلى وَصيَّة محمد ﷺ التى عليها خاتَمُه فَليقرأ قوله تعالى : ﴿ قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئاً ﴾ إلى قوله: ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً ﴾ - الآية .

وعن مُعاذِ بن جبلٍ رضى الله عنه قال : « كنتُ رَديفَ النبىِّ ﷺ على حمارٍ، فقال

والسنة، فإنى أخاف ؛ إنه سيأتى عن قليل زمان إذا ذكر إنسان النبى ﷺ ، والاقتداء به فى جميع أحواله ذمُّوه ونفّروا عنه وتبرأُوا منه وأذلوه وأهانوه . ا هـ .

قوله : قال ابن مسعود : « من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التى عليها خاتمة فليقرأ : ﴿ قل : تعالوا أتْلُ ما حرم ربكم عليكم ﴾ إلى قوله : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ﴾ - الآية » .

قوله : « ابن مسعود » هو عبد الله بن مسعود بن غافل - بمعجمة وفاء - ابن حبيب الهذلى أبو عبد الرحمن ، صحابى جليل من السابقين الأولين ، وأهل بدر وأُحُد والخندق وبَيعة الرضوان ، ومن كبار علماء الصحابة . أَمَّره عمر على الكوفة ، ومات سنة اثنتين وثلاثين رضى الله عنه .

وهذا الأثر رواه الترمذى وحسنه ، وابْن المنذر ، وابن أبى حاتم والطبرانى بنحوه ، وقال بعضهم : معناه من أراد أن ينظر إلى الوصية التى كأنها كتبت وخُتم عليها فلم تُغَيَّر ولم تبدَّل فليقرأ : ﴿ قل تعالوا - إلى آخر الآيات ﴾ شبهها بالكتاب الذى كتب ثم ختم فلم يزد فيه ولم ينقص ، فإن النبى ﷺ لم يوص إلا بكتاب الله ، كما قال فيما رواه مسلم : « وإنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله » وقد روى عُبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « أيُّكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث ؟ ثم تلا قوله : ﴿ قل : تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم ﴾ حتى فرغ من الثلاث الآيات ثم قال : ومن وفَى بهن فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله : إن شاء آخذه وإن شاء عفا عنه » رواه ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، ومحمد ابن نصر فى الاعتصام .

قلت : ولأن النبى ﷺ لم يوص أمته إلا بما وصاهم الله تعالى به على لسانه . وفى كتابه الذى أنزله (١٦ : ٨٩) : ﴿ تبياناً لكلِّ شىء ، وَهُدًى ورحمةً وَبُشْرَى للمسلمين ﴾ وهذه الآيات وصية الله تعالى ، ووصية رسوله ﷺ .

قوله : وعن مُعاذِ بن جبلٍ قال : « كنتُ رَديفَ النبى ﷺ على حمار ، قال لى : يا معاذ ، أتدرى ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على العباد : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً . قلت : يا رسول الله ، أفلا أبَشِّر الناس ؟ قال : لا تبشرهم فَيَتَّكلوا » أخرجاه فى الصحيحين .

لى : يا معاذُ ، أتدرِى ما حقُّ اللهِ على العبادِ ؟ وما حقُّ العبادِ على اللهِ ؟

هذا الحديث فى الصحيحين من طرق ، وفى بعض رواياته نحو مما ذكره المصنف .

و« معاذ بن جبل » - رضى الله عنه - : هو ابن عمرو بن أوس الأنصارى الخزرجى أبو عبد الرحمن ، صحابى مشهور من أعيان الصحابة ، شهد بدراً وما بعدها . وكان إليه المنتهى فى العلم والأحكام والقرآن رضى الله عنه ، وقال النبى ﷺ : « معاذ يحشر يوم القيامة أمام العلماء برَتوة » [1] أى : بخطوة ، قال فى القاموس : والرَّتْوَة : الخطوة وشرفٌ من الأرض ، وسُويعة من الزمان . والدعوة ، والفطرة ، ورمية بسهم ، أو نحو مِيل أو مَدَى البصر . والراتى : العالم الربانى . انتهى . وقال فى النهاية : إنه يتقدم العلماء برتوة . أى : برمية سهم . وقيل : بميل . وقيل : مَدّ البصر . وهذه الثلاثة أشبه بمعنى الحديث .

مات معاذ سنة ثمان عشرة بالشام فى طاعون عِمْواس . وقد استخلفه النبى ﷺ على أهل مكة يوم الفتح يعلمهم دينهم .

قوله : « كنت رديف النبى ﷺ » فيه : جواز الإرداف على الدابة وفضيلة معاذ - رضى الله عنه - .

قوله : « على حمار » فى رواية اسمه « عُفَير » قلت : أهداه إليه المقوقس صاحب مصر .

وفيه : تواضعه ﷺ لركوب الحمار والإرداف عليه ، خلافاً لما عليه أهل الكبر .

قوله : « أتدرى ما حق الله على العباد ؟ » أخرج السؤال بصيغة الاستفهام ؛ ليكون أوقع فى النفس ، وأبلغ فى فهم المتعلم . « وحق الله على العباد » هو ما يستحقه عليهم . « وحق العباد على الله » معناه : أنه متحقق لا محالة ؛ لأنه قد وعدهم ذلك جزاء لهم على توحيده ، (٣٠ : ٦) ﴿ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَه ﴾ .

قال شيخ الإسلام : كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل ، ليس هو استحقاق مقابلة ، كما يستحق المخلوق على المخلوق ، فمن الناس من يقول : لا معنى للاستحقاق إلا أنه أخبر بذلك ووعده صدق ، ولكن أكثر الناس يثبتون استحقاقاً زائداً على هذا، كما دل عليه الكتاب والسنة . قال تعالى (٣٠ : ٤٧) : ﴿ وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين ﴾ لكن أهل السنة يقولون : هو الذى كتب على نفسه الرحمة ، وأوجب على نفسه الحق ، لم يوجبه عليه مخلوق . والمعتزلة يدعون أنه واجب عليه بالقياس على المخلوق ، وأن العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطيعين له ، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون هو الموجب ، وغلطوا فى ذلك . وهذا الباب غلطت فيه الجبرية ، والقدرية أتباع جهم ، والقدرية النافية .

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الإصابة : أخرجه محمد بن عثمان بن أبى شيبة فى تاريخه من مرسل أبى عون الثقفى ، أورده ابن عساكر فى تاريخ دمشق من طرق عن محمد بن الخطاب .

قلت : اللهُ ورسوله أعلم . قال : حقُّ الله على العباد : أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً وحقُّ العبادِ على الله : أنْ لا يُعذِّبَ من لا يُشْرِكَ به شَيئاً . قلت : يا رسولَ الله ،

قوله : « قلت : الله ورسوله أعلم » فيه حسن الأدب من المتعلم ، وأنه ينبغى لمن سئل عما لا يعلم أن يقول ذلك ، بخلاف أكثر المتكلفين .

قوله : « أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » أى : يوحدوه بالعبادة . ولقد أحسن العلامة ابن القيم - رحمه الله - حيث عرّف العبادة بتعريف جامع ، فقال :

وعبادة الرحـــمن : غاية حبه مع ذل عابده ، هما قطـــبان

وعليهمـــا فلك العبـــادة دائـر ما دار ، حتى قامت القطبان

ومداره بالأمر - أمر رسوله - لا بالهوى والنفس والشـيطان [1]

قوله : « ولا يشركوا به شيئاً » أى : يوحدوه بالعبادة ، فلا بد من التجرد من الشرك فى العبادة ، ومن لم يتجرد من الشرك لم يكن آتياً بعبادة الله وحده ، بل هو مشرك قد جعل لله نداً . وهذا معنى قول المصنف رحمه الله .

وفيه : أن العبادة هى التوحيد ؛ لأن الخصومة فيه ، وفى بعض الآثار الإلهية : « إنى والجن والإنس فى نبأ عظيم ، أخلق ويُعبد غيرى ، وأرزق ويُشكر سواى . خيرى إلى العباد نازل ، وشرهم إلىَّ صاعد أتحبب إليهم بالنعم ، ويتبغضون إلىَّ بالمعاصى » .

قوله : « وحق العباد على الله : أن لا يعذّب من لا يشرك به شيئاً » قال الحافظ : اقتصر على نفى الإشراك ؛ لأنه يستدعى التوحيد بالاقتضاء ، ويستدعى إثبات الرسالة باللزوم ، إذ من كذب رسول الله ﷺ فقد كذب الله ، ومن كذب الله فهو مشرك . وهو مثل قول القائل : من توضأ صحت صلاته ، أى : مع سائر الشروط . اهـ .

---

(١) فى قرة العيون :

حـق الله عـبادة بالأمـر لا بهوى النفوس فذاك الشيطان

من غير إشـراك به شيئاً هما سبب النجاة فحبذا السـببان

لم ينج من غضب الله وناره إلا الذى قامت به الأصـلان

والناس بعده مشـــرك بإلهه أو ذو ابتداع أوله الوصـفان

وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً ليس على الله حق واجب بالعقل كما تزعم المعتزلة . لكن هو سبحانه جعل ذلك على نفسه تفضلاً وإحساناً على الموحدين المخلصين الذين لم يلتفتوا فى إرادتهم ومهلتهم ورغباتهم ورهباتهم إلى حد سواه ، ولم يقربوا باباً يقولونه ويعملونه من الطاعات إلا إليه وحده ، والله أعلم .

أفلا أُبَشِّرُ الناسَ ؟ قال : لا تُبَشِّرهُمْ فَيَتَّكلُوا » أخرجاه فى الصحيحين .

فيه مسائلُ ، **الأولى** : الحكمةُ فى خلق الجنِّ والإنس .

الثانيةُ : أن العبادة هى التوحيدُ ، لأن الخصومة [1] فيه .

الثالثة : أن مَنْ لم يأتِ به لم يعْبدِ الله . ففيه معنى قوله : ﴿ وَلا أَنْتُمْ عابدُونَ ما أَعْبُدُ ﴾ .

الرابعة : الحكمةُ فى إرسال الرُّسل .

قوله : « أفلا أبشر الناس ؟ » فيه : استحباب بشارة المسلم بما يسره ، وفيه : ما كان عليه الصحابة من الاستبشار بمثل هذا . قاله المصنف - رحمه الله - .

قوله : « لا تبشرهم فيتكلوا » أى : يعتمدوا على ذلك فيتركوا التنافس فى الأعمال .

وفى رواية : « فأخبر بها معاذ عند موته تَأثماً » أى : تحرُّجاً من الإثم . قال الوزير أبو المظفر : لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة فى الطاعة ؛ فأما الأكياس الذين إذا سمعوا بمثل هذا زادوا فى الطاعة ، ورأوا أن زيادة النعم تستدعى زيادة الطاعة ، فلا وجه لكتمانها عنهم .

وفى الباب من الفوائد غير ما تقدم ؛ الحث على إخلاص العبادة لله ، وأنها لا تنفع مع الشرك ، بل لا تسمى عبادة ، والتنبيه على عظمة حق الوالدين ، وتحريم عقوقهما ، والتنبيه على عظمة الآيات المحكمات فى سورة الأنعام ، وجواز كتمان العلم للمصلحة .

قوله : « أخرجاه » أى : البخارى ومسلم ، و« البخارى » رحمه الله : هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بَردِزْبة الجعفى مولاهم ، الحافظ الكبير ، صاحب الصحيح والتاريخ والأدب المفرد وغير ذلك من مصنفاته . روى عن الإمام أحمد بن حنبل والحميدى وابن المدينى وطبقتهم . وروى عنه مسلم والنسائى والترمذى والفِرَبرى ، راوى الصحيح . ولد سنة أربع وتسعين ومائة ، ومات سنة ست وخمسين ومائتين .

و« مسلم » رحمه الله : هو ابن الحجاج بن مسلم أبو الحسين القشيرى النيسابورى ، صاحب الصحيح والعلل والوحدان وغير ذلك . روى عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبى خيثمة وابن أبى شيبة وطبقتهم . وروى عن البخارى . وروى عنه الترمذي وإبراهيم بن محمد بن سفيان راوى الصحيح وغيرهما . ولد سنة أربع ومائتين . ومات سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور رحمهما الله .

---

(١) يعنى أن الخصومة إنما وقعت بين النبى ﷺ وبين المشركين فى تحقيق « لا إله إلا الله » المكونة من جملتين إحداهما نفى والثانية إثبات . فالأولى تنفى كل الآلهة التى يدعيها الناس والثانية تثبت الإلهية لله وحده . يعنى ينبغى أن يكفر بكل معبود لتخلص العبادة لله .

الخامسة : أن الرسالة عمَّت كل أُمة .

السادسة : أن دين الأنبياء واحد .

السابعة : المسألة الكبيرةُ : أن عبادة الله لا تحصلُ إلا بالكفر بالطاغوت ، ففيه معنى قوله : ﴿ فمَنْ يكْفُر بالطاغوتِ ويؤْمنْ بالله فقد استمسكَ بالعروةِ الوثْقَى ﴾ .

الثامنة : أن الطاغوت عام فى كل ما عُبِدَ من دون الله .

التاسعة : عظَمُ شأن ثلاث الآيات المحكمات فى سورة الأنعام عند السلف وفيها عشر مسائل [١] . أولها : النَهىُ عَن الشركَ .

العاشرة : الآياتُ المحكماتُ فى سورة الإسراء ، وفيها ثمانية عشر مسألة ، بدأها الله بقوله : ﴿ ولا تجعَلْ مع الله إلهاً آخرَ فتقعدَ مذْمُوماً مخذولاً ﴾ وختمها بقوله : ﴿ ولا تجعَلْ مع الله إلهاً آخرَ فتُلْقى فى جَهَنَّمَ ملوماً مدْحوراً ﴾ ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله : ﴿ ذَلك مما أوحى إليك ربُّكَ من الحكمة ﴾ .

الحادية عشرة : آية سورة النساء التى تسمَّى آية الحقوق العشرة ، بدأها الله تعالى بقوله: ﴿ واعْبدُوا اللهَ ولا تُشركوا به شيئاً ﴾ .

الثانية عشرة : التنبيه على وَصيَّة رسول الله ﷺ عند موته .

الثالثة عشرة : معرفة حق الله علينا .

الرابعة عشرة : معرفة حقِّ العباد عليه إذا أدّوْا حقَّه .

الخامسة عشرة : أنَّ هذه المسألة لا يعرفُها [٢] أكثرُ الصحابة .

السادسة عشرة : جوازُ كتمانِ العلم للمصلحة .

السابعة عشرة : استحبابُ بشارةِ المسلم بما يَسرُّه .

الثامنة عشرة : الخوفُ من الاتّكالِ على سعَةِ رحمة الله .

التاسعة عشرة : قولُ المسئولِ عما لا يعلم « الله ورسوله أعلم » .

العشرون : جوازُ تخصيص بعض الناسِ بالعلم [٣] دون بعضٍ .

---

(١) التى هى الوصايا العشر . وأولها وأهمها ﴿ ألا تشركوا بالله شيئاً ﴾ .

(٢) لا يعرفها أكثر الصحابة لأن النبى ﷺ أمر معاذاً أن يكتمها عن الناس مخافة أن يتكلوا على سعة رحمة الله ويتركوا العمل فلم يخبر بها إلا عند موته تأثماً . فلذلك لم يعرفها أكثر الصحابة فى حياة معاذ .

(٣) يعنى العلم الزائد على القدر المحتاج إليه فى إقامة الدين ، وإلا لم يجز بدليل وعيد الله الشديد على كتمان العلم فى قوله : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون * إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا ﴾ ، وقوله : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ وقول النبى ﷺ : « ليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

الحادية والعشرون : تواضُعه ﷺ لركوبِ الحمار ، مع الإردافِ عليه .

الثانية والعشرون : جوازُ الإردافِ على الدَّابة .

الثالثة والعشرون : فضيلةُ مُعاذِ بن جبلٍ .

الرابعة والعشرون : عِظَمُ شأنِ هذه المسألة .

❊ ❊ ❊

باب (فضل التوحيد [1] وما يُكفر من الذنوبَ)

وقول الله تعالى (٦ : ٨٢) : ﴿ الذينَ آمنوا ولم يَلبسوا إيمانَهُم بظلم أُولئك لهم الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُون ﴾ .

قوله : « باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب » ، « باب » خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا . قلت : ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره : هذا . و« ما » يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف ، أى : وبيان الذى يكفره من الذنوب ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى : وتكفيره الذنوب ، وهذا الثانى أظهر .

قوله : وقول الله تعالى (٦ : ٨٢) : ﴿ الذين آمنوا ولم يَلْبسوا إيمانهم بظُلم أولئك لهم الأمنُ وَهُمْ مُهتَدُون ﴾ قال ابن جرير : حدثنى المثنى - وساق بسنده - عن الربيع بن أنس قال: « الإيمان : الإخلاص لله وحده » .

وقال ابن كثير فى الآية : أى هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده ، ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة ، المهتدون فى الدنيا والآخرة . وقال زيد بن أسلم وابن إسحاق : هذا من الله على فصل القضاء بين إبراهيم وقومه .

وعن ابن مسعود « لما نزلت هذه الآية قالوا : فأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله ﷺ : ليس بذلكم ، ألم تسمعوا إلى قول لقمان : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ؟ ﴾ » وساقه البخارى بسنده [2] فقال: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش، حدثنى إبراهيم عن علقمة عن عبد الله - رضى الله عنه - قال : « لما نزلت ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ قلنا : يا رسول الله ، أينا لا يظلم نفسه ؟ قال : ليس كما تقولون ، لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، بشرك. أوَ لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يا بُنىَّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم؟﴾».

---

(١) فى قرة العيون : والمراد بالتوحيد توحيد العبادة ، وهو إفراد الله تعالى بأنواع العبادة الباطنة والظاهرة كالدعاء والذبح والنذر ونحوه كما قال تعالى : ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾ [٣٠ : ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ فادعوه مخلصين له الدين ﴾ [٤٠ : ٦٥] .

(٢) فى قصة إبراهيم عليه السلام من أحاديث الأنبياء .

ولأحمد بنحوه عن عبد الله قال : « لما نزلت ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ؛ فأيّنا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذى تعنون . ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : ﴿ يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ؟ ﴾ إنما هو الشرك » ، وعن عمر أنه فسره بالذنب ، فيكون المعنى : الأمن من كل عذاب ، وقال الحسن والكلبى : ﴿ أولئك لهم الأمن ﴾ ، ﴿ فى الآخرة ﴾ ، ﴿ وهم مهتدون ﴾ فى الدنيا » .

قال شيخ الإسلام : والذى شق عليهم : أنهم ظنوا أن الظلم المشروط عدمه هو ظلم العبد نفسه ، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه ، فبين لهم النبى ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلم فى كتاب الله ، فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم ، فإن من لم يلبس إيمانه بهذا الظلم كان من أهل الأمن والاهتداء ، كما كان من أهل الاصطفاء فى قوله (٣٥ : ٣٢) : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصْطَفَيْنا من عبادنا ، فمنهم ظالمٌ لنفسه ، ومنهم مُقْتَصدٌ ، ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله ؛ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ وهذا لا ينفى أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنب إذا لم يتب كما قال تعالى (٩٩ : ٦ ، ٧) : ﴿ فمن يَعْمَلْ مثقالَ ذَرّة خيراً يَره * ومن يعمل مثقالَ ذرة شراً يَرَه ﴾ ، وقد سأل أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - النبى ﷺ فقال : « يا رسول الله ، أينا لم يعمل سوءاً ؟ فقال : يا أبا بكر ، ألست تنصَب ؟ ألست تحزن ؟ أليس يصيبك اللأواء ؟ فذلك ما تجزون به » فبيّن أن المؤمن الذى إذا مات دخل الجنة قد يجزى بسيئاته فى الدنيا بالمصائب . فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة : الشرك ، وظلم العباد ، وظلمه لنفسه بما دون الشرك . كان له الأمن التام والاهتداء التام . ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمن والاهتداء المطلق . بمعنى : أنه لا بد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك فى الآية الأخرى . وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم الذى تكون عاقبته فيه إلى الجنة . ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه . وليس مراد النبى ﷺ بقوله : « إنما هو الشرك » أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام . فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر مُعَرّضون للخوف ، لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام الذى يكونون بهما مهتدين إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم ، من غير عذاب يحصل لهم . بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط ، ومعهم أصل نعمة الله عليهم ، ولا بد لهم من دخول الجنة . وقوله : « إنما هو الشرك » إن أراد الأكبر . فمقصوده : أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة . وإن كان مراده جنس الشرك . يقال : ظلم العبد نفسه - كبخله لحب المال ببعض الواجب - هو شرك أصغر . وحبه ما يبغضه الله تعالى حتى

يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر ونحو ذلك . فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه . ولهذا كان السلفُ يُدخلون الذنوبَ فى هذا الشرك بهذا الاعتبار . انتهى ملخصاً [1] .

وقال ابن القيم – رحمه الله – : قوله : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ قال الصحابة : « وأينا يا رسول الله لم يُلبس إيمانه بظلم ؟ قال : ذلك الشرك ألم تسمعوا قول العبد الصالح ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ؟ » لما أشكل عليهم المراد بالظلم فظنوا أن ظلم النفس داخل فيه .

وأن من ظلم نفسه – أىّ ظلم كان – لم يكن آمناً ولا مهتدياً: أجابهم – صلوات الله وسلامه عليه – بأن الظلم الرافع للأمن والهداية على الإطلاق هو الشرك. وهذا والله هو الجوابُ الذى يشفى العليل ويروى الغليل . فإن الظلم المطلق التام هو الشرك . الذى هو وضع العبادة فى غير موضعها . والأمن والهدى المطلق : هما الأمن فى الدنيا والآخرة . والهدى إلى الصراط المستقيم . فالظلم المطلق التام رافع للأمن وللاهتداء المطلق التام ولا يمنع ذلك أن يكون مطلق الظلم مانعاً من مطلق الأمن ومطلق الهدى . فتأمله . فالمطلق للمطلق ، والحصة للحصة. اهـ . ملخصاً [2] .

قوله : (وعن عبادة بن الصامت – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم ورُوحٌ منه ، والجنةَ حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » . أخرجاه) .

عبادة بن الصامت بن قيس الأنصارى الخزرجى ، أبو الوليد ، أحد النقباء ، بَدْرى مشهور. مات بالرّملة سنة أربع وثلاثين ، وله اثنتان وسبعون . وقيل : عاش إلى خلافة معاوية – رضى الله عنه – .

---

(١) من كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه .

(٢) قال فى قرة العيون : قال تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ فالظالم لنفسه هو الذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ؛ فهو تحت مشيئة الله : إن شاء غفر له ، وإن شاء أخذه بذنبه ، ونجاه بتوحيده من الخلود فى النار . وأما المقتصد فهو الذى عمل بما أوجب الله عليه وترك ما حرم عليه فقط ، وهذه حال الأبرار . وأما السابق فهو الذى حصل له كمال الإيمان باستفراغه وسعه فى طاعة الله علماً وعملاً . فهذان لهم الأمن التام والاهتداء التام فى الدنيا والآخرة فالكل للكل . والحصة للحصة ، لأن كمال الإيمان يمنع صاحبه من المعاصى وعقوباتها ، فلم يلق ربه بذنب يعاقب به كما قال تعالى : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ [٤ : ١٤٧] وهذا الذى ذكرته فى معنى هذه الآية هو ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وابن القيم رحمه الله فى معناها ، وهو الذى دل عليه القرآن ، وهو قول أهل السنة والجماعة خلافاً لأهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم .

قوله : « مَن شهد أن لا إله إلا الله » أى : من تكلم بها عارفاً لمعناها ، عاملاً بمقتضاها ، باطناً وظاهراً ، فلا بد فى الشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولهما ، كما قال الله تعالى (٧ : ١٩) : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ ، وقوله : (٤٣ : ٨٦) : ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه : من البراءة من الشرك ، وإخلاص القول والعمل : قولِ القلب واللسان ، وعملِ القلب والجوارح - فغير نافع بالإجماع [(١)] .

قال القرطبى فى المفهم على صحيح مسلم : « بابٌ لا يكفى مجرد التلفظ بالشهادتين » بل لا بد من استيقان القلب - هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غُلاة المرْجئة ، القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف فى الإيمان . وأحاديث هذا الباب تدل على فساده ، بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها ، ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق ، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح وهو باطل قطعاً . اهـ .

وفى هذا الحديث ما يدل على هذا ، وهو قوله : « من شهد » فإن الشهادة لا تصح إلا إذا كانت عن علم ويقين وإخلاص وصدق .

قال النووى : هذا حديث عظيم جليل الموقع ، وهو أجمع - أو من أجمع - الأحاديث

---

(١) قال فى قرة العيون : وقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة نفياً وإثباتاً ، فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله بقولك: « لا إله » وأثبت الإلهية لله بقولك : « إلا الله » ، قال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ [٣ : ١٨] فكم ضل بسبب الجهل بمعناها من ضل وهم الأكثرون ، فقبلوا حقيقة المعنى فأثبتوا الإلهية المنفية لمن نفيت عنه من المخلوقين أرباب القبور والمشاهد والطواغيت والأشجار والأحجار والجن وغير ذلك ، واتخذوا ذلك ديناً وشبهوا وزخرفوا ، واتخذوا التوحيد بدعة وأنكروه على من دعاهم إليه ، فلم يعرفوا منها ما عرف أهل الجاهلية من كفار قريش ونحوهم (ح) فإنهم عرفوا معناها وأنكروا ما دلت عليه من الإخلاص كما قال تعالى : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ [٣٧ : ٣٦] والمشركون من أواخر هذه الأمة أنكروا ما أنكره أولئك على من دعاهم إلى ترك عبادة ما كانوا يعبدونه من دون الله من الموتى والقبور والمشاهد والطواغيت ونحوها . فأولئك عرفوا هذا المعنى وأنكروه ؛ وهؤلاء جهلوا هذا المعنى وأنكروه ، فلهذا تجده يقول : لا إله إلا الله ، وهو يدعو مع الله غيره .

(ح) سبب ذلك أن عرب الجاهلية هم أهل لغة القرآن الفصحاء فلا يجهلون شيئاً من معنى التوحيد الذى قرره . وأما هؤلاء الذين فشا فيهم اليوم شرك العبادة فليسوا من أهل ملكة هذه اللغة وإنما يدينون بالاصطلاحات التى تلقاها بعضهم من بعض من كلامية وعامية . وإذا كان مثل الفخر الرازى من أكبر أئمة متكلمهم وأصوليهم أخطأ فى فهم الإله فى تفسير قوله تعالى : ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ فما الظن بمن دونه من علمائهم دع عامتهم ودهماءهم ؟ هل يستغرب منهم الجهل بأن من دعا ميتاً أو صالحاً حياً فيما لا يدعى فيه إلا الله ، أو طاف بقبره ونذر له يكون عابداً له ومتخذاً له إلهاً ؟!! .

المشتملة على العقائد . فإنه ﷺ جمع فيه ما يُخرج من ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها . فاقتصر ﷺ فى هذه الأحرف على ما يباين جميعهم . ا هـ .

ومعنى « لا إلا إلا الله » لا معبود بحق إلا الله ، وهو فى غير موضع من القرآن ، ويأتيك فى قول البقاعى صريحاً قوله : « وحده » تأكيد للإثبات ، « لا شريك له » تأكيد للنفى . قال الحافظ : كما قال تعالى (٢ : ١٦٣) : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمنُ الرحيمُ ﴾ وقال (٢١ : ٢٥) : ﴿ وما أرسلنا مِنْ قَبْلكَ من رسول إلا نُوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ، وقال (٧ : ٦٥) : ﴿ وإلى عادٍ أخاهم هوداً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ، ما لكم من إله غيرُه ﴾ فأجابوه رداً عليه بقولهم (٧ : ٧٠) : ﴿ أجئتنا لِنعْبدَ اللهَ وحده ، ونَذَرَ ما كان يعبدُ آباؤنا ؟ ﴾ وقال تعالى (٢٢ : ٦٢) : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأنّ ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العليُّ الكبير ﴾ .

فتضمن ذلك نفى الإلهية عما سوى الله ، وهى العبادة . وإثباتَها لله وحده لا شريك له ، والقرآنُ من أوله إلى آخره يبين هذا ويقرره ويرشد إليه .

فالعبادة بجميع أنواعها إنما تصدر عن تألُّه القلب بالحب والخضوع والتذلل ، رَغَباً وَرَهباً . وهذا كله لا يستحقه إلا الله تعالى ، كما تقدم فى أدلة هذا الباب وما قبله . فمن صرف من ذلك شيئاً لغير الله فقد جعله لله نداً ، فلا ينفعه مع ذلك قول ولا عمل .

(ذكر كلام العلماء فى معنى « لا إله إلا الله »)

قد تقدم كلام ابن عباس . وقال الوزير أبو المظفر فى الإفصاح : قوله : « شهادة أن لا إله إلا الله » يقتضى أن يكون الشاهد عالماً بأنه لا إله إلا الله ، كما قال تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ قال : واسم « الله » مرتفع بعد « إلا » من حيث إنه الواجب له الإلهية ، فلا يستحقها غيره سبحانه . قال : وجملة الفائدة فى ذلك : أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ؛ فإنك لما نفيت الإلهية وثبت الإيجاب لله سبحانه كنت ممن كفر بالطاغوت وآمنْ بالله .

وقال ابن القيم فى البدائع [1] رداً لقول من قال : إن المستثنى مخرج من المستثنى منه . قال ابن القيم : بل هو مخرج من المستثنى منه وحكمه ، فلا يكون داخلاً فى المستثنى ؛ إذ لو كان كذلك لم يدخل الرجل فى الإسلام بقوله : « لا إله إلا الله » لأنه لم يثبت الإلهية لله تعالى. وهذه أعظم كلمة تضمنت بالوضع نفى الإلهية عما سوى الله، وإثباتها له بوصف الاختصاص.

(١) بدائع الفوائد للعلامة ابن القيم (ح٣ ص٥٦) ، وهو بحث قيم جداً فى الاستثناء والمستثنى .

فدلالتها على إثبات إلهيته أعظم من دلالة قولنا : « الله إله » ولا يستريب أحد فى هذا ألبتة . انتهى بمعناه .

وقال أبو عبد الله القرطبى فى تفسيره : « لا إله إلا الله » أى لا معبود إلا هو .

وقال الزمخشرى : « الإله » من أسماء الأجناس كالرجل والفرس ، يقع على كل معبود بحق أو باطل ، ثم غلب على المعبود بحق .

وقال شيخ الإسلام : « الإله » هو المعبود المطاع ؛ فإن الإله هو المألوه ، والمألوه هو الذى يستحق أن يعبد . وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التى تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب ، المخضوع له غاية الخضوع ، قال : فإن الإله هو المحبوب المعبود الذى تألهه القلوب بحبها ، وتخضع له وتذل له ، وتخافه وترجوه ، وتنيب إليه فى شدائدها ، وتدعوه فى مهماتها ، وتتوكل عليه فى مصالحها ، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره ، وتسكن إلى حبه ، وليس ذلك إلا الله وحده ، ولهذا كانت « لا إله إلا الله » أصدق الكلام ، وكان أهلها أهل الله وحزبه ، والمنكرون لها أعداءه وأهل غضبه ونقمته ، فإذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق ، وإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له فى علومه وأعماله .

وقال ابن القيم : « الإله » هو الذى تألهه القلوب محبة وإجلالاً وإنابة ، وإكراماً وتعظيماً ، وذلاً وخضوعاً ، وخوفاً ورجاءاً وتوكلاً .

وقال ابن رجب : « الإله » هو الذى يطاع فلا يعصى ، هيبة له وإجلالاً ، ومحبة وخوفاً ورجاء ، وتوكلاً عليه ، وسؤالاً منه ودعاء له ، ولا يصلح هذا كله إلا لله عز وجل . فمن أشرك مخلوقاً فى شىء من هذه الأمور التى هى من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً فى إخلاصه فى قول : « لا إله إلا الله » وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك .

وقال البقاعى : « لا إله إلا الله » أى انتفاءً عظيماً أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم . فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة ، وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً ، وإنما يكون نافعاً إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه ، وإلا فهو جهل صرف .

وقال الطيبى : « الإله » فعال بمعنى مفعول ، كالكتاب بمعنى المكتوب ، من أله إلهة : أى عبد عبادة . قال الشارح : وهذا كثير فى كلام العلماء ، وإجماع منهم .

فدلت « لا إله إلا الله » على نفى الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى كائناً ما كان ، وإثبات الإلهية لله وحده ، دون كل ما سواه ، وهذا هو التوحيد الذى دعت إليه الرسل ودلّ عليه القرآن من أوله إلى آخره ، كما قال تعالى عن الجن (٧٢ : ١) : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أنه استمع نفرٌ من الجنِّ فقالوا إنَّا سمعنا قرآناً عجباً ، يَهْدِى إلى الرُّشد فآمَنَّا به ، ولن نُشركَ بربِّنَا أحداً ﴾ فلا إله إلا الله لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفياً وإثباتاً ، واعتقد ذلك وقبله

وعمل به . وأما من قالها من غير علم واعتقاد وعمل ، فقد تقدم كلام العلماء : أن هذا جهل صرف ، فهى حجة عليه بلا ريب .

فقوله فى الحديث : « وحده لا شريك له » تأكيد وبيان لمضمون معناها . وقد أوضح الله ذلك وبيّنه فى قصص الأنبياء والمرسلين فى كتابه المبين ، فما أجهل عُبَّاد القبور بحالهم ! وما أعظم ما وقعوا فيه من الشرك المنافى لكلمة الإخلاص « لا إله إلا الله » فإن مشركى العرب ونحوهم جحدوا « لا إله إلا الله » لفظاً ومعنى . وهؤلاء المشركون أقروا بها لفظاً وجحدوها معنى ، فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير الله بأنواع العبادة ، كالحب والتعظيم ، والخوف والرجاء ، والتوكيل والدعاء ، وغير ذلك من أنواع العبادة . بل زاد شركهم على شرك العرب بمراتب ، فإن أحدهم إذا وقع فى شدة أخلص الدعاء لغير الله تعالى ، ويعتقدون أنه أسرع فرجاً لهم من الله ، بخلاف حال المشركين الأولين ، فإنهم كانوا يشركون فى الرخاء ، وأما فى الشدائد فإنما يخلصون لله وحده ، كما قال تعالى (٢٩ : ٦٥) : ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون - الآية ﴾ فبهذا يتبين أن مشركى أهل هذه الأزمان أجهل بالله وبتوحيده من مشركى العرب ومن قبلهم (١) .

وقوله : « وأن محمداً عبده ورسوله » أى : وشهد بذلك ، وهو معطوف على ما قبله على نية تكرار العامل ، ومعنى « العبد » هنا : المملوك العابد ، أى : أنه مملوك لله تعالى . والعبودية الخاصة وصفه ، كما قال تعالى (٣٩ : ٢٦) : ﴿ أليس الله بكاف عبده ؟ ﴾ فأعلى مراتب العبد العبودية الخاصة والرسالة ، فالنبى ﷺ أكمل الخلق فى هاتين الصفتين الشريفتين. وأما الربوبية والإلهية فهما حق الله تعالى ، لا يَشْرَكُه فى شيئ منهما مَلَك مُقرّب ، ولا نبى مرسل .

وقوله : « عبده ورسوله » أتى بهاتين الصفتين وجمعهما دفعاً للإفراط والتفريط ؛ فإن كثيراً ممن يدعى أنه من أمته أفرط بالغلو قولاً وفعلاً ، وفرط بترك متابعته ، واعتمد على الآراء المخالفة لما جاء به ، وتعسف فى تأويل أخباره وأحكامه ، بصرفها عن مدلولها ، والصدوف

---

(١) فى قرة العيون : « قلت » : وهؤلاء المتأخرون جهلوا معنى الإله وقلبوا حقيقة المعنى إلى معنى توحيد الربوبية وهو القدرة على الاختراع فأثبتوا ما نفته « لا إله إلا الله » من الشرك وأنكروا ما أثبتته من إخلاص العبادة لله جهلاً منهم ؛ وقد قال تعالى : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ [٣٩ : ٣] قال محيى الدين النووى : اعلم أن باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد ضيع من أزمان متطاولة ولم يبق فى هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً وهو باب عظيم ، به قوام الأمر وملاكه ، وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح .

وقوله : فى هذه الأزمان ، يعنى القرن الخامس والسادس ، وإذا كان كذلك فما الظن بالقرن العاشر وما بعده وقد استحكمت فيها الغربة . ولشيخنا محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى فى تفسير هذه الكلمة كلام بديع واضح لم يسبق إلى مثله فليراجع لمسيس الحاجة إليه .

عن الانقياد لها مع إطراحها ، فإن شهادة أن محمداً رسول الله تقتضى الإيمان به ، وتصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والانتهاء عما عنه نهى وزجر ، وأن يعظِّم أمره ونهيه ، ولا يقدِّم عليه قول أحد كائناً من كان [١] والواقع اليوم وقبله - ممن ينتسب إلى العلم من القضاة والمفتين - خلاف ذلك ، والله المستعان .

وروى الدارمى فى مسنده عن عبد الله بن سلام - رضى الله عنه - أنه كان يقول : « إنا لنجد صفة رسول الله ﷺ: إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين . أنت عبدى ورسولى. سميته المتوكل ، ليس بفظّ ولا غليظ ، ولا صَخّاب بالأسواق ، ولا يَجْزى بالسيئة مثلها ، ولكن يعفو ويتجاوز ، ولن أقبضه حتى يُقيم الملّة المتعوجةَ بأن يشهد أن لا إله إلا الله، يفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غُلْفاً » قال عطاء بن يسار : وأخبرنى أبو واقد الليثى: أنه سمع كعباً يقول مثل ما قال ابن سلام [٢] .

قوله : « وأن عيسى عبد الله ورسوله » أى : خلافاً لما يعتقده النصارى : أنه الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً (٢٣ : ٩١) : ﴿ ما اتّخَذَ اللهَ من ولَد وما كان معه مِنْ إله ﴾ فلا بد أن يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله على علم ويقين بأنه مملوك لله ، خلقه من أنثى بلا ذكر ، كما قال تعالى (٣ : ٥٩) : ﴿ إنّ مثلَ عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كُنْ فيكون ﴾ فليس رباً ولا إلهاً سبحان الله عما يشركون قال تعالى (١٩ : ٢٩ - ٣٦): ﴿ فأشارت إليه ، قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبياً؟

---

(١) فى قرة العيون : وأن لا تعارض بقول أحد ، لأن غيره ﷺ يجوز عليه الخطأ والنبى ﷺ قد عصمه الله تعالى ، وأمرنا بطاعته والتأسى به وتوعدنا على ترك طاعته بقوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ [٣٣ : ٣٦] الآية . وقال : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ [٢٤ : ٦٣] قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : « أتدرى ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك ؛ لعله إذا رد بعض قوله أن يقع فى قلبه شىء من الزيغ فيهلك » . وقد وقع التفريط فى المتابعة وتركها وتقديم أقوال من يجوز عليهم الخطأ على قوله ﷺ لا سيما من العلماء كما لا يخفى .

(٢) آخر رواية الدارمى (ج١ ص٥) وفى الرواية عن كعب « نجده مكتوباً فى التوراة » .

(٣) فى قرة العيون : فيه بيان الحق الذى يجب اعتقاده كما فى الآيات المحكمات وما فيها من الرد على كفار النصارى وهم ثلاث طوائف : طائفة قالوا : إن عيسى هو الله ، وطائفة قالوا : ابن الله ، وطائفة قالوا : ثالث ثلاثة

يعنون عيسى وأمه . فبين الله تعالى فى كتابه الحق وأبطل الباطل فقال : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السماوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ والآيات بعدها . وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ فى مواضع من سورة المائدة وأخبر تعالى عما قاله المسيح عليه السلام وهو فى المهد .

قال : إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً ، وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً ، والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ، ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، وإن الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم ﴾ [1] ، وقال (٤ : ١٧٢) : ﴿ لَنْ يَستنكِفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ ويشهد المؤمن أيضاً ببطلان قول أعدائه اليهود : أنه ولد بَغِيٍّ ، لعنهم الله تعالى . فلا يصح إسلام أحد علم ما كانوا يقولونه حتى يبرأ من قول الطائفتين جميعاً فى عيسى عليه السلام ، ويعتقد ما قاله الله تعالى فيه : أنه عبد الله ورسوله .

قوله : « وكلمته » إنما سمى عيسى عليه السلام كلمة ؛ لوجوده بقوله تعالى : « كن » كما قاله السلف من المفسرين . قال الإمام أحمد فى الرد على الجهمية [2] « بالكلمة التى ألقاها إلى مريم حين قال له : « كن » فكان عيسى بكن وليس عيسى هو « كن » ، ولكن بكن كان ، فكن من الله تعالى قول ، وليس « كن » مخلوقاً ، وكذب النصارى والجهميه على الله فى أمر عيسى » انتهى .

قوله : « ألقاها إلى مريم » قال ابن كثير : خلقه بالكلمة التى أرسل بها جبريل إلى مريم فنفخ فيها من روحه بأمر ربه عز وجل ، فكان عيسى بإذن الله عز وجل ؛ فهو ناشىء عن الكلمة التى قال له : « كن فكان » والروح التى أرسل بها : هو جبريل عليه السلام .

وقوله : « وروح منه »[3] قال أبىّ بن كعب: «عيسى روح من الأرواح التى خلقها الله تعالى

---

(١) فى قرة العيون : فبين تعالى الصراط المستقيم الذى من سلكه نجا ومن خرج منه هلك وقال تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ فبين تعالى الصراط المستقيم بياناً شافياً ووافياً وأقام حججه على توحيده فأحق الحق وأبطل الباطل ولو كره المشركون .

(٢) صفحة ٢٠ طبعة عيسى الحلبى وأولاده فى باب : ثم إن الجهمى ادعى أمراً فقال : إنا وجدنا آية فى كتاب الله تدل على أن القرآن مخلوق . فقلنا : أى آية ؟ قال : قول الله : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾ وعيسى مخلوق .

(٣) الظاهر أن معنى « وروح منه » أنه كغيره من بنى آدم الذى يقول الله فيه : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ﴾ كما مثل له فى الآية الأخرى بأنه مثل آدم . والله أعلم .

وقال فى قرة العيون : أى من الأرواح التى استخرجها من صلب آدم عليه السلام وأخذ عليها العهد على أنه تعالى ربهم وإلاههم كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم =

واستنطقها بقوله (٧ : ١٧٢) : ﴿ ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ﴾ بعثه الله إلى مريم فدخل فيها » رواه عبد بن حميد وعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، وابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهم . قال الحافظ : ووصفه بأنه منه ، فالمعنى أنه كائن منه ، كما فى قوله تعالى (٤٥ : ١٣) : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ﴾ فالمعنى أنه كائن منه ، كما أن معنى الآية الأخرى : أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه : أى إنه مكون ذلك وموجده بقدرته وحكمته .

قال شيخ الإسلام : المضاف إلى الله تعالى إذا كان معنًى لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات وجب أن يكون صفة لله تعالى قائمة به ، وامتنع أن تكون إضافته إضافة مخلوق مربوب . وإذا كان المضاف عيناً قائمة بنفسها كعيسى وجبريل عليهما السلام وأرواح بنى آدم امتنع أن تكون صفة لله تعالى ؛ لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره .

لكن الأعيان المضافة إلى الله تعالى على وجهين :

أحدهما : أن تضاف إليه لكونه خلقها وأبدعها ، فهذا شامل لجميع المخلوقات ، كقولهم : سماء الله ، وأرض الله . فجميع المخلوقين عبيد الله ، وجميع المال مال الله .

= ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ الآية . وروح عيسى من تلك الأرواح التى خلقها الله تعالى . وذكر ابن جرير عن وهب بن منبه قال : « نفخ جبريل فى جيب درع مريم حتى وصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت عليه » وعن السدى أن النفخة دخلت فى صدرها فحملت ، وقال ابن جريج : يقولون : إنما نفخ فى جيب درعها وكمها . انتهى مختصراً . فجبريل نفخ والله خلق بقول : « كن » فكان . كما قال تعالى : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ﴾ فسبحان من لا يخلق غيره ولا يعبد سواه .

وقد أورد بعض النصارى على بعض علماء المسلمين قول الله تعالى : ﴿ وروح منه ﴾ .

فقال فى الجواب : هذا ليس خاصاً بعيسى عليه السلام بل المخلوقات كذلك كلها . كما قال تعالى : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ﴾ أى خلقاً وإيجاداً وعيسى كذلك خلقه وأوجده كسائر مخلوقاته . . وفى هذا الحديث الرد على اليهود أعداء الله وأعداء أنبيائه ورسله فإنهم كانوا هم والنصارى على طرفى نقيض فنسبوه إلى أنه ولد بغى ، قاتلهم الله . فأكذبهم الله تعالى فى كتابه وأبطل قولهم كما أبطل قول الغلاة من النصارى فيما تقدم من الآيات ونحوها .

فالنصارى غلوا فى عيسى ابن مريم عليه السلام أعظم الغلو والكفر والضلال ، واليهود جفوا فى حقه غاية الجفاء، وكلاهما قد ضل ضلالاً بعيداً ، نبه الله تعالى فى مواضع كثيرة من كتابه وبين تعالى الحق والصدق ورفع قدر المسيح عليه السلام وجعله من أولى العزم الخمسة المذكورين فى سورة الأحزاب [٢٣ : ٧ والشورى : ٣٢ : ١٣] ، وأمر نبيه ﷺ أن يصبر كما صبروا فقال : ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ فهم أفضل الرسل على التحقيق والنبى ﷺ أفضلهم صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

والجَنَّةَ حق ، والنارَ حق أدخله الله الجنةَ عَلَى ما كانَ من العمل » أخرجاه .

ولهما فى حديث عِتبان : « فإنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النار مَنْ قالَ : لا إله إلا الله ، يَبْتَغِى بذلكَ وَجْهَ الله » .

الوجه الثانى : أن يضاف إليه لما خصه به من معنى يحبه ويأمر به ويرضاه ، كما خص البيت العتيق بعبادة فيه لا تكون فى غيره . وكما يقال فى مال الْخُمْس والفَىء : هو مال الله ورسوله . ومن هذا الوجه : فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره . فهذه إضافة تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه ، وتلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقه . ا هـ ملخصاً .

قوله : « والجنة حق والنار حق » أى وشهد أن الجنة التى أخبر بها الله تعالى فى كتابه أنه أعدها للمتقين حق ، أى ثابتة لا شك فيها ، وشهد أن النار التى أخبر بها تعالى فى كتابه أنه أعدها للكافرين حق كذلك ثابتة ، كما قال تعالى (٥٧ : ٢١) : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ، وقال تعالى (٢ : ٢٤) : ﴿ فاتقوا النار التى وقودها الناسُ والحجارة أعدت للكافرين ﴾ وفى الآيتين ونظائرهما دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن ، خلافاً للمبتدعة [١] ، وفيهما الإيمان بالمعاد .

وقوله : « أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » هذه الجملة جواب الشرط ، وفى رواية : « أدخله الله من أى أبواب الجنة الثمانية شاء » .

قال الحافظ : معنى قوله : « على ما كان من العمل » أى من صلاح أو فساد ، لأن أهل التوحيد لا بد لهم من دخول الجنة . ويحتمل أن يكون معنى قوله : « على ما كان من العمل» أن يدخل أهل الجنة على حسب أعمال كل منهم فى الدرجات .

قال القاضى عياض : ما ورد فى حديث عُبادة يكون مخصوصاً لمن قال ما ذكره ﷺ وقرن بالشهادتين حقيقة الإيمان والتوحيد الذى ورد فى حديثه ، فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته ، ويوجب له المغفرة والرحمة ، ودخول الجنة لأول وهلة .

(قال : ولهما فى حديث عِتبان : « فإن الله حَرّم على النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغى بذلك وجه الله ») .

قوله : « ولهما » أى : للبخارى ومسلم فى صحيحهما بكماله . وهذا طَرَف من حديث طويل أخرجه الشيخان [٢] .

---

(١) فى قرة العيون : ومن لم يؤمن بالجنة والنار فقد كفر بالقرآن والرسل فإن الله تعالى بين الجنة وما أعد فيها من النعيم المقيم ، وذكر أنها دار المتقين ، وذكر النار وما فيها من العذاب وأنه أعدها لمن كفر به وأشرك .

(٢) فى قرة العيون : اختصره المصنف وذكر منه ما يناسب الترجمة وهو قوله : « من قال : لا إله إلا الله يبتغى =

و« عتبان » بكسر المهملة بعدها مثناة فوقية ثم موحدة ، ابن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصارى ، من بنى سالم بن عوف ، صحابى مشهور ، مات فى خلافة معاوية .

وأخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن قتادة قال : حدثنا أنس بن مالك أن النبى ﷺ - ومعاذٌ رديفه على الرَّحْل - قال : « يا معاذ ، قال : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : يا معاذ ، قال : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : يا معاذ ، قال : لبيك يا رسول الله وسعديك - ثلاثاً - قال : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله تعالى على النار . قال : يا رسول الله ، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟

= بذلك وجه الله » وهذا هو حقيقة معناها الذى دلت عليه هذه الكلمة من الإخلاص ونفى الشرك ، والصدق والإخلاص متلازمان لا يوجد أحدهما بدون الآخر ، فإن لم يكن مخلصاً فهو مشرك ومن لم يكن صادقاً فهو منافق ، والمخلص أن يقولها مخلصاً الإلهية لمن لا يستحقها غيره وهو الله تعالى ، وهذا التوحيد هو أساس الإسلام الذى قاله الخليل عليه السلام : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ وقالت بلقيس : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ وقال الخليل عليه السلام : ﴿ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ والحنيف هو الذى ترك الشرك رأساً وتبرأ منه وفارق أهله وعاداهم وأخلص أعماله الباطنة والظاهرة لله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسنٌ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ فإسلام الوجه هو إخلاص العبادة المنافى للشرك والنفاق وهو معنى الآية ونحوها إجماعاً . فهذا هو الذى يعنيه قوله : « لا إله إلا الله » ولهذا قال تعالى : ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ وهذا بخلاف من يقولها وهو يدعو غير الله ويستغيث به من ميت أو غائب لا ينفع ولا يضر ، كما ترى عليه أكثر الخلق ، فهؤلاء وإن قالوها فقد تلبسوا بما يناقضها ، فلا تنفع قائلها إلا بالعلم بمدلولها نفياً وإثباتاً . والجاهل بمعناها وإن قالها لا تنفعه لجهله بما وضعت له الوضع العربى الذى أريد منها من نفى الشرك ، وكذلك إذا عرف بغير تيقن له ، فإذا انتفى اليقين وقع الشك .

ومما قيدت به فى الحديث قوله ﷺ : « غير شاك » فلا تنفع إلا من قالها بعلم ويقين لقوله : « صدقاً من قلبه ، خالصاً من قلبه » وكذلك من قالها غير صادق فى قوله . فإنها لا تنفعه لمخالفة القلب اللسان كحال المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم . وكذلك حال المشرك فلا تقبل من مشرك لمنافاة الشرك للإخلاص ، ولما دلت عليه هذه الكلمة مطابقة فإنها دلت على نفس الشرك والبراءة منه والإخلاص لله وحده لا شريك له مطابقة . ومن لم يكن كذلك لم ينفعه قوله : « لا إله إلا الله » كما هو حال كثير من عبدة الأوثان يقولون : « لا إله إلا الله » وينكرون ما دلت عليه من الإخلاص ويعادون أهله وينصرون الشرك وأهله ، وقال الخليل عليه السلام لأبيه وقومه : ﴿ إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية فى عقبه ﴾ [٤٣ : ٢٦ - ٢٨] ، وهى « لا إله إلا الله » وقد عبر عنها الخليل بمعناها الذى وضعت له ودلت عليه ، وهو البراءة من الشرك وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له كما تقدم تقريره ، وكذلك من قالها ولم يقبل ما دلت عليه من الإخلاص كان قوله لهذه الكلمة كذباً ، بل قد عكس مدلولها فأثبت ما نفته من الشرك ونفى ما أثبته من الإخلاص .

فهذا الذى ذكرناه هو حال الأكثرين من هذه الأمة بعد القرون الثلاثة ، وسبب ذلك الجهل بمعناها واتباع الهوى فيصده عن اتباع الحق وما بعث الله به رسله من توحيده الذى شرعه لعباده ورضيه لهم .

قال : إذاً يتكلوا ، فأخبر بها معاذ عند موته تأثُّماً » . وساق بسند آخر : حدثنا معتمر قال : سمعت أبى ، قال : سمعت أنساً قال : ذكر لى أن النبى ﷺ قال لمعاذ بن جبل : « من لقى الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة . قال : ألا أبشر الناس ؟ قال: لا ، إنى أخاف أن يتكلوا».

قلت : فتبين بهذا السياق معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنها تتضمن ترك الشرك لمن قالها بصدق ويقين وإخلاص .

قال شيخ الإسلام وغيره : فى هذا الحديث ونحوه أنها فيمن قالها ومات عليها ، كما جاءت مقيدة بقوله : « خالصاً من قلبه غير شاك فيها بصدق ويقين » فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله تعالى جملة ، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة ؛ لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحاً ، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك ؛ فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، وما يزن خَرْدلة ، وما يَزن ذَرّة » وتواترت بأن كثيراً ممن يقول : لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها ، وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله ، وتواترت بأنه يحرم على النار من قال: لا إله إلا الله ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال ، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص ، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليداً أو عادة ، ولم تخالط حلاوة الإيمان بشاشة قلبه . وغالب من يفتن عند الموت وفى القبور أمثال هؤلاء ، كما فى الحديث « سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته » [1] وغالب أعمال هؤلاء إنما هى تقليد واقتداء بأمثالهم ، وهم من أقرب الناس من قوله تعالى (٤٣ : ٢٣) : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أُمّة وإنا على آثارهمْ مُقْتَدُون ﴾ .

وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث ، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن فى هذه الحال مصراً على ذنب أصلاً ، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شىء ، فإذاً لا يبقى فى قلبه إرادة لما حرم الله ولا كراهة لما أمر الله . وهذا هو الذى يحرم على النار وإن كانت له ذنوب قبل ذلك ، فإن هذا الإيمان وهذا الإخلاص ، وهذه التوبة وهذه المحبة وهذا اليقين ، لا تترك له ذنباً إلا مُحىَ عنه كما يمحو الليل النهار ، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر ، فهذا غير مُصِرّ على ذنب أصلاً ، فيغفر له ويحرم على النار. وإن قالها على وجه خلص به من الشركَ الأكبر دون الأصغر ، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك ، فهذه الحسنة لا يقاومها شىء من السيئات فيرجح بها ميزان الحسنات ، كما فى حديث البطاقة [2] فيحرم على النار . ولكن تنقص درجته فى الجنة بقدر ذنوبه ، وهذا بخلاف

(١) فى حديث البراء بن عازب الذى رواه أصحاب السنن وغيرهم فى سؤال القبر . (٢) سيأتى فى صفحة ٥٠

من رجحت سيئاته بحسناته ومات مُصراً على ذلك ، فإنه يستوجب النار . وإن قال : لا إله إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر . لكنه لم يمت على ذلك ، بل أتى بعدها بسيئات رجحت على حسنة توحيده ، فإنه فى حال قولها كان مخلصاً لكنه أتى بذنوب أوهَنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته ، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك ، بخلاف المخلص المستيقن ، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته ، ولا يكون مصراً على سيئات ، فإن مات على ذلك دخل الجنة .

وإنما يخاف على المخلص أن يأتى بسيئة راجحة فيضعف إيمانه فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات ، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر ، فإن سلم من الأكبر بقى معه من الأصغر ، فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك فيرجح جانب السيئات ، فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين ، فيضعف قول : « لا إله إلا الله » فيمتنع الإخلاص بالقلب ، فيصير المتكلم بها كالهاذى أو النائم ، أو من يحسّن صوتَه بآية من القرآن من غير ذوق طعم وحلاوة ، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين ، بل يأتون بعدها بسيئات تنقض ذلك . بل يقولونها من غير يقين وصدق ويموتون على ذلك ، ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة . فإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها ، وقسا القلب عن قولها ، وكره العمل الصالح وثقل عليه سماع القرآن ، واستبشر بذكر غير الله ، واطمأن إلى الباطل ، واستحلى الرّفَثَ ومخالطة أهل الغفلة ، وكره مخالطة أهل الحق ، فمثل هذا إذا قالها بلسانه ما ليس فى قلبه ، وبفيه ما لا يصدقه عمله .

قال الحسن: « ليس الإيمان بالتّحلِّى ولا بالتمنى ولكن ما وَقَر فى القلوب وصدقته الأعمال . فمن قال خيراً وعمل خيراً قبل منه ، ومن قال خيراً وعمل شراً لم يقبل منه » .

وقال بكر بن عبد الله المزَنىُّ : « ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ، ولكن بشىء وَقَر فى قلبه » .

فمن قال : لا إله إلا الله ولم يقم بموجبها ، بل اكتسب مع ذلك ذنوباً ، وكان صادقاً فى قولها موقناً بها ، لكن له ذنوب أضعفت صدقه ويقينه وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العملى ، فرجحت هذه السيئات على هذه الحسنة ، ومات مصراً على الذنوب ، بخلاف من يقولها بيقين وصدق ، فإنه إما أن لا يكون مصراً على سيئة أصلاً ، ويكون توحيده المتضمن لصدقه ويقينه رجّح حسناته . والذين يدخلون النار ممن يقولها : إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التام المنافيين للسيئات أو لرجحانها ، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم ، ثم ضعف لذلك صدقهم ويقينهم ، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام ؛ لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم ، فقولها من مثل هؤلاء لا يقوى على محو السيئات ، فترجح سيئاتهم على حسناتهم . انتهى ملخصاً .

وعن أبى سعيد الْخُدْرِىِّ عن رسول الله ﷺ قال: « قال موسَى: يا رَب، علِّمنى شيئاً أذكركَ وأدعوك به . قال : قلْ : يا موسى : لا إله إلا الله . قال : يا ربِّ كلُّ عبادك

وقد ذكر هذا كثير من العلماء ، كابن القيم وابن رجب وغيرهم .

قلت : وبما قرره شيخ الإسلام تجتمع الأحاديث .

قال : وفى الحديث دليل على أنه لا يكفى فى الإيمان النطق من غير اعتقاد وبالعكس .

وفيه : تحريم النار على أهل التوحيد الكامل ، وفيه : أن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصاً لوجه الله تعالى على ما شرعه على لسان رسوله ﷺ .

(تنبيه) قال القرطبى فى تذكرته : قوله فى الحديث : « من إيمان » أى من أعمال الإيمان التى هى من أعمال الجوارح ، فيكون فيه دلالة على أن الأعمال الصالحة من الإيمان ، والدليل على أنه أراد بالإيمان ما قلناه ، ولم يرد مجرد الإيمان الذى هو التوحيد ونفى الشركاء والإخلاص بقول لا إله إلا الله : ما فى الحديث نفسه من قوله : « اخرجوا - ثم بعد ذلك يقبض سبحانه قبضة فيخرج قوماً لم يعملوا خيراً قط » يريد بذلك التوحيد المجرد من الأعمال. ا هـ ملخصاً من شرح سنن ابن ماجة .

قال المصنف رحمه : (وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال : «قال موسى عليه السلام : يا رب ، علمنى شيئاً أذكرك وأدعوك به . قال : قل يا موسى : لا إله إلا الله . قال : يا رب ، كل عبادك يقولون هذا . قال : يا موسى ، لو أن السموات السبع وعامرهن غيرى ، والأرضين السبع فى كِفة ، ولا إله إلا الله فى كفة ، مالت بهن لا إله إلا الله » رواه ابن حبان والحاكم وصححه) .

« أبو سعيد » اسمه : سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصارى الخزرجى ، صحابى جليل ، وأبوه كذلك . استصغر أبو سعيد بأُحد ، وشهد ما بعدها . مات بالمدينة سنة ثلاث أو أربع أو خمس وستين . وقيل : سنة أربع وسبعين .

قوله : « أذكرك » أى : أثنى عليك به ، و« أدعوك » أى أسألك به .

قوله : « قل يا موسى : لا إله إلا الله » [1] فيه : أن الذاكر بها يقولها كلها ، ولا يقتصر على لفظ الجلالة ، ولا على « هو » كما يفعله غلاة جهال المتصوفة ، فإن ذلك بدعة وضلال .

---

(١) قال فى قرة العيون : فلا نافية للجنس نفياً عاماً إلا ما استثنى وخبرها محذوف تقديره لا إله إلا الله قال تعالى: ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾ فإلهيته تعالى هى الحق وكل ما سواه من الآلهة فإلهيته باطلة كما فى هذه الآية ونظائرها . فهذه كلمة عظيمة هى العروة الوثقى وكلمة التقوى وكلمة الإخلاص ، وهى التى قامت بها السموات والأرض ، وشرعت لتكميلها السنة والفرض ، ولأجلها جردت سيوف الجهاد ، وبها ظهر الفرق بين المطيع والعاصى من العباد . فمن قالها وعمل بها صدقاً وإخلاصاً وقبولاً ، ومحبة وانقياداً أدخله الله الجنة على ما كان من العمل .

يقولون هذا . قال : يا موسى ، لو أنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غيرى ، والأرضينَ

قوله : « كل عبادك يقولون هذا » ثبت بخط المصنف بالجمع ، والذى فى الأصول « يقول » بالإفراد مراعاة للفظة « كل » وهو فى المسند من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ الجمع كما ذكره المصنف على معنى « كل » ، ومعنى قوله : « كل عبادك يقولون هذا » أى إنما أريد شيئاً تخصنى به من بين عموم عبادك ؛ وفى رواية - بعد قوله : « كل عبادك يقولون هذا - قل : لا إله إلا الله ، قال : لا إله إلا أنت يا رب ، إنما أريد شيئاً تخصنى به » .

ولما كان بالناس - بل بالعالم كله - من الضرورة إلى لا إله إلا الله ما لا نهاية له ، كانت من أكثر الأذكار وجوداً ، وأيسرها حصولاً ، وأعظمها معنى . والعوام والجهال يعدلون عنها إلى الدعوات المبتدعة التى ليست فى الكتاب ولا فى السنة .

قوله : « وعامرهن غيرى » (١) هو بالنصب عطف على السموات ، أى لو أن السموات

(١) قال فى قرة العيون : أى كل من فى السموات والأرض وقوله : « غيرى » يستثنى ممن فى السموات نفسه لأنه العلى الأعلى تعالى وتقدس كما قال تعالى : ﴿ وهو العلى العظيم ﴾ [٢ : ٢٥٥] علو القهر وعلو القدر وعلو الذات . فالثلاثة كلها صفته ودلت على كماله كما قال تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ [٢٠ : ٥] ﴿ ثم استوى على العرش الرحمن ﴾ [٢٥ : ٥٩] الآية . فى سبعة مواضع من كتابه [٧ : ٥٣ ، ١ : ٣ ، ١٣: ٢ ، ٣٢ : ٤ ، ٤٧ : ٤] كما قال تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [٣٥ : ١٠ [وقال تعالى : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ [٧٠ : ٤] ، ﴿ إنى متوفيك ورافعك إلىَّ ﴾ [٣ : ٥٥] وأمثال هذه الآيات .

فمن سلب علو الله تعالى على خلقه فقد خالف صريح الكتاب والسنة وألحد فى أسمائه وصفاته ومعنى هذه الكلمة : نفى الإلهية عن كل شىء سوى ما استثنى بها وهو الله تعالى .

لكن هذه الكلمة العظيمة لا يحصل رجحانها إلا فى حق من أتى بقيودها التى قيدت بها فى الكتاب والسنة ، وقد ذكر الله سبحانه فى سورة براءة وغيرها كثيراً ممن يقولها ولم ينفعهم قولها . كحال أهل الكتاب والمنافقين على كثرتهم وتنوعهم فى نفاقهم فلم تنفعهم مع ما قام بهم من ترك تلك القيود .

(فمنهم) من يقولها جاهلاً بما وضعت له وبما دلت عليه من نفى الشرك والبراءة منه والصدق والإخلاص وغيرها. كعدم القبول ممن دعى إليها علماً وعملاً ، وترك الانقياد بالعمل بما تقتضيه كحال أكثر من يقولها قديماً وحديثاً ، ولكن فى أواخر هذه الأمة أكثر .

(ومنهم) من يمنعه من محبتها والعمل بها ما قام بقلبه من كبر أو هوى أو غير ذلك من الأسباب وهى كثيرة ، منها : قوله تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ [٩ : ٢٤] وأما أهل الإيمان الخالص فهم الذين أتوا بهذه الكلمة واجتمعت لهم قيودها التى قيدت بها علماً ويقيناً وصدقاً وإخلاصاً ومحبة وقبولاً وانقياداً وعادوا فيه ووالوا فيه وأحبوا فيه وأبغضوا فيه . وقد ذكهم الله تعالى فى مواضع من سورة براءة وغيرها ، وخصهم بالثناء عليهم ، والعفو عنهم ، أعد لهم جنته وأنجاهم من النار ، كما قال تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم =

السَّبْعَ فِى كِفَّة ، ولا إله إلا الله فى كِفَة ، مالت بهنَّ لا إله إلا الله » .

السبع ومن فيهن من العمار غير الله تعالى ، والأرضين السبع ومن فيهن وُضعوا فى كفة الميزان ولا إله إلا الله فى الكفة الأخرى ، مالت بهن لا إله إلا الله .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ « أن نوحاً - عليه السلام - قال لابنه عند موته : آمرك بلا إله إلا الله . فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت فى كفَّة ، ولا إله إلا الله فى كفة رَجحتْ بهنَّ لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كُنَّ حَلْقة مُبْهَمة لَقَصَمَتْهُنَّ لا إله إلا الله » .

قوله : « فى كِفة » هو بكسر الكاف وتشديد الفاء ، أى كفة الميزان .

قوله : « مالت بهن » أى رجحت . وذلك لما اشتملت عليه من نفى الشرك ، وتوحيد الله الذى هو أفضل الأعمال . وأساس الملة والدين ، فمن قالها بإخلاص ويقين ، وعمل بمقتضاها ولوازمها وحقوقها ، واستقام على ذلك ، فهذه الحسنة لا يوازنها شىء ، كما قال الله تعالى (٤٦ : ١٣) : ﴿ إنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

ودل الحديث على أن « لا إله إلا الله » أفضل الذكر . كحديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً : «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » رواه أحمد والترمذى، وعنه أيضاً مرفوعاً : « يُصاحُ برجل من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مدّ البصر ثم يقال: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمَك كتَبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يا رب . فيقال: أفلك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا . فيقال : بلى، إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لا تظلم ، فتوضع السجلات فى كفة ، والبطاقة فى كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » رواه الترمذى وحسنه . والنسائى وابن حبان والحاكم . وقال : صحيح على شرط مسلم ، وقال الذهبى فى تلخيصه : صحيح .

= بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ [٩ : ١٠٠] فهؤلاء ومن اتبعهم هم أهل « لا إله إلا الله » ، وغير هذه من الآيات فى الثناء عليهم وما أعد لهم فى الدار الآخرة .

فمن تدبر القرآن وعرف تفاوت الخلق فى محبة ربهم وتوحيده والعمل بطاعته والهرب من معصيته وإيثار ما يحبه تعالى رغبة وعملاً . وترك ما يكرهه خشية ورجاء ، واعتبر الناس بأحوالهم وأقوالهم وأعمالهم ونياتهم وما هم فيه من التفاوت البعيد ، تبين له خطأ المغرورين . كما فى الحديث الصحيح [1] عن النبى ﷺ أنه قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » .

---

(١) أخرجه أحمد ٤٤/٢٤ والحاكم ٥٧/١ ، والطبرانى ٣٣٨/٧ ، والبيهقى ٣٦٩/٣ . .

رواه ابن حبان والحاكم وصححه .

وللترمذي وحسنه عن أنس : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى :

قال ابن القيم - رحمه الله - : فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها ، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب ، فتكون صورة العملين واحدة ، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض . قال : وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مدى البصر ، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات ، فلا يعذب . ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة ، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه .

قوله : « رواه ابن حبان والحاكم » ابن حبان اسمه : محمد بن حبان - بكسر المهملة وتشديد الموحدة - ابن أحمد بن حبان بن معاذ ، أبو حاتم التميمي البُسْتي الحافظ صاحب التصانيف : كالصحيح والتاريخ ، والضعفاء ، والثقات وغير ذلك . قال الحاكم : كان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ ، ومن عقلاء الرجال . مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بمدينة بُسْت - بضم الموحدة وسكون المهملة .

وأما الحاكم فاسمه : محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري أبو عبد الله الحافظ ويعرف بابن البيِّع . ولد سنة إحدى وعشرين وثلثمائة . وصنف التصانيف ، كالمستدرك ، وتاريخ نيسابور وغيرهما ، ومات سنة خمس وأربعمائة .

قال المصنف - رحمه الله - : (وللترمذي ، وحسنه ، عن أنس : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « قال الله تعالى : يا ابن آدم ، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقُرابها مغفرة ») [1] .

ذكر المصنف - رحمه الله - الجملة الأخيرة من الحديث ، وقد رواه الترمذي بتمامه فقال : عن أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تبارك وتعالى : يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورَجَوْتَني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عَنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم ، إنك لو أتيتني - الحديث » .

« الترمذي » اسمه : محمد بن عيسى بن سَوْرة - بفتح المهملة - ابن موسى بن الضحاك السلمي أبو عيسى ، صاحب الجامع وأحد الحفاظ ، كان ضرير البصر ، روى عن قتيبة وهنّاد والبخاري وخلق . مات سنة تسع وسبعين ومائتين .

و« أنس » : هو ابن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي ، خادم رسول الله ﷺ : خدمه عشر سنين ، وقال له : « اللهم أكثر ماله وولده ، وأدخله الجنة » مات سنة اثنتين - وقيل : ثلاث وتسعين - وقد جاوز المائة .

---

(١) قال في قرة العيون : في هذا الحديث ما يبين معنى « لا إله إلا الله » التي رجحت بجميع المخلوقات . وجميع السيئات ؛ وإن ذلك هو ترك الشك قليله وكثيره ، وذلك يقتضي كمال التوحيد فلا يسلم من الشرك إلا من حقق توحيده وأتى بما تقتضيه كلمة الإخلاص من العلم واليقين والصدق والإخلاص والمحبة والقبول والانقياد وغير ذلك مما تقتضيه تلك الكلمة العظيمة كما قال تعالى : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

يا ابن آدمَ ، لو أتيتَنى بِقُرَابِ الأرْضِ خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بِقُرَابها مغفرة » .

والحديث قد رواه الإمام أحمد من حديث أبى ذرّ بمعناه ، وهذا لفظه : « ومن عمل قُراب الأرض خطيئة ثم لقينى لا يشرك بى شيئاً جعلت له مثلها مغفرة » ورواه مسلم ، وأخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ .

قوله : « لو أتيتنى بقراب الأرض » بضم القاف ، وقيل : بكسرها والضم أشهر وهو ملؤها أو ما يقارب ملئها .

قوله : « ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً » شرطٌ ثقيل فى الوعد بحصول المغفرة ، وهو السلامة من الشرك : كثيره وقليله ، صغيره وكبيره . ولا يسلم من ذلك إلا من سلّم الله تعالى ، وذلك هو القلب السليم ، كما قال تعالى (٢٦ : ٨٩) : ﴿ يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

قال ابن رجب : من جاء مع التوحيد بِقُراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة - إلى أن قال - فإن كَمُل توحيد العبد وإخلاصه لله تعالى فيه ، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه ، أو بقلبه ولسانه عند الموت ، أوجب ذلك مغفرة ما قد سلف من الذنوب كلها ، ومنعه من دخول النار بالكلية فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله : محبة وتعظيماً ، وإجلالاً ، ومهابة ، وخشية وتوكلاً ، وحينئذ تحرَق ذنوبه وخطاياه كلها ، وإن كانت مثل زبَد البحر . ا هـ ملخصاً .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - فى معنى الحديث : ويُعفى لأهل التوحيد المحض الذى لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك ، فلو لقى الموحد الذي لم يشرك بالله شيئاً ألبتة ربَّه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة ، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده؛ فإن التوحيد الخالص الذى لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب ، لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه ، وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ، ولو كانت قراب الأرض فالنجاسة عارضة ، والدافع لها قوى . ا هـ .

وفى هذا الحديث : كثرة ثواب التوحيد ، وسَعة كرم الله وجوده ورحمته ، والرد على الخوارج الذين يكفّرون المسلم بالذنوب ، وعلى المعتزلة القائلين بالمنزلة بين المنزلتين ، وهى الفسوق ، ويقولون : ليس بمؤمن ولا كافر ، ويخلد فى النار . والصواب قول أهل السنة : أنه لا يُسلب عنه اسم الإيمان ، ولا يُعطاه على الإطلاق ، بل يقال : هو مؤمن عاص ، أو مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته . وعلى هذا يدل الكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة .

وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : « لما أُسرَى برسول الله ﷺ انتُهىَ به إلى سِدرة المنتهى ، فأُعطِىَ ثلاثاً : أعطِىَ الصلوات الخمس ، وخواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً : المقحِمات » رواه مسلم .

فيه مسائل :

الأولى : سَعة فضل الله .

الثانية : كثرة ثواب التوحيد عند الله .

الثالثة : تكفيره مع ذلك للذنوب .

الرابعة : تفسير الآية (٨٢) التى فى سورة الأنعام .

الخامسة : تأمل الخمس اللواتى فى حديث عبادة .

السادسة : أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده ، تبين لك معنى قول : « لا إله إلا الله » وتبين لك خطأ المغرورين [(١)] .

السابعة : التنبيه للشرط الذى فى حديث عتبان [(٢)]

قال ابن كثير فى تفسيره : وأخرج الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه والنسائى عن أنس بن مالك قال : « قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (٧٤ - ٥٦) : ﴿ هو أهلُ التقوى وأهل المغفرة﴾ وقال : قال ربكم : أنا أهلٌ أن أُتَّقى فلا يُجعل معى إله ، فمن اتقى أن يجعل معى إلهاً كان أهلاً أن أغفر له » .

قال المصنف - رحمه الله - : (تأمل الخمس اللواتى فى حديث عُبادة ، فإنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان تبين لك معنى قوله : « لا إله إلا الله » وتبين لك خطأ المغرورين .

وفيه : أن الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل « لا إله إلا الله » والتنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات ، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه . وفيه : إثبات الصفات خلافاً للمعطلة . وفيه أنك إذا عرفت حديث أنس وقوله فى حديث عتبان « إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغى بذلك وجه الله » تبين لك أن ترك الشرك ليس قولها باللسان فقط) .

---

(١) كثير من الناس يخطئون فى فهم أحاديث « من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة » فيظنون بأن التلفظ بها يكفى وحده للنجاة من النار ودخول الجنة وليس كذلك فإن من يظن ذلك من المغرورين لم يفهم « لا إله إلا الله » لأنه لم يتدبرها . إذ أن حقيقة معناها : البراءة من كل معبود والتعهد بتجريد كل أنواع العبادة لله سبحانه وحده والقيام بها على الوجه الذى يحبه ويرضاه فمن لم يقم بحقها من العبادة ، أو قام ببعض أنواع العبادة ثم عبد مع الله غيره من دعاة الأولياء والصالحين والنذر لهم ونحو ذلك فإنه يكون هادماً لها . فلا تنفعه دعواه ولا تغنى عنه شيئاً ولو كان مجرد قولها كافياً لم يقع من المشركين ما وقع من محاربة الرسول ﷺ ومعاداته ، قال الله تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ ، وقال : ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ فمن لم يوف بها ويعمل بمقتضاها لا ينفعه التلفظ ؛ وكل من جعل شيئاً من أنواع العبادة لغير الله فهو إما جاهل بمعناها أو كاذب فى ادعائه الإيمان وأولئك هم المغرورون الأخسرون أعمالاً ﴿ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ .

(٢) هو قوله : « يبتغى وجه الله » من قالها يبتغى بها وجه الله لا بد أن يعمل ويخلص عمله لله .

الثامنة : كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله .

التاسعة : التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات ، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه .

العاشرة : النص عَلَى أن الأرضين سبع كالسموات .

الحادية عشرة : أن لهن عُماراً .

الثانية عشرة : إثبات الصفات ، خلافاً للأشعرية .

الثالثة عشرة : أنك إذا عرفت حديث أنس ، عرفت أن قوله فى حديث عتبان : « إن الله حَرَّمَ عَلَى النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغى بذلك وجه الله » أنه ترك الشرك ، ليس قولها باللسان .

الرابعة عشرة : تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدى الله ورسوليه .

الخامسة عشرة : معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله .

السادسة عشرة : معرفة كونه روحاً منه .

السابعة عشرة : معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار .

الثامنة عشرة : معرفة قوله : « عَلَى ما كان من العمل » .

التاسعة عشرة : معرفة أن الميزان له كفتان .

العشرون : معرفة ذكر الوجه .

❊ ❊ ❊

باب (مَن حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب)

قوله : (باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب) أى : ولا عذاب .

قلت : تحقيقه : تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصى [1] .

---

(١) فى قرة العيون : وتحقيق التوحيد عزيز فى الأمة لا يوجد فى أهل الإيمان الخلص الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه كما قال تعالى فى يوسف عليه السلام : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ [١٢ : ٢٤] بفتح اللام ، وفى قراءة ﴿ المخلصين ﴾ بكسرها ، وهم فى صدر هذه الأمة كثيرون وفى آخرها هم الغرباء ، وقد قلوا . وهم الأعظمون قدراً عند الله . وقال تعالى عن خليله عليه السلام : ﴿ قال يا قوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ [٦ : ٧٨ ، ٧٩] أى أخلصت دينى وأفردت عبادتى للذى فطر السموات والأرض أى خلقهما وابتداعهما على غير مثال سبق ﴿ حنيفاً ﴾ أى فى حال كونى حنيفاً أى مائلاً عن الشرك إلى التوحيد .

ولهذا قال : ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ ونظائر هذه الآية فى القرآن كثير . كقوله : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم=

قال الله تعالى (١٦ : ١٢٠) : ﴿ إن إبراهيم كان أُمَّةً قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين ﴾ وصف إبراهيم – عليه السلام – بهذه الصفات التى هى الغاية فى تحقيق التوحيد .

الأولى : أنه كان أمة ، أى قدوةً وإماماً معلماً للخير . وما ذاك إلا لتكميله مقام الصبر واليقين اللذين تُنال بهما الإمامة فى الدين .

الثانية : قوله : « قانتًا » قال شيخ الإسلام : القنوت دوام الطاعة ، والمصلى إذا أطال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت . قال تعالى (٣٩ : ٩) : ﴿ أَمَّنْ هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائمًا يحذَرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ . ا هـ ملخصاً .

الثالثة : أنه كان حنيفًا . قلت : قال العلامة ابن القيم : « الحنيف » المقبل على الله . المعرِض عن كل ما سواه . ا هـ .

الرابعة: أنه ما كان من المشركين، أى لصحة إخلاصه وكمال صدقه، وبُعده عن الشرك(١) .

= وجه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ . وقال تعالى ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى فى الآية : يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله أى أخلص له العمل وانقاد لأوامره واتبع شرعه ، ولهذا قال : ﴿ وهو محسن ﴾ أى فى عمله واتباع ما أمر به وترك ما نهى عنه زجر . فدلت هذه الآية العظيمة على أن كمال الإخلاص إنما يوجد بترك الشرك والبراءة منه وممن فعله كما تقدم فى الباب قبل هذا .

(١) قال العلامة ابن القيم – رحمه الله – فى مفتاح دار السعادة فى الوجه ١٤٧ من فضل العلم : إن الله أثنى على إبراهيم خليله بقوله : ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ الآية فهذه أربعة أنواع من الثناء ، افتتحها بأنه « أمة » وهو القدوة الذى يؤتم به . قال ابن مسعود : « الأمة : المعلم للخير » وهى فعلة – بضم الفاء – من الائتمام كالقدوة ، وهو الذى يقتدى به . والفرق بين « الأمة » ، و« الإمام » من وجهين :

أحدهما : أن الإمام كل ما يؤتم به ، سواء كان بقصده وشعوره أو لا ، ومنه سمى الطريق إماماً ، كقوله تعالى: ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ؛ فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين ﴾ أي بطريق واضح لا يخفى على السالك ولا يسمى الطريق أمة .

الثانى : أى « الأمة » فيه زيادة معنى . وهو الذى جمع صفات الكمال فى العلم والعمل ، وهو الذى بقى فيها فرداً وحده ، فهو الجامع لخصال تفرقت فى غيره ، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه ، وتفرقها أو عدمها فى غيره . ولفظ « الأمة » يشعر بهذا المعنى ، لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها ، وكذلك ضم أوله. فإن الضمة من الواو ومخرجها فيضم عند النطق بها . وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة . ومنه الحديث: « إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده » ، فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة ، ومنه سميت الأمة التى هى آحاد الأمم ، لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو عصر واحد .

الثانى : قوله « قانتاً » قال ابن مسعود : « القانت » المطيع ، والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة .

الثالث : « حنيفاً » والحنيف : المقبل على الله . يلزم من هذا المعنى ميله عما سواه ، فالميل لازم معنى الحنيف ، لا أنه موضوعه لغة . =

المشركين ﴾ ، وقال : (٢٣ : ٥٩) : ﴿ والذين هم بربِّهِمْ لا يُشركون ﴾ .

قلت : يوضِّح هذا قوله تعالى (٦٠ : ٤) : ﴿ قد كانت لكم أُسْوَةٌ حسنة فى إبراهيم والذين معه ﴾ أى على دينه من إخوانه المرسلين ، قاله ابن جرير - رحمه الله تعالى - ، ﴿ إذ قالوا لقومهم : إنَّا بُرءَاءُ منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبَدَا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا حتى تؤمنوا بالله وحْدَه ، إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنَّ لك وما أملك لك من الله من شىء ﴾ وذكر تعالى عن خليله - عليه السلام - أنه قال لأبيه آزَرَ (١٩ : ٤٨ ، ٤٩) : ﴿ وأعتزِلُكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى ، عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيًا ، فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهَبْنا له إسحاقَ ويعقوبَ ، وكلاً جعلنا نبياً ﴾ فهذا هو تحقيقُ التوحيد . وهو البراءةُ من الشرك وأهله واعتزالُهم ، والكفر بهم وعداوتهم وبُغْضُهم . فالله المستعان .

قال المصنف - رحمه الله - فى هذه الآية : ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ لئلا يستوحش سالك

= الرابع : قوله : « شاكراً لأنعمه » والشكر للنعم مبنى على ثلاثة أركان : الإقرار بالنعمة ، وإضافتها إلى المنعم بها ، وصرفها فى مرضاته والعمل فيها بما يجب فلا يكون العبد شاكراً إلا بهذه الثلاثة .

والمقصود : أنه سبحانه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره ، فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه . ا هـ .

قال فى قرة العيون : قال العماد ابن كثير - رحمه الله تعالى - : يمدح الله تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء بتبرئته من المشركين ومن اليهودية والنصرانية والمجوسية ، و« الأمة » هو الإمام الذى يقتدى به ، و «القانت » هو الخاشع المطيع ، والحنيف : المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد ، ولهذا قال : ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ وقال مجاهد : كان إبراهيم أمة أى مؤمناً وحده ، والناس كلهم إذ ذاك كفار .

قلت : وكلا القولين حق . فقد كان الخليل عليه السلام كذلك ، وقول مجاهد - والله أعلم - لما كان الخليل كذلك فى ابتداء دعوته ونبوته ورسالته عليه السلام ، فمدحه الله تعالى بتبرئته من المشركين ، كما قال تعالى : ﴿واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا﴾ [١٩ : ٤١] الآيات [٤٣ - ٥٠] ، وقوله : ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ [٣٧ : ٨٣] الآيات [٨٥ - ١١٣] فهذا والله أعلم كان فى ابتداء دعوته عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن إذ ذاك على وجه الأرض مسلم غيره . وبذلك جاء الحديث .

وقوله : ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ فقد فارق المشركين بالقلب واللسان والأركان ، وأنكر ما كانوا عليه من الشرك بالله فى عبادته وكسر الأصنام وصبر على ما أصابه فى ذات الله . وهذا هو تحقيق التوحيد وهو أساس الدين ورأسه . كما قال تعالى : ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ [٢ : ١٣١] وأنت تجد أكثر من يقول: « لا إله إلا الله » ويدعى الإسلام يفعل الشرك بالله فى عبادته ، بدعوة من لا يضر ولا ينفع من الأموات والغائبين والطواغيت والجن وغيرهم ، ويحبهم ويواليهم ، ويخافهم ويرجوهم ، وينكر على من دعا إلى عباده الله وحده وترك عبادة ما سواه ، ويزعم أن ذلك بدعة وضلالة ، ويعادى من عمل به وأحبه وأنكر الشرك وأبغضه ، وبعضهم لا يعد التوحيد علماً ولا يلتفت إليه لجهله به وعدم محبته ، فالله المستعان .

الطريق من قلة السالكين ﴿ قانتاً لله ﴾ لا للملوك ولا للتجار المتْرَفين ﴿ حنيفاً ﴾ لا يميل يميناً ولا شمالاً ، كفعل العلماء المفتونين ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ خلافاً لمن كثّر سوادهم وزعم أنه من المسلمين . ا هـ .

وقد روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ على الإسلام . ولم يك فى زمانه أحد على الإسلام غيره .

قلت : ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم : من أنه كان إماماً يقتدى به فى الخير .

قال : وقوله تعالى (٢٣ : ٥٧ - ٥٩) : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربّهم لا يشركون ﴾ (١) .

وصف المؤمنين السابقين إلى الجنة ، فأثنَى عليهم بالصفات التى أعظمُها : أنهم بربهم لا يشركون . ولما كان المرءُ قد يَعرض له ما يَقْدحُ فى إسلامه : من شرك جَلىٍّ أو خفى ، نفى ذلك عنهم ، وهذا هو تحقيق التوحيد ، الذى حَسُنت بهم أعمالهم ، وكملت ونفعتهم .

قلت : قوله : « حسنت وكملت » هذا باعتبار سلامتهم من الشرك الأصغر ، وأما الشرك الأكبر فلا يقال فى تركه ذلك ، فتدبر . ولو قال الشارح : صحت ، لكان أقوم .

قال ابن كثير : ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ أى لا يعبدون مع الله غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله ، أحد صمد ، لم يتخد صاحبة ولا ولداً ، وأنه لا نظير له (٢) .

قال المصنف : (عن حُصين بن عبد الرحمن قال : « كنت عند سَعيد بن جُبير ، فقال : أيُّكم رأى الكوكب الذى انْقضَّ البارحة ؟ فقلت : أنا ، ثم قلت : أما إنى لم أكن فى صلاة، ولكنى لُدغتُ . قال : فما صنعتَ ؟ قلت : ارتقيتُ ، قال : فما حملك على ذلك ؟ قلت : حديث حَدثناه الشَّعبى ، قال : وما حدثكم ؟ قلت : حدثنا عن بُريدة بن الْحُصَيْب أنه قال : « لا رُقْيَةَ إلا من عين أو حُمَة » قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : « عُرِضَت علىَّ الأمم ، فرأيت النبىَّ ومعه الرهْطُ ، والنبى ومعه

---

(١) فى قرة العيون : قال العماد ابن كثير : أى مع إحسانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله وخائفون وجلون من مكره بهم ، كما قال الحسن البصرى : « المؤمن من جمع إحساناً وشفقاً ، والمنافق من جمع إساءة وأمناً » ، ﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾ أى يؤمنون بآيات الله الكونية والشرعية لقوله تعالى عن مريم : ﴿ وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ [٦٦ : ١٢] أى أيقنت أن ما كان فهو من قدر الله وقضائه ، وما شرعه الله إن كان أمراً فهو ما يحبه الله ويرضاه ، وإن كان نهياً فهو ما يكرهه ويأباه ، وإن كان خبراً فهو حق .

(٢) فى قرة العيون : فترك الشرك يتضمن كمال التوحيد ومعرفته على الحقيقة ومحبته وقبوله والدعوة إليه ، كما قال تعالى : ﴿ قل إنى أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب ﴾ وتضمنت هذه الآية كمال التوحيد وتحقيقه وبالله التوفيق .

الكوكب الذى انقضَّ البارحةَ ؟ فقلتُ : أنا ، ثم قلتُ : أمَا إنى لم أكنْ فى صلاةٍ ،

الرجل والرجلان ، والنبى وليس معه أحد . إذ رُفع لى سواد عظيم ، فظننت أنهم أمتى ، فقيل لى : هذا موسى وقومه . فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لى : هذه أمتك ، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ثم نَهضَ فدخل منزله ، فخاض الناسُ فى أولئك . فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحِبُوا رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم : فلعلهم الذين وُلِدوا فى الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء . فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأَخبروه، فقال : هم الذين لا يَسْتَرْقُون ولا يَكْتَوُون ولا يتطيَّرون ، وعلى ربهم يتوكلون . فقام عُكَّاشة بن مُحَصِّن ، فقال : يا رسول الله ، ادْعُ الله أن يجعلنى منهم ، قال : أنت منهم ، ثم قام رجل آخر ، فقال : ادْعُ الله أن يجعلنى منهم ، فقال : سبقك بها عُكَّاشة » .

هكذا أورده المصنف غير مَعزُوٌّ ، وقد رواه البخارى مختصراً ومطولاً ، ومسلم ، واللفظ له ، والترمذى والنسائى .

قوله : « عن حصين بن عبد الرحمن » هو السلمى [1] ، أبو الهذيل الكوفى ، ثقة . مات سنة ست وثلاثين ومائة ، وله ثلاث وتسعون سنة .

و« سعيد بن جبير » : هو الإمام الفقيه من جِلّة أصحاب ابن عباس ، روايته عن عائشة وأبى موسى مرسلة . وهو كوفى مولًى لبنى أسَد ، قُتل بين يدى الحجاج سنة خمس وتسعين، ولم يكمل الخمسين .

قوله: (انقض) هو بالقاف والضاد المعجمة أى سقط، و« البارحة » هى أقرب ليلة مضت. قال أبو العباس ثعلب : يقال قبل الزوال : رأيت الليلة ، وبعد الزوال : رأيت البارحة ، وكذا قال غيره . وهى مشتقة من بَرح : إذا زال .

قوله : (أما إنى لم أكن فى صلاة) قال فى مغنى اللبيب : « أما » بالفتح والتخفيف على وجهين . أحدهما : أن تكون حرف استفتاح بمنزلة « ألا » فإذا وقعت « أنَّ » بعدها كسرت . الثانى : أن تكون بمعنى حقاً ، أو أحق . وقال آخرون : هى كلمتان . الهمزة للاستفهام ، و« ما » اسم بمعنى شىء ، أى أذلك الشىء حق ، فالمعنى أحق هذا ؟ وهو الصواب . و« ما » نصب على الظرفية ، وهذه تفتح « أنّ » بعدها . انتهى .

والأنسب هنا هو الوجه الأول ، والقائل : هو حصين ، خاف أن يظن الحاضرون أنه رآه وهو يصلى . فنفى عن نفسه إبهام العبادة ، وهذا يدل على فضل السلف ، وحرصهم على الإخلاص وبعدهم عن الرياء ، والتزين بما ليس فيهم .

---

(١) فى قرة العيون : الحارثى ، من تابعى التابعين عن الشعبى .

ولكنى لُدغْتُ ، قال : فما صنعتَ ؟ قلت : ارتقيتُ . قال : فما حَمَلك على ذلك ؟ قلتُ : حَديث حدثناه الشَّعبى، قال: وما حدثكم ؟ قلت: حدثنا عن بُرَيدة بن الْحُصَيب أنه قال : « لا رُقيةَ إلا من عين أو حُمَة » . قال : قد أحسنَ من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

قوله : (ولكنى لدغت) بضم أوله وكسر ثانيه . قال أهل اللغة : يقال : لدغته العقرب وذوات السموم ، إذا أصابته بسمها ، وذلك بأن تأبره بشوكتها .

قوله : (قلت : ارتقيت) . لفظ مسلم : « استرقيت » أى طلبت من يرقينى .

قوله : (فما حملك على ذلك ؟) فيه طلب الحجة على صحة المذهب .

قوله : (حديث حدثناه الشعبى) اسمه : عامر بن شُراحيل الهمدانى ، ولد فى خلافة عمر وهو من ثقات التابعين وفقهائهم [١] مات سنة ثلاث ومائة .

قوله : (عن بريدة) بضم أوله وفتح ثانيه تصغير بردة . ابن الحصيب - بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين - ابن الحارث الأسلمى ، صحابى شهير . مات سنة ثلاث وستين . قاله ابن سعد .

قوله : (لا رقية إلا من عين أو حمة) وقد رواه أحمد وابن ماجه عنه مرفوعاً . ورواه أحمد وأبو داود والترمذى عن عمران بن حصين به مرفوعاً . قال الهيثمى : رجال أحمد ثقات .

و« العين » : هى إصابة العائن غيره بعينه . و« الحمة » - بضم المهملة وتخفيف الميم - سم العقرب وشبهها . قال الخطابى : ومعنى الحديث : لا رقية أشفى وأولى من رقية العين والحمة . وقد رَقى النبى ﷺ ورُقى .

قوله : (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع) أى من أخذ بما بلغه من العلم وعمل به فقد أحسن ، بخلاف من يعمل بجهل ، أو لا يعمل بما يعلم ، فإنه مسىء آثم . وفيه فضيلة علم السلف وحسن أدبهم [٢] .

قوله : (ولكن حدثنا ابن عباس) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، ابن عم النبى ﷺ ، دعا له فقال : « اللّهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » [٣] فكان كذلك مات بالطائف سنة ثمان وستين .

---

(١) روى عن عمر وعلى وابن مسعود ولم يسمع منهم وعن أبى هريرة وعائشة وحفصة وابن عباس وخلق . قال الشعبى : كتبت سوداء فى بيضاء يعنى أنه كان معتنياً بالحفظ .

(٢) فى قرة العيون : فيه حسن الأدب مع العلم وأهله وأن من فعل شيئاً سئل عن مستنده فى فعله هل كان مقتدياً أم لا ؟ ومن لم يكن معه حجة شرعية فلا عذر له بما فعله ، ولهذا ذكر ابن عبد البر الإجماع على أن المقلد ليس من أهل العلم . فتفطن لهذا .

(٣) رواه البخارى فى عدة مواضع من صحيحه .

« عُرِضت علىَّ الأُمم فرأيتُ النبىَّ ومعه الرهط ، والنبىَّ ومعه الرجل والرجلان ، والنبى وليس معه أحد إذ رُفع لى سوادٌ عظيم ، فظننتُ أنهم أُمتى ،

قال المصنف - رحمه الله - : (وفيه عمق علم السلف لقوله : « قد أحسن من انتهى إلى ما سمع » ولكن كذا وكذا ، فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثانى) .

قوله : (عُرِضت علىّ الأمم) وفى الترمذى والنسائى من رواية عَبْثر بن القاسم عن حصين ابن عبد الرحمن : « أن ذلك كان ليلة الإسراء » قال الحافظ : فإن كان ذلك محفوظاً كان فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء ، وأنه وقع بالمدينة أيضاً . قلت : وفى هذا نظر (١) .

قوله : (فرأيت النبى ومعه الرهط) والذى فى صحيح مسلم « الرهيط » بالتصغير لا غير، وهم الجماعة دون العشرة ، قاله النووى .

قوله : (والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى وليس معه أحد) فيه الرد على من احتج بالكثرة (٢) .

قوله : (إذ رفع لى سواد عظيم) المراد هنا الشخص الذى يُرى من بعيد .

قوله : (فظننت أنهم أمتى) لأن الأشخاص التى ترى فى الأفق لا يدرك منها إلا الصورة وفى صحيح مسلم : « ولكن انظر إلى الأفق » ، ولم يذكره المصنف ؛ فلعله سقط من الأصل الذى نقل الحديث منه . والله أعلم .

---

(١) فى قرة العيون : فالله أعلم متى عرضت . وعرضها أن الله تبارك وتعالى أراه مثالها إذا جاءت الأنبياء ومن تبعهم . فمن نجا بالإيمان بالله وما بعث به أنبياءه ورسله من دينه الذى شرعه لهم وهو عبادته وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه ، والأخذ بما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه كما قال تعالى عن قوم نوح : ﴿ قال يا قوم إنى لكم نذير مبين إن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾ [٧١ : ٣] فعبادته وتوحيده وطاعته بامتثال ما أمرهم به ، وترك ما نهاهم عنه ، وطاعة رسوله ، هذا هو الدين ، أن لا يعبد إلا الله ، وأن لا يعبد إلا بما شرع ، فعلاً وتركاً ، وأن يقدم طاعة رسوله على ما يحبه ويهواه .

(٢) فى قرعة العيون : أى يبعث فى قومه فلا يتبعه منهم أحد كما قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين * وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون ﴾ [١٥ : ١٠ ، ١١] وفيه دليل على أن الناجى من الأمم هم القليل ، والأكثرون غلبت عليهم الطبائع البشرية فعصوا الرسل فهلكوا ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ [٦ : ١١٦] ، وقال : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين ﴾ [٣٠ : ٤٢] وأمثال هذه الآيات فى القرآن كثير ، والناجون - وإن كانوا أقل القليل - فهم السواد الأعظم ، فإنهم الأعظمون قدراً عند الله . وإن قلوا . فليحذر المسلم أن يغتر بالكثرة ، وقد اغتر بهم كثيرون حتى بعض من يدعى العلم . اعتقدوا فى دينهم ما يعتقده الجهال الضلال ولم يلتفتوا إلى ما قاله الله ورسوله .

فقيل لى : هذا موسى وقومه، فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيم ، فقيل لى : هذه أُمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنةَ بغير حساب ولا عذاب . ثم نهض فدخل منزله ، فخاض الناسُ فى أُولئك ، فقال بعضُهم : فلعلهمُ الذين صحبوا رسول الله ﷺ . وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلِدُوا فى الإسلام ، فلم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسولُ الله ﷺ فأخبروه ، فقال : هم الذين لا يَسْتَرْقُون ،

قوله : (فقيل لى : هذا موسى وقومه) أى موسى بن عمران كليم الرحمن ، وقومه : أتباعه على دينه من بنى إسرائيل [(١)] .

قوله : (فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لى : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب) أى لتحقيقهم التوحيد ، وفى رواية ابن فضيل : « ويدخل الجنة من هؤلاء من أمتك سبعون ألفاً » ، وفى حديث أبى هريرة فى الصحيحين : « أنهم تضئ وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » ، وروى الإمام أحمد والبيهقى فى حديث أبى هريرة : «فاستزدت ربى فزادنى مع كل ألف سبعين ألفاً » قال الحافظ : وسنده جيد [(٢)] .

قوله : (ثم نهض) أى قام . قوله : (فخاض الناس فى أولئك) « خاض » بالخاء والضاد المعجمتين . وفى هذا إباحة المناظرة والمباحثة فى نصوص الشرع على وجه الاستفادة وبيان الحق ، وفيه عُمق علم السلف لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل . وفيه حرصهم على الخير . ذكره المصنف [(٣)] .

قوله : (فقال : هم الذين لا يسترقون) هكذا ثبت فى الصحيحين وهو كذلك فى حديث

---

(١) فى قرة العيون : فيه فضيلة أتباع موسى من بنى إسرائيل ممن آمن منهم بالرسل والكتب التى أنزلها الله التوراة، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان وغيرها . وكانت بنو إسرائيل قبل التفرق كثيرين وفيهم الأنبياء ، ثم بعد ذلك حدث ما حدث من اليهود ، وهذا الحديث يدل على أن التابع لموسى عليه السلام كثيرون جداً . وقد قال تعالى: ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ [٤٥ : ١٦] أى فى زمانهم . وذلك أن فى زمانهم وقبله ممن كفر بالله خلق لا يحصون ، كحزب جالوت وبختنصر وأمثالهم ، ففضل الله بنى إسرائيل بالإيمان فصاروا أفضل أهل زمانهم وحدث فيهم ما ذكر الله فى سورة البقرة وغيرها من معصيتهم لأنبيائهم واختلافهم فى دينهم ، وقد ذكره الله تعالى محتجاً به على اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ . فتدبره ما ذكره الله تعالى من أحوالهم بعد الاختلاف .

(٢) فى قوة العيون : فيه فضيلة هذه الأمة وأنهم أكثر الأمم تابعاً لنبيهم ﷺ وقد كثروا فى عهد الصحابة رضى الله عنهم ، وفى وقت الخلفاء الراشدين ومن بعدهم ، فملأوا القرى والأمصار والقفار ، وكثر فيهم العلم ، واجتمعت لهم الفنون فى العلوم النافعة ، فما زالت هذه الأمة على السنة فى القرون الثلاثة المفضلة ، وقد قلوا فى آخر الزمان .

قال شيخنا رحمه الله تعالى فى مسائله : وفيه فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية ، فالكمية الكثرة والعدد ، والكيفية فضيلتهم فى صفاتهم .

(٣) فى قرة العيون : وفيه أيضاً فضل الصحابة رضى الله عنهم فى مذاكرتهم العلم وحرصهم على فهم ما =

ابن مسعود فى مسند أحمد . وفى رواية لمسلم : « ولا يرقون » قال شيخ الإسلام ابن تيمية : هذه الزيادة وهمٌ من الراوى ، لم يقل النبى ﷺ : « ولا يرقون » ، وقد قال النبى ﷺ وقد سئل عن الرُّقى : « من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه » [1] وقال : « لا بأس بالرُّقى ما لم تكن شركاً » [2] قال : وأيضاً فقد رقى جبريلُ النبى ﷺ ، ورقى النبى ﷺ أصحابه [3] ، قال: والفرق بين الراقى والمسترقى : أن المسترقى سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه ، والراقى محسن . قال : وإنما المراد وصف السبعين ألفاً بتمام التوكل ، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم . وكذا قال ابن القيم [4] .

قوله : (ولا يكتوون) أى لا يسألون غيرهم أن يكويهم ، كما لا يسألون غيرهم أن يرقيهم استسلاماً للقضاء ، وتلذذاً بالبلاء .

قلت : والظاهر أن قوله : « لا يكتوون » أعم من أن يسألوا ذلك أو يفعل ذلك باختيارهم أما الكى فى نفسه فجائز ، كما فى الصحيح عن جابر بن عبد الله : « أن النبى ﷺ بعث إلى أُبى بن كعب طبيباً ، فقطع له عِرقاً وكواه » .

وفى صحيح البخارى عن أنس : « أنه كوى من ذات الجنب [5] ، والنبى ﷺ حى » ، وروى الترمذى وغيره عن أنس : « أن النبى ﷺ كوى أسعد بن زُرارة من الشوكة » [6] .

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس مرفوعاً : « الشفاء فى ثلاث : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكيّة نار ، وأنا أنهى أُمتى عن الكى » ، وفى لفظ : « وما أحب أن أكتوى » .

= حدثهم به نبيهم ﷺ حرصاً على العمل به ، وفيه جواز الاجتهاد فيما لم يكن فيه دليل ، لأنهم قالوا ما قالوا باجتهادهم ، ولم ينكر ﷺ ذلك عليهم ، لكن المجتهد إذا لم يكن معه دليل لا يجوز له أن يجزم بصواب نفسه ، بل يقول : لعل الحكم كذا وكذا كقول الصحابة رضى الله عنهم فى هذا الحديث .

(١) رواه مسلم والإمام أحمد وابن ماجه عن جابر رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم وأبو داود عن عوف بن مالك .

(٣) رقى جبريل النبى ﷺ من السحر ، كما فى البخارى من حديث عائشة وقد ثبت فى البخارى وغيره رقى كثير من قول النبى ﷺ عن عائشة وأنس وابن مسعود وغيرهم .

(٤) فى قرة العيون : فتركوا الشرك رأساً ، ولم ينزلوا حوائجهم بأحد فيسألونه الرقية فما فوقها ، وتركوا الكى وإن كان يراد للشفاء ، والحامل لهم على ذلك قوة توكلهم على الله وتفويضهم أمورهم إليه ، وأن لا تتعلق قلوبهم بشىء سواه فى ضمن ما دبره وقضاه فلا يرغبون إلا إلى ربهم ، ولا يرهبون إلا منه ، ويعتقدون أن ما أصابهم بقدره واختياره لهم ، فلا يفزعون إلا إليه وحده فى كشف ضرهم ، قال تعالى عن يعقوب عليه السلام : ﴿ إنما أشكوا بثى وحزنى إلى الله ﴾ [١٢ : ٨٦] .

(٥) قال فى النهاية : ذات الجنب الدمل الكبيرة التى يظهر فى باطن الجنب وينفجر إلى داخل وقلما يسلم صاحبها. ا هـ ولعلها السل ، والله أعلم.

(٦) قال فى النهاية : الشوكة حمرة تعلو الوجه والجسد .

قال ابن القيم -رحمه الله-: قد تضمنت أحاديث الكى أربعة أنواع، أحدها: فعله، والثانى: عدم محبته ، والثالث : الثناء على من تركه ، والرابع : النهى عنه . ولا تعارُض بينها بحمد الله ، فإن فعله له يدل على جواه ، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه . وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل ، وأما النهى عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة .

قوله : (ولا يتطيرون) أى لا يتشاءمون بالطيور ونحوها . وسيأتى - إن شاء الله تعالى - بيان الطيرة وما يتعلق بها فى بابها .

قوله : (وعلى ربهم يتوكلون) ذكر الأصل الجامع الذى تفرعت عنه هذه الأفعال والخصال، وهو التوكل على الله ، وصدق الالتجاء إليه ، والاعتماد بالقلب عليه ؛ الذى هو نهاية تحقيق التوحيد الذى يثمر كل مقام شريف : من المحبة والرجاء والخوف ، والرضا به رباً وإلهاً ، والرضا بقضائه .

واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً ؛ فإن مباشرة الأسباب فى الجملة أمر فطرى ضرورى ، لا انفكاك لأحد عنه ؛ بل نفس التوكل : مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى (٦٥ : ٣) : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ أى كافيه . وإنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها ؛ توكلاً على الله تعالى ، كالاكتواء والاسترقاء فترْكهم له لكونه سبباً مكروهاً ، لا سيما والمريض يتشبث - فيما يظنه سبباً لشفائه - بخيط العنكبوت .

وأما مباشرة الأسباب والتداوى على وجه لا كراهة فيه ؛ فغير قادح فى التوكل ، فلا يكون تركه مشروعاً ، لما فى الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعاً : « ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء ، علِمه مَن علَمه ، وجهله من جهله » وعن أسامة بن شريك قال : « كنتُ عند النبى ﷺ وجاءت الأعراب ، فقالوا : يا رسول الله ، أنتداوى ؟ قال : نعم ، يا عباد الله تداووا ، فإن الله - عز وجل - لم يضع داء إلا وضع له شفاء ، غير داء واحد . قالوا : وما هو ؟ قال الهرم » رواه أحمد .

وقال ابن القيم - رحمه الله تعالى - : وقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات ، وإبطال قول من أنكرها ، والأمر بالتداوى ، وأنه لا ينافى التوكل ، كما لا ينافيه دفع ألم الجوع والعطش ، والحر والبرد : بأضدادها ، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التى نصبها الله تعالى مقتضية لمسبباتها قدراً وشرعاً ، وأن تعطيلها يقدح فى نفس التوكل ، فإن تركْها عجز ينافى التوكل الذى حقيقته اعتماد القلب على الله تعالى فى حصول ما ينفع العبد فى دينه ودنياه ، ودفع ما يضره فى دينه ودنياه . ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب ، وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع ، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ولا توكله عجزاً .

فقام عُكَّاشة بن مِحْصن ، فقال : ادعُ الله أن يَجْعَلَنى منهم . قال : أنت منهم ، ثم قال رجلٌ آخرُ فقال : ادعُ الله أن يجعلنى منهم . فقال : سبقك بها عُكَّاشة » .

وقد اختلف العلماء فى التداوى : هل هو مباح ، وتركه أفضل ، أو مستحب أو واجب ؟

فالمشهور عن أحمد : الأول ، لهذا الحديث وما فى معناه ، والمشهور عند الشافعية : الثانى، حتى ذكر النووى فى شرح مسلم : أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف ، واختاره الوزير أبو المظفر ، قال : ومذهب أبى حنيفة : أنه مؤكد حتى يدانى به الوجوب . قال : ومذهب مالك : أنه يستوى فعله وتركه، فإنه قال: لا بأس بالتداوى ، ولا بأس بتركه.

وقال شيخ الإسلام : ليس بواجب عند جماهير الأئمة ، وإنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعى وأحمد .

قوله : (فقام عكاشة بن مِحْصن) هو بضم العين وتشديد الكاف ، و« محصن » بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المهملتين - ابن حُرثان - بضم المهملة وسكون الراء بعدها مثلثة الأسدى ، من بنى أسد بن خزيمة . كان من السابقين إلى الإسلام ومن أجمل الرجال . هاجر وشهد بدراً وقاتل فيها ، واستشهد فى قتال الرِّدَّة مع خالد بن الوليد بيد طُليحة الأسدى سنة اثنتى عشرة ، ثم أسلم طليحة بعد ذلك وجاهد الفَرس يوم القادسية مع سعد بن أبى وقاص . واستشهد فى وقعة الجسر المشهورة .

قوله : (فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم ، قال : أنت منهم) وللبخارى فى رواية : « فقال : اللهم اجعله منهم » وفيه : طلب الدعاء من الفاضل (١) .

قوله : (ثم قام رجل آخر) ذكره مبهماً ، ولا حاجة بنا إلى البحث عن اسمه (٢) .

قوله : (فقال : سبقك بها عكاشة) قال القرطبى : لم يكن عند الثانى من الأحوال ما كان عند عكاشة ، فلذلك لم يجبه ، إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضراً فيتسلسل الأمر ، فسدَّ الباب بقوله ذلك . ا هـ .

قال المصنف - رحمه الله تعالى - : (وفيه استعمال المعاريض وحسن خلقه ﷺ) .

---

(١) فى قرة العيون : فيه أن شفاعة الحى لمن سأله الدعاء إنما كانت بدعائه . وبعد الموت قد تعذر ذلك بأمور لا تخفى على من له بصيرة ، فمن سأل ميتاً أو غائباً فقد سأله ما لا يقدر عليه إلا الله ، وكل من سأل أحداً ما لا يقدر عليه إلا الله فقد جعله نداً لله كما كان المشركون كذلك ، وقال تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ [٢ : ٢٢] إنه ربكم وخالقكم ومن قبلكم ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، فلا ترغبوا عنه إلى غيره بل أخلصوا له العبادة بجميع أنواعها فيما تطلبونه من قليل أو كثير .

وقوله : أنت منهم لما كان يعلمه ﷺ من إيمانه وفضله وجهاده كما فى الحديث « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » .

(٢) فى قرة العيون : والظاهر أنه أراد صلوات الله وسلامه عليه سد الذريعة لئلا يتتابع الناس بسؤال ذلك فيسأله من ليس أهلاً له ، وذلك منه ﷺ تعريض كما لا يخفى .

فيه مسائل :

الأولى : معرفةُ مراتبِ الناسِ فى التوحيد .

الثانية : ما معنى تحقيقه .

الثالثة : ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يكُ من المشركين .

الرابعة : ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك .

الخامسة : كون ترك الرُّقية والْكيِّ من تحقيق التوحيد .

السادسة : كون الجامع لتلك الخصال هو التوكيل .

السابعة : عُمْقُ علمِ الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل .

الثامنة : حرصهم على الخير .

التاسعة : فضيلة هذه الأمة بالكمِّيَّة والْكيفيَّة .

العاشرة : فضيلة أصحاب موسى .

الحادية عشرة : عرضُ الأمم عليه عليه الصلاة والسلام .

الثانية عشرة : أن كل أُمة تُحْشَر وحدها مع نبيها .

الثالثة عشر : قِلَّة من استجابَ للأنبياء .

الرابعة عشرة : أن من لم يجبْه أحدٌ يأتى وحده .

الخامسة عشرة : ثمرة هذا العلم ، وهو عدمُ الاغترار بالكثرةِ ، وعدم الزُّهد فى القلَّة .

السادسة عشرة : الرخْصة فى الرُّقْيةِ من العين والحُمَة .

السابعة عشرة : عمقُ علم السلفِ لقوله : « قد أَحسن من انتهى إلى ما سمع . ولكن كذا وكذا » فعلم أن الحديث الأول لاَ يخالفُ الثانى .

الثامنة عشرة : بُعد السلفِ عن مَدْح الإنسان بما ليس فيه .

التاسعة عشرة : « قوله : أنت منهم » عَلَمٌ من أعلام النبوة .

العشرون : فضيلة عكاشة .

الحادية والعشرون : استعمال المعاريض .

الثانية والعشرون : حسن خُلُقه ﷺ .

❊ ❊ ❊

باب الخوف من الشرك

وقول الله عز وجل (٤ : ٤٨ ، ١١٦) : ﴿ إنَّ الله لا يغفرُ أن يُشركَ به ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ .

قوله : (باب الخوف من الشرك)

وقول الله تعالى (٤ : ٤٨ ، ١١٦) : ﴿ إن الله لا يغفرُ أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ .

قال ابن كثير : أخبر تعالى أنه ﴿ لا يغفر أن يشرك به ﴾ أى لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ أى : من الذنوب لمن يشاء من عباده . انتهى .

فتبين بهذه الآية أن الشرك أعظم الذنوب ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتب منه وما دونه من الذنوب فهو داخل تحت المشيئة إن شاء غفره لمن لقيه به ، وإن شاء عذبه به ، وذلك يوجب للعبد شدة الخوف من الشرك الذى هذا شأنه عند الله ؛ لأنه أقبح القبيح وأظلم الظلم ، وتنقّصٌ لرب العالمين ، وصرف خالص حقه لغيره ، وعدلُ غيره به ، كما قال تعالى (٦ : ١) : ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر ، مناف له من كل وجه ، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين ، والاستكبار عن طاعته ، والذل له ، والانقياد لأوامره الذى لا صلاح للعالم إلا بذلك ، فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة ، كما قال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض : الله الله » رواه مسلم . ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس فى خصائص الإلهية : من ملك الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، الذى يوجب تعلق الدعاء ، والخوف والرجاء ، والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله وحده فمن علَّق ذلك بمخلوق فقد شبَّهه بالخالق ، وجعل من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً شبيهاً بمن له الحمد كله ، وله الخلق كله ، وله الملك كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، وبيده الخير كله ، فأزمَّة الأمور كلها بيده سبحانه ومرجعها إليه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، الذى إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم . فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات : بالقادر الغنى بالذات . ومن خصائص الإلهية : الكمال المطلق من جميع الوجوه ، الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والإجلال ، والخشية والدعاء ، والرجاء والإنابة ، والتوكل والتوبة والاستعانة ، وغاية الحب مع غاية الذل : كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لله وحده ، ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره . فمن فعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ، ولا ندّ له ، وذلك أقبح التشبيه وأبطله . فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يغفره ، مع أنه كتب على نفسه الرحمة . هذا معنى كلام ابن القيم رحمه الله .

وفى الآية رد على الخوارج المكفرين بالذنوب . وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر يخلدون فى النار ، وليسوا عندهم بمؤمنين ولا كفار .

ولا يجوز أن يحمل قوله : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ على التائب ، فإن التائب من الشرك مغفور له كما قال تعالى (٣٩ : ٥٣) : ﴿ قل : يا عبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ فهنا عمم وأطلق ؛ لأن المراد به التائب، وهناك خص وعلّق ؛ لأن المراد به من لم يتب . هذا ملخص قول شيخ الإسلام [1] .

قوله : (وقال الخليل عليه السلام : (١٤ : ٣٥) : ﴿ واجنبنى وبنىَّ أن نعبد الأصنام ﴾) الصنم : ما كان منحوتاً على صورة ، والوثن : ما كان موضوعاً على غير ذلك . ذكره الطبرى عن مجاهد .

قلت : وقد يسمى الصنم وثناً كما قال الخليل [2] عليه السلام (٢٩ : ١٧) : ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً ﴾ - الآية ، ويقال : إن الوثن أعم ، وهو قوى ، فالأصنام أوثان ، كما أن القبور أوثان .

قوله : ﴿ واجنبنى وبنىَّ أن نعبد الأصنام ﴾ أى : اجعلنى وبنىَّ فى جانب عن عبادة الأصنام وباعد بيننا وبينها . وقد استجاب الله تعالى دعاءه ، وجعل بنيه أنبياء وجنَّبهم عبادة الأصنام وقد بين ما يوجب الخوف من ذلك بقوله : ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ فإنه هو الواقع فى كل زمان ، فإذا عرف الإنسان أن كثيراً وقعوا فى الشرك الأكبر وضلوا بعبادة الأصنام: أوجب ذلك خوفه من أن يقع فيما وقع فيه الكثير من الشرك الذى لا يغفره الله .

قال إبراهيم التيمى : ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم ؟ رواه ابن جرير وابن أبى حاتم .

---

(١) فى قرة العيون : قال النووى رحمه الله تعالى : أما دخول المشرك النار فهو على عمومه فيدخلها ويخلد فيها ولا فرق بين الكتابى اليهودى والنصرانى ، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة . ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره ، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك ، وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع به ، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مصراً عليها ومات على ذلك ، فهو تحت المشيئة ، فإن عفى عنه دخل الجنة أولاً وإلا عذب فى النار ثم أخرج منها وأدخل الجنة . اهـ .

قلت : هذا قول أهل السنة والجماعة ، لا اختلاف بينهم فى ذلك وهذه الآية من أعظم ما يوجب الخوف من الشرك ، لأن الله تعالى قطع المغفرة عن الشرك وأوجب له الخلود فى النار وأطلق ولم يقيد ، ثم قال : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فخصص وقيد فيما دون الشرك ، فهذا الذنب الذى هذا شأنه ، يأمل أن يقع فيه فلا يرجى له معه نجاة إن لم يتب عنه قبل الوفاة .

(٢) الخلة أخص من المحبة ولذلك اختص الله بها الخليلين إبراهيم ومحمداً عليهما من الله أفضل الصلاة والسلام ، ويقول النبى ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر ولكن الله اتخذنى خليلاً » رواه البخارى .

فلا يأمن الوقوع فى الشرك إلا من هو جاهل به وبما يخلصه منه : من العلم بالله وبما بعث به رسوله من توحيده ، والنهى عن الشرك به [1] .

قال المصنف : (وفى الحديث : « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، فسئل عنه ؟ فقال : الرياء ») أورد المصنف هذا الحديث مختصراً غير معزوّ . وقد رواه الإمام أحمد والطبرانى والبيهقى . وهذا لفظ أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا ليث ، عن يزيد - يعنى ابن الهاد - عن عمرو عن محمود بن لَبيد : أن رسول الله ﷺ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة ، إذا جازى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟ » .

قال المنذرى : ومحمود بن لبيد رأي النبى ﷺ ، ولم يصح له منه سماع فيما أرى . وذكر ابن أبى حاتم : أن البخارى قال : له صحبة ، ورجحه ابن عبد البر والحافظ ، وقد رواه

(١) فى قرة العيون : فإذا كان الخليل إمام الحنفاء الذى جعله الله أمة وحده ، وابتلاه بكلمات فأتمهن ، وقال : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ وأمر بذبح ولده فامتثل أمر ربه ، وكسر الأصنام واشتد نكيره على أهل الشرك ، ومع ذلك يخاف أن يقع فى الشرك الذى هو عبادة الأصنام لعلمه أنه لا يصرفه عنه الله إلا بهدايته وتوفيقه ، لا بحوله هو وقوته .

فهذا أمر لا يؤمن الوقوع فيه ، وقد وقع فيه الأذكياء من هذه الأمة بعد القرون المفضلة فاتخذت الأصنام وعبدت، فالذى خافه الخليل عليه السلام على نفسه وبنيه وقع فيه أكثر بعد القرون المفضلة ، فبنيت المساجد والمشاهد على القبور وصرفت لها العبادات بأنواعها ، واتخذ ذلك ديناً ، وهى أوثان وأصنام كأصنام قوم نوح واللات والعزى ومناة وأصنام العرب وغيرهم . فما أشبه ما وقع فى آخر هذه الأمة بحال أهل الجاهلية من مشركى العرب وغيرهم

بل وقع ما هو أعظم من الشرك فى الربوبية مما يطول عده (ز) فذكر عليه السلام السبب الذى أوجب له الخوف عليه وعلى ذريته بقوله : ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ وقد ضلت الأمم بعبادة الأصنام فى زمن الخليل وقبله وبعده . فمن تدبر القرآن عرف أحوال الخلق وما وقعوا فيه من الشرك العظيم الذى بعث الله أنبياءه ورسله بالنهى عنه والوعيد على فعله والثواب على تركه . وقد هلك من هلك بإعراضه عن القرآن ، وجهله بما أمر الله به ونهى عنه . نسأل الله الثبات على الإسلام والاستقامة على ذلك إلى أن نلقى الله على التوحيد إنه ولى ذلك والقادر عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وقال تعالى عن عيسى : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ رد أمرهم إلى الله كما رده محمد عليه السلام ، وقد بين الله تعالى فيما أنزله على نبيه محمد ﷺ حكمه فى أهل الشرك بأنه لا يغفره لهم فلا معارضة ، وقد بين حكمه فيهم فى هذا الكتاب العزيز الذى ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ [٤١ : ٤٢] ، فإن أكثر الناس يعتقدون أن الأقطاب الأربعة وعلى رأسهم القطب الغوث يتصرفون فى الكون بالإحياء والإماتة والرزق والضر والنفع وأن مجلس أوليائهم تعرض عليه شئون العالم . اقرأ كتاب الشعرانى ، و« الإبريز » للدباغ ، وكتب التيجانية وغيرها من كتب أولئك الضالين المضلين تجد الشرك الذى ما كان يخطر على بال أبى جهل وإخوانه ، لأنهم لم يكونوا بوقاحة هؤلاء وفجورهم .

الطبرانى بأسانيد جيدة عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج . مات محمود سنة ست وتسعين. وقيل : سنة سبع وتسعين ، وله تسع وتسعون سنة .

قوله : (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) هذا من شفقته ﷺ بأمته ورحمته ورأفته بهم ، فلا خير إلا دلهم عليه وأمرهم به ، ولا شر إلا بيَّنه لهم وأخبرهم به ونهاهم عنه ، كما قال ﷺ فيما صح عنه : « ما بعث الله من نبى إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم - الحديث » فإذا كان الشرك الأصغر مخوفاً على أصحاب رسول الله ﷺ مع كمال علمهم وقوة إيمانهم ، فكيف لا يخافه وما فوقه من هو دونهم فى العلم والإيمان بمراتب ؟ خصوصاً إذا عرف أن أكثر علماء الأمصار اليوم لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقر به المشركون، وما عرفوا معنى الإلهية التى نفتها كلمة الإخلاص عن كل ما سوى الله [(١)] .

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر عن حذيفة بن اليمان عن أبى بكر عن النبى ﷺ قال : «الشرك أخفى من دبيب النمل . قال أبو بكر : يا رسول الله ، وهل الشرك إلا ما عبد من دون الله ، أو ما دعى مع الله ؟ قال : ثكلتك أمك ، الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل » الحديث . وفيه : « أن تقول : أعطانى الله وفلان ، والند أن يقول الإنسان : لولا فلان قتلنى فلان » اهـ من الدر .

قال المصنف : (وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال : « من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار » رواه البخارى [(٢)] .

---

(١) فى قرة العيون : فإذا كان يخافه ﷺ على أصحابه الذين وحدوا الله بالعبادة ورغبوا إليه وإلى ما أمرهم به من طاعته فهاجروا وجاهدوا من كفر به ؛ وعرفوا ما دعاهم إليه نبيهم ، وما أنزله الله فى كتابه من الإخلاص والبراءة من الشرك ؛ فكيف لا يخاف من لا نسبة له إليهم فى علم ولا عمل مما هو أكبر من ذلك ! وقد أخبر ﷺ عن أمته بوقوع الشرك الأكبر فيهم بقوله فى حديث ثوبان الآتى ذكره : « حتى يلحق قبائل من أمتى بالمشركين ، وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان » وقد جرى ما أخبر به ﷺ وعمت به البلوى فى أكثر الأقطار حتى اتخذوا ديناً مع ظهور الآيات المحكمات ، والأحاديث الصحيحة فى النهى عنه والتخويف منه كما قال تعالى : ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴾ [٥ : ٧٢] ، وقال : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور * حنفاء لله غيرمشركين به ﴾ [٢٢ : ٣٠ ، ٣١] ، وهذا هو تحقيق التوحيد كما تقدم فى الباب قبله . ثم قال تعالى محذِّراً عباده من الشرك : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق﴾ ومن لم تخوفه هذه الآيات وتزجره عن الشرك فى العبادة إذا تدبرها فلا حيلة فيه .

(٢) فى قرة العيون : وهذا الحديث فيه التحذير من الشرك أيضاً والتخويف منه . والند : المثل والشبيه ، فمن دعا ميتاً أو غائباً وأقبل عليه بوجهه وقلبه رغبة إليه ورهبة منه سواء سأله أو لم يسأله فهذا هو الشرك الذى لا يغفره الله ، ولهذا حرم الله تعالى اتخاذ الشفعاء وأنكره على من فعل ذلك أشد الإنكار ؛ لكونه ينافى الإخلاص الذى هو إقبال القلب والوجه على الله فى كل ما يخافه العبد ويرجوه ويتقرب به ويدين به . ومن المعلوم أنه إذا التفت للشفيع يسأله فقد أعرض بوجهه وقلبه عن الله تعالى وذلك ينافى الإخلاص ، ويأتى بيان ذلك فى باب الشفاعة إن شاء الله تعالى .

«مَن مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار » رواه البخارى .

ولمسلم عن جابر – رضى الله عنه – : أن رسول الله ﷺ قال : « مَن لقَىَ الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومَنْ لَقِيَهُ يشرك به شيئاً دخل النار » .

قال ابن القيم – رحمه الله – : الند : الشبيه ، يقال : فلان ند فلان ، ونديده ، أى مثله وشبيهه ا هـ . قال تعالى (٢ : ٢٢) : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ .

قوله : (من مات وهو يدعو من دون الله نداً) أى يجعل لله نداً فى العبادة ، يدعوه ويسأله ويستغيث به دخل النار . قال العلامة ابن القيم – رحمه الله – :

والشرك فاحذره ، فشرك ظاهر ذا القسم ليس بقابل الغفران

وهو اتخاذ الند للرحمن أيّاً كان ، من حجر ومن إنسان

يدعوه ، أو يرجوه ، ثم يخافه ويحبه كمحبة الديان

واعلم أن اتخاذ الند على قسمين :

الأول : أن يجعله لله شريكاً فى أنواع العبادة أو بعضها كما تقدم ، وهو شرك أكبر .

والثانى : ما كان من نوع الشرك الأصغر كقول الرجل : ما شاء الله وشئت ، ولولا الله وأنت . وكيسير الرياء ؛ فقد ثبت أن النبى ﷺ لما قال له رجل : « ما شاء الله وشئت ، قال: أجعلتنى لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده » رواه أحمد وابن أبى شيبة والبخارى فى الأدب المفرد والنسائى وابن ماجه . وقد تقدم حكمه فى باب فضل التوحيد .

وفيه : بيان أن دعوة غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك جلىّ ، كطلب الشفاعة من الأموات ، فإنها ملك لله تعالى وبيده ، ليس بيد غيره منها شىء ، وهو الذى يأذن للشفيع أن يشفع فيمن لاقى الله بالإخلاص والتوحيد من أهل الكبائر . كما يأتى تقريره فى باب الشفاعة إن شاء الله تعالى .

قال المصنف – رحمه الله تعالى – : (ولمسلم عن جابر : أن رسول الله ﷺ قال : « من لقى الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار) .

« جابر » : هو ابن عبد الله بن عمرو بن حَرام – بمهملتين – الأنصارى ثم السلمى – بفتحتين – صحابى جليل هو وأبوه . ولأبيه مناقب مشهورة – رضى الله عنهما [1] – ، مات بالمدينة بعد السبعين ، وقد كف بصره ، وله أربع وتسعون .

قوله : (من لقى الله لا يشرك به شيئاً) قال القرطبى : أى لم يتخذ معه شريكاً فى

---

(١) كان عبد الله ولد جابر من الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة ، وجعله النبى ﷺ نقيب بنى سلمة . ثم حضر بدراً قتل يوم أحد ، فأخذ يبكى عليه ولده جابر وأخته فاطمة بنت عمرو ، فقال رسول الله ﷺ : « تبكيه أو لا تبكيه ، لا زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه » .

فيه مسائل :

الأولى : الخوفُ من الشرك .

الثانية : أن الرياء من الشرك .

الثالثة : أنه من الشرك الأصغر .

الرابعة : أنه أخوفُ ما يُخاف منه على الصالحين .

الخامسة : قُرب الجنة والنار .

السادسة : الجمع بين قربهما فى حديث واحد .

السابعة : أنه مَنْ لقيه لا يُشرك به شيئاً دخل الجنة . ومن لَقيَهُ يُشرِك به شيئاً دخل النار ، ولو كان من أعبد الناس .

الثامنة : المسألة العظيمة : سؤالُ الخليل له ولِبَنِيه وقَايَة عبادَة الأصنام .

التاسعة : اعتباره بحال الأكثر لقوله : ﴿ رَبِّ إنهنَّ أَضْلَلْنَ كثيراً من الناس ﴾ .

العاشرة : فيه تفسير « لا إله إلا الله » ، كما ذكره البخارى .

الحادية عشرة : فضيلة من سلم من الشرك .

❊ ❊ ❊

الإلهية، ولا فى الخلق ، ولا فى العبادة . ومن المعلوم من الشرع المجمع عليه عند أهل السنة : أن من مات على ذلك فلا بد له من دخول الجنة ، وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحنة ، وأن من مات على الشرك لا يدخل الجنة ولا يناله من الله رحمة ، ويخلد فى النار أبد الآباد ، من غير انقطاع عذاب ، ولا تصرُّم آماد .

وقال النووى : أما دخول المشرك النار فهو على عمومه ، فيدخلها ويخلد فيها ، ولا فرق فيه بين الكتابى اليهودى والنصرانى ، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة ، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره ، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك [1] . وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به ، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصراً عليها دخل الجنة أولاً ، وإن كان صاحب كبيرة مات مصراً عليها فهو تحت المشيئة. فإن عفا الله عنه دخل الجنة أولاً، وإلا عُذِّب فى النار ثم أخرج من النار وأدخل الجنة .

وقال غيره : اقتصر على نفى الشرك لاستدعائه التوحيد بالاقتضاء ، واستدعائه إثبات

---

(١) يعنى أنهم مستوون فى الخلود فى النار ، ولكنهم متفاوتون فى دركاتها ، ولا يظلم ربك أحداً مثقال ذرة .

باب (الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله)

وقول الله تعالى (١٢ : ١٠٨) : ﴿ قل : هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ .

الرسالة باللزوم ؛ إذ من كذَّب رسل الله فقد كذَّب الله ، ومن كذب الله فهو مشرك ، وهو كقولك : من توضأ صحت صلاته ، أى مع سائر الشروط . فالمراد : من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الإيمان به : إجمالاً فى الإجمالى ، وتفصيلاً فى التفصيلى [1] . انتهى.

قوله : (باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله)

لما ذكر المصنف - رحمه الله - التوحيد وفضله، وما يوجب الخوف من ضده . نَبَّه بهذه الترجمة على أنه لا ينبغى لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه ، بل يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما هو سبيل المرسلين وأتباعم ، كما قال الحسن البصرى لما تلا قوله تعالى (٤١ : ٣٣) : ﴿ ومَنْ أَحْسَنُ قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال : إننى من المسلمين ﴾ فقال : « هذا حبيب الله ، هذا ولىُّ الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله فى دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحاً فى إجابته ، وقال : إننى من المسلمين . هذا خليفة الله » [2] .

قال - رحمه الله - : وقوله (١٢ : ١٠٨) : ﴿ قل : هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ .

قال أبو جعفر بن جرير : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ هذه ﴾ الدعوة التى أدعو إليها ، والطريقة التى أنا عليها ، من الدعاء إلى توحيد الله ، وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان ، والانتهاء إلى طاعته وترك معصيته ﴿ سبيلى ﴾ وطريقتى ، ودعوتى ﴿ أدعو إلى الله ﴾ تعالى وحده لا شريك له ﴿ على بصيرة ﴾ بذلك ويقين علم منى به ﴿ أنا ﴾ يدعو إليه على بصيرة أيضاً ﴿ ومن اتبعنى ﴾ وصدقنى وآمن بى ﴿ وسبحان الله ﴾ يقول له تعالى ذكره : وقل : تنزيهاً لله تعالى وتعظيماً له من أن يكون له شريك فى ملكه أو معبود سواه فى سلطانه ، ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ يقول : وأنا برئ من أهل الشرك به . لست منهم ولا هم منى . انتهى .

---

(١) يعنى خالطت حلاوة هذا الإيمان بشاشة قلبه فأثمرت الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ، وإلا فكم من مدع لهذا الإيمان الإجمالى والتفصيلى وهو عرى عنه إجمالاً وتفصيلاً .

(٢) ذكره العماد ابن كثير فى تفسير الآية (٣٣) من سورة فصلت عن عبد الرزاق عن معمر عن الحسن البصرى -رحمه الله - ، ويعنى الحسن بذلك : أن الصدق فى حب الله وعبادته وطاعته يستلزم ولا بد الدعوة إلى ذلك والجهاد فيه ؛ لأن من أحب كل ما أحبه الله وكل من أحب الله ، وكره كل ما كره ، وأحب أن يكون الناس كلهم معه فى حب الله .

قال فى شرح المنازل : يريد أن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم وهى البصيرة التى تكون نسبة المعلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئى إلى البصر ، وهذه هى الخصيصة التى اختص بها الصحابة عن سائر الأمة ؛ وهى أعلى درجات العلماء . قال تعالى : ﴿ قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ﴾ أى أنا وأتباعى على بصيرة . وقيل : ﴿ من اتبعنى ﴾ عطف على المرفوع فى ﴿ أدعو ﴾ أى أنا أدعو إلى الله على بصيرة ، ومن اتبعنى كذلك يدعو إلى الله تعالى على بصيرة ، وعلى القولين : فالآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر الداعون إلى الله تعالى ، ومن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة ، وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى .

قال المصنف – رحمه الله – : (فيه مسائل : منها التنبيه على الإخلاص ؛ لأن كثيراً ولو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه ، ومنها : أن البصيرة من الفرائض ، ومنها : أن من دلائل حسن التوحيد أنه تنزيه لله تعالى عن المسبة ، ومنها : أن من قُبح الشرك كونه مَسبة لله تعالى. ومنها : إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم ولو لم يشرك) ا هـ .

وقال العلامة ابن القيم – رحمه الله تعالى – فى معنى قوله تعالى (١٦ : ١٢٥) : ﴿ أُدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ – الآية ، ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو ؛ فإنه إما أن يكون طالباً للحق محباً له . مؤثراً له غيره إذا عرفه . فهذا يُدعَى بالحكمة ، ولا يحتاج إلى موعظة وجدال ، وإما أن يكون مشتغلاً بضد الحق ، لكن لو عرفه آثره واتبعه ، فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب ، وإما أن يكون معانداً معارضاً، فهذا يُجادَل بالتى هى أحسن، فإن رجع وإلا انتُقِلَ معه إلى الجدال إن أمكن. انتهى.

قال : (وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – : « أن رسول الله ﷺ لما بعثَ معاذاً إلى اليمن قال له : إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه : شهادة أن لا إله إلا الله – وفى رواية : إلى أن يوحِّدوا الله – فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمسَ صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم فتُرَدُّ على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك لذلك فإيَّاك وكرائم أموالهم . واتقِ دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » أخرجاه) .

قال الحافظ : كان بعثُ معاذ إلى اليمن سنة عشر ، قبل حج النبى ﷺ كما ذكره المصنف – يعنى البخاريّ فى أواخر المغازى – وقيل : كان ذلك فى آخر سنة تسع عند مُنْصَرَفه ﷺ من تَبُوك . رواه الواقدى بإسناده إلى كعب بن مالك ، وأخرجه ابن سعد فى الطبقات عنه ، واتفقوا على أنه لم يزل على اليمن إلى أن قدم فى خلافة أبى بكر – رضى الله عنه – ، ثم توجه إلى الشام فمات بها .

قال له : إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب ، فليكن أوَّل ما تدعوهم إليه شهادةُ أن لا إله إلا الله - وفى رواية : إلى أنْ يُوحِّدُوا اللهَ ،

قال شيخ الإسلام : ومن فضائل معاذ - رضى الله عنه - : أنه ﷺ بعثه إلى اليمن مُبَلِّغاً عنه ، ومُفَقهاً ومعلماً وحاكماً .

قوله : (إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب) قال القرطبى : يعنى به اليهودَ والنصارى ؛ لأنهم كانوا فى اليمن أكثر من مشركى العرب أو أغلب ، وإنما نبهه على هذا ليتهيأ لمناظرتهم.

وقال الحافظ : هو كالتوطئة للوصية ليجمع همته عليها .

قوله : (فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله) [1] ، « شهادة » رفع على أنه اسم « يكن » مؤخر . و« أول » خبرها مقدم ، ويجوز العكس .

قوله : (وفى رواية : إلى أن يوحدوا الله) هذه الرواية ثابتة فى كتاب التوحيد من صحيح البخارى . وأشار المصنف بذكر هذه الرواية إلى التنبيه على معنى « شهادة أن لا إله إلا الله » فإن معناه توحيد الله بالعبادة ونفى عبادة ما سواه . وفى رواية « فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله » وذلك هو الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله ، كما قال تعالى (٢ : ٢٥٦) : ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استسمك بالعُروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ والعروة

---

(١) فى قرة العيون : وكان يقولونها لكنهم جهلوا معناها الذى دلت عليه من إخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة ما سواه ، فكان قولهم : « لا إله إلا الله » لا ينفعهم لجهلهم بمعنى هذه الكلمة كحال أكثر المتأخرين من هذه الأمة ، فإنهم كانوا يقولونها مع ما كانوا يفعلونه من الشرك بعبادة الأموات والغائبين والطواغيت والمشاهد ، فيأتون بما ينافيها فيثبتون ما نفته من الشرك باعتقادهم وقولهم وفعلهم ، وينفون ما أثبته من الإخلاص كذلك ، وظنوا أن معناها القدرة على الاختراع تقليداً للمتكلمين من الأشاعرة وغيرهم ، وهذا هو توحيد الربوبية الذى أقر به المشركون ، فلم يدخلهم فى الإسلام كما قال تعالى : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ﴾ إلى قوله : ﴿ فأنى تسحرون ﴾ [٢٣ : ٨٤ ، ٨٩] ، وقوله : ﴿ قل من يرزقكم من السمآء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار؟ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون؟﴾ [١٠ : ٣١] ، وأمثال هذه الآيات فى القرآن كثير وهذا التوحيد قد أبر به مشركو الأمم ، وأقر به أهل الجاهلية الذين بعث فيهم محمد ﷺ فلم يدخلهم فى الإسلام لأنهم قد جحدوا ما دلت عليه هذه الكلمة من توحيد الإلهية

وهو إخلاص العبادة ونفى الشرك والبراءة منه ، كما قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سوآء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [٣ : ٦٣] ، فهذا التوحيد هو أصل الإسلام ، وقال تعالى : ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [١٢ : ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ﴾ [٣٠ : ٤٣] ، وقال تعالى : ﴿ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير ﴾ [٤٠ : ١٢] ، وقال تعالى : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص ﴾ [٣٩ : ٢ ، ٣] وأمثال هذه الآيات فى بيان التوحيد الذى دعت إليه الرسل وما نزلت به الكتب فى القرآن كثير ، وسنذكر بعض ذلك إن شاء الله فى هذا التعليق .

الوثقى هى « لا إله إلا الله » ، وفى رواية للبخارى فقال : « ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » .

قلت : لا بد فى شهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شروط ، لا تنفع قائلها إلا باجتماعها ، أحدها : العلم المنافى للجهل ، الثانى : اليقين المنافى للشك ، الثالث : القبول المنافى للرد ، الرابع : الانقياد المنافى للترك ، الخامس : الإخلاص المنافى للشرك ، السادس : الصدق المنافى للكذب ، السابع : المحبة المنافية لضدها .

وفيه دليل على أن التوحيد - الذى هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه - هو أول واجب ولهذا كان أول ما دعت إليه الرسل عليهم السلام : ﴿ أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ ، وقال نوح : ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ وفيه معنى « لا إله إلا الله » مطابقة (1) .

قال شيخ الإسلام : وقد عُلم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام وأول ما يؤمر به الخلق : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فبذلك يصير الكافر مسلماً ، والعدوّ ولياً ، والمباح دمه وماله : معصوم الدم والمال ، ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل فى الإيمان ، وإن قاله بلسانه دون قلبه فهو فى ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان . قال : وأما إذا لم يتكلم بها مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين باطناً وظاهراً ، عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء . ا هـ .

---

(1) فى قرة العيون : وأما قول المتكلمين ومن تبعهم : إن أول واجب معرفة الله بالنظر والاستدلال ، فلذلك أمر فطرى فطر الله عليه عباده ؛ ولهذا كان مفتتح دعوة الرسل أممهم إلى توحيد العبادة : ﴿ أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ أى لا تعبدوا إلا الله ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلكم من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [٢١ : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ [١٤ : ١٠].

قال العماد ابن كثير - رحمه الله تعالى - : هذا يحتمل شيئين : « أحدهما » : أفى وجوده شك ؟ فإن الفطرة شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به ؛ فإن الاعتراف به ضرورى فى الفطر السليمة .

« والمعنى الثانى » : أفى إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك ؟ وهو الخالق لجميع الموجودات فلا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنون أنها تقربهم من الله زلفى . ا هـ .

قلت : وهذا الاحتمال الثانى يتضمن الأول .

روى أبو جعفر ابن جرير بسنده عن عكرمة ومجاهد وعامر أنهم قالوا : ليس أحد إلا وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السموات والأرض فهذا إيمانهم ، وعن عكرمة أيضاً : تسألهم من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون : الله ، فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره .

وتقدم أن « لا إله إلا الله » قد قيدت بالكتاب والسنة بقيود ثقال : منها : العلم واليقين والإخلاص والصدق والمحبة والقبول والانقياد ، والكفر بما يعبد من دون الله ، فإذا اجتمعت هذه القيود لمن قالها نفعته هذه الكلمة ، وإن لم تجتمع هذه لم تنفعه ، والناس متفاوتون فى العلم بها والعمل ، فمنهم من ينفعه قولها ، ومنهم من لا ينفعه كما لا يخفى .

فإن هُمْ أطاعوك لذلك فأعْلِمْهُم أن الله افترض عليهم خمس صَلَوات فى كل يوم وليلة ، فإن هُمْ أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترضَ عليهم صَدَقَةً تؤْخذُ مِن أغنيائهم فتردُّ على

قال المصنف - رحمه الله تعالى - : (وفيه أن الإنسان قد يكون عالماً [(١)] وهو لا يعرف معنى « لا إله إلا الله » أو يعرفه ولا يعمل به) .

قلت : فما كثر هؤلاء - لأكثرهم الله تعالى .

قوله : (فإن هم أطاعوك لذلك) أى شهدوا وانقادوا لذلك ، (فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات) فيه : أن الصلاة أعظم واجب بعد الشهادتين : قال النووى ما معناه : إنه يدل على أن المطالبة بالفرائض فى الدنيا لا تكون إلا بعد الإسلام ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا مخاطبين بها ، ويزاد فى عذابهم بسببها فى الآخرة ، والصحيح : أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة المأمور به والمنهى عنه . وهذا قول الأكثرين . اهـ .

قوله : (فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم) [(٢)] .

فيه : دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلوات ، وأنها تؤخذ من الأغنياء وتصرف إلى الفقراء . وإنما خص النبى ﷺ الفقراء لأن حقهم فى الزكاة آكد من حق بقية الأصناف الثمانية .

وفيه : أن الإمام هو الذى يتولى قبض الزكاة وصرفها : إما بنفسه أو نائبه ، فمن امتنع من أدائها إليه أُخذت منه قهراً .

وفى الحديث: دليل على أنه يكفى إخراج الزكاة فى صنف واحد، كما هو مذهب مالك وأحمد.

وفيه : أنه لا يجوز دفعها إلى غنى ، ولا إلى كافر غير المؤلَّف ، وأن الزكاة واجبة فى مال الصبى والمجنون ، كما هو قول الجمهور ، لعموم الحديث .

قلت : والفقير إذا أُفرد فى اللفظ تناول المسكين وبالعكس، كنظائره، كما قرره شيخ الإسلام.

---

(١) يعنى عالماً بعلوم الدنيا ، أو عالماً حافظاً لعلوم الدين ، ولكنها لا تمس قلبه ولا عقيدته لأنه تعلمها للدنيا وليقال: عالم . فهو محترف العلم ، وقد يكون بارعاً حاذقاً فى هذه الحرفة ولكنه لا ينتفع فى نفسه بعلمه ، لأن علمه فى ناحية ، وعقيدته ودينه مع تقليد العوام والجمهور فى ناحية أخرى ، وهذا حال أكثر العلماء الرسميين اليوم أصلحهم الله .

(٢) فى قرة العيون : فيه أن الزكاة لا تنفع إلا من وحد الله وصل الصلوات بشروطها وأركانها وواجباتها ، والزكاة قرينة الصلوات فى كتاب الله ، ويدل على هذه الجملة قوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ [٩٨ : ٥] ، فمن أتى بهذه الأمور أتى ببقية الأركان لقوة الداعى إلى ذلك ؛ لأن يقتضى الإتيان بها لزوماً ، قال تعالى : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ [٩ : ٥] ، قال أنس فى الآية : « توبتهم : خلع الأوثان وعبادتهم ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » ، وعن ابن مسعود مرفوعاً : « أمرت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ومن لم يزك فلا صلاة له » .

فقرائهم ، فإنْ هم أطاعوك لذلك فإيَّاك وكرائمَ أموالهم ، واتَّقِ دَعوةَ المظلوم ، فإنه ليس بينهَا وبين اللهِ حِجاب » .

قوله : (وإياك وكرائم أموالهم) بنصب « كرائم » على التحذير ، جمع كريمة . قال صاحب المطالع : هى الجامعة للكمال الممكن فى حقها : من غزارة لبن ، وجمال صورة ، وكثرة لحم وصوف . ذكره النووى . قلت : وهى خيار المال وأنفسه وأكثره ثمناً .

وفيه : أنه يحرم على العامل فى الزكاة أخذ كرائم المال ، ويحرم على صاحب المال إخراج شرار المال ، بل يخرج الوسط ، فإن طابت نفسه بالكريمة جاز [١] .

قوله : (واتق دعوة المظلوم) [٢] أى اجعل بينك وبينها وقاية بالعدل وترك الظلم ، وهذان الأمران يقيان مَن رُزِقَهما من جميع الشرور دنيا وأخرى .

وفيه : تنبيه على التحذير من جميع أنواع الظلم .

قوله : (فإنه) أى الشأن (ليس بينها وبين الله حجاب) هذه الجملة مفسرة لضمير الشأن . أى : فإنها لا تحجب عن الله فيقبلها .

وفى الحديث أيضاً : قبول خبر الواحد العدل ، ووجوب العمل به ، وبعث الإمام العمال لجباية الزكاة ، وأنه يعظ عماله وولاته ، ويأمر بتقوى الله تعالى ، ويعلمهم ، وينهاهم عن الظلم ، ويعرفهم سوء عاقبته ، والتنبيه على التعليم بالتدريج ، قاله المصنف .

قلت : ويبدأ بالأهم فالأهم .

واعلم أنه لم يذكر فى الحديث الصوم والحج ، فأشكل ذلك على كثير من العلماء .

قال شيخ الإسلام : أجاب بعض الناس : أن بعض الرواة اختصر الحديث ، وليس كذلك. فإن هذا طعن فى الرواة ؛ لأن ذلك إنما يقع فى الحديث الواحد ، مثل حديث وَفْد عبد القيس[٣] حيث ذكر بعضهم الصيام ، وبعضهم لم يذكره ، فأما الحديثان المنفصلان ، فليس الأمر فيهما كذلك . ولكن عن هذا جوابان :

---

(١) فى قرة العيون : تحذير له من أن يتجاوز ما شرعه الله ورسوله فى الزكاة ، وهو أخذها من أوساط المال ، لأن ذلك سبب لإخراجها بطيب نفس ونية صحيحة ، وكل ما زاد على المشروع فلا خير فيه . وهذا أصل ينبغى التفطن له .

(٢) فى قرة العيون : يدل على أن العامل إذا زاد على المشروع صار ظالماً لمن أخذ ذلك منه ، ودعوة المظلوم مقبولة ليس بينها وبين الله حجاب يمنع قبولها .

فعلى العامل أن يتحرى العدل فيما استعمل فيه ، فلا يظلم بأخذ زيادة على الحق ، ولا يحابى بترك شىء منه ، فعليه أن يقصد العدل من الطرفين ، والله أعلم .

(٣) روى البخارى ومسلم عن ابن عباس « أن عبد القيس وفدوا على النبى ﷺ فقال : ممن القوم ؟ فقالوا : من ربيعة ، قال : مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى ، فقالوا : يا رسول الله، إن بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر=

أحدهما : أن ذلك بحسب نزول الفرائض ، وأول ما فرض الله الشهادتين ثم الصلاة . فإنه أمر بالصلاة فى أول أوقات الوحى ، ولهذا لم يذكر وجوب الحج ، كعامة الأحاديث ، إنما جاء فى الأحاديث المتأخرة .

الجواب الثانى : أنه كان يذكر فى كل مقام ما يناسبه ، فيذكر تارة الفرائض التى يقاتل عليها : كالصلاة والزكاة ، ويذكر تارة الصلاة والصيام لمن لم يكن عليه زكاة ، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصوم : فإما أن يكون قبل فرض الحج ، وإما أن يكون المخاطب بذلك لا حج عليه . وأما الصلاة والزكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض ؛ ولهذا ذكر الله تعالى فى كتابه القتال عليهما ؛ لأنهما عبادتان ظاهرتان ، بخلاف الصوم فإنه أمر باطن من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة ، ونحو ذلك مما يؤمن عليه العبد ، فإن الإنسان يمكنه أن لا ينوى الصوم وأن يأكل سراً ، كما يمكنه أن يكتم حدثه وجنابته ، وهو ﷺ يذاكر فى الأعمال الظاهرة التى يقاتل الناس عليها ، ويصيرون مسلمين بفعلها . فلهذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصوم ، وإن كان واجباً كما فى آيتى براءة [(١)] نزلت بعد فرض الصيام باتفاق الناس ، وكذلك لما بعث معاذاً إلى اليمن لم يذكر فى حديثه الصوم ، لأنه تبعٌ وهو باطن ، ولا ذكر الحج لأن وجوبه خاص ليس بعام ، ولا يجب فى العمر إلا مرة . انتهى بمعناه [(٢)] .

قوله : (أخرجاه) أى البخارى ومسلم ، وأخرجه أيضاً أحمد وأبو داود والترمذى والنسائي وابن ماجه .

قال : (ولهما عن سهل بن سعد - رضى الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال يوم خَيْبر :

= وإنا لا نصل إليك إلا فى شهر حرام فمرنا بأمر فصل نأخذ به ونأمر به من وراءنا وندخل به الجنة ، فقال : آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع : آمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم - الحديث » وكان وفد عبد القيس فى سنة [(*)] تسع .

(١) هما قوله تعالى : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾ الآية الخامسة . ومثلها الآية الحادية عشرة ، وخاتمتها : ﴿ فإخوانكم فى الدين * ونفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ .

(٢) ولعل الصواب ما أجاب به بعض العلماء من اختصار الراوى للحديث . وليس فى ذلك طعن فى الرواة ، لأنهم كانوا يروون الحديث بحسب الظروف والمناسبات . فقد تكون المناسبة مقتضية لبعض الحديث فيقتصر على هذا البعض . وذلك كثير جداً ، كما تراه فى البخارى وغيره . والله أعلم .

(*) (وكان وفد عبد القيس فى سنة تسع) فى هذا نظر ، والأظهر أنهم وفدوا قبل فتح مكة لقولهم : « إن بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر » ، ومعلوم أن أهل مكة هم رؤوس كفار مضر وقادتها وقد أسلموا عام الفتح وذلك سنة ثمان ، وقد استنبط الحافظ ابن كثير - رحمه الله - فى تاريخه البداية ، هذا المعنى من هذا السياق والله أعلم .

« لأعطينّ الرايةَ غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه . فباتَ الناس يَدُوكون ليلتهم : أيُّهم يُعطاها ، فلما أصبحوا غَدَوْا على رسول الله ﷺ ، كلهم يرجو أن يُعطاها ، فقال : أين عليّ بن أبي طالب ؟ فقيل : هو يشتكى عينيه ؟ فأرسلوا إليه ، فأُتىَ به ، فَبَصق فى عينه ودعا له ، فبرأ كأن لم يكن به وَجَع ، فأعطاه الراية ، وقال : انْفُذْ على رِسلك حتى تنزَل بساحتهم ، ثم ادعُهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهَدىَ الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْرِ النّعَم ») ، « يَدُوكون » أي : يخوضون .

قوله : (عن سهل بن سعد) أي ابن مالك بن خالد الأنصارى الخزرجي الساعدى ، أبى العباس صحابى شهير ، وأبو صحابى أيضاً . مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المائة .

قوله : (قال يوم خيبر) وفى الصحيحين عن سَلَمة بن الأكوع قال : « كان عليّ - رضى الله عنه - قد تخلّف عن النبى ﷺ فى خيبر ، وكان أرمد ، فقال : أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ ؟ فخرج عليّ -رضى الله عنه- فلحق بالنبى ﷺ، فلما كان مساء الليلة التى فتحها الله عز وجل فى صباحها قال ﷺ : لأعطين الراية - أو ليأخذن الراية - غداً رجل يحبه الله ورسوله - أو قال: يحب الله ورسوله - يفتح الله على يديه ، فإذا نحن بعليّ وما نرجوه ؛ فقالوا : هذا على ، فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ففتح الله عليه » .

قوله : « لأعطين الراية » قال الحافظ : فى رواية بُريدة : « إنى دافع اللواء إلى رجل يحبه الله ورسوله » ، وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما ، لكن روى أحمد والترمذى من حديث ابن عباس « كانت راية رسول الله ﷺ سوداء ، ولواؤه أبيض » ، ومثله عند الطبرانى عن بريدة. وعند ابن عدى عن أبى هريرة وزاد «مكتوب فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله».

قوله : (يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله) فيه فضيلة عظيمة لعليّ رضى الله عنه .

قال شيخ الإسلام : ليس هذا الوصف مختصاً بعليّ ولا بالأئمة ، فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقى ، يحب الله ورسوله ، لكن هذا الحديث من أحسن ما يحتج به على النواصب الذين لا يتولونه ، أو يُكفّرونه أو يُفَسّقونه ، كالخوارج ، لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردتهم ، فإن الخوارج تقول فى عليّ مثل ذلك ، لكن هذا باطل ، فإن الله تعالى ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم الله أنه يموت كافراً .

وفيه : إثبات صفة المحبة ، خلافاً للجهمية ومن أخذ عنهم (١) .

(١) فى قرة العيون : وفيه فضيلة لعليّ رضى الله عنه بما خصه من إعطاء الراية ، ودعوته أهل خيبر إلى الإسلام وقتالهم إذا لم يقبلوا ، وفيه مشروعية الدعوة إلى الإسلام .

يَفْتَحُ الله على يديه ، فباتَ الناسُ يَدُوكون ليلتهم : أَيُّهُمْ يُعطاها ، فلما أصبحوا غَدَوْا عَلَى رسولِ الله ﷺ ، كلهم يرجو أن يُعطاها ، فقال : أين عليّ بن أبى طالب ؟ فقيل: هو يشتكى عينيه ، فأرسلوا إليه ، فأُتىَ به ،

قوله : (يفتح الله على يديه) صريح فى البشارة بحصول الفتح ، فهو علم من أعلام النبوة.

قوله : (فبات الناس يدوكون ليلتهم) بنصب « ليلتهم » . و« يدوكون » قال المصنف : يخوضون ، أى فيمن يدفعها إليه . وفيه حرص الصحابة على الخير واهتمامهم به ، وعلو مرتبتهم فى العلم والإيمان .

قوله : (أيهم) هو برفع « أى » على البناء لإضافتها وحذف صدر صلتها .

قوله : (فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها) وفى رواية أبى هريرة عند مسلم أن عمر قال : « ما أحببت الإمارة إلا يومئذ » .

قال شيخ الإسلام : إن فى ذلك شهادة النبى ﷺ لعلىّ بإيمانه باطناً وظاهراً ، وإثباتاً لموالاته لله تعالى ورسوله ، ووجوب موالاة المؤمنين له ، وإذا شهد النبى ﷺ لمعيَّن بشهادة ، أو دعا له أحب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك الشهادة ، ومثل ذلك الدعاء ، وإن كان النبى يشهد بذلك لخلق كثير ، ويدعو لخلق كثير ، وهذا كالشهادة بالجنة لثابت بن قيس [(١)] ، وعبد الله بن سلام [(٢)] ، وإن كان شهد بالجنة لآخرين ، والشهادة بمحبة الله ورسوله للذى ضُرب فى الخمر [(٣)] .

قوله : (فقال : أين على بن أبى طالب ؟) فيه سؤال الإمام عن رعيته ؛ وتفقد أحوالهم .

قوله : (فقيل هو يشتكى عينيه) أى من الرمد ، كما فى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقاص فقال : « ادعوا لى علياً فأتى به أرمد » الحديث ، وفى نسخة صحيحة بخط المصنف ، «فقيل : هو يشتكى عينيه ، فأرسل إليه » مبنى للفاعل ، وهو ضمير مستتر فى الفعل راجع إلى النبى ﷺ ، ويحتمل أن يكون مبنياً لما لم يسم فاعله ، ولمسلم من طريق إياس بن سلمة ابن الأكوع عن أبيه قال : « فأرسلنى إلى علىّ ، فجئت به أقوده أرمد » .

---

(١) قال له النبى ﷺ : « هو من أهل الجنة » فى حديث طويل حين جلس فى بيته حزيناً عند نزول ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ ، وكان ثابت رفيع الصوت ، فقال : أنا الذى كنت أرفع صوتى - الحديث رواه الإمام أحمد (ج٣ ص١٣٧) ، ورواه مسلم فى كتاب الإيمان ، حديث (١٨٧) .

(٢) عن سعد بن أبى وقاص قال : « ما سمعت النبى ﷺ يقول لأحُد يمشى على الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام » رواه البخارى فى مناقب الأنصار ، ورواه مسلم والترمذى وابن ماجه .

(٣) روى البخارى عن عمر قال : « كان رجل يسمى عبد الله ويلقب حماراً ، وكان يضحك رسول الله وكان يشرب الخمر فيؤتى به فيقيم عليه الحد، فلعنه بعض الصحابة، فقال ﷺ: لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله » الحديث.

فَبَصَقَ فى عينيه ؛ ودعا له ، فبرأَ كأن لم يكن به وجَع ، فأعطاه الراية فقال : انْفُذْ عَلَى رِسلِكَ ، حتى تَنْزِلَ بساحتهم ، ثم ادْعُهُمْ إلى الإسلام ،

قوله : (فبصق) بفتح الصاد ، أى تفل .

قوله : (ودعا له فبرأ) هو بفتح الراء والهمزة ، أى عوفى فى الحال عافية كاملة كأن لم يكن به وجع من رمد ولا ضعف بصر [(١)] .

وعند الطبرانى من حديث علىّ : « فما رمدت ولا صدعت منذ دفع النبى ﷺ إلىَّ الراية ».

وفيه : دليل على الشهادتين .

قوله : (فأعطاه الراية) قال المصنف : فيه الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع ، ومنعها عمن سعى .

وفيه : أن فعل الأسباب المباحة أو الواجبة أو المستحبة لا ينافى التوكل .

قوله : (فقال : انفذ على رسلك) بضم الفاء ، أى امض ، و« رسلك » بكسر الراء وسكون السين ، أى على رفقك من غير عجلة ، و« ساحتهم » فِناء أرضهم وهو ما حولها .

وفيه : الأدب عند القتال ، وترك العجلة والطيش والأصوات التى لا حاجة إليها .

وفيه : أمر الإمام عماله بالرفق من غير ضعف ولا انتقاض عزيمة ، كما يشير إليه قوله : «ثم ادعهم إلى الإسلام » [(٢)] أى الذى هو معنى : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإن شئت قلت : الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وما اقتضته الشهادتان من إخلاص العبادة لله وحده ، وإخلاص الطاعة لرسوله ﷺ ، ومن هنا طابق الحديث الترجمة كما قال تعالى لنبيه ورسوله (٣ : ٦٤) : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : والإسلام هو الاستسلام لله ، وهو الخضوع له ، والعبودية له. كذا قال أهل اللغة .

وقال - رحمه الله تعالى - : ودين الإسلام الذى ارتضاه الله وبعث به رسله : هو الاستسلام له وحده ، فأصله فى القلب ، والخضوع له وحده بعبادته وحده دون ما سواه ، فمن

---

(١) فى قرة العيون : وذلك بدعوة النبى ﷺ كما فى الحديث فدعا فاستجيب له عليه السلام وفيه علم من أعلام النبوة أيضاً ، وذلك كله بالله ومن الله وحده وهو الذى يملك الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، لا إله غيره ولا رب سواه .

(٢) فى قرة العيون : هذا هو شاهد الترجمة ، وهكذا ينبغى لأهل الإسلام أن يكون قصدهم بجهادهم هداية الخلق إلى الإسلام والدخول فيه ، وينبغى لولاة الأمر أن يكون هذا هو معتمدهم ومرادهم ونيتهم .

عبده وعبد معه إلهاً آخر لم يكن مسلماً ، ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً ، وفى الأصل: هو من باب العمل ، عمل القلب والجوارح ، وأما الإيمان فأصله : تصديق القلب وإقراره ومعرفته فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب . انتهى .

فتبين أن أصل الإسلام هو التوحيد ونفى الشرك فى العبادة ، وهو دعوة جميع المرسلين وهو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة فيما أمرهم به على ألسن رسله ، كما قال تعالى عن نوح أول رسول أرسله (٧١ : ٣) : ﴿ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾ .

وفيه : مشروعية الدعوة قبل القتال ، لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداءً ؛ لأن النبى ﷺ أغار على بنى المصْطَلِق وهم غارُّون [١] ، وإن كانوا لم تبلغهم الدعوة وجبت دعوتهم .

قوله : (وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه) [٢] أى فى الإسلام إذا أجابوك

(١) الغار : الغافل . وقال البخارى : غزوة بنى المصطلق من خزاعة وهى المريسيع . قال ابن إسحاق : وذلك سنة ست . وقال موسى بن عقبة : سنة أربع . وقال النعمان بن راشد عن الزهرى : « أن النبى ﷺ أغار على بنى المصطلق وهم غارون ، وأنعامهم تسقى على الماء فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم . وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث » وبنو المصطلق بطن شهير من خزاعة وسبب غزوهم أن النبى ﷺ بلغه أن الحارث بن ضرار سيدهم أبا جويرية يجمع الناس ويستعد لقتاله ؛ ففاجأهم رسول الله وهم غافلون ، وأسر منهم أكثرهم وأسلم الحارث بن ضرار .

(٢) فى قرة العيون : فيه مما أمر به وشرعه من حقوق « لا إله إلا الله » ، وهذا يدل على أن الأعمال من الإيمان خلافاً للأشاعرة والمرجئة فى قولهم : إنه القول . وزعموا أن الإيمان هو مجرد التصديق ، وتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة ، لأن الدين ما أمر الله به فعلاً وما نهى عنه تركاً .

وفيه الرد على المشركين المستدلين على الشرك بكرامات الأولياء لدلالتها على فضلهم . وأمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه وقع له من الكرامات ما لم يقع لغيره ، وقد خد الأخاديد وأضرمها بالنار وقذف فيها من غلا فيه أو اعتقد فيه بعض ما كان يعتقده هؤلاء المشركون مع أهل البيت وغيرهم فصار من أشد الصحابة رضى الله عنه بعداً عن الشرك ، وشدة على من أشرك حتى أحرقهم بالنار مثل عبد الله بن سبأ اليهودى وشيعته والقصة فى البخارى .

وكذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلما أعطى من الكرامات صار أبعد الصحابة عن الشرك وذرائعه . وهؤلاء أُعطوا أفضل الكرامات فما زادهم ذلك إلا قوة فى التوحيد ، وشدة على أهل الشرك والتنديد ، كما جرى لعمر رضى الله عنه فى الاستسقاء بالعباس وتعمية قبر دانيال لما وجده الصحابة فى بيت مال الهرمزان ، كما أن المعجزات إنما زادت الرسل قوة فى الدعوة إلى التوحيد وشدة على أهل الشرك والإنكار عليهم وجهادهم ، ولكن قد يقع من الأحوال الشيطانية لمن استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر ربه ما قد يلتبس على الجهال الذين تلبسوا بالشرك ، ويظنون أن ذلك كرامات ، وهى من مكر الشيطان ، وإغوائه لمن لم يعرف الحق من الباطل ، وقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم ﴾ [٤٣ : ٤٣]، فكذلك يجب=

فوالله لأنْ يَهْدِيَ الله بك رجلاً واحداً، خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَم » . « يدوكون » : أى يخوضون .

فيه مسائل :

الأولى : أن الدعوة إلى الله طريقُ من اتبع رسول الله ﷺ .

إليه فأخبرهم بما يجب من حقوقه التى لا بد لهم من فعلها ، كالصلاة والزكاة ، كما فى حديث أبى هريرة : « فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها » [1] ، ولما قال عمر لأبى بكر فى قتال مانعى الزكاة : « كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها؟ قال أبو بكر : فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها » [2] .

وفيه : بعثُ الإمام الدعاةَ إلى الله تعالى ، كما كان النبى ﷺ وخلفاؤه الراشدون يفعلون ، كما فى المسند عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه قال فى خطبته : « ألا إنى والله ما أرسل عُمَّالى إليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم » .

قوله : (فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم) « أن » مصدرية واللام قبلها مفتوحة لأنها لام القسمَ ، و« أن » والفعل بعدها فى تأويل مصدر ، رفع على الابتداء والخبر « خير » و« حمر » بضم المهملة وسكون الميم ، جمع أحمر . و« النعم » بفتح النون والعين المهملة ، أى خير لك من الإبل الحمْر ، وهى أنفسُ أموال العرب .

قال النووى : وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام ؛ وإلا فذرَّة من الآخرة خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها .

وفيه : فضيلة من اهتدى على يديه رجل واحد ، وجواز الحلف على الخبر والفتيا ولو لم يُستحلف .

= على كل أحد أن يطلب الحق من القرآن بتدبره ، فإنه الصراط المستقيم ولا يلتفت إلى ما زخرفته الشياطين كما اغتر به من اغتر فى هذه الأمة من قبلهم .

وفيه : من أداء الفرائض على الوجه الشرعى والنهى عن تعدى الحدود التى حدها الله بين الحلال والحرام ، وذلك من الإيمان . فالحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله ، والدين ما شرعه الله ، فإذا أخذ بالإسلام الذى هو التوحيد والإخلاص ، وأحل ما أحله الله تعالى وحرم ما حرم الله تعالى وأمر بذلك وجاهد عليه ، فقد قام بما وجب . وبالله التوفيق .

(*) هو عبد الله بن سبأ اليهودى وشيعته والقصة فى البخارى .

(١) ، (٢) رواهما البخارى ومسلم وغيرهما .

الثانية : التنبيه عَلَى الإخلاص ؛ لأن كثيراً لو دعا إلى الحق ، فهو يدعو إلى نفسه .

الثالثة : أن البصيرةَ من الفرائض .

الرابعة : من دلائل حُسْن التوحيد : أنه تنزيه الله تعالى عن المسبَّة .

الخامسة : أنَّ مِن قُبح الشرك كونه مَسَبَّة لله .

السادسة: وهى من أهمها - إبعادُ المسلم عن المشركين لا يصير منهم، ولو لم يشرك .

السابعة : كون التوحيد أول واجب .

الثامنة : أن يُبدأ به قبل كل شيء ، حتى الصلاة .

التاسعة : أن معنى « أن يُوحِّدوا الله » معنى شهادة : أن لا إله إلا الله .

العاشرة : أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها، أو يعرفها ولا يعمل بها.

الحادية عشرة : التنبيه عَلَى التعليم بالتدريج .

الثانية عشرة : البُداءة بالأهم فالأهم .

الثالثة عشرة : مصرف الزكاة .

الرابعة عشرة : كشفُ العالِم الشبهَة عن المتعلم .

الخامسة عشرة : النَّهى عن كرائم الأموال .

السادسة عشرة : اتقاء دعوة المظلوم .

السابعة عشرة : الإخبار بأنها لا تُحْجَب .

الثامنة عشرة : من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء .

التاسعة عشرة : قوله : « لأعطين الراية - إلخ » علَم من أعلام النبوة .

العشرون : تَفْلُه فى عَيْنَيه علَم من أعلامها أيضاً .

الحادية والعشرون : فضيلة علىّ رضى الله عنه .

الثانية والعشرون : فضل الصحابة فى دَوْكهم تلك الليلة وشُغلهم عن بشارة الفتْح .

الثالثة والعشرون : الإيمانُ بالقَدَر ، لحصولها لمن لم يَسْعَ لها ومنَعْها عمن سعى .

الرابعة والعشرون : الأدب فى قوله : « عَلَى رِسْلكَ » .

الخامسة والعشرون : الدعوة إلى الإسلام قبل القتال .

السادسة والعشرون : أنه مشروع لمن دُعوا قبل ذلك وقوتلوا .

السابعة والعشرون : الدعوة بالحكمة لقوله : « أخبرهم بما يجب » .

الثامنة والعشرون : المعرفة بحقِّ الله فى الإسلام .

التاسعة والعشرون : ثوابُ من اهتدى عَلَى يديه رجلٌ واحد .

الثلاثون : الحَلِفُ على الفُتْيا .

❊ ❊ ❊

باب (تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله)

قوله : (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله)

قلت : هذا من عطف الدال على المدلول [1] .

فإن قيل : قد تقدم فى أول الكتاب من الآيات ما يبين معنى « لا إله إلا الله » وما تضمنته من التوحيد ، كقوله تعالى (١٧ : ٢٣) : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ وسابقها ولاحقها ، وكذلك ما ذكره فى الأبواب بعدها ، فما فائدة هذه الترجمة ؟

قيل : هذه الآيات المذكورات فى هذا الباب فيها مزيد بيان بخصوصها لمعنى كلمة الإخلاص وما دلت عليه : من توحيد العبادة ، وفيها : الحجة على من تعلق على الأنبياء والصالحين يدعوهم ويسألهم ؛ لأن ذلك هو سبب نزول بعض هذه الآيات ، كالآية الأولى (١٧ : ٥٦) ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ أكثر المفسرين على أنها نزلت فيمن يعبد المسيح وأمه ، والعُزيرَ ، والملائكة ، وقد نهى الله عن ذلك أشد النهى ، كما فى هذه الآية من التهديد والوعيد على ذلك . وهذا يدل على أن دعاءهم من دون الله شرك بالله ، ينافى التوحيد ، وينافى شهادة أن لا إله إلا الله ؛ فإن التوحيد أن لا يدعى إلا الله وحده . وكلمة الإخلاص نفت هذا الشرك ، لأن دعوة غير الله تأليه وعبادة له . و« الدعاء مخ العبادة » [2] .

وفى هذه الآية : أن المدعو لا يملك لداعيه كشف ضر ولا تحويله من مكان إلى مكان ، ولا من صفة إلى صفة . ولو كان المدعو نبياً أو ملكاً . وهذا يقرر بطلان دعوة كل مدعو من دون الله كائناً من كان ؛ لأن دعوته تخون داعية أحوج ما كان إليها ، لأنه أشرك مع الله من لا ينفعه ولا يضره ، وهذه الآية تقرر التوحيد ، ومعنى : لا إله إلا الله .

---

(١) فى قرة العيون : لأن التوحيد هو معنى هذه الكلمة العظيمة ، وذلك يتبين بما ساقه من الآيات والحديث ، لما فيها من زيادة البيان وكشف ما أشكل من ذلك ، وإقامة الحجة على من غلط فى معنى « لا إله إلا الله » من أهل الجهل والإلحاد .

(٢) رواه الترمذى عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ .

وقول الله تعالى (١٧ : ٥٧) : ﴿ أُولَئكَ الَّذينَ يدعون يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُم أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رحمتُه ويخافون عذابه إنَّ عذابَ ربك كان مَحْذوراً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ [1] يبين أن هذا سبيل

---

(١) فى قرة العيون : أى أولئك الذين يدعوهم أهل الشرك ممن لا يملك كشف الضر ولا تحويله من الملائكة والأنبياء والصالحين كالمسيح وأمه والعزير ، فهؤلاء دينهم التوحيد وهو بخلاف من دعاهم من دون الله ووصفهم بقوله : ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ ، فيطلبون القرب من الله بالإخلاص له وطاعته فيما أمر ، وترك ما نهاهم عنه ، وأعظم القرب التوحيد الذى بعث الله به أنبياءه ورسله وأوجب عليهم العمل به والدعوة إليه ، وهذا الذى يقربهم إلى الله أى إلى عفوه ورضاه ووصف ذلك بقوله : ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ فلا يرجون أحداً سواه ولا يخافون غيره ، وذلك هو توحيده لأن ذلك يمنعهم من الشرك ، ويوجب لهم الطمع فى رحمة الله والهرب من عقابه ، والداعى لهم - والحالة هذه - قد عكس الأمر ، وطلب منهم ما كانوا ينكرون من الشرك بالله فى دعائهم لمن كانوا يدعونه من دون الله . ففيه معنى قوله : ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ [٣٥ : ١٤] ، وقوله : ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ [٤٦ : ٦] .

وفيه : الرد على من ادعى أن شرك المشركين إنما هو بعبادة الأصنام وتبين بهذه الآية أن الله تعالى أنكر على من دعا معه غيره من الأنبياء والصالحين والملائكة ومن دونهم ، وأن دعاء الأموات والغائبين لجلب نفع أو دفع ضر هو من الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله ، وإن ذلك ينافى ما دلت عليه كلمة الإخلاص .

فتدبر هذه الآية العظيمة يتبين لك التوحيد ، وما ينافيه من الشرك والتنديد ، فإنها نزلت فيمن يعبد الملائكة والمسيح وأمه والعزير فهم المعنيون بقوله : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾ ثم بين تعالى أن هؤلاء المشركين قد خالفوا من كانوا يدعونه فى دينه فقال : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ وقدم المسئول لأنه يفيد الحصر ، يعنى يبتغون إلى ربهم الوسيلة لا إلى غيره ، وأعظم الوسائل إلى الله تعالى التوحيد الذى بعث به الله أنبياءه ورسله وخلق الخلق لأجله ، ومن التوسل إليه : التوسل بأسمائه وصفاته ، كما قال تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ [٧ : ١٨٠] ، وكما ورد فى الأذكار المأثورة من التوسل بها فى الدعوات كقوله ﷺ : « اللهم إنى أسألك أن لك الحمد ، لا إله إلا أنت ، المنان بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام » وقوله : « اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » وغير ذلك من الأعمال الصالحة الخالصة التى لم يشبها شرك، فالتوسل إلى الله هو بما يحبه ويرضاه ، لا بما يكرهه ويأباه من الشرك الذى نزه نفسه عنه بقوله : ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ ، وقوله : ﴿ سبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ ، وقوله فى الإنكار على من اتخذ الشفعاء : ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ [١٠ : ١٨] وأمثال هذه الآيات فى القرآن كثير يأمر عباده بإخلاص العبادة له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ، ويعظم عقوبته كما قد جرى على الأمم المكذبة للرسل فيما جاءوهم به من التوحيد والنهى عن الشرك فأوقع الله تعالى بهم ما أوقع ، كقوم نوح وعاد وثمود ونحوهم فإنهم عصوا الرسل فيما أمروهم به من التوحيد وتمسكوا بالشرك وقالوا لنوح : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ﴾ [١١ : ٢٧] ، وقالوا لهود : ﴿ ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ﴾ [١١ : ٥٣] الآيات . . وقالوا لصالح : ﴿ قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ [١١ : ٦٢] وقالوا لشعيب : ﴿ أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ﴾ [١١ : ٨٧] .

فتدبر ما قص الله تعالى فى كتابه مما دعت إليه الرسل وما أوقع بمن عصاهم . فإن الله تعالى أقام به الحجة على =

وقوله (٤٣ : ٢٦ - ٢٨) : ﴿ وإذ قال إبراهيمُ وقومه لأبيه إننى بَرَاءٌ مما تعبدون * إلا الذى فَطَرَنى فإنه سيَهدين * وجعلها كلمةً باقيَةً فى عَقِبِه لعلهم يرجعون ﴾ .

الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من المؤمنين . قال قتادة : « تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه» وقرأ ابن زيد : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ (١) قال العماد ابن كثير : وهذا لا خلاف فيه بين المفسرين ، وذكره عن عدة من أئمة التفسير .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - : فى هذه الآية ذكر المقامات الثلاث : الحب ، وهو ابتغاء القرب إليه والتوسل إليه بالأعمال الصالحة ، والرجاء والخوف . وهذا هو حقيقة التوحيد وحقيقة دين الإسلام كما فى المسند عن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال للنبى ﷺ : « والله يا رسول الله ما أتيتك إلا بعد ما حلفتُ عدد أصابعى هذه : أن لا آتيك . فبالذى بعثك بالحق ، ما بعثك به ؟ قال : الإسلام ؟ قال : وما الإسلام ؟ قال : أن تُسلم قلبك ، وأن تُوَجّه وجهك إلى الله ، وأن تصلى الصلوات المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة»، وأخرج محمد ابن نصر المروزى من حديث خالد بن مَعدان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن للإسلام صُوًى ومناراً كمنار الطريق (٢) ، من ذلك : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر » ، وهذا معنى قوله تعالى (٣١ : ٢٢) : ﴿ ومن يُسْلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ .

وقوله تعالى (٤٣ : ٢٦ - ٢٨) : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون ؛ إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ، وجعلها كلمةً باقيةً فى عقبه ﴾ أى « لا إله إلا الله » .

فتدبّر كيف عبَّر الخليل -عليه السلام- عن هذه الكلمة العظيمة بمعناها الذى دلت عليه ووضعت

= كل مشرك إلى يوم القيامة . وأما ما ورد فى معنى الآية عن ابن مسعود قال : « كان ناس من الأنس يعبدون ناساً من الجنة ، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم » .

فإنه لا يخالف ما تقدم لأن هذه الآية حجة على كل من دعا مع الله ولياً من الأولين والآخرين ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فى هذه الآية : وهذه الأقوال كلها فإن الآية تعم من كان معبوده عابداً لله سواء كان من الملائكة والجن أو من البشر .

(١) يعنى أن جميع الصالحين الذين يدعوهم المشركون ويستغيثون بهم إما توسلاً إلى الله ليقضى حوائجهم ، وأما استقلالاً بأن يطلبوا منهم قضاء الحاجة معتقدين بأن الله وهبهم التكوين والتصرف ، أولئك الصالحون مشتغلون بأنفسهم يدعون الله لها ويتوسلون إليه بعبادته مخلصين له الدين خائفين عذابه راجين رحمته ، وإذا لم يملكوا لأنفسهم نفعاً ولا دفع ضر ، فكيف يملكون لغيرهم ضرراً أو نفعاً ؟ .

(٢) الصُّوى : الأعلام المنصوبة من الحجارة فى المفازة المجهولة يستدل بها على الطريق ، واحدتها صوة - كقوة - أراد أن للإسلام طرائق وأعلاماً يهتدى بها .

له [١] : من البراءة من كل ما يعبد من دون الله من المعبودات الموجودة فى الخارج : كالكواكب والهياكل والأصنام التى صورها قوم نوح على صور الصالحين : ودًّ وسُوَاع وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ، وغيرها من الأوثان والأنداد التى كان يعبدها المشركون بأعيانها ، ولم يستثن من جميع المعبودات إلا الذى فطره ، وهو الله وحده لا شريك له ؛ فهذا هو الذى دلت عليه كلمة الإخلاص مطابقة ، كما قال تعالى (٢٢ : ٦٢) : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ﴾ فكل عبادة يقصد بها غير الله : من دعاء وغيره فهى باطلة ، وهى الشرك الذى لا يغفره الله ، قال تعالى (٤٠ : ٧٣ ، ٧٤) : ﴿ ثم قيل لهم : أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعوا من قبلُ شيئاً * كذلك يُضِلُّ الكافرين ﴾ .

وقوله تعالى (٩ : ٣١) : ﴿ اتخذوا أحبارهم [٢] ورُهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾ .

---

(١) فى قرة العيون : فعبر عن المنفى بها قوله : ﴿ إننى براء مما تعبدون ﴾ وعبر عما أثبتته بقوله : ﴿ إلا الذى فطرنى ﴾ فقصر العبادة على الله وحده ونفاها عن كل ما سواه ببراءته من ذلك . فما أحسن التفسير لهذه الكلمة وما أعظمه .

قال العماد ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ وجعلها كلمة باقية فى عقبه ﴾ أى هذه الكلمة وهى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان وهى لا إله إلا الله ، جعلها فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أى إليها . قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم فى قوله : ﴿ وجعلها كلمة باقية فى عقبه ﴾ يعنى « لا إله إلا الله » لا يزال فى ذريته من يقولها .

(٢) الأحبار : هم العلماء ، والرهبان : هم العباد . قال السدى : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . ولهذا قال تعالى فى الآية : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ فصار ذلك عبادة لهم . وجعلوا أحبارهم ورهبانهم مشرعين فى تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله ، فاتخذوهم بذلك أربابا ؛ لأن التشريع من خصائص الربوبية كما أن العبادة من مستحقات الربوبية . وقال تعالى : ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ [٣ : ٨٠] .

فى قرة العيون : أى اتخذوه رباً بعبادتهم له من دون الله ، وقال تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم . وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد﴾ [٥ : ١١٦ ، ١١٧] فمن تدبر هذه الآيات تبين له معنى « لا إله إلا الله » وتبين له التوحيد الذى جحده أكثر من يدعى العلم فى هذه القرون وما قبلها من متأخرى هذه الأمة ، وقد عمت البلوى بالجهل بعد القرون الثلاثة لما وقع الغلو فى قبور أهل البيت وغيرهم وبنيت عليها المساجد ، وبنيت لهم المشاهد ، فاتسع الأمر وعظمت الفتنة فى =

وفى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ تلا هذه الآية على عَدىٍّ بن حاتم الطائى فقال : « يا رسول الله ، لسنا نعبدهم ، قال : أليس يُحلُّون لكم ما حرم الله فتحلونه ، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ قال : بلى ، قال النبى ﷺ : فتلك عبادتهم » (١) .

فصارت طاعتهم فى المعصية عبادة لغير الله وبها اتخذوهم أرباباً ، كما هو الواقع فى هذه الأمة ، وهذا من الشرك الأكبر المنافى للتوحيد الذى هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله .

فتبين بهذه الآية أن كلمة الإخلاص نفت هذا كله لمنافاته لمدلول هذه الكلمة ، فأثبتوا ما نفته من الشرك وتركوا ما أثبتته من التوحيد .

وقوله تعالى (٢ : ١٦٥) : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾ فكل من اتخذ نِداً لله يدعوه من دون الله ويرغب إليه ويرجوه لما يؤمله منه : من قضاء حاجاته وتفريج كرباته - كحال عُبَّاد القبور والطواغيت والأصنام - فلا بد أن يعظِّموهم ويحبوهم لذلك؛ فإنهم أحبوهم مع الله ، وإن كانوا يحبون الله تعالى (٢) . ويقولون : « لا إله إلا الله»

= الشرك المنافى للتوحيد لما حدث الغلو فى الأموات وتعظيمهم بالعبادة ، فبهذه الأمور التى وقع فيها الأكثر ، وعاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والبدعة سنة والسنة بدعة ، نشأ على هذا الصغير ، وهرم عليه الكبير ، وقد قال ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء ، الذين يصلحون إذا فسد الناس » وفى رواية «يصلحون ما أفسد الناس » .

(١) رواه الإمام أحمد ، والترمذى وحسنه وابن جرير مطولاً .

(٢) هم فى الواقع ما أحبوا الله حقيقة لأن حب الله لا يكون إلا عن معرفة بالله ، بأسمائه وصفاته ، ومن أحب الله على الحقيقة لا يمكن أن يتخذ من دونه نداً ، وليس معنى « كحب الله » أى كحبهم لله ، ولكن معناها - والله أعلم = : يحبونهم حباً من جنس الحب الذى لا يكون إلا لله ، وهو حب العبادة : غاية الحب فى غاية الذل والتعظيم، فهذا هو الحب الذى ينشأ عنه الدعاء واللجأ والضراعة وطلب تفريج الكروب ونحوها . مما يجرده المؤمنون لله وحده وهم أشد حباً لله ، والمشركون يجردونه لأوليائهم أو يشركونهم مع الله ، ولا يرجون لله وقاراً .

وقال فى قرة العيون : الأنداد : الأمثال والنظراء ، كما قال العماد ابن كثير وغيره من المفسرين ، فكل من صرف من العبادة شيئاً لغير الله رغبة إليه أو رهبة منه ، فقد اتخذه نداً لله، لأنه أشرك مع الله فيما لا يستحقه غيره.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه أى مع الله بعبادته له ، وتوحيد الحب أن لا يبقى فى قلبه بقية حب حتى يبذلها له ، فهذا الحب وإن سمى عشقاً فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه ، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن لا تكون محبته لغير الله ، فلا يحب إلا الله ، كما فى الحديث الصحيح : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار » ومحبة رسوله هى من محبته ، ومحبة المرء إن كانت لله فهى من محبته ، وإن كانت لغير الله فهى منقصة لمحبة الله مضعفة لها ، ويصدق هذه المحبة بأن يكون كراهته لأبغض الأشياء إلى محبوبه - وهو الكفر - بمنزلة كراهته لإلقائه فى النار أو أشد ، ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة ، فإن الإنسان لا يقدم على محبة نفسه شيئاً ، فإذا قدم محبة=

ويصلون ويصومون ، فقد أشركوا بالله فى المحبة بمحبة غيره ، وعبادة غيره ، فاتخاذهم الأنداد يحبونهم كحب الله يبطل كل قول يقولونه وكل عمل يعملونه ؛ لأن المشرك لا يقبل منه عمل، ولا يصح منه . وهؤلاء وإن قالوا : « لا إله إلا الله » فقد تركوا كل قيد قيِّدت به هذه الكلمة العظيمة : من العلم بمدلوها ، لأن المشرك جاهل بمعناها ، ومن جهله بمعناها جعل لله شريكاً فى المحبة وغيرها ، وهذا هو الجهل المنافى للعلم بما دلت عليه من الإخلاص ، ولم يكن صادقاً فى قولها ؛ لأنه لم ينف ما نفته من الشرك ، ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص ، وترك اليقين أيضاً ؛ لأنه لو عرف معناها وما دلت عليه لأنكره أو شكّ فيه ، ولم يقبله وهو الحق . ولم يكفر بما يعبد من دون الله ، كما فى الحديث ، بل آمن بما يعبد من دون الله باتخاذه الندّ ومحبته له وعبادته إياه من دون الله ، كما قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ لأنهم أخلصوا له الحب فلم يحبوا إلا إياه ، ويحبون من أحب ويخلصون أعمالهم جميعاً لله ، ويكفرون بما عبد من دون الله ، فبهذا يتبين لمن وفقه الله تعالى لمعرفة الحق وقبوله دلالة هذه الآيات العظيمة على معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، وعلى التوحيد الذى هو معناها الذى دعا إليه جميع المرسلين ، فتدبر .

قال : (وقول الله تعالى (١٧ : ٥٧) : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ - الآية ، يتبين معنى هذه الآية بذكر ما قبلها ، وهو قوله تعالى : ﴿ قل ادْعُوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾ .

قال ابن كثير - رحمه الله - : يقول تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد [1] للمشركين الذين عبدوا غير الله ﴿ ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ من الأصنام والأنداد ، وارغبوا إليهم ، ﴿ فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم ﴾ أى بالكلية ﴿ ولا تحويلاً ﴾ أى ولا أن يحولوه إلى غيركم .

= الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خير بين الكفر وإلقائه فى النار لاختار أن يلقى فى النار ولا يكفر ، كان أحب إليه من نفسه ، وهذه المحبة هى فوق ما يجده العشاق من محبة محبوبيهم ، بل لا نظير لهذه المحبة ، كما لا مثيل لمن تعلقت به وهى محبة تقتضى تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد ، وتقتضى كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة ، والانقياد ظاهراً وباطنباً ، وهذا لا نظير له فى محبة مخلوق ولو كان المخلوق من كان ، ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره فى المحبة الخاصة كان شركاً لا يغفره الله كما قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ والصحيح أن معنى الآية : أن الذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم ، كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً ، كما لا يماثل محبوبهم غيره وكل أذى فى محبة غيره فهو نعيم فى محبته ، وكل مكروه فى محبة غيره فهو قرة عين فى محبته .

(١) يستعمل المفسرون هذا الخطاب كثيراً لخطاب الله ، ولكن يلاحظ أن الله لم يخاطب رسوله ولا مرة واحدة بهذا الخطاب يا محمد» بل كل خطاب الله «يا أيها النبى، يا أيها الرسول»، فينبغى أن يكون ذلك كذلك، والله أعلم.

والمعنى : أن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له ، الذى له الخلق والأمر . قال العوفى عن ابن عباس فى الآية : « كان أهل الشرك يقولون : نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً ، وهم الذين يدعون . يعنى الملائكة والمسيح وعزيراً » .

وروى البخارى فى الآية عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « ناس من الجن كانوا يُعبدون فأسلموا » ، وفى رواية : « كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم » .

وقول ابن مسعود هذا : يدل على أن الوسيلة هى الإسلام ، وهو كذلك على كلا القولين .

وقال السدى عن أبى صالح عن ابن عباس فى الآية قال : « عيسى وأمه وعزيراً » ، وقال مغيرة عن إبراهيم : كان ابن عباس يقول فى هذه الآية : « هم عيسى وعزير والشمس والقمر » وقال مجاهد : « عيسى وعزير والملائكة » .

وقوله : (يرجون رحمته ويخافون عذابه) لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء ، فكل داع دعا دعاء عبادة أو استغاثة لا بد له من ذلك : فإما أن يكون خائفاً ، وإما أن يكون راجياً ، وإما أن يجتمع فيه الوصفان .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - فى هذه الآية ، لما ذكر أقوال المفسرين : وهذه الأقوال كلها حق ، فإن الآية تعم من كان معبوده عابداً لله ، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر . والسلف فى تفسيرهم يذكرون جنس المراد بالآية على نوع التمثيل ، كما يقول الترجمان لمن سأله : ما معنى الخبز ؟ فيريه رغيفاً ، فيقول : هذا ، فالإشارة إلى نوعه لا على عينه ، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع دون نوع مع شمول الآية ، فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعواً ، وذلك المدعو يبتغى إلى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه ، فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية ، كما تتناوله من دعا الملائكة والجن ؛ فقد نهى الله تعالى عن دعائهم ، وبيَّن أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله ، لا يرفعونه بالكلية ولا يُحوّلونه من موضع إلى موضع ، كتغيير صفته أو قدره ، ولهذا قال : ﴿ ولا تحويلاً ﴾ فذكر نكرة تعم أنواع التحويل ، فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين أو دعا الملائكة ، فقد دعا من لا يغيثه ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله . اهـ .

وفى هذه الآية رد على من يدعو صالحاً ويقول : أنا لا أشرك بالله شيئاً ، الشرك عبادة الأصنام .

وقوله (٤٣ : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨] : ﴿ وإذ قال إبراهيمُ لأبيه وقومه إننى بَرَآءٌ مما تعبدون إلا الذى فَطَرنى فإنه سيهدين وجعلها كلمةً باقيَةً فى عَقِبه لعلهم يرجعون ﴾ .

قال : (وقوله : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براءٌ مما تعبدون إلا الذى فطرنى ﴾ - الآية . قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ، ووالد من بعث بعده من الأنبياء ، الذى تنتسب إليه قريش فى نسبها ومذهبها : إنه تبرأ من أبيه وقومه فى عبادتهم الأوثان فقال : ﴿ إننى براَء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾ أى هذه الكلمة وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان ، وهى « لا إله إلا الله » [1] جعلها فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي : إليها .

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم فى قوله : ﴿ وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾ يعنى « لا إله إلا الله » لا يزال فى ذريته من يقولها .

وروى ابن جرير عن قتادة : ﴿ إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى ﴾ قال : كانوا يقولون: الله ربنا ، (٤٣ : ٨٧) : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم لَيَقُولُنَّ الله ﴾ فلم يبرأ من ربه . رواه عبد بن حميد . وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتادة ، ﴿ وجعلها كلمة باقية فى عقبه ﴾ قال : « الإخلاص والتوحيد ، لا يزال فى ذريته من يعبد الله ويوحده » .

قلت : فتبين أن معنى «لا إله إلا الله» توحيد الله بإخلاص العبادة له والبراءة من كل ما سواه.

قال المصنف - رحمه الله - : (وذكر سبحانه أن هذه البراءة ، وهذه الموالاة ، هى شهادة أن لا إله إلا الله) .

وفى هذا المعنى يقول العلامة الحافظ ابن القيم - رحمه الله - فى الكافية الشافية :

وإذا تولاه امرؤ دون الورى طُـرا تولاه العظيم الشـأن

قال : (وقوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ - الآية .

الأحبار : هم العلماء ، والرهبان : هم العبَّاد . وهذه الآية قد فسرها رسول الله ﷺ لعَدىِّ ابن حاتم ، وذلك « أنه لما جاء مسلماً دخل على رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية ، قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم ، فقال : بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال ، وحللوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » رواه أحمد والترمذى وحسنه ، وعبد بن حميد وابن أبى حاتم والطبرانى من طرق .

(١) فإن « لا إله إلا الله » مطابقة لقوله : ﴿ إننى براءٌ مما تعبدون إلا الذى فطرنى ﴾ لأن كلتاهما مركبة من جملتين : نفى ، وهى « لا إله » ، و« إننى براءٌ مما تعبدون » وإثبات : وهى « إلا الله » ، و« الذى فطرنى » فينبغى أن يلاحظ المسلم عند نطقه بكلمة الشهادة ذلك ويحققه علماً وعملاً .

. . . .

قال السدى : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما أمروآ إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ فإن الحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله ، والدين ما شرعه الله .

فظهر بهذا أن الآية دلت على أن من أطاع غير الله ورسوله ، وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة فى تحليل ما حرّم الله ، أو تحريم ما أحله الله ، وأطاعه فى معصية الله ، واتبعه فيما لم يأذن به الله ، فقد اتخذه رباً ومعبوداً وجعله لله شريكاً ، وذلك ينافى التوحيد الذى هو دين الله الذى دلت عليه كلمة الإخلاص « لا إله إلا الله » ، فإن الإله هو المعبود ، وقد سمى الله تعالى طاعتهم عبادة لهم ، وسماهم أرباباً ، كما قال تعالى (٣ : ٨٠) : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ﴾ أى شركاء لله تعالى فى العبادة ، ﴿ أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ وهذا هو الشرك ، فكل معبود رب ، وكل مطاع ومتبع على غير ما شرعه الله ورسوله فقد اتخذه المطيع المتبع رباً ومعبوداً ، كما قال تعالى فى آية الأنعام (٦ : ١٢١) : ﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ وهذا هو وجه مطابقة الآية للترجمة ، ويشبه هذه الآية فى المعنى قوله تعالى (٤٢ : ٢١) : ﴿ أم لهم شركآء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ والله أعلم .

قال شيخ الإسلام فى معنى قوله : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم فى تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين ، أحدهما : أن يعلموا أنهم بدّلوا دين الله فيتبعونهم على هذا التبديل ، فيعتقدون تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله ، اتباعاً لرؤسائهم ، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل ، فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله شركاً ، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم ، فكان من اتبع غيره فى خلاف الدين مع علمه أنه خلاف للدين ، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله ، مشركاً مثل هؤلاء .

الثانى : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتاً ، لكنهم أطاعوهم فى معصية الله ، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصى التى يعتقد أنها معاص ؛ فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب ، كما قد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : « إنما الطاعة فى المعروف » .

ثم ذلك المحرِّم للحلال والمحلل للحرام إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسول لكن خفى عليه الحق فى نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع ؛ فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذى أطاع به ربه ، ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول ، فهذا له نصيب من هذا الشرك الذى ذمه الله ، لا سيما إن اتبع فى ذلك

هواه ونصره باليد واللسان ، مع علمه أنه مخالف للرسول ، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه ، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد فى خلافه ، وإنما تنازعوا فى جواز التقليد للقادر على الاستدلال ، وإن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذى يعلمه ، فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى ، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه ، وهؤلاء كالنجاشى وغيره ، وقد أنزل الله فى هؤلاء الآيات من كتابه كقوله تعالى (٣ : ١٩٩) : ﴿ وإن من أهل الكتاب لَمَنْ يؤمن بالله وما أُنزل إليكم وما أُنزل إليهم ﴾ ، وقوله (٥ : ٨٣) : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ - الآية ، وقوله (٧ : ١٥٩) : ﴿ ومن قوم موسى أُمَّة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ ، وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعل ما يقدر عليه مثلُه : من الاجتهاد فى التقليد ، فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما فى القِبْلة . وأما من قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه ، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق ؛ فهذا من أهل الجاهلية ، وإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً ، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً ، كمن قال فى القرآن برأيه ، فإن أصاب فقد أخطأ ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار . وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذى تقدم فيه الوعيد ، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، فإن ذلك لما أحب المال منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبداً له ، وكذلك هؤلاء فيكون فيهم شرك أصغر ، ولهم من الوعيد بحسب ذلك . وفى الحديث : «إن يسير الرياء شرك» ، وهذا مبسوط عند النصوص التى فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب . انتهى .

وقال أبو جعفر بن جرير فى معنى قول الله تعالى : ﴿ وتجعلون له أنداداً ﴾ أى وتجعلون لمن خلق ذلك أنداداً وهم الأكفاء من الرجال تطيعونهم فى معاصى الله . انتهى .

قلت : كما هو الواقع من كثير من عباد القبور .

قال : (وقوله (٢ : ١٦٥) : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله - الآية ﴾) .

قال العماد ابن كثير رحمه الله : يذكر الله حال المشركين به فى الدنيا ومآلهم فى الدار الآخرة ، حيث جعلوا لله أنداداً ؛ أى أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه . وهو الله لا إله إلا هو ، ولا ضد له ، ولا ندَّ له ، ولا شريك معه . وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : « قلت : يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خَلَقَكَ » .

والذين آمنوا أشدُّ حباً لله ﴾ .

وقوله : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ ولحبهم لله تعالى وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم لا يشركون به شيئاً ، بل يعبدونه وحده ، ويتوكلون عليه ، ويلجأون فى جميع أمورهم إليه . ثم توعّد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك . فقال تعالى : ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يَرَوْنَ العذاب أن القوّة لله جَميعاً ﴾ قال بعضهم : تقدير الكلام ، لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوّة لله جميعاً ، أى إن الحكم له وحده لا شريك له ؛ فإن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه ، ﴿ وأن الله شديد العذاب ﴾ كما قال تعالى (٨٩ : ٢٥ ، ٢٦) : ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ يقول : لو علموا ما يعاينون هناك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال ، ثم أخبر عن كفرهم بأعوانهم وتبرّؤ المتبوعين من التابعين . فقال تعالى : ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبَعوا ﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم فى الدار الدنيا ، فتقول الملائكة [1] (٢٨ : ٦٣) : ﴿ تبرأنا إليك ما كانواْ إيانا يعبدون ﴾ ويقولون (٣٤ : ٤١) : ﴿ قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ والجن أيضاً يتبرأون منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم ، كما قال تعالى (٤٦ : ٥ ، ٦) : ﴿ ومن أضلّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ . انتهى كلامه .

روى ابن جرير عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ يحبونهم كحب الله ﴾ مباهاة ومضاهاة للحق سبحانه بالأنداد ﴿ والذين آمنواْ أشد حباً لله ﴾ من الكفار لأوثانهم .

---

(١) قال العماد ابن كثير فى تفسير سورة القصص : وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين حق عليهم القول ﴾ يعنى الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿ ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووهم ، ثم تبرأوا من عبادتهم . ا هـ .

والدعاة إلى الكفر : هم من بنى آدم ممن كانوا رؤساء وشيوخاً لأولئك الغاوين كأصحاب الطرق الصوفية . فإنهم الذين زينوا لمريديهم ومتبوعيهم الشرك والكفر بالله ورسوله . فإن أساس طرقهم الشيطانية : أن يعبد المريد شيخه بأنواع التعظيم والخوف واعتقاد أنه جاسوس قلبه يدخل ويخرج والمريد لا يشعر . وأنه قبل أن يذكر الله يستحضر الشيخ فى قلبه . ويعظمونهم بأنواع الطاعة العمياء أحياء وأمواتاً - كما هو مدون فى كتبهم - من شروط المريد وما يسمونه العهد الوثيق . وتجد أكثر هذا الكفر والضلال فى كتب الشعرانى . وأما آيات سورة الأحقاف فإنها صريحة فى أن الذين يكفرون بشرك المشركين : هم من عباد الله الصالحين الذين اتخذهم الناس آلهة بعد موتهم . واتخذوا قبورهم أوثاناً ، وما كانوا يحبون ذلك ولا يرضون به ، من أمثال الحسين وإخوته وأبيه وأبنائهم والإمام الشافعى فى مصر وأبى حنيفة وعبد القادر فى بغداد ونحوهم ، فإنهم يتبرأون يوم القيامة من أولئك المشركين .

قال المصنف - رحمه الله تعالى - : (ومن الأمور المبينة لتفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: آية البقرة فى الكفار الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله . فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً ، فلم يدخلهم فى الإسلام ، فكيف بمن أحب الندّ أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يجب إلا الند وحده؟) اهـ .

ففى الآية بيان أن من أشرك مع الله تعالى غيره فى المحبة فقد جعله شريكاً لله فى العبادة واتخذه نداً من دون الله ، وأن ذلك هو الشرك الذى لا يغفره الله ، كما قال تعالى فى أولئك: ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ ، وقوله : ﴿ ولو يرى الذين ظلموآ إذ يَرَوْنَ العذاب ﴾ المراد بالظلم هنا الشرك ، كقوله (٧ : ٨٢) : ﴿ ولم يلبسوآ إيمانهم بظلم ﴾ كما تقدم . فمن أحب الله وحده ، وأحب فيه وله فهو مخلص ، ومن أحبه وأحب معه غيره ، فهو مشرك ، كما قال تعالى (٢ : ٢١ ، ٢٢) : ﴿ يآ أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسمآء بناء وأنزل من السمآء مآء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ما معناه : فمن رغب إلى غير الله فى قضاء حاجة أو تفريج كربة ، لزم أن يكون محباً له ؛ ومحبته هى الأصل فى ذلك . انتهى .

فكلمة الإخلاص « لا إله إلا الله » تنفى كل شرك فى أى نوع كان من أنواع العبادة ، وتثبت العبادة بجميع أفرادها لله تعالى . وقد تقدم بيان أن « الإله » هو المألوه الذى تألهه القلوب بالمحبة وغيرها من أنواع العبادة ، فلا إله إلا الله ، نفت ذلك كله عن غير الله ، وأثبتته لله وحده . فهذا هو ما دلت عليه كلمة الإخلاص مطابقة ، فلا بد من معرفة معناها واعتقاده ، وقبوله ، والعمل به باطناً وظاهراً . والله أعلم .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - : فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه ، أي مع الله تعالى بعبادته له ، وتوحيد الحب : أن لا يبقى فى قلبه بقية حب حتى يبذلها له ، فهذا الحب - وإن سمي عشقاً - فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه ، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما ، وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله تعالى ، فلا يحب إلا الله ، ولا يحب إلا لله ، كما فى الحديث الصحيح : « ثلاث من كن فيه » الحديث [1] ، ومحبة رسول الله ﷺ هى من محبة الله ، ومحبة المرء إن كانت لله فهى من محبته ، وإن كانت لغير الله فهى منقصة لمحبة الله مضعفة لها ؛ ويُصَدِّق هذه المحبة

(١) رواه البخارى عن أنس بلفظ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « مَنْ قال : لا إله إلا الله وكفر بما يُعْبَدُ من دون الله ، حَرُم ماله ودمُه ،

بأن تكون كراهيته لأبغض الأشياء إلى محبوبه - وهو الكفر - بمنزلة كراهيته لإلقائه فى النار أو أشد ، ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة ، فإن الإنسان لا يُقدِّم على محبة نفسه وحياته شيئاً ، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خُيِّر بين الكفر وبين إلقائه فى النار لاختار أن يلقى فى النار ولا يكفر ، كان أحب إليه من نفسه ، وهذه المحبة هى فوق ما يجده العشاق المحبون من محبة محبوبيهم ، بل لا نظير لهذه المحبة . كما لا مثل لمن تعلقت به وهى محبة تقتضى تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد ، وتقتضى كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والانقياد ظاهراً وباطناً . وهذا لا نظير له فى محبة المخلوق ، ولو كان المخلوق من كان. ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره فى هذه المحبة الخاصة كان مشركاً شركاً لا يغفره الله كما قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ والصحيح : أن معنى الآية : أن الذين آمنوا أشد حباً لله من أهل الأنداد لأندادهم . كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً ، كما لا يماثل محبوبهم غيره . وكل أذى فى محبة غيره فهو نعيم فى محبته . وكل مكروه فى محبة غيره فهو قرة عين فى محبته . ومن ضرب لمحبته الأمثال التى فى محبة المخلوق للمخلوق : كالوصل ، والهجر والتجنى بلا سبب من المحب ، وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً ، فهو مخطئ أقبح الخطأ وأفحشه ، وهو حقيق بالإبعاد والمقت . انتهى .

(وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « من قال : لا إله إلا الله ، وكفر بما يُعبد من دون الله حَرُم ماله ودمه وحسابه على الله) .

قوله: فى الصحيح: أى صحيح مسلم عن أبى مالك الأشجعى عن أبيه عن النبى ﷺ -فذكره .

وأبو مالك اسمه : سعد بن طارق ، كوفى ثقة ، مات فى حدود الأربعين ومائة ، وأبوه طارق بن أشْيَم - بالمعجمة والمثناة التحتية وزن أحمر - ابن مسعود الأشجعى ، صحابى له أحاديث قال مسلم : لم يرو عنه غير ابنه . وفى مسند الإمام أحمد عن أبى مالك قال : وسمعته يقول للقوم : « من وحَّد الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل » ، ورواه الإمام أحمد من طريق يزيد بن هارون . قال : أخبرنا أبو مالك الأشجعى عن أبيه . ورواه أحمد عن عبد الله بن إدريس قال : سمعت أبا مالك قال : قلت لأبى - الحديث . ورواية الحديث بهذا اللفظ تفسر « لا إله إلا الله » .

قوله : (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله) اعلم أن النبى ﷺ علق عصمة المال والدم فى هذا الحديث بأمرين . الأول : قول : « لا إله إلا الله » عن علم ويقين ، كما

هو قيد فى قولها فى غير ما حديث كما تقدم . والثانى : الكفر بما يعبد من دون الله ، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى ، بل لا بد من قولها والعمل بها [1] .

قلت : وفيه معنى (٢ : ٢٥٦) : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ .

قال المصنف - رحمه الله تعالى - : (وهذا من أعظم ما يبين معنى : لا إله إلا الله ، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه . فيالها من مسألة ما أجلها وياله من بيان ما أوضحه ، وحجة ما أقطعها للمنازع) . انتهى .

قلت : وهذا هو الشرط المصحح لقوله : « لا إله إلا الله » فلا يصح قولها بدون هذه الخمس التى ذكرها المصنف رحمه الله أصلاً . قال تعالى (٨ : ٣٩) : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ ، وقال : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ أمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويخلصوا أعمالهم لله تعالى ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة، فإن أبوا عن ذلك أو بعضه قوتلوا إجماعاً .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة مرفوعاً : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويؤمنوا بى ، وبما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » ، وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » ، وهذان الحديثان تفسير الآيتين : آية الأنفال ، وآية براءة . وقد أجمع العلماء على أن من قال : «لا إله إلا الله» ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها. أنه يقاتل حتى يعمل بما دلت عليه من النفى والإثبات.

قال أبو سليمان الخطابى - رحمه الله - فى قوله : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله » معلوم أن المراد بهذا أهل عبادة الأوثان ، دون أهل الكتاب ، لأنهم يقولون : «لا إله إلا الله » ثم يُقاتَلون ولا يرفَع عنهم السيف .

(١) فى قرة العيون : فيه دليل أنه لا يحرم ماله ودمه إلا إذا قال : لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله ، فإن قالها ولم يكفر بما يعبد من دون الله فدمه وماله حلال لكونه لم ينكر الشرك ويكفر به ، ولم ينفه كما نفته لا إله إلا الله . فتأمل هذا الموضوع فإنه عظيم النفع .

وحسابه عَلَى الله عز وجل » .

وشرحُ هذه الترجمةِ : ما بعدها من الأبواب .

وقال القاضى عياض : اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال : « لا إله إلا الله » تعبير عن الإجابة إلى الإيمان ، وأن المراد بذلك : مشركوا العرب ، وأهل الأوثان ، فأما غيرهم ممن يقرّ بالتوحيد ، فلا يُكتفَى فى عصمته بقول : « لا إله إلا الله » إذ كان يقولها فى كفره . انتهى ملخصاً .

وقال النووى : لا بد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به الرسول ﷺ كما جاء فى الرواية: « ويؤمنوا بى وبما جئت به » .

وقال شيخ الإسلام ، لما سئل عن قتال التتار فقال : كل طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة من هؤلاء القوم أو غيرهم ، فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه ، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه . كما قاتل أبو بكر والصحابة - رضى الله عنهم - مانعى الزكاة . وعلى هذا اتفق الفقهاء بعدهم . قال : فأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات ، أو الصيام ، أو الحج ، أو عن التزام تحريم الدماء ، أو الأموال ، أو الخمر ، أو الميسر ، أو نكاح ذوات المحارم ، أو عن التزام جهاد الكفار ، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين ومحرماته التى لا عذر لأحد فى جحودها أو تركها ، التى يكفر الواحد بجحودها . فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها ، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء . قال : وهؤلاء عند المحققين ليسوا بمنزلة البغاة ، بل هم خارجون عن الإسلام . انتهى .

قوله : (وحسابه على الله) أى الله تبارك وتعالى هو الذى يتولى حساب الذى يشهد بلسانه بهذه الشهادة ، فإن كان صادقاً جازاه بجنات النعيم ، وإن كان منافقاً عذبه العذاب الأليم . وأما فى الدنيا فالحكم على الظاهر ، فمن أتى بالتوحيد ولم يأت بما ينافيه ظاهراً والتزم شرائع الإسلام وجب الكفّ عنه .

قلت : وأفاد الحديث أن الإنسان قد يقول : « لا إله إلا الله » ولا يكفر بما يعبد من دون الله ، فلم يأت بما يعصم دمه وماله كما دل على ذلك الآيات المحكمات والأحاديث .

قوله: (وشرحُ هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب) [1] قلت: وذلك أن ما بعدها من الأبواب

---

(١) فى قرة العيون : فقد ذكر فيها رحمه الله تعالى ما يبين التوحيد وما ينافيه وما يقرب منه ، وما يوصل إليه من الوسائل ، وبيان ما كان عليه السلف من بعدهم عن الشرك فى العبادة وشدة إنكارهم له وجهادهم على ذلك ، وقد جمع هذا الكتاب على اختصاره من بيان التوحيد ما لا يعذر أحد عن معرفته وطلبه بإقبال وتدبر . وكذلك الرد على أهل الأهواء جميعهم ، فمن حفظه واستحضره وجد ذلك واستغنى به عن غيره فى الرد على كل مبتدع، فتدبره تجد ذلك بيناً وسيأتى التنبيه على ذلك إن شاء الله تعالى .

فيه أكبر المسائل وأهمها : وهى تفسير التوحيد ، وتفسير الشهادة : وبيَّنها بأمور واضحة .

ومنها : وآيةُ الإسراء بيّن فيها الردَّ على المشركين الذين يَدْعون الصالحين ففيها : بيانُ أنَّ هذا هو الشركُ الأكبر .

ومنها : آية براءة ، بَيَّنَ فيها أنَّ أهلِ الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دُون الله ، وبَيَّنَ أنهم لم يُؤمروا إلا بأن يَعْبُدوا إلهاً واحداً ، مع أن تفسيرها الذى لا إشكال فيه : طاعةُ العلماء والعبَّادِ فى المعصيةِ ، لا دُعاؤهم إياهم .

ومنها : قول الخليل عليه السلام للكفار : ﴿ إننى براءٌ مما تعبدون إلا الذى فطرنى ﴾ فاستثنى من المعبودين ربَّهُ ، وذكر سبحانه أنَّ هذه البراءَة وهذه الموالاة : هى تفسير شهادة أن لا إله إلا الله ، فقال : ﴿ وَجَعَلها كلمةً باقيةً فى عَقِبه لَعلَّهم يرجعون ﴾ .

ومنها : آية البقرةِ فى الكفار الذين قال فيهم : ﴿ وَمَا هُمْ بخارجينَ منَ النار ﴾ ، ذكر أنهم يُحبُّون أندادهم كحبِّ الله [(١)] ، فدلَّ عَلَى أنهم يحبون الله حباً عظيماً ولَم يُدْخلهم فى الإسلام ، فكيف بمن أحبَّ النِّدَّ [(٢)] أكبر من حُبِّ الله ؟ فكيف بمن لم يُحِبِّ إلا النِّدَّ وحده؟ ولم يُحِبَّ الله ؟

فيه ما يبين التوحيد ويوضح معنى « لا إله إلا الله » ، وفيه أيضاً : بيان أشياء كثيرة من الشرك الأصغر والأكبر وما يوصل إلى ذلك من الغلو والبدع ، مما تركه من مضمون : « لا إله إلا الله » ، فمن عرف ذلك وتحققه تبين له معنى « لا إله إلا الله » ، وما دلت عليه من الإخلاص ونفى الشرك ، وبضدها تتبين الأشياء ، فبمعرفة الأصغر من الشرك يعرف ما هو

---

(١) الظاهر أن المعنى : أنهم يحبون أندادهم من جنس حب الله الذى هو حب التعظيم والذل والخضوع ، لأنه ليس كل حب يكون عبادة حتى يكون فيه تعظيم وخضوع . ولذلك قال : « كحب الله » ولم يقل : كحبهم لله ، فهم فى الوقت الذى يحبونهم أعظم الحب يخافونهم أشد الخوف معتقدين أنهم يخلفون عليهم خيراً مما ينذرونه لهم ويذبحونه لهم من طيب مالهم ويرجون منهم المساعدة والمعونة على كشف الضر ودفع البأساء ، ويحذرون انتقامهم بحرق زرعهم وإهلاك أولادهم وأنفسهم ، ويروون عن سدنتهم روايات مكذوبة فى تأييد دعاويهم تهويلاً عليهم وتمكيناً للضلال والشرك من أنفسهم ، فهم لا يرجون لله وقاراً كما يرجون لهم ولا يخشون الله كما يخشونهم فتجود أنفسهم بسخاء فى سبيل التقرب إلى أولئك الموتى من أوليائهم بما لا تجود بعشره فى سبيل الله ، براً للوالدين أو صلة للأرحام أو إطعاماً لجار بائس ، أو مسكين من أهل قريته . هذا شأن عباد القبور والموتى اليوم . دقق فى أحوالهم وطبقها على آيات المشركين فى القرآن تجدهم زادوا على مشركى الجاهلية الأولى . والله المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(٢) إن من تحقق محبة مشركى زماننا لآلهتهم التى يسمونها بالأولياء يعلم يقيناً أنهم يحبونها أكثر من محبتهم لله ويتصدقون لوجوهها بما لا يقدرون أن يتصدقوا بعشره لوجه الله .

ومنها : قوله ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله ، حرم ماله ودمه ، وحسابه عَلَى الله » ، وهذا من أعظم ما يبين معنى « لا إله إلا الله » فإنه لم يجعل التلفُّظَ بها عاصماً للدَّم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لَفْظها ، بل ولا الإقرارُ بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا لله وحده لا شريك له ، بل لا يَحْرُمُ ماله ودمُه حتى يُضيفَ إلى ذلك الكفرَ بما يُعْبدُ من دون الله . فإن شَكَّ أو توقَّفَ لم يَحْرُمْ ماله ودمه .

فيالها من مسألةٍ ما أعْظَمها وأجَلَّها ، ويالَهُ من بيانٍ ما أوْضَحَهُ ، وحجَّةٍ ما أقطَعَهَا للمنازع .

❊ ❊ ❊

باب (من الشرك : لبس الحلقة والخيط ونحوهما ، لرفع البلاء أو دفعه)

وقول الله تعالى (٣٩ : ٣٨) : ﴿ قل : أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادنيَ الله بضرٍّ هل هنَّ كاشفات ضرِّه ، أو أرادنيَ برحمةٍ هل هنَّ مُمسكات رحمته ؟ قلْ : حسبيَ الله عليه يتوكل المتوكِّلون ﴾) .

أعظم منه من الشرك الأكبر المنافى للتوحيد ، وأما الأصغر فإنما ينافى كماله ، فمن اجتنبه فهو الموحِّد حقاً ، وبمعرفة وسائل الشرك والنهى عنها لتجتنب تعرف الغايات التى نهى عن الوسائل لأجلها ، فإن اجتناب ذلك كله يستلزم التوحيد والإخلاص بل يقتضيه . وفيه أيضاً من أدلة التوحيد : إثبات الصفات ، وتنزيه الرب تعالى عما لا يليق بجلاله ؛ وكل ما يعرِّف بالله من صفات كماله وأدلة ربوبيته يدل على أنه هو المعبود وحده ، وأن العبادة لا تصلح إلا له ، وهذا هو التوحيد ، ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله .

قوله : (باب من الشرك : لبس الحلقة والخيط ونحوهما ، لرفع البلاء أو دفعه) .

رفْعه : إزالته بعد نزوله . ودفعه : منعه قبل نزوله .

قال : (وقول الله تعالى (٣٩ : ٣٨) : ﴿ قل : أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنيَ الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادنيَ برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ ﴾)

قال ابن كثير : أى لا تستطيع شيئاً من الأمر : ﴿ قل حسبى الله ﴾ أى الله كافى من توكل عليه ، ﴿ عليه يتوكل المتوكلون ﴾ كما قال هود عليه السلام حين قال قومه (١١ : ٥٤ - ٥٦): ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء * قال : إنى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون * من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تُنظرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم ﴾ قال مقاتل فى معنى الآية : فسألهم النبى ﷺ فسكتوا : أى أنهم لا يعتقدون ذلك فيها [1] .

---

(١) فى قرة العيون : فإذا كان آلهتهم التى يدعون من دون الله لا قدرة لها على كشف ضرٍ أراده الله بعبده، أو=

وإنما كانوا يدعونها على معنى أنها وسائط وشفعاء عند الله ، لا على أنهم يكشفون الضر ، ويجيبون دعاء المضطر ، فهم يعلمون أن ذلك لله وحده ، كما قال تعالى (١٦ : ٥٣ ، ٥٤): ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون * ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾ .

قلت : فهذه الآية وأمثالها تبطل تعلق القلب بغير الله فى جلب نفع أو دفع ضر ، وأن ذلك شرك بالله ، وفى الآية بيان أن الله تعالى وَسَم أهل الشرك بدعوة غير الله والرغبة إليه من دون الله ، والتوحيد ضد ذلك ، وهو أن لا يدعو إلا الله ، ولا يرغب إلا إليه ، ولا يتوكل إلا عليه ، وكذا جميع أنواع العبادة لا يصلح منها شىء لغير الله ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة وأئمتها ، كما تقدم .

قال : (وعن عمران بن حصين : « أن النبى ﷺ رأى رجلاً فى يده حلْقة من صُفر ، فقال: ما هذه ؟ قال : من الواهنة ، قال : انزعها ، فإنها لا تزيدك إلا وَهَناً ؛ فإنك لو متّ وهى عليك ما أفلحت أبداً » . رواه أحمد بسند لا بأس به) .

قال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا المبارك عن الحسن قال : أخبرنى عمران ابن حصين : « أن النبى ﷺ أبصر على عَضُد رجل حلقة - قال : أراها من صفر - فقال : ويحك ، ما هذه ؟ قال : من الواهنة ، قال : أَمَا إنها لا تزيدك إلا وَهَناً ، انبذها عنك فإنك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبداً » رواه ابن حبان فى صحيحه ، فقال : « فإنك إن مت

= إمساك رحمة أنزلها على عبده فيلزمهم بذلك أن يكون الله تعالى هو معبودهم وحده لزوماً لا محيد لهم عنه . وذكر تعالى مثل هذا السؤال عن خليله إبراهيم لمن حاجه فى الله فقال : ﴿ أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ [٢ : ٢٥٨] فأقام الله تعالى الحجة على المشركين بما يبطل شركهم بالله وتسويتهم غيره به فى العبادة بضرب الأمثال وغير ذلك ، وهذا فى القرآن كثير كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ﴾ [٢٢ : ٧٣] وقال تعالى : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياءَ كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون * إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم * وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ، وقال : ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون * أموات غير أحياءَ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ . ذكر العماد ابن كثير رحمه الله تعالى فى هذه الآية ما رواه ابن أبى حاتم عن قيس بن الحجاج عن حنش الصنعانى عن ابن عباس مرفوعاً : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف على الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، جفت الصحف ورفعت الأقلام ، واعمل لله بالشكر فى اليقين ، واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » .

رأى رجلاً فى يده حَلقة من صُفر ، فقال : ما هذه ؟ قال : من الواهنة ، فقال : انزِعها، فإنها لا تَزِيدُك إلا وهَناً ، فإنك لو مِت وهى عليك ما أفلحت أبداً » . رواه أحمد بسند لا بأس به .

وُكلت إليها » ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد . وأقره الذهبى . و قال الحاكم : أكثر مشايخنا على أن الحسن سمع من عمران. وقوله فى الإسناد : «أخبرنى عمران» يدل على ذلك .

قوله : (عن عمران بن حصين) أى ابن عبيد بن خلف الخزاعى ، أبو نجيد - بنون وجيم مصغر - صحابى ابن صحابى . أسلم عام خيبر ، ومات سنة اثنتين وخمسين بالبصرة .

قوله : (رأى رجلاً) فى رواية الحاكم : « دخلتُ على رسول الله ﷺ وفى عضدى حلقة صفر ، فقال : ما هذه ؟ » الحديث . فالمبهم فى رواية أحمد هو عمران راوى الحديث .

قوله : (ما هذه ؟) يحتمل أن الاستفهام للاستفصال عن سبب لبسها ، ويحتمل أن يكون للإنكار ، وهو أظهر .

قوله : (من الواهنة) قال أبو السعادات [(١)] : الواهنة : عرق يأخذ فى المنكب وفى اليد كلها ، فيُرقى منها . وقيل : هو مرض يأخذ فى العضد ، وهى تأخذ الرجال دون النساء [(٢)] ، وإنما نهى عنها ؛ لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الألم ، وفيه اعتبار المقاصد [(٣)] .

قوله : (انزعها ، فإنها لا تزيدك إلا وهناً) النزع : هو الجذب بقوة ، أخبر أنها لا تنفعه، بل تضره وتزيده ضعفاً ، وكذلك كل أمر نهى عنه ، فإنه لا ينفع غالباً ، وإن نفع بعضه فضره أكبر من نفعه .

قوله : (فإنك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبداً) لأنه شرك . والفلاح : هو الفوز والظفر والسعادة .

قال المصنف - رحمه الله تعالى - : (فيه شاهد لكلام الصحابة : أن الشرك الأصغر أكبر الكبائر ، وأنه لم يعذر بالجهالة ، وفيه الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك) .

قوله : (رواه أحمد بسند لا بأس به) هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد

---

(١) هو ابن الأثير ، ولد سنة ٥٤٤ هـ ، وتوفى سنة ٦٠٦ هـ ، له عدة تآليف . منها النهاية فى غريب الحديث.

(٢) ومن هذا الباب : ما يفعله الجاهليون اليوم من إلباس أولادهم خلاخيل الحديد وغيره يعتقدون أن ذلك يحفظهم من الموت الذى أخذ إخوتهم الذين ماتوا قبلهم . ومنه لبس حلقة الفضة للبركة أو لمنع البواسير ، ولبس خواتيم لها فصوص مخصوصة للحفظ من الجن ، وغيرها .

(٣) فى قرة العيون : وإنما نهاه عنها لكونه أنها تمنع عنه هذا الداء أو ترفعه ، فأمره ﷺ بنزعها لذلك ، وأخبر أنها لا تزيده إلا وهناً ، فإن المشرك يعامل بنقيض قصده لأنه علق قلبه بما لا ينفعه ولا يدفع عنه ، فإذا كان هذا بحلقة صفر فما الظن بما هو أطم وأعظم ؟ كما وقع من عباد القبور والمشاهد وغيرها كما لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل .

ابن إدريس بن عبد الله بن حسان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان ابن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل بن قاسط بن هُنْب بن قصى بن دُعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نِزار بن معدّ بن عدنان – الإمام العالم أبو عبد الله الذهلى ، ثم الشيبانى المروزى ، ثم البغدادى ، إمام أهل عصره ، وأعلمهم بالفقه والحديث، وأشدهم ورعاً ومتابعة للسنة ، وهو الذى يقول فيه بعض أهل السنة : عن الدنيا ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه ، أتته الدنيا فأباها ، والشُّبه فنفاها ، خُرِجَ به من مرو وهو حمل ، فوُلد ببغداد سنة أربع وستين ومائة فى شهر ربيع الأول . وطلب أحمد العلم سنة وفاة مالك ، وهى سنة تسع وسبعين ، فسمع من هشيم وجرير بن عبد الحميد وسفيان بن عيينة ومعتمر بن سليمان ويحيى بن سعيد القطان ومحمد بن إدريس الشافعى ويزيد بن هارون وعبد الرزاق وعبد الرحمن بن مهدى ، وخلق لا يحصون بمكة والبصرة والكوفة وبغداد واليمن وغيرها من البلاد . روى عنه ابناه : صالح وعبد الله ، والبخارى ومسلم وأبو داود وإبراهيم الحربى وأبو زرعة الرازى وأبو زرعة الدمشقى وعبد الله بن أبى الدنيا وأبو بكر الأثرم وعثمان ابن سعيد الدارمى وأبو القاسم البغوى ، وهو آخر من حدث عنه ، وروى عنه من شيوخه عبد الرحمن بن مهدى والأسود بن عامر . ومن أقرانه : علىّ بن المدينى ويحيى بن معين ، قال البخارى : مرض أحمد ليلتين خلتا من ربيع الأول ومات يوم الجمعة لاثنتى عشرة خلت منه . وقال حنبل : مات يوم الجمعة فى ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سنة . وقال ابنه عبد الله والفضل بن زياد : مات فى ثانى عشر ربيع الآخر رحمه الله تعالى .

قوله : (وله عن عقبة بن عامر مرفوعاً : « مَن تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له » ، وفى رواية : « من تعلق تميمة فقد أشرك ») (١) الحديث الأول رواه الإمام أحمد كما قال المصنف، ورواه أيضاً أبو يعلى، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وأقره الذهبى.

قوله : (وفى رواية) أى من حديث آخر رواه أحمد . فقال : حدثنا عبد الصمد بن عبد

(١) فى قرة العيون : وهذا الحديث فيه التصريح بأن تعليق التمائم شرك لما يقصده من عقلها لدفع ما يضره أو جلب ما ينفعه ، وهذا أيضاً ينافى كمال الإخلاص الذى هو معنى لا إله إلا الله لأن المخلص لا يلتفت قلبه لطلب نفع أو دفع ضر من سوى الله كما تقدم فى قوله : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ فكمال التوحيد لا يحصل إلا بترك ذلك وإن كان من الشرك الأصغر فهو عظيم ، فإذا كان هذا قد خفى على بعض الصحابة رضى الله عنهم فى عهدة النبوة فكيف لا يخفى على من هو دونهم فى العلم والإيمان بمراتب بعد ما حدث من البدع والشرك ؟ كما فى الأحاديث الصحيحة وتقدمت الإشارة إلى ذلك ، وهذا مما يبين معنى لا إله إلا الله أيضاً فإنها نفت كل الشرك قليله وكثيره ، كما قال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولواْ العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ [٣ : ١٨] .

الوارث ، حدثنا عبد العزيز بن مسلم ، حدثنا يزيد بن أبى منصور عن دجين الحجرى عن عقبة بن عامر الجهنى : « أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط ، فبايع تسعة وأمسك عن واحد ، فقالوا : يا رسول الله ، بايعت تسعة وأمسكت عن هذا ؟ فقال : إن عليه تميمة ، فأدخل يده فقطعها ، فبايعه وقال : من تعلق تميمة فقد أشرك » ورواه الحاكم بنحوه ، ورواته ثقات .

قوله : (عن عقبة بن عامر) صحابى مشهور ، فقيه فاضل . ولِىَ إمارة مصر لمعاوية ثلاث سنين ، ومات قريباً من الستين .

قوله : (من تعلق تميمة) أى علقها متعلقاً بها قلبه فى طلب خير أو دفع شر .

قال المنذرى : خرزة كانوا يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات ، وهذا جهل وضلالة ؛ إذ لا مانع ولا دافع غير الله تعالى .

وقال أبو السعادات : التمائم جمع تميمة ، وهى خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم، يتقون بها العين فى زعمهم ، فأبطلها الإسلام .

قوله : « فلا أتَمَّ الله له » دعاء عليه .

قوله : « ومن تعلق وَدَعَةً » بفتح الواو وسكون المهملة . قال فى مسند الفردوس : شىء يخرج من البحر يشبه الصدف يتقون به العين .

قوله : (فلا ودع الله له) بتخفيف الدال : أى لا جعله فى دعة وسكون . قال أبو السعادات : وهذا دعاء عليه .

قوله : (وفى رواية : من تعلق تميمة فقد أشرك) قال أبو السعادات : إنما جعلها شركاً لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة عليهم ، وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذى هو دافعه .

قال المصنف رحمه الله : (ولابن أبى حاتم عن حذيفة : « أنه رأي رجلاً فى يده خيط من الحمى فقطعه، وتلا قوله تعالى (١٢ : ١٠٦): ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾).

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن الحسين بن إبراهيم بن أشكاب ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم الأحول عن عروة قال : « دخل حذيفة على مريض، فرأى فى عضده سيراً ، فقطعه أو - انتزعه - ثم قال : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ » .

وابن أبى حاتم : هو الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم محمد بن إدريس الرازى التميمى الحنظلى الحافظ ، صاحب الجرح والتعديل والتفسير وغيرهما . مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة .

وحذيفة : هو ابن اليمان . واسم اليمان : حُسيل - بمهملتين مصغراً - ويقال : حِسل -

« أنه رأى رجلاً فى يده خَيط من الحُمَّى فقطعه وتلا قوله (١٢ : ١٠٦) : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ .

بكسر ثم سكون - العبسى - بالموحدة - حليف الأنصار ، صحابى جليل من السابقين ، ويقال له : صاحب السر [١] وأبوه أيضاً صحابى . مات حذيفة فى أول خلافة علىٍّ - رضى الله عنه - سنة ست وثلاثين .

قوله : (رأى رجلاً فى يده خيط من الحمى) أي عن الحمى . وكان الجهال يعلقون التمائم والخيوط ونحوها لدفع الحمى [٢] ، وروى وكيع عن حذيفة : « أنه دخل على مريض يعوده فلمس عضده ، فإذا فيه خيط ، فقال : ما هذا ؟ قال : شىء رُقى لى فيه ، فقطعه وقال : لو مت وهو عليك ما صليت عليك » ، وفيه : إنكار مثل هذا ، وإن كان يعتقد أنه سبب ، فالأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله تعالى ورسوله مع عدم الاعتماد عليها . وأما التمائم والخيوط والحروز والطلاسم ونحو ذلك ، مما يعلقه الجهال فهو شرك يجب إنكاره وإزالته بالقول والفعل، وإن لم يأذن فيه صاحبه .

قوله : (وتلا قوله : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾) استدل حذيفة - رضى الله عنه - بالآية على أن هذا شرك [٣] . ففيه صحة الاستدلال على الشرك الأصغر بما

---

(١) لأن النبى ﷺ استصحبه فى عودته من غزوة تبوك حين أخذ فى طريق العقبة التى كان المنافقون كمنوا عندها لينفروا راحلة رسول الله ﷺ ليقع عنها فيموت . فأطلعه الله على ما بيتوا وأعلمه بأسمائهم . فأعلم رسول الله ﷺ حذيفة بأسمائهم إذ ناداهم بأسمائهم حين حاذاهم ثم استكتم حذيفة أسماءهم اتقاء الفتنة . ولم يكن عند حذيفة سر فى الدين ، كما يدعى الضالون من الصوفية ، لأن الإسلام علانية لا سر فيه ، وإنما الأسرار فى النصرانية وكنائسها وقسسها ورهبانيتها .

(٢) ولا يزال هذا معتقداً عند أهل الجاهلية الثانية . يتخذون خيوطاً يعقدونها بأيدى من اسمه محمد ، وبعض ذلك يعملونه يوم الجمعة ، وبعض ذلك يعملونه على مقاس باب الكعبة ثم يعقدونه أربعين عقدة ممن أسماؤهم محمد ، ويقرأون عند كل عقدة : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، ويزعمون أن هذا الخيط نافع من العقم ، فلا تلبسه عقيم فى زعمهم إلا وتحمل . وهذا من أعظم الانحطاط إلى أحط دركات البكم والصم والعمى ، بل إلى البهيمة أن يعتقد فى خيوط . ومثله اتخاذ سبع من أنواع الحبوب تعلق فى كيس مع سرة الطفل وأشباه ذلك كثير فاش فيمن يتسمون بأسماء إسلامية ، وهم من أجهل المشركين للشرك الأكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(٣) فى قرة العيون : فإذا كان يقع مثل ذلك فى تلك القرون المفضلة فكيف يؤمن أن يقع ما هو أعظم منه ؟ لكن لغلبة الجهل به وقع منهم أعظم مما وقع مشركى العرب وغيرهم فى الجاهلية مما قد تقدم التنبيه عليه ، حتى أن كثيراً من العلماء فى هذه القرون اشتد نكيرهم على من أنكر الشرك الأكبر فصاروا هم والصحابة رضى الله عنهم على طرفى نقيض ، فالصحابة ينكرون القليل من الشرك . وهؤلاء ينكرون على من أنكر الشرك الأكبر ، ويجعلون النهى عن هذا الشرك بدعة وضلالة ، وكذلك كانت حال الأمم مع الأنبياء والرسل جميعهم فيما بعثوا به من توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له وحده ، والنهى عن الشرك به ، وقد بعث الله تعالى خاتم رسله محمداً ﷺ بذلك كما بعث به من قبله ، فعكس هؤلاء المتأخرون ما دعا إليه رسول الله ﷺ مشركى العرب وغيرهم ، فنصر هؤلاء ما نهى عنه من الشرك غاية النصرة ، وأنكروا التوحيد الذى بعث به غاية الإنكار ، فإنه ﷺ لما قال لقريش : « قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » عرفوا معناها الذى وضعت له وما أريد منها فقالوا : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشىء عجاب ﴾ [٣٨ : ٥] الآية ، وقال تعالى : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ وفى صحيح =

فيه مسائل :

الأولى : التغليظ فى لُبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك .

الثانية : أن الصحابى لو مات وهى عليه ما أفلح . فيه شاهد لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر .

الثالثة : أنه لم يَعذر بالجهالة .

الرابعة : أنها لا تنفع فى العاجلة ، بل تضر لقوله : « لا تزيدك إلا وَهناً » .

الخامسة : الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك .

السادسة : التصريح بأن من تعلَّق [1] شيئاً وُكِل إليه .

السابعة : التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك .

الثامنة : أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك .

التاسعة : تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التى فى الشرك الأكبر على الأصغر ، كما ذكر ابن عباس فى آية البقرة .

العاشرة : أن تعليق الودع عن العين من ذلك .

الحادية عشرة : الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يُتمُّ له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع [2] الله له ، أى ترك الله له .

* * *

باب (ما جاء فى الرُّقى والتمائم)

أنزله الله فى الشرك الأكبر ؛ لشمول الآية له ، ودخوله فى مسمى الشرك ، وتقدم معنى هذه الآية عن ابن عباس وغيره فى كلام شيخ الإسلام وغيره . والله أعلم .

وفى هذه الآثار عن الصحابة : ما يبين كمال علمهم بالتوحيد وما ينافيه أو ينافى كماله .

قوله : (باب ما جاء فى الرقى والتمائم)

أى : من النهى وما ورد عن السلف فى ذلك .

= البخارى وغيره فى سؤال هرقل لأبى سفيان عن النبى ﷺ قال له : « فماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة » .

(١) إنما وكله الله إليه لأنه أعرض عن رحمة ربه واستغنى عن الله ، وتمسك بالسبب الأضَعف ، بل تمسك بلا شىء، فوكله إلى ما تمسك به فلم ينفعه شيئاً .

(٢) ودع : فسره المصنف بترك أى فلا ترك الله له ما يحب وفسره غيره بأنه دعاء عليه ألا يجعله الله فى دعة ولا سكون .

فى الصحيح عن أبى بشير الأنصارى - رضى الله عنه - : « أنه كان مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره ، فأرسل رسولاً : أن لا يَبقينّ فى رقبة بعير قِلادة من وتَر أو قِلادة إلا قُطِعت » .

قوله : (فى الصحيح عن أبى بشير الأنصارى : « أنه كان مع النبى ﷺ فى بعض أسفاره فأرسل رسولاً : أن لا يبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت ») . هذا الحديث فى الصحيحين .

قوله : (عن أبى بشير) بفتح أوله وكسر المعجمة ، قيل : اسمه قيس بن عبيد قاله ابن سعد ، وقال ابن عبد البر : لا يوقف له على اسم صحيح ، وهو صحابى ، شهد الخندق ، ومات بعد الستين . ويقال : إنه جاوز المائة .

قوله : (فى بعض أسفاره) قال الحافظ : لم أقف على تعيينه .

قوله : (فأرسل رسولاً) هو زيد بن حارثة . روى ذلك الحارث بن أبى أسلمة فى مسنده ، قاله الحافظ .

قوله : (أن لا يبقين) بالمثناة التحتية والقاف المفتوحتين ، و« قلادة » مرفوع على أنه فاعل. و« الوتر » بفتحتين . واحد أوتار القوس . وكان أهل الجاهلية إذا اخلولق الوتر أبدلوه بغيره ، وقلدوا به الدواب ، اعتقاداً منهم أنه يدفع عن الدابة العين .

قوله : (أو قلادة [1] إلا قطعت) معناه : أن الراوى شك هل قال شيخه : قلادة من وتر، أو قال : قلادة وأطلق ولم يقيده ؟ ويؤيد الأول ما روى عن مالك : أنه سئل عن القلادة ؟ فقال: « ما سمعت بكراهتها إلا فى الوتر » ، ولأبى داود : « ولا قلادة » بغير شك .

قال البغوى فى شرح السنة : تأول مالك أمره - عليه الصلاة والسلام - بقطع القلائد على أنه من أجل العين . وذلك أنهم كانوا يشدون تلك الأوتار والتمائم والقلائد ويعلقون عليها العوذ يظنون أنها تعصمهم من الآفات. فنهاهم النبى ﷺ عنها وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئاً .

قال أبو عبيد : كانوا يقلدون الإبل الأوتار ؛ لئلا تصيبها العين ، فأمرهم النبى ﷺ بإزالتها إعلاماً لهم بأن الأوتار لا ترد شيئاً . وكذا قال ابن الجوزى وغيره .

---

(١) وأصل معنى القلادة : ما يوضع فى العنق من الحلى والزينة للنساء ، والحبل يوضع فى عنق الدابة لتقاد به . ومثل ذلك ما يعلقه بعض الناس اليوم على السيارات من صورة قرد ونحوه وما يضعه بعضهم على أبواب البيوت والحوانيت من حدوة حمار أو حصان ، وتعليق سنابل من الحنطة أو غير ذلك كله من عمل الجاهلية المنهى عنه أشد النهى ، وقد يصل إلى الشرك الأكبر عند بعضهم حين يعتقد فيه أنه هو الذى يدفع حقيقة الضر والسوء .

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ الرُّقَى والتمائمَ والتِّوِلَة شرْكٌ » . رواه أحمد وأبو داود .

قال الحافظ : ويؤيده حديث عقبة بن عامر ، رفعه : « من تعلق تميمة فلا أتم الله له » رواه أبو داود ، وهى ما علق من القلائد خشية العين ونحو ذلك . انتهى .

قال المصنف : (وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » رواه أحمد وأبو داود » .

وفيه قصة ولفظ أبى داود : عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : « إن عبد الله رأي فى عنقى خيطاً ، فقال : ما هذا ؟ قلت : خيط رقى لى فيه . قالت : فأخذه ثم قطعه ، ثم قال: أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك (١) سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » فقلت : لقد كانت عينى تقذف ، وكنت أختلف إلى فلان اليهودى ، فإذا رقى سكنت ، فقال عبد الله : إنما ذاك عمل الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقى كف عنها . إنما كان يكفيك أن تقولى كما كان رسول الله ﷺ يقول : « أذهِب الباس ، ربِ الناس واشف أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً » ، ورواه ابن ماجه وابن حبان ، والحاكم وقال : صحيح ، وأقره الذهبى .

قوله : (إن الرقى) قال المصنف : (هى التى تسمى العزائم ، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك ، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة) يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركاً هى التى يستعان فيها بغير الله ، وأما إذا لم يذكر فيها إلا أسماء الله وصفاته وآياته ، والمأثور عن النبى ﷺ ، فهذا حسن جائز ، أو مستحب .

قوله : (فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة) كما تقدم ذلك فى باب من حقق التوحيد ، وكذا رخص فى الرقى من غيرها ، كما فى صحيح مسلم عن عوف بن مالك : «كنا نرقى فى الجاهلية ، فقلنا : يا رسول الله ، كيف ترى فى ذلك ؟ فقال : اعرضوا علىَّ رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً » ، وفى الباب أحاديث كثيرة .

قال الخطابى : وكان عليه السلام قد رَقَى وَرُقِىَ ، وأمر بها وأجازها ؛ فإذا كانت بالقرآن

---

(١) من أول الحديث إلى هنا ليس فى سنن أبى داود فى باب تعليق التمائم ، وهو عند ابن ماجه بلفظ : « كانت عجوز تدخل علينا من الحمرة ، وكان لنا سرير طويل القوائم ، وكان عبد الله إذا دخل تنحنح وصوت ، فدخل يوماً ، فلما سمعت صوته احتجبت منه ، فجاء فجلس إلى جانبى فمسنى فوجد مس خيط ، فقال : ما هذا ؟ فقلت : رقى لى فيه من الحمى ، فجذبه فقطعه فرمى به ، ثم قال : لقد أصبح آل عبد الله أغنياء عن الشرك . سمعت رسول الله ﷺ ... إلخ » .

« التمائم » : شىء يُعلق على الأولاد من العين ، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخَّص فيه بعض السلف ، وبعضهم لم يرخص فيه ، ويجعله من المنهى عنه ، منهم ابن مسعود - رضى الله عنه - .

وبأسماء الله فهى مباحة أو مأمور بها ، وإنما جاءت الكراهة والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب ، فإنه ربما كان كفراً أو قولاً يدخله شرك .

قلت : من ذلك ما كان على مذاهب الجاهلية التى يتعاطونها ، وأنها تدفع عنهم الآفات ويعتقدون أن ذلك من قبل الجن ومعونتهم ، وبنحو هذا ذكر الخطابى .

وقال شيخ الإسلام : كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقى به ، فضلاً عن أن يدعو به ، ولو عرف معناه ؛ لأنه يكره الدعاء بغير العربية ، وإنما يرخص لمن لا يحسن العربية ، فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعاراً فليس من دين الإسلام (١) .

وقال السيوطى : قد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاث شروط : أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته ، وباللسان العربى وما يعرف معناه ، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى .

قوله : (والتمائم) قال المصنف : (شىء يعلق على الأولاد من العين) وقال الخلخالى : التمائم : جمع تميمة ، وهى ما يعلق بأعناق الصبيان من خرازات وعظام لدفع العين ، وهذا منهى عنه ، لأنه لا دافع إلا الله ، ولا يطلب دفع المؤذيات إلا بالله وبأسمائه وصفاته .

قال المصنف : (لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف ، وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهى عنه ، منهم ابن مسعود) .

اعلم أن العلماء من الصحابة والتابعين ، فمن بعدهم اختلفوا فى جواز تعليق التمائم التى من القرآن وأسماء الله وصفاته ، فقالت طائفة : يجوز ذلك ، وهو قول عبد الله بن عمرو بن العاص (٢) ، وهو ظاهر ما روى عن عائشة ، وبه قال أبو جعفر الباقر وأحمد فى رواية . وحملوا الحديث على التمائم التى فيها شرك .

---

(١) وذلك مثل قول أرباب الطرق الصوفية فى أورادهم « كركدن كرددن دهده ، أصباءوات أهيا شراعياً جلجلوت » وأمثالها مما يقولون عنه أنه ذكر الله ، فهذا كله ليس من دين الإسلام فى شىء ، لأن الإسلام عربى متين ، وهذا وغيره يدل على أن أصل هذه الطرق الصوفية خدعة يهودية هندية فارسية يونانية كادوا بها للمسلمين ففرقوهم شيعاً وأحزاباً وملأوا قلوبهم من الشرك فى الإلهية والشرك فى الربوبية فوصلوا من ذلك إلى ما يريدون من تقويض الدولة الإسلامية .

(٢) الرواية بذلك ضعيفة ولا تدل على هذا لأن فيها أن ابن عمرو وكان يحفظه أولاده الكبار ويكتبه فى ألواح ويعلقه فى عنق الصغار ، فالظاهر أنه كان يعلقه فى اللوح ليحفظه الصغير لا على أنه تميمة والتميمة تكتب فى ورقة لا فى لوح . وبدليل تحفيظه الكبار . وكيفما كان فهو عمل فردى من عبد الله بن عمرو لا يترك به حديث رسول الله وعمل كبار الصحابة الذين لم يعملوا مثل عبد الله بن عمرو رضى الله عنهم .

و« الرقى » : هى التى تسمى العزائم ، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والْحُمَة .

وقالت طائفة : لا يجوز ذلك ، وبه قال ابن مسعود وابن عباس ، وهو ظاهر قول حذيفة وعقبة بن عامر وابن عُكيم ، وبه قال جماعة من التابعين ، منهم أصحاب ابن مسعود وأحمد فى رواية اختارها كثير من أصحابه ، وجزم بها المتأخرون ، واحتجوا بهذا الحديث وما فى معناه (١) .

قلت : هذا هو الصحيح لوجوه ثلاثة تظهر للمتأمل . الأول : عموم النهى ولا مخصص للعموم ، الثانى : سد الذريعة ، فإنه يفضى إلى تعليق ما ليس كذلك ، الثالث : أنه إذا علق فلا بد أن يمتهنه المعلق بحمله معه فى حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك (٢) .

وتأمل هذه الأحاديث وما كان عليه السلف - رضى الله عنهم - يتبين لك بذلك غربة الإسلام خصوصاً إن عرفت عظيم ما وقع فيه الكثير بعد القرون المفضلة من تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها والإقبال إليها بالقلب والوجه ، وصرف جل الدعوات والرغبات والرهبات وأنواع العبادات التى هى حق الله تعالى إليها من دونه ، كما قال تعالى (١٠ : ١٠٦ ، ١٠٧) : ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين ،

---

(١) فى قرة العيون : والمقصود بيان أن هذه الأمور الشركية وإن خفيت فقد نهى عنها رسول الله ﷺ وأصحابه لكمال علمهم بما دلت عليه لا إله إلا الله من نفى الشرك قليله وكثيره لتعلق القلب بغير الله فى دفع الضر أو جلب نفع ، وقد عمت البلوى بما هو أعظم من ذلك بأضعاف مضاعفة ، فمن عرف هذه الأمور الشركية المذكورة فى هذين البابين عرف ما وقع مما هو أعظم من ذلك كما تقدم بيانه ، وفيه ما كان عليه رسول الله ﷺ من التحذير من الشرك والتغليظ فى إنكاره وإن كان من الشرك الأصغر فهو أكبر من الكبائر .

(٢) ولأن فعل ذلك استهزاء أشد استهزاء بآيات الله ومناقضة لما جاءت به (*) ومحادة لله ولرسوله ، فإن الله أنزل القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان وشفاء لما فى الصدور ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ، وإنه لتذكرة للمتقين ، وإنه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين ولم ينزل القرآن ليتخذ حجباً وتمائم ، ولا ليتلاعب به المتأكلون به الذين يشترون به ثمناً قليلاً ، والذين يقرءونه على المقابر ، وأمثال ذلك مما ذهب بحرمة القرآن وجرأ الرؤساء على ترك الحكم به .

(*) قوله : (ولأن فعل ذلك استهزاء أشد استهزاء بآيات الله ، ومناقضة لما جاءت به) إلخ أقول هذه فيها نظر . والصواب أن تعليق التمائم ليس من الاستهزاء بالدين بل من الشرك الأصغر ، ومن التشبه بالجاهلية ، وقد يكون شركاً أكبر على حسب ما يقوم بقلب صاحب التعليق من اعتقاد النفع فيها وأنها تنفع وتضر دون الله عز وجل ، وما أشبه هذا الاعتقاد ، أما إذا اعتقد أنها سبب السلامة من العين أو الجن ونحو ذلك ، فهذا من الشرك الأصغر ، لأن الله سبحانه لم يجعلها سبباً ، بل نهى عنها وحذر وبين أنها شرك على لسان رسول الله ﷺ وما ذاك إلا لما يقوم بقلب صاحبها من الالتفات إليها والتعلق بها ولو كان تعليقها استهزاء بآيات الله سبحانه ، لكان ذلك كفراً وردة عن الإسلام كما قال الله عز وجل : ﴿ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ الآية ، ولا نعلم أحداً من أهل العلم ، قال : إن تعليق التمائم استهزاء بآيات الله ، ولأن الواقع من المعلقين يخالف ذلك فإنهم إنما يعلقون التمائم من القرآن والسنة رجاء نفعها وبركتها، لا لقصد الاستهزاء بها وهذا بين واضح لمن تأمل والله المستعان.

و« التولة»: شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

وعن عبد الله بن عُكيم مرفوعاً : « من تعلق شيئاً وُكِل إليه » رواه أحمد والترمذي .

وإن يمسسك الله يضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾ ونظائرها في القرآن أكثر من أن تحصر .

قوله : (التولة) قال المصنف : هي (شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها ، والرجل إلى امرأته) وبهذا فسرها ابن مسعود راوي الحديث ، كما في صحيح ابن حبان والحاكم ، « قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، هذه الرقى والتمائم قد عرفناها ، فما التولة ؟ قال : شيء تصنعه النساء يتحببن به إلى أزواجهن » .

قال الحافظ : التولة - بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففاً - شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها ، وهو ضرب من السحر [1] ، والله أعلم .

وكان من الشرك لما يراد به من دفع المضار وجلب المنافع من غير الله تعالى .

قال المصنف : (وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً : « من تعلق شيئاً وكل إليه » رواه أحمد والترمذي) ورواه أبو داود والحاكم ، وعبد الله بن عكيم : هو بضم المهملة مصغراً ، ويكنى أبا معبد ، الجهني الكوفي . قال البخاري: أدرك زمن النبي ﷺ، ولا يعرف له سماع صحيح، وكذا قال أبو حاتم . قال الخطيب : سكن الكوفة وقدم المدائن في حياة حذيفة ، وكان ثقة . وذكر ابن سعد عن غيره : أنه مات في ولاية الحجاج .

قوله : (من تعلق شيئاً وكل إليه) التعلق يكون بالقلب ، ويكون بالفعل ، ويكون بهما[2] « وكل إليه » أي وكله الله إلى ذلك الشيء الذي تعلقه ، فمن تعلق بالله وأنزل حوائجه به ، والتجأ إليه ، وفوض أمره إليه ، كفاه وقرب إليه كل بعيد ويسر له كل عسير ، ومن تعلق

---

(١) وإن زعم الذين يصنعونها للنساء أنهم مسلمون ومتدينون ، وأن ما يكتبونه من القرآن وأسماء الله ، فإنهم يفعلون ذلك تضليلاً بالقرآن وإلحاداً فيه ، لأنهم يكتبونه على طريقة اليهود حروفاً مقطعة وبمداد خاص ، ويمزجونه بأدعية جاهلية وبخطوط يزعمونها على صورة خاتم سليمان الذي كان فيه سر ملكه - كما يزعم اليهود الذين يعتقدون كفر سليمان - وأنه كان يسخر الجن بالسحر لا بمعجزة من الله . وعلى هذه العقيدة اليهودية الدجالون الذين يكتبون التمائم والتولات ويزعمون أن للحروف والأسماء خداماً يقومون بما يطلب منهم من الأعمال السحرية ويتخذون أنواعاً من البخور والأدوات المخصوصة التي يوحى بها شياطينهم ، وكل ذلك من الكفر العظيم .

(٢) في قرة العيون : التعلق يكون بالقلب وينشأ عن القول والفعل وهو التفات القلب عن الله إلى شيء يعتقد أنه ينفعه أو يدفع عنه كما تقدم بيانه في الأحاديث في هذا الباب والذي قبله وهو ينافي قوله تعالى : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ فإن كان من الشرك الأصغر فهو ينافي كمال التوحيد ، وإن كان من الشرك الأكبر كعبادة أرباب القبور والمشاهد والطواغيت ونحو ذلك فهو كفر بالله ، وخروج عن دين الإسلام ، ولا يصح معه قول ولا عمل .

وروى أحمد عنْ رُويفع قال: قال لى رسول الله ﷺ: «يا رُويفع، لعل الحياة ستطول بك ،

بغيره أو سكن إلى رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك ، وكله الله إلى ذلك وخذله ، وهذا معروف بالنصوص والتجارب ، قال تعالى (٦٥ : ٣): ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هشام بن القاسم ، حدثنا أبو سعيد المؤدب ، حدثنا من سمع عطاء الخراسانى قال : « لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت ، فقلت : حدثنى حديثاً أحفظه عنك فى مقامى هذا وأوجز . قال : نعم ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود : يا داود أمَا وعزتى وعظمتى ، لا يعتصم بى عبد من عبادى دون خلقى ، أعرف ذلك من نيته ، فتكيده السموات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن : إلا جعلت له من بينهن مخرجاً . أما وعزتى وعظمتى لا يعتصم عبد من عبادى بمخلوق دونى ، أعرف ذلك من نيته ، إلا قطعت أسباب السماء من يده ، وأسخت الأرض من تحت قدميه ، ثم لا أبالى بأىّ أوديتها هلك » .

قال المصنف : (وروى الإمام أحمد عن رويفع قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا رويفع لعل الحياة ستطول بك ، فأخبر الناس أن من عقد لحيته أو تقلد وتراً أو استنجى برجيع دابة أو عظم ، فإن محمداً برئ منه) .

الحديث رواه الإمام أحمد عن يحيى بن إسحاق والحسن بن موسى الأشيب كلاهما عن ابن لهيعة . وفيه قصة اختصرها المصنف . وهذا لفظ الحسن : حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا عياش بن عباس عن شُييم بن بيتان قال : حدثنا رويفع بن ثابت قال : « كان أحدنا فى زمن رسول الله ﷺ يأخذ جمل أخيه على أن يعطيه النصف مما يغنم وله النصف ، حتى إن أحدنا ليصير له النصل والريش ، وللآخر القدح ، ثم قال لى رسول الله ﷺ – الحديث » ، ثم رواه أحمد عن يحيى بن غيلان ، حدثنى الفضل ، حدثنا عياش بن عباس : أن شُييم بن بيتان أخبره أنه سمع شيبان القتبانى – الحديث [1] . ابن لهيعة فيه مقال . وفى الإسناد الثانى : شيبان القتبانى . قيل : فيه مجهول . وبقية رجالهما ثقات .

قوله : (لعل الحياة ستطول بك) فيه عَلَم من أعلام النبوة ، فإن رويفعاً طالت حياته إلى سنة ست وخمسين فمات ببرقة من أعمال مصر أميراً عليها ، وهو من الأنصار . وقيل : مات سنة ثلاث وخمسين .

(١) الحديث رواه أبو داود فى باب ما ينهى عنه أو يستنجى به : حدثنا يزيد بن خالد بن عبد الله بن موهب الهمدانى أخبرنا المفضل يعنى ابن فضالة المصرى عن عياش بن عباس القتبانى – بكسر القاف – أن شييم بن بيتان أخبره عن شيبان القتبانى أن مسلمة بن مخلد استعمل رويفع بن ثابت على أسفل الأرض ، قال شيبان : فسرنا معه – إلخ ، ثم ساق له سنداً آخر : حدثنا يزيد بن خالد ، حدثنا مفضل عن عياش أن شييم بن بيتان أخبره بهذا الحديث أيضاً عن أبى سالم الجيشانى عن عبد الله بن عمرو . ا هـ . وليس فى أحدهما ابن لهيعة ، وقال المنذرى: ورواه النسائى .

فأخبِر الناس : أنَّ من عقد لحيته أو تقلد وَتَراً ، أو استنجى برَجيع دابة أو عظم فإن محمداً برئ منه » .

وعن سعيد بن جُبير قال : «مَن قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة» . رواه وكيع .

قوله : (فأخبر الناس) دليل على وجوب إخبار الناس ، وليس هذا مخصتاً برويفع ، بل كل من كان عنده علم ليس عند غيره مما يحتاج إليه الناس وجب إعلامهم به ، فإن اشترك هو وغيره فى علم ذلك فالتبليغ فرض كفاية . قاله أبو زرعة فى شرح سنن أبى داود .

قوله : (أن من عقد لحيته) بكسر اللام لا غير ، والجمع لحى بالكسر والضم ، قاله الجوهرى . قال الخطابى : أما نهيه عن عقد اللحية فيفسر على وجهين . أحدهما ما كانوا يفعلونه فى الحرب ، كانوا يعقدون لحاهم ، وذلك من زيٍّ بعض الأعاجم يفتلونها ويعقدونها قال أبو السعادات : تكبراً وعجباً ، ثانيهما : أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد ، وذلك من فعل أهل التأنيث . قال أبو زرعة بن العراقى ، والأولى حمله على عقد اللحية فى الصلاة، كما دلت عليه رواية محمد بن الربيع ، وفيه : « أن من عقد لحيته فى الصلاة » [1] .

قوله : (أو تقلد وتراً) أى جعله قلادة فى عنقه أو عنق دابته . وفى رواية محمد بن الربيع « أو تقلد وتراً - يريد تميمة) .

فإذا كان هذا فيمن تقلد وتراً ، فكيف بمن تعلق بالأموات ، وسألهم قضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، الذى جاء النهى عنه وتغليظه فى الآيات المحكمات ؟

قوله : (أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإن محمداً برئ منه) قال النووى : أى برئ من فعله ، وهذا خلاف الظاهر . والنووى كثيراً ما يتأول الأحاديث بصرفها عن ظاهرها ، فيغفر الله تعالى له .

وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود - رضى الله عنه - مرفوعاً : « لا تستنجوا بالروث ولا العظام، فإنه زادُ إخوانكم من الجن » ، وعليه لا يجزى الاستنجاء بهما كما هو ظاهر مذهب أحمد ، لما روى ابن خزيمة والدارقطنى عن أبى هريرة : « أن النبى ﷺ نهى أن يُستنجى بعظم أو روث ، وقال : إنهما لا يطهران » .

قوله : (وعن سعيد بن جُبير قال : « مَن قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة » رواه وكيع) هذا عند أهل العلم له حكم الرفع ؛ لأن مثل ذلك لا يقال بالرأي ، ويكون هذا مرسلاً؛ لأن سعيداً تابعى [2] ، وفيه : فضل قطع التمائم لأنها شرك .

---

(١) فى قرة العيون : قلت : ويشبه هذا ما يفعله كثير من فتل أطراف الشارب فيترك أطرافه لذلك وهى بعضه ، وفى حديث زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم يأخذ من شاربه فليس منا » رواه أحمد والنسائى والترمذى ، وقال : صحيح ، وفى الصحيح : « خالفوا المشركين احفوا الشوارب واعفوا اللحى » ، وذلك يدل على الوجوب ، وذكر ابن حزم الإجماع على أنه فرض فيتعين النهى عن ذلك .

(٢) فى قرة العيون: فعلى هذا يجب النهى عن تعليق التمائم والترغيب فى قطعها وأن ذلك مما يجب، وفيه مع =

وله عن إبراهيم قال : « كانوا يكرهون التمائم كلها ، من القرآن وغير القرآن » .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الرقى والتمائم .

الثانية : تفسير التولة .

الثالثة : أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء .

الرابعة : أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك .

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء: هل هي من ذلك أو لا؟

السادسة : أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين مِن ذلك .

السابعة : الوعيد الشديد على مَن تعلق وتراً .

الثامنة : فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان .

التاسعة: أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف، لأن مراده أصحاب عبد الله.

❊ ❊ ❊

ووكيع : هو ابن الجراح بن وكيع الكوفى ، ثقة إمام ، صاحب تصانيف ، منها الجامع وغيره . روى عنه الإمام أحمد وطبقته . مات سنة سبع وتسعين ومائة .

قوله : (وله عن إبراهيم قال : كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن) وإبراهيم هو الإمام إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفى ، يكنى أبا عمران ، ثقة من كبار الفقهاء . قال المزِّى : دخل على عائشة ، ولم يثبت له سماع منها . مات سنة ست وتسعين ، وله خمسون سنة أو نحوها .

قوله : (كانوا يكرهون التمائم – إلى آخره) مراده بذلك : أصحاب عبد الله بن مسعود ، كعلقمة والأسود وأبى وائل والحارث بن سويد ، وعبيدة السلمانى ومسروق والربيع بن خُثَيم وسويد بن غفلة وغيرهم ، وهم من سادات التابعين ، وهذه الصيغة يستعملها إبراهيم فى حكاية أقوالهم ، كما بين ذلك الحفاظ كالعراقى وغيره .

= ما تقدم أنه شرك ، وبيان حال السلف رضى الله عنهم من تعظيم الشرك قليله وكثيره والنهى عنه ، فلما اشتدت غربة الإسلام فى أواخر هذه الأمة صار إنكار هذا وما هو أعظم منه أعظم المنكرات حتى عند من ينتسب إلى العلم كما لا يخفى .

باب (من تبرَّك بشجر أو حجر ونحوهما)

وقول الله تعالى (٥٣ : ١٩) : ﴿ أفرأيتم اللات والعُزَّى ومَناة الثالثة الأخرى ﴾

قوله : (باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما)

كبقعة وقبر ونحو ذلك ، أى فهو مشرك .

قوله : (وقول الله تعالى (٥ : ١٩ - ٢٣) : ﴿ أفرأيتم اللات والعُزَّى ومَناة الثالثة الأخرى - الآيات ﴾ وكانت اللات لثقيف ، والعُزَّى لقريش وبنى كنانة ، ومناة لبنى هلال . وقال ابن هشام : كانت لهذيل وخزاعة .

فأما « اللات » فقرأ الجمهور بتخفيف التاء ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح وورش عن يعقوب بتشديد التاء .

فعلى الأولى : قال الأعمش : سموا اللات من الإله ، والعزى من العزيز . قال ابن جرير وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله تعالى ، فقالوا : اللات مؤنثة منه ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . قال : وكذا العزى من العزيز .

وقال ابن كثير : اللات كانت صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له ستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تبعها يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش . قال ابن هشام : فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة ، فهدمها وحرقها بالنار .

وعلى الثانية : قال ابن عباس : « كان رجلاً يلُتّ السويق للحاج ؛ فلما مات عكفوا على قبره» ذكره البخارى . قال ابن عباس : « كان يبيع السويق والسمن عند صخرة ويسلؤه عليها ؛ فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السويق » [(١)] ، وعن مجاهد نحوه وقال : « فلما مات عبدوه » رواه سعيد بن منصور . وكذا روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس : « أنهم عبدوه » وبنحو هذا قال جماعة من أهل العلم .

قلت : لا منافاة بين القولين ، فإنهم عبدوا الصخرة والقبر تأليها وتعظيماً .

ولمثل هذا بنيت المشاهد والقباب على القبور واتخذت أوثاناً . وفيه : بيان أن أهل الجاهلية كانوا يعبدون الصالحين والأصنام .

---

(١) وفى النهاية : السلاء : السمن . وفى فتح البارى (ج٨ ص٤٣٣) : وأخرج ابن أبى حاتم من طريق عمرو بن مالك عن أبى الجوزاء عن ابن عباس - ولفظه فيه زيادة - « كان يلت السويق على الحجر ، فلا يشرب منه أحد إلا سمن ، فعبدوه » ، واختلف فى اسم الرجل : فعن مجاهد : « كان رجلاً فى الجاهلية على صخرة بالطائف وعليها له غنم فكان يسلؤ من رسلها ويأخذ من زبيب الطائف والأقط فيجعل منه حيساً ويطعم من يمر به من الناس فلما مات عبدوه وزعم بعض الناس أنه عامر بن الظرب . ا هـ مختصراً .

وأما « العزى » فقال ابن جرير : كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة - بين مكة والطائف - كانت قريش يعظمونها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد : « لنا العزى ولا عزى لكم » فقال رسول الله ﷺ : « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » ، وروى النسائى وابن مردويه عن أبى الطفيل قال : « لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة - وكانت بها العزى وكانت على ثلاث سمرات - فقطع السمرات ، وهدم البيت الذى كان عليها ، ثم أتى النبى ﷺ فأخبره ، فقال : ارجع ، فإنك لم تصنع شيئاً ، فرجع خالد ؛ فلما أبصرته السدنة أمعنوا فى الجبل وهم يقولون : يا عزى ، يا عزى ، فأتاها خالد ، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها فعمها بالسيف فقتلها ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : تلك العزى » . قلت : وكل هذا وما هو أعظم منه يقع فى هذه الأزمنة عند ضرائح الأموات وفى المشاهد .

وأما « مَناة » فكانت بالمشلّل عند قُديد ، بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج وأصل اشتقاقها : من اسم الله المنان ، وقيل : لكثرة ما يُمنَى - أى يُراق - عندها من الدماء للتبرك بها .

قال البخارى - رحمه الله - ، فى حديث عروة عن عائشة - رضى الله عنها - : « إنها صنم بين مكة والمدينة » قال ابن هشام : « فبعث رسول الله ﷺ علياً فهدمها عام الفتح » ، فمعنى الآية كما قال القرطبى : أن فيها حذفاً تقديره : أفرأيتم هذه الآلهة : أنفعت أو ضرت، حتى تكون شركاء لله تعالى ؟ .

وقوله : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ ﴾ قال ابن كثير : أتجعلون له ولداً وتجعلون ولده أنثى وتختارون لكم الذكور ؟! قوله : ﴿ تلك إذاً قسمة ضيزَى ﴾ أى جور وباطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التى لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً ، فتنزهون أنفسكم عن الإناث وتجعلونهن لله تعالى . وقوله : ﴿ إن هى إلا أسماءَ سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أى من تلقاء أنفسكم ، ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أي من حجة ﴿ إن تتبعون إلا الظن ﴾ أى ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل [1] قبلهم ، ﴿ وما تهوى

(١) الظن هنا : ظن المشركين بأوليائهم أنها تسمع الدعاء وتجيب ، فإنهم ليس لهم علم بذلك لا من طريق حواسهم ، ولا من خبر صادق ، وإنما هو مما يشيعه السدنة ترويجاً لتجارتهم الخاسرة ويزيد الجاهلين تعلقاً بأوليائهم من دون الله ، ما تهوى أنفسهم من قضاء حاجاتهم بغير الأسباب الكونية ، فهم يعظمون أولئك الموتى لهوى أنفسهم وقضاء وطرهم ولا حباً فى الإيمان والمؤمنين ، ولذلك تراهم ينتقلون من ميت إلى آخر إذا لم يجدوا مسألتهم قضيت عند الأول . وهكذا ترى السدنة إذا انتقلوا من وظيفة عند هذا الولى الذى كان فى نظرهم كبيراً أصبح الولى الذى =

الأنفس ﴾ وإلا حظ أنفسهم فى رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين ، قوله : ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ . قال ابن كثير : ولقد أرسل الله تعالى إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاءوهم ولا انقادوا له . ا هـ .

ومطابقة الآيات للترجمة من جهة أن عباد هذه الأوثان إنما كانوا يعتقدون حصول البركة منها بتعظيمها ودعائها والاستعانة بها والاعتماد عليها فى حصول ما يرجونه منها ويؤملونه ببركتها وشفاعتها وغير ذلك ، فالتبرك بقبور الصالحين كاللات ، وبالأشجار والأحجار كالعزى ومناة[1] من ضمن فعل أولئك المشركين مع تلك الأوثان ، فمن فعل مثل ذلك واعتقد فى قبر أو حجر أو شجر فقد ضاهى عبَّاد هذه الأوثان فيما كانوا يفعلونه معها من هذا الشرك ؛ على أن الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم أعظم مما وقع من أولئك . فالله المستعان .

قوله : (عن أبى واقد الليثى قال : « خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين ، ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدْرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدرة ، فقلنا : يا رسولَ الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم : والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون ﴾ لتركبُنَّ سَنَن من كان قبلكم » رواه الترمذى وصححه) .

أبو واقد : اسمه الحارث بن عوف ، وفى الباب عن أبى سعيد وأبى هريرة . قاله الترمذى. وقد رواه أحمد وأبو يعلى وابن أبى شيبة والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى بنحوه .

قوله : (عن أبى واقد) قد تقدم ذكر اسمه فى قول الترمذى . وهو صحابى مشهور . مات سنة ثمان وستين ، وله خمس وثمانون سنة .

قوله : (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين) وفى حديث عمرو بن عوف وهو عند ابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى قال : « غزونا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح ، ونحن ألف ونيف حتى إذا كنا بين حنين والطائف - الحديث » .

قوله : (ونحن حدثاء عهد بكفر) أى قريبُ عهدنا بالكفر ، ففيه : دليل على أن غيرهم

= انتقلوا عند قبره أعظم بركة وأكثر كرامات . والله يقول : إن هؤلاء جميعاً لا يتبعون إلا هوى أنفسهم وهم كاذبون أعظم الكذب فى دعواهم حب الأولياء والصالحين .

(١) ما كانوا يتبركون بالعزى ومناة على أنها أحجار مجردة ، وإنما كانوا يعتقدون فيها البركة من العزى التى كانت امرأة يزعمون أنها ولية ودفنت عند هذه الشجيرات ، وكذلك مناة ولذلك سموا الأشجار العزى والحجر مناة ، كما يسمى الناس اليوم النحاس الذى يقام على القبر حسيناً وزينب وغيرهما من الصالحين ، فهم يتبركون بها على هذه العقيدة الجاهلية .

وللمشركين سدرة يَعكفون عندها ويَنوطون بها أسلحتهم ، يقال لها : ذاتُ أنواط ، فمررنا بسدرة ؛ فقلنا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم : والذى نفسى بيده ، كما قالت بنو إسرائيل لموسى (٧ : ١٣٨) : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إلهاً كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم

ممن تقدم إسلامه من الصحابة لا يجهل هذا ، وأن المنتقل من الباطل الذى اعتاده قلبه لا يأمن أن يكون فى قلبه بقية من تلك العادة . ذكره المصنف رحمه الله .

قوله : (وللمشركين سدرة يعكفون عندها) العكوف : هو الإقامة على الشىء فى المكان ، ومنه قول الخليل عليه السلام (٢١ : ٥٢) : ﴿ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ ﴾ وكان عكوف المشركين عند تلك السدرة تبركاً بها وتعظيماً لها [1] ، وفى حديث عمرو : كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط ، وكانت تعبد من دون الله » .

قوله : (وينوطون بها أسلحتهم) أى : يعلقونها عليها للبركة .

قلت : ففى هذا بيان أن عبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك ، وبهذه الأمور الثلاثة عبدت الأشجار ونحوها .

قوله : (فقلنا : يا رسول الله ، اجل لنا ذات أنواط) قال أبو السعادات : سألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك ، وأنواط جمع نوط ، وهو مصدر سمى به المنوط . ظنوا أن هذا أمر محبوب عند الله وقصدوا التقرب به، وإلا فهم أجل قدراً من أن يقصدوا مخالفة النبى ﷺ .

قوله : (فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر) وفى رواية : « سبحان الله ! » ، والمراد تعظيم الله تعالى وتنزيهه عن هذا الشرك بأى نوع كان ، مما لا يجوز أن يطلب أو يقصد به غير الله . وكان النبى ﷺ يستعمل التكبير والتسبيح فى حال التعجب ، تعظيماً لله وتنزيهاً له إذا سمع من أحد ما لا يليق بالله مما فيه هَضْم للربوبية أو الإلهية .

قوله : (إنها السُّنن) بضم السين : أى الطرق .

قوله : (قلتم ، والذي نفسى بيده ، كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) شبه مقالتهم هذه بقول بنى إسرائيل ، بجامع أن كلا طلب أن يجعل له ما يألهه ويعبده من دون الله ، وإن اختلف اللفظان . فالمعنى واحد ، فتغيير الاسم لا يغير الحقيقة .

ففيه : الخوف من الشرك ، وأن الإنسان قد يستحسن شيئاً يظن أنه يقربه إلى الله ، وهو أبعد ما يبعده من رحمته ويقربه من سخطه ، ولا يعرف هذا على الحقيقة إلا من عرف ما وقع

---

(١) كما يعكف اليوم عباد القبور ، ويجاورون ، معتقدين أن لهم بذلك الزلفى والقربى ويعتقد الجاهلون لهم ذلك فيعاونونهم بالنذور لتلك القبور والصدقات قربة لأولئك الموتى . وكل ذلك من الشرك الأكبر .

في هذه الأزمان من كثير من العلماء والعباد مع أرباب القبور ، من الغلو فيها وصرف جل العبادة لها ، ويحسبون أنهم على شيء ، وهو الذنب الذى لا يغفره الله .

قال الحافظ أبو محمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعى المعروف بابن أبى شامة فى كتاب البدع والحوادث : ومن هذا القسم أيضاً ما قد عَمَّ الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة : تخليق الحيطان والعُمد ، وإسراج مواضع مخصوصة فى كل بلد ، يحكى لهم حاك أنه رأى فى منامه بها أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية ، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم لفرائض الله تعالى وسننه ، ويظنون أنهم متقربون بذلك ، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن فى قلوبهم فيعظمونها ، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لها وهى من عيون وشجر وحائط وحجر . وفى مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة كعوينة الحمى خارج باب توما ، والعمود المخلق داخل باب الصغير ، والشجرة الملعونة خارج باب النصر فى نفس قارعة الطريق ، سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها ، فما أشبهها بذات أنواط الواردة فى الحديث [1] . انتهى .

وذكر ابن القيم رحمه الله ما ذكره أبو شامة ، ثم قال : فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت ، ويقولون : إن هذا الحجر وهذه الشجرة ، وهذه العين تقبل النذر ، أى تقبل العبادة من دون الله ؛ فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له ، وسيأتى ما يتعلق بهذا الباب عند قوله ﷺ : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد » .

وفى هذه الجملة من الفوائد : أن ما يفعله من يعتقد فى الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها هو الشرك ، ولا يغتر بالعوام والطغام ، ولا يستبعد كون الشرك بالله تعالى يقع فى هذه الأمة ، فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسناً وطلبوه من النبى ﷺ حتى بيّن لهم أن ذلك كقول بنى إسرائيل (٧ : ١٣٨) : ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ فكيف لا يخفى على من هو دونهم فى العلم والفضل بأضعاف مضاعفة مع غلبة الجهل وبُعد العهد بآثار النبوة ؟! بل خفى عليهم عظائم الشرك فى الإلهية والربوبية ، فأكثروا فعله واتخذوه قربة .

وفيها : أن الاعتبار فى الأحكام بالمعانى لا بالأسماء ، ولهذا جعل النبى ﷺ طلبتهم كطلبة بنى إسرائيل ، ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط . فالمشرك مشرك وإن سمى شركه ما

---

(١) وفى مصر كذلك من هذه القبور المنامية ونحوها كقبر الحسين وزينب رضى الله عنهما ، وكثير مما يسمى بالأربعين ، بناء على عقيدة أخبث من عقيدة أهل الجاهلية الأولى ، وهى عقيدة أن الولى يتشكل فى أربعين جسماً وزعم الدباغ مبالغة فى الوقاحة والضلال أنه يكون للولى ثلاثمائة وستون جسماً ، وكم فى غير مصر من هذه المواضع الشريكة من قبور وأشجار وأحجار ، عجلّ الله بتطهير البلاد منها كما طهر الحجاز بيد جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ووفق أبناءه للقيام بمثل عمله الصالح وأعلا بهم منار الإسلام .

تجهلون ﴾ لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كان قبلكم » . رواه الترمذى وصححه .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية النجم .

سماه . كمن يسمى دعاء الأموات والذبح والنذر لهم ونحو ذلك تعظيماً ومحبة ، فإن ذلك هو الشرك ، وإن سماه ما سماه . وقس على ذلك .

قوله : (لتركبن سنن من كان قبلكم) [1] بضم الموحدة وضم السين أى طرقهم ومناهجهم. وقد يجوز فتح السين على الإفراد أى طريقهم . وهذا خبر صحيح ، والواقع من كثير من هذه الأمة يشهد له .

وفيه : عَلَم من أعلام النبوة من حيث إنه وقع كما أخبر به ﷺ .

وفى الحديث : النهى عن التشبه بأهل الجاهلية وأهل الكتاب فيما كانوا يفعلونه ، إلا ما دلَّ الدليل على أنه من شريعة محمد ﷺ .

قال المصنف -رحمه الله- : (وفيه : التنبيه على مسائل القبر ، أما: مَن ربُّك؟ فواضح . وأما : « من نبيك ؟ » فمن إخباره بأنباء الغيب . وأما : « ما دينك ؟ » فمن قولهم : ﴿اجعل لنا إلهاً﴾ إلخ . وفيه : أن الشرك لا بد أن يقع فى هذه الأمة خلافاً لمن ادعى خلاف ذلك ، وفيه : الغضب عند التعليم ، وأن ما ذم الله به اليهود والنصارى فإنه قاله لنا لنحذره) قاله المصنف - رحمه الله - .

وأما ما ادعاه بعض المتأخرين من أنه يجوز التبرك بآثار الصالحين فممنوع من وجوه :

منها : أن السابقين الأولين من الصحابة ومَن بعدهم لم يكونوا يفعلون ذلك مع غير النبى ﷺ ، لا فى حياته ولا بعد موته . ولو كان خيراً لسبقونا إليه ، وأفضل الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ - رضى الله عنهم - . وقد شهد لهم رسول الله ﷺ فيمن شهد له بالجنة؛ وما فعله أحد من الصحابة والتابعين مع أحد من هؤلاء السادة ، ولا فعله التابعون مع ساداتهم فى العلم والدين وهم الأسوة . فلا يجوز أن يقاس على رسول الله ﷺ أحدٌ من الأمة ، وللنبى ﷺ فى حال الحياة خصائص كثيرة لا يصلح أن يشاركه فيها غيره .

ومنها : أن فى المنع عن ذلك سداً لذريعة الشرك كما لا يخفى .

---

(١) أى اليهود والنصارى ، وقد وقع كما أخبر به ﷺ فى هذه الأمة فركبوا طريق من كان قبلهم ممن ذكرنا كما هو فى الأحاديث الصحيحة كحديث « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » ، وهو فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، وفى رواية « ومن الناس إلا أولئك ؟ » .

الثانية : معرفة صورة الأمر الذى طلبوا [١] .

الثالثة : كونهم لم يفعلوا .

الرابعة : كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك ، لظنهم أنه يحبه .

الخامسة : أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل .

السادسة : أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم .

السابعة : أن النبى ﷺ لم يعذرهم الأمر ، بل رد عليهم بقوله : « الله أكبر إنها السنن ، لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم » فغلّظَ الأمر بهذه الثلاث .

الثامنة : الأمر الكبير ، وهو المقصود : أنه أخبر أن طَلِبتهم كطَلِبةِ بنى إسرائيل لما قالوه لموسى : ﴿ اجعل لنا إلهاً ﴾ .

التاسعة : أن نفْىَ هذا من معنى « لا إله إلا الله » مع دِقته وخفائه على أُولئك .

العاشرة : أنه حلف على الفُتيا ، وهو لا يحلف إلا لمصلحة .

الحادية عشرة : أن الشرك فيه أكبر وأصغر ، لأنهم لم يرتدّوا بهذا [٢] .

الثانية عشرة : قولهم : « ونحن حدثاء عهد بكفر » فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك .

الثالثة عشرة : التكبير عند التعجب ، خلافاً لمن كرهه .

الرابعة عشرة : سد الذرائع .

الخامسة عشرة : النهى عن التشبه بأهل الجاهلية .

السادسة عشرة : الغضب عند التعليم .

السابعة عشرة : القاعدة الكلية لقوله : « إنها السنن » .

الثامنة عشرة : أن هذا عَلم من أعلام النبوَّة ، لكونه وقع كما أخبر .

التاسعة عشرة : أن ما ذمَّ الله به اليهود والنصارى فى القرآن أنه لنا .

---

(١) يعنى إنهم لم يطلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه من دون الله ، لأنهم كانوا أجل وأعقل من ذلك ، وإنما طلبوا شجرة يأذن لهم النبى ﷺ فيها فيتبركون بها ويعلقون عليها أسلحتهم دون أن يصلوا أو يتصدقوا لها ، فبين لهم أن ما طلبوا من التبرك ولو لم يكن صلاة ولا صياماً ولا صدقة هو الشرك بعينه . وفيه إبطال لشبهة مشركى هذا الزمان وزعمهم أن ما يفعلونه تبرك وتعظيم لا بأس به .

(٢) ليس ما طلبوه من الشرك الأصغر ، ولو كان منه لما جعله النبى ﷺ نظير قول بنى إسرائيل : ﴿ اجعل لنا إلهاً﴾ وأقسم على ذلك ، بل هو من الشرك الأكبر كما أن ما طلبه بنو إسرائيل من الأكبر . وإنما لم يكفروا بطلبهم لأنهم حدثاء عهد بالإسلام ، ولأنهم لم يفعلوا ما طلبوه ولم يقدموا عليه بل سألوا النبى ﷺ فتأمل .

العشرون : أنه متقرِّرٌ عندهم أن العبادات مبناها على الأمر ، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر . أما « مَن ربك ؟ » فواضح ، وأما « مَن نبيك » فمن إخباره بأنباء الغيب . وأما « ما دينك ؟ » فمن قولهم : « اجعل لنا » إلى آخره .

الحادية والعشرون : أن سُنة أهل الكتاب مذمومة كسنَّة المشركين .

الثانية والعشرون : أن المنتقل من الباطل الذى اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون فى قلبه بقية من تلك العادة ، لقولهم : « ونحن حدثاء عهد بكفر » .

❊ ❊ ❊

باب (ما جاء فى الذبح لغير الله)

وقول الله تعالى (٦ : ١٦٢ ، ١٦٣) : ﴿ قل : إن صلاتى ونُسكى ومَحْيَایَ ومَمَاتِی لله ربِّ العَالَمين ، لا شريك له ، وبذلك أُمرتُ وأنا أولُ المسلمين ﴾ .

قوله : (باب ما جاء فى الذبح لغير الله)

أى : من الوعيد ، وأنه شرك بالله .

قوله : (وقول الله تعالى (٦ : ١٦٢ ، ١٦٣) : ﴿ قل إن صلاتى [١] ونسكى ومحياى ومماتى لله ربِّ العالمين لا شريك له ﴾ الآية) .

قال ابن كثير : يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون له : بأنه أخلص لله صلاته وذبيحته ؛ لأن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها ، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه ، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى .

قال مجاهد : النسك الذبح فى الحج والعمرة . وقال الثورى عن السدى عن سعيد بن جبير : ﴿ ونسكى ﴾ (ذبحى) ، وكذا قال الضحاك ، وقال غيره : ﴿ ومحياى ومماتى ﴾ أى : وما آتيه فى حياتى ، وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح ﴿ لله رب العالمين ﴾ خالصا لوجهه

---

(١) فى قرة العيون : يشمل الفرائض والنوافل والصلوات كلها عبادة وقد اشتملت على نوعى الدعاء ، دعاء المسألة ودعاء العبادة ، فما كان فيها من السؤال والطلب فهو دعاء مسألة ، وما كان فيها من الحمد والثناء والتسبيح والركوع والسجود وغير ذلك من الأركان والواجبات ، فهو دعاء عبادة ، وهذا هو التحقيق فى تسميتها صلاة لأنها اشتملت على نوعى الدعاء الذى هو صلاة لغةً وشرعاً [*] قرره شيخ الإسلام وابن القيم رحمهما الله تعالى .

(*) وهى مأخوذة من « الصلة » لأنها الصلة والمنحة التى وصل الله بها حبيبه محمداً ﷺ ومنحه إياها فى ليلة الوصل الأعظم : ليلة المعراج . وهى أقوى صلة بين العبد وبين ربه ، لأنه فيها يناجى ربه كما فى الأحاديث ، ومن ثم كانت قرة عين رسول الله ﷺ وكانت مفزعه عند كل أمر يهمه ، وكانت الفارق بين المسلم والكافر ، فمن تركها فلا حظ له فى الإيمان بالله وحبه ، ولا صلة بينه وبين ربه مهما حاول .

﴿ لا شريك له وبذلك ﴾ الإخلاص ﴿ أُمرت وأنا أول المسلمين ﴾ أي من الأمة لأن إسلام كل نبى متقدم .

قال ابن كثير : وهو كما قال ، فإن جميع الأنبياء قبله كانت دعوتهم إلى الإسلام ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له . كما قال تعالى (٢١ : ٢٥) : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وذكر آيات فى هذا المعنى .

ووجه مطابقة الآية للترجمة : أن الله تعالى تعبّد عباده بأن يتقربوا إليه بالنسك ، كما تعبّدهم بالصلاة وغيرها من أنواع العبادات ، فإن الله تعالى أمرهم أن يخلصوا جميع أنواع العبادة له دون كل ما سواه ، فإذا تقربوا إلى غير الله بالذبح أو غيره من أنواع العبادة فقد جعلوا لله شريكاً فى عبادته ، وهو ظاهر فى قوله : ﴿ لا شريك له ﴾ نفى أن يكون لله تعالى شريك فى هذه العبادات ، وهو بحمد الله واضح [1] .

قوله : ﴿ فصلّ لربك وانحر ﴾ قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - : أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين ، وهما الصلاة والنسك ، الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن، وقوة اليقين ، وطمأنينة القلب إلى الله وإلى عِدَته ، عكسَ حال أهل الكِبْر والنُّفرة ، وأهل الغنَى عن الله الذين لا حاجة لهم فى صلاتهم إلى ربهم ، والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر ، ولهذا جمع بينهما فى قوله : ﴿ قل : إن صلاتى ونسكى - الآية ﴾ والنُّسك : الذبيحة لله تعالى ابتغاء وجهه . فإنهما أجلّ ما يُتَقَرَّب به إلى الله ، فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب ؛ لأن فعل ذلك سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله تعالى من الكوثر . وأجلُّ العبادات البدنية : الصلاة ، وأجل العبادات المالية : النحرُ وما يجتمع للعبد فى الصلاة لا يجتمع له فى غيرها ، كما عرفه أربابُ القلوب الحية ، وما يجتمع له فى النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص ، من قوة اليقين وحسن الظن : أمر عجيب ، وكان النبى ﷺ كثير الصلاة، كثير النحر . ا هـ .

قلت : وقد تضمنت الصلاة من أنواع العبادات كثيراً ، فمن ذلك : الدعاء والتكبير ، والتسبيح والقراءة والتسميع والثناء ، والقيام والركوع ، والسجود والاعتدال ، وإقامة الوجه لله تعالى ، والإقبال عليه بالقلب ، وغير ذلك مما هو مشروع فى الصلاة ، وكل هذه الأمور من أنواع العبادة التى لا يجوز أن يُصرف منها شىء لغير الله ، وكذلك النسك يتضمن أموراً من العبادة كما تقدم فى كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى .

---

(١) فى قرة العيون : والمقصود أن هذه الآية دلت على أن أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة لا يجوز أن يصرف منها شىء لغير الله كائناً من كان فمن صرف منها شيئاً لغير الله فقد وقع فيما نفاه تعالى من الشرك بقوله : ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ والقرآن كله فى تقرير هذا التوحيد فى عبادته وبيانه ونفى الشرك والبراءة منه .

عن عليّ - رضى الله عنه - قال : « حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات : لعن الله مَنْ ذبح لغير الله »

قوله : (وعن عليّ بن أبى طالب قال : « حدثنى رسول الله ﷺ بأربع كلمات : لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من غيّر منار الأرض » رواه مسلم من طرق) وفيه قصة .

ورواه الإمام أحمد كذلك عن أبى الطفيل قال : « قلنا لعليّ : أخبرنا بشيء أسرّه إليك رسول الله ﷺ ، فقال : ما أسرّ إليّ شيئاً كتمه الناس ، ولكن سمعته يقول : لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من غيَّر تخوم الأرض - يعنى : المنار » .

وعليّ بن أبى طالب : هو الإمام أمير المؤمنين أبو الحسن الهاشمى ابن عم النبى ﷺ ، وزوج ابنته فاطمة الزهراء . وكان من أسبق السابقين الأولين ، ومن أهل بدر وبَيعة الرضوان ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، ورابع الخلفاء الراشدين ، ومناقبه مشهورة رضى الله عنه . قتله ابن ملجم الخارجى فى رمضان سنة أربعين .

قوله : (لعن الله) اللعن : البعدُ عن مظانّ الرحمة ومواطنها . قيل : واللعين والملعون : من حَقَّتْ عليه اللعنة ، أو دُعِيَ عليه بها .

قال أبو السعادات : أصل اللعن : الطرد والإبعاد من الله ، ومن الخلق : السب والدعاء .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - ما معناه: إن الله تعالى يلعن من استحق اللعنة بالقول كما يصلّى سبحانه على من استحق الصلاة من عباده . قال تعالى (٣٣ : ٤٣ ، ٤٤) : ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليُخْرِجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً * تَحِيَّتُهُمْ يوم يَلْقَوْنه سلام ﴾ ، وقال (٣٣ : ٦٤) : ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعدَّ لهم سعيراً ﴾ ، وقال (٣٣ : ٦١) : ﴿ ملعونين أينما ثُقفوا أُخذُوا وَقُتِّلُوا تقتيلاً ﴾ والقرآن كلامه تعالى أوحاه إلى جبريل - عليه السلام - وبلّغه رسولَه محمداً ﷺ ، وجبريل سمعه منه كما سيأتى فى الصلاة إن شاء الله تعالى ، فالصلاة ثناء الله تعالى كما تقدم . فالله تعالى هو المصلّى وهو المثيب ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وعليه سلف الأمة . قال الإمام أحمد - رحمه الله- : « لم يزل الله متكلماً إذا شاء » .

قوله : (من ذبح لغير الله) قال شيخ الإسلام - رحمه الله - فى قوله تعالى (٢ : ١٧٣): ﴿ وما أُهِلَّ به لغير [1] الله ﴾ ظاهره : أنه ما ذبح لغير الله ، مثل أن يقول : هذا ذبيحة لكذا

---

(١) وفى سورة المائدة الآية الثالثة . وسورة الأنعام الآية (١٤٥) ، وسورة النحل الآية (١١٥) ، ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ وأصل الإهلال : رفع الصوت والإعلام . فالمقصود بما أهل به لغير الله : ما أعلن عنه أنه منذور به =

وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للّحم ، وقال فيه : باسم المسيح أو نحوه ، كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم ، وقلنا عليه : بسم الله ، فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة، فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك أولى ؛ فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله . وعلى هذا : فلو ذبح لغير الله متقرباً إليه يحرم (١) . وإن قال فيه : بسم الله ، كما قد يفعله طائفة من منافقى هذه الأمة الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك (٢) ، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال ، لكن يجتمع

= لغير الله سواء كان هذا الإهلال والإعلام قبل الذبح كأن يقال : هذه شاة السيدة فلانة والسيد فلان ، فيعرف الناس ذلك ، وأنها مهل بها لغير الله ولو سمى الذابح باسم الله . فإن هذه التسمية اللفظية لاغية . والعبرة بالإهلال الحقيقى بما انطوى عليه من قصد التقرب به لغير الله . (وكذلك أيضاً ما سمى من الطعام أو الشراب أو غيره نذراً وقربه لغير الله ، فكل طعام يصنع ليوزع على العاكفين عند هذه القبور والطواغيت) (*) باسمها وعلى بركتها هو مما أهل به لغير الله .

(١) بل يكون هذا الذبح شركاً أكبر ، ﴿ ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ .

(٢) وهم الذين يكتبون الحجب والتمائم والتعاويذ ونحوها ، فإنهم يتحرون بها يوم السبت فى ساعة كذا أو غيره من الأيام والساعات ، ويذبحون ويبخرون عند نزول الكوكب الفلانى فى منزلة كذا ونحو كذا ، وهم فى البلاد الإسلامية كثير - لاكثرهم - ويعتقد العامة فيهم الصلاح والتقوى ، مع أنهم مشركون مرتدون مفسدون للعقول بدجلهم بهذه التمائم والحجب ومتخذون آيات الله هزواً ، ومتقربون بهذه المناسك لغير الله ، فيالله ما أشد غربة الإسلام ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

(*) قوله : (وكذلك أيضاً ما يسمى من الطعام والشراب أو غيره نذراً أو قربة لغير الله ، فكل طعام يصنع ليوزع على العاكفين عند هذه القبور والطواغيت ﴾ إلخ . أقول : هذا المقام فيه تفصيل ، فإن كان المراد من ذلك من أن هذا الشرك لكونه عبادة لغير الله وتقرباً إليه فهذا صحيح ، لأنه لا يجوز لأحد أن يعبد غير الله بشىء من العبادات لا نبياً ولا غيره ، ولا ريب أن تقديم الطعام والشراب والنقود وغير ذلك للأموات من الأنبياء والأولياء أو غيرهم أو للأصنام ونحوها رغبة ورهبة ، داخل فى عبادة غير الله ، لأن العبادة لله هى ما أمر الله به ورسوله ، أما إن كان مراد الشيخ حامد أن النقود والطعام والشراب والحيوانات الحية التى قدمها ملاكها للأنبياء والأولياء وغيرهم يحرم أخذها والانتفاع بها ، فذلك غير صحيح لأنها أموال ينتفع بها قد رغب عنها أهلها وليست فى حكم الميتة ، فوجب أن تكون مباحة لمن أخذها ، كسائر الأموال التى تركها أهلها لمن أرادها ، كالذى يتركه الزراع وجذاذ النخل من السنابل والتمر للفقراء ، ويدل على ذلك أن النبى ﷺ أخذ الأموال التى فى خزائن اللات ، وقضى منها دين عروة بن مسعود الثقفى ، ولم ير تقديمها للات مانعاً من أخذها عند القدرة عليها . ولكن يجب على من رأى من يفعل ذلك من الجهلة والمشركين أن ينكر عليه ويبين له إن ذلك من الشرك حتى لا يظن أن سكوته عن الإنكار أو أخذه لها إن أخذ منها شيئاً دليل على جوازها وإباحة التقرب بها إلى غير الله سبحانه ، ولأن الشرك أعظم المنكرات ، فوجب إنكاره على من فعله ، لكن إذا كان الطعام مصنوعاً من لحوم ذبائح المشركين أو شحمها أو مرقها فإنه حرام ، لأن ذبيحتهم فى حكم الميتة فتحرم وينجس بها ما خالطته من الطعام ، بخلاف الخبز ونحوه ما لم يخالطه شىء من ذبائح المشركين فإنه محل لمن أخذه ، وهكذا النقود ونحوها كما تقدم والله أعلم .

لعن الله مَن لعن والدَيه ، لعن الله من آوى مُحْدِثاً ، لعن الله مَن غَيَّر مَنار الأرض » . رواه مسلم .

فى الذبيحة مانعان . الأول : أنه مما أُهلَّ به لغير الله . والثانى : أنها ذبيحة مرتد . ومن هذا الباب : ما يفعله الجاهلون بمكة من الذبح للجن [١] ، ولهذا روى عن النبى ﷺ أنه نهى عن ذبائح الجن . ا هـ .

قال الزمخشرى : كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استخرجوا عيناً ذبحوا ذبيحة خوفاً أن تصيبهم الجن ، فأضيفت إليهم الذبائح لذلك .

وذكر إبراهيم المروزى : أن ما ذبح عند استقبال السلطان تقرباً إليه ، أفتى أهل بُخَارَى بتحريمه ؛ لأنه مما أهل به لغير الله .

قوله : (لعن الله من لعن والديه) يعنى أباه وأمه وإن عليَا . وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : « من الكبائر شَتْم الرجلِ والديه ، قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم ، يَسُبُّ أبا الرجل فيسب أباه ، ويَسبُّ أُمَّه ، فيسب أُمَّه » .

قوله : (لعن الله من آوى محدثاً) أى : منعه من أن يؤخذ منه الحق الذى وجب عليه . و« آوى » بفتح الهمزة ممدودة : أى ضمه إليه وحماه .

قال أبو السعادات : أويت إلى المنزل ، وأويت غيري ، وآويته . وأنكر بعضهم المقصور المتعدى .

وأما « محدثاً » فقال أبو السعادات : يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول ، فمعنى الكسر : مَنْ نصر جانياً وآواه وأجاره من خصمه ، وحال بينه وبين أن يُقْتَصَّ منه . وبالفتح : هو الأمر المبتدَع نفسه ، ويكون معنى الإيواء فيه الرضى به والصبر عليه ؛ فإنه إذا رضى بالبدعة وأقر فاعلها ولم ينكر عليه فقد آواه .

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - : هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحدث فى نفسه ، فكلما كان الحدث فى نفسه أكبر كانت الكبيرة أعظم .

قوله : (ولعن الله من غيَّر منار الأرض) [٢] بفتح الميم : علامات حدودها . قال أبو السعادات فى النهاية - فى مادة « تخم » - ملعون من غيَّر تخوم الأرض : أى معالمها وحدودها واحدها تخم . قيل : أراد حدود الحرم خاصة ، وقيل : هو عام فى جميع الأرض ، وأراد

---

(١) وفى غير مكة ، باسم الزار وإخراج الجن المتلبس بالإنس ، ويدقون لذلك الطبول .

(٢) رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم عن عائشة وعن سعيد بن زيد رضى الله عنهما .

وعن طارق بن شهاب: أن رسول الله ﷺ قال : « دخل الجنَة رَجلٌ فى ذُباب ، ودخل النارَ رجل فى ذباب ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟

المعالم التى يهتدى بها فى الطريق . وقيل : هو أن يَدخل الرجل فى ملك غيره فيقتطعه ظلماً. قال : ويروى « تخوم » بفتح التاء على الإفراد وجمعه تُخُم بضم التاء والخاء . ا هـ .

وتغييرها : أن يقدمها أو يؤخرها ، فيكون هذا من ظلم الأرض الذى قال فيه النبى ﷺ : «من ظلم شبراً من الأرض طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين » [1] ، ففيه : جواز لعن أهل الظلم من غير تعيين .

وأما لعن الفاسق المعين : ففيه قولان ، أحدهما : أنه جائز ، اختاره ابن الجوزى وغيره ، والثانى : لا يجوز ، اختاره أبو بكر عبد العزيز وشيخ الإسلام .

قوله : (وعن طارق بن شهاب : أن رسول الله ﷺ قال : « دخل الجنة رجل فى ذباب ، ودخل النار رجل فى ذباب ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرِّب له شيئاً ، قالوا لأحدهما : قرِّب ، قال : ليس عندى شيء أقرب ، قالوا : قرب ولو ذباباً ، فقرب ذباباً ، فخلوا سبيله ، فدخل النار ، وقالوا للآخر : قرب ، قال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه ، فدخل الجنة » رواه أحمد) .

قال ابن القيم – رحمه الله – : قال الإمام أحمد – رحمه الله – [1] : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال : « دخل رجل الجنة فى ذباب – الحديث» .

وطارق بن شهاب : هو البَجَلى الأحمس ، أبو عبد الله ، رأى النبى ﷺ وهو رجل . قال البغوى : نزل الكوفة ، وقال أبو داود : رأى النبى ﷺ ولم يسمع منه شيئاً ، قال الحافظ : إذا ثبت أنه لقى النبى ﷺ فهو صحابى ، وإذا ثبت أنه لم يسمع منه فروايته عنه مرسل صحابى، وهو مقبول على الراجح، وكانت وفاته -على ما جزم به ابن حبان -سنة ثلاث وثمانين .

قوله : (دخل الجنة رجل فى ذباب) أى من أجله .

قوله : (قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟) كأنهم تقالّوا ذلك ، وتعجبوا منه ، فبين

---

(١) الحديث فى كتاب الزهد (ص١٥ ، س١٨) ، وفى الحلية (ج١ ص٢٠٣) موقوفاً فيهما كليهما على سليمان فى الزهد وعلى سلمان فى الحلية ، وهو خطأ فى الحلية لأن الحافظ ابن حجر قال فى تعجيل المنفعة : سليمان بن ميسرة الأحمسى عن طارق بن شهاب وعنه الأعمش وحبيب بن أبى ثابت ، وثقه ابن معين . وقال ابن حبان : فى ثقات التابعين روى عن طارق بن شهاب وله صحبة ، وقال ابن خلفون فى الثقات : وثقه العجلى ويحيى والنسائى . ا هـ .

(٢) قال فى النهاية : كل ما عبد من دون الله بل كل ما يشغل عن الله يقال له : صنم .

قال: مر رجلان على قوم لهم صنم ، لا يجوزُه أحد حتى يُقرِّب له شيئاً ، فقالوا لأحدهما: قرِّب ، قال : ليس عندى شىء أُقرِّب ، قالوا له : قرِّب ولو ذُباباً ، فقرَّب ذباباً ، فخلَّوْا سبيله ، فدخل النار ، وقالوا للآخَر : قرِّب ، فقال : ما كنت لأُقرِّب لأحد شيئاً دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه فدخل الجنة » . رواه أحمد .

لهم النبى ﷺ ما صيَّر هذا الأمر الحقير عندهم عظيماً يستحق هذا عليه الجنة ، ويستوجب الآخر عليه النار .

قوله : (فقال : مر رجلان على قوم لهم صنم) الصنم : ما كان منحوتاً على صورة ، ويطلق عليه الوثن كما مر .

قوله : (لا يجاوزه) أى : لا يمر به ولا يتعداه أحد حتى يقرب إليه شيئاً وإن قلّ .

قوله : (قالوا له : قرب ولو ذباباً فقرب ذباباً فخلوا سبيله ، فدخل النار) فى هذا : بيان عظمة الشرك ، ولو فى شىء قليل ، وأنه يوجب النار [1] ، كما قال تعالى (٥ : ٧٢) : ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ .

وفى هذا الحديث : التحذير من الوقوع فى الشرك ، وأن الإنسان قد يقع فيه وهو لا يدرى أنه من الشرك الذى يوجب النار .

وفيه : أنه دخل النار بسبب لم يقصده ابتداء ، وإنما فعله تخلصاً من شر أهل الصنم .

وفيه : أن ذلك الرجل كان مسلماً قبل ذلك ، وإلا فلو لم يكن مسلماً لم يقل دخل النار فى ذباب .

وفيه : أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان ، ذكره المصنف بمعناه .

قوله : (وقالوا للآخر : قرب . قال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل) ففيه بيان فضيلة التوحيد والإخلاص [2] .

---

(١) فى قرة العيون : لأنه قصد غير الله بقلبه أو انقاد بعمله فوجبت له النار ، ففيه معنى حديث مسلم الذى تقدم فى باب الخوف من الشرك عن جابر مرفوعاً : « من لقى الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به دخل النار » ، فإذا كان هذا فيمن قرب للصنم ذباباً فكيف ممن يستسمن الإبل والبقر والغنم ليتقرب بنحرها وذبحها لمن كان يعبده من دون الله ، من ميت أو غائب ، أو طاغوت أو مشهد أو شجر أو حجر أو غير ذلك ؟ وكان هؤلاء المشركون فى أواخر هذه الأمة يعدون ذلك أفضل من الأضحية فى وقتها الذى شرعت فيه ، وربما اكتفى بعضهم بذلك عن أن يضحى لشدة رغبته وتعظيمه ورجائه لمن كان يعبده من دون الله ، وقد عمت البلوى بهذا وما هو أعظم منه .

(٢) فى قرة العيون : ففيه معرفة قدر الشرك فى قلوب أهل الإيمان ونفرتهم عنه وصلابتهم فى الإخلاص ، كما فى حديث أنس الذى فى البخارى وغيره الآتى إن شاء الله تعالى : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان - وفيه - وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » .

وفيه : تفاوت الناس فى الإيمان لأن هذا الرجل الذى قرب الذباب لم يكن له عمل يستحق به دخول النار قبل ما فعله مع هذا الصنم ، كما هو ظاهر الحديث ، والله أعلم .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير ﴿ إن صلاتى ونسكى ﴾ .

الثانية : تفسير ﴿ فصلِّ لربك وانحر ﴾ .

الثالثة : البداءة بلعنة من ذبح لغير الله .

الرابعة : لعن من لعن والديه ، ومنه أن تلعن والدَى الرجل فيلعن والديك .

الخامسة : لعن من آوى محدثاً ، وهو الرجل يُحدث شيئاً يجب فيه حق لله ، فيلتجئ إلى من يجيره من ذلك .

السادسة : لعن من غيَّر منار الأرض ، وهى المراسيم التى تفرِّق بين حقك وحق جارك، فتغيرها بتقديم أو تأخير .

السابعة : الفرق بين لعن المعيّن ولعن أهل المعاصى على سبيل العموم .

الثامنة : هذه القصة العظيمة ، وهى قصة الذباب .

التاسعة : كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذى لم يقصده ، بل فعله تخلصاً من شرهم [1] .

العاشرة : معرفة قدر الشرك فى قلوب المؤمنين ، كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طَلِبتهم ، مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر ؟

الحادية عشرة : أن الذى دخل النار مسلم ، لأنه لو كان كافراً لم يقل : « دخل النار فى ذباب » .

الثانية عشرة : فيه شاهد للحديث الصحيح : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شِراك نعله والنار مثل ذلك » .

الثالثة عشرة : معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم ، حتى عند عبدة الأوثان .

❊ ❊ ❊

قال المصنف : (وفيه معرفة قدر الشرك فى قلوب المؤمنين كيف صبر على القتل ولم يوافقهم على طلبهم ، مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر) .

---

(١) الظاهر أنه لم يكن متخلصاً وإلا لم يدخل النار ، ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ .

باب (لا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله)

وقول الله تعالى (٩ : ١٠٨) : ﴿ لا تقم فيه أبداً ، لمسجد أُسِّسَ على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ﴾

قوله : (باب : لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله تعالى) [(١)]

« لا » نافية ، ويحتمل أنها للنهى وهو أظهر . قوله : (وقول الله تعالى (٩ : ١٠٨) : ﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ الآية) قال المفسرون : إن الله تعالى نهى عن الصلاة فى مسجد الضرار ، والأمة تبع له فى ذلك ، ثم إنه تعالى حثَّه على الصلاة فى مسجد قُبَاء الذى أُسِّس من أول يوم بنى على التقوى ؛ وهى طاعة الله ورسوله ﷺ ، وجمعاً لكلمة المؤمنين ، ومعقلاً ومنزلاً للإسلام وأهله ، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة فى مسجد قباء كعمرة » ، وفى الصحيح : « أن رسول الله ﷺ كان يزور قباء راكباً وماشياً » ، وقد صرح أن المسجد المذكور فى الآية هو مسجد قباء جماعة من السلف ، منهم ابن عباس ، وعروة، وعطية ، والشعبى ، والحسن ، وغيرهم .

قلت : ويؤيده قوله فى الآية : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ ، وقيل : هو مسجد رسول الله ﷺ ؛ لحديث أبى سعيد قال : « تمارى رجلان فى المسجد الذى أُسِّس على التقوى من أول يوم ، قال رجل : هو مسجد قُبَاء ، وقال الآخر : هو مسجد رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : هو مسجدى هذا » رواه مسلم ، وهو قول عمر ، وابنه ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم .

قال ابن كثير : وهذا صحيح ، ولا منافاة بين الآية والحديث ؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى ، وهذا بخلاف مسجد الضرار الذى أسس على معصية الله كما قال تعالى (٩ : ١٠٧) : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، ولَيَحْلِفُنّ إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ فلهذه الأمور نهى الله نبيه عن القيام فيه للصلاة ، وكان الذين بنوه جاءوا إلى النبى ﷺ قبل خروجه إلى غزوة تبوك فسألوه أن يصلى فيه ، وأنهم إنما بنوه للضعفاء وأهل العلة فى الليلة الشاتية . فقال : « إنا على سَفر ؛ ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » ، فلما قفل - عليه السلام - راجعاً إلى المدينة ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعضه نزل الوحى بخبر المسجد ، فبعث إليه فهدمه قبل قدومه إلى المدينة [(٢)] .

---

(١) فى قرة العيون : أشار - رحمه الله تعالى - إلى ما كان الناس يفعلونه فى نجد وغيرها قبل دعوتهم إلى التوحيد من ذبحهم للجن لطلب الشفاء منهم لمرضاهم ويتخذون للذبح لهم مكاناً مخصوصاً فى دورهم . فنفى الله سبحانه الشرك بهذه الدعوة الإسلامية، فللّه الحمد على زوال الشرك والبدع والفساد بطلعة الداعى إلى توحيد رب العالمين.

(٢) كان أبو عامر الفاسق الخزرجى قد ذهب إلى هرقل بعد غزوة أحد ، يستعديه على رسول الله ﷺ فوعده =

فيه رجال يُحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين ﴾ .

عن ثابت بن الضحاك -رضى الله عنه - قال: «نذر رجل أن ينحر إبلاً ببُوانة، فسأل

وجه مناسبة الآية للترجمة : أن المواضع المعدة للذبح لغير الله يجب اجتناب الذبح فيها لله، كما أن هذا المسجد لما أعد لمعصية الله صار محل غضب لأجل ذلك ، فلا تجوز الصلاة فيه لله. وهذا قياس صحيح ، يؤيده حديث ثابت بن الضحاك الآتى .

قوله : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ روى الإمام أحمد وابن خزيمة وغيرهما عن عويم ابن ساعدة الأنصارى : « أن النبى ﷺ أتاهم فى مسجد قباء ، فقال : إن الله قد أحسن عليكم الثناء بالطهور فى قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذى تطهرون به ؟ فقالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط ، فغسلنا كما غسلوا » ، وفى رواية عن جابر وأنس : « هو ذاك فعليكموه » رواه ابن ماجه وابن أبى حاتم ، والدارقطنى ، والحاكم .

قوله : ﴿ والله يحب المطهّرين ﴾ قال أبو العالية : إن الطهور بالماء لحسن ، ولكنهم المتطهرون من الذنوب ، وفيه : إثبات صفة المحبة ، خلافاً للأشاعرة ونحوهم .

قوله : (عن ثابت بن الضحاك قال : « نذر رجل [1] أن ينحر إبلاً ببُوانة ، فسأل النبى ﷺ ، فقال : هل كان فيها وثَن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا : لا ، قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا ، فقال رسول الله ﷺ : أَوْفِ بنَذرِك ، فإنه لا وفاء لَنذرٍ فى معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم » رواه أبو داود ، وإسناده على شرطهما) .

قوله : (عن ثابت بن الضحاك) أى : ابن خليفة الأشْهَلى ، صحابى مشهور . روى عنه أبو قِلابة وغيره . مات سنة أربع وستين .

قوله : (ببوانة) بضم الباء . وقيل : بفتحها . قال البغوى : موضع فى أسفل مكة دون يَلَمْلَم . قال أبو السعادات : هضبة من وراء يَنْبُع .

= هرقل ومناه ، فأرسل جماعة من قومه من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم ، فبنوا هذا المسجد ، والذى هدمه بأمر النبى ﷺ وحرقه مالك بن الدخشم أخو بنى سالم بن عوف ومعن بن عدى أو أخوه عامر بن عدى .

(١) روى أبو داود هذا الحديث عن سارة بنت مقسم الثقفى أنها قالت : سمعت ميمونة بنت كردم قالت : «خرجت مع أبى فى حجة فرأيت رسول الله ﷺ وسمعت الناس يقولون : رسول الله ﷺ ، فجعلت أبده بصرى ، فدنا إليه أبى وهو على ناقة ، ومعه درة كدرة الكتاب ، فسمعت الأعراب والناس يقولون : الطبطبية الطبطبية ، فدنا إليه أبى فأخذ بقدمه ، قالت : فقرأ له ووقف فاستمع منه ، فقال : يا رسول الله ، إنى نذرت إن ولد لى ولد ذكر أن أنحر على رأس بوانة فى عقبة من الثنايا عدة من الغنم - قال : لا أعلم إلا أنها قالت : خمسين - فقال رسول الله : هل بها من الأوثان شىء ؟ قال : لا ، قال : فأوف بما نذرت الله - الحديث .

النبى ﷺ ، فقال : « هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد ؟ قالوا : لا ، قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ قالوا : لا .

قوله : (فهل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟) فيه : المنع من الوفاء بالنذر إذا كان فى المكان وثن ، ولو بعد زواله ، قاله المصنف رحمه الله .

قوله : (فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟) قال شيخ الإسلام - رحمه الله - [١] : العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد . إما بعود السنة ، أو بعود الأسبوع أو الشهر أو نحو ذلك [٢] ، والمراد به هنا : الاجتماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية . فالعيد يجمع أموراً منها: يوم عائد ، كيوم الفطر ويوم الجمعة . ومنها : اجتماع فيه ، ومنها : أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات ، وقد يختص العيد بمكان بعينه ، وقد يكون مطلقاً . وكل من هذه الأمور قد يسمى عيداً . فالزمان كقول النبى ﷺ فى يوم الجمعة : « إن هذا يوم قد جعله الله للمسلمين عيداً » والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس : « شهدت العيد مع رسول الله ﷺ » والمكان كقول النبى ﷺ : « لا تتخذوا قبرى عيداً » وقد يكون لفظ العيد اسماً لمجموع اليوم والعمل فيه وهو الغالب، كقول النبى ﷺ : « دعهما يا أبا بكر ؛ فإن لكل قوم عيداً » انتهى [٣] .

---

(١) فى كتاب اقتضاء الصراط المستقيم .

(٢) وهى التى يسميها الناس اليوم الموالد والذكريات التى ملأت البلاد باسم الأولياء ، وهى نوع من العبادة وتعظيمهم ، ولذلك لا يذكر الناس ويعرفون إلا من أقيمت له هذه الذكريات ولو كان أجهل الناس وأفسقهم فكلما كسدت سوق طاغوت من هؤلاء قام السدنة بهذا العيد لتحيا فى نفوس العامة عبادته وتكثر الهدايا والقرابين باسمه ، وقد امتلأت البلاد الإسلامية بهذه الذكريات ، وعمت بها المصيبة وعادت بها الجاهلية إلى بلاد الإسلام ولا حول ولا قوة إلا بالله . ولم ينج منها إلا نجد والحجاز فيما نعلم بفضل الله ثم بفضل آل سعود الذين قاموا بحماية دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب .

(٣) فى قرة العيون : وقد أحدث هؤلاء المشركون أعياداً عند القبور التى تعبد من دون الله ويسمونها عيداً كمولد البدوى بمصر وغيره ، بل هى أعظم لما يوجد فيها من الشرك والمعاصى العظيمة . قال المصنف رحمه الله تعالى : وفيه استفصال المفتى والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ولو بعد زواله .

قلت : وفيه المنع من اتخاذ آثار المشركين محلاً للعبادة لكونها صارت محلاً لما حرم الله من الشرك والمعاصى ، والحديث وإن كان فى النذر ، فيشمل كل ما كان عبادة لله فلا نفعل فى هذه الأماكن الخبيثة التى اتخذت محلاً لما يسخط الله تعالى ، فبهذا صار الحديث شاهداً للترجمة ، والمصنف رحمه الله تعالى لم يرد التصخيص بالذبح وإنما ذكر الذبح كالمثال .

وقد استشكل جعل محل اللات بالطائف مسجداً .

والجواب والله أعلم : أنه لو ترك هذا المحل فى هذه البلدة لكان يخشى أن تفتتن به قلوب الجهال فيرجع إلى جعله وثناً ، كما كان يفعل فيه أولاً فجعله مسجداً والحالة هذه ينسى فيها ما كان يفعل فيه ويذهب به أثر الشرك بالكلية، فاختص هذا المحل لهذه العلة وهى قوة المعارض ، والله أعلم .

فقال رسول الله ﷺ : أَوْفِ بنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر فى معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم » . رواه أبو داود ، وإسناده على شرطهما .

قال المصنف : (وفيه : استفصال المفتى ، والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ، ولو بعد زواله) .

قلت : وفيه سد الذريعة ، وترك مشابهة المشركين ، والمنع مما هو وسيلة إلى ذلك .

قوله : (فأوف بنذرك) هذا يدل على أن الذبح لله فى المكان الذى يذبح فيه المشركون لغير الله ، أى فى محل أعيادهم ، معصية ، لأن قوله : « فأوف بنذرك » تعقيب للوصف بالحكم بالفاء ، وذلك يدل على أن الوصف سبب الحكم ، فيكون سبب الأمر بالوفاء خلوه عن هذين الوصفين ، فلما قالوا : « لا » ، قال : « أوف بنذرك » ، وهذا يقتضى أن كون البقعة مكاناً لعيدهم ، أو بها وثن من أوثانهم : مانع من الذبح بها ولو نذره ، قاله شيخ الإسلام .

وقوله : (فإنه لا وفاء لنذر فى معصية الله) دليل على أن هذا نذر معصية لو قد وجد فى المكان بعض الموانع ، وما كان من نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به بإجماع العلماء . واختلفوا : هل تجب فيه كفارة يمين ؟ على قولين ، هما روايتان عن أحمد . أحدهما : تجب ، وهو المذهب . وروى عن ابن مسعود وابن عباس ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه ؛ لحديث عائشة رضى الله عنها مرفوعاً : « لا نذر فى معصية ، وكفارته كفارة يمين » رواه أحمد وأهل السنن[1] واحتج به أحمد وإسحاق ، والثانى : لا كفارة عليه . وروى ذلك عن مسروق والشعبى والشافعى ، لحديث الباب ، ولم يذكر فيه كفارة . وجوابه : أنه ذكر الكفارة فى الحديث المتقدم ، والمطلق يحمل على المقيد .

قوله : (ولا فيما لا يملك ابن آدم) قال فى شرح المصابيح : يعنى إذا أضاف النذر إلى معين لا يملكه بأن قال : إن شفى الله مريضى فللَّه علىّ أن أعتق عبد فلان ونحو ذلك . فأما إذا التزم فى الذمة شيئاً ، بأن قال : إن شفى الله مريضى ، فللَّه علىّ أن أعتق رقبة ، وهو فى تلك الحال لا يملكها ولا قيمتها ، فإذا شُفى مريضه ثبت ذلك فى ذمته .

قوله : (رواه أبو داود وإسناده على شرطهما) أي : البخارى ومسلم .

وأبو داود : اسمه سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد الأزدى السجستانى صاحب الإمام أحمد ، ومصنف السنن والمراسيل وغيرهما ، ثقة إمام حافظ من كبار العلماء . مات سنة خمس وسبعين ومائتين . رحمه الله تعالى .

---

(١) قال الترمذى : هذا حديث لا يصح ، لأن الزهرى لم يسمع هذا الحديث من أبى سلمة وقال غيره : لم يسمعه الزهرى من أبى سلمة ، وإنما سمعه من سليمان بن أرقم وسليمان متروك . وقال مثل هذا أبو داود بعد إخراجه إياه .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير قوله : ﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ .

الثانية : أن المعصية قد تؤثر فى الأرض ، وكذلك الطاعة .

الثالثة : رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ، ليزول الإشكال .

الرابعة : استفصال المفتى إذا احتاج إلى ذلك .

الخامسة : أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع .

السادسة : المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ، ولو بعد زواله .

السابعة : المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله .

الثامنة : أنه لا يجوز الوفاء بما نذر فى تلك البقعة ؛ لأنه نذر معصية .

التاسعة : الحذر من مشابهة المشركين فى أعيادهم ولو لم يقصده .

العاشرة : لا نذر فى معصية .

الحادية عشرة : لا نذر لابن آدم فيما لا يملك .

* * *

باب (من الشرك النذر لغير الله)

وقول الله تعالى (٧٦ : ٧) : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شرُّه مستطيراً ﴾ .

وقوله (٢ : ٢٧٠) : ﴿ وما أُنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾ .

قوله : (باب : من الشرك النذر لغير الله تعالى)

أى : لكونه عبادة يجب الوفاء به إذا نذره لله ، فيكون النذر لغير الله تعالى شركاً فى العبادة .

وقوله تعالى (٧٦ : ٧) : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شَرُّهُ مُستطيراً ﴾ فالآية دلت على وجوب الوفاء بالنذر ، ومدح من فعل ذلك طاعة لله ، ووفاء بما تقرب به إليه .

وقوله تعالى (٢ : ٢٧٠) : ﴿ وما أنفقتم من نقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾ .

قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه عالم بجميع ما يعمله العاملون من الخيرات ، من النفقات والمنذورات ، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين به ابتغاء وجهه . اهـ .

إذا علمت ذلك : فهذه النذور الواقعة من عباد القبور ، تقرباً بها إليهم ، ليقضوا لهم حوائجهم وليشفعوا لهم ، كل ذلك شرك فى العبادة بلا ريب ، كما قال تعالى (٦ : ١٣٦): ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الْحَرْثِ والأنعام نصيباً * فقالوا : هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يَصِلُ إلى الله، وما كان لله فهو يَصِلُ إلى شركائهم، ساء ما يحكمون﴾ .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : وأما ما نذر لغير الله ، كالنذر للأصنام والشمس والقمر

والقبور ونحو ذلك ، فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات . والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة ، وكذلك الناذر للمخلوقات ، فإن كلاهما شرك ، والشرك ليس له حرمة، بل عليه أن يستغفر الله من هذا ، ويقول ما قال النبي ﷺ : « من حلف ، وقال فى حلفه : واللات والعزى ، فليقل : لا إله إلا الله » [(١)] .

وقال فيمن نذر للقبور أو نحوها دُهْناً لتُنَوّر به ويقول : إنها تقبل النذر كما يقوله بعض الضالين : وهذا النذر معصية باتفاق المسلمين ، لا يجوز الوفاء به ، وكذلك إذا نذر مالاً للسّدَنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة ، فإن فيهم شبهاً من السدنة التى كانت عند اللات والعزى ومناة ، يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . والمجاورون هناك فيهم شبه من الذين قال فيهم الخليل - عليه السلام - : ﴿ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ ﴾ والذين اجتاز بهم موسى - عليه السلام - وقومه ، قال تعالى (٧ : ١٣٨) : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، فأتَوْا على قومٍ يَعْكُفُون على أصنامٍ لهم ﴾ فالنذر لأولئك السدنة والمجاورين فى هذه البقاع نذر معصية . وفيه شبه من النذر لسدنة الصلبان والمجاورين عندها ، أو لسدنة الأبداد [(٢)] فى الهند والمجاورين عندها .

وقال الرافعى فى شرح المنهاج : وأما النذر للمشاهد [(٣)] التى على قبر ولى أو شيخ ، أو على اسم من حَلَّها من الأولياء ، أو تردد فى تلك البقعة من الأولياء والصالحين ، فإن قصد الناذر بذلك - وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة - تعظيم البقعة والمشهد ، أو الزاوية ، أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه ، أو بنيت على اسمه ، فهذا النذر باطل غير منعقد ، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات ، ويرون أنها مما يُدفع بها البلاء ويُستجلب بها النعماء، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء ، حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل لهم : إنه استند إليها عبد صالح ، وينذرون لبعض القبور السُرجَ والشموع والزيت ، ويقولون : القبر الفلانى، أو المكان الفلانى يقبل النذر ، يعنون بذلك : أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض ،

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) فى القاموس : البد - بضم الباء - الضم ، معرب ، بد والجمع بددة - كقردة - وأبداد كخرج وإخراج .

(٣) فى قرة العيون : وذلك لأن الناذر لله وحده علق رغبته به وحده لعلمه بأنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع : فتوحيد القصد : هو توحيد العبادة ، ولهذا ترتب عليه وجوب الوفاء فيما نذره طاعة لله ، والعبادة إذا صرفت لغير الله صار ذلك شركاً بالله لالتفاته إلى غيره تعالى فيما يرغب فيه أو يرهب فقد جعله شريكاً لله فى العبادة فيكون قد أثبت ما نفته (لا إله إلا الله) من إلهية غير الله ، ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص ، وكل هذه الأبواب التى ذكرها المصنف رحمه الله تعالى تدل على أن من أشرك مع الله غيره بالقصد والطلب فقد خالف ما نفته « لا إله إلا الله » فعكس مدلولها فأثبت ما نفته ونفى ما أثبتته من التوحيد ، وهذا معنى قول شيخنا . وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب ، فكل شرك وقع أو قد يقع فهو ينافى كلمة الإخلاص وما تضمنته من التوحيد .

أو قدوم غائب ، أو سلامة مال ، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة ، فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه ، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقاً . ومن ذلك : نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل - عليه السلام - ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء ؛ فإن الناذر لا يقصد بذلك الإيقاد على القبر إلا تبركاً وتعظيماً ، ظاناً أن ذلك قربة ، فهذا مما لا ريب فى بطلانه . والإيقاد المذكور محرم ، سواء انتفع به هناك منتفع أم لا .

قال الشيخ قاسم الحنفى فى شرح درر البحار : النذر الذى ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد ، كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة ، فيأتى إلى بعض الصلحاء ويجعل على رأسه سترة ، ويقول : يا سيدى فلان ، إن رد الله غائبى ، أو عوفى مريضى ، أو قضيت حاجتى ، فلك من الذهب كذا ، أو من الفضة كذا ، أو من الطعام كذا ، أو من الماء كذا ، أو من الشمع والزيت كذا ، فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه ؛ منها : أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز ؛ لأنه عبادة ، والعبادة لا تكون لمخلوق ، ومنها : أن المنذور له ميت، والميت لا يملك ، ومنها : أنه ظن أن الميت يتصرف فى الأمور دون الله ، واعتقاد ذلك كفر - إلى أن قال : إذا علمت هذا ، فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليها : فحرام بإجماع المسلمين .

نقله عنه ابن نجيم فى البحر الرائق . ونقله المرشدى فى تذكرته وغيرهما عنه ، وزاد : قد ابتلى الناس بهذا لا سيما فى مولد البدوى (١) .

وقال الشيخ صنع الله الحلبى الحنفى فى الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء : فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان فهو لغير الله ، فيكون باطلاً . وفى التنزيل (٦ : ١٢١): ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ ، (٦ : ١٦٢) : ﴿ قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له﴾ والنذر لغير الله إشراك مع الله، كالذبح لغيره.

قوله : (وفى الصحيح عن عائشة - رضى الله عنها - : أن رسول الله ﷺ قال : « مَن نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه ») .

قوله : (فى الصحيح) أى : صحيح البخارى .

قوله : (عن عائشة) : هى أم المؤمنين ، زوج النبى ﷺ ، وابنة الصديق - رضى الله

(١) أحمد البدوى بطنطا لا يعرف له تاريخ صحيح ، واضطربت الأقوال فيه ، والمشهور أنه كان جاسوساً لدولة الملثمين ، وكان داهية فى المكر والخديعة ، وقبره أكبر الأصنام فى الديار المصرية ، مثل هبل الأكبر أو اللات فى الجاهلية ، يؤتى عنده من أنواع الشرك الأكبر ، وتقدم له النذور ويجعل له الفلاحون النصف والربع فى أنعامهم وزروعهم ، بل وأولادهم فيأتى الرجل بنصف مهر ابنته ويضعه فى الصندوق قائلاً : هذا نصيبك يا بدوى ، ويقام كل عام ثلاثة موالد يشد الرحال إليها الناس من أقصى القطر المصرى ، ويجتمع فى المولد أكثر من ثلاثمائة ألف حاج إلى هذا الصنم الأكبر . عجل الله بهدمه وحرقه هو وغيره من كل صنم فى مصر وغيرها .

قال : « مَن نذر أن يُطيعَ الله فلْيُطِعْهُ ، ومَن نذر أن يَعصَى الله فلا يَعصه » .

فيه مسائل :

الأولى : وجوب الوفاء بالنذر .

الثانية : إذا ثبت كونه عبادة لله ، فصرْفه إلى غيره شرك .

الثالثة : أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به .

* * *

عنهما - تزوجها النبى ﷺ وهى ابنة سبع سنين ، ودخل بها وهى ابنة تسع [1] . وهى أفقه النساء مطلقاً ، وهى أفضل أزواج النبى ﷺ إلا خديجة ، ففيها خلاف . ماتت سنة سبع وخمسين على الصحيح - رضى الله عنها - .

قوله : (من نذر أن يطيع الله فليطعه) أى : فليفعل ما نذره من طاعة الله . وقد أجمع العلماء على أن من نذر طاعة لشرط يرجوه ، كأن شفى الله مريضى فعلىّ أن أتصدق بكذا ، ونحو ذلك وجب عليه ، إن حصل له ما علق نذره على حصوله . وحكى عن أبى حنيفة : أنه لا يلزم الوفاء إلا بما جنسه واجب بأصل الشرع ، كالصوم ، وأما ما ليس كذلك ، كالاعتكاف فلا يجب عليه الوفاء به .

قوله : (ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه) زاد الطحاوى « وليكفِّر عن يمينه » وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية .

قال الحافظ : اتفقوا على تحريم النذر فى المعصية ، وتنازعوا : هل ينعقد موجباً للكفارة أم لا؟ وتقدم . وقد يستدل بالحديث على صحة النذر فى المباح ، كما هو مذهب أحمد وغيره ، يؤيد ما رواه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وأحمد والترمذى عن بريدة : «أن امرأة قالت : يا رسول الله ، إنى نذرت أن أضرب على رأسك بالدُّفّ ، فقال : أُوفى بنذرك » وأما نذر اللّجاج والغضب فهو يمين عند أحمد ، فيخير بين فعله وكفارة يمين ، لحديث عمران بن حصين مرفوعاً : « لا نذر فى غضب ، وكفارته كفارة يمين » رواه سعيد بن منصور وأحمد والنسائى ، فإن نذر مكروهاً كالطلاق استحب أن يكفِّر ولا يفعله .

---

(١) عقد عليها قبل الهجرة بسنة ، وبنى بها بعد الهجرة بسبعة أشهر تقريباً .

(٢) فى قرة العيون : بل لا يقال : خديجة أفضل ولاعائشة أفضل ، والتحقيق أن لخديجة من الفضائل فى بدء الوحى ما ليس لعائشة من سبقها إلى الإيمان بالنبى ﷺ وتأييده فى تلك الحال التى بدئ بالوحى فيها كما فى صحيح البخارى وغيره ، فما زالت كذلك حتى توفيت رضى الله عنها قبل الهجرة ، ولعائشة من العلم والأحاديث والأحكام ما ليس لخديجة لعلمها بأحوال النبى ﷺ ونزول القرآن وبيان الحلال والحرام ، وكان الصحابة رضى الله عنهم بعد وفاته ﷺ يرجعون إليها فيما أشكل عليهم من أحوال النبى ﷺ وحديثه صلوات الله وسلامه عليه ورضى عن أصحابه وأزواجه .

باب (من الشرك الاستعاذة بغير الله)

وقول الله تعالى (٧٢ : ٦) : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يَعوذون برجال من الجن ، فزادوهم رهَقاً ﴾ [(١)] .

قوله : (باب : من الشرك الاستعاذة بغير الله تعالى)

« الاستعاذة » : الالتجاء والاعتصام ، ولهذا يسمى المستعاذ به : معاذاً وملجأ ، فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه ، إلى ربه ومالكه ، واعتصم واستجار به ، والتجأ إليه ، وهذا تمثيل ، وإلا فما يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله ، والاعتصام به ، والانطراح بين يدى الرب، والافتقار إليه ، والتذلل له ، أمر لا تحيط به العبارة ، قاله ابن القيم - رحمه الله - .

وقال ابن كثير : الاستعاذة : هى الالتجاء إلى الله ، والالتصاق بجنابه من شر كل ذى شر والعياذ يكون لدفع الشر ، واللياذ لطلب الخير . انتهى .

قلت : وهى من العبادات التى أمر الله تعالى بها عباده ، كما قال تعالى (٤١ : ٣٦) : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ وأمثال ذلك فى القرآن كثير كقوله : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ ، و﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ فما كان عبادة لله فصرْفُه لغير الله شرك فى العبادة ، فمن صرف شيئا من هذه العبادات لغير الله فقد جعله شريكاً لله فى عبادته ، ونازع الرب فى إلهيته ، كما أن من صلى لله وصلى لغيره يكون عابداً لغير الله ، ولا فرق . كما سيأتى تقريره قريباً إن شاء الله تعالى .

قوله : (وقول الله تعالى (٧٢ : ٦) : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ .

قال ابن كثير : أى كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس ، لأنهم كانوا يعوذون بنا : أى إذا نزلوا وادياً أو مكاناً متوحشاً من البرارى وغيرها ، كما كانت عادة العرب فى جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشىء يسوءهم ، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه فى جوار رجل كبير وذمامه وخفارته ، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً : أى خوفاً وإرهاباً وذعراً ، حتى يبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم - إلى

---

(١) فى قرة العيون : قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى فى تفسيره هذه الآية عن ابن عباس رضى الله عنه قال : كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادى فى الجاهلية فيقول : أعوذبعزيز هذا الوادى فزادهم ذلك اثماً ، وقال بعضهم : فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بعزيزهم جراءة عليهم وازدادوا هم بذلك إثماً ، وقال مجاهد: فازداد الكفار طغياناً ، وقال ابن زيد : وزادهم الجن خوفاً .

وعن خَولة بنت حكيم [1] قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَن نزل منزلاً، فقال : أعوذ بكلمات الله التامَّات ،

أن قال : - قال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم : « رهقاً » أى خوفاً . وقال العوفى : عن ابن عباس « فزادوهم رهقاً » أى : إثماً ، وكذا قال قتادة . ا هـ .

وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى بواد قفر وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه ، يريد كبير الجن . وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الاستعاذة بغير الله .

وقال الملا على القارى الحنفى : لا يجوز الاستعاذة بالجن ، فقد ذم الله الكافرين على ذلك وذكر الآية ، وقال : قال تعالى (٦ : ١٢٨) : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ، وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا . قال : النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم ﴾ فاستمتاع الإنسى بالجنى فى قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشىء من المغيبات ، واستمتاع الجنى بالإنسى تعظيمه إياه ، واستعاذته به وخضوعه له . انتهى ملخصاً .

قال المصنف : (وفيه : أن كون الشىء يحصل به منفعة دنيوية لا يدل على أنه ليس من الشرك ﴾ .

قوله : (وعن خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامَّات من شر ما خلق ، لم يضره شىء حتى يرتحل من منزله ذلك) رواه مسلم .

هى خولة بنت حكيم بن أمية السلمية ، يقال لها : أم شريك ، ويقال : إنها هى الواهبة وكانت قبلُ تحتَ عمان بن مَظْعون .

قال ابن عبد البر : وكانت صالحة فاضلة . .

قوله : (أعوذ بكلمات الله التامات) شرع الله لأهل الإسلام أن يستعيذوا به بدلاً عما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن ، فشرع الله للمسلمين أن يستعيذوا بأسمائه وصفاته .

قال القرطبى : قيل : معناه الكاملات التى لا يلحقها نقص ولا عيب ، كما يلحق كلام البشر . وقيل : معناه الشافية الكافية ، وقيل : الكلمات هنا هى القرآن ، فإن الله أخبر عنه بأنه (١٠ : ٥٧ ، ١٧ : ٨٢ ، ٤١ : ٤٤) : ﴿ هُدًى وشفاءٌ ﴾ ، وهذا الأمر على جهة

---

[1] التى وهبت نفسها للنبى ﷺ .

من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك » . رواه مسلم .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الجن .

الثانية : كونه من الشرك .

الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى . ولما كان ذلك استعاذة بصفات الله تعالى كان من باب المندوب إليه المرغب فيه ، وعلى هذا فحق المستعيذ بالله أو بأسمائه وصفاته : أن يصدق الله فى التجائه إليه ، ويتوكل فى ذلك عليه ، ويحضر ذلك فى قلبه ، فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق . وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق . قالوا : لأنه ثبت عن النبى ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك ، ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويذ التى لا يعرف معناها ، خشية أن يكون فيها شرك .

وقال ابن القيم : ومن ذبح للشيطان ودعاه ، واستعاذ به ، وتقرب إليه بما يحب فقد عبده، وإن لم يسمّ ذلك عبادة ويسميه استخداماً ، وصَدَقَ ، هو استخدام من الشيطان له ، فيصير من خدم الشيطان وعابديه ، وبذلك يخدمه الشيطان ، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة ، فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده كما يفعل هو به . اهـ .

قوله : (من شر ما خلق) قال ابن القيم - رحمه الله - : أى من كل شر فى أىِّ مخلوق قام به الشر : من حيوان أو غيره ، إنسياً كان أو جنياً ، أو هامة [1] أو دابة ، أو ريحاً ، أو صاعقة أى نوع كان من أنواع البلاء فى الدنيا والآخرة .

و« ما » ههنا موصولة ، وليس المراد بها العموم الإطلاقى ، بل المراد التقييدى الوصفى ، والمعنى : من شر كل مخلوق فيه شر ؛ لا من شر كل ما خلقه الله ، فإن الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر ، والشر يقال على شيئين : على الألم ، وعلى ما يفضى إليه .

قوله : (لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك) قال القرطبى : هذا خبر صحيح ، وقول صادق ، علمنا صدقه دليلاً وتجربة ، فإنى منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه ، فلم يضرنى شيء إلى أن تركته ، فلدغتنى عقرب بالمهدية ليلاً ، فتفكرت فى نفسى ، فإذا بى قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات .

---

(١) الهامة : ما كان أهل الجاهلية يتوهمونه طائراً أو شبهه تتصور فيه روح المقتول لا تزال تنادى على قبره بالأخذ بثأره وهى خرافة من خرافاتهم أبطلها الإسلام ، وفى الصحيح أن النبى ﷺ قال : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » .

الثالثة : الاستدلال على ذلك بالحديث ؛ لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة . قالوا : لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك .

الرابعة : فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره .

الخامسة : أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع ، لا يدل على أنه ليس من الشرك .

❊ ❊ ❊

باب (من الشرك أن يستغيث بغير الله ، أو يدعو غيره)

قوله : (باب : من الشرك أن يستغيث بغير الله ، أو يدعو غيره)

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : الاستغاثة : هى طلب الغَوْث ، وهو إزالة الشدة ، كالاستنصار : طلب النصر ، والاستعانة : طلب العون .

وقال غيره : الفرق بين الاستغاثة والدعاء : أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب ، والدعاء أعم من الاستغاثة ؛ لأنه يكون من المكروب وغيره . فعطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص . فبينهما عموم وخصوص مطلق ، يجتمعان فى مادة وينفرد الدعاء عنها فى مادة ؛ فكل استغاثة دعاء ، وليس كل دعاء استغاثة .

وقوله : (أو يدعو غيره) اعلم أن الدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاء مسألة ، ويراد به فى القرآن هذا تارة وهذا تارة ، ويراد به مجموعهما . فدعاء المسألة : هو طلب ما ينفع الداعى من جلب نفع أو كشف ضر ، ولهذا أنكر الله على من يدعو أحداً من دونه ممن لا يملك ضراً ولا نفعاً ؛ كقوله تعالى (٥ : ٧٩) : ﴿ قل : أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم ؟ ﴾ ، وقوله (٦ : ٧١) : ﴿ قل : أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ؟ كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا ، قل : إن هدى الله هو الهدى وأُمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾ ، وقال (١٠ : ١٠٦) : ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين ﴾ .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة ، قال الله تعالى (٧ : ٥٥) : ﴿ أُدعوا ربكم تضرعاً وخُفية ، إنه لا يحب المعتدين ﴾ ، وقال تعالى (٦ : ٤٠ ، ٤١) : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴾ ، وقال تعالى (٧٢ : ١٨) : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ ، وقال تعالى (١٣ : ١٥) : ﴿ له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا

. . . .

يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كَفَّيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ وأمثال هذا فى القرآن فى دعاء المسألة أكثر من أن يحصر ، وهو يتضمن دعاء العبادة ؛ لأن السائل أخلص سؤاله لله ، وذلك من أفضل العبادات ، وكذلك الذاكر لله ، والتالى لكتابه ونحوه طالب من الله فى المعنى ؛ فيكون داعياً عابداً .

فتبين بهذا من قول شيخ الإسلام : أن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة ؛ كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة ، وقد قال تعالى عن خليله (١٩ : ٤٨ ، ٤٩) : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً * فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً ﴾ فصار الدعاء من أنواع العبادة، فإن قوله : ﴿ وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً ﴾ كقول زكريا (١٩ : ٤): ﴿ رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ، ولم أكن بدعائك رَبِّ شقياً ﴾ ، وقد أمر الله تعالى به فى مواضع من كتابه كقوله (٧ : ٥٥ ، ٥٦) : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ، إنه لا يحب المعتدين.ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، وادعوه خوفاً وطمعاً ، إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ وهذا هو دعاء المسألة المتضمن للعبادة ، فإن الداعى يرغب إلى المدعو ويخضع له ويتذلل .

وضابط هذا : أن كل أمر شرعه الله لعباده وأمرهم به ففعله لله عبادة ، فإذا صرف من تلك العبادة شيئاً لغير الله فهو مشرك مصادم لما بعث الله به رسوله من قوله (٣٩ : ١٤) : ﴿ قل الله أعبد مخلصاً له دينى ﴾ وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - فى الرسالة السنية : فإذا كان على عهد النبى ﷺ ممن انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة ، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام لأسباب . منها : الغلو فى بعض المشايخ ؛ بل الغلو فى علىّ بن أبى طالب ، بل الغلو فى المسيح ، فكل من غلا فى نبى أو رجل صالح ، وجعل فيه نوعاً من الإلهية ، مثل أن يقول : يا سيدى فلان انصرنى ، أو أغثنى ، أو ارزقنى ، أو أنا فى حسبك ، ونحو هذه الأقوال . فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه ، فإن تاب وإلا قتل، فإن الله سبحانه وتعالى إنما أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، ليُعبد وحده لا شريك له ، ولا يُدعَى معه إله آخر . والذين يدعون مع الله آلهة أخرى ، مثل المسيح والملائكة والأصنام ، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تُنزل المطر أو تنبت النبات ، وإنما كانوا يعبدونهم ، أو يعبدون قبورهم ، أو يعبدون صورهم ، يقولون (٣٩ : ٣) : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقرِّبونا إلى الله زُلْفَى ﴾ ، (١٠ : ١٠١) : ﴿ ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ فبعث الله سبحانه رسله ، تنهى أن يُدْعَى أحد من دونه ، لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة . اهـ .

. . . .

وقال أيضاً : من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كَفَرَ إجماعاً.

نقله عنه صاحب الفروع وصاحب الإنصاف وصاحب الإقناع وغيرهم . وذكره شيخ الإسلام ونقلته عنه فى الرد على ابن جِرْجيس فى مسألة الوسائط .

وقال ابن القيم – رحمه الله – : ومن أنواعه – يعنى الشرك – : طلبُ الحوائج من الموتى ، والاستغاثة بهم والتوجه إليهم ، وهذا أصل شرك العالم . فإن الميت قد انقطع عمله ، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فضلاً عمن استغاث به أو سأله أن يشفع له إلى الله ، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده ، وسيأتى تتمة كلامه فى باب الشفاعة إن شاء الله تعالى .

وقال الحافظ محمد بن عبد الهادى – رحمه الله – فى رده على السبكى فى قوله : « إن المبالغة فى تعظيمه – أى : الرسول ﷺ – واجبة » .

إن أريد به المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيماً ، حتى الحج إلى قبره ، والسجود له والطواف به ، واعتقاد أنه يعلم الغيب ، وأنه يعطى ويمنع ، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع ، وأنه يقضى حوائج السائلين ويفرج كربات المكروبين ، وأنه يشفع فيمن يشاء ، ويدخل الجنة من يشاء – : فدعوى المبالغة فى هذا التعظيم مبالغة فى الشرك ، وانسلاخ من جملة الدين .

وفى الفتاوى الْبَزَّازِية من كتب الحنفية : قال علماؤنا : من قال : أرواح المشائخ حاضرة تعلم : يكفر .

وقال الشيخ صنع الله الحنفى – رحمه الله – فى كتابه فى الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفات فى الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة : هذا وأنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدّعون أن للأولياء تصرفات بحياتهم وبعد مماتهم ، ويستغاث بهم فى الشدائد والبليات وبهممهم تكشف المهمات . فيأتون قبورهم وينادونهم فى قضاء الحاجات ، مستدلين أن ذلك منهم كرامات ، وقالوا : منهم أبدال ونقباء ، وأوتاد ونجباء ، وسبعون وسبعة وأربعون وأربعة ، والقطب : هو الغوث للناس ، وعليه المدار بلا التباس ، وجوزوا لهم الذبائح والنذور ، وأثبتوا لهم فيهما الأجور ، قال : وهذا كلام فيه تفريط وإفراط ، بل فيه الهلاك الأبدى والعذاب السرمدى ، لما فيه من روائح الشرك المحقق ، ومصادمة الكتاب العزيز المصدق ، ومخالفة لعقائد الأئمة ، وما اجتمعت عليه الأمة ، وفى التنزيل (٤ : ١١٤) : ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تَبَيَّنَ له الهدَى ويتبعْ غَيْرَ سبيل المؤمنين نُوَلِّه مَا تَوَلَّى وَنُصْلِه جهنم وساءت مصيراً﴾ .

ثم قال : فأما قولهم : إن للأولياء تصرفات فى حياتهم ، وبعد الممات ، فيرده قوله تعالى

(٢٧ : ٦١ - ٦٤) : ﴿ أإلهٌ مع الله ﴾ ، (٧ : ٥٤) ﴿ ألا له الخلقُ والأمر ﴾ ، (٣ : ١٨٩ ، ٥ : ١٩ ، ٢٠ : ١٢٣ ، و٢٤ : ٤٢ ، ٤٢ : ٤٩ ، و٤٥ : ٢٧ ، ٤٨ : ١٤) : ﴿ لله ملك السموات والأرض ﴾ ونحوها من الآيات الدالة على أنه المتفرد بالخلق والتدبير ، والتصرف والتقدير ، ولا شيء لغيره فى شيء مّا بوجه من الوجوه فالكل تحت ملكه وقهره تصرفاً وملكاً ، وإحياء وإماتة وخلقاً ، وتمدّح الربُّ تبارك وتعالى بانفراده بملكه فى آيات من كتابه كقوله (٣٥ : ٣) : ﴿ هل من خالق غير الله ؟ ﴾ ، (٣٥ : ٤٠) : ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطْمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير ﴾ وذكر آيات فى هذا المعنى .

ثم قال : فقوله فى الآيات كلها : ﴿ من دونه ﴾ أي من غيره ، فإنه عامٍ يدخل فيه من اعتقدته ، من وَلِيّ وشيطان تستمده ، فإن من لم يقدر على نصر نفسه كيف يُمِدُّ غيره ؟ إلى أن قال : إن هذا لقولٌ وخيم ، وشرك عظيم ، إلى أن قال : وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف فى الحياة . قال جل ذكره (٢٩ : ٣٠) : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ ، (٣٩ : ٤٢) : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾ ، (٣ : ١٨٥ ، ٢١ : ٣٥ ، ٢٩ : ٥٧) : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ ، (٧٤ : ٣٨) : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ ، وفى الحديث : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث - الحديث »[١] فجميع ذلك وما هو نحوه دال على انقطاع الحس والحركة من الميت ، وأن أرواحهم ممسكة ، وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان ، فدل ذلك على أنه ليس للميت تصرف فى ذاته فضلاً عن غيره ، فإذا عجز عن حركة نفسه ، فكيف يتصرف فى غيره ؟ فالله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده ، وهؤلاء الملحدون يقولون : إن الأرواح مطلقة متصرفة ، (٢ : ١٤٠) : ﴿قل أأنتم أعلم أم الله ؟ ﴾ .

قال : وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات ، فهو من المغالطة ، لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم به أولياءه ، لا قصد لهم فيه ولا تحدى ، ولا قدرة ولا علم ، كما فى قصة مريم بنت عمران ، وأُسيد بن حضير ، وأبى مسلم الخولانى .

قال : وأما قولهم فيستغاث بهم فى الشدائد ، فهذا أقبح مما قبله وأبدع لمصادمته قوله جل ذكره (٢٧ : ٦٢) : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ،

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة .

أإله مع الله ؟ ﴾ ، (٦ : ٦٣ ، ٦٤) : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البرّ والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين * قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾ ، وذكر آيات فى هذا المعنى ، ثم قال : فإنه - جل ذكره - قرر أنه الكاشف للضر لا غيره ، وأنه المتفرد بإجابة المضطرين ، وأنه المستغاث لذلك كله ، وأنه القادر على دفع الضر ، القادر على إيصال الخير . فهو المتفرد بذلك ، فإذا تعين هو - جل ذكره - خرج غيره من ملك ونبى وولى .

قال : والاستغاثة تجوز فى الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية فى قتال ، أو إدراك عدو أو سبع أو نحوه ، كقولهم : يا لزيد ، يا للمسلمين ، بحسب الأفعال الظاهرة . وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير ، أو فى الأمور المعنوية من الشدائد ، كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه : فمن خصائص الله ، لا يطلب فيها غيره .

قال : وأما كونهن معتقدين التأثير منهم فى قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجهال ، وينادونهم ويستنجدون بهم . فهذا من المنكرات . فمن اعتقد أن لغير الله من بنى أو ولى أو روح أو غير ذلك فى كشف كربة أو قضاء حاجة - تأثيراً : فقد وقع فى وادى جهل خطير ، فهو على شفا حفرة من السعير . وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات ، فحاش لله أن يكون أولياء الله بهذه المثابة ؛ فهذا ظن أهل الأوثان ، كذا أخبر الرحمن (١٠ : ١٨) : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ ، (٣٩ : ٣) : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ، (٣٦ : ٢٣) : ﴿ أأتخذ من دونه آلهة إن يُرِدْن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟ ﴾ فإن ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من نبى وولى وغيره على وجه الإمداد منه : إشراك مع الله ؛ إذ لا قادر على الدفع غيره ، ولا خير إلا خيره .

قال : وأما ما قالوا : إن منهم أبدالاً ونقباء ، وأوتاداً ونجباء ، وسبعين وسبعة وأربعين وأربعة ، والقطب : هو الغوث للناس : فهذا من موضوعات إفكهم ، كما ذكره القاضى المحدث فى سراج المريدين ، وابن الجوزى ، وابن تيمية . انتهى باختصار .

والمقصود : أن أهل العلم ما زالوا ينكرون هذه الأمور الشركية التى عمت بها البلوى واعتقدها أهل الأهواء ، فلو تتبعنا كلام العلماء المنكرين لهذه الأمور الشركية لطال الكتاب ، والبصير النبيل يدرك الحق من أول دليل ، ومن قال قولاً بلا برهان فقوله : ظاهر البطلان ؛ مخالف ما عليه أهل الحق والإيمان، المتمسكون بمحكم القرآن، المستجيبون لداعى الحق والإيمان. والله المستعان ، وعليه التكلان .

وقول الله تعالى (١٠ : ١٠٦ ، ١٠٧) : ﴿ ولا تدْعُ من دون الله ما لا ينفعُك ولا يضرك ، فإن فعلتَ فإنك إذاً من الظالمين وإن يمسسك الله بضر ، فلا كاشف له إلا هو وإن يُرِدْكَ بخير فلا رادّ لفضله

قال : (وقوله تعالى (١٠ : ١٠٦) : ﴿ ولا تدعُ من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت ، فإنك إذاً من الظالمين ﴾ .

قال ابن عطية : معناه : قيل لى : « ولا تدع » فهو عطف على « أقم » وهذا الأمر والمخاطبة للنبى ﷺ ، إذا كانت هكذا فأحرى أن يحذر من ذلك غيره ، والخطاب خرج مخرج الخصوص ، وهو عام للأمة .

قال أبو جعفر بن جرير فى هذه الآية : يقول تعالى ذكره : ولا تدع يا محمد من دون معبودك وخالقك شيئاً لا ينفعك فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا يضرك فى دين ولا دنيا ، يعنى بذلك : الآلهة والأصنام ، يقول : لا تعبدها راجياً نفعها أو خائفاً ضرها ؛ فإنها لا تنفع ولا تضر ، فإن فعلت ذلك فدعوتها من دون الله ، ﴿ فإنك إذاً من الظالمين ﴾ يقول من المشركين بالله الظالم لنفسه [(١)] .

قلت : وهذه الآية لها نظائر كقوله (٢٦ : ٢١٣) : ﴿ فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين ﴾ ، وقوله (٢٨ : ٨٨) : ﴿ ولا تدع مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو ﴾ ففى هذه الآيات بيان أن كل مدعو يكون إلهاً ، والإلهية حق لله لا يصلح منها شىء لغيره ، ولهذا قال : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ كما قال تعالى (٢٢ : ٦٢) : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلىُّ الكبير ﴾ وهذا هو التوحيد الذى بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، كما قال تعالى (٩٨ : ٥) : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ والدين : كل ما يُدان الله به من العبادات الظاهرة والباطنة . وفسره ابن جرير فى تفسيره بالدعاء ، وهو فرد من أفراد العبادة ، على عادة السلف فى التفسير ، يفسرون الآية ببعض أفراد معناها ، فمن صرف منها شيئاً لقبر أو صنم أو وثن أو غير ذلك فقد اتخذه معبوداً وجعله شريكاً لله فى الإلهية التى لا يستحقها إلا هو ، كما قال تعالى (٢٣ : ١١٧): ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون ﴾ فتبين بهذه الآية ونحوها أن دعوة غير الله كفر وشرك وضلال .

وقوله (١٠ : ١٠٧) : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وأن يردك بخير فلا راد لفضله ﴾ . فإنه المنفرد بالملك والقهر ، والعطاء والمنع ، والضر والنفع ، دون كل

---

(١) فالظلم فى هذه الآية هو الشرك كما قال تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه ﴿ يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [٣١ : ١٣] ، بل هو أظلم الظلم كما فى الحديث عن ابن مسعود : « أظلم الظلم أن تجعل لله نداً وهو خلقك » لأنه اغتصاب حق الربوبية من العبادة والدعاء والنذر ونحوه ، وصرفه للعبد الذى لا يستحقه .

يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم ﴾ .

وقوله (٢٩ : ١٧) : ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ، فابتغوا عند الله الرزق ، واعبدوه واشكروا له ، إليه ترجعون ﴾ .

ما سواه ، فيلزم من ذلك أن يكون هو المدعو وحده ، المعبود وحده ؛ فإن العبادة لا تصلح إلا لمالك الضر والنفع ، ولا يملك ذلك ولا شيئاً منه غيره تعالى ؛ فهو المستحق للعبادة وحده ، دون من لا يضر ولا ينفع .

وقوله تعالى (٣٩ : ٣٨) : ﴿ قل : أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادنيَ الله بضرٍّ هل هنَّ كاشفات ضره ؟ أو أرادنيَ برحمة ؛ هل هنَّ ممسكات رحمته ؟ قل : حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ ، وقال (٣٥ : ٢) : ﴿ ما يَفتحِ الله للناس من رحمة فلا مُمْسكَ لها ، وما يمسك فلا مُرْسِلَ له من بعده ، وهو العزيز الحكيم ﴾ فهذا ما أخبرَ به الله تعالىَ فى كتابه من تفرده بالإلهية والربوبية ، ونصب الأدلة على ذلك ، فاعتقد عُبَّاد القبور والمشاهد نقيضَ ما أخبر به الله تعالى ، واتخذوهم شركاء لله فى استجلاب المنافع ودفع المكاره ، بسؤالهم والالتجاء إليهم بالرغبة والرهبة والتضرع ، وغير ذلك من العبادات التى لا يستحقها إلا الله تعالى ، واتخذوهم شركاء لله فى ربوبيته وإلهيته . وهذا فوق شرك كفار العرب القائلين : ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ، ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ فإن أولئك يدعونهم ليشفعوا لهم ويقربوهم إلى الله ، وكانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيك ؛ لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك

وأما هؤلاء المشركون فاعتقدوا فى أهل القبور والمشاهد ما هو أعظم من ذلك ، فجعلوا لهم نصيباً من التصرف والتدبير ، وجعلوهم معاذاً لهم وملاذاً فى الرغبات والرهبات : ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ .

وقوله : ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ أى : لمن تاب إليه .

قال : (وقوله تعالى : ﴿ فابتغوا عند الله الرزق ، واعبدوه واشكروا له ، إليه ترجعون ﴾ يأمر تعالى عباده بابتغاء الرزق عنده وحده دون ما سواه ممن لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ، فتقديم الظرف يفيد الاختصاص ، وقوله : ﴿ واعبدوه ﴾ من عطف العام على الخاص ؛ فإن ابتغاء الرزق عنده من العبادة التى أمر الله بها .

قال العماد ابن كثير - رحمه الله تعالى - : ﴿ فابتغوا ﴾ أي فاطلبوا ﴿ عند الله الرزق ﴾ أى لا عند غيره ، لأنه المالك له ، وغيره لا يملك شيئاً من ذلك ، ﴿ واعبدوه ﴾ أى أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له ، ﴿ واشكروا له ﴾ أى على ما أنعم عليكم ﴿ إليه ترجعون ﴾ أي يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله .

وقوله (٤٦ : ٥ ، ٦) : ﴿ ومَنْ أَضَلَّ ممن يدعو من دون الله مَن لا يستجيبُ له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حُشِرَ النَاسُ كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ .

قال : (وقوله (٤٦ ، ٥ ، ٦) : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾) .

نفى سبحانه أن يكون أحد أضلّ ممن يدعو غيره وأخبر أنه لا يستجيب له ما طَلب منه إلى يوم القيامة : والآية تعم كل من يُدْعَى من دون الله ، كما قال تعالى (١٧ : ٥٦) : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾ وفى هذه الآية أخبر أنه لا يستجيب ، وأنه غافل عن داعيه ، ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ فتناولت الآية كل داع وكل مدعو من دون الله [1] .

قال أبو جعفر بن جرير فى قوله : ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ﴾ يقول تعالى ذكره وإذا جُمع الناس ليوم القيامة فى موقف الحساب كانت هذه الآلهة التى يدعونها فى الدنيا لهم أعداء ، لأنهم يتبرأون منهم ، ﴿ وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ يقول تعالى ذكره : وكانت

---

(١) فى قرة العيون : وأخبر أن المدعو لا يستجيب لما طلب منه من ميت أو غائب ، أو ممن لا يقدر على الاستجابة مطلقاً من طاغوت ووثن ، فليس لمن دعا غير الله إلا الخيبة والخسران ، ثم قال تعالى : ﴿ وهم عن دعائهم غافلون ﴾ كما قال فى آية يونس : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم ، فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ماكنتم إياناً تعبدون * فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ [١٠ : ٢٨ ، ٢٩] ، ثم قال : ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءاً وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ [٤٦ : ٦] فلا يحصل للمشرك يوم القيامة إلا نقيض قصده ، فيتبرأ منه ومن عبادته وينكر ذلك عليه أشد الإنكار ، وقد صار المدعو للداعى عدواً ، ثم أخبر تعالى أن ذلك الدعاء عبادة بقوله : ﴿ وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ فدلت أيضاً على أن دعاء غير الله عبادة له وأن الداعى له فى غاية الضلال .

وقد وقع من هذا الشرك فى هذه الأمة ما عم وطم ، حتى أظهر الله من يبينه بعد أن كان مجهولاً عند الخاصة والعامة إلا من شاء الله تعالى ، وهو فى الكتاب والسنة فى غاية البيان ، لكن القلوب انصرفت إلى ما زين لها الشيطان ، كما جرى للأمم مع الأنبياء والمرسلين لما دعوهم إلى توحيد الله جرى لهم من شدة العداوة ما ذكر الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ [٥١ : ٥٣] ، ويشبه هذه الآية فى المعنى ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير ﴾ أخبر تعالى أن ذلك الدعاء شرك بالله وأنه لا يغفره لمن لقيه به ، فتدبر هذه الآيات وما فى معناها كقوله : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدًا ﴾ [٧٢ : ١٨] ، ﴿ قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً ﴾ [٧٢ : ٢٠] ، وهو فى القرآن أكثر من أن يستقصى .

. . . .

الهتهم التى يعبدونها فى الدنيا بعبادتهم جاحدين ، لأنهم يقولون يوم القيامة : ما أمرناهم بعبادتنا ولا شعرنا بعبادتهم إيانا . تبرأنا إليك منهم يا ربنا ، كما قال تعالى (٢٥ : ١٧ ، ١٨) : ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول : أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء ؛ أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا : سبحانك ، ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً ﴾ .

قال ابن جرير : ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ﴾ من الملائكة والإنس والجن.[1] وساق بسنده عن مجاهد قال : عيسى وعزير والملائكة .

ثم قال : يقول تعالى ذكره [2] : قالت الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله وعيسى : تنزيهاً لك يا ربنا وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء المشركون : ﴿ ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ نواليهم ﴿ أنت ولينا من دونهم ﴾ انتهى .

قلت : وأكثر ما يستعمل الدعاء فى الكتاب والسنة واللغة ولسان الصحابة ومَن بعدهم من العلماء : فى السؤال والطلب ، كما قال العلماء من أهل اللغة وغيرهم : الصلاة لغة : الدعاء، وقد قال تعالى (٣٥ : ١٣ ، ١٤) : ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير - الآيتين ﴾ ، وقال (٦ : ٦٣) : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخُفية ﴾ ، وقال (١٠ : ١٢) : ﴿ وإذا مسَّ الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ﴾، وقال (٤١ : ٥١) : ﴿ وإذا مسّه الشرُّ فذو دُعاء عريض ﴾ ، وقال (٤١ : ٤٩) : ﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ﴾ - الآية ، وقال (٨ : ٩) : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ﴾ - الآية .

وفى حديث أنس مرفوعاً : « الدعاء مُخُّ العبادة » ، وفى الحديث الصحيح : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة » ، وفى آخر « من لم يسأل الله يغضب عليه » ، وحديث « ليس شىء أكرم على الله من الدعاء » رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه ، وقوله : « الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض » رواه الحاكم وصححه . وقوله : « سلوا الله كل شىء حتى الشِّسْع إذا انقطع - الحديث » . وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : « أفضل العبادة الدعاء » ، وقرأ (٤٠ : ٦٠) : ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم - الآية ﴾ » رواه ابن المنذر والحاكم وصححه . وحديث : « اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان - الحديث » ، وحديث : « اللهم إنى أسألك بأنك أنت

---

(١) سياق ابن جرير هكذا ، يقول تعالى ذكره : ويوم نحشر هؤلاء المكذبين بالساعة العابدين الأوثان وما يعبدون من دون الله من الملائكة والإنس والجن .

(٢) أى عند تفسير قوله تعالى : ﴿ قالوا سبحانك ﴾ إلى قوله : ﴿ وكانوا قوماً بوراً ﴾ .

الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » ، وأمثال هذا فى الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر فى الدعاء الذي هو السؤال والطلب ، فمن جحد كون السؤال والطلب عبادة فقد صادم النصوص وخالف اللغة واستعمال الأمة سلفاً وخلفاً .

وأما ما تقدم من كلام شيخ الإسلام ، وتبعه العلامة ابن القيم - رحمهما الله تعالى - من أن الدعاء نوعان : دعاء مسألة ، ودعاء عبادة . وما ذكر بينهما من التلازم وتضمن أحدهما للآخر فذلك باعتبار كون الذاكر والتالى والمصلى والمتقرب بالنسك وغيره طالباً فى المعنى . فيدخل فى مسمى الدعاء بهذا الاعتبار ، وقد شرع الله تعالى فى الصلاة الشرعية من دعاء المسألة ما لا تصح الصلاة إلا به ؛ كما فى الفاتحة وبين السجدتين وفى التشهد ، وذلك عبادة كالركوع والسجود ، فتدبر هذا المقام يتبين لك جهل الجاهلين بالتوحيد .

ومما يبين هذا المقام ويزيده إيضاحاً : قول العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - فى قوله تعالى (١٧ : ١١٠) : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾: وهذا الدعاء المشهور أنه دعاء المسألة ، قالوا : كان النبى ﷺ يدعو ربه ويقول مرة : « يا الله » ومرة : « يا رحمن » ، فظن المشركون أنه يدعو إلهين ، فأنزل الله هذه الآية ، ذكر هذا عن ابن عباس - رضى الله عنهما - . وقيل : إن الدعاء هنا بمعنى التسمية ، والمعنى : أىّ اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى ، إما « الله » وإما « الرحمن » ، فله الأسماء الحسنى . وهذا من لوازم المعنى فى الآية ، وليس هو عين المراد ، بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد فى القرآن وهو دعاء السؤال ، ودعاء الثناء .

ثم قال : إذا عرف هذا فقوله : ﴿ ادْعُوا ربكم تضرعاً وخُفية ﴾ يتناول نوعى الدعاء ، لكنه ظاهر فى دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة ، ولهذا أمر بإخفائه . قال الحسن : « بين دعاء السر ودعاء العلانية سبعون ضعفاً ، ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء ، ولم يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم » ، وقوله تعالى (٢ : ١٨٦) : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ يتناول نوعى الدعاء ، وبكل منهما فسرت الآية . قيل : أعطيه إذا سألنى ، وقيل : أثيبه إذا عبدنى ، وليس هذا من استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه ، بل هذا استعماله فى حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً . وهذا يأتى فى مسألة الصلاة ، وأنها نقلت عن مسماها فى اللغة وصارت حقيقة شرعية ، واستعملت فى هذه العبادة مجازاً للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوى ، وهى باقية على الوضع اللغوى ، وضم إليها أركان وشرائط ، فعلى ما قررناه : لا حاجة إلى شىء من ذلك ، فإن المصلى من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك عن دعاء : إما دعاء عبادة وثناء ، أو دعاء طلب ومسألة ، وهو فى الحالين داع . اهـ ملخصاً من البدائع .

وقوله (٢٧ : ٦٢) : ﴿ أَمَّنْ يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ ﴾ .

وروى الطبرانى بإسناده : « أنه كان فى زمن النبى ﷺ منافق يؤذى المؤمنين ، فقال

قال : (وقوله (٢٧ : ٦٢) : ﴿ أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلاً ما تذكرون ﴾ بين تعالى أن المشركين من العرب ونحوهم قد علموا أنه لا يجيب المضطر ويكشف السوء إلا الله وحده[1] فذكر ذلك سبحانه محتجاً عليهم فى اتخاذهم الشفعاء من دونه ، ولهذا قال : ﴿ أإله مع الله ؟ ﴾ يعنى يفعل ذلك ، فإذا كانت آلهتهم لا تجيبهم فى حال الاضطرار ، فلا يصلح أن يجعلوها شركاء لله الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وحده . وهذا أصح ما فسرت به الآية كسابقتها من قوله : ﴿أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون ، أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ولاحقتها إلى قوله : ﴿ أمّنْ يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟ ومن يرسل الرياح بُشراً بين يدى رحمته، أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون ، أمّن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ .

فتأمل هذه الآيات يتبين لك أن الله تعالى احتج على المشركين بما أقروا به على ما جحدوه : من قَصْر العبادة جميعها عليه ، كما فى فاتحة الكتاب : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ .

قال أبو جعفر بن جرير : قوله : ﴿ أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾ إلى قوله ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ يقول تعالى ذكره : أم ما تشركون بالله خير ، أم الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء النازل به عنه ؟ وقوله : ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ يقول : يستخلف بعد أمواتكم فى الأرض منكم خلفاء أحياء يخلفونهم ، وقوله : ﴿ أإله مع الله ﴾ أإله سواه يفعل هذه الأشياء بكم وينعم عليكم هذه النعم ؟ وقوله : ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ يقول : تذكراً قليلاً من عظمة الله وأياديه عندكم تذكرون ، وتعتبرون حجج الله عليكم يسيراً ، فلذلك أشركتم بالله غيره فى عبادته . اهـ .

قوله : (وروى الطبرانى بإسناده : « أنه كان فى زمن النبى ﷺ منافق يؤذى المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ : إنه لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث بالله ») .

---

(١) فى قرة العيون : وهذا مما أقر به مشركو العرب وغيرهم فى جاهليتهم كما قال تعالى : ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ [٣٠ : ٦٥] أخبر تعالى أنهم يخلصون الدعاء له إذا وقعوا فى شدة .

بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ : إنه لا يُستغاث بى ، وإنما يُستغاث بالله » .

« الطبرانى » : هو الإمام الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمى الطبرانى ، صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها . روى عن النسائى وإسحاق بن إبراهيم الدبرى وخلق كثير . مات سنة ستين وثلاثمائة . روى هذا الحديث عن عُبادة بن الصامت رضى الله عنه .

قوله : (أنه كان فى زمن النبى ﷺ منافق يؤذى المؤمنين) لم أقف على اسم هذا المنافق .

قلت : هو عبد الله بن أُبىّ كما صرح به ابن أبى حاتم فى روايته .

قوله : (فقال بعضهم) أى الصحابة - رضى الله عنهم - ، هو أبو بكر رضى الله عنه .

قوله : (قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق) لأنه ﷺ يقدر على كف أذاه(١) .

قوله : (إنه لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث بالله) فيه : النص على أنه لا يستغاث بالنبى ﷺ ولا بمن دونه ، كره ﷺ أن يستعمل هذا اللفظ فى حقه ، وإن كان مما يقدر عليه فى حياته حماية لجناب التوحيد ، وسداً لذرائع الشرك وأدباً وتواضعاً لربه ، وتحذيراً للأمة من وسائل الشرك فى الأقوال والأفعال ، فإذا كان هذا فيما يقدر عليه ﷺ فى حياته ، فكيف يجوز أن يستغاث به بعد وفاته ، ويطلب منه أمور لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ؟ كما جرى على ألسنة كثير من الشعراء كالبوصيرى (٢) والبرعى وغيرهم ، من الاستغاثة بمن لا يملك لنفسه ضراً ولا

---

(١) فى قرة العيون : فلعله أراد أن النبى ﷺ كان يترك المنافقين أن يفعل بهم ما يستحقونه مخافة أن يفتتن بعض المؤمنين من قبيلة المنافق ، وفى السنة ما يدل على ذلك ، كما فعل مع ابن أُبىّ وغيره ، وقيل : إن النبى ﷺ كان يقدر أن يغيثهم من ذلك المنافق فيكون نهيه ﷺ عن الاستغاثة به حماية لجناب التوحيد ، وسداً لذرائع الشرك ، كنظائره مما للمستغاث به قدرة عليه مما كان يستعمل لغة وشرعاً مخافة أن يقع من أمته استغاثة بمن لا يضر ولا ينفع ولا يسمع ولا يستجيب من الأموات والغائبين ، والطواغيت والشياطين والأصنام وغير ذلك . وقد وقع من هذا الشرك العظيم ما عمت به البلوى كما تقدم ذكره حتى أنهم أشركوهم مع الله فى ربوبيته وتدبير أمر خلقه ، كما أشركوهم معه فى ألوهيته وعبوديته ، والوسائل لها حكم الغايات فى النهى عنها ، والله أعلم .

(٢) مثل قوله فى البردة :

يا أكرم الخلق ما لى من ألوذ به   سواك عند حدوث الحادث العمم

ويزعمون أن البوصيرى أعظم من مدح النبى ﷺ ويذكرونه أكثر مما يذكرون حسان بن ثابت وغيره من الصحابة رضى الله عنهم ، لأنهم فى زعمهم لم يبلغوا من الغلو والإطراء ما بلغ البوصيرى . وهذا هو الغلو الذى جرَّ إلى الشرك والكفر برسول الله ﷺ كما كفرت النصارى بعيسى ابن مريم عليه السلام من طريق الغلو . وقد حذرنا الله منه فى كتابه الكريم بقوله : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ [٤ : ١٧١] وحذرنا النبى ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فأنا عبد الله ورسوله » ، وإنما تعظيمه ﷺ وحبه باتباع سنته وإقامة ملته ودفع كل ما يلصقه الجاهلون بها من الخرافات . فقد ترك أكثر الناس هذا وشغلوا بهذا الغلو والإطراء الذى أوقعهم فى هذا الشرك العظيم . =

فيه مسائل :

الأولى : أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العامّ على الخاص .

الثانية : تفسير قوله : ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴾ .

الثالثة : أن هذا هو الشرك الأكبر .

الرابعة : أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين .

الخامسة : تفسير الآية التى بعدها .

السادسة : كون ذلك لا ينفع فى الدنيا ، مع كونه كفراً .

السابعة : تفسير الآية الثالثة (١) .

الثامنة : أن طلبَ الرزق لا ينبغى إلا من الله ، كما أن الجنة لا تُطلب إلا منه .

التاسعة : تفسير الآية الرابعة .

العاشرة : أنه لا أضل ممن دعا غير الله .

نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ويعرضون عن الاستغاثة بالرب العظيم القادر على كل شىء ، الذى له الخلق والأمر وحده ، وله الملك وحده ، لا إله غيره ، ولا رب سواه . قال تعالى (٧ : ١٨٨) : ﴿ قل : لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ﴾ فى مواضع من القرآن (٢) : (٧٢ : ٢١) : ﴿ قل : إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ﴾ فأعرض هؤلاء عن القرآن ، واعتقدوا نقيض ما دلت عليه هذه الآيات المحكمات ، وتبعهم على ذلك الضلال الخلق الكثير والجم الغفير . فاعتقدوا الشرك بالله ديناً ، والهدى ضلالاً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فما أعظمها من مصيبة عمت بها البلوى ، فعاندوا أهل التوحيد ، وبدعوا أهل التجريد ؛ فالله المستعان .

= ونحمد الله أن عافانا بفضله وجعلنا مؤمنين برسول الله ﷺ معظمين له ومحبين بما يحبه الله ورسوله لنا على مثل ما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان . وقد عظمت المصيبة بهذا الشرك حتى اتخذ أعداء الرسول ﷺ -الزاعمون جهلاً وكذباً حبه - هذه البردة ورداً كالقرآن وأعظم من القرآن ، وكتبوها مجودة بماء الذهب كما كتبوا القرآن ، وربما اشتدت عنايتهم بها أكثر من القرآن . فلا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) يعنى ﴿ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ .

(٢) يعنى : ﴿ أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ فبالجمع بين الآيتين يظهر أنه لا يقدر أحد من المدعوين أن يجيب الداعى إلا الله .

الحادية عشرة : أنه غافل عن دعاء الداعى ، لا يدرى عنه [1] .

الثانية عشرة : أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعى وعداوته له .

الثالثة عشرة : تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو .

الرابعة عشرة : كفر المدعو بتلك العبادة .

الخامسة عشرة : هى سبب كونه أضل الناس .

السادسة عشرة : تفسير الآية الخامسة [2] .

السابعة عشرة : الأمر العجيب ، وهو إقرار عبَدة الأوثان : أنه لا يجيب المضطر إلا الله ، ولأجل هذا يدعونه فى الشدائد مخلصين له الدين .

الثامنة عشرة : حماية المصطفى ﷺ حِمى التوحيد ، والتأدب مع الله .

❊ ❊ ❊

باب

قول الله تعالى (٧ : ١١٩ ، ١٢٠) : ﴿ أيُشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون؟ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴾ .

قوله : (باب)

قول الله تعالى (٧ : ١١٩ ، ١٢٠) : ﴿ أيشركون ما لا يَخلق شيئاً وهم يُخلقون ؟ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴾) [3] .

قوله : ﴿ أيشركون ﴾ أى فى العبادة . قال المفسرون : فى هذه الآية توبيخ وتعنيف

---

(١) يعنى أن المدعو غافل عن دعاء الداعى مما هو مشغول به فى قبره من نعيم ، إن كان من المؤمنين الصالحين ، كالحسين وأبيه رضى الله عنهما ، أو من عذاب أليم ، كالتيجانى المشرك الخبيث وابن عربى الحاتمى أكبر الدعاة إلى وحدة الوجود ، وابن الفارض وأشباههم ممن اتخذه الناس ولياً معبوداً لعظم ما بنى عليه من القبة ، أو بالظنون واتباع الأهواء ، وهم كثير جداً بل أكثر أولئك الطواغيت منهم ، ومن أرباب الطرق الدجالين .

(٢) يعنى ﴿ قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ﴾ [١٠ : ٤٩] .

(٣) فى قرة العيون : وهذا مما احتج به تعالى على المشركين لما وقع منهم من اتخاذ الشفعاء فى العبادة لأنهم مخلوقون فلا يصلح أن يكونوا شركاء لمن هم خلقه وعبيده . وأخبر أنهم مع ذلك لا يستطيعون لهم نصراً ، أى لمن سألهم النصرة ﴿ ولا أنفسهم ينصرون ﴾ فإذا كان المدعو لا يقدر على أن ينصر نفسه فلأن لا ينصر غيره من باب الأولى . فبطل تعلق المشرك بغير الله بهذين الدليلين العظيمين ، وهو كونهم عبيداً لمن خلقهم لعبادته والعبد لا يكون معبوداً .

الدليل الثانى : أنه لا قدرة لهم على نفع أنفسهم فكيف يرجى منهم أن ينفعوا غيرهم .

فتدبر هذه الآية وأمثالها فى القرآن العظيم .

وقوله (٣٥ : ١٣) : ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويومَ القيامةِ يكفرون

للمشركين فى عبادتهم مع الله تعالى ما لا يخلق شيئاً وهو مخلوق ، والمخلوق لا يكون شريكاً للخالق فى العبادة التى خلقهم لها ، وبيّن أنهم لا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون، فكيف يشركون به من لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه ؟ وهذا برهان ظاهر على بطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله ، وهذا وصف كل مخلوق ، حتى الملائكة والأنبياء والصالحين ، وأشرف الخلق محمد ﷺ قد كان يستنصر ربه على المشركين ويقول : « اللهم أنت عضدى ونصيرى ، بك أحُول ، وبك أصول ، وبك أُقاتل » ، وهذا كقوله (٢٥ : ٣) : ﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ ، وقوله (٧ : ١٨٨) : ﴿ قل : لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ ، وقوله (٧٢ : ٢١ - ٢٣) : ﴿ قل : إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشداً * قل : إنى لن يُجيرنى من الله أحد ، ولن أجد من دونه مُلتحَداً * إلا بلاغاً من الله ورسالاته ﴾ .

فكفى بهذه الآيات برهاناً على بطلان دعوة غير الله كائناً من كان ، فإن كان نبياً أو صالحاً فقد شرفه الله تعالى بإخلاص العبادة له ، والرضاء به رباً ومعبوداً ، فكيف يجوز أن يجعل العابد معبوداً مع توجيه الخطاب إليه بالنهى عن هذا الشرك ؟ كما قال تعالى (٢٨ : ٨٨) : ﴿ ولا تدع مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو ، كل شىء هالك إلا وجهه * له الحكم وإليه ترجعون ﴾ ، وقال (١٢ : ٤٠) : ﴿ إنِ الحكم إلا لله ؛ أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ فقد أمر عباده من الأنبياء والصالحين وغيرهم بإخلاص العبادة له وحده ؛ ونهاهم أن يعبدوا معه غيره ، وهذا هو دينه الذى بعث به رسله ، وأنزل به كتبه ، ورضيه لعباده ، وهو دين الإسلام ، كما روى البخارى عن أبى هريرة فى سؤال جبريل - عليه السلام - ، قال : « يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان - الحديث » .

(وقول الله تعالى (٣٥ : ١٣) : ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير ﴾ [1] يخبر تعالى عن حال المدعوين من دونه من الملائكة والأنبياء

---

(١) فى قرة العيون : يخبر الخبير أن الملك له وحده والملوك وجميع الخلق تحت تصرفه وتدبيره ، ولهذا قال : ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ فإن من كانت هذه صفته فلا يجوز أن يرغب فى طلب نفع أو =

بِشركِكم ، ولا يُنَبِّئك مثلُ خبير ﴾ .

والأصنام وغيرها بما يدل على عجزهم وضعفهم ، وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التى تكون فى المدعو، وهى الملك ، وسماع الدعاء ، والقدرة على استجابته ، فمتى لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوته ، فكيف إذا عُدمت بالكلية ؟ فنفى عنهم الملك بقوله : ﴿ ما يملكون من قطمير ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ، وعطاء والحسن وقتادة : « القطمير : اللفافة التى تكون على نواة التمر ﴾ ، كما قال تعالى (١٦ : ٧٣) : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون ﴾ ، وقال (٣٤ : ٢٢ ، ٢٣) : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ ، ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله : ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ﴾ لأنهم ما بين ميت وغائب عنهم ، مشتغل بما خلق له ، مسخر بما أمر به كالملائكة ، ثم قال : ﴿ ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ لأن ذلك ليس لهم ؛ فإن الله تعالى لم يأذن لأحد من عباده فى دعاء أحد منهم ، لا استقلالاً ولا واسطة ، كما تقدم بعض أدلة ذلك ، وقوله : ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ فتبين بهذا أن دعوة غير الله شرك [1] . وقال تعالى (١٩ : ٨١ ، ٨٢) : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ قال ابن كثير : يتبرأون منكم ، كما قال تعالى (٤٦ : ٥ ، ٦): ﴿ومن أضلُّ ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ .

قال : وقوله : ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ أى ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها . قال قتادة : يعنى نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

قلت : والمشركون لم يسلموا للعليم الخبير ما أخبر به عن معبوداتهم ؛ فقالوا : تملك وتسمع وتستجيب وتشفع لمن دعاها [2] ، ولم يلتفتوا إلى ما أخبر به الخبير من أن كل معبود

= دفع ضرّ إلى أحد سواه تعالى وتقدس ، بل يجب إخلاص الدعاء له ، الذى هو من أعظم أنواع العبادة ، وأخبر تعالى أن ما يدعوه أهل الشرك لا يملك شيئاً وأنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم ، ولو فرض أنهم يسمعون فلا يستجيبون لداعيهم وإنهم يوم القيامة يكفرون بشركهم ، أى ينكرونه ويتبرأون ممن فعله معهم ، ذلك الدعاء شرك به، وأنه لا يغفره لمن لقيه به ، فأهل الشرك ما صدقوا الخبير ولا أطاعوه فيما حكم به وشرع ، بل قالوا : إن الميت يسمع ، ومع سماعه ينفع ، فتركوا الإسلام والإيمان رأساً كما ترى عليه الأكثرين من جهلة هذه الأمة .

(١) وتبين أنهم كانوا يدعون عباداً صالحين يتبرأون من الشرك هو دعاء غير الله ويتبرأون من أولئك المشركين الزاعمين حب أولئك الصالحين وأنهم محسوبون عليهم .

(٢) يعنى قالوا ذلك بلسان حالهم ؛ لأنهم أصُّروا على دعائهم والاستغاثة بهم بعد أن وبخهم الله بأن الذى =

يعادى عابده يوم القيامة ويتبرأ منه ، كما قال تعالى (١٠ : ٢٨ - ٣٠) : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : مكانَكم أنتم وشركاؤكم فَزَيَّلْنَا بينهم ، وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون * فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين * هنالك تَبْلُو كلُّ نفس ما أسلفت : ورُدُّوا إلى الله مولاهم الحقِّ : وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ .

أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : قال مجاهد : ﴿ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ قال: يقول ذلك كل شىء كان يعبد من دون الله .

فالكيِّس يستقبل هذه الآيات التى هى الحجة والنور والبرهان والإيمان والقبول والعمل فيجرد أعماله لله وحده دون كل ما سواه ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفعاً ، فضلاً عن غيره .

قوله : (وفى الصحيح عن أنس - رضى الله عنه - قال : « شُجَّ النبى ﷺ يوم أُحُد وكُسرت رَباعيته ، فقال : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟ فنزلت (٣ : ١٢٨) : ﴿ ليس لكَ من الأمر شىء ﴾) .

قوله : (فى الصحيح) أى الصحيحين ، علقه البخارى ، قال : وقال حميد وثابت عن أنس ، ووصله أحمد والترمذى والنسائى عن حميد عن أنس ، ووصله مسلم عن ثابت عن أنس ، وقال ابن إسحاق فى المغازى : حدثنا حميد الطويل عن أنس قال : « كسرت رباعية النبى ﷺ يوم أُحُد ، وشج وجهه ، فجعل الدم يسيل على وجهه ، وجعل يمسح الدم وهو يقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ » فأنزل الله الآية .

قوله : (شج النبى ﷺ) قال أبو السعادات : الشج فى الرأس خاصة فى الأصل ، وهو أن يضربه بشىء فيجرحه فيه ويشقه ، ثم استعمل فى غيره من الأعضاء ، وذكر ابن هشام من حديث أبى سعيد الخدرى أن عُتْبة بن أبى وَقَّاص هو الذى كسر رباعية النبى ﷺ السفلى وجرح شفته العليا [١] ، وأن عبد الله بن شهاب الزهرى هو الذى شَجّه فى وجهه ، وأن عبد الله بن قمِئة جرحه فى وَجْنته ، فدخلت حلقتان من حِلَق الْمِغْفَر فى وجنته [٢] ، وأن مالك بن سنان مصّ الدم من وجه رسول الله ﷺ وازدرده ، فقال له : « لن تمسك النار » .

= يستغاث به ويدعى لا بد أن يكون سميعاً بصيراً بيده الخير . والذى يدل على أنهم لم يكونوا يقولون ذلك بصريح القول : ما حكى الله من جواب قوم إبراهيم وأبيه لما سألهم ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون؟ أو ينفعونكم أو يضرون؟﴾ فإنهم أعرضوا عن الجواب الصريح على السؤال وقالوا : ﴿ بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ فجوابهم هذه حيدة عن الجواب المطابق للسؤال .

(١) روى ابن إسحاق من حديث سعد بن أبى وقاص قال : « فما حرصت على قتل رجل قط حرصى على قتل أخى عتبة لما صنع برسول الله ﷺ يوم أحد » .

(٢) فى الطبرانى من حديث أبى أمامة قال : « رمى عبد الله بن قمئة رسول الله ﷺ يوم أحد فشج وجهه =

يوم أُحُد ، وكُسرت رَباعيته ، فقال : كيف يُفلح قوم شجّوا نبيهم ؟ فنزلت (٣ : ١٢٨) ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ » .

قال القرطبى : والرباعية - بفتح الراء وتخفيف الياء - وهى كل سن بعد ثنية .

قال النووى رحمه الله : وللإنسان أربع رباعيات .

قال الحافظ : والمراد : أنها كسرت ، فذهب منها فلقة ، ولم تقلع من أصلها .

قال النووى : وفى هذا : وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ؛ لينالوا بذلك جزيل الأجر والثواب . ولتعرف الأمم ما أصابهم ويأتسوا بهم .

قال القاضى : وليعلم أنهم من البشر تصيبهم محن الدنيا ، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر ، ليتيقن أنهم مخلوقون مربوبون ، ولا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات ، ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصارى ، وغيرهم . انتهى .

قلت : يعنى من الغلو والعبادة .

قوله : (يوم أحد) هو شرقى المدينة . قال ﷺ : « أُحد جبل يحبنا ونحبه » [(١)] ، وهو جبل معروف كانت عنده الواقعة المشهورة ، فأضيفت إليه .

قوله : (كيف يفلح قوم شجّوا نبيهم) زاد مسلم : « كسروا رباعيته وأدموا وجهه » .

قوله : (فأنزل الله : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾) [(٢)] قال ابن عطية : كأن النبى ﷺ لَحقَه فى تلك الحال يأس من فلاح كفار قريش ؛ فقيل له بسبب ذلك : ﴿ ليس لك من الأمر شيء﴾ أى : عواقب الأمور بيد الله ، فَامْضِ أنت لشأنك ، وَدُمْ على الدعاء لربك .

وقال ابن إسحاق : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ فى عبادى إلا ما أمرتك به فيهم .

= وكسرت رباعيته فقال : خذها وأنا ابن قمئة ، فقال رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه : ما لك أقمأك الله ، فسلط الله عليه تيس جبل ، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة » .

(١) رواه البخارى فى الصحيح عن أنس .

(٢) فى قرة العيون : وقد قال تعالى : ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ ، والآيات فى هذا المعنى كثيرة ، والمقصود أن الذى له الأمر كله والملك كله لا يستحق غيره شيئاً من العبادة ، ولهذا المعنى قال لنبيه ﷺ : ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾ فالذى ليس له من الأمر شيء وهو خيرة الله من خلقه ما زال يدعو الناس أن يخلصوا العبادة للذى له الأمر كله وهو الله تعالى ، فهذا دينه ﷺ الذى بعث به وأمر أن يبلغه أمته ويدعوهم إليه ، كما تقدم فى باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، فإياك أن تتبع سبيلاً غير سبيل المؤمنين الذى شرعه الله ورسوله لهم وخصهم به .

وفيه عن ابن عمر - رضى الله عنهما - : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول - إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر - : « اللهم العنْ فلاناً وفلاناً ، بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ، فأنزل الله : ﴿ ليس لك من الأمر شيء﴾ - الآية » .

قوله : (وفيه عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول - إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر - : « اللهم العن فلاناً وفلاناً » بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ، فأنزل الله : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ » .

وفى رواية : « يدعو على صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام» فنزلت: ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾) .

قوله : (وفيه) أى : فى صحيح البخارى . ورواه النسائى .

قوله : (عن ابن عمر) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب ، صحابى جليل ، شهد له رسول الله ﷺ بالصلاح . مات سنة ثلاث وسبعين فى آخرها ، أو فى أول التى تليها .

قوله : (أنه سمع رسول الله) هذا القنوت على هؤلاء بعد ما شج وكسرت رباعيته يوم أحد

قوله : (اللهم العن فلاناً وفلاناً) قال أبو السعادات : أصل اللعن : الطرد والإبعاد من الله ومن الخلق السب والدعاء ، وتقدم كلام شيخ الإسلام رحمه الله .

قوله : (فلاناً وفلاناً) يعنى صفوان بن أُمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام ، كما بيَّنه فى الرواية الآتية .

وفيه : جواز الدعاء على المشركين بأعيانهم فى الصلاة ، وأن ذلك لا يضر فى الصلاة .

قوله : (بعد ما يقول : سمع الله لمن حمده) قال أبو السعادات : أى أجاب الله حمده وتقبله . وقال السهيلى : مفعول « سمع » محذوف ؛ لأن السمع متعلق بالأقوال والأصوات دون غيرها ، فاللام تؤذن بمعنى زائد وهو الاستجابة للسمع ، فاجتمع فى الكلمة الإيجاز والدلالة على الزائد ، وهو الاستجابة لمن حمده .

وقال ابن القيم - رحمه الله - ما معناه : عدّى « سمع الله لمن حمده » باللام المتضمنة معنى استجاب له . ولا حذف هناك ، وإنما هو مضمن .

قوله : (ربنا ولك الحمد) فى بعض روايات البخارى بإسقاط الواو . قال ابن دقيق العيد : كأن إثباتها دال على معنى زائد ؛ لأنه يكون التقدير : ربنا استجب ولك الحمد . فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر .

قال شيخ الإسلام : والحمد ضد الذم ، والحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له . كما أن الذم يكون على مساويه مع البغض له .

وفى رواية : « يدعو على صَفوان بن أُمية وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هِشام فنزلت : ﴿ ليس لك من الأمر شىء ﴾ » .

وفيه عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : « قام رسول الله ﷺ حين أُنزل عليه :

وكذا قال ابن القيم : وفرق بينه وبين المدح بأن الإخبار عن محاسن الغير : إما أن يكون إخباراً مجرداً عن حب وإرادة ، أو يكون مقروناً بحبه وإرادته ، فإن كان الأول فهو المدح ؛ وإن كان الثانى فهو الحمد . فالحمد : إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه . ولهذا كان خبراً يتضمن الإنشاء ، بخلاف المدح ؛ فإنه خبر مجرد . فالقائل إذا قال : « الحمد لله » ، أو قال : « ربنا ولك الحمد » تضمن كلامه الخبر عن كل ما يحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الجملة المحققة والمقدرة ، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى ، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا تنبغى إلا لمن هذا شأنه ، وهو الحميد المجيد .

وفيه : التصريح بأن الإمام يجمع بين التسميع والتحميد ، وهو قول الشافعى وأحمد وخالف فى ذلك مالك وأبو حنيفة ، وقالا : يقتصر على « سمع الله لمن حمده » .

قوله : (وفى رواية يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام) .

وذلك لأنهم رءوس المشركين يوم أُحد ، هم وأبو سفيان بن حرب ، فما استجيب له ﷺ فيهم ، بل أنزل الله : ﴿ ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم ﴾ فتاب عليهم فأسلموا وحسن إسلامهم . وفى هذا كله : معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، الذى له الأمر كله، يهدى من يشاء بفضله ورحمته ، ويضل من يشاء بعدله وحكمته .

وفى هذا من الحجج والبراهين ما يبين بطلان ما يعتقده عبّاد القبور فى الأولياء والصالحين بل فى الطواغيت من أنهم ينفعون من دعاهم ، ويمنعون من لاذ بحماهم . فسبحان من حال بينهم وبين فهم الكتاب . وذلك عدله سبحانه، وهو الذى يحول بين المرء وقلبه، وبه الحول والقوة.

قوله : (وفيه عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : « قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه (٢٦ : ٢١٤) : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قال : يا معشر قريش – أو كلمة نحوها – اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بنَ عبد المطلب ، لا أُغنى عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله ، لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت محمد، سلينى من مالى ما شئت ، لا أغنى عنك من الله شيئاً) .

قوله : (وفيه) : وفى صحيح البخارى .

قوله : (عن أبى هريرة) اختلف فى اسمه . وصحح النووى أن اسمه : عبد الرحمن بن صخر ، كما رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة قال : « كان اسمى فى الجاهلية عبد

﴿وأَنْذِرْ عَشيرتك الأقربين﴾ ، فقال : يا معشر قريش - أو كلمةً نحوها - اشتروا أنفسكم ، لا أُغنى عنكم من الله شيئاً .

شمس بن صخر ، فسميت فى الإسلام عبد الرحمن »، وروى الدُّولابى بإسناده عن أبى هريرة: « أن النبى ﷺ سماه عبد الله » وهو دَوْسِى ، من فضلاء الصحابة وحفاظهم ، حفظ عن النبى ﷺ أكثر مما حفظه غيره [1] ، مات سنة سبع أو ثمان ، أو تسع وخمسين ، وهو ابن ثمان وسبعين سنة .

قوله : (قام رسول الله ﷺ) فى الصحيح من رواية ابن عباس : « صعد رسول الله ﷺ على الصفا » .

قوله : (حين أنزل عليه : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ عشيرة الرجل : هم بنو أبيه الأدنون أو قبيلته ؛ لأنهم أحق الناس ببرِّك وإحسانك الدينى والدنيوى ، كما قال تعالى (٦٦: ٥) : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم نَاراً وَقُودُهَا الناس والحجارة ﴾ وقد أمره الله تعالى أيضاً بالنذارة العامة ، كما قال تعالى (٣٦ : ٦) : ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ ، (١٤ : ٤٤) : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ﴾ .

قوله : (يا معشر قريش) المعشر : الجماعة .

قوله : (أو كلمة نحوها) هو بنصب « كلمة » عطف على ما قبله .

قوله : (اشتروا أنفسكم) أى بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له وطاعته فيما أمر به والانتهاء عما نهى عنه . فإن ذلك هو الباب الذى ينجى من عذاب الله لا الاعتماد على الأنساب والأحساب ؛ فإن ذلك غير نافع عند رب الأرباب .

قوله : (لا أغنى عنكم من الله شيئاً) [2] فيه حجة على من تعلق على الأنبياء والصالحين،

---

(١) روى البخارى فى أول البيوع عن سعيد بن المسيَّب وأبى سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : « إنكم تقولون : إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ وتقولون : ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله ﷺ بمثل حديث أبى هريرة ؟ وإن إخوتى من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق . وكنت ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطنى ، فأشهد إذا غابوا ، وأحفظ إذا نسوا ، وكان يشغل إخوانى من الأنصار عمل أموالهم . وكنت امرأً مسكيناً من مساكين الصفة أعى حين ينسون ، وقد قال رسول الله ﷺ فى حديث يحدثه : إنه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضى مقالتى هذه ثم يجمع إليه ثوبه إلا وعى ما أقول . فبسطتُ نمرة علىَّ حتى إذا قضى رسول الله مقالته جمعتها إلى صدرى ، فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ تلك من شىء » .

(٢) فى قرة العيون : هذا هو معنى ما تقدم من أنه تعالى هو المتصرف فى خلقه بما شاء مما اقتضته حكمته فى خلقه وعلمه بهم ، والعبد لا يعلم إلا ما علمه الله ، ولا ينجو أحد من عذابه وعقابه إلا بإخلاص العبادة له وحده والبراءة من عبادة ما سواه . كما قال تعالى : ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ [٥ : ٧٢] النبى ﷺ فى هذا الحديث أنذر الأقربين نذارة خاصة وأخبر أنه لا يغنى عنهم من الله =

يا عباسَ بنَ عبد المطلب ، لا أُغنى عنك من الله شيئاً ، يا صفيةَ عمةَ رسول الله ﷺ لا أُغنى عنكِ من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنتَ محمد ، سلينى من مالى ما شئتِ ، لا أُغنى عنكِ من الله شيئاً » .

ورغب إليهم ليشفعوا له وينفعوه أو يدفعوا عنه ؛ فإن ذلك هو الشرك الذى حرمه الله تعالى ، وأقام نبيه ﷺ بالإنذار عنه ، كما أخبر تعالى عن المشركين فى قوله (٣٩ : ٣) : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ، (١٠ : ١٨) : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ فأبطل الله ذلك ونزَّه نفسه عن هذا الشرك ، وسيأتى تقرير هذا المقام إن شاء الله تعالى . وفى صحيح البخارى : « يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً » .

قوله : (يا عباس بن عبد المطلب) بنصب « ابن » ، ويجوز فى « عباس » الرفع والنصب، وكذا فى قوله : « يا صفية عمة رسول الله ، ويا فاطمة بنت محمد » .

قوله : (سلينى من مالى ما شئت) [1] ، بَيَّن رسول الله ﷺ أنه لا ينجى من عذاب الله إلا الإيمان والعمل الصالح .

وفيه : أنه لا يجوز أن يسأل العبد إلا ما يقدر عليه من أُمور الدنيا ، وأما الرحمة والمغفرة والجنة والنجاة من النار ونحو ذلك من كل ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فلا يجوز أن يطلب إلا منه تعالى ؛ فإن ما عند الله لا يُنال إلا بتجريد التوحيد ، والإخلاص له بما شرعه ورضيه لعباده أن يتقربوا إليه به ، فإذا كان لا ينفع بنته ولا عمه ولا عمته ولا قرابته إلا ذلك ، فغيرهم أولى وأحرى ، وفى قصة عمه أبى طالب معتبر .

فانظر إلى الواقع الآن من كثير من الناس من الالتجاء إلى الأموات والتوجه إليهم بالرغبات

= شيئاً ، وبلغهم وأعذر إليهم فأنذر قريشاً ببطونها وقبائل العرب فى مواسمها ، وأنذر عمه وعمته وابنته وهم أقرب الناس إليه وأخبر أنه لا يغنى عنهم من الله شيئاً إذا لم يؤمنوا به ويقبلوا ما جاء به من التوحيد وترك الشرك به وسائر شرائع الإسلام وعباداته .

(١) فى قرة العيون : لأن هذا هو الذى يقدر عليه ﷺ ، وما كان أمره إلى الله سبحانه فلا قدرة لأحد عليه كما فى هذا الحديث ، ولما مات أبو طالب وكان يحوط رسول الله ﷺ ويحميه ، ولم ينكر ملة عبد المطلب من الشرك بالله وقال ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فأنزل الله تعالى : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ [٩ : ١١٣] ، فأخبر أن أبا طالب من أصحاب النار لما مات على غير شهادة أن لا إله إلا الله ، فلم ينفعه حمايته النبى ﷺ من أن يكون من المشركين ولا الاعتراف بأن النبى ﷺ على الحق بدون البراءة من الشرك ، لأنه لم يبرأ من ملة أبيه فكل تعلق على غير الله من طلب شفاعة أو غيرها شرك بالله يكون عليه وبالاً فى الدنيا والآخرة ، والشفاعة لا تكون إلا لأهل الإخلاص خاصة، كما قال تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع ﴾ [٦ : ٥١] والآيات فى هذا المعنى كثيرة وكذلك الأحاديث والله أعلم . وسيأتى فى باب الشفاعة إن شاء الله تعالى .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآيتين [1] .

الثانية : قصة أحد .

والرهبات ، وهم عاجزون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، فضلاً عن غيرهم - يتبين لك أنهم ليسوا على شيء (٧ : ٣٠) : ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ أظهر لهم الشيطان الشرك فى قالب محبة الصالحين ، وكل صالح يبرأ إلى الله من هذا الشرك فى الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . ولا ريب أن محبة الصالحين إنما تحصل بموافقتهم فى الدين ، ومتابعتهم فى طاعة رب العالمين ، لا باتخاذهم أنداداً من دون الله يحبونهم كحب الله إشراكاً بالله ، وعبادة لغير الله ، وعداوة لله ورسوله والصالحين من عباده ، كما قال تعالى (٥ : ١٦ ، ١١٧) : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ، ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنتُ قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنتُ عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - فى هذه الآية بعد كلام سبق : ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أُمر به وهو محض التوحيد فقال : ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ﴾ ثم أخبر أن شهادته عليهم مدة مُقامه فيهم ، وأنه بعد الوفاة لا اطلاع له عليهم، وأن الله - عز وجل - المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم فقال : ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ؛ فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ وصف الله سبحانه بأن شهادته فوق كل شهادة وأعم . ا هـ .

قلت : ففى هذا بيان أن المشركين خالفوا ما أمر الله به رسله : من توحيده الذى هو دينهم الذى اتفقوا عليه ودعوا الناس إليه ، وفارقوهم فيه إلا من آمن ، فكيف يقال لمن دان بدينهم ، وأطاعهم فيما أمروا به من إخلاص العبادة لله وحده : إنه قد تنقّصهم بهذا التوحيد الذى أطاع به ربه ، واتبع فيه رسله عليهم السلام ، ونزه به ربه عن الشرك الذي هو هضم للربوبية ، وتنقّص للإلهية وسوء ظن برب العالمين ؟

والمشركون هم أعداء الرسل وخصماؤهم فى الدنيا والآخرة ، وقد شرعوا لأتباعهم أن يتبرأوا من كل مشرك ويكفروا به ، ويبغضوه ويعادوه فى ربهم ومعبودهم (٦ : ١٤٩) : ﴿قل فللّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ .

---

(١) يعنى قوله تعالى : ﴿ لا يستطيعون لهم نصراً ﴾ ، وقوله : ﴿ ما يملكون من قطمير ﴾ لأنه إذا كان النبى ﷺ وهو سيد ولد آدم لا يغنى عن قرابته شيئاً ، فغيره أولى أن يُعجز عن ضر أو نفع لنفسه أو لغيره .

الثالثة : قنوت سيد المرسلين ، وخلفه سادات الأولياء يؤمّنون فى الصلاة .

الرابعة : أن المدعو عليهم كفار .

الخامسة : أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار ، منها : شجّهم نبيهم وحرصهم على قتله ، ومنها : التمثيل بالقتلى ، مع أنهم بنو عمهم .

السادسة : أنزل الله عليه فى ذلك : ﴿ ليس لك من الأمر شىء ﴾ .

السابعة : قوله : ﴿ أو يتوب عليهم أو يعذبهم ﴾ فتاب عليهم فآمنوا .

الثامنة : القنوت فى النوازل .

التاسعة : تسمية المدعو عليهم فى الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم .

العاشرة : لعن المعيّن فى القنوت .

الحادية عشرة : قصته ﷺ لما أُنزل عليه : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ .

الثانية عشرة: جده ﷺ بحيث فعل ما نُسبَ بسببه إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن.

الثالثة عشرة : قوله للأبعد والأقرب : « لا أُغنى عنك من الله شيئاً » حتى قال : «يا فاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئاً » ، فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغنى شيئاً عن سيدة نساء العالمين ، وآمن الإنسان أنه ﷺ لا يقول إلا الحق ، ثم نظر فيما وقع فى قلوب خواص الناس اليوم ، تبين له التوحيد وغربة الدين .

* * *

باب

قول الله تعالى (٣٤ : ٢٣) : ﴿ حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم

قوله : (باب قول الله تعالى (٣٤ : ٢٣) : ﴿ حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربُكم ؟ قالوا الحق وهو العلىُّ الكبير ﴾ [1] .

---

(١) فى قرة العيون : وهذه الآيات تقطع عروق الشرك بأمور أربعة :

(الأول) : أنهم لا يملكون مثقال ذرة مع الله والذى لا يملك مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وينفع ولا يضر ، فالله تعالى هو الذي يملكهم ويدبرهم ويتصرف فيهم وحده .

(الثانى) قوله : ﴿ وما لهم فيهما من شرك ﴾ أى فى السموات والأرض ، أى وما لهم شرك مثقال ذرة من السموات والأرض .

(الثالث) قوله : ﴿ وما لهم منهم من ظهير ﴾ والظهير : المعين ، فليس لله معين من خلقه ، بل من الذى يعينهم على ما ينفعهم لكمال غناه عنهم ، وضرورتهم إلى ربهم فيما قل وكثر من أمور دنياهم وأخراهم . =

. . . .

قوله : ﴿ حتى إذا فزع [1] عن قلوبهم ﴾ أى زال الفزع عنها ، قاله ابن عباس وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمى والشعبى والحسن وغيرهم .

وقال ابن جرير : قال بعضهم : الذى فُزِّع عن قلوبهم : الملائكةُ ، قالوا : وإنما فُزِّع عن قلوبهم من غَشْية تصيبهم عند سماعهم كلام الله بالوحى .

وقال ابن عطية : فى الكلام حذف يدل عليه الظاهر ، كأنه قال : ولا هم شفعاءُ كما تزعمون أنتم ، بل هم عَبَدَةٌ مسلمون لله أبداً ، يعنى : منقادون ، حتى إذا فزع عن قلوبهم . والمراد : الملائكة ، على ما اختاره ابن جرير وغيره .

قال ابن كثير : وهو الحق الذى لا مِرْية فيه ؛ لصحة الأحاديث فيه والآثار .

وقال أبو حيان : تظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أن قوله : ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ إنما هى فى الملائكة إذا سمعت الوحى إلى جبريل يأمره الله به ، سمعت كجرِّ سلسلة الحديد على الصَّفْوان ، فتفزع عند ذلك تعظيماً وهيبة . قال : وبهذا المعنى - مِنْ ذكر الملائكة فى صدر الآية - تتَّسق هذه الآية على الأولى ، ومن لم يشعر أن الملائكة مشار إليهم من أول قوله : ﴿ الذين زعمتم ﴾ لم تتصل له هذه الآية بما قبلها [2] .

= (الرابع) قوله : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، وأخبر تعالى أن من اتخذ شفيعاً من دونه حرم شفاعة الشفعاء ، قال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ [١٠ : ١٨] لأن اتخاذ الشفعاء شرك لقوله تعالى فى حقهم : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ والمشرك منفية الشفاعة فى حقه كما قال تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ [٧٤ : ٤٨] وقال : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ وذلك أن متخذ الشفيع لا بد أن يرغب إليه ويدعوه ويرجوه ويخافه ويحبه لما يؤمله منه وهذه من أنواع العبادة التى لا يصرف منها شىء لغير الله ، وذلك هو الشرك الذى ينافى الإخلاص .

(١) ذكره عن ابن مسعود من عدة طرق ، وساق بسنده حديث أبى هريرة الذى رواه البخارى الآتى بعد صفحة وقد قال البخاري فى تفسير سورة الحجر عن عبد الله : قلت لسفيان : إن إنساناً روى عنك عن عمرو عن عكرمة عن أبى هريرة أنه قرأ : « فرغ » بضم الفاء والراء المهملة وبالغين المعجمة ، فقال سفيان : هكذا قرأ عمرو - يعنى ابن دينار - فلا أدرى سمعه هكذا أم لا ؟ قال الحافظ : وهذه القراءة رويت عن الحسن وقتادة ومجاهد . والقراءة المشهورة بالزاى والعين المهملة وقرأه ابن عامر مبنياً للفاعل ، ومعناه بالزاى والعين المهملة : أدهش الفزع عنهم ، ومعنى التى بالراء والغين المعجمة : ذهب عن قلوبهم ما حل فيها .

(٢) قال أبو حيان : ولهذا اضطرب المفسرون فى تفسيرها .

قالوا : ماذا قال ربُكم ؟ قالوا : الحقَّ ، وهو العليُّ الكبيرُ ﴾ .

فى الصحيح عن أبى هريرة- رضى الله عنه -عن النبى ﷺ قال: «إذا قَضَى الله الأمرَ فى

قوله : ﴿ قالوا : ماذا قال ربكم ؟ ﴾ ولم يقولوا : ماذا خلق ربنا ؟ ولو كان كلام الله مخلوقاً لقالوا : ماذا خلق ؟ انتهى من شرح سنن ابن ماجه .

ومثله الحديث : « ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ » وأمثال هذا فى الكتاب والسنة كثير .

قوله : ﴿ قالوا الحق ﴾ أى قال الله الحق ، وذلك لأنهم إذا سمعوا كلام الله صعقوا ، ثم إذا أفاقوا أخذوا يسألون ، فيقولون : ماذا قال ربكم ؟ فيقولون : قال الحق .

قوله : ﴿ وهو العلى الكبير ﴾ علو القدر وعلو القهر وعلو الذات ، فله العلو الكامل من جميع الوجوه ، كما قال عبد الله بن المبارك - لَمَّا قيل له : بما نعرف ربنا ؟ قال : « بأنه على عرشه بائن من خلقه ﴾ تمسكاً منه بالقرآن ، لقوله تعالى (٢٠ : ٥) : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ، (٢٥ : ٥٩) : ﴿ ثم استوى على العرش الرحمن ﴾ فى سبعة مواضع من القرآن ، (٧ : ٥٣ ، ١٠ : ٣ ، ١٤ : ٣٢ ، ٤ ، ٥٧ : ٤) .

قوله : ﴿ الكبير ﴾ أى الذى لا أكبر منه ولا أعظم منه تبارك وتعالى .

قوله : (فى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضَربت الملائكةُ بأجنحتها خُضْعَاناً لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ، يَنْفُذهم ذلك ، حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير ، فيسمعها مُسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعضه - وصفه سفيان بكفِّه فحرَفَها وبَدَّدَ بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء » .

قوله : (فى الصحيح) أى صحيح البخارى (١) .

قوله : (إذا قضى الله الأمر فى السماء) أى إذا تكلم الله بالأمر الذى يوحيه إلى جبريل بما أراده ؛ كما صرح به فى الحديث الآتى، وكما روى سعيد بن منصور وأبو داود وابن جرير عن ابن مسعود : « إذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السموات صَلْصلة كجَرِّ السلسلة على الصّفوان»·

وروى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : « لما أوحى الجبار إلى محمد ﷺ دعا

---

(١) رواه فى تفسير قوله : « إلا من استرق السمع » من سورة الحجر ، وفى تفسير سورة سبأ وغير هذين الموضعين ، حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان بن عيينة ، حدثنا عمرو بن دينار عن عكرمة عن أبى هريرة ، ورواه مسلم وأبو داود بنحو هذا .

السماء ، ضَرَبت الملائكة بأجنحتها خَضَعَاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان يَنفُذُهم ذلك حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحقّ ، وهو العليُّ الكبير . فيسمعها مُسترق السمع - ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - وَصَفَه سفيان بكفه ، فحرَّفها وبدّد بين أصابعه -فيَسمع الكلمة فيلقيها إلى مَن تحته، ثم يلقيها الآخر من تحته،

الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحى ، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحى ، فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله ؟ فقالوا : الحق ، وعلموا أن الله لا يقول إلا حقاً » .

قوله : (ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله) أى لقول الله تعالى . قال الحافظ : خضعاناً - بفتحتين - من الخضوع . وفى رواية بضم أوله وسكون ثانيه . وهو مصدر بمعنى خاضعين .

قوله : (كأنه سلسلة على صفوان) أى كأن الصوت المسموع سلسلة على صفوان ، وهو الحجر الأملس .

قوله : ﴿ ينفذهم ذلك ﴾ هو بفتح التحتية وسكون النون وضم الفاء والذال المعجمة « ذلك» أي القول ، والضمير فى « ينفذهم » للملائكة ، أى ينفذ ذلك القولُ الملائكة : أى يخلص ذلك القول ، ويمضى فيهم حتى يفزعوا منه . وعند ابن مردويه من حديث ابن عباس : « فلا ينزل على أهل سماء إلا صعقوا » ، وعند أبى داود وغيره مرفوعاً : « إذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السماء الدنيا صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون ، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل » الحديث .

قوله : (حتى إذا فزع عن قلوبهم) تقدم معناه .

قوله : (قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق) أى قالوا : قال الله الحقّ ، علموا أن الله لا يقول إلا الحق .

قوله : (فيسمعها مسترق السمع) أى يسمع الكلمة التى قضاها الله ، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضاً . وفى صحيح البخارى عن عائشة مرفوعاً : « إن الملائكة تنزل فى العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قُضِيَ فى السماء، فتسترق الشياطين السمع؛ فتوحيه إلى الكُهَّان».

قوله : (ومسترق السمع هكذا وصفه سفيان بكفه) أى وصف ركوب بعضهم فوق بعض .

وسفيان هو ابن عيينة أبو محمد الهلالى الكوفى ، ثم المكى ، ثقة حافظ ، فقيه ، إمام ، حجة . مات سنة ثمان وتسعين ومائة ، وله إحدى وتسعون سنة .

قوله : (فحرَّفها) بحاء مهملة وراء مشددة وفاء . قوله : (وبَدّدَ) أى فرق بين أصابعه .

قوله : (فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته) أى يسمع الفوقانى الكلمة ، فيلقيها إلى آخر تحته ، ثم يلقيها إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن .

حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشِّهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يُدركه ، فيكذب معها مائة كذبة . فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا ؟ فيصدَّق بتلك الكلمة التى سُمعت من السماء » (١) .

قوله : (فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها) الشهاب : هو النجم الذى يرمى به ، أى ربما أدرك الشهابُ المسترِقَ ، وهذا يدل على أن الرمى بالشهب قبل المبعث . لما روى أحمد وغيره - والسياق له فى المسند من طريق معمر - : أنبأنا الزهرى عن علىّ بن الحسين عن ابن عباس قال : « كان رسول الله ﷺ جالساً فى نفر من أصحابه - قال عبد الرزاق : من الأنصار - قال: فرُمى بنجم عظيم ، فاستنار ، قال : ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا فى الجاهلية ؟ قال: كنا نقول : لعله يولد عظيم أو يموت عظيم - قلت للزهرى: أكان يرمى بها فى الجاهلية؟ قال : نعم ، ولكن غلظت حين بعث النبى ﷺ - قال : فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تبارك اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء سماء ، حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء ، وتخْطفُ الجنُّ السمعَ فيرمون ، فما جاءوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يَقْرِفون فيه ويزيدون » (٢) . قال عبد الله : قال أبى : قال عبد الرزاق : « ويخطف الجن ويرمون » ، وفى رواية له : « لكنهم يزيدون فيه ويقرفون وينقصون » .

قوله : (فيكذب معها مائة كذبة) أى الكاهن أو الساحر .

و« كذبة » بفتح الكاف وسكون الذال المعجمة .

قوله : (فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟) هكذا فى نسخة بخط المصنف ، كالذى فى صحيح البخاى سواء .

قال المصنف : (وفيه : قبول النفوس للباطل ؛ كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة كذبة ؟) .

وفيه : أن الشيء إذا كان فيه شيء من الحق فلا يدل على أنه حق كله ، فكثيراً ما يلبس أهل الضلال الحق بالباطل ، ليكون أقبل لباطلهم ، قال تعالى (٢ : ٤٢) : ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ .

---

(١) يعنى أن قول الكاهن والساحر والعراف قد يصادف بعض الواقع ، فيغترَّ الجاهلون المخرفون بذلك ، ويحتجون بهذه المصادفة على تصديق كذبه الذى لا يعد وهو مبنى على افتراء الكذب على الله ودعوى معرفة الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ، وسيأتى بيانه فى باب الكهان .

(٢) قال الحافظ ابن كثير : وقد أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث صالح بن كيسان والأوزاعى ويونس ومعقل ابن عبد الله ، أربعتهم عن الزهرى عن على بن الحسين عن ابن عباس عن رجل من الأنصار .

وعن النوّاس بن سمعان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى أخذَت السموات منه رَجفة ، - أو قال : رعدة -

---

وفى هذه الأحاديث وما بعدها وما فى معناها : إثبات علو الله تعالى على خلقه على ما يليق بجلاله وعظمته ، وأنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء بكلام يسمعه الملائكة ، وهذا قول أهل السنة قاطبة سلفاً وخلفاً ، خلافاً للأشاعرة والجهمية ، ونُفاة المعتزلة . فإياك أن تلتفت إلى ما زخرفه أهل التعطيل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قوله : (وعن النواس بن سمعان قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى أخذت السموات منه رَجْفَةٌ - أو قال رعدة - شديدة ، خوفاً من الله عز وجل . فإذا سمع ذلك أهل السموات صُعقوا وخرُّوا لله سجَّداً ، فيكون أولَ من يرفع رأسه جبريلُ ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمرّ جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتُها : ماذا قال ربنا : يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال الحق ، وهو العلى الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله عز وجل[1] »).

هذا الحديث رواه ابن أبى حاتم بسنده كما ذكره العماد ابن كثير فى تفسيره .

النواس بن سمعان - بكسر السين - ابن خالد الكلابى ، ويقال : الأنصارى ، صحابى ، ويقال : إن أباه صحابى أيضاً .

قوله : (إذا أراد الله أن يوحى بالأمر - إلى آخره) فيه : النص على أن الله تعالى يتكلم بالوحى . وهذا من حجة أهل السنة على النفاة ، لقولهم : لم يزل الله متكلماً إذا شاء .

قوله : (أخذت السموات منه رجفة) السموات مفعول مقدم ، والفاعل « رجفة » أى : أصاب السموات من كلامه تعالى رجفة ، أى : ارتجفت ، وهو صريح فى أنها تسمع كلامه

---

(١) فى قرة العيون : قوله : « أن يوحى بالأمر » فيه بيان معنى ما تقدم فى الحديث قبله من قوله : « إذا قضى الله الأمر » ، قوله : « تكلم بالوحى » فيه التصريح بأنه يتكلم بالوحى فيوحيه إلى جبريل عليه السلام ، ففيه الرد على الأشاعرة فى قولهم : إن القرآن عبارة عن كلام الله .

قوله : « أخذت السموات منه رجفة أو قال : رعدة شديدة خوفاً من الله عز وجل » فى هذه معرفة عظمة الله ، ويوجب للعبد شدة الخوف منه تعالى وفيه إثبات العلو . قوله : « فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً » هيبة وتعظيماً لربهم وخشية لما سمعوا من كلامه تعالى وتقدس قوله : « فيكون أول من يرفع رأسه جبريل » لأنه ملك الوحى عليه السلام قوله : « فيكلمه الله من وحيه بما أراد » فيه التصريح بأنه تعالى يوحى إلى جبريل بما أراده من أمره كما تقدم فى أول الحديث ، قوله : « ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها » وهذا أيضاً من أدلة علو الرب تعالى وتقدس ، قوله : « ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول : (قال الحقَّ ، وهو العلى الكبير) فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله عز وجل » ، وهذا دليل بأنه تعالى قال ويقول : وأهل البدع من الجهمية ومن تلقى عنهم كالأشاعرة جحدوا ما أثبته الله تعالى فى كتابه وأثبته رسوله ﷺ فى سنته من علوه وكلامه وغير ذلك من صفات كماله التى أثبتها له رسوله والمؤمنون من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أهل السنة والجماعة على ما يليق بجلال الله وعظمته .

شديدة ، خوفاً من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السمٰوات صُعقوا وخرُّوا لله سُجداً فيكون أولَ من يرفع رأسَه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال

تعالى ، كما روى ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : « إذا قضى الله أمراً تكلم تبارك وتعالى رجفت السمٰوات والأرض والجبال ، وخرت الملائكة كلهم سجداً » .

قوله : (أو قال : رعدة شديدة) شك من الراوى ، هل قال النبى ﷺ رجفة ، أو قال رعدة . والراء مفتوحة فيهما .

قوله : (خوفاً من الله عز وجل) وهذا ظاهر فى أن السموات تخاف الله ، بما يجعل تعالى فيها من الإحساس ومعرفة من خلقها . وقد أخبر تعالى : أن هذه المخلوقات العظيمة تسبحه كما قال تعالى (١٧ : ٤٤) : ﴿ تسبح له السمٰوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفوراً ﴾ ، وقال تعالى (١٩ : ٩٠) : ﴿ تكاد السمٰوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتَخرُّ الجبال هداً ﴾ ، وقال تعالى (٢ : ٧٤) : ﴿ وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ ، وقد قرر العلامة ابن القيم رحمه الله أن هذه المخلوقات تسبح الله وتخشاه حقيقة ، مستدلاً بهذه الآيات وما فى معناها .

وفى البخارى عن ابن مسعود قال : « كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل » ، وفى حديث أبى ذر : « أن النبى ﷺ أخذ فى يده حصيات ، فسُمع لهن تسبيح - الحديث » ، وفى الصحيح قصة حَنين الجذْع الذى كان يخطب عليه النبى ﷺ قبل اتخاذ المنبر . ومثل هذا كثير .

قوله : (صُعقوا وخروا لله سجداً) الصعوق : هو الغشى ، ومعه السجود .

قوله : (فيكون أولَ من يرفع رأسه جبريل) بنصب « أول » خبر يكون مقدم على اسمها ، ويجوز العكس . ومعنى جبريل : عبد الله ، كما روى ابن جرير وغيره عن على بن الحسين قال : كان اسم جبريل : عبد الله ، واسم ميكائيل : عُبيد الله ، وإسرافيل : عبد الرحمن . وكل شىء رجع إلى « إيل » فهو مُعبَّد لله عز وجل ، وفيه : فضيلة جبريل - عليه السلام - ، كما قال تعالى (٨١ : ١٩ - ٢١) : ﴿ إنه لقول رسول كريم * ذى قوة عند ذى العرش مكين * مُطاع ثُمّ أمين ﴾ .

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - : إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم .

وقال أبو صالح فى الآية [1] : « جبريل يدخل فى سبعين حجاباً من نور بغير إذن » .

---

(١) أى فى قوله : ﴿ ذى قوة عند ذى العرش مكين ﴾ كما ساق ذلك الحافظ ابن كثير وقد نقلها الشارح رحمه الله مختصرة .

الحق ، وهو العلىُّ الكبير ، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله عز وجل » .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآية .

الثانية : ما فيها من الحجة على إبطال الشرك ، خصوصاً ما تعلّق على الصالحين ، وهى الآية التى قيل : إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب .

الثالثة : تفسير قوله : ﴿ قالوا الحق ، وهو العلى الكبير ﴾ .

الرابعة : سبب سؤالهم عن ذلك .

الخامسة : أن جبرائيل يجيبهم بعد ذلك بقوله : « قال كذا وكذا » .

ولأحمد بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال : « رأى رسول الله ﷺ جبريل فى صورته وله ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سد الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم » ، فإذا كان هذا عظم هذه المخلوقات ، فخالقها أعظم وأجلّ وأكبر ، فكيف يسوَّى به غيره فى العبادة : دعاءً وخوفاً ورجاء وتوكلاً ، وغير ذلك من العبادات التى لا يستحقها غيره ؟ فانظر إلى حال الملائكة وشدة خوفهم من الله تعالى ، وقد قال تعالى (٢١ : ٢٦ - ٢٩) : ﴿ بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم : إنى إله من دونه ، فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين ﴾ .

قوله : (فينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله عز وجل من السماء والأرض) وهذا تمام الحديث . والآيات المذكورة فى هذا الباب والأحاديث تقرر التوحيد الذى هو مدلول شهادة أن لا إله الله ، فإن الملك العظيم الذى تُصعق الأملاك من كلامه خوفاً منه ومهابة ، وترجف منه المخوقات ، الكامل فى ذاته وصفاته ، وعلمه وقدرته ، وملكه وعزه وغناه عن جميع خلقه ، وافتقارهم جميعاً إليه ، ونفوذ تصرفه وقدره فيهم ، لعلمه وحكمته لا يجوز شرعاً ولا عقلاً أن يجعل له شريك من خلقه فى عبادته التى هى حقه عليهم ، فكيف يجعل المربوب رباً ، والعبد معبوداً ؟ أين ذهبت عقول المشركين ؟ سبحان الله عما يشركون .

وقال تعالى (١٩ : ٩٣ - ٩٥) : ﴿ إنْ كلُّ مَنْ فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدَّهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ فإذا كان الجميع عبيداً فلمَ يَعبدُ بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع ؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك الشرك ، وتنهاهم عن عبادة ما سوى الله . انتهى من شرح سنن ابن ماجه .

السادسة : ذكر أن أول من يرفع رأسه جبرائيل .

السابعة : أنه يقول لأهل السموات كلهم ، لأنهم يسألونه .

الثامنة : أن الغَشْى يعم أهل السموات كلهم .

التاسعة : ارتجاف السموات بكلام الله .

العاشرة : أن جبرائيل هو الذى ينتهى بالوحى إلى حيث أمره الله .

الحادية عشرة : ذكر استراق الشياطين .

الثانية عشرة : صفة ركوب بعضهم بعضاً .

الثالثة عشرة : إرسال الشهاب .

الرابعة عشرة : أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وتارة يلقيها فى أُذن وليِّه من الإنس قبل أن يدركه .

الخامسة عشرة : كون الكاهن يصدُق بعض الأحيان .

السادسة عشرة : كونه يكذب معها مائة كذبة .

السابعة عشرة : أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التى سُمعت من السماء .

الثامنة عشرة : قبول النفوس للباطل ، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة ؟

التاسعة عشرة : كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ، ويحفظونها ويستدلون بها .

العشرون : إثبات الصفات ، خلافاً للأشعرية المعطلة .

الحادية والعشرون : أن تلك الرجفة والغشى خوفاً من الله عز وجل .

الثانية والعشرون : أنهم يخرون لله سجداً .

❊ ❊ ❊

باب الشفاعة [1]

قوله : (باب الشفاعة) أى : بيان ما أثبته القرآن منها وما نفاه . وحقيقة ما دل القرآن على إثباته .

---

(١) فى قرة العيون : الشفاعة نوعان : شفاعة منفية فى القرآن ، وهى الشفاعة للكافر والمشرك ، قال تعالى : ﴿من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾ [٢ : ٢٥٤] ، وقال : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ [٧٤ : ٤٨] ، وقال : ﴿واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم=

وقول الله عز وجل (٦ : ٥١) : ﴿ وأَنْذِر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولِى ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾ ، وقوله (٣٩ : ٤٤) : ﴿ قل : لله الشفاعةُ جميعاً ﴾ .

قوله : (وقول الله عز وجل (٦ : ٥١) : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع ﴾ الإنذار هو الإعلام بأسباب المخافة ، والتحذير منها .

قوله : ﴿ به ﴾ قال ابن عباس : « بالقرآن ﴿ الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ﴾ وهم المؤمنون » ، وعن الفُضَيل بن عياض : « ليس كلٌّ خلقه عاتب ، إنما عاتب الذين يعقلون ، فقال : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ﴾ وهم المؤمنون أصحاب القلوب الواعية » .

قوله : ﴿ ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع ﴾ قال الزجاج : موضع « ليس » نصب على الحال ، كأنه قال : متخلِّين من كل ولىّ وشفيع . والعامل فيه « يخافون » .

قوله : ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أى : فيعملون فى هذه الدار عملاً ينجيهم الله به من عذاب يوم القيامة [(١)] .

وقوله (٣٩ : ٤٤) : ﴿ قل : لله الشفاعة جميعاً ﴾ [(٢)] وقبلها : ﴿ أمِ اتخذوا من دونِ

= ينصرون [٢ : ٤٨] ونحو هذه الآيات ، كقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله * قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ﴾ يخبر تعالى أن من اتخذ هؤلاء شفعاء عند الله أنه لا يعلم أنهم يشفعون له بذلك وما لا يعلمه لا وجود له فنفى وقوع الشفاعة وأخبر أنها شرك بقوله: ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار ﴾ فأبطل شفاعة من اتخذ شفيعاً يزعم أنه يقربه إلى الله وهو يبعده عنه وعن رحمته ومغفرته ، لأنه جعل الله شريكاً يرغب إليه ويرجوه ويتوكل عليه ويحبه كما يحب الله تعالى أو أعظم .

« النوع الثانى » : الشفاعة التى أثبتها القرآن وهى خالصة لأهل الإخلاص ، وقيدها بأمرين : الأول : إذنه للشافع أن يشفع كما قال تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإنه ﴾ وإذنه تعالى لا يصدر إلا إذا رحم عبده الموحد المذنب ، فإذا رحمه الله تعالى أذن للشافع أن يشفع له .

الأمر الثانى : رضاه عمن أذن لشافع أن يشفع فيه ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ فالإذن بالشفاعة له بعد الرضاء ، كما فى هذه الآية ، وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد .

(١) فى قرة العيون : وتركوا التعلق على الشفعاء وغيرهم لأنه ينافى الإخلاص الذى لا يقبل الله من أحد عملاً بدونه .

(٢) فى قرة العيون : دلت الآية على أن الشفاعة له سبحانه لأنها لا تقع إلا لأهل التوحيد بإذنه سبحانه وتعالى كما قال تعالى فى الآية السابقة ، وقال تعالى : ﴿ يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم ﴾ [١٠ : ٣] فلا شفاعة إلا لمن هى له سبحانه ، ولا تقع إلا ممن أذن له فيها فتدبر هذه الآيات العظيمة فى اتخاذ الشفعاء .

الله شفعاء ؛ قل : أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ ﴾ وهذه كقوله تعالى (١٠ : ١٨): ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله، قل: أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ فبين تعالى فى هذه الآيات وأمثالها : أن وقوع الشفاعة على هذا الوجه منتف وممتنع ، وأن اتخاذهم شفعاء شركٌ ، يتنزه الرب تعالى عنه . وقد قال تعالى (٤٦ : ٢٨) : ﴿ فلولا نَصرهم الذين اتخذوا من دون الله قُرباناً آلهة ؟ بل ضلوا عنهم ، وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴾ فبين تعالى : أن دعواهم أنهم يشفعون لهم بتألّههم : أن ذلك منهم إفك وافتراء .

وقوله تعالى : ﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ أى : هو مالكها ، فليس لمن تُطلب منه شىء منها ، وإنما تطلب ممن يملكها دون كل مَن سواه ، لأن ذلك عبادة وتأليه لا يصلح إلا لله .

قال البيضاوى : لعله رد لما عسى أن يجيبوا به ، وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون .

وقوله تعالى : ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه ؛ لأنه مالك الملك . فاندرج فى ذلك ملك الشفاعة ، فإذا كان هو مالكها بطل أن تطلب ممن لا يملكها [1] ، (٢ : ٢٥٥) : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ، (٢١ : ٢٨) : ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ .

قال ابن جرير : نزلت لما قال الكفار : ما نعبد أوثاناً [1] هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى . قال الله تعالى : ﴿ له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ﴾ .

قال : (وقوله : ٢ : ٢٥٥) : ﴿ من الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ قد تبين مما تقدم من الآيات : أن الشفاعة التى نفاها القرآن هى التى تُطلب من غير الله وفى هذه الآية : بيان أن الشفاعة إنما تقع فى الدار الآخرة بإذنه ، كما قال تعالى (٢٠ : ١٠٩) : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا مَن أذن له الرحمن وَرَضِيَ له قولاً ﴾ فبين أنها لا تقع لأحد إلا بشرطين : إذن الرب تعالى للشافع أن يشفع ، ورضاه عن المأذون بالشفاعة فيه ، وهو تعالى لا يرضى من

---

(١) فى قرة العيون : فليس لأحد فى ملكه مثقال ذرة دونه سبحانه وبحمده ، والإسلام هو أن تسلم قلبك وجوارحك لله بالإخلاص كما فى المسند عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال لرسول الله ﷺ : « فبالذى بعثك بالحق ما بعثك به ؟ قال : الإسلام ، قال : وما الإسلام ؟ قال : أن تسلم قلبك وأن توجه وجهك إلى الله ، وأن تصلى الصلاة المكتوبة ، وأن تؤدى الزكاة المفروضة » ، والآيات فى بيان الإخلاص كثيرة ، وهو أن لا يلتفت القلب ولا الوجه فى جميع الأعمال كلها إلا لله وحده كما قال تعالى : ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ﴾ فأمر تعالى بإخلاص الدعاء له وحده وأخبر أنه الدين الذى تصح معه الأعمال وتقبل . قال شيخ الإسلام : الإخلاص محبة الله وإرادة وجهه .

(٢) الأولى : « ما نعبد أولياءنا » ولم أجد هذه الجملة كلها فى تفسير ابن جرير .

وقوله (٥٣ : ٢٦) : ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ .

وقوله (٣٤ : ٢٢ ، ٢٣) : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذِن له ﴾ .

الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة إلا ما أُريد به وجهه ، ولقى العبد به ربه مخلصاً غير شاك فى ذلك ، كما دل على ذلك الحديث الصحيح . وسيأتى ذلك مقرراً أيضاً فى كلام شيخ الإسلام رحمه الله .

وقوله (٥٣ : ٢٦) : ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ ، قال ابن كثير رحمه الله : ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ كقوله : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ ﴾ ، ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ ، فإذا كان هذا فى حق الملائكة المقربين ، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأنداد عند الله ، وهو لم يشرع عبادتها ، ولا أذن فيها ، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله ، وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه ؟

قال : (وقوله تعالى (٣٤ ، ٢٢ ، ٢٣) : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾) (١) .

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - فى الكلام على هذه الآيات : وقد قطع الله الأسباب التى يتعلق بها المشركون جميعها . فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع ، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع : إما مالك لما يريد عابده منه ، فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك ، فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً ، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده . فنفى الله سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً ، متنقلاً من الأعلى إلى الأدنى ، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التى يطلبها المشرك ، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها

---

(١) فى قرة العيون : فإذا كان هذا فى حق الملائكة الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ [٢١ ٢٦ - ٢٩] الآيات . فظهر من هذه الآيات المحكمات ما يبين حقيقة الشفاعة المثبتة فى القرآن التى هى ملك لله لا يملكها غيره . وقيد حصولها بقيدين كما فى هذه الآية وغيرها كما تقدم قريباً : إذنه الشافع أن يشفع ، كما قال تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ والثانى : رضاه عمن أراد رحمته ممن أذنب من الموحدين . فاختصت الشفاعة بأهل الإخلاص خاصة ، وإن اتخاذ الشفعاء بلا إذن من دين المشركين قد أنكره الله عليهم فيما تقدم من الآيات .

قال أبو العباس : نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون لغيره ملكٌ أو قسطٌ منه ، أو يكون عوناً لله . ولم يبقَ إلا الشفاعة ، فبيَّن أنها لا تنفع إلا لمن أَذِنَ له الربُّ ، كما قال (٢١ : ٢٨) : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ فهذه

لمشرك ، وهى الشفاعة بإذنه . فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً ، وتجريداً للتوحيد ، وقطعاً لأصول الشرك وموادّه لمن عقلها ، والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته ، وتضمنه له ، ويظنونها فى نوع وقوم قد خَلَوا من قبلُ ولم يُعقبوا وارثاً ، فهذا هو الذى يحول بين القلب وبين فهم القرآن . ولعمر الله ، إن كان أولئك قد خلوا ، فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم ، أو دونهم وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك.

ثم قال : ومن أنواعه - أى الشرك - طلب الحوائج من الموتى ، والاستغاثة بهم ، وهذا أصل شرك العالم ؛ فإن الميت قد انقطع عمله ، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فضلاً عمن استغاث به ، وسأله أن يشفع له إلى الله . وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده ؛ إنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه ، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه ، وإنما السبب كمال التوحيد فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن ، وهو بمنزلة من استعان فى حاجته بما يمنع حصولها . وهذه حالة كل مشرك ، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه ، ومعاداة أهل التوحيد ، ونسبة أهله إلى التنقص بالأموات ، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك ، وأولياءه الموحدين بذمهم وعيبهم ومعاداتهم ، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص ؛ إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا ، وأنهم أمروهم به ، وأنهم يوالونهم عليه ، وهؤلاء هم أعداء الرسل فى كل زمان ومكان ، وما أكثر المستجيبين لهم . وما نجى من شَرَك هذا الشرك الأكبر إلا من جرَّد توحيده لله ، وعادى المشركين فى الله ، وتقرب بمقتهم إلى الله ، واتخذ الله وحده وليَّه وإلهه ومعبوده ؛ فجرد حبه لله ، وخوفه لله ، ورجائه لله ، وذله لله ، وتوكله على الله ، واستعانته بالله ، والتجائه إلى الله ، واستغاثته بالله ، وقصده لله ، متبعاً لأمره ، متطلباً لمرضاته . إذا سأل سأل الله ، وإذا استعان استعان بالله ، وإذا عمل عمل لله ، فهو لله ، وبالله ومع الله . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

وهذا الذى ذكره هذا الإمام فى معنى هذه الآية هو حقيقة دين الإسلام ، كما قال تعالى (٤ : ١٢٥) : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً ؟ ﴾ .

قوله : (قال أبو العباس) : هذه كنية شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى ، إمام المسلمين رحمه الله .

قوله : (نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه ، أو يكون عوناً لله ، ولم يبق إلا الشفاعة ، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب ، كما قال تعالى (٢١ : ٢٨) : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ فهذه الشفاعة التى يظنها الشفاعة

التى يَظُنّها المشركون هى مُنْتَفِيَةٌ يوم القيامة ، كما نفاها القرآنُ وأخبر النبىُّ ﷺ «أنه يأتى فَيَسْجُدُ لربِّه وَيَحْمَدُهُ » لا يبدأ بالشفاعة أولاً ، ثم يقال له : « ارفع رأسك وقُلْ يُسمعْ ، وَسَلْ تُعْطَ ، واشفع تُشَفَّع » .

وقال له أبو هريرة : « من أسعدُ الناس بشفاعتك ؟ قال : من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » ، فتلك الشفاعةُ لأهل الإخلاص ، بإذن الله ، ولا تكون لمن أشرك بالله .

وحقيقته : أن الله سبحانه هو الذى يتفضَّل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء مَنْ أَذِنَ له أن يشفع ، ليُكرمَه وينالَ المقامَ المحمود .

فالشفاعة التى نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعةَ بإذْنه فى مواضع . وقد بين النبى ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص . ا هـ كلامه .

المشركون هى منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن ، وأخبر النبى ﷺ « أنه يأتى فيسجد لربه ويحمده » لا يبدأ بالشفاعة أولاً ، ثم يقال له : « ارفع رأسك ، وقل : يسمع ، وسل تُعطَه واشفع تشفع » ، وقال له أبو هريرة : « من أسعد الناس بشفاعتك ؟ قال : من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ، ولا تكون لمن أشرك بالله .

وحقيقتها : أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يتفضل على أهل الإخلاص ، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ، ليكرمه وينال المقام المحمود . فالشفاعة التى نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه فى مواضع ، وقد بين النبى ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص » انتهى كلامه) .

قوله : (وقال أبو هريرة) إلى آخره ، هذا الحديث رواه البخارى والنسائى عن أبى هريرة ، ورواه أحمد وصححه ابن حبان وفيه : « وشفاعتى لمن قال : لا إله إلا الله مخلصاً ، يصدق قلبُه لسانه ، ولسانُه قلبَه » وشاهده فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « لكل نبى دعوةٌ مستجابة ، فتعجل كل نبى دعوته ، وإن اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة . فهى نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً » .

وقد ساق المصنف - رحمه الله - كلام شيخ الإسلام هنا ، فقام مقام الشرح والتفسير لما فى هذا الباب من الآيات ، وهو كاف وافٍ بتحقيق مع الإيجاز . والله أعلم .

وقد عرّف الإخلاص بتعريف حسن فقال : الإخلاص محبة لله وحده وإرادة وجهه . ا هـ .

وقال ابن القيم - رحمه الله - فى معنى حديث أبى هريرة : تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التى تُنال بها شفاعته تجريد التوحيد ، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تُنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم ، فقلب النبى ﷺ ما فى زعمهم الكاذب، وأخبر أن

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآيات .

الثانية : صفة الشفاعة المنفية .

سبب الشفاعة تجريد التوحيد ، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع . ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه ولياً أو شفيعاً أنه يشفع له وينفعه عند الله ، كما يكون خواص الولاة والملوك تنفع من والاهم ، ولم يعلموا أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه فى الشفاعة ، ولا يأذن فى الشفاعة إلا لمن رضى قوله وعمله ، كما قال فى الفصل الأول (٢ : ٢٥٥) : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ ﴾ ، وفى الفصل الثانى (٢١ : ٢٨) : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ ، وبقى فصل ثالث ، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله ﷺ ، فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشرك من قلب مَن عَقَلها ووعاها . ا هـ .

وذكر أيضاً - رحمه الله تعالى - أن الشفاعة ستة أنواع :

(الأول) الشفاعة الكبرى التى يتأخر عنها أُولو العزم عليهم الصلاة والسلام ، حتى تنتهى إليه ﷺ فيقول : « أنا لها » ، وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم فى الموقف ، وهذه شفاعة يختص بها لا يشركه فيها أحد .

(الثانى) شفاعته لأهل الجنة فى دخولها ، وقد ذكرها أبو هريرة فى حديثه الطويل المتفق عليه .

(الثالث) شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم ، فيشفع لهم أن لا يدخلوها .

(الرابع) شفاعته فى العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم ، والأحاديث بها متواترة عن النبى ﷺ ، وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة ، وبدّعوا من أنكرها ، وصاحوا به من كل جانب ، ونادوا عليه بالضلال .

(الخامس) شفاعته لقوم من أهل الجنة فى زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم ، وهذه مما لم ينازع فيها أحد ، وكلها مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله ولياً ولا شفيعاً ، كما قال تعالى (٦ : ٥١) : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع ﴾ .

(السادس) شفاعته فى بعض أهله الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه ، وهذه خاصة بأبى طالب وحده .

الثالثة : صفة الشفاعة المثبتة .

الرابعة : ذكر الشفاعة الكبرى ، وهى المقام المحمود .

الخامسة : صفة ما يفعله ﷺ أنه لا يبدأ بالشفاعة ، بل يسجد ، فإذا أُذن له شَفَع .

السادسة : مَنْ أَسعدُ الناس بها .

السابعة : أنها لا تكون لمن أشركَ بالله .

الثامنة : بيان حقيقتها .

* * *

باب

قول الله تعالى (٢٨ : ٥٦) : ﴿ إنك لا تهدِى مَن أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .

وفى الصحيح عن ابن المسيَّب عن أبيه قال :

قوله : (باب قول الله تعالى (٢٨ : ٥٦) : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .

سبب نزول هذه الآية : موت أبى طالب على ملة عبد المطلب ، كما سيأتى بيان ذلك فى حديث الباب .

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - : يقول تعالى لرسوله : إنك يا محمد لا تهدى من أحببت ، أى : ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغُ والله يهدى من يشاء . وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة ، كما قال تعالى (٢ : ٢٧٢) : ﴿ ليس عليك هُداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ وقال تعالى (١٢ : ١٠٣) : ﴿ وما أكثرُ الناسِ ولو حرصتَ بمؤمنين ﴾ .

قلت : والمنفىُّ هنا هدايةُ التوفيق والقبول : فإن أمر ذلك إلى الله ، وهو القادر عليه . وأما الهداية المذكورة فى قول الله تعالى (٤٢ : ٥٢) : ﴿ وإن لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ فإنها هداية الدلالة والبيان ، فهو المبيِّن عن الله ، والدالُّ على دينه وشرعه .

وقوله : (فى الصحيح عن ابن المسيّب عن أبيه قال : « لما حضرَتْ أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبى أُمية وأبو جهل ، فقال له : يا عم ، قل : لا إله إلا الله كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله . فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فأعاد عليه النبى ﷺ فأعادا ، فكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، فقال النبى ﷺ : لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك ، فأنزل الله عز وجل (٩ : ١١٣) : ﴿ ما

« لَمَّا حَضَرَتْ أبا طالبٍ الوفاةُ جاءه رسولُ الله ﷺ ، وعنده عبدُ الله بن أبى أُمَيَّة وأبو جهل ، فقال له : يا عَمِّ ، قُلْ : لا إله إلا الله ، كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله ، فقالا

كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أُولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ ، وأنزل الله فى أبى طالب : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾) .

قوله : (فى الصحيح) أى فى الصحيحين ، و(ابن المسيب) هو سعيد بن المسيب بن حَزْن بن أبى وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشى المخزومى ، أحد العلماء والفقهاء الكبار السبعة من التابعين . اتفق أهل الحديث على أن مراسيله أصح المراسيل . وقال ابن المدينى : لا أعلم فى التابعين أوسع علماً منه ، مات بعد التسعين وقد ناهز الثمانين .

وأبوه المسيب صحابى ، بقى إلى خلافة عثمان - رضى الله عنه - ، وكذلك جده حَزْن ، صحابى استُشهِدَ باليمامة .

قوله : (لما حضرت أبا طالب الوفاة) أي علاماتها ومقدماتها .

قوله : (جاءه رسول الله ﷺ) يحتمل أن يكون المسيب حضر مع الاثنين ، فإنهما من بنى مخزوم ، وهو أيضاً مخزومى ، وكان الثلاثة إذ ذاك كفاراً ؛ فقتل أبو جهل على كفره ، وأسلم الآخران .

قوله : (يا عمّ) منادى مضاف ، يجوز فيه إثبات الياء وحذفها . حذفت الياء هنا ، وبقيت الكسرة دليلاً عليها .

قوله : (قل : لا إله إلا الله) أمره أن يقولها لعلم أبى طالب بما دلت عليه من نفى الشرك بالله ، وإخلاص العبادة له وحده ، فإن من قالها عن علم ويقين فقد برئ من الشرك والمشركين ودخل فى الإسلام ؛ لأنهم يعلمون ما دلت عليه ، وفى ذلك الوقت لم يكن بمكة إلا مسلم أو كافر ، فلا يقولها إلا من ترك الشرك وبرئ منه ، ولما هاجر النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة كان فيها المسلمون الموحدون ، والمنافقون الذين يقولونها بألسنتهم وهم يعرفون معناها لكن لا يعتقدونها ، لما فى قلوبهم من العداوة والشك والريب ، فهم مع المسلمين بظاهر الأعمال دون الباطن ، وفيها اليهود ، وقد أقرّهم رسول الله ﷺ لما هاجر ، ووادعهم بأن لا يخونوه ولا يظاهروا عليه عدواً كما هو مذكور فى كتب الحديث والسير .

قوله : (كلمة) قال القرطبى : بالنصب على أنه بدل من « لا إله إلا الله » ويجوز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف .

قوله : (أحاجُّ لك بها عند الله) هو بتشديد الجيم من المحاجة ، والمراد بها بيان الحجة بها لو قالها فى تلك الحال . وفيه : دليل على أن الأعمال بالخواتيم ، لأنه لو قالها فى تلك الحال معتقداً ما دلت عليه مطابقة من النفى والإثبات لنفعته .

أترغبُ عن ملَّة عبد المطلب ؟ فأعاد عليه النبى ﷺ ، فأعادا ، فكان آخر ما قال : هو على مِلَّة عبد المطلب ، وأبَى أن يقول : لا إله إلا الله ،

قوله : (فقالا له : أترغبُ عن ملة عبد المطلب ؟) ذكّراه الحجة الملعونة التى يحتج بها له: المشركون على المرسلين ، كقول فرعون لموسى (٢٠ : ٥١) : ﴿ فما بالُ القرون الأولى ؟ ﴾ وكقوله تعالى (٤٣ : ٢٣) : ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مُقْتدون ﴾ .

قوله : (فأعاد عليه النبى ﷺ فأعادا) [1] فيه : معرفتهما لمعنى « لا إله إلا الله » لأنهما عرفا أن أبا طالب لو قالها لبرئ من ملة عبد المطلب ، فإن ملة عبد المطلب هى الشرك بالله فى إلهيته وأما الربوبية فقد أقروا بها كما تقدم . وقد قال عبد المطلب لأبْرَهَة : « أنا ربُّ الإبل ، والبيت له رب يمنعه منك » ، وهذه المقالة منهما عند قول النبى ﷺ لعمه : « قل : لا إله إلا الله » استكباراً عن العمل بمدلولها ، كما قال الله تعالى عنهما وعن أمثالهما من أولئك المشركين (٣٧ ، ٣٥ ، ٣٦) : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون : أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ فرد عليهم بقوله (٣٧ : ٣٧) : ﴿ بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ فبين تعالى أن استكبارهم عن قول : « لا إله إلا الله » لدلالتها على نفى عبادتهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله ، فإن دلالة هذه الكلمة على نفى ذلك دلالة تضمن ، ودلالتها عليه وعلى الإخلاص دلالة مطابقة .

ومن حكمة الرب تعالى فى عدم هداية أبى طالب إلى الإسلام ليبين لعباده أن ذلك إليه ، وهو القادر عليه دون من سواه ، فلو كان عند النبى ﷺ - الذى هو أفضل خلقه - من هداية القلوب - وتفريج الكروب ، ومغفرة الذنوب ، والنجاة من العذاب ، ونحو ذلك شىء : لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به عمه الذى كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه ، فسبحان من بَهَرَتْ حكمتُه العقول ، وأرشد العباد إلى ما يدلّهم على معرفته وتوحيده وإخلاص العمل له وتجريده .

قوله : (فكان آخر ما قال) الأحسن فيه الرفع على أنه اسم « كان » ، وجملة « هو » وما بعدها الخبر .

قوله : (هو على ملة عبد المطلب) الظاهر أن أبا طالب قال : « أنا » فغيره الراوى استقباحاً للفظ المذكور ، وهو من التصرفات الحسنة ، قاله الحافظ .

قوله : (وأبى أن يقول : لا إله إلا الله) قال الحافظ : هذا تأكيد من الراوى فى نفى وقوع ذلك من أبى طالب .

---

(١) فى قرة العيون : فيه مضرة أصحاب السوء والحذر من قربهم والاستماع لهم ، ففيه معنى قول الناظم :

إذا ما صحبت القوم فأصحب خيارهم ــــ ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

فقال النبيُّ ﷺ : « لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك » ، فأنزل الله عز وجل (٩ : ١١٣): ﴿ ما كان للنبيِّ والذين آمنوا أن يَسْتَغْفِرُوا للمشركين ولو كانوا أولى قربى - الآية ﴾ ، وأنزلَ الله فى أبى طالب (٢٨ : ٥٦) : ﴿ إنك لا تهدِى من أحببتَ ، ولكنَّ الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين ﴾ » [1] .

قال المصنف - رحمه الله - : (وفيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه ، ومضرة أصحاب السوء على الإنسان ، ومضرة تعظيم الأسلاف) .

أى : إذا زاد على المشروع ، بحيث تجعل أقوالهم حجة يرجع إليها عند التنازع .

قوله : (فقال النبى ﷺ : « لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك ») قال النووى : وفيه جواز الحلف من غير استحلاف ، وكان الحلف هنا لتأكيد العزم على الاستغفار تطييباً لنفس أبى طالب .

وكانت وفاة أبى طالب بمكة قبل الهجرة بقليل .

قال ابن فارس : مات أبو طالب ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً .

وتوفيت خديجة أم المؤمنين - رضى الله عنها - بعد موت أبى طالب بثمانية أيام .

قوله : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى ﴾ الآية .

أى ما ينبغى لهم ذلك، وهو خبر بمعنى النهى، والظاهر أن هذه الآية نزلت فى أبى طالب.

فإن الإتيان بالفاء المفيدة للترتيب فى قوله : « فأنزل الله » بعد قوله : « لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك » يفيد ذلك .

وقد ذكر العلماء لنزول هذه الآية أسباباً أُخر ، فلا منافاة ؛ لأن أسباب النزول قد تتعدد .

قال الحافظ : أما نزول الآية الثانية فواضح فى قصة أبى طالب ، وأما نزول الآية التى قبلها ففيه نظر ، ويظهر أن المراد أن الآية المتعلقة بالاستغفار نزلت بعد أبى طالب بمدة ، وهى عامة

---

(١) الهداية تطلق على خلق الهدى فى القلب وتحويله من الضلال والكفر والفسوق إلى الهدى والإيمان والطاعة ، وتسديده على صراط الله المستقيم وتثبيته عليه ، وهذه مختصة بالله تعالى ، لأنه هو الذى يقلب القلوب ويصرفها ، ويهدى من يشاء ويضل من يشاء ، ومن يهدى الله فما له من مضل ، ومن يضلل فما له من هاد ، وهى المنفية فى الآية عن النبى ﷺ وعن غيره من باب أولى ، فمن ادعاها من مشايخ الطرق الصوفية ونحوهم ، وزعم أنه يدخل قلوب مريديه وتلاميذه ويعلم ما فيها ويصرفها على ما يريد فهو كاذب ضال مضل . ومن صدق ذلك فهو ضال مكذب لله ولرسوله ، وتطلق على العلم والدلالة والإرشاد بالقرآن ونحوه على طريق النجاة والسعادة ، وهذه يقدر عليها المخلوق وهى المثبتة للنبى ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ وقد أوجب الله على أهل العلم أن يقوموا بها فيرشدوا الناس ويهدوهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر محتجاً بالآية ، ﴿ إنك لا تهدى من أحببت . . ﴾ إلخ وهذا وذاك جهل وضلال .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير : ﴿ إنكَ لا تهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ولكنَّ الله يهدِى من يشاء ﴾ .

الثانية : تفسير قوله : ﴿ ما كان للنبىِّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولَوْ كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ .

الثالثة : وهى المسألة الكبيرة : تفسير قوله : « قل لا إله إلا الله » بخلاف ما عليه مَنْ يَدَّعى العلم [٢] .

الرابعة : أن أبا جَهْل وَمَنْ معه يعرفون مراد النبىِّ ﷺ ، إذ قال للرجل : « قل لا إله إلا الله » ، فَقَبَّحَ الله مَنْ أبو جَهْل أعلمُ منه بأصل الإسلام .

الخامسة : جِدُّه ﷺ ومُبالغته فى إسلام عمه .

السادسة : الردُّ على مَنْ زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه .

السابعة : كونه ﷺ استغفر له فلم يُغْفَر له ، بل نهِىَ عن ذلك .

الثامنة : مَضَرّة أصحاب السوء على الإنسان .

فى حقه وحق غيره . يوضح ذلك ما يأتى فى التفسير [١] ، فأنزل الله بعد ذلك : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين - الآية ﴾ ، ونزل فى أبى طالب : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ﴾ كله ظاهر فى أنه مات على غير الإسلام ، ويُضَعِّف ما ذكره السُّهَيلى أنه روى فى بعض كتب المسعودى أنه أسلم ؛ لأن مثل ذلك لا يعارض ما فى الصحيح . انتهى .

وفيه : تحريم الاستغفار للمشركين وموالاتهم ومحبتهم ؛ لأنه إذا حرم الاستغفار لهم فموالاتهم ومحبتهم أولى .

---

(١) ساق البخارى قصة موت أبى طالب فى كتاب الجنائز فى الباب الحادى والثمانين ولم يتكلم عليه الحافظ فى الفتح ، بل حوله إلى التفسير . وساقه فى تفسير براءة فحول الحافظ تفصيل القول فيه إلى سورة القصص .

(٢) كثير من أدعياء العلم يجهلون « لا إله إلا الله » فيحكمون على كل من تلفظ بها بالإسلام ولو كان مجاهراً بالكفر الصراح ، كعبادة القبور والموتى والأوثان واستحلال المحرمات المعلوم تحريمها من الدين ضرورة والحكم بغير ما أنزل الله واتخاذ أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، ولو كانت لهؤلاء الجهلة قلوب يفقهون بها لعلموا أن معنى « لا إله إلا الله » البراءة من عبادة غير الله ، وإعطاء العهد والميثاق بالقيام بأداء حق الله فى العبادة ، يدل على ذلك قول الله تعالى : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ ، وقد شهد النبى ﷺ للخوارج بكثرة الصلاة والصيام وقراءة القرآن المشحون بلا إله إلا الله . ومع ذلك فقد حكم عليهم بالكفر وبأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية وقال : « لو أدركتهم لقتلتهم قتل عاد » كما فى الصحيحين ، ولو كان مجرد التلفظ بلا إله إلا الله كافياً ، ما وقعت الحرب والعداء بين الرسول ﷺ وبين المشركين الذين كانوا يفهمون « لا إله إلا الله » أكثر مما يفهمها أدعياء العلم فى هذا الزمن . ولكن طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون .

التاسعة : مَضَرَّةُ تعظيم الأسلاف والأكابر .

العاشرة : استدلال الجاهلية بذلك .

الحادية عشرة : الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم ؛ لأنه لو قالها لنفعته .

الثانية عشرة : التأملُ فى كِبَرِ هذه الشبهة فى قلوب الضالين لأنَّ فى القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها ، مع مبالغته ﷺ وتكريره ، فلأجلِ عَظَمَتها وَوُضوحها عندهم اقتصروا عليها .

* * *

باب (ما جاء أن سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم هو الغُلُوُّ فى الصالحين)

وقول الله عز وجل (٤ : ١٧١) : ﴿ يا أهلَ الكتاب ، لا تَغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ .

قوله : (باب ما جاء أن سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم هو الغلو فى الصالحين)

قوله : (تركهم) بالجر عطفاً على المضاف إليه . وأراد المصنف - رحمه الله تعالى - : بيان ما يؤُول إليه الغلو فى الصالحين من الشرك بالله الإلهية الذى هو أعظم ذنب عصى الله به، وهو ينافى التوحيد الذي دلت عليه كلمة الإخلاص : شهادة أن لا إله إلا الله .

قوله : (وقول الله عز وجل (٤ : ١٧١) : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ الغلو : هو الإفراط فى التعظيم بالقول والاعتقاد ، أي : لا ترفعوا المخلوق عن منزلته التى أنزله الله فتنزلوه المنزلة التى لا تنبغى إلا لله . والخطاب - وإن كان لأهل الكتاب - فإنه عام يتناول جميع الأمة ، تحذيراً لهم أن يفعلوا بنبيهم ﷺ فعل النصارى فى عيسى ، واليهود فى العزير [1] كما قال تعالى (٥٧ : ١٦) : ﴿ ألم يأْنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أُوتوا الكتابَ من قبل فطال عليهم الأمدُ فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون ﴾ ، ولهذا قال النبى ﷺ : « لا تُطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم » ويأتى .

---

(١) فى قرة العيون : وقد وقع ذلك الشرك فى العبادة فى هذه الأمة نظماً ونثراً كما فى كلام البوصيرى والبرعى وغيرهما ، وفيما فعلوه من الغلو والشرك محادة لله ولكتابه ولرسوله ﷺ ، فأين ما وقع فيه هؤلاء الجهلة من قول من قال للنبى ﷺ : « أنت سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا » فكره ذلك ﷺ أشد الكراهة ؟ كما سيأتى فى الكلام على هذا الحديث إن شاء الله تعالى ، وقول القائل : « ما شاء الله وشئت » فقال : « أجعلتنى لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده » .

في الصحيح عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قول الله تعالى (٧١ : ٢٣) : ﴿وقالوا : لا تَذَرُنَّ آلهتكم ، ولا تَذَرُنَّ وَداً ولا سُوَاعاً ، ولا يَغُوثَ ويَعوقَ ونَسْراً﴾ قال : « هذه أسماءُ رجالٍ صالحين من قَوم نُوحٍ فلما هلكوا أوحَى الشيطانُ إلى قومهم :

فكل من دعا نبياً أو ولياً من دون الله فقد اتخذه إلهاً ، وضاها النصارى فى شركهم ، وضاها اليهود فى تفريطهم ، فإن النصارى غلوْا فى عيسى - عليه السلام - ، واليهود عادوه وسبّوه وتنقصوه . فالنصارى أفرطوا ، واليهود فرطوا . وقال تعالى (٥ : ٧٥) : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدِّيقة كانا يأكلان الطعام ﴾ ففى هذه الآية وأمثالها الرد على اليهود والنصارى .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى ، وغلا فى الدين بإفراط فيه أو تفريط فقد شابههم . قال : وعليّ - رضى الله عنه - حرق الغالية من الرافضة ، فأمر بأخاديد خُدَّت لهم عند باب كندة [1] فقذفهم فيها . واتفق الصحابة على قتلهم لكن ابن عباس مذهبه أن يُقتلوا بالسيف من غير تحريق . وهو قول أكثر العلماء .

قوله : (فى الصحيح عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قول الله تعالى (٧١ : ٢٣): ﴿وقالوا : لا تَذَرُنَّ آلهتكم ، وَلا تَذَرُنَّ وَداً وَلا سُوَاعاً ، ولا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم : أنِ انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، ولم تُعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونُسى العلم عُبدت ﴾ قوله : (فى الصحيح) أى : صحيح البخارى .

وهذا الأثر اختصره المصنف . ولفظ ما فى البخارى : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « صارت الأوثان التى فى قوم نوح فى العرب بعدُ . أما « وَدّ » فكانت لكلب بدَوْمَةَ الجندل . وأما « سُواع » فكانت لهذيل ، وأما « يغوث » فكانت لمراد ، ثم لبنى غُطيف بالجُرف عند سبأ . وأما « يعوق » فكانت لهمدان ، وأما « نسر » فكانت لحِمْيَر لآل ذى الكلاع : أسماء رجال صالحين فى قوم نوح - إلى آخره » .

وروى عكرمة والضحاك وابن إسحاق نحو هذا .

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد قال : حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس : « أن يغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين من بنى آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون

(١) باب من أبواب الكوفة : الغلاة المحرقون : هم عبد الله بن سبأ اليهودى وأتباعه ، قالوا : إن علياً إلههم ، فنهاهم فلم ينتهوا فحرقهم ، وإنما أراد ابن سبأ بذلك إحداث فتنة ، وخلق شيع ، وفتح ثغرة فى صفوف المسلمين. وقد حدث ما أراد هذا اليهودى الملعون ، ووجد فى الناس كثير ممن أطاعه وآله علياً وأبناءه وكفر بالله ورسوله وعادى علياً والمؤمنين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أن أنصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسونَ فيها أنصاباً ، وسمُّوها بأسمائهم ، ففعلوا . ولم تُعْبَد ، حتى إذا هلك أُولئك ونسِيَ العلم عُبِدَت » .

بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة ؛ فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر فعبدوهم ».

قوله : (أن انصبوا) هو بكسر الصاد المهملة .

قوله : (أنصاباً) جمع نُصب . والمراد به هنا : الأصنام المصورة على صور أولئك الصالحين التى نصبوها فى مجالسهم ، وسموها بأسمائهم . وفى سياق حديث ابن عباس ما يدل على أن الأصنام تسمى أوثاناً . فاسم الوثن يتناول كل معبود من دون الله ، سواء كان ذلك المعبود قبراً أو مشهداً ، أو صورة أو غير ذلك [1] .

قوله : (حتى إذا هلك أولئك) أى الذين صوروا تلك الأصنام .

قوله : (ونُسى العلم) ورواية البخارى : « وينسخ » ، وللكشميهنى : « ونسخ العلم » ، أى درست آثاره بذهاب العلماء ، وعم الجهل حتى صاروا لا يميزون بين التوحيد والشرك ، فوقعوا فى الشرك ظناً منهم أنه ينفعهم عند الله .

قوله : (عبدت) لما قال لهم إبليس : إن من كان قبلكم كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر

---

(١) فى قرة العيون : فصارت هذه الأصنام بهذا التصوير على صور الصالحين سلماً إلى عبادتها وكل ما عبد من دون الله ، من قبر أو مشهد ، أو صنم ، أو طاغوت فالأصل فى عبادته هو الغلو : كما لا يخفى على ذوى البصائر . كما جرى لأهل مصر وغيرهم ، فإن أعظم آلهتهم أحمد البدوى وهو لا يعرف له أصل ولا فضل ولا علم ولا عبادة . ومع هذا فصار أعظم آلهتهم مَع أنه لا يعرف إلا أنه دخل المسجد يوم الجمعة فبال فيه ثم خرج ولم يصل . ذكره السخاوى عن أبى حيان . فزين له الشيطان عبادته فاعتقدوا أنه ينصرف فى الكون ؛ ويطفئ الحريق وينجى الغريق ، وصرفوا له الإلَهية والربوبية وعلمَ الغيب ، وكانوا يعتقدون أنه يسمعهم ويستجيب لهم من الديار البعيدة . وفيهم من يسجد على عتبة حضرته ، وكان أهل العراق ومن حولهم كأهل عمان يعتقدون فى عبد القادر الجيلانى ، كما يعتقد أهل مصر فى البدوى . وعبد القادر من متأخرى الحنابلة وله كتاب الغنية ، وغيره ممن قبله وبعده من الحنابلة أفضل منه فى العلم والزهد ، لكن فيه زهد وعبادة ، وفتنوا به أعظم فتنة ، كما جرى من الرافضة مع أهل البيت .

وسبب ذلك الغلو دعوى أن له كرامات وقد جرت الكرامات لمن هو خير منه وأفضل كبعض الصحابة والتابعين ، وهكذا حال أهل الشرك مع من فتنوا به .

وأعظم من هذا عبادة أهل الشام لابن العربى وهو إمام أهل الوحدة الذين هم أكفر أهل الأرض وأكثر من يعتقد فيه هؤلاء لا فضل له ولا دين كأناس بمصر وغيره ، وجرى فى نجد قبل هذه الدعوة مثل هذا ؛ وفى الحجاز واليمن وغيرهما عن عبادة الطواغيت والأشجار والأحجار والقبور ما عمت به البلوى ، كعبادتهم للجن وطلبهم الشفاعة منهم ، والأصل فى ذلك الغلو تزيين الشيطان ، وذكر أهل السير أن التلبية من عهد إبراهيم عليه السلام «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك » حتى كان عمرو بن لحى الخزاعى فبينما هو يلبى تمثل له الشيطان فى صورة شيخ يلبى معه فقال : « لبيك لا شريك لك » ، فقال الشيخ : « إلا شريكاً هو لك » فأنكر ذلك عمرو وقال: ما هذا ؟ فقال الشيخ : « تملكه وما ملك » فإنه لا بأس بهذا ، فقالها عمرو ، فدانت بها العرب .

هو الذى زين لهم عبادة الأصنام وأمرهم بها ، فصار هو معبودهم فى الحقيقة ، كما قال تعالى (٣٦ : ٦٠ - ٦٢) : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً * أفلم تكونوا تعقلون ؟ ﴾ وهذا يفيد الحذر من الغلو ووسائل الشرك ، وإن كان القصد بها حسناً . فإن الشيطان أدخل أولئك فى الشرك من باب الغلو فى الصالحين والإفراط فى محبتهم ، كما قد وقع مثل ذلك فى هذه الأمة : أظهر لهم الغلو والبدع فى قالب تعظيم الصالحين ومحبتهم ، ليوقعهم فيما هو أعظم من ذلك ، من عبادتهم لهم من دون الله [1] ، وفى رواية أنهم قالوا : ما عظّم أوّلنا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله » أى يرجون شفاعة أولئك الصالحين الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم وسموها بأسمائهم . ومن هنا يعلم أن اتخاذ الشفعاء ورجاء شفاعتهم بطلبها منهم : شرك بالله ، كما تقدم بيانه فى الآيات المحكمات .

قوله : (وقال ابن القيم رحمه الله : قال غير واحد من السلف : « لما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم) .

قوله : (وقال ابن القيم رحمه الله) هو الإمام العلامة محمد بن أبى بكر بن أيوب الزرعى الدمشقى المعروف بابن قيم الجوزية . قال الحافظ السخاوى : العلامة الحجة المتقدم فى سعة العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان . المجمع عليه بين الموافق والمخالف ، صاحب التصانيف السائرة ، والمحاسن الجمة . مات سنة إحدى وخمسين وسبعمائة .

قوله : (وقال غير واحد من السلف) هو بمعنى ما ذكره البخارى وابن جرير ، إلا أنه ذكر عكوفهم على قبورهم قبل تصويرهم تماثيلهم . وذلك من وسائل الشرك ، بل هو الشرك ؛ لأن العكوف لله فى المساجد عبادة. فإذا عكفوا على القبور صار عكوفهم تعظيماً ومحبة: عبادة لها .

---

(١) وما جر إلى هذا الغلو الذى أدى إلى عبادتهم من دون الله إلا تعظيم قبورهم ؛ وبناء القباب عليها ، وسترها بالأستار ، وإيقاد السرج ، وقيام السدنة وشياطين الإنس عندها لدعوة الناس إلى عبادتها بأنواع النذور فيعود عليهم من تلك الأموال ، وإلا فكم من عباد صالحين من الصحابة وأفاضل العلماء الذين كان لهم قدم صدق فى الإسلام مدفونون فى مقابر مصر والشام وغيرهما ؛ هم أفضل آلاف المرات من أمثال البدوى والدسوقى بل نعالهم أشرف وأكرم من هذا البدوى وأضرابه -- لا يعرفهم أولئك المشركون - لأنهم لم ينصب على قبورهم تلك الأنصاب ولم تتخذ عليها تلك الأوثان . ولذلك كان الذى يزعم أنه يزور الموعظة وتذكر الدار الآخرة ، تلك القبور التى نصبت عليها هذه الأنصاب والمقاصير من أجهل الناس وأبعدهم عن هدى الإسلام الذى لا يعرف تلك القباب وإنما يعرف التى لا يبنى عليها ولا يكتب عليها ولا تستر بالأستار الحرير وغيرها فإنه من أمحل المحال الاتعاظ بهذه الأوثان والأنصاب ، ومن أعظم الجهل أن تسمى هذه القبور تسن زيارتها كما تسن زيارة القبور التى وصفها رسول الله ﷺ وأمر بها فنسألك اللهم أن تعجل بهدم هذه الأوثان وتطهير الأرض منها كلها تحقيقاً لما أمر به نبيك ﷺ وبعث به علىّ بن أبى طالب إلى اليمن صيانة للتوحيد من قذر الشرك الذى أعظم أسبابه هذه القبور .

صوَّروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم » .

قوله : (ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم) أى طال عليهم الزمان . وسبب تلك العبادة والموصل إليها : هو ما جرى من الأولين من التعظيم بالعكوف على قبورهم ، ونصب صورهم فى مجالسهم ؛ فصارت بذلك أوثاناً تعبد من دون الله ، كما ترجم به المصنف رحمه الله تعالى فإنهم تركوا بذلك دين الإسلام الذى كان أولئك عليه قبل حدوث وسائل هذا الشرك ، وكفروا بعبادة تلك الصور واتخذوهم شفعاء . وهذا أول شرك حدث فى الأرض .

قال القرطبى : وإنما صوّر أوائلهم الصور ليتأسوا بهم ، ويتذكروا أفعالهم الصالحة ، فيجتهدوا كاجتهادهم ، ويعبدوا الله عند قبورهم ، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ، فوسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصورة ويعظمونها . ا هـ .

قال ابن القيم رحمه الله : وما زال الشيطان يوحى إلى عُبَّاد القبور ويلقى إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين ، وأن الدعاء عندها مستجاب ، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها ، والإقسام على الله بها ، فإن شأن الله أعظم من أن يُقْسَم عليه ، أو يسأل بأحد من خلقه .

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته ، وسؤاله الشفاعة من دون الله . واتخاذ قبره وثناً تعلق عليه القناديل والستور ، ويطاف به ويستلم ويقبَّل ، ويحج إليه ويذبح عنده ، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته ، واتخاذه عيداً ومنسكاً ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم فى دنياهم وأخراهم . وكل هذا مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ : من تجديد التوحيد ، وأن لا يعبد إلا الله .

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى أن مَن نهى عن ذلك فقد تنقّص أهل هذه الرتب العالية، وحطهم عن منزلتهم ، وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر ، فيغضب المشركون وتشمئز قلوبهم ، كما قال تعالى (٣٩ : ٤٥) : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ وسرى ذلك فى نفوس كثير من الجهال والطغام ، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين ، حتى عادَوْا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم ونفّروا الناس عنهم ، ووالوْا أهل الشرك وعظموهم ، وزعموا أنهم أولياء الله ، وأنصار دينه ورسوله ، ويأبى الله ذلك (٨ : ٣٤) : ﴿ وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ . ا هـ كلام ابن القيم رحمه الله .

وفى القصة فوائد ذكرها المصنف رحمه الله [1] .

(١) كان الشارح رحمه الله قد ذكرها بنقص السادسة والحادية عشرة والسابعة عشرة والثامنة عشرة ، فاكتفينا بنص المصنف رحمه الله لعدم التكرار .

ومنها : رد الشبه التى يسميها أهل الكلام عقليات ، ويدفعون بها ما جاء به الكتاب والسنة: من توحيد الصفات ، وإثباتها على ما يليق بجلال الله وعظمته وكبريائه .

ومنها : مضرة التقليد .

ومنها : ضرورة الأمة إلى ما جاء به رسول الله ﷺ علماً وعملاً بما يدل عليه الكتاب والسنة فإن ضرورة العبد إلى ذلك فوق كل ضرورة .

قوله : (وعن عمر رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » أخرجاه) .

---

(١) حيث إن النبى أخبر - وهو الصادق - أن بعض هذه الأمة يتبع سنن أهل الكتاب فى اتباع الهوى والقول على الله بلا علم وابتداع دين لم يشرعه الله . فقد وقع ما نهى عنه النبى ﷺ فإن كثيراً ممن ينتسب إلى الإسلام يطرى النبى غاية الإطراء فيعتقد فيه أنه يعلم الغيب وأنه لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . وقد نفى الله عنه ذلك فى القرآن فقال : ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ؛ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ﴾ ، ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ﴾ ، ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ﴾ فكفروا به اعتقدوا ما أوحته إليهم الشياطين . وكثير منهم يعتقدون أنه ينصرف فى الدنيا بعد موته ويزور من شاء فى المشارق والمغارب . وقد بلغت الوقاحة بالدجال أحمد التيجانى أن زعم أن النبى ﷺ يحضر مجلس مكائه وتصديته ومجالس كل من اتبعه فى طريقه الضال ، فصار هؤلاء الزائفون إذا جلسوا للّغط واللغو الذى يسمونه صلاة الفاتح ، ويزعمون بوقاحتهم وفجورهم أن المرة الواحدة منها أفضل من القرآن ستة آلاف مرة ، وينشرون ثوباً أبيض فى وسط حلقتهم ليجلس عليه النبى ﷺ والخلفاء ، وإنما زعم الدجال التيجانى هذا تمويهاً على أشباه الأنعام العامة ليتبعوه على دجله وباطله ويريهم أنه أتى بما لم يسبق إليه . وصدق فإنه لم يسبق إلى هذه الوقاحة فى الكفر فنعوذ بالله من عمى القلوب ، وشرع ما لم يأذن به الله ، بل تكاد السموات يتفطرن منه . وبعضهم يعتقد أن النبى ﷺ يزوره ويشرع له من الدين ما يخالف شرعه الذى أتمه الله وأكمله وارتضاه ديناً قبل موته ﷺ ادعى ذلك الشعرانى فى كتاب العهود المحمدية . وزعم أن شيخه الخواص كان لا يفارق النبى ﷺ طرفة عين وهذا كله كذب وبهتان . فكم وقع بين الصحابة مع الخلافات ما كان أولى أن يجيئهم فيها النبى ﷺ ليرجعهم فيها إلى الصواب الذى يطفئ الفتنة ، لو أمكن ظهوره ، ولكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، وبعضهم يعتقدون أن السموات والأرض وما بينهما مملوءة بالنبى ولو كشف عنا الحجاب لرأيناه عياناً ؛ فإذا سمع أهل الغرور هذه الخرافة أفنوا أعمارهم فى الخلوات يهمهمون ويزمزمون ، وأنفقوا أموالهم كلها على الدجالين المشعوذين الذين أغووهم كل ذلك طمعاً فى المحال أن يروا النبى عياناً مالئاً السماء والأرض وما بينهما ؛ وقد انجر بنا الكلام إلى ذكره شىء من باطلهم تحذيراً لمن لم يقع فى حبائلهم وإنذاراً لمن وقع ؛ وهذا نزر يسير مما نعرفه عنهم وهو مسطور فى كتبهم وأساطيرهم المطبوعة المنشورة ، وليعلم الناظر فى هذا أنى كنت على عقيدتهم الخبيثة سنين فأنقذنى الله منها على يد بعض المصلحين فاستيقظت من نوم البدعة الذميمة فلاحت لى أنوار شمس السنة ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

إنما أنا عبدٌ ، فقولوا : عبد الله ورسوله » أخرجاه .

قوله : (عن عمر) هو ابن الخطاب بن نفيل - بنون وفاء مصغراً - العدوى ، أمير المؤمنين، وأفضل الصحابة بعد الصديق رضى الله عنهم ولِىَ الخلافة عشر سنين ونصفاً ، فامتلأت الدنيا عدلاً ، وفتحت فى أيامه ممالك كسرى وقيصر . واستُشهد فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين رضى الله عنه .

قوله : (لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم) [1] الإطراء : مجاوزة الحدّ فى المدح ، والكذب فيه ، قاله أبو السعادات . وقال غيره : أى لا تمدحونى بالباطل ، ولا تجاوزوا الحد فى مدحى .

قوله : (إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله) أى لا تمدحونى فتغلوا فى مدحى كما غلت النصارى فى عيسى عليه السلام فادّعَوْا فيه الإلهية وإنما أنا عبد الله ورسوله ، فصِفونى بذلك كما وصفنى ربى ، فقولوا : عبد الله ورسوله ، فأبى المشركون إلا مخالفة أمره ، وارتكاب نهيه ، وعظموه بما نهاهم عنه وحذرهم منه ، وناقضوه أعظم مناقضة ، وضاهؤا النصارى فى غلوهم وشركهم ، ووقعوا فى المحذور ، وجرى منهم من الغلو والشرك شعراً ونثراً ما يطول عده ، وصنفوا فيه مصنفات .

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله عن بعض أهل زمانه [2]: أنه جوّز الاستغاثة بالرسول ﷺ فى كل ما يستغاث فيه بالله ؛ وصنف فى ذلك مصنفاً رده شيخ الإسلام، وردّه موجود بحمد الله . ويقول : إنه يعلم مفاتيح الغيب التى لا يعلمها إلا الله . وذكر عنهم أشياء من هذا النمط . نعوذ بالله من عمى البصيرة .

وقد اشتهر فى نظم البوصيرى قوله :

يا أكـرم الخـلق مالى من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العمم

وما بعده من الأبيات التى مضمونها : إخلاص الدعاء واللياذ والرجاء والاعتماد فى أضيق

---

(١) فى قرة العيون : كما قال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ [٤ : ٧١] ، قوله : « إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » أمرهم ﷺ أن لا يتجاوزوا هذا القول وقد أمر الله عباده بالصلاة والسلام عليه ، لأن أشرف مقامات الأنبياء ؛ العبودية الخاصة والرسالة .

(٢) هو على بن يعقوب بن جبريل البكرى المتوفى يوم الاثنين سابع ربيع الآخر سنة ٧٢٤ هـ ، والرد عليه اسمه تلخيص كتاب الاستغاثة طبع السلفية سنة ١٣٤٦ على نفقة جلالة إمام الموحدين ناصر السنة وقامع البدعة ، والملك الصالح الموفق عبد العزيز آل سعود ، أيده الله بنصره وأطال حياته المباركة فى خدمة الإسلام ؛ ووفق ولى عهد المعظم صاحب السمو الملكى الأمير الأجل سعود إلى مثل ما يقوم به والده العظيم من نشر راية الإسلام وإعلاء كلمته ، بطبع الكتب النافعة ، وإقامة حدود الله .

وقال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والغُلو ؛ فإنما أهلك مَنْ كان قبلكم الغلو » .

ولمسلم عن ابن مسعود : أن رسول الله ﷺ قال : « هلك المتنطعون –

الحالات ، وأعظم الاضطرار لغير الله ، فناقضوا الرسول ﷺ بارتكاب ما نهى عنه أعظم مناقضة ، وشاقوا الله ورسوله أعظم مشاقة ، وذلك أن الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم فى قالب محبة النبى ﷺ وتعظيمه ، وأظهر لهم التوحيد والإخلاص الذى بعثه الله به فى قالب تنقيصه ، وهؤلاء المشركون هم المتنقصون الناقصون ، أفرطوا فى تعظيمه بما نهاهم عنه أشد النهى ، وفرطوا فى متابعته ، فلم يعبأوا بأقواله وأفعاله ، ولا رضوا بحكمه ولا سلموا له ، وإنما يحصل تعظيم الرسول ﷺ بتعظيم أمره ونهيه ، والاهتداء بهديه ، واتبع سنته ، والدعوة إلى دينه الذى دعا إليه ونُصرته ، وموالاة من عمل به ، ومعاداة من خالفه ، فعكَس أولئك المشركون ما أراد الله ورسوله علماً وعملاً ، وارتكبوا ما نهى الله عنه ورسوله . فالله المستعان .

قوله : (وقال : قال رسول الله ﷺ: « إياكم والغلو ؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو »).

هذا الحديث ذكره المصنف بدون ذكر راويه . وقد رواه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس .

وهذا لفظ [(١)] رواية أحمد : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ غَداة جَمْعٍ : « هَلُمَّ الْقُطْ لى ، فلقطتُ له حَصيات هُنَّ حَصَى الخَذْف . فلما وضعهن فى يده قال : نعم بأمثال هؤلاء فارموا. وإياكم والغلو فى الدين؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين».

قال شيخ الإسلام : هذا عام فى جميع أنواع الغلو فى الاعتقادات والأعمال . وسبب هذا اللفظ العام رمى الجمار ، وهو داخل فيه ؛ مثل الرمى بالحجارة الكبار ، بناء على أنه أبلغ من الصغار . ثم علله بما يقتضى مجانبة هَدْى من كان قبلنا إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به ، فإن المشارك لهم فى بعض هديهم يُخاف عليه من الهلاك .

قوله : « ولمسلم عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: « هلك المتنطعون – قالها ثلاثاً».

قال الخطابى : المتنطع : المتعمق فى الشىء ، المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يغنيهم ، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم .

ومن التنطع : الامتناع من المباح مطلقاً ، كالذى يمتنع من أكل اللحم والخبز ، ومن لبْس الكتان والقطن ، ولا يلبس إلا الصوف ، ويمتنع من نكاح النساء ، ويظن أن هذا من الزهد المستحب . قال الشيخ تقى الدين : فهذا جاهل ضال . انتهى .

وقال ابن القيم رحمه الله : قال الغزالى : والمتنطعون فى البحث والاستقصاء .

---

(١) ورواه أيضاً الإمام أحمد وأبو داود ، وإنما اقتصر المصنف على ما هو أرجح وأقوى .

قالها ثلاثاً » .

فيه مسائل :

الأولى : أن مَنْ فهم هذا الباب وبابين بعده تبين غربة الإسلام ، ورأى من قدرة الله ، وتقليبه للقلوب العجب .

الثانية : معرفة أول شرك حدث فى الأرض : أنه بشبهة الصالحين .

الثالثة : أول شىء غُيِّر به دين الأنبياء ، وما سبب ذلك ، مع معرفة أن الله أرسلهم .

الرابعة : قبول البدع ، مع كون الشرائع والفِطَر تردها .

الخامسة : أن سبب ذلك كله مَزْج الحق بالباطل ، فالأول: محبة الصالحين. والثانى: فِعْل أُناس من أهل العلم شيئاً أرادوا به خيراً ، فظن مَن بعدهم أنهم أرادوا به غيره .

السادسة : تفسير الآية التى فى سورة نوح .

السابعة : جبلة الآدمى [1] فى كون الحق ينقص فى قلبه والباطل يزيد .

الثامنة : فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدع سبب الكفر .

التاسعة : معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ، ولو حَسُن قصد الفاعل .

العاشرة : معرفة القاعدة الكلية ، وهى النهى عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه .

الحادية عشرة : مَضرَّة العكوف على القبر لأجل عمل صالح .

الثانية عشرة : معرفة النهى عن التماثيل ، والحكمة فى إزالتها .

الثالثة عشرة : معرفة شأن هذه القصة ، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها .

الرابعة عشرة : وهى أعجب وأعجب : قراءتهم إياها فى كتب التفسير والحديث ،

وقال أبو السعادات : هم المتعمقون الغالون فى الكلام ، المتكلمون بأقصى حلوقهم . مأخوذ من النطع ، وهو الغار الأعلى من الفم ، ثم استعمل فى كل متعمق قولاً وفعلاً .

وقال النووى : فيه كراهة التقعر فى الكلام بالتشدق وتكلف الفصاحة ، واستعمال وحشى اللغة ودقائق الإعراب فى مخاطبة العوام ونحوهم .

قوله : (قالها ثلاثاً) أى قال هذه الكلمة ثلاث مرات ، مبالغة فى التعليم والإبلاغ ، فقد بلغ البلاغ المبين . صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) الجبلة بكسرتين فلام مشددة وكخشبة أيضاً الخلقة والطبيعة ؛ والمعنى أن الإنسان مجبول على نقصان الحق فى قلبه وزيادة الباطل إلا من رحم الله وأنزل فى قلوبهم السكينة ، فإن إيمانهم لا يزال يزيد ولا ينقص .

ومعرفتهم بمعنى الكلام ، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم ، حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات ، فاعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال.

الخامسة عشرة : التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة .

السادة عشرة : ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك .

السابعة عشرة : البيان العظيم فى قوله : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم» فصلوات الله وسلامه على من بلّغ البلاغ المبين .

الثامنة عشرة : نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين .

التاسعة عشرة : التصريح بأنها لم تعبد حتى نُسى العلم ، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده .

العشرون : أن سبب فقد العلم موت العلماء .

* * *

باب (ما جاء من التغليظ فيمن عَبد الله عند قبر رجل صالح ، فكيف إذا عبده ؟)

فى الصحيح عن عائشة : « أن أُم سلمة ذكرَت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض

قوله : (باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح ، فكيف إذا عبده ؟)

أى : الرجل الصالح ؛ فإن عبادته هى الشرك الأكبر ، وعبادة الله عنده وسيلة إلى عبادته ، ووسائل الشرك محرمة ؛ لأنها تؤدى إلى الشرك الأكبر ، وهو أعظم الذنوب .

قوله : (فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها : « أن أُمُّ سَلَمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة [1] وما فيها من الصور ، فقال : أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح ، بنوا على قبره مسجداً ، وصوراً فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين : فتنة القبور وفتنة التماثيل) .

قوله : (فى الصحيح) أي الصحيحين .

قوله : (أن أم سلمة) هى هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن مرو بن مخزوم القرشية المخزومية . تزوجها رسول الله ﷺ بعد أبى سلمة سنة أربع . وقيل : ثلاث ، وكانت قد هاجرت مع أبى سلمة إلى الحبشة [2] ماتت سنة اثنتين وستين .

---

(١) لأن دين الحبشة : النصرانية ، وقد أسلم النجاشى وجماعة من أهلها لما هاجر إليها جعفر بن أبى طالب ومن معه من المسلمين – الهجرة الأولى .

(٢) ثم عادت مع زوجها أبى سلمة إلى مكة ، وهاجر أبو سلمة إلى المدينة ، وحبسها بنو المغيرة بمكة سنة ؛ ثم لحقت بزوجها فى المدينة ، وتوفى أبو سلمة رضى الله عنه سنة أربع من الهجرة .

الحبشة وما فيها من الصوَر ، فقال : أُولئكِ إذا مات فيهم الرجل الصالح ، أو العبد الصالح ، بنوْا على قبره مَسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شِرار الخلق عند الله» [١] .

فهؤلاء جمعوا بين فتنتين : فتنة القبور ، وفتنة التماثيل .

قوله : (ذكرت لرسول الله ﷺ) وفى الصحيحين : « أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ » ، و« الكنيسة » بفتح الكاف وكسر النون : معبَد النصارى .

قوله : (أولئك) بكسر الكاف ، خطاب للمرأة .

قوله : (إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح) هذا - والله أعلم - شك من بعض رواة الحديث : هل قال النبى ﷺ هذا أو هذا ؟ ففيه : التحرى فى الرواية ، وجواز الرواية بالمعنى .

قوله : (وصوروا فيه تلك الصور) الإشارة إلى ما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة من التصاوير التى فى الكنيسة .

قوله : (أولئك شرار الخلق عند الله) وهذا يقتضى تحريم بناء المساجد على القبور ، وقد لعن ﷺ من فعل ذلك كما سيأتى .

قال البيضاوى : لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم ، ويجعلونها قبلة يتوجهون فى الصلاة نحوها واتخذوها أوثاناً لعنهم النبى ﷺ .

قال القرطبى : وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بها ، ويتذكروا أعمالهم الصالحة ، فيجتهدوا كاجتهادهم ، ويعبدوا الله عند قبورهم ، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها . فحذر النبى ﷺ عن مثل ذلك ، سداً للذريعة المؤدية إلى ذلك [١] .

قوله : (فهؤلاء جمعوا بين فتنتين : فتنة القبور ، وفتنة التماثيل) هذا من كلام شيخ

---

(١) إنما كانوا شرار الخلق لأنهم ضلوا وأضلوا وسنوا لمن بعدهم الغلو فى القبور وأهلها المفضى بالغالين إلى عبادتها وكل من فعل من هذه الأمة التى سبق عليها القول بأن بعضها يتبع سنن المشركين من أهل الكتاب فهو مثلهم، وفى مثل هؤلاء ورد الحديث الذى فى الصحيح : « ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » ، وقال تعالى : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ الآية .

(٢) فى قرة العيون : ولم يذكر غير بناء المساجد والتصوير لكونه ذريعة إلى عبادة من بنوا عليه المساجد وصوروا صورته ، فبذلك صاروا شرار الخلق . فانظر إلى ما وقع فى هذه الآمة من ذرائع الشرك والوقوع فيه مما هو أعظم من هذا ، كالبناء على القبرر وتعظيمها وعبادتها ، ومع ذلك يعتقدون أنه ديناً وهو الشرك الذى حرمه الله ، وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، بالنهى عنه .

الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، ذكره المصنف رحمه الله تنبيهاً على ما وقع من شدة الفتنة بالقبور والتماثيل ، فإن الفتنة بالقبور كالفتنة بالأصنام أو أشد .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وهذه العلة التى لأجلها نهى الشارع ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور هى التى أوقعت كثيراً من الأمم إما فى الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك ، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين ، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك . فإن الشرك بقبر الرجل الذى يُعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر . ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها ، ويخشعون ويخضعون ، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها فى بيوت الله ولا وقت السحر ، ومنهم من يسجد لها ، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه فى المساجد ، فلأجل هذه المفسدة حسم النبى ﷺ مادتها . حتى نهى عن الصلاة فى المقبرة مطلقاً ، وإن لم يقصد المصلى بركة البقعة بصلاته ، كما يقصد بصلاته بركة المساجد ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها ؛ لأنها أوقات يقصد فيها المشركون الصلاة للشمس . فنهى أمته عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد ما قصده المشركون ، سداً للذريعة . وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاة فى تلك البقعة فهذا عين المحادّة لله ولرسوله ، والمخالفة لدينه ، وابتداع دين لم يأذن به الله ، فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين الرسول ﷺ : أن الصلاة عند القبور منهى عنها ، وأنه ﷺ لعن من اتخذها مساجد ، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك : الصلاة عندها ، واتخاذها مساجد ، وبناء المساجد عليها . وقد تواترت النصوص عن النبى ﷺ بالنهى عن ذلك والتغليظ فيه . وقد صرح عامة الطوائف بالنهى عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة . وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعى بتحريم ذلك . وطائفة أطلقت الكراهة . والذى ينبغى أن تحمل على كراهة التحريم ، إحساناً للظن بالعلماء ، وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهى عنه . ا هـ كلامه رحمه الله تعالى .

قوله : (ولهما عنها - أى عن عائشة رضى الله عنها - قالت : « لما نُزِل برسول الله ﷺ طَفِق يطرح خَميصة له على وجهه ، فإذا اغتمّ بها كشفها ، فقال - وهو كذلك - : لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما صنعوا ولولا ذلك أُبرز قبره ، غير أنه خَشى أن يتخذ مسجداً » [(1)] أخرجاه) .

قوله : (ولهما) أى البخارى ومسلم . وهو يغنى عن قوله فى آخره : « أخرجاه » .

قوله : (لما نزل) هو بضم النون وكسر الزاى : أى نزل به ملك الموت والملائكة الكرام عليهم السلام .

---

(1) نزل : بضم النون وكسر الزاى أى نزل به علامات الوفاة وخاف على أمته أن يتخذوا قبره مسجداً ويغلو فيه فيشركون بالله كما فعل الذين لعنهم فحذرهم من ذلك ، جزاه الله خير الجزاء .

طَفِق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتَمَّ بها كشفها فقال - وهو كذلك - : لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخَذوا قبور أنبيائهم مساجد يُحَذِّر ما صنعوا - ولولا ذلك أُبرز قبره ، غير أنه خَشى أن يُتخذ مسجداً » أخرجاه .

قوله : (طفق) بكسر الفاء وفتحها ، والكسر أفصح ، وبه جاء القرآن ، ومعناه : جعل .

قوله : (خميصة) بفتح المعجمة والصاد المهملة : كساء له أعلام .

قوله : (فإذا اغتم بها كشفها) أي عن وجهه .

قوله : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) [1] يبين أن من فعل مثل ذلك حَلّ عليه من اللعنة ما حلّ على اليهود والنصارى .

قوله : (يحذر ما صنعوا) الظاهر : أن هذا من كلام عائشة رضى الله عنها ، لأنها فهمت من قول النبى ﷺ ذلك تحذير أمته من هذا الصنيع الذى كانت تفعله اليهود والنصارى فى قبور أنبيائهم ، فإنه من الغلو فى الأنبياء ، ومن أعظم الوسائل إلى الشرك . ومن غربة الإسلام أن هذا الذى لعن رسول الله ﷺ فاعليه - تحذيراً لأمته أن يفعلوه معه ﷺ ومع الصالحين من أمته-قد فعله الخلق الكثير من متأخرى هذه الأمة ، واعتقدوه قربة من القربات ، وهو من أعظم السيئات والمنكرات ، وما شعروا أن ذلك محادة لله ورسوله .

قال القرطبى فى معنى هذا الحديث : وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة مَنْ فيها ، كما كان السبب فى عبادة الأصنام . انتهى .

إذ لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه وعبادة الصنم ، وتأمل قول الله تعالى عن نبيه يوسف بن يعقوب حيث قال (١٢ : ٣٨) : ﴿ واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ﴾ نكرةٌ فى سياق النفى تعم كل شرك .

قوله : (ولولا ذلك) أى ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبى ﷺ مسجداً لأبرز قبره ، وجعل مع قبور الصحابة الذين كانت قبورهم فى البقيع .

قوله : (غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً) روى بفتح الخاء وضمها ، فعلى الفتح يكون هو الذى خشى ذلك ﷺ ، وأمرهم أن يدفنوه فى المكان الذى قبض فيه . وعلى رواية الضم

---

(١) هذا هو الشاهد للترجمة ، لأن النبى ﷺ لعنهم على تحرى الصلاة عندها ، وإن كان المصلى إنما يصلى لله فمن كان يصلى عند القبور ويتخذها مساجد فهو ملعون ، لأنها ذريعة إلى عبادتها ؛ فكيف إذا عبد القبور فيها بأنواع العبادة ؛ وسؤاله ما لا قدرة له عليه ، وهذا هو الغاية التى يكون اتخاذ القبور مساجد ذريعة إليها ، وليست اللعنة خاصة باليهود والنصارى لأشخاصهم أو أزمانهم أو أسمائهم ، وإنما هى لأعمالهم ، وكذلك من فعل فعلهم، فمن فعل ما هو أعظم من فعلهم أولى باللعن ، وإنما أراد ﷺ تحذير أمته أن يتعرضوا لما تعرض له اليهود والنصارى من اللعنة ، ولذلك قالت عائشة : « يحذر ما صنعوا ولولا ذلك لأبرز قبره » .

ولمسلم عن جُنْدُبَ بن عبد الله قال : سمعتُ النبى ﷺ قَبْل أن يموتَ بخمسٍ وهو يقول : « إنى أَبْرَأُ إلى الله أن يكونَ لى منكم خليلٌ ،

يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة، فلم يبرزوا قبره خشية أن يقع ذلك من بعض الأمة غلواً وتعظيماً بما أبدي وأعاد من النهى والتحذير منه ولعن فاعله .

قال القرطبى : ولهذا بالغ المسلمون فى سد الذريعة فى قبر النبى ﷺ فأغلوا حيطان تربته وسدوا المداخل إليها . وجعلوها محدقة بقبره ﷺ ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين ، فتُصور الصلاة إليه بصورة العبادة فبنوا جدارين من ركنى القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره[١] انتهى [٢] .

قوله : (ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال : سمعت النبى ﷺ قبل أن يموت بخمس ، وهو يقول : « إنى أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل ، فإن الله قد اتخذنى خليلاً ، كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولو كانت متخذاً من أمتى خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك ») .

قوله : (عن جندب بن عبد الله) أي ابن سفيان البَجَلى ، وينسب إلى جده ، صحابى مشهور . مات بعد الستين .

قوله : (إنى أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل » أى امتنع عما لا يجوز لى أن أفعله والخَلَّة فوق المحبة . والخليل هو المحبوب غاية الحب ، مشتق من الخلة - بفتح الخاء - وهى تخلل المودة فى القلب ، كما قال الشاعر :

قد تخللت مسلك الروح منى ... وبذا سـمى الخليل خليلاً

هذا هو الصحيح فى معناها . كما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير وغيرهم رحمهم الله تعالى .

---

(١) وكان هذا الوضع قد جعل القبر لاصقاً بالجدار الذى فيه باب جبريل ، ولكن قد أزيل هذا الوضع وأخلى حول القبر من جهاته الأربع ، وأصبح كثير من المصلين يستقبلونه ممن يكون فى الموضع الخاص بالأموات ، وفى المكان الخاص بالنساء ، وأصبح عرضة لأن يطاف به . وقد رأيت كثيراً من العامة يطوفون به ؛ ويحاولون التمسح به لولا منع الجند الذين خصصتهم الحكومة السعودية لذلك المنع . ومهما حرص الجند على أداء وظيفتهم ؛ فلن يمكنهم ولا أى قوة أن تمنع هذا منعاً باتاً ، اللهم إلا العلم الذى ينير قلوب الجمهور الإسلامى ويعرفهم حقيقة محبة النبى ﷺ ، وأنها إنما تكون باتباع دينه كما كان أصحابه رضى الله عنهم يفعلون ، وهم أشد الناس حباً لله ولرسوله، وأن يعود الناس إلى الأمر الأول الذى كان عليه السلف الصالح فى كل شؤونهم ، فعند ذلك لا حاجة لجند ولا قوة. والله يهدى الناس إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم .

(٢) وقد ذكر الشارح بعد هذا ما ذكر المصنف من المسائل المستنبطة من حديث الباب حذفناها لعدم التكرار .

فإن الله قد اتَّخذني خَليلاً ، كما اتخذَ إبراهيم خليلاً ، ولو كنت مُتّخِذاً من أُمتي خليلاً، لاتَّخذتَ أبا بكر خليلاً ،

قال القرطبي : وإنما كان ذلك لأن قلبه ﷺ قد امتلأ من محبة الله وتعظيمه ومعرفته ، فلا يسع خُلَّة غيره .

قوله : (فإن الله قد اتخذني خليلاً) فيه بيان أن الخلة فوق المحبة .

قال ابن القيم - رحمه الله - : وأما ما يظنه بعض المغالطين من أن المحبة أكمل من الخلة ، وأن إبراهيم خليل الله ، ومحمد حبيب الله - فمن جهلهم ، فإن المحبة عامة ، والخلة خاصة، وهي نهاية المحبة . وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قد اتخذه خليلاً ، ونفى أن يكون له خليل غير ربه ، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ، ولعمر بن الخطاب ، ومعاذ بن جبل وغيرهم - رضى الله عنهم - ، وأيضاً فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، ويحب الصابرين ، وخلته خاصة بالخليلين .

قوله : (ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً) فيه بيان أن الصديق أفضل الصحابة . وفيه الرد على الرافضة وعلى الجهمية ، وهما شر أهل البدع ، وأخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة . وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور ، وهم أول من بنى عليها المساجد ، قاله المصنف - رحمه الله - ، وهو كما قال بلا ريب [1] .

وفيه إشارة إلى خلافة أبي بكر ؛ لأن من كانت محبته لشخص أشد كان أولى به من غيره. وقد استخلفه على الصلاة بالناس ، وغضب ﷺ لما قيل : يصلى بهم عمر [2] ، وذلك في مرضه الذي توفي فيه ﷺ .

واسم أبي بكر : عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، الصديق الأكبر ، خليفة رسول الله ﷺ ، وأفضل الصحابة بإجماع من يعتد بقوله من أهل العلم . مات في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة ، وله ثلاثة وستون سنة رضي الله عنه .

---

(١) فإن أول من فعل ذلك العبيديون الذين زعموا كذباً أنهم فاطميون ، شيدوا للحسين - رضى الله عنه - وبرأه الله منهم ومن شيعتهم ومحبيهم - قبراً بالقاهرة ؛ ورفعوا عليه قبة عظيمة وبنوا له المسجد المشهور الذي بالقاهرة ، يقام فيه من الأعمال الشركية ما يغضب الله ورسوله وآل بيته وكل من في قلبه حب الله ورسوله والإيمان الصحيح . وقد صنف كثير من العلماء السالفين في بيان كذب أولئك العبيديين وبيان نحلتهم الكافرة الفاجرة ، وأنهم كانوا يظهرون الرفض ويبطنون الكفر . وممن كتب في ذلك الإمام أبو بكر الباقلاني في كتاب نفيس سماه « كشف الأسرار وهتك الأستار » ، والإمام ابن الجوزي وغيرهم . انظر في ذلك « البداية والنهاية » للعماد ابن كثير في حوادث سنة ٢٠٤ (ج١١ ص٢٤٩) .

(٢) الذي قال ذلك وعرضه : عائشة - رضى الله عنها - كما في صحيح البخاري ، قالت : « إن أبا بكر رجل أسيف لا يملك نفسه إذا صلى ، فمُرْ عمر يصلي بالناس ، فقال النبي ﷺ : « إنكن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس .

ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك » .

فقد نهى عنه فى آخر حياته .

ثم إنه لعن وهو فى السياق مَن فعله . والصلاة عندها من ذلك وإن لم يُبن مسجد ،

قوله : (ألا) حرف استفتاح (ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد - الحديث) قال الخلخالى : وإنكار النبى ﷺ صنيعهم هذا مخرج على وجهين ، أحدهما : أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً . الثانى : أنهم يجوزون الصلاة فى مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة ، نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة فى تعظيم الأنبياء والأول : هو الشرك الجلى ، والثانى : الخفىّ ، فلذلك استحقوا اللعن .

قوله : (فقد نهى عنه فى آخر حياته) أى كما فى حديث جندب . وهذا من كلام شيخ الإسلام ، وكذا ما بعده .

قوله : (ثم إنه لعن ، وهو فى السياق [1] من فعله) كما فى حديث عائشة .

قلت : فكيف يسوغ بعد هذا التغليظ من سيد المرسلين أن تعظم القبور ويبنى عليها ، ويصلى عندها وإليها ؟ هذا أعظم مشاقَّة وَمحادَّة لله تعالى ولرسوله ﷺ لو كانوا يعقلون .

قوله : (والصلاة عندها من ذلك ، وإن لم يبن مسجد) أى من اتخاذها مساجد ، الملعون فاعله ، وهذا يقتضى تحريم الصلاة عند القبور وإليها .

وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - مرفوعاً : « الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام » رواه أحمد وأهل السنن ، وصححه ابن حبان والحاكم .

قال ابن القيم - رحمه الله - : وبالجملة ، فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه ، وفهم عن رسول الله ﷺ مقاصده ، جزم جزماً لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة واللعن والنهى بصيغتيه - صيغة « لا تفعلوا » ، وصيغة « إنى أنهاكم عن ذلك » - ليس لأجل النجاسة ، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة لمن عصاه ، وارتكب ما عنه نهاه ، واتبع هواه ، ولم يخش ربه ومولاه ، وقلّ نصيبه أو عُدم من « لا إله إلا الله » ، فإن هذا وأمثاله من النبى ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه ، وتجريد له وغضبٌ لربه أن يعدل به سواه ، فأبى المشركون إلا معصية لأمره ، وارتكاباً لنهيه ، وغرّهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين ، وكلما كنتم لها أشد تعظيماً وأشد فيهم غلواً كنتم بقربهم أسعد ، ومن أعدائهم

---

(١) أي فى سياق الموت : أصله : « سوق » قلبت الواو ياء لكسر السين ، كأن روحه تساق لتخرج من البدن ، وسياق وسواق مصدران من ساق يسوق .

وهو معنى قولها : « خشى أن يتخذ مسجداً » ، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حَول قبره مسجداً ، وكل موضع قُصدت الصلاة فيه فقد اتُّخذ مسجداً ، بل كل موضع يُصلَّى فيه يسمى مسجداً ، كما قال ﷺ : « جُعلت لىَ الأرض مسجداً وطَهوراً » .

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود -رضى الله عنه- مرفوعاً: « إن من شرار الناس مَن

أبعد ، ولعمر الله ، من هذا الباب دخل الشيطان على عباد يغوث ويعوق ونسر ، ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة ؛ فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن فى طريقتهم؛ فهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم وإنزالهم منازلهم التى أنزلهم الله إياها من العبودية ، وسلب خصائص الإلهية عنهم .

قال الشارح -رحمه الله تعالى-: وممن علل بخوف الفتنة بالشرك: الإمام الشافعى، وأبو بكر الأثرم ، وأبو محمد المقدسى ، وشيخ الإسلام ، وغيرهم - رحمهم الله - ، وهو الحق الذى لا ريب فيه .

قوله : (فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً) أى لما علموا من تشديده فى ذلك، وتغليظه النهى عنه ، ولعن من فعله .

قوله : (وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً) أى وإن لم يبن مسجد ، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً ، يعنى وإن لم يقصد بذلك ، كما إذا عرض لمن أراد أن يصلى فأوقع الصلاة فى ذلك الموضع الذى حانت الصلاة عنده من غير أن يقصد ذلك الموضع بخصوصه ، فصار بفعل الصلاة فيه مسجداً .

قوله : (كما قال ﷺ : « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » [(١)]) أى فسمى الأرض مسجداً، تجوز الصلاة فى كل بقعة منها ، إلا ما استثنى من المواضع التى لا تجوز الصلاة فيها كالمقبرة ونحوها .

قال البغوى فى شرح السنة : أراد أنّ أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا فى بِيَعِهِم وكنائسهم ؛ فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا ، تخفيفاً عليهم وتيسيراً ، ثم خص من جميع المواضع الحمام والمقبرة والمكان النجس . انتهى .

قوله : (ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود - رضى الله عنه - مرفوعاً : « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد » ورواه أبو حاتم بن حبان فى صحيحه) [(٢)] .

قوله : (إن من شرار الناس) بكسر الشين . جمع شرير .

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن جابر رضى الله عنه ، وفيه زيادة « فأيما رجل أدركته الصلاة فليصلّ حيث أدركته» .
(٢) فى قرة العيون : (قلت) : وقد وقع هذا فى الأمة كثيراً كما وقع فى أهل الجاهلية قبل مبعث النبى ﷺ كما=

تُدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد» ورواه أبو حاتم فى صحيحه .

قوله : (من تدركهم الساعة وهم أحياء) أى مقدماتها ، كخروج الدابة ، وطلوع الشمس من مغربها . وبعد ذلك ينفخ فى الصور نفخة الفزع .

قوله : (والذين يتخذون القبور مساجد) معطوف على خبر « إن » فى محل نصب على نية تكرار العامل ، أى وإن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد أى بالصلاة عندها وإليها وبناء المساجد عليها ، وتقدم فى الأحاديث الصحيحة أن هذا من عمل اليهود والنصارى ، وأن النبى ﷺ لعنهم على ذلك ، تحذيراً للأمة أن يفعلوا مع نبيهم وصالحيهم مثل اليهود والنصارى فما رفع أكثرهم بذلك رأساً ؛ بل اعتقدوا أن هذا الأمر قربة إلى الله ، وهو مما يبعدهم عن الله ويطردهم عن رحمته ومغفرته . والعجب أن أكثر من يدعى العلم ممن هو من هذه الأمة لا ينكرون ذلك ، بل ربما استحسنوه ورغّبوا فى فعله ؛ فلقد اشتدت غربة الإسلام وعاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، نشأ على هذا الصغير ، وهرم عليه الكبير .

قال شيخ الإسلام : أما بناء المساجد على القبور : فقد صرح عامة الطوائف بالنهى عنه ، متابعة للأحاديث الصحيحة . وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعى بتحريمه . قال : ولا ريب فى القطع بتحريمه ، ثم ذكر الأحاديث فى ذلك – إلى أن قال – : وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين أو الملوك وغيرهم ، تتعين إزالتها بهدم أو غيره . هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين .

وقال ابن القيم – رحمه الله – : يجب هدم القباب التى بنيت على القبور ؛ لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ ، وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما فى القرافة من الأبنية منهم ابن الجميزى ، والظهير الترمينى وغيرهما .

وقال القاضى ابن كج : ولا يجوز أن تجصص القبور ، ولا أن يبنى عليها قباب ، ولا غير قباب ، والوصية بها باطلة .

= لا يخفى على ذوى البصائر . وقد زاد هؤلاء المتأخرون من هذه الأمة على ما وقع من أهل الجاهلية من هذا الشرك بأمور : (منها) : أنهم يخلصون عند الاضطرار لغير الله وينسون الله ، (ومنها) : أنهم يعتقدون أن آلهتهم من الأموات يتصرفون فى الكون دون الله ، وجمعوا بين نوعى الشرك فى الإلهية والربوبية ، وقد سمعت ذلك منهم مشافهة ، ومن ذلك قول ابن كمال من أهل عمان وأمثاله : أن عبد القادر الجيلانى يسمع من دعاه ومع سماعه ينفع ، فزعم أنه يعلم الغيب وهو ميت ، فلقد ذهب عقل هذا وضل فكفر بما أنزله الله فى كتابه كقوله : ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ [٣٥ : ١٤] فما صدقوا الخبير فيما أخبر به عن آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ، ولا آمنوا بما أنزله الله فى كتابه بل بالغوا وعاندوا فى رده وكذبوا وألحدوا وكابروا المعقول والمنقول ، فالله المستعان .

فيه مسائل :

الأولى : ما ذكر الرسول فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح ، ولو صحت نية الفاعل .

الثانية : النهى عن التماثيل ، وغلِظ الأمر فى ذلك .

الثالثة : العبرة فى مبالغته ﷺ فى ذلك ، كيف بيَّن لهم هذا أوَّلاً ، ثم قبل موته بخمس ، قال ما قال ، ثم لما كان فى السياق لم يكتف بما تقدم .

وقال الأذرعى : وأما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية وإنفاق الأموال الكثيرة ، فلا ريب فى تحريمه .

وقال القرطبى فى حديث جابر - رضى الله عنه - : « نهى أن يجصص القبر أو يبنى عليه» وبظاهر هذا الحديث قال مالك ، وكره البناء والجص على القبور . وقد أجازه غيره ، وهذا الحديث حجة عليه .

وقال ابن رشد : كره مالك البناء على القبر وجعل البلاطة المكتوبة ، وهو من بدع أهل الطول ، أحدثوه إرادة الفخر والمباهاة والسمعة ، وهو مما لا اختلاف فيه .

وقال الزيلعى فى شرح الكنز : ويكره أن يبنى على القبر . وذكر قاضى خان : أنه لا يجصص القبر ولا يبنى عليه . لما روى عن النبى ﷺ أنه نهى عن التجصيص والبناء فوق القبر . والمراد بالكراهة - عند الحنفية رحمهم الله - كراهة التحريم ، وقد ذكر ذلك ابن نجيم فى شرح الكنز .

وقال الشافعى -رحمه الله- : أكره أن يعظم مخلوق، حتى يجعل قبره مسجداً؛ مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس . وكلام الشافعى - رحمه الله - يبين أن مراده بالكراهة : كراهة التحريم .

قال الشارح - رحمه الله تعالى - : وجزم النووى رحمه الله فى شرح المهذب بتحريم البناء مطلقاً، وذكر فى شرح مسلم نحوه أيضاً .

وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة إمام الحنابلة صاحب المصنفات الكبار ؛ كالمغنى والكافى وغيرهما - رحمه الله تعالى - : ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور ؛ لأن النبى ﷺ قال: « لعن الله اليهود والنصارى - الحديث » ، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام : تعظيم الأموات واتخاذ صورهم ، والتمسح بها والصلاة عندها . انتهى [1] .

---

(١) وقد صرح ابن حجر الهيتمى المكى فى كتابه الكبائر : إن بناء القباب على القبور من الكبائر المحرمة بالنص الصريح ، وأن الواجب على ملوك المسلمين وأمرائهم وولاتهم أن يهدموا هذه القباب ويبدءوا بقبة الإمام الشافعى.

الرابعة : نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر .

الخامسة : أنه من سنن اليهود والنصارى فى قبور أنبيائهم .

السادسة : لعنه إياهم على ذلك .

السابعة : أن مراده تحذيره إيانا عن قبره .

الثامنة : العلة فى عدم إبراز قبره .

التاسعة : فى معنى اتخاذها مسجداً .

العاشرة : أنه قَرَن بينَ من اتخذها وبين من تقوم عليه الساعة ، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته .

الحادية عشرة : ذكره فى خطبته قبل موته بخمس : الرد على الطائفتين اللتين هما أشرّ أهل البدع ، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة ، وهم الرافضة والجهمية . وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور . وهم أول من بنى عليها المساجد .

الثانية عشرة : ما بُلى به ﷺ من شدة النزع .

الثالثة عشرة : ما أُكرم به من الخلة .

الرابعة عشرة : التصريح بأنها أعلى من المحبة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : وأما المقبرة فلا فرق فيها بين الجديدة والعتيقة ، انقلبت تربتها أو لم تنقلب . ولا فرق بين أن يكون بينه وبين الأرض حائل أولاً ؛ لعموم الاسم وعموم العلة ، ولأن النبى ﷺ لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا تنجس .

وبالجملة فمن علل النهى عن الصلاة فى المقبرة بنجاسة التربة خاصة فهو بعيد عن مقصود النبى ﷺ ، ثم لا يخلو أن يكون القبر قد بنى عليه مسجد ، فلا يصلى فى هذا المسجد ، سواء صلى خلف القبر أو أمامه بغير خلاف فى المذهب ؛ لأن النبى ﷺ قال : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك » ، وخص قبور الأنبياء ، لأن عكوف الناس على قبورهم أعظم ، واتخاذها مساجد أشد ، وكذلك إن لم يكن بنى عليه مسجد ، فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة التى كان النهى عن الصلاة عند القبور من أجلها ، فإن كل مكان صلى فيه يسمى مسجداً ، كما قال ﷺ : «جعلت لىَ الأرض مسجداً وطهوراً » وإن كان موضع قبر أو قبرين .

الخامسة عشرة : التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة .

السادسة عشرة : الإشارة إلى خلافته .

❊ ❊ ❊

وقال بعض أصحابنا : لا يمنع الصلاة فيها لأنه لا يتناولها اسم المقبرة ، وليس فى كلام أحمد ولا بعض أصحابه هذا الفرق ، بل عموم كلامهم يقتضى منع الصلاة عند كل قبر .

وقد تقدم عن عليّ - رضى الله عنه - أنه قال : « لا أصلى فى حمام ولا عند قبر » .

فعلى هذا : ينبغى أن يكون النهى متناولاً لتحريم القبر وفنائه ، ولا تجوز الصلاة فى مسجد بنى فى مقبرة ، سواء كان له حيطان تحجز بينه وبين القبور أو كان مكشوفاً .

قال فى رواية الأثرم : إذا كان المسجد بين القبور لا يصلى فيه الفريضة ، وإن كان بينها وبين المسجد حاجز فرخص أن يصلى فيه على الجنائز ولا يصلى فيه على غير الجنائز . وذكر حديث أبى مَرْثَد عن النبى ﷺ : « لا تصلوا إلى القبور » [1] ، وقال : إسناده جيد . انتهى.

ولو تتبعنا كلام العلماء فى ذلك لاحتمل عدة أوراق. فتبين بهذا أن العلماء - رحمهم الله - بينوا أن علة النهى ما يؤدى إليه ذلك: من الغلو فيها وعبادتها من دون الله كما هو الواقع والله المستعان .

وقد حدث بعد الأئمة الذين يعتد بقولهم أناس كثر فى أبواب العلم بالله اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدى والعلم حجابهم ؛ فقيدوا نصوص الكتاب والسنة بقيود أوهنت الانقياد ، وغيَّروا بها ما قصده الرسول ﷺ بالنهى وأراد . فقال بعضهم : النهى عن البناء على القبور يختص بالمقبرة المسبلة ، والنهى عن الصلاة فيها لتنجسها بصديد الموتى ، وهذا كله باطل من وجوه :

منها : أنه من القول على الله بلا علم . وحرام بنص الكتاب .

ومنها : أن ما قالوه لا يقتضى لعن فاعله والتغليظ عليه ، وما المانع له أن يقول : من صلى فى بقعة نجسة فعليه لعنة الله . ويلزم على ما قاله هؤلاء : أن النبى ﷺ لم يبين العلة ، وأحال الأمة فى بيانها على من يجئ بعده ﷺ وبعد القرون المفضلة والأئمة ، وهذا باطل قطعاً وعقلاً وشرعاً ، لما يلزم عليه من أن الرسول ﷺ عجز عن البيان أو قصر فى البلاغ ، وهذا من أبطل الباطل ؛ فإن النبى ﷺ بلغ البلاغ المبين ، وقدرته فى البيان فوق قدرة كل أحد ، فإذا بطل اللازم بطل الملزوم .

ويقال أيضاً : هذا اللعن والتغليظ الشديد إنما هو فيمن اتخذ قبور الأنبياء مساجد ، وجاء فى بعض النصوص ما يَعُم الأنبياء وغيرهم ، فلو كانت هذه هى العلة لكانت منتفية فى قبور

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

باب (ما جاءَ أن الغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله)

روى مالك فى الموطأ : أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبد ،

الأنبياء ، لكون أجسادهم طرية لا يكون لها صديد يمنع من الصلاة عند قبورهم ، فإذا كان النهى عن اتخاذ المساجد عند القبور يتناول قبور الأنبياء بالنص ، عُلم أن العلة ما ذكره هؤلاء العلماء الذين قد نقلت أقوالهم ، والحمد لله على ظهور الحجة وبيان المحجة . والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

قوله : (باب ما جاء أن الغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله)

قوله : (روى مالك فى الموطأ : أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبَد؛ اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) [1] .

هذا الحديث رواه مالك مرسلاً عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار « أن رسول الله قال: - الحديث » ورواه ابن أبى شيبة فى مصنفه عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم به ، ولم يذكر عطاء ، ورواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً .

وله شاهد عند الإمام أحمد بسنده عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رفعه : «اللهم لا تجعل قبرى وثناً ، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

قوله : (روى مالك فى الموطأ) هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو الأصبحى أبو عبد الله المدنى . إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة ، وأحد المتقنين للحديث ، حتى قال البخارى: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، مات سنة تسع وسبعين ومائة. وكان مولده سنة ثلاث وتسعين ، وقيل : أربع وتسعين ، وقال الواقدى : بلغ تسعين سنة .

قوله : (اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد) قد استجاب الله دعاءه كما قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - :

فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت أرجاؤه بدعائه فى عزة وحماية وصيان

ودل الحديث على أن قبر النبى ﷺ لو عبد لكان وثناً ، لكن حماه الله تعالى بما حال بينه وبين الناس فلا يوصل إليه . ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور

---

(1) فى قرة العيون : ذلك أنه ﷺ خاف أن يقع فى أمته فى حقه كما وقع من اليهود والنصارى فى حق أنبيائهم من عبادتهم من دون الله وسبب ذلك الغلو فيهم كما قال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ وكذلك رغب ﷺ إلى ربه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد ، وقد عبدت القبور بأنواع العبادة كما لا يخفى ، وتقدم من حديث عائشة رضى الله عنها : «ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً » ، وقد استجاب الله دعوة نبيه ﷺ وصان قبره وأحاطه بثلاثة جدران .

والتوابيت التى عليها . وقد عظمت الفتنة بالقبور بتعظيمها وعبادتها ، كما قال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - : « كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير ، وينشأ فيها الصغير ، تجرى على الناس يتخذونها سنة ، إذا غُيِّرت قيل : غيرت السنة ؟ » انتهى .

ولخوف الفتنة نهى عمر عن تتبع آثار النبى ﷺ .

قال ابن وضاح : سمعت عيسى بن يونس يقول : « أمر عمر بن الخطاب - رضى الله عنه- بقطع الشجرة التى بويع تحتها النبى ﷺ » (1) فقطعها ؛ لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها، فخاف عليهم الفتنة .

وقال المعرور بن سُويد : « صليتُ مع عمر بن الخطاب بطريق مكة صلاة الصبح ، ثم رأى الناسَ يذهبون مذاهب ، فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل : يا أمير المؤمنين ، مسجدٌ صلى فيه النبى ﷺ فهم يصلون فيه ؛ فقال : إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ؛ كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبِيَعاً . فمن أدركته الصلاة فى هذه المساجد فليصلّ ، ومن لا فليمض ولا يتعمدها » .

وفى مغازى ابن إسحاق من زيادات يونس بن بُكير عن أبى خلدة خالد بن دينار ، حدثنا أبو العالية قال : « لما فتحنا تُسْتَر وجدنا فى بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت ، عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر ؛ فدعا له كعباً فنسخه بالعربية ، فأنا أول رجل قرأه من العرب . قرأته مثل ما أقرأ القرآن ، فقلت لأبى العالية : ما كان فيه ؟ قال : سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد . قلت : فماذا صنعتم بالرجل ؟ قال : حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة . فلما كان الليل دفناه وسوينا القبور كلها لنُعمّيه على الناس لا ينبشونه ، قلت : وما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حُبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون ، فقلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له : دانيال ، فقلت : منذ كم وجدتموه مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة ، قلت : ما كان تغيَّر منه شىء ؟ قال : لا ، إلا شُعيرات من قفاه ، إنَّ لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض » (2) .

(1) كان ذلك فى صلح الحديبية ، وهى الشجرة التى ذكرها الله تعالى فى سورة الفتح : ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ ؛ وذلك حين أشاع الناس أن عثمان بن عفان قتلته قريش حين بعثه النبى ﷺ سفيراً بينه وبين قريش ، فقال : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا رسول الله الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان على الموت ، وكان المبايعون ألفاً وأربعمائة ، ثم أتى رسول الله أن الذى كان من أمر عثمان باطل . والقصة رواها البخارى ومسلم وغيرهما من أصحاب السير والمغازى .

(2) ذكرها الطبرى (ج٤ ص٢٢٠) فى حوادث سنة ١٧ قال : قيل لأبى سبرة : هذا جسد دانيال فى هذه المدينة . قال : وما لنا بذلك ؟ فأقره بأيديهم - ثم ذكر خبر دانيال وسبى بختنصر له من بيت المقدس وموته بالسوس فكان هنالك يستسقى بجسده ، فلما فتحها المسلمون أتوا به فأقروه فى أيديهم ؛ حتى إذا ولى أبو سبرة عنهم إلى =

اشتد غضبُ اللهِ على قوم اتخذوا قبورَ أنبيائهم مَساجد » .

قال ابن القيم - رحمه الله - : ففى هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار - رضى الله عنهم - من تعمية قبره لئلا يفتتن به ، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ، ولعبدوه من دون الله .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : وهو إنكار منهم لذلك ؛ فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها - ولم يستحب الشارع قصدها - فهو من المنكرات ، وبعضه أشد من بعض ، سواء قصدها ليصلى عندها أو ليدعو عندها ، أو ليقرأ عندها ، أو ليذكر الله عندها ، أو لينسك عندها ، بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التى لم يشرع تخصيصها به ، لا نوعاً ولا عيناً ، إلا أن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها ، كمن يزورها ويسلم عليها ، ويسأل الله العافية له وللموتى ، كما جاءت به السنة ، وأما تحرى الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجْوَب منه فى غيره ، فهذا هو المنهى عنه ، انتهى ملخصاً .

قوله : (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) فيه تحريم البناء على القبور وتحريم الصلاة عندها ، وأن ذلك من الكبائر . وفى القِرَى للطبرى [1] من أصحاب مالك عن مالك أنه كره أن يقول : زرت قبر النبى ﷺ ، وعَلّل ذَلك بقوله ﷺ : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد -الحديث » ، كره إضافة هذا اللفظ إلى القبر ؛ لئلا يقع التشبه بفعل أولئك ، سداً للذريعة .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - : ومالك قد أدرك التابعين ، وهم أعلم الناس بهذه المسألة ، فدل ذلك على أنه لم يكن معروفاً عندهم ألفاظ زيارة قبر النبى ﷺ - إلى أن قال - وقد ذكروا فى أسباب كراهته لأن يقول : « زرت قبر النبى ﷺ » ، لأن هذا اللفظ قد صار كثير من الناس يريد به الزيارة البدعية ، وهو قصد الميت لسؤاله ودعائه ، والرغبة إليه فى قضاء الحوائج ، ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس ، فهم يعنون بلفظ الزيارة مثل هذا ، وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة . وكره مالك أن يتكلم بلفظ مجمل يدل على معنى فاسد ، بخلاف الصلاة والسلام عليه ، فإن ذلك مما أمر الله به . أما لفظ الزيارة فى عموم القبور فلا يفهم منها

= جندى سابور أقام أبو موسى بالسوس وكتب إلى عمر فيه . إلخ القصة . وقد ذكرها أبو عبيد فى الأموال (ص٣٤٣ رقم ٨٧٦) عن قتادة قال : « لما فتحت السوس وعليهم أبو موسى الأشعرى وجدوا دانيال فى أبرن ، وإذا إلى جانبه مال موضوع وكتاب فيه : من شاء أتى فاستقرض منه إلى أجل ، فإن أتى به إلى ذلك الأجل وإلا برص فكتب إليه عمر : كفنه وحنطه وصلِّ عليه ثم ادفنه كما دفنت الأنبياء صلوات الله عليهم . وانظر ماله فاجعله فى بيت مال المسلمين ، قال : فكفنه فى قباطى بيض وصلى عليه ودفنه » ، وقال البلاذرى (ص ٣٧١) : « ورأى أبو موسى فى قبلتهم بيتاً وعليه ستر فسأله عنه فقيل : إن فيه جثة دانيال النبى ؛ فإنهم كانوا أقحطوا ، فسألوا أهل بابل دفعه إليهم ليستسقوا به ففعلوا : وكان بختنصر سبى دانيال وأتى به إلى بابل فقبض بها ، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر أن كفنه وادفنه ، فسكر أبو موسى نهراً حتى إذا انقطع دفنه ثم أجرى الماء عليه » .

(١) كتاب « القرى لقاصد أم القرى » تأليف المحب الطبرى .

ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد : « ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ قال : « كان يلَتّ لهم السويق [1] » ، فمات فعكفوا على قبره » .

مثل هذا المعنى ، ألا ترى إلى قوله : « فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة » مع زيارته لقبر أمه ، فإن هذا يتناول قبور الكفار ، فلا يفهم من ذلك زيارة الميت لدعائه وسؤاله والاستغاثة به، ونحو ذلك مما يفعله أهل الشرك والبدع ؛ بخلاف ما إذا كان المزور معظماً فى الدين كالأنبياء والصالحين ؛ فإنه كثيراً ما يعنى بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشركية ؛ فلهذا كره مالك ذلك فى هذا ، وإن لم يكره ذلك فى موضع آخر ليس فيه هذه المفسدة ا هـ .

وفيه : أن النبى ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه ، ذكره المصنف - رحمه الله تعالى - .

قوله : (ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى﴾ قال : « كان يَلُت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره » وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس قال : « كان يلت السويق للحاج ») .

قوله : (ولابن جرير) هو الإمام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبرى ، صاحب التفسير والتاريخ والأحكام وغيرها . قال ابن خزيمة : لا أعلم على وجه الأرض أعلم من محمد ابن جرير . وكان من المجتهدين لا يقلد أحداً ، وله أصحاب يتفقهون على مذهبه ويأخذون بأقواله . ولد سنة أربع وعشرين ومائتين ، ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة .

قوله : (عن سفيان) الظاهر : أنه سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى أبو عبد الله الكوفى ثقة حافظ فقيه إمام عابد . كان مجتهداً ، وله أتباع يتفقهون على مذهبه . مات سنة إحدى وستين ومائة ، وله أربع وستون سنة .

قوله : (عن منصور) هو ابن المعتمر بن عبد الله السلمى ، ثقة ثبت فقيه . مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

قوله : (عن مجاهد) هو ابن جبر - بالجيم والموحدة - أبو الحجاج المخزومى مولاهم المكى، ثقة إمام فى التفسير ، أخذ عن ابن عباس وغيره - رضى الله عنهم - . مات سنة أربع ومائة، قاله يحيى القطان ، وقال ابن حبان : مات سنة اثنتين - أو ثلاث - ومائة وهو ساجد. ولد سنة إحدى وعشرين فى خلافة عمر رضى الله عنه .

قوله : (كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره) فى رواية : « فيطعم من يمرّ من الناس ، فلما مات عبدوه ، وقالوا : هو اللاتّ » رواه سعيد بن منصور .

ومناسبته للترجمة : أنهم غلوا فيه لصلاحه حتى عبدوه وصار قبره وثناً من أوثان المشركين.

---

(١) السويق : دقيق الحنطة أو الشعير ، ولته بله بالماء أو السمن ، والحاج بمعنى الحجاج .

وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس : « كان يلت السويق للحاج » .

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : « لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور ،

قوله : (وكذا قال أبو الجوزاء) هو أوس بن عبد الله الربعى ، بفتح الراء والباء . مات سنة ثلاث وثمانين .

قال البخارى : حدثنا مسلم وهو ابن إبراهيم ، حدثنا أبو الأشهب [1] ، حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عباس قال : « كان اللات رجلاً يلت سويق الحجاج » .

قال ابن خزيمة : وكذا العُزّى ، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد : « لنا العزّى ولا عُزّى لكم » .

قوله : (وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : « لَعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » رواه أهل السنن) .

قلت : وفى الباب حديث أبى هريرة وحديث حسان بن ثابت ، فأما حديث أبى هريرة فرواه أحمد والترمذى وصححه [2] ، وحديث حسان أخرجه ابن ماجه من رواية عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت عن أبيه قال : « لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور » .

وحديث ابن عباس هذا فى إسناده أبو صالح مولى أم هانئ ، وقد ضعفه بعضهم ووثقه بعضهم [3] . قال على بن المدينى ، عن يحيى القطان : لم أر أحداً من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أم هانئ . وما سمعت أحداً من الناس يقول فيه شيئاً ، ولم يتركه شعبة ولا زائدة ولا عبد الله بن عثمان . قال ابن معين : ليس به بأس . ولهذا أخرجه ابن السكن فى صحيحه. انتهى من الذهب الإبريز عن الحافظ المزى .

---

(١) أبو الأشهب هو جعفر بن حيان التيمى السعدى العطاردى الحذاء الأعمى . مات سنة ١٦٥ .

(٢) أخرجه الترمذى من طريق عمر بن أبى سلمة عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله « لعن زوارات القبور » وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه . قال الترمذى : وفى الباب عن عائشة وحسان ابن ثابت . وحديث حسان بن ثابت رواه الإمام أحمد فى مسنده أيضاً ، وروى ابن حبان فى صحيحه عن عبد الله ابن عمرو وحديث فاطمة بنت رسول الله ﷺ فى عزائها أهل الميت فى ميتهم ، فقال لها : « لعلك بلغت معهم الكدى ؟ قالت : معاذ الله وقد سمعتك تذكر فيها ما تذكر . قال : لو بلغت الكدى معهم ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك » .

(٣) وأبو صالح اسمه باذام ، أو باذان . وقد صرح فى هذا الحديث بالتحديث عن ابن عباس فانتفت تهمة التدليس ؛ ثم قد حسن الترمذى هذا الحديث وإن كان الحافظ المنذرى قد تعقبه عليه ، وقال الحافظ ابن القيم فى تهذيب سنن أبى داود فى باب كراهية اتخاذ القبور مساجد : وفى صحيح أبى حاتم عن أبى صالح عن ابن عباس قال : « لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » قال أبو حاتم : أبو صالح هذا اسمه مهران. ثقة . وليس بصاحب الكلبى ، ذاك اسمه باذام . وقال الإشبيلى : هو باذام الكلبى . وهو عندهم ضعيف جداً ، وكان شيخنا أبو الحجاج المزى يرجح هذا أيضاً .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - : وقد جاء عن النبى ﷺ من طريقين : فعن أبى هريرة رضى الله عنه : « أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور » ، وذكر حديث ابن عباس ، ثم قال: ورجال هذا ليس رجال هذا ، فلم يأخذه أحدهما عن الآخر ، وليس فى الإسنادين من يتهم بالكذب ، ومثل هذا حجة بلا ريب ، وهذا من أجود الحسن الذى شرطه الترمذى ، فإنه جعل الحسن : ما تعددت طرقه ولم يكن فيه متهم ، ولم يكن شاذاً ، أى مخالفا لما ثبت بنقل الثقات . وهذا الحديث تعددت طرقه وليس فيها متهم ولا خالفه أحد من الثقات ، هذا لو كان عن صاحب واحد ، فكيف إذا كان هذا رواه عن صاحب وذاك عن آخر ؟ فهذا كله يبين أن الحديث فى الأصل معروف .

والذين رخصوا فى الزيارة اعتمدوا على ما روى عن عائشة - رضى الله عنها - : أنها زارت قبر أخيها عبد الرحمن وقالت : « لو شهدتك ما زرتك » ، وهذا يدل على أن الزيارة ليست مستحبة للنساء كما تستحب للرجال ؛ إذ لو كان كذلك لاستحبت زيارته، سواء شهدته أم لا.

قلت : فعلى هذا لا حجة فيه لمن قال بالرخصة .

وهذا السياق لحديث عائشة رواه الترمذى من رواية عبد الله بن أبى مُليكة عنها ، وهو يخالف سياق الأثرم له عن عبد الله بن أبى مليكة أيضاً : « أن عائشة - رضى الله عنها - أقبلت ذات يوم من المقابر ، فقلت لها : يا أم المؤمنين ، أليس نهى رسول الله ﷺ عن زيارة القبور ؟ قالت : نعم ، نهى عن زيارة القبور ، ثم أمر بزيارتها » .

فأجاب شيخ الإسلام - رحمه الله - عن هذا وقال: ولا حجة فى حديث عائشة؛ فإن المحتج عليها احتج بالنهى العام ، فدفعت ذلك بأن النهى منسوخ ، ولم يذكر لها المحتج النهى الخاص بالنساء الذى فيه لعنهن على الزيارة . يبين ذلك قولها : « قد أمر بزيارتها » فهذا يبين أنه أمر بها أمراً يقتضى الاستحباب ، والاستحباب إنما هو ثابت للرجال خاصة ، ولو كانت تعتقد أن النساء مأمورات بزيارة القبور لكانت تفعل ذلك كما يفعله الرجال ولم تقل لأخيها : « لما زرتك » واللعن صريح فى التحريم ، والخطاب بالإذن فى قوله : « فزوروها » لم يتناول النساء فلا يدخلن فى الحكم الناسخ ، والعام إذا عرف أنه بعد الخاص لم يكن ناسخاً له عند جمهور العلماء ، وهو مذهب الشافعى وأحمد فى أشهر الروايتين عنه ، وهو المعروف عند أصحابه ، فكيف إذا لم يعلم أن هذا العام بعد الخاص ؟ إذ قد يكون قوله : « لعن الله زوارات القبور » بعد إذنه للرجال فى الزيارة . يدل على ذلك : أنه قرنه بالمتخذين عليها المساجد والسرج ، ومعلوم أن اتخاذ المساجد والسرج المنهى عنها محكم ، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وكذلك الآخر .

والصحيح : أن النساء لم يدخلن فى الإذن فى زيارة القبور لعدة أوجه :

أحدها : أن قوله ﷺ : « فزوروها » صيغة تذكير . وإنما يتناول النساء أيضاً على سبيل التغليب . لكن هذا فيه قولان . قيل : إنه يحتاج إلى دليل منفصل ، وحينئذ فيحتاج تناول ذلك للنساء إلى دليل منفصل ، وقيل : إنه يحمل على ذلك عند الإطلاق ، وعلى هذا فيكون دخول النساء بطريق العموم الضعيف ، والعام لا يعارض الأدلة الخاصة ولا ينسخها عند جمهور العلماء ، ولو كان النساء داخلات فى هذا الخطاب لاستحب لهن زيارة القبور . وما علمنا أحداً من الأئمة استحب لهن زيارة القبور ، ولا كان النساء على عهد النبى ﷺ وخلفائه الراشدين يخرجن إلى زيارة القبور .

ومنها : أن النبى ﷺ علل الإذن للرجال بأن ذلك « يذكر الموت ، ويرقق القلب ، وتدمع العين » هكذا فى مسند أحمد . ومعلوم أن المرأة إذا فتح لها هذا الباب أخرجها إلى الجزع والندب والنياحة ؛ لما فيها من الضعف وقلة الصبر . وإذا كانت زيارة النساء مظنة وسبباً للأمور المحرمة ، فإنه لا يمكن أن يحد المقدار الذى لا يفضى إلى ذلك ، ولا التمييز بين نوع ونوع ، ومن أصول الشريعة : أن الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها . فيحرم هذا الباب سداً للذريعة ، كما حرم النظر إلى الزينة الباطنة، وكما حرم الخلوة بالأجنبية وغير ذلك. وليس فى ذلك من المصلحة ما يعارض هذه المفسدة . فإنه ليس فى ذلك إلا دعاؤها للميت ، وذلك ممكن فى بيتها .

ومن العلماء من يقول : التشييع كذلك ، ويحتج بقوله ﷺ : « ارجعن مأزورات غير مأجوورات ، فإنكن تَفتنَّ الحى وتؤذينَ الميت » ، وقوله لفاطمة : « أما إنك لو بلغت معهم الكدى لم تدخلى الجنة » ، ويؤيده ما ثبت فى الصحيحين من « أنه نهى النساء عن اتباع الجنائز » ، ومعلوم أن قوله ﷺ : « من صلى على جنازة فله قيراط ، ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان » هو أدل على العموم من صيغة التذكير . فإن لفظ « من » يتناول الرجال والنساء باتفاق الناس ، وقد علم بالأحاديث الصحيحة أن هذا العموم لم يتناول النساء لنهى النبى ﷺ لهن عن اتباع الجنائز ، فإذا لم يدخلن فى هذا العموم . فكذلك فى ذلك بطريق الأولى . انتهى ملخصاً .

قلت : ويكون الإذن فى زيارة القبور مخصوصاً بالرجال ، خص بقوله : « لعن الله زوّرات القبور - الحديث » ، فيكون من العام المخصوص .

وعما استدل به القائلون بالنسخ أجوبة أيضاً :

منها : أن ما ذكروه عن عائشة وفاطمة - رضى الله عنهما - معارض بما ورد عنهما فى هذا الباب فلا يثبت به نسخ .

والمتخذين عليها المساجد والسُّرج » . رواه أهل السنن .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الأوثان .

الثانية : تفسير العبادة .

الثالثة : أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يُخاف وقوعه .

ومنها : أن قول الصحابى وفعله ليس حجة على الحديث بلا نزاع . وأما تعليمه عائشة كيف تقول : إذا زارت القبور ونحو ذلك ، فلا يدل على نسخ ما دلت عليه الأحاديث الثلاثة من لعن زائرات القبور، لاحتمال أن يكون ذلك قبل هذا النهى الأكيد والوعيد الشديد، والله أعلم.

قال محمد بن إسماعيل الصنعانى - رحمه الله - فى كتابه تطهير الاعتقاد : فإن هذه القباب والمشاهد التى صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد ، وأكبر وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه : غالبُ - بل كل - من يعمرها هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة ، إما على قريب لهم أو على من يحسنون الظن فيه من فاضل أو عالم أو صوفى أو فقير أو شيخ كبير ، ويزوره الناس الذين يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف باسمه ، بل يدعون له ويستغفرون ، حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم ، فيأتى مَنْ بعدهم فيجد قبراً قد شيّد عليه البناء ، وسرجت عليه الشموع ، وفرش بالفراش الفاخر ، وأرخيت عليه الستور ، وألقيت عليه الأوراد والزهور ، فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضر ، وتأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل ، وأنزل بفلان الضر وبفلان النفع ، حتى يغرسوا فى جبلته كل باطل ، والأمر ما ثبت فى الأحاديث النبوية من لعن [(١)] من أسرج على القبور وكتب عليها وبنى عليها . وأحاديث ذلك واسعة معروفة . فإن ذلك فى نفسه منهى عنه . ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة. انتهى .

ومنه تعلم مطابقة الحديث للترجمة ، والله أعلم .

قوله : (والمتخذين عليها المساجد) تقدم شرحه فى الباب قبله .

قوله : (والسُّرُج) قال أبو محمد المقدسى : لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله لأن فيه تضييعاً للمال فى غير فائدة ، وإفراطاً فى تعظيم القبور أشبه بتعظيم الأصنام .

وقال ابن القيم - رحمه الله - : اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر [(٢)] .

قوله : (رواه أهل السنن) يعنى أبا داود والترمذى وابن ماجه فقط ، ولم يروه النسائى .

---

(١) يعنى أنه لما قرن بذلك الدعاء اتخاذ القبور مساجد علم أن اتخاذها مساجد ذريعة إلى اتخاذها أوثاناً .

(٢) وقد عده ابن حجر الهيتمى فى الكبائر أيضاً .

الرابعة : قَرْنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد [1] .

الخامسة : ذكر شدة الغضب من الله .

السادسة ، وهى من أهمها : صفة معرفة عبادة اللات هى أكبر الأوثان .

السابعة : معرفة أنه قبر رجل صالح .

الثامنة : أنه اسم صاحب القبر وذكر معنى التسمية .

التاسعة : لعنة زوّارات القبور .

العاشرة : لعنة مَن أسرجها .

* * *

باب (ما جاء فى حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك)

وقول الله تعالى (٩ : ١٢٨ ، ١٢٩) : ﴿ لقد جاءَكم رسولٌ من أنفسكم

قوله : (باب ما جاء فى حماية المصطفى ﷺ جنابَ التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك)

الجناب : هو الجانب ، والمراد حمايته عما يقرب منه أو يخالطه من الشرك وأسبابه .

قوله : (وقول الله تعالى (٩ : ١٢٨ ، ١٢٩) : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ، فإن تولَّوْا فقل : حسبى الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾) .

قال ابن كثير - رحمه الله - : يقول الله تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم أى من جنسهم وعلى لغتهم ، كما قال إبراهيم عليه السلام (٢ : ١٢٩) : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ ، وقال تعالى (٣ : ١٦٤) : ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ أى منكم كما قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : « إن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته ، ومدخله ومخرجه ، وصدقه وأمانته » وذكر الحديث ، وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ قال : « لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية » .

---

(١) وفى تطهير الاعتقاد : ولهذا الأمر ثبت فى الأحاديث النبوية اللعن على من أسرج القبور .. إلخ .

(٢) ثم ذكر ابن كثير الحديث : « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » ، وقد وصل هذا من وجه آخر . =

عَزيزٌ عليه ما عَنِتُّم حريصٌ عليكم ، بالمؤمنين رءوفٌ رحيم * فإن تَوَلَّوْا ، فقل : حسبيَ الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو ربُّ العرش العظيم ﴾ .

وقوله : ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ أي يعز عليه الشيء الذى يعنت أمته ويشق عليها [1] ، ولهذا جاء فى الحديث المروى من طرق عنه ﷺ أنه قال : « بعثت بالحنيفية السمحة » ، وفى الصحيح : « إن هذا الدين يسر » ، وشريعته كلها سمحة سهلة كاملة ، يسيرة على من يسرها الله عليه .

قوله : ﴿ حريص عليكم ﴾ أى على هدايتكم ووصول النفع الدنيوى والأخروى إليكم . وعن أبى ذر - رضى الله عنه -[1] قال : « تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه فى الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً » أخرجه الطبرانى ، قال [3] : وقال رسول الله ﷺ : « ما بقى شىء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بينته لكم » .

وقوله : ﴿ بالمؤمنين رءُوف رحيم ﴾ كما قال تعالى (٢٦ : ٢١٥ - ٢١٧) : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل : إنى برئ مما تعلمون ، وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ ، وهكذا أمره تعالى فى هذه الآية الكريمة وهى قوله : ﴿ فإن تولَّوْا ﴾ أى عما جئتم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ، ﴿ فقل : حسبى الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ﴾ .

قلت : فاقتضت هذه الأوصاف التى وصف بها رسول الله ﷺ فى حق أمته أن أنذَرَهم وحذرهم الشرك الذى هو أعظم الذنوب ، وبيّن لهم ذرائعه الموصلة إليه ، وأبلغ فى نهيهم عنها ، ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها والصلاة عندها وإليها ، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها ، كما تقدم ، وكما سيأتى فى أحاديث الباب .

= كما قال الحافظ أبو محمد بن عبد الرحمن الرامهرمزى فى كتابه المحدث الفاصل بين الراوى والواعى . وقد استدل بعض الجاهلين بهذا على إيمان آباء النبى ﷺ ، وهذا من عظيم جهلهم . فليس فيه أى دليل ، لأن فى البخارى من حديث عائشة أنهم كانوا فى الجاهلية لهم نكاح هو نكاح الناس اليوم .

(١) فى قرة العيون : ووجه الدلالة بالآية أنه ﷺ يعز عليه ما يؤثم الأمة ويشق عليهم وأعظم ما يؤثم الأمة ويشق عليهم الشرك بالله قليله وكثيره ، ووسائل وما يقرب منه من كبائر الذنوب ، وقد بالغ ﷺ فى النهى عن الشرك وأسبابه أعظم مبالغة كما لا يخفى ، وقد كانت هذه حالة أصحابه - رضى الله عنهم - فى قطعهم الخيوط التى يرقى المريض منها ونحو ذلك من تعليق التمائم .

(٢) ساق ابن كثير سند الطبرانى إلى أبى ذر .

(٣) أي قال أبو ذر : وهو من رواية الطبرانى أيضاً . وقد ذكر الحافظ ابن كثير بعد هذا الحديث من طريق الإمام أحمد عن ابن عباس حديث الملكين الذين أتيا رسول الله ﷺ فى المنام وقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه، ثم ضربا له ولأمته المثل . وروى عدة أحاديث فى هذا المعنى فى رحمة النبى ﷺ .

عن أبى هريرة – رضى الله عنه– قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبرى عيداً ، وصلوا علىّ ، فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » رواه أبو داود بإسناد حسن ، رواته ثقات .

قوله : (عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبرى عيداً ، وصلوا عَلَىَّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » رواه أبو داود بإسناد حسن . ورواته ثقات) [1] .

قوله : (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً » قال شيخ الإسلام : أى لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة ، فتكون بمنزلة القبور ، فأمر بتحرى العبادة فى البيوت ، ونهى عن تحريها عند القبور ، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة .

وفى الصحيحين عن ابن عمر مرفوعاً : « اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً» وفى صحيح مسلم عن ابن عمر مرفوعاً : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ؛ فإن الشيطان يفر من البيت الذى يسمع سورة البقرة تقرأ فيه » .

قوله : (ولا تجعلوا قبرى عيداً) قال شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى – : العيد : اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد ، عائداً : إما بعود السنة ، أو بعود الأسبوع ، أو الشهر ونحو ذلك .

وقال ابن القيم – رحمه الله تعالى – : العيد ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان ، مأخوذ من المعاودة والاعتياد . فإذا كان اسماً للمكان فهو المكان الذى يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة وغيرها ، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة ، كما جعل أيام العيد فيها عيداً . وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية ، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوّض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر ، وأيام منى ، كما عوضهم من أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر .

قوله : (وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم) .

قال شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى – : يشير بذلك إلى أن ما ينالنى منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبرى وبُعدكم ، فلا حاجة لكم إلى اتخاذه عيداً .

قوله : (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً) تقدم كلام شيخ الإسلام فى معنى الحديث قبله . ا هـ .

---

(١) فى قرة العيون : قال الحافظ محمد بن عبد الهادى : هو حديث حسن جيد الإسناد ، وله شواهد يرتقى بها إلى درجة الصحة ، نهاهم ﷺ أن يهجروا بيوتهم عن الصلاة فيها ، كما تهجر القبور عن الصلاة إليها ، مخافة الفتنة بها ، وما يفضى إلى عبادتها من دون الله لأن النهى عن ذلك قد تقرر عندهم ، فنهاهم أن يجعلوا بيوتهم كذلك .

قوله : (وعن عليّ بن الحسين - رضى الله عنه - : « أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبى ﷺ ، فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه ، وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبى عن جدى عن رسول الله ﷺ ؟ قال : لا تتخذوا قبرى عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا عليّ فإن تسليمكم يبلغنى أين كنتم » رواه فى المختارة ») .

هذا الحديث والذى قبله جيدان حسنا الإسنادين .

أما الأول : فرواه أبو داود وغيره من حديث عبد الله بن نافع الصائغ . قال : أخبرنى ابن أبى ذئب عن سعيد المقبري عن أبى هريرة فذكره ، ورواته ثقات مشاهير ، لكن عبد الله بن نافع قال فيه أبو حاتم : ليس بالحافظ ، تعرف وتنكر . وقال ابن معين : هو ثقة . وقال أبو زرعة : لا بأس به . قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : ومثل هذا إذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ ، وهذا له شواهد متعددة . وقال الحافظ محمد بن عبد الهادى : هو حديث حسن جيد الإسناد ، وله شواهد يرتقى بها إلى درجة الصحة . وأما الحديث الثانى : فرواه أبو يعلى والقاضى إسماعيل والحافظ الضياء محمد بن عبد الواحد المقدسى فى المختارة .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى -: فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار ؛ لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم ، فكانوا له أضبط ؟ . اهـ .

وقال سعيد بن منصور فى سننه : حدثنا عبد العزيز بن محمد أخبرنى سهيل بن أبى سهيل قال : « رآنى الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبى طالب - رضى الله عنهم - عند القبر ، فنادانى، وهو فى بيت فاطمة - رضى الله عنها - يتعشى ، فقال : هلمّ إلى العشاء ، فقلت : لا أريده ، فقال : مالى رأيتك عند القبر ؟ فقلت : سلمت على النبى ﷺ فقال : إذا دخلت المسجد فسلم، ثم قال : إن رسول الله ﷺ قال : لا تتخذوا قبرى عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر ، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم ؛ لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء » (١) .

(١) قال فى قرة العيون : وهذا أيضاً له قرب النسب وقرب الدار ؛ فنهى عن المجئ إلى القبر والدعاء عنده . فالمجئ إلى القبر والسلام عليه وتحرى إجابة الدعاء ليس مما شرعه الله ورسوله لهذه الامة ، ولو كان مشروعاً لما تركه الخلفاء والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من سادات أهل البيت وأئمة التابعين ؛ ولما أنكروا على ما فعله ، وقولهم : هو الحجة ، وهو الذى دلت عليه الأحاديث ، كحديث عائشة وحديث الباب وغيرهما ، لعلم السلف بما أراده النبى ﷺ بنهيه عن الغلو ، وخوفه مما وقع ممن غلا فى الدين ، واتبع غير سبيل المؤمنين ؛ كما قال تعالى : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ [٤ : ١١٥] . =

« أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرجة كانت عند قبر النبى ﷺ ، فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه،

وقال سعيد أيضاً : حدثنا حبان بن على ، حدثنا محمد بن عجلان عن أبى سعيد مولى المهرى قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تتخذوا قبرى عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى » .

قال شيخ الإسلام : فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث، لا سيما وقد احتج به من أرسله ، وذلك يقتضى ثبوته عنده ، هذا لو لم يُرْوَ من وجوه مسندة من غير هذين ، فكيف وقد تقدم مسنداً ؟

قوله : (على بن الحسين) أى ابن على بن أبى طالب ، المعروف بزين العابدين - رضى الله عنه - ، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم . قال الزهرى : ما رأيت قرشياً أفضل منه. مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح . وأبوه الحسين سبْط رسول الله ﷺ وريحانته ، حفظ عن النبى ﷺ واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة رضى الله عنه.

قوله : (أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة) بضم الفاء وسكون الراء ، وهى الكُوَّة فى الجدار والخوخة ونحوهما .

قوله : (فيدخل فيها فيدعو فنهاه) هذا يدل على النهى عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها .

قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-: ما علمت أحداً رخص فيه؛ لأن ذلك نوع من اتخاذه عيداً ، ويدل أيضاً على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلى منهى عنه ، لأن ذلك لم يشرع ، وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل الإنسان المسجد أن يأتى قبر النبى ﷺ ؛ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك ، قال : « ولن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها » ، وكان الصحابة والتابعون - رضى الله عنهم - يأتون إلى مسجد النبى ﷺ فيصلون، فإذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا ، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام ، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه فى الصلاة أكمل وأفضل ، وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك ، أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم ، بل نهاهم عنه فى قوله : « لا تتخذوا قبرى عيداً وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغنى » فبين أن الصلاة تصل إليه من بُعد وكذلك السلام ، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد . وكانت الحجرة فى زمانهم يُدخَل إليها من الباب ؛ إذ كانت عائشة -رضى الله عنها - فيها ، وبعد ذلك إلى أن بنى الحائط الآخر ، وهم مع ذلك التمكن من الوصول

= ولما حدث الشرك بأرباب القبور فى هذه الأمة وتعظيمها وعبادتها صارت تشد الرحال لقصد دعائها ؛ والاستغاثة بها ، وبذل نفيس المال تقرباً إليها وتعظيم سدنتها . فيالها من مصيبة ما أعظمها . نسأل الله السلامة من هذا الشرك وما يقرب منه أو يوصل إليه .

وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعتُه من أبى عن جدّى عن رسول الله ﷺ قال : « لا تتخذوا قبرى عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، وصلو علىّ ، فإن تسليمكم يبلغنى أين كنتم ».

إلى قبره لا يدخلون عليه ، لا للسلام ولا للصلاة ، ولا للدعاء لانفسهم ولا لغيرهم ، ولا لسؤال عن حديث أو علم ، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلاماً أو سلاماً فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم ، وبيَّن لهم الأحاديث ، أو أنه قد ردّ عليهم السلام، بصوت يسمع من خارج، كما طمع الشيطان فى غيرهم فأضلهم عند قبره [1] وقبر غيره ، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدثهم فى الظاهر ، وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجاً من القبر ، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم ، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها ، كما رآهم النبى ﷺ ليلة المعراج .

والمقصود : أن الصحابة - رضى الله عنهم - لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره كما يفعله من بعدهم من الخلوف ، وإنما كان بعضهم يأتى من خارج فيسلم عليه إذا قدم من سفر ، كما كان ابن عمر يفعله ، قال عبيد الله بن عمر عن نافع : « كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبى ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبتاه ثم ينصرف » ، قال عبيد الله : « ما نعلم أحداً من أصحاب النبى ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر»، وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة ، فكان بدعة محضة وفى المبسوط : قال مالك : لا أرى أن يقف عند قبر النبى ﷺ ، ولكن يسلم ويمضى . ونص أحمد أنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره .

وبالجملة فقد اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر ، وتنازعوا : هل يستقبله عند السلام عليه أم لا ؟ وفى الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره ﷺ وإلى غيره من القبور والمشاهد ؛ لأن ذلك من اتخاذها أعياداً . بل من أعظم أسباب الإشراك بأصحابها . وهذه هى المسألة التى أفتى بها شيخ الإسلام - رحمه الله - أعنى من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين - ونقل فيها اختلاف العلماء ، فمن مبيح لذلك ، كالغزالى وأبى محمد المقدسى . ومن مانع لذلك ، كابن بَطَّة وابن عقيل ، وأبي محمد الجُوينى ، والقاضى عياض . وهو قول الجمهور . نص عليه مالك ، ولم يخالفه أحد من الأئمة ، وهو الصواب ، لما فى الصحيحين عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : « لا تُشَد الرّحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » ، فدخل فى النهى شدُّها لزيارة القبور والمشاهد ، فإما أن

---

(١) ومن ذلك الحكاية المفتراة المنسوبة إلى الشيخ أحمد الرفاعى ؛ وأنه طلب من النبى ﷺ مد يده ليقبلها ففعل ، وخرجت اليد فقبلها . فانظر بالله كيف استطاعت شياطين الجن والإنس أن تلعب بعقول أولئك المخبولين ، المحرومين من كل علم وعقل ودين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

رواه في المختارة .

يكون نهياً ، وإما أن يكون نفياً . وجاء في رواية بصيغة النهى ، فتعين أن يكون للنهى ، ولهذا فهم منه الصحابة - رضى الله عنهم - المنع - كما في الموطأ والمسند والسنن - عن بَصْرة ابن أبى بصرة الغفارى : أنه قال لأبى هريرة - وقد أقبل من الطور - : « لو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا تُعمَل الْمَطِيُّ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » ، وروى الإمام أحمد وعمر بن شبَّة في أخبار المدينة بإسناد جيد عن قَزَعة قال : « أتيت ابن عمر ، فقلت : إنى أريد الطور . فقال : إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، والمسجد الأقصى . فدع عنك الطور ولا تأته » ، فابن عمر وبَصْرة بن أبى بصرة جعلا الطور مما نهى عن شد الرحال إليه ، لأن اللفظ الذى ذكراه فيه النهى عن شدها إلى غير الثلاثة مما يقصد به القربة ، فعلم أن المستثنى منه عام في المساجد وغيرها ، وأن النهى ليس خاصاً بالمساجد ، ولهذا نهيا عن شدها إلى الطور مستدلين بهذا الحديث . والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة ، فإن الله سماه (الوادى المقدس ، والبقعة المباركة) وكلّم كليمه موسى - عليه السلام - هناك ، وهذا هو الذى عليه الأئمة الأربعة وجمهور العلماء ، ومن أراد بسط القول في ذلك والجواب عما يعارضه فعليه بما كتبه شيخ الإسلام مجيباً لابن الأخنائى [1] فيما اعترض به على ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وأخذ به العلماء وقياس الأولى : لأن المفسدة في ذلك ظاهرة .

وأما النهى عن زيارة غير المساجد الثلاثة فغاية ما فيها : أنها لا مصلحة في ذلك توجب شد الرحال ؛ ولا مزية تدعو إليه . وقد بسط القول في ذلك الحافظ محمد بن عبد الهادى في كتاب « الصارم المنكى في رده على السبكى » ، وذكر فيه علل الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبى ﷺ، وذكر هو وشيخ الإسلام -رحمهما الله تعالى- أنه لا يصح منها حديث عن النبى ﷺ ولا عن أحد من أصحابه ، مع أنها لا تدل على محل النزاع ؛ إذ ليس فيها إلا مطلق الزيارة ، وذلك لا ينكره أحد بدون شد الرحال؛ فيحمل على الزيارة الشرعية التى ليس فيها شرك ولا بدعة .

قوله : (رواه في المختارة) المختارة : كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة على الصحيحين .

ومؤلفه : هو أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسى الحافظ ضياء الدين الحنبلى أحد الأعلام . قال الذهبى : أفنى عمره في هذا الشأن مع الدين المتين ، والورع والفضيلة التامة والإتقان . فالله يرحمه ويرضى عنه .

---

(١) قاضى المالكية في عصره ، والرد عليه مطبوع بهامش الرد على البكرى ، على نفقة جلالة الملك الصالح المصلح ؛ الملك عبد العزيز آل سعود ، أدام الله تأييده ونصره .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية براءة .

الثانية : إبعاده أمته عن هذا الحِمى غاية البعد .

الثالثة : ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته .

الرابعة : نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص ، مع أن زيارته من أفضل الأعمال.

الخامسة : نهيه عن الإكثار من الزيارة .

السادسة : حثه على النافلة فى البيت .

السابعة : أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى فى المقبرة .

الثامنة : تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعُد ، فلا حاجة إلى ما يتوهمه مَن أراد القرب .

التاسعة : كونه ﷺ فى البرزخ تعرض أعمال أُمته فى الصلاة والسلام عليه [1] .

❊ ❊ ❊

باب (ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان)

وقوله تعالى (٤ : ٥١) : ﴿ ألم ترَ إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون

وقال شيخ الإسلام : تصحيحه فى مختاراته خير من تصحيح الحاكم بلا ريب . مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة .

قوله : (باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان)

(وقول الله تعالى (٤ : ٥١) : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾) .

« الوثن » يطلق على ما قصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله من القبور والمشاهد وغيرها لقول الخليل عليه السلام (٢٩ : ١٧) : ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً ﴾ ، ومع قوله (٢٦ : ٧١) : ﴿ قالوا : نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ﴾ ، وقوله (٣٧ : ٩٥): ﴿ قال : أتعبدون ما تنحتون ؟ ﴾ فبذلك يعلم أن الوثن يطلق على الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله ، كما تقدم فى الحديث .

قوله : (يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ روى ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : « جاءَ حُيَيُّ بن

---

(١) يريد المصنف رحمه الله أن النبى ﷺ لا يعرض عليه من أعمالنا إلا الصلاة والسلام عليه فقط ، لا كما يظنه المبتدعون أن كل الأعمال تعرض عليه ، فإن وجد خيراً حمد الله وإن وجد غير ذلك استغفر ، مستدلين على ذلك بحديث أوهن من بيت العنكبوت ومعرضين عن صحاح النصوص من الكتاب والسنة التى رواها البخارى ومسلم .

بالجِبْت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾ .

وقوله تعالى (٥ : ٦٠) : ﴿ قل : هل أُنبئكم بشرٍّ من ذلك مثوبةً عند الله ؟ مَن لعنه الله وغضب عليه ، وجعل منهم القِرَدة والخنازير

أخْطَب وكعبُ بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم ، فأخبرونا عنا وعن محمد . فقالوا : ما أنتم وما محمد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكَوْماء، ونسقى الماء على اللبن ، ونفُكُّ العناة ، ونسقى الحجيج ، ومحمد صُنبور ، قطع أرحامنا ، واتبعه سُرّاق الحجيج من غِفار، فنحن خير أم هو ؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلا، فأنزل الله تعالى: ﴿ ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾[1] ، وفى مسند أحمد عن ابن عباس نحوه.

قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : « الجبت السحر، والطاغوت الشيطان »، وكذلك قال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وغيرهم . وعن ابن عباس وعكرمة وأبى مالك : «الجبت الشيطان - زاد ابن عباس : بالحبشية » ، وعن ابن عباس أيضاً : « الجبت الشرك » ، وعنه « الجبت الأصنام » ، وعنه « الجبت : حيى بن أخطب » ، وعن الشعبى « الجبت الكاهن » ، وعن مجاهد « الجبت كعب بن الأشرف » قال الجوهرى : « الجبت : كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر » ونحو ذلك [٢] .

قال المصنف - رحمه الله تعالى - : « وفيه : معرفة الإيمان بالجبت والطاغوت فى هذا الموضع هل هو اعتقاد قلب ، أو هو موافقة أصحابها ، مع بغضها ومعرفة بطلانها ؟ » .

قوله : (وقوله تعالى (٥ : ٦٠) : ﴿ قل : هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك مثوبة عند الله ؟ مَن لعنه الله وغضب عليه ، وجعل منهم القردَة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت ﴾) .

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : قل يا محمد هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا ؟ وهم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله : ﴿ من لعنه الله ﴾ أى أبعده

---

(١) قال الحافظ ابن كثير : وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس وجماعة من السلف ؛ وقال الإمام أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال : « لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش : ألا ترى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية . قال : أنتم خير ، قال : فنزلت فيهم ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ ، ونزل ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾ الآية ، و« الكوماء » : الناقة العظيمة لسمنها . و« العناة » جمع « عان » وهو الأسير . و« الصنبور » : الأبتر الذى لا عقب له ، وأصله سعفة تنبت فى جذع النخلة لا فى الأرض ، وقيل : هى النخلة المنفردة التى دق أسفلها . وأرادوا أنه إذا بلغ انقطع ذكره كما يذهب الصنبور لأنه لا عقب له .

(٢) زاد ابن كثير عن الجوهرى : وفى الحديث « الطيرة والعيافة والطْرق من الجبت » قال ابن كثير : رواه الإمام أحمد عن قبيصة بن مخارق .

من رحمته ، ﴿ وغضب عليه ﴾ أى غضباً لا يرضى بعده أبداً ، ﴿ وجعل منهم القردة والخنازير ﴾ ، وقد قال الثورى عن عَلْقمة بن مَرْثَد عن المغيرة عن عبد الله اليَشْكُرى عن المعرور ابن سُويد : أن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير : أهى مما مسخ الله ؟ فقال : إن الله لم يُهلك قوماً - أو قال لم يمسخ قوماً - فجعل لهم نسلاً ولا عقباً ، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك » رواه مسلم [1] .

قال البغوى فى تفسيره : ﴿ قل ﴾ يا محمد : ﴿ هل أنبئكم ﴾ أخبركم ﴿ بشرّ من ذلك ﴾ الذى ذكرتم ، يعنى قولهم : لم تر أهل دين أقلّ حظاً فى الدنيا والآخرة منكم ، ولا ديناً شراً من دينكم ، فذكر الجواب بلفظ الابتداء وإن لم يكن الابتداء شراً ، لقوله تعالى (٢٢ : ٧٢): ﴿ قل أفأنبئكم بشر من ذلكم ؟ النار ﴾ .

وقوله : ﴿ مثوبة ﴾ ثواباً وجزاء ، نصب على التفسير ﴿ عند الله ، من لعنه الله ﴾ أى هو من لعنه الله ، ﴿ وغضب عليه ﴾ يعنى اليهود ، ﴿ وجعل منهم القردة والخنازير ﴾ فالقردة أصحاب السبت والخنازير كفار مائدة عيسى ، وعن على بن أبى طلحة عن ابن عباس : « أن المسخين كلاهما من أصحاب السبت ، فشبابهم مسخوا قردة ، وشيوخهم مسخوا خنازير » .

﴿ وعَبَد الطاغوت ﴾ أى وجعل منهم مَنْ عبد الطاغوت ، أى أطاع الشيطان فيما سوّل له ، وقرأ ابن مسعود [2] (عبدوا الطاغوت) وقرأ حمزة : و(عَبُد) بضم الباء ، و« الطاغوت » بجر التاء [3] أراد العبد . وهما لغتان : عَبْد بسكون الباء ، وعَبُد بضمها ، مثل سَبْع وسَبُع [4] وقرأ الحسن : « وعبد الطاغوت » على الواحد [5] .

وفى تفسير الطبرى : قرأ حمزة وحده « وعبُد الطاغوت » بضم الباء وجر التاء ، والباقون «وعبَد الطاغوتَ » بنصب الباء وفتح التاء . وقرأ ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم النخعى والأعمش وأبان بن تغلب : « وعُبُدَ الطاغوت » بضم العين والباء وفتح الدال وخفض التاء ، قال : وحجة حمزة فى قراءته : « وعبُد الطاغوت » أنه يحمله على ما عمل فيه « جعل » كأنه: وجعل منهم عبد الطاغوت ومعنى « ﴿ جعل ﴾ : « خلق » ، كقوله : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ ، وليس « عبد » لفظ جمع ؛ لأنه ليس من أبنية الجموع شىء على هذا البناء ،

(١) رواه مسلم فى كتاب القدر فى باب بيان أن الآجال والأرزاق لا تزيد ولا تنقص من وجهين : أولهما عن أبى بكر بن أبى شيبة ؛ وأبى كريب عن مسعر . وهذا هو الذى فيه « ولا عقباً » ، والثانى عن إسحاق بن إبراهيم الحنظلى وحجاج بن الشاعر واللفظ لحجاج : وليس فيه « ولا عقباً » .

(٢) فى البغوى : وتصدقها قراءة ابن مسعود .

(٣) فيكون على الإضافة ، على أن المعنى : وجعل منهم خدم الطاغوت ، أى خدامه وعبيده .

(٤) فى تفسير البغوى ، وقيل : هو جمع العباد وقرأ الحسن . . إلخ .

(٥) آخر النقل عن البغوى .

وقوله تعالى (١٨ : ٢١): ﴿ قال الذين غُلبوا على أمرهم : لَنَتَّخِذَنَّ عليهم مسجداً﴾ .

عن أبى سعيد - رضى الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال : « لتتبعنَّ سَنَن من كان

ولكنه واحد يراد به الكثرة ، ألا ترى أن فى الأسماء المفردة المضافة إلى المعارف ما لفظه الإفراد ومعناه الجمع ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ، ولأن بناء فَعُل يراد به المبالغة والكثرة نحو يَقُظَ ودَنُس ؛ وكأن تقديره : أنه ذهب فى عبادة الطاغوت كل مذهب .

وأما من فتح فقال : (وعبَد الطاغوت) فإنه عطفه على بناء المضى الذى فى الصلة ، وهو قوله : ﴿ لعنه الله ﴾ ، وأفرد الضمير فى « عبد » وإن كان المعنى فيه الكثرة ؛ لأن الكلام محمول على لفظه دون معناه ، وفاعله ضمير « من » كما أن فاعل الأمثلة المعطوف عليها ضمير « من » فأفرد لحمل ذلك جميعاً على اللفظ ، وأما قوله ﴿ عبد الطاغوت ﴾ فهو جمع عبَد [1] .

وقال أحمد بن يحيى : عُبد جمع عابد ؛ كبازل وبُزل ، وشارف وشُرف ، وكذلك عبد جمع عابد . ومثله عباد وعبَّاد . ا هـ .

وقال شيخ الإسلام فى قوله : ﴿ وعبد الطاغوت ﴾ الصواب : أنه معطوف على ما قبله من الأفعال ، أى مَن لعنه وغضب عليه ، ومَن جعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت . قال : والأفعال المتقدمة الفاعل فيها اسم الله ، مظهراً أو مضمراً . وهنا الفاعل اسم مَنْ عبد الطاغوت . وهو الضمير فى « عبد » ولم يعد سبحانه « من » لأنه جعل هذه الأفعال صفة لصنف واحد وهم اليهود .

قوله : ﴿ أولئك شر مكاناً ﴾ مما تظنون بنا ، ﴿ وأضل عن سواء السبيل ﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس فى الطرف الآخر له مشارك كقوله تعالى (٢٥ : ٢٤) : ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ قاله العماد ابن كثير فى تفسيره ، وهو ظاهر .

قوله : (وقول الله تعالى (١٨ : ٢١) : ﴿ قال الذين غُلبوا على أمرهم : لنتخذن عليهم مسجداً ﴾) . والمراد أنهم فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يُذَم فاعله ؛ لأن النبى ﷺ قال : «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد » أراد تحذير أُمته أن يفعلوا كفعلهم .

قوله : (عن أبى سعيد - رضى الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال : « لتتبعن سَنَن من كان قبلكم حَذْو القُذة بالقُذة ، حتى لو دخلوا جحْر ضب لدخلتموه ، قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ أخرجاه » ، وهذا سياق مسلم .

قوله : (سنن) بفتح المهملة أى طريق من كان قبلكم . قال المهلب : الفتح أولى

---

(١) قال ابن كثير : على أنه جمع الجمع : عبد عبيد عبد ، مثل ثمار ثمر .

قبلكم حَذْوَ القُذَّة بالقذَّة ، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبّ لدخلتموه ، قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » أخرجاه .

ولمسلم عن ثَوبَان - رضى الله عنه - : أن رسولَ الله ﷺ قال : « إن الله زَوَى لى

قوله : (حذو القذة بالقذة) بنصب « حذو » على المصدر . والقذة - بضم القاف - واحدة القذذ وهو ريش السهم . أى لتتبعن طريقهم فى كل ما فعلوه ، وتشبهوهم فى ذلك كما تشبه قُذة السهم القذة الأخرى ، وبهذا تظهر مناسبة الآيات للترجمة ، وقد وقع كما أخبر ، وهو عَلَم من أعلام النبوة .

قوله : (حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) ، وفى حديث آخر : « حتى لو كان فيهم من يأتى أُمّه علانية لكان فى أمتى من يفعل ذلك » أراد ﷺ أن أمته لا تدع شيئاً مما كان يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كله لا تترك منه شيئاً ، ولهذا قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا ، ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عُبادنا ففيه شبه من النصارى . ا هـ .

قلت : فما أكثر الفريقين ، لكن من رحمة الله تعالى ونعمته أن جعل هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة كما فى حديث ثوبان الآتى قريباً .

قوله : (قالوا : يا رسول الله ﷺ اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » هو برفع « اليهود » خبر مبتدأ محذوف ، أى أهُم اليهود والنصارى الذين نتبع سننهم ؟ ويجوز النصب بفعل محذوف تقديره : تعنى .

قوله : (قال : فمن ؟) استفهام إنكارى ، أى فمن هم غير أولئك ؟

قوله : (ولمسلم عن ثوبان - رضى الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله زَوَى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها ، وأُعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وإنى سألت ربى لأمتى أن لا يهلكها بسنة بعامة ، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ، وإنى ربى قال : يا محمد ، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكها بسنة بعامة ، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبى بعضهم بعضاً » ، ورواه البرقانى فى صحيحه وزاد : « وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين ، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حَى من أمتى بالمشركين ، وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان ، وإنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبى ، وأنا خاتم النبيين لا نبى بعدى ولا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله تبارك وتعالى ») .

هذا الحديث رواه أبو داود فى سننه وابن ماجه بالزيادة التى ذكرها المصنف .

قوله : (عن ثوبان) هو مولى النبى ﷺ صحبه ، ولازمه ونزل بعده الشام . ومات بحمص سنة أربع وخمسين .

الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أُمَّتى سيبلغُ ملكها ما زَوَى لى منها وأعطيتُ الكنزين : الأحمر والأبيض . وإنى سألتُ ربى لأُمتى أن لا يُهلكها بسَنَة بعامة ، وأن لا يسَلِّط عليهم عدواً من سوَى أنفسهم ، فيستبيحَ بَيْضتهم ، وإن ربى قال : يا محمد ، إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرَدُّ ، وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أُسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ،

قوله : (زوى لىَ الأرض) قال التُّورِبْشْتى : زويت الشىء جمعته وقبضته ، يريد تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب . وحاصله : أنه طوى له الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف فى مرآة ينظره . قال الطيبى : أى جمعها لى حتى أبصرت ما تملكه أمتى من أقصى المشارق والمغارب منها .

قوله : (وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها) قال القرطبى : هذا الخبر وجد مخبره كما قال ، وكان ذلك من دلائل نبوته ؛ وذلك أن مُلك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طَنْجة - بالنون والجيم - الذى هو منتهى عمارة المغرب ، إلى أقصى المشرق مما هو وراء خراسان والنهر وكثير من بلاد السند والهند والصغد ، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال . ولذلك لم يذكر عليه السلام أنه أُريه ولا أخبر أن مُلك أمته يبلغه .

قوله : (زوى لى منها) يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل ، وأن يكون مبنياً للمفعول .

قوله : (وأعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض) قال القرطبى : يعنى به كنز كسرى ، وهو مُلك الفرس ، وكنز قيصر وهو ملك الروم وقصورهما وبلادهما . وقد قال ﷺ : « والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » وعبر بالأحمر عن كنز قيصر ؛ لأن الغالب عندهم كان الذهب ، وبالأبيض عن كنز كسرى ؛ لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة ، ووجد ذلك فى خلافة عمر ، فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته وما كان فى بيوت أمواله ، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها ، وكذلك فعل الله بقيصر . و« الأبيض والأحمر » منصوبان على البدل .

قوله : (وإنى سألت ربى لأمتى أن لا يهلكها بسنة بعامة) هكذا ثبت فى أصل المصنف رحمه الله : « بعامة » بالباء ، وهى رواية صحيحة فى صحيح مسلم وفى بعضها بحذفها . قال القرطبى : وكأنها زائدة لأن « عامة » صفة السنة ، والسنة : الجدب الذى يكون به الهلاك العام ويسمى الجدب والقحط : سنة ، ويجمع على سنين ، كما قال تعالى (٧ : ١٣٠) : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ﴾ أى الجدب المتوالى .

قوله : (من سوى أنفسهم) أى من غيرهم من الكفار من إهلاك بعضهم بعضاً ، وسبى بعضهم بعضاً ، كما هو مبسوط فى التاريخ فيما قبل ، وفى زماننا هذا . نسأل الله العفو والعافية .

قوله : (فيستبيح بيضتهم) قال الجوهرى : بيضة كل شىء حوزته ، وبيضة القوم ساحتهم

حتى يكون بعضهم يُهلكُ بعضاً ، ويَسْبى بعضهم بعضاً »، ورواه البَرقانى فى صحيحه .

وعلى هذا فيكون معنى الحديث : أن الله تعالى لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض ، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض وهى جوانبها . وقيل: بيضتهم معظمهم وجماعتهم ، وإن قلوا .

قوله : (حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبى بعضهم بعضاً) والظاهر أن « حتى » عاطفة ، أو تكون لانتهاء الغاية ، أى إن أمر الأمة ينتهى إلى أن يكون بعضهم يهلك بعضاً . وقد سلط بعضهم على بعض كما هو الواقع ، وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم .

قوله : (وإن ربى قال : يا محمد ، إذا قضيت قضاء فإنه لا يُردّ) قال بعضهم : أى إذا حكمت حكماً مبرماً نافذاً فإنه لا يرد بشىء ، ولا يقدر أحد على رده ، كما قال النبى ﷺ : «ولا راد لما قضيت» .

قوله : (ورواه البرقانى فى صحيحه) هو الحافظ الكبير أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد ابن غالب الخوارزمى الشافعى . ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة . قال الخطيب : كان نبتاً ورعاً ، ولم نرَ فى شيوخنا أثبت منه ، عارفاً بالفقه . كثير التصانيف . صنف مسنداً ضمّنه ما اشتمل عليه الصحيحان ، وجمع حديث الثورى وحديث شعبة وطائفة .

وهذا الحديث رواه أبو داود بتمامه بسنده إلى أبى قلابة عن أبى أسماء عن ثوبان - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله - أو قال : إن ربى - زوى لى الأرض فأُريت مشارق الأرض ومغاربها ، وإن ملك أمتى سيبلغ ما زوى لى منها ، وأُعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض ، وإنى سألت ربى لأُمَّتى أن لا يهلكها بسنة عامة [1] ولا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، وإن ربى قال لى : يا محمد ، إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، ولا أهلكهم بسنة عامة ، ولا أُسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها - أو قال : بأقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، وحتى يكون بعضهم يسبى بعضاً ، وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين ، وإذا وُضع السيف فى أمتى لم يُرفع عنها إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتى بالمشركين وحتى تعبد قبائل من أمتى الأوثان ، وإنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبى وأنا خاتم النبيين ، لا نبىَّ بعدى ، ولا تزال طائفة من أمتى على الحق - قال ابن عيسى : ظاهرين ، ثم اتفقا - لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله تعالى » [2] .

---

(١) الذى فى سنن أبى داود (ج٤ ص١٥) مع شرح عون المعبود - وهى طبعة هندية مصححة بدقة «بسنة بعامة» وقال فى عون المعبود وفى رواية مسلم « بسنة بعامة » فى باب الفتن . (٢) قال فى عون المعبود : إسناده صحيح .

وزاد : وإنما أخاف على أُمَّتى الأئمَةَ المضلِّين .

وروى أبو داود أيضاً عن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ أنه قال : «تدور رَحَى الإسلام لخمس وثلاثين ، أو ست وثلاثين ، أو سبع وثلاثين ، فإن يهلكوا فسبيل من هلك ، وإن يَقُمْ لهم دينهم يقم سبعين عاماً ، قلت : أَمِمَّا بقى أو مما مضى ؟ قال: مما مضى » (١) .

وروى فى سننه أيضاً عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : «يتقارب الزمان وينقص العلم ، وتظهر الفتن ، ويلقى الشُّحُّ ، ويكثر الهرْجُ ؛ قيل : يا رسول الله أيّهْ هو ؟ قال : القتل القتل » .

قوله : (وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين) أى الأمراء والعلماء والعباد فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم (٢) ، كما قال تعالى (٣٣ : ٦٧) : ﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ وكان بعض هؤلاء يقول لأصحابه : من كان له حاجة فليأت إلى قبرى فإنى أقضيها له ، ولا خير فى رجل يحجبهُ عن أصحابه ذراع من تراب ، ونحو هذا . وهذا هو الضلال البعيد ، يدعو أصحابه إلى أن يعبدوه من دون الله ، ويسألوه ما لا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم ، وتفريج كرباتهم ، وقد قال تعالى (٢٢ : ١٢ ، ١٣) : ﴿ يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ، ذلك هو الضلال البعيد ، يدعو لَمَنْ ضَرُّهُ أقربُ من نفعه، لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ ، وقال تعالى (٢٥ : ٣) : ﴿ واتخذوا من دونه آلهةً لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ وقال تعالى (٢٩ : ١٧) : ﴿ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ وأمثال هذا فى القرآن كثير ، يبين الله تعالى به الهدى من الضلال .

ومن هذا الضرب : مَنْ يدّعى أنه يصل مع الله إلى حال تسقط فيها عنه التكاليف ، ويدعى أن الأولياء يُدعون ويستغاث بهم فى حياتهم ومماتهم ، وأنهم ينفعون ويضرون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة ، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ ، ويعلم أسرار الناس وما فى ضمائرهم ، ويُجوّز بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين ، وإيقادها بالسرج ونحو ذلك من الغلو والإفراط والعبادة لغير الله ، فما أكثر هذا الهذيان والكفر والمحادة لله ولكتابه ولرسوله .

وقوله ﷺ : « وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين » أتى بإنما التى قد تأتى للحصر بياناً

---

(١) قال الحافظ أبو الحجاج يوسف المزى فى كتاب الأطراف : وأخرجه البخارى فى الصحيح فى الأدب وفى الفتن؛ ومسلم فى القدر ، وأبو داود فى الفتن .

(٢) وفى قرة العيون : كما قال تعالى : ﴿ وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ [٦: ١١٩] ، وقال : ﴿ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ﴾ [٣٧ : ٧١] ، وأمثال هذه الآيات كثير ، وعن زياد بن حدير قال : قال لى عمر : « هل تعرف ما يهدم الإسلام ؟ قلت : لا ، قال : يهدمه زلة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب ؛ وحكم الأئمة المضلين » . رواه الدارمى .

لشدة خوفه على أمته من أئمة الضلال ، وما وقع فى خَلَد النبى ﷺ من ذلك إلا لما اطلعه الله عليه من غيبه أنه سيقع نظير ما فى الحديث قبله من قوله : « لتتبعن سنن من كان قبلكم - الحديث » .

وعن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أخوف ما أخاف على أمتى الأئمة المضلون » رواه أبو داود الطيالسى . وعن ثوبان - رضى الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال : « إنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين » رواه الدارمى .

وقد بين الله تعالى فى كتابه صراطَهُ المستقيم الذى هو سبيل المؤمنين ، فكل من أحدث حدثاً ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ﷺ ، فهو ملعون وحدثه مردود ، كما قال ﷺ : « من أحدث حدثاً ، أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً » ، وقال : « من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد » ، وقال : «كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » ، وهذه أحاديث صحيحة ، ومدار أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث ونحوها . وقد بين الله تعالى هذا الأصل فى مواضع من كتابه العزيز ، كما قال تعالى (٧ : ٣) : ﴿ اتَّبِعوا ما أُنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون ﴾ ، وقال تعالى (٤٥ : ١٨) : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتَّبِعْهَا ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ ونظائرها فى القرآن كثير .

وعن زياد بن حُدَير قال : قال لى عمر - رضى الله عنه - : « هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت : لا ، قال : يهدمه زَلَّة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلين » رواه الدارمى .

وقال يزيد بن عمير: كان « معاذ بن جبل - رضى الله عنه - لا يجلس مجلساً للذكر إلا ويقول: الله حكم قسط ، هلك المرتابون - وفيه : فاحذروا زيغة الحكيم ، فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق . قلت لمعاذ : وما يدرينى - رحمك الله - أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة ، والمنافق قد يقول كلمة الحق ؟ فقال : اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات والتى يقول : ما هذه ؟ ولا يثنيك ذلك عنه ، فإنه لعله أن يراجع الحق وتَلَقّ الحق إذا سمعته ؛ فإن على الحق نوراً » رواه أبو داود وغيره .

قوله : (وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة) وكذلك وقع . فإن السيف لما وقع بقتل عثمان - رضى الله عنه - لم يرفع ، وكذلك يكون إلى يوم القيامة ، ولكن قد يكثر تارة ويقل أخرى ، ويكون فى جهة ويرتفع عن أخرى [1] .

(١) قال فى قرة العيون : وفيه ما هو حق ، كقتال أهل التوحيد لأهل الشرك بالله ، وجهادهم على تركهم الشرك ، وقد من الله بذلك على من أقامهم فى آخر هذا الزمان بالدعوة إلى توحيده ، لكن أهل الشرك بدأوهم بالقتال وأظهرهم الله عليهم كما لا يخفى على من تدبر آيات هذا الدين فى هذه الأزمنة . ا هـ .

ولا تقومُ الساعةُ حتى يَلْحَق حَي من أُمتى بالمشركين، وحتى تَعْبُدَ فِئَامٌ من أمتى الأوثانَ،

قوله : (ولا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمتى بالمشركين) « الحى » واحد الأحياء وهى القبائل : وفى رواية أبى داود : « حتى يلحق قبائل من أمتى بالمشركين » ، والمعنى : يكونون معهم ويرتدون برغبتهم عن أهل الإسلام ، ويلحقون بأهل الشرك .

قوله : (وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان) « الفئام » بكسر الفاء مهموز : الجماعات الكثيرة ، قاله أبو السعادات .

وفى رواية أبى داود : « وحتى تعبد قبائل من أُمتى الأوثان » .

وهذا هو شاهد الترجمة ، ففيه الرد على من قال بخلافه من عباد القبور الجاحدين لما يقع منهم من الشرك بالله بعبادتهم الأوثان ، وذلك لجهلهم بحقيقة التوحيد وما يناقضه من الشرك والتنديد [1] ، فالتوحيد هو أعظم مطلوب ، والشرك هو أعظم الذنوب .

وفى معنى هذا الحديث : ما فى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - مرفوعاً : «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أَلَيَات نساء دَوْس على ذى الخَلَصة . قال : وذو الخلصة طاغية دوس التى كانوا يعبدون فى الجاهلية » ، وروى ابن حبان عن معمر قال : إن عليه الآن بيتاً مبنياً مغلقاً .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - فى قصة هدم اللات ، لما أسلمت ثقيف : فيه أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً ، وكذا حكم المشاهد التى بنيت على القبور ، والتى اتخذت أوثاناً تعبد من دون الله ، والأحجار التى تقصد للتبرك والنذر لا يجوز إبقاء شىء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها ، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة ، أو أعظم شركاً عندها وبها . فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم ،

---

(١) فى قرة العيون : وقد استحكمت الفتنة بعبادة الأوثان حتى إنه لا يعرف أحد فى هذه القرون المتأخرة أنكر ما وقع من ذلك حتى أقام الله شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى الذى أنكره ونهى عنه ، ودعا الناس إلى تركه وإلى أن يعبدوا الله وحده لا شريك له فى ألوهيته وأسمائه وصفاته . فرماه الملوك وأتباعهم عن قوس العداوة ، فأظهره الله بالحجة ، وأعز أنصاره على من ناوأهم ، وبلغت دعوته مشارق الأرض ومغاربها ؛ ولكن الناس منهم من عرف ومنهم من أنكر ، وانتفع بدعوته الكثير من أهل نجد والحجاز وعمان وغيرها . فللَّه الحمد على هذه النعمة العظيمة ، جعلنا الله لها شاكرين .

قال أبو طاهر - غفر الله لهما - وإنما أظهره الله بتوفيق آل سعود للانضواء تحت راية التوحيد الذى دعا إليه الشيخ ابن عبد الوهاب ، فكان لحديدهم مع بينات الشيخ هذا الأثر فى ظهور كلمة التوحيد وقيام دولة مرهوبة الجانب لأهل التوحيد تصديقاً لقول الله تعالى : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾ [٥٧ : ٢٥] ، والله نسأل أن يديم توفيقهم ويوفق ملوك المسلمين لمثل ما وفقهم له .

وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة ، وغلب الشرك على أكثر النفوس ، لظهور الجهل وخفاء العلم ، وصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، وطمست الأعلام ، واشتدت غربة الإسلام ، وقلّ العلماء ، وغلب السفهاء ، وتفاقم الأمر ، واشتد البأس ، وظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين ، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . ا هـ ملخصاً .

قلت : فإذا كان هذا فى القرن السابع وقبله ، فما بعده أعظم فساداً كما هو الواقع .

قوله : (وإنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبى) قال القرطبى : وقد جاء عددهم معيناً فى حديث حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « يكون فى أمتى كذابون دجالون سبع وعشرون ، منهم أربع نسوة » أخرجه أبو نعيم . وقال : هذا حديث غريب . انتهى .

وحديث ثوبان أصح من هذا .

قال القاضى عياض : عدّ من تنبأ من زمن رسول الله ﷺ إلى الآن ممن اشتهر بذلك وعرف واتبعه جماعة على ضلالة ، فوجد هذا العدد فيهم ، ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا [1] .

وقال الحافظ : وقد ظهر مصداق ذلك فى زمن رسول الله ﷺ ، فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة ، والأسود العنَسى باليمن ، وفى خلافة أبى بكر : طُليحة بن خويلد فى بنى أسد بن خزيمة وسَجاح فى بنى تميم ، وقتل الأسود قبل أن يموت النبى ﷺ ، وقتل مسيلمة فى خلافة أبى بكر - رضى الله عنه - ، قتله وَحْشى قاتل حمزة يوم أُحد ، وشاركه فى قتل مسيلمة يوم اليمامة رجل من الأنصار ، وتاب طليحة ومات على الإسلام فى زمن عمر - رضى الله عنه - . ونقل أن سجاح تابت أيضاً . ثم خرج المختار ابن أبى عبيد الثقفى وغلب على الكوفة فى أول خلافة ابن الزبير ، وأظهر محبة أهل البيت ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين ، فتتبعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك ، وأعلن عليه ، فأحبه الناس ، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل عليه السلام يأتيه . ومنهم الحرث الكذاب ، خرج فى خلافة عبد الملك بن مروان فقتل ، وخرج فى خلافة بنى العباس جماعة .

---

(١) للسيد صديق حسن خان كتاب « الإذاعة لما كان ويكون بين يدى الساعة » عد فيه أولئك الدجالين إلى زمنه ؛ وعد منهم الدجال الأفرنجى الخبيث غلام أحمد القاديانى الهندى قبحه الله وأخزاه ، ومن اتبعه على كفره ، فإنه ما قام بفتنته وادعى المهدوية ثم النبوة إلا بإيعاز ومساعدة دولة نصرانية ، سياستها التفريق لجماعات المسلمين .

وأنا خاتم النبيين ، لا نبيَّ بعدى ، ولا تزالُ طائفة من أمتى على الحقّ منصورة ، لا يَضُرُّهم مَنْ خذلهم

وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً ، فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم تنشأ دعوته عن جنون أو سوداء ، وإنما المراد من قامت له شوكة وبدا له شبهة كمن وصفنا ، وقد أهلك الله تعالى من وقع له منهم ذلك وبقى منهم من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجال الأكبر.

قوله : (وأنا خاتم النبيين) قال الحسن : الخاتم : الذى ختم به يعنى أنه آخر النبيين ، كما قال تعالى (٣ : ٤٠) : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ ، وإنما ينزل عيسى ابن مريم فى آخر الزمان حاكماً بشريعة محمد ﷺ مصلياً إلى قبلته ، فهو كأحد أمته ، بل هو أفضل هذه الأمة . قال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكَماً مُقْسِطاً ، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير ، وليضَعنَّ الجزية».

قوله : (ولا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم) قال يزيد بن هارون ، وأحمد بن حنبل : « إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدرى من هم ؟ » .

قال ابن المبارك ، وعلى بن المدينى ، وأحمد بن سنان ، والبخارى وغيرهم : « إنهم أهل الحديث » ، وعن ابن المدينى رواية : « هم العرب » ، واستدل برواية من روى : « هم أهل الغرب » ، وفسر الغرب بالدلو العظيمة ؛ لأن العرب هم الذين يستقون بها .

قال النووى : يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب ، وفقيه ومحدث ومفسر ، وقائم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وزاهد وعابد ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين فى بلد واحد ، بل يجوز اجتماعهم فى قطر واحد ، وافتراقهم فى أقطار الأرض ، ويجوز أن يجتمعوا فى البلد الواحد وأن يكونوا فى بعض دون بعض منه ، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولاً فأولاً ، إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد ، فإذا انقرضوا جاء أمر الله . اهـ ملخصاً مع زيادة فيه . قاله الحافظ .

قال القرطبى : وفيه دليل على أن الإجماع حجة ، لأن الأمة إذا اجتمعت فقد دخل فيهم الطائفة المنصورة [1] .

قال المصنف - رحمه الله - : (وفيه الآية العظيمة : أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم . وفيه البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية) .

---

(١) المراد من الإجماع : إجماع كل من يعتد به من هذه الأمة فى جميع أقطار الأرض ومعرفة ذلك غير متيسرة إلا فيما هو معلوم بالضرورة كالصلوات والصيام ونحوه ، ولذلك يروى عن الشافعى وأحمد : أن من ادعى الإجماع بعد الصحابة فقد أخطأ .

حتى يأتيَ أمرُ الله .

قلت : واحتج به الإمام أحمد على أن الاجتهاد لا ينقطع ما دامت هذه الطائفة موجودة .

قوله : (حتى يأتى أمر الله) الظاهر أن المراد به ما روى من قبض مَنْ بقى من المؤمنين بالريح الطيبة ، ووقوع الآيات العظام ، ثم لا يبقى إلا شرار الناس ، كما روى الحاكم : أن عبد الله بن عمرو قال : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، هم شر أهل الجاهلية » ، فقال عُقبة بن عامر لعبد الله : « اعلم ما تقول ، وأما أنا فسمعت النبى ﷺ يقول : لا تزال عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك » قال عبد الله : « ويبعث الله ريحاً ريحها المسك ، ومسها مس الحرير فلا تترك أحداً فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، ثم يبقى شرار الناس ، فعليهم تقوم الساعة » ، وفى صحيح مسلم : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض : الله ، الله » .

وعلى هذا : فالمراد بقوله فى حديث عقبة وما أشبهه : « حتى تأتيهم الساعة » ساعتهم . وهى وقت موتهم بهبوب الريح ، ذكره الحافظ .

وقد اختلف فى محل هذه الطائفة ، فقال ابن بطال : إنها تكون فى بيت المقدس ، كما رواه الطبرانى من حديث أبى أمامة ، قيل : يا رسول الله ، أين هم ؟ قال : ببيت المقدس » ، وقال معاذ بن جبل - رضى الله عنه - : « هم بالشام » ، وفى كلام الطبرى ما يدل على أنه لا يجب أن تكون فى الشام أو فى بيت المقدس دائماً ، بل قد تكون فى موضع آخر فى بعض الأزمنة .

قلت : ويشهد له الواقع وحال أهل الشام وأهل بيت المقدس ، فإنهم من أزمنة طويلة لا يعرف فيهم من قام بهذا الأمر بعد شيخ الإسلام ابن تيمية - رضى الله عنه - ، وأصحابه فى القرن السابع وأول الثامن ، فإنهم كانوا فى زمانهم على الحق يدعون إليه ، ويناظرون عليه ، ويجاهدون فيه : وقد يجئ من أمثالهم بعد الشام من يقوم مقامهم بالدعوة إلى الحق والتمسك بالسنة . والله على كل شىء قدير .

ومما يؤيد هذا : أن أهل الحق والسنة فى زمن الأئمة الأربعة ، وتوافر العلماء فى ذلك الزمان وقبله وبعده لم يكونوا فى محل واحد ، بل هم فى غالب الأمصار : فى الشام منهم الأئمة ، وفى الحجاز ، وفى مصر وفى العراق واليمن ، وكلهم على الحق يناضلون ، ويجاهدون أهل البدع ، ولهم المصنفات التى صارت أعلاماً لأهل السنة ، وحجة على كل مبتدع .

فعلى هذا : فهذه الطائفة قد تجتمع وقد تتفرق ، وقد تكون فى الشام ، وقد تكون فى غيره. فإن حديث أبى أمامة ، وقول معاذ ، لا يفيد حصرها بالشام ، وإنما يفيد أنها تكون فى الشام فى بعض الأزمان لا فى كلها .

تبارك وتعالى » .

فيه مسائل : **الأولى** : تفسير آية النساء .

الثانية : تفسير آية المائدة .

الثالثة : تفسير آية الكهف .

الرابعة – وهى أهمها – : ما معنى الإيمان بالجِبْت والطاغوتِ : هل هو اعتقاد قلب ، أو هو موافقةُ أصحابها مع بُغْضها ومعرفة بطلانها ؟

الخامسة : قولهم : إن الكفار الذين يعرفون كُفْرَهم أهدَى سبيلاً من المؤمنين .

السادسة – وهى المقصودة بالترجمة – : أنَّ هذا لا بدَّ أن يوجد فى هذه الأُمة ، كما تقرر فى حديث أبى سعيد .

السابعة : التصريح بوقوعها ، أعنى عبادَة الأوثانِ فى هذه الأمة فى جموعٍ كثيرة .

الثامنة : العجبُ العجاب : خروج مَنْ يَدَّعى النبوة ، مثل المختار ، مع تكلُّمه

وكل جملة من هذا الحديث عَلم من أعلام النبوة ، فإن كل ما أخبر به النبى ﷺ فى هذا الحديث وقع كما أخبر ﷺ .

وقوله : (تبارك وتعالى) قال ابن القيم – رحمه الله – : البركة نوعان :

أحدهما : بركة هى فَعَلة ، والفعل منها بارك ، ويتعدى بنفسه تارة وبأداة « على » تارة ، وبأداة « فى » تارة ، والمفعول منها مبارك ، وهو ما جعل منها كذلك ، فكان مباركاً بجعله تعالى .

والنوع الثانى : بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة ؛ والفعل منها تبارك ، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ، ولا يصلح إلا له عز وجل ، فهو سبحانه المتبارك ، وعبده ورسوله المبارك ، كما قال المسيح – عليه السلام – (١٩ : ٣١) : ﴿ وجعلنى مباركاً أينما كنت ﴾ فمن يبارك الله فيه وعليه فهو المبارك .

وأما صفة تبارك فمختصة به ، كما أطلقه على نفسه فى قوله (٧ : ٥٤) : ﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ ، (٦٧ : ١) ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ﴾ أفلا تراها كيف أطردت فى القرآن جارية عليه مختصة به ، لا تطلق على غيره ؟ وجاءت على بناء السعة والمبالغة ، كتعالى وتعاظم ونحوه ، فجاء بناء « تبارك » على بناء « تعالى » الذى هو دال على كمال العلو ونهايته ، فكذلك « تبارك » دال على كمال بركته وعظمته وسعتها . وهذا معنى قول من قال من السلف « تبارك » تعاظم . وقال ابن عباس – رضى الله عنهما – : « جاء بكل بركة » .

بالشهادتين ، وتصريحه بأنه من هذه الأمة ، وأنَّ الرسول حَق ، وأن القرآن حق ، وفيه: أن محمداً خاتم النبيين ، ومع هذا يُصَدَّق فى هذا كله مع التضادِّ الواضح . وقد خرج المختارُ فى آخر عصر الصحابة ، وتبعه فِئَامٌ كثيرة .

التاسعة : البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية ، كما زال فيما مضى ، بل لا تزالُ عليه طائفة .

العاشرة : الآية العظمى : أنهم مع قلَّتهم لا يضرهم مَنْ خَذَلَهم ولا من خالفهم .

الحادية عشرة : أنَّ ذلك الشرطَ إلى قيام الساعة .

الثانية عشرة : ما فيهن من الآيات العظيمة .

منها : إخبارُه بأن الله زَوَى له المشارقَ والمغارب ، وأخبر بمعنى ذلك ، فوقع كما أخبر ، بخلاف الجنوب والشمال .

وإخبارُه بأنه أُعطى الكنزين .

وإخباره بإجابة دعوته لأُمته فى الاثنتين .

وإخباره بأنه مُنِعَ الثالثة .

وإخباره بوقوع السيف ، وأنه لا يُرفع إذا وقع .

وإخباره بظهور المتنبئين فى هذه الأمة .

وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة .

وكل هذا وَقع كما أخبر ، مع أن كل واحدة منها من أبعد ما يكون فى العقول .

الثالثة عشرة : حَصْرُ الخوف على أمته من الأئمة المضلين .

الرابعة عشرة : التنبيه على معنى عبادة الأوثان .

❊ ❊ ❊

باب (ما جاء فى السحر)

قوله : (باب ما جاء فى السحر)
أى والكهانة

السحر فى اللغة : عبارة عما خفى ولطُف سببه ، ولهذا جاء فى الحديث : « إن من البيان لسحراً » ، وسمى السحر سحراً لأنه يقع خفياً آخر الليل [1] .

---

(١) رواه مالك وأحمد والبخارى وأبو داود والترمذى عن ابن عمر .

وقول الله تعالى (٢ : ١٠٢): ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق﴾ ، وقوله (٤ : ٥١) : ﴿ يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ .

قال أبو محمد المقدسى فى الكافى : السحر عزائم ورُقىً وعقد يؤثر فى القلوب والأبدان ، فيمرض ويقتل ، ويفرق بين المرء وزوجه . قال الله تعالى (٢ : ١٠٢) : ﴿ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ ومن شر النفاثات فى العقد ﴾ يعنى السواحر اللاتى يعقدن فى سحرهن وينفثن فى عقدهن ، ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه .

وعن عائشة - رضى الله عنها - : « أن النبى ﷺ سُحر حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشىء وما يفعله ، وأنه قال لها ذات يوم : أتانى مَلكان ، فجلس أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى ، فقال : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : ومَن طَبَّه ؟ قال : لبيد بن الأعصم فى مشط ومشاطة ، وفى جَف طلعة ذَكر فى بئر ذَرْوان » . رواه البخارى .

قال : (وقول الله تعالى (٢ : ١٠٢) : ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ﴾ قال ابن عباس : « من نصيب » . قال قتادة : وقد علم أهل الكتاب فيما عهد إليهم: أن الساحر لا خلاق له فى الآخرة ، وقال الحسن : ليس له دين .

فدلت الآية على تحريم السحر ، وكذلك هو محرم فى جميع أديان الرسل عليهم السلام ، كما قال تعالى (٢٠ : ٦٩) : ﴿ ولا يُفلح الساحر حيث أتى ﴾ ، وقد نص أصحاب أحمد أنه يكفر بتعلمه وتعليمه . وروى عبد الرزاق عن صفوان بن سليم قال : قال رسول الله ﷺ : « من تعلم شيئاً من السحر قليلاً كان أو كثيراً كان آخر عهده من الله » ، وهذا مرسل .

واختلفوا : هل يكفر الساحر أو لا ؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر ، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد - رحمهم الله - . قال أصحابه : إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقى شىء يضر فلا يكفر .

وقال الشافعى : إذا تعلم السحر قلنا له : صف لنا سحرك ، فإن وصف ما يوجب الكفر ، مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة ، وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته كفر . ا هـ .

وقد سماه الله كفراً بقوله (٢ : ١٠٢) : ﴿ إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ ، وقوله (٢ : ١٠٢) : ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ﴾ قال ابن عباس فى قوله : ﴿ إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ ، وذلك أنهما علِما الخير والشر والكفر والإيمان ؛ فعرفا أن السحر من الكفر.

قال : (وقوله تعالى (٤ : ٥١) : ﴿ يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ تقدم الكلام عليهما فى الباب قبله . وفيه أن السحر من الجبت . قاله المصنف رحمه الله .

قال عمر : الجبتُ : السحر ، والطاغوت : الشيطان » .

وقال جابر : « الطواغيت : كهان كان ينزل عليهم الشيطان فى كل حى واحد » .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

قوله : (قال عمر - رضى الله عنه - : الجبت : السحر ، والطاغوت : الشيطان) هذا الأثر رواه ابن أبى حاتم وغيره .

قوله : (وقال جابر : الطواغيث : كهان كان ينزل عليهم الشيطان ، فى كل حى واحد) هذا الأثر رواه ابن أبى حاتم بنحوه مطولاً عن وهب بن منبه قال : سألت جابر بن عبد الله عن الطواغيت التى كانوا يتحاكمون إليها ؛ فقال : إن فى جهينة واحداً ، وفى أسلم واحداً ، وفى هلال واحداً ، وفى كل حى واحداً ، وهم كهان كانت تنزل عليهم الشياطين) [1] .

قوله : (قال جابر) هو ابن عبد الله بن حرام الأنصارى [2] .

قوله : (الطواغيت : كهان) أراد أن الكهان من الطواغيت ، فهو من إفراد المعنى .

قوله : (كان ينزل عليهم الشيطان) أراد الجنس لا الشيطان الذى هو إبليس خاصة، بل تنزل عليهم الشياطين ويخاطبونهم ويخبرونهم بما يسترقون من السمع، فيصدقون مرة ويكذبون مائة.

قوله : (فى كل حى واحد) الحى واحد الأحياء ، وَهم القبائل ، أى فى كل قبيلة كاهن يتحاكمون إليه ويسألونه عن الغيب ، وكذلك كان الأمر قبل مبعث النبى ﷺ ، فأبطل الله ذلك بالإسلام ، وحرست السماء بكثرة الشهب .

قوله : (وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله ، وما هُنّ ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) .

كذا أورده المصنف غير معزو ، وقد رواه البخارى ومسلم .

---

(١) الذى يستلخص من كلام السلف رضى الله عنهم : أن الطاغوت كل ما يصرف العبد ويصده عن عبادة الله وإخلاص الدين والطاعة لله ولرسوله . سواء فى ذلك الشيطان من الجن والشيطان من الإنس ، والأشجار والأحجار وغيرها ، ويدخل فى ذلك بلا شك : الحكم بالقوانين الأجنبية عن الإسلام وشرائعه وغيرها من كل ما وضعه الإنسان ليحكم به فى الدماء والفروج والأموال ، وليبطل بها شرائع الله ، من إقامة الحدود وتحريم الربا والزنا والخمر ونحو ذلك مما أخذت هذه القوانين تحللها وتحرمها بنفوذها ومنفذيها والقوانين نفسها طواغيت وواضعوها ومروجوها طواغيت ، وأمثالها من كل كتاب وضعه العقل البشرى ليصرف عن الحق الذى جاء به رسول الله ﷺ إما قصداً أو عن غير قصد من واضعه ، فهو طاغوت .

(٢) توفى جابر سنة ٧٤ هـ ، وقيل : سنة ٧٧ هـ ، وكان عمره أربعاً وتسعين سنة .

«اجتنبوا السبعَ الموبقات ، قالوا : يا رسول الله ، وما هُن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله

قوله : (اجتنبوا) أى أبعدوا ، وهو أبلغ من قوله : دعوا واتركوا ؛ لأن النهى عن القربان أبلغ ، كقوله (٦ : ١٥١) : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ .

قوله : (الموبقات) بموحدة وقاف : أى المهلكات . وسميت هذه موبقات لأنها تهلك فاعلها فى الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات ، وفى الآخرة من العذاب .

وفى حديث ابن عمر عند البخارى فى الأدب المفرد والطبرى فى التفسير ، وعبد الرزاق مرفوعاً وموقوفاً قال : « الكبائر تسع - وذكر السبعة المذكورة - وزاد : والإلحاد فى الحرم ، وعقوق الوالدين » ، ولابن أبى حاتم عن على قال: « الكبائر - فذكر السبع - إلا مال اليتيم. وزاد : العقوق ، والتعرب بعد الهجرة ، وفراق الجماعة ، ونَكْث الصفقة » .

قال الحافظ : ويحتاج عندى هذا الجواب عن الحكمة فى الاقتصار على سبع .

ويجاب : بأن مفهوم العدد ليس بحجة وهو ضعيف ، أو بأنه أعلم أولاً بالمذكورات ، ثم أعلم بما زاد ، فيجب الأخذ بالزائد ، أو أن الاقتصار وقع بحسب المقام بالنسبة إلى السائل .

وقد أخرج الطبرانى وإسماعيل القاضى عن ابن عباس أنه قيل له : « الكبائر سبع » قال : « هن أكثر من سبع وسبع » ، وفى رواية : « هى إلى السبعين أقرب » ، وفى رواية : « إلى السبعمائة » [1] .

قوله : (قال : الشرك بالله) هو أن يجعل لله نداً يدعوه ويرجوه ويخافه كما يخاف الله ، بدأ به لأنه أعظم ذنب عصى الله به ، كما فى الصحيحين عن ابن مسعود : « سألت النبى ﷺ أىُّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك - الحديث » ، وأخرج الترمذى بسنده عن صفوان بن عَسَّال قال : « قال يهودى لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبى ، فقال له صاحبه : لا تقل نبى ، إنه لو سمعك لكان له أربع أعين ، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن تسع آيات بينات ، فقال النبى ﷺ : لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تمشوا ببرئ إلى ذى سلطان ليقتله ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا محصنة ، ولا تَوَلّوا للفرار يوم الزحف ، وعليكم خاصة اليهود أن لا تَعْدُوا فى السبت ، فقبَّلا يديه ورجليه ، وقالا : نشهد أنك نبى - الحديث » ، وقال : حسن صحيح .

قوله : (السحر) تقدم معناه ، وهذا وجه مناسبة الحديث للترجمة .

وقوله : (وقتل النفس التى حرم الله) أى حرم قتلها ، وهى نفس المسلم المعصوم .

---

(١) قد ألف الحافظ عبد الرحمن بن رجب رحمه الله كتاباً فى عد الكبائر طبع ، ولشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : كتاب مسائل الجاهلية ، هو كذلك فى عد الكبائر .

إلا بالحق ، وأكلُ الربا ، وأكلُ مال اليتيم ، والتوَلّي يَوم الزحْف ،

قوله : (إلا بالحق) أي بأن تفعل ما يوجب قتلها ، كالشرك ، والنفس بالنفس ، والزانى بعد الإحصان ، وكذا قتل المعاهد ، كما فى الحديث : « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة».

واختلف العلماء فيمن قتل مؤمناً متعمداً ، وهل له توبة أم لا ؟ فذهب ابن عباس وأبو هريرة وغيرهما إلى أنه لا توبة له ، استدلالاً بقوله تعالى (٤ : ٩٣) : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ﴾ ، وقال ابن عباس : « نزلت هذه الآية وهى آخر ما نزل ، وما نسخها شيء » ، وفى رواية : « لقد نزلت فى آخر ما نزل ، وما نسخها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ وما نزل وحى » ، وروى فى ذلك آثار تدل لما ذهب إليه هؤلاء ، كما عند الإمام أحمد والنسائى وابن المنذر عن معاوية : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً » .

وذهب جمهور الأمة سلفاً وخلفاً إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله ، فإن تاب وأناب وعمل صالحاً بدل الله سيئاته حسنات ، كما قال تعالى (٢٥ : ٦٨ - ٧١) : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يَلْقَ أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ، ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾ .

قوله : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً) قال أبو هريرة وغيره : « هذا جزاؤه إن جازاه » .

وقد روى عن ابن عباس ما يوافق قول الجمهور ، فروى عبد بن حميد والنحاس عن سعيد ابن عبادة : أن ابن عباس - رضى الله عنهما - كان يقول : « لمن قتل مؤمناً توبة » ، وكذلك ابن عمر - رضى الله عنهما - . وروى مرفوعاً : « أن جزاءه جهنم إن جازاه » .

قوله : (وأكل الربا) أى تناوله بأى وجه كان ، كما قال تعالى (٢ : ٢٧٥ - ٢٨٠) : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس - الآيات ﴾ . قال ابن دقيق العيد : وهو مجرب لسوءِ الخاتمة ، نعوذ بالله من ذلك .

قوله : (وأكل مال اليتيم) يعنى التعدى فيه ، وعبر بالأكل لأنه أعم وجوه الانتفاع ، كما قال تعالى (٤ : ١٠) : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ .

قوله : (والتولى يوم الزحف) أى الإدبار عن الكفار وقت التحام القتال ، وإنما يكون كبيرة إذا فرّ إلى غير فئة أو غير متحرف لقتال ، كما قيد به فى الآية .

---

(١) فى سورة الأنفال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ﴾ [٨ : ١٥ ، ١٦] .

وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

وعن جُندَب مرفوعاً : « حَدُّ الساحر : ضربُه بالسيف » رواه الترمذى ، وقال : الصحيح أنه موقوف .

وفى صحيح البخارى عن بجالة بن عَبْدة قال : « كتب عمر بن الخطاب : أن اقتلوا كلَّ ساحرٍ وساحرةٍ قال : فقتلنا ثلاث سواحر » .

قوله : (وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) وهو بفتح الصاد : المحفوظات من الزنا ، وبكسرها الحافظات فروجهن منه ، والمراد الحرائر العفيفات ، والمراد رميهن بزنا أو لواط ، والغافلات : أى عن الفواحش وما رمين به ، فهو كناية عن البريئات ؛ لأن الغافل برئ عما بهت به . والمؤمنات : أى بالله تعالى احترازاً من قذف الكافرات .

قوله : (وعن جندب مرفوعاً : « حدُّ الساحر : ضربه بالسيف) رواه الترمذى ، وقال : الصحيح أنه موقوف) .

قوله : (عن جندب) ظاهر صنيع الطبرانى فى الكبير : أنه جندب بن عبد الله البجلى . لا جندب الخير الأزدى قاتل الساحر ، فإنه رواه فى ترجمة جندب البجلى من طريق خالد العبد عن الحسن عن جندب عن النبى ﷺ ، وخالد العبد ضعيف . قال الحافظ : والصواب أنه غيره، وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين عن الحسن عن جُندب الخير : « أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات ، وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول - فذكره » وجندب الخير : هو جندب بن كعب ، وقيل : جندب بن زهير . وقيل : هما واحد ، كما قال ابن حبان : أبو عبد الله الأزدى الغامدى صحابى ، روى ابن السكن من حديث بريدة : أن النبى ﷺ قال : « يضرب ضربة واحدة فيكون أمة واحدة » .

قوله : (حد الساحر : ضربة بالسيف) وروى بالهاء وبالتاء ، وكلاهما صحيح .

وبهذا الحديث أخذ مالك وأحمد وأبو حنيفة ، فقالوا : يقتل الساحر . وروى ذلك عن عمر ، وعثمان ، وابن عمر ، وحفصة ، وجندب بن عبد الله ، وجندب بن كعب ، وقيس ابن سعد ، وعمر بن عبد العزيز ، ولم ير الشافعى القتل عليه بمجرد السحر إلا إن عمل فى سحره ما يبلغ الكفر ، وبه قال ابن المنذر ، وهو رواية عن أحمد . والأول أولى للحديث ولأثر عمر ، وعمل به الناس فى خلافته من غير نكير .

قوله : (وفى صحيح البخارى عن بجالة بن عبدة قال : كتب عمر بن الخطاب : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة . قال : فقتلنا ثلاث سواحر) .

هذا الأثر رواه البخارى كما قال المصنف رحمه الله ، لكن لم يذكر قتل السواحر .

قوله : (عن بجالة) بفتح الموحدة بعدها جيم : ابن عبدة - بفتحتين - التميمى العنبري ، بصرى ثقة .

قوله : (كتب إلينا عمر بن الخطاب : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة) وظاهره أنه يقتل من

وصح عن حفصة - رضى الله عنها - : « أنها أمرت بقتل جارية لها سحرَتها ، فقتلت » وكذلك صح عن جندب .

قال أحمد : عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية البقرة .

الثانية : تفسير آية النساء .

الثالثة : تفسير الجبت والطاغوت ، والفرق بينهما .

الرابعة : أن الطاغوت قد يكون من الجنِّ ، وقد يكون من الإنس .

الخامسة : معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهى .

غير استتابة ، وهو كذلك على المشهور عن أحمد ، وبه قال مالك ، لأن علم السحر لا يزول بالتوبة ، وعن أحمد يستتاب ، فإن تاب قبلت توبته ، وبه قال الشافعى ، لأن ذنبه لا يزيد عن الشرك ، والمشرك يستتاب وتقبل توبته ، ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم .

قوله : (وصح عن حفصة - رضى الله عنها - أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت) هذا الأثر رواه مالك فى الموطأ .

وحفصة هى أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب ، تزوجها النبى ﷺ بعد خنيس بن حذافة وماتت سنة خمس وأربعين .

قوله : (وكذلك صح عن جندب) أشار المصنف بهذا إلى قتله الساحر ، كما رواه البخارى فى تاريخه عن أبى عثمان النهدى قال : « كان عند الوليد رجل يلعب فذبح إنساناً وأبان رأسه فعجبنا ، فأعاد رأسه فجاء جندب الأزدى فقتله » .

ورواه البيهقى فى الدلائل مطولاً ، وفيه : « فأمر به الوليد فسجن » فذكر القصة بتمامها ، ولها طرق كثيرة .

قوله : (قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ) أحمد هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل [١] .

قوله : (عن ثلاثة) أى صح قتل الساحر عن ثلاثة ، أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ ، يعنى : عمر ، وحفصة ، وجندباً . والله أعلم .

---

(١) الإمام الجليل ، ناصر السنة وقامع البدعة ، الصابر المحتسب فى الله ولله على ما لقى فى نصر دين الله ، العلامة الحافظ الحجة . ولد سنة ١٦٤ هـ ، ومات سنة ٢٤١ هـ . قال الشافعى رحمه الله : خرجت من بغداد وما خلفت فيها أفقه ولا أروع ولا أزهد من أحمد بن حنبل ، رحمة الله عليه .

السادسة : أن الساحر يكفر .

السابعة : أنه يُقتل ولا يستتاب .

الثامنة : وجود هذا فى المسلمين على عهد عمر ، فكيف بعده ؟

* * *

باب (بيان شيء من أنواع السحر)

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف عن حيان بن العلاء، حدثنا قَطَن بن قبيصة عن أبيه : أنه سمع النبى ﷺ قال : « إن العيَافة والطَّرْق والطِّيرَة من الجبت » .

قال عوف : العيافة : زَجر الطير . والطرق : الخط يخط بالأرض [1] .

قوله : (باب بيان شيء من أنواع السحر)

قلت : ذكر الشارح - رحمه الله تعالى - ههنا شيئاً من الخوارق وكرامات الأولياء ، وذكر ما اغتر به كثير من الناس من الأحوال الشيطانية التى غرت كثيراً من العوام والجهال ، وظنوا أنها تدل على ولاية منْ جرت على يديه ممن هو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن ، ثم قال: ولشيخ الإسلام كتاب « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » فراجعه ، انتهى .

قال - رحمه الله تعالى - : (قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا عوف عن حيان ابن العلاء ، حدثنا قَطَن بن قَبيصة عن أبيه : أنه سمع النبى ﷺ قال : « إن العيافة ، والطّرق ، والطِّيرة من الجِبْت » قال عوف : العيافة : زجر الطير ، والطرق : الخط يخط فى الأرض ، والجبت : قال الحسن : « رنة الشيطان » إسناده جيد : ولأبى داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه : المسند منه) .

قوله : (قال أحمد) هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل .

ومحمد بن جعفر: هو المشهور بغُندَر الهذلى البصرى، ثقة مشهور. مات سنة ست ومائتين .

وعوف : هو ابن أبى جميلة - بفتح الجيم - العبدى البصرى ، المعروف بعوف الأعرابى ، ثقة . مات سنة ست - أو سبع - وأربعين ، وله ست وثمانون سنة .

وحيان بن العلاء : هو بالتحتية ، ويقال : حيان بن مخارق أبو العلاء البصرى ، مقبول .

وقَطَن - بفتحتين - : أبو سهل البصرى ، صدوق .

قوله : (عن أبيه) هو قبيصة - بفتح أوله - ابن مخارق - بضم الميم - أبو عبد الله الهلالى صحابى نزل البصرة .

قوله : (إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت) قال عوف : العيافة : زجر الطير ، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها ، وهو من عادات العرب ، وكثير فى أشعارهم . يقال : عاف يعيف : عيفاً إذا زجر وحدس وظن .

قوله : (والطرق : الخط يخط بالأرض) كذا فسره عوف ، وهو كذلك .

---

(١) هو ما يسمونه خط الرمل وعلمه ، وهو ذائع بين أهل العصر ، ولبعضهم فيه تأليف وقد يتعيش به كثير من=

والجبت : قال الحسن : « رنَّة الشيطان » إسناده جيد .

ولأبى داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه : المسند منه .

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شُعبة من

وقال أبو السعادات : هو الضرب بالحصى الذى يفعله النساء . وأما الطيرة : فيأتى الكلام عليها فى بابها إن شاء الله تعالى .

قوله : (من الجبت) أى : السحر ، قال القاضى : والجبت فى الأصل : الفشل الذى لا خير فيه ، ثم استعير لما يعبد من دون الله ، وللساحر والسحر .

قوله : (قال الحسن : رنة الشيطان) قلت : ذكر إبراهيم بن محمد بن مفلح : أن فى تفسير بَقِىِّ بن مَخْلَد : « أن إبليس رنّ أربع رنات : رنة حين لُعن ، ورنة حين أُهبط ، ورنة حين ولد رسول الله ﷺ ، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب » .

قال سعيد بن جبير : « لما لعن الله تعالى إبليس ، تغيرت صورته عن صورة الملائكة ، ورنّ رنة ، فكل رنة منها فى الدنيا إلى يوم القيامة » رواه ابن أبى حاتم .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « لما فتح رسول الله ﷺ مكة ، رنّ إبليس رنَّة اجتمعت إليه جنوده » رواه الحافظ الضياء فى المختارة .

الرنين: الصوت. وقد رن يرن رنيناً، وبهذا يظهر معنى قول الحسن – رحمه الله تعالى – .

قوله : (ولأبى داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه : المسند منه) ولم يذكر التفسير الذى فسره به عوف . وقد رواه أبو داود بالتفسير المذكور بدون كلام الحسن .

قوله : (وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقتبس شُعبة من النجوم ، فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد » رواه أبو داود بإسناد صحيح) وكذا صححه النووى والذهبى ، ورواه أحمد وابن ماجه .

قوله : (من اقتبس) قال أبو السعادات : قبست العلم واقتبسته إذا علمته . ا هـ [1] .

قوله : (شعبة) أى طائفة من علم النجوم . والشعبة الطائفة ، ومنه الحديث : « الحياء شعبة من الإيمان » أى جزء منه .

= المتكهنين يغرون به البله والجهلة زاعمين أنهم يطلعون على المغيبات وهم كاذبون ، فإن هذا العلم بل الجهل لا يقصد به إلا خداع الناس وأكل أموالهم بالباطل ، وقد بحثت فى قواعده فوجدته كما ذكرت لك رجماً بالغيب وهو من الجبت كما فى الحديث : فيجب على المؤمنين بالله الكفر به ، ومثله ما يسمونه علم قراءة الكف ، وقراءة الفنجان ، ومناجاة حب البن ونحوه ، كل ذلك دجل وسحر واستمتاع كل من شياطين الجن والإنس ببعضهم نسأل الله العافية للمسلمين من هذه الأمراض الفتاكة .

(١) أصله مأخوذ من القبس ، وهو القليل من النار ليستدفئ به . قال موسى : ﴿ لأهله : امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ .

النجوم ، فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد » . رواه أبو داود ، وإسناده صحيح .
وللنسائى من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - : « مَن عَقد عُقدة ثم نفث فيها فقد سَحر ،

قوله : (فقد اقتبس شعبة من السحر) المحرم تعلمه .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - : فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر ، وقال تعالى (٢٠ : ٦٩) : ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ .

قوله : (زاد ما زاد) أى كلما زاد من تعلم علم النجوم ، زاد فى الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس [١] من شُعَبة ، فإن ما يعتقده فى النجوم من التأثير باطل ، كما أن تأثير السحر باطل[٢] .

قوله : (وللنسائى من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - : « من عَقَدَ عقدة ثم نَفَثَ فيها فقد سحر . ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئاً وكل إليه ») هذا حديث ذكره المصنف من حديث أبى هريرة وعزاه للنسائى . وقد رواه النسائى مرفوعاً ، وحسنه ابن مفلح .

قوله : (وللنسائى) هو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن على بن سنان بن بحر بن دينار أبو عبد الرحمن صاحب السنن وغيرها . روى عن محمد بن المثنى وابن بشار وقتيبة وخلق . وكان إليه المنتهى فى العلم بعلل الحديث . مات سنة ثلاث وثلاثمائة ، وله ثمان وثمانون سنة رحمه الله تعالى .

قوله : (من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر) اعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر عقدوا الخيوط ونفثوا على كل عقدة ، حتى ينعقد ما يريدون من السحر ، قال الله تعالى : ﴿ومن شر النفاثات فى العقد ﴾ يعنى السواحر اللاتى يفعلن ذلك ، والنفث هو النفخ مع الريق وهو دون التفل ، والنفث فعل الساحر ، فإذا تكيفَّت نفسه بالخبث والشر الذى يريده بالمسحور

---

(١) الوعيد لمن يتعلم منه ما يؤدى إلى الكفر كادعاء علم الغيب كما فى كتيب ينسب إلى أبى معشر وهو شائع بين السحرة الذين يتسمون بأسماء إسلامية يغرون به النساء وضعفة العقول . وقد تمدن الشياطين وإخوانهم من سحرة هذا الزمان فى البلاد المتمدنة ، فاخترعوا أسماء للسحر جديدة وصوراً كذلك ، مثل اسم التنويم المغناطيسى ومناجاة الأرواح واستحضارها بأنواع من الحيل والتعازيم المتمدنة أيضاً .

(٢) علم النجوم علمان : علم يعرف به سيرها ومدارها ومنازلها وأبعادها وأحجامها وهذا علم الفلك لا بأس بتعلمه والعمل به . وعلم يعرف بالعلم الروحانى ، يزعمون أنه معرفة روحانية النجوم والكواكب وتأثيرها فى الأرض ومن عليها بالأمراض والحروب والضيق والسعة والموت والحياة ، والسعادة والشقاوة بين الزوجين إذا عقد قرانهما عند اقتران كذا من النجوم والكواكب بكذا . ولهم فى ذلك ما يسمونه بالطالع ، ويعملون جدولاً بالحوادث التى ستحدث فى العام كله من حوادث عامة وخاصة . وهذا هو الدجل والكذب ، وهو نوع من السحر واستخدام الشياطين والقول على الله بلا علم .

ومن سحَر فقد أشركَ ، ومن تعلَّق شيئاً وُكِلَ إليه » .

وعن ابن مسعود : أن رسول الله ﷺ قال : «ألا هل أُنبئكم ما العَضَة؟ هي النميمة:

ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ فى تلك العقدة نفخاً معه ريق فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقارن للريق الماذج لذلك ، وقد يتساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور فيصيبه بإذن الله الكونى القدرى لا الشرعى ، قال ابن القيم - رحمه الله تعالى -.

قوله : (ومن سحر فقد أشرك) نص فى أن الساحر مشرك ، إذ لا يتأتى السحر بدون الشرك كما حكاه الحافظ عن بعضهم .

قوله : (ومن تعلَّق شيئاً وكل إليه » أى من تعلق قلبه شيئاً ، بحيث يعتمد عليه ويرجوه وكله الله إلى ذلك الشىء [1] فمن تعلق على ربه وإلهه وسيده ومولاه رب كل شىء ومليكه ، كفاه ووقاه وحفظه وتولاه . فنعم المولى ونعم النصير . قال تعالى (٣٩ : ٣٦) : ﴿ أليس الله بكاف عبده ؟ ﴾ ومن تعلق على السحرة والشياطين وغيرهم من المخلوقين وكله الله إلى من تعلقه فهلك . ومن تأمل ذلك فى أحوال الخلق ونظر بعين البصيرة رأى ذلك عياناً ، وهذا من جوامع الكلم . والله أعلم .

قال : (وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال : « ألا هل أنبئكم ما العَضْة ؟ هى النميمة ، القالَة بين الناس » رواه مسلم) .

قوله : (ألا هل أنبئكم) أخبركم ، و« العضة » بفتح المهملة وسكون المعجمة ، قال أبو السعادات : هكذا يروى فى كتب الحديث . والذى فى كتب الغريب « ألا أنبئكم ما العِضَة » بكسر العين وفتح الضاد . قال الزمخشرى : أصلها « العضهة » فعلة من العضه وهى البهت . فحذفت لأمه ، كما حذفت من السنَة والشَّفة ، وتجمع على « عضين » ثم فسره بقوله : « هى النميمة القالة بين الناس » فأطلق عليها « العضه » لأنها لا تنفك عن الكذب والبهتان غالباً . ذكره القرطبى .

وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبى كثير قال : « يفسد النمام والكذاب فى ساعة ما لا يفسد الساحر فى سنة » . وقال أبو الخطاب فى عيون المسائل : ومن السحر السعى بالنميمة والإفساد بين الناس . قال فى الفروع : ووجهه أنه يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكر والحيلة ، أشبه السحر ، وهذا يعرف بالعرف والعادة أنه يؤثر ، وينتج ما يعمله السحر أو أكثر فيعطى حكمه تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين . لكن يقال : الساحر إنما يكفر لوصف السحر وهو أمر خاص ودليله خاص ، وهذا ليس بساحر . وإنما يؤثر عمله ما يؤثره فيعطى حكمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة . انتهى ملخصاً .

وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة . وهو يدل على تحريم النميمة ، وهو مجمع عليه قال ابن

---

(١) ومن قصر تعلق قلبه على الله وحده كفاه كما قال تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ [٦٥ : ٣] وقال : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ وهذا التعليق هو روح الإيمان وخلاصة التوحيد ، فمن تعلق قلبه بغير الله يرجوه فى دفع ضر أو جلب نفع فقد أشرك بالله أعظم الشرك .

القالة بين الناس » رواه مسلم .

ولهما عن ابن عمر - رضى الله عنهما - : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من البيان لسحراً » .

حزم - رحمه الله - : اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة فى غير النصيحة الواجبة . وفيه دليل على أنها من الكبائر .

قوله : (القالة بين الناس) قال أبو السعادات : أى كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس. ومنه الحديث : « فشت القالة بين الناس » .

قال : (ولهما عن ابن عمر - رضى الله عنهما - : أن رسول الله ﷺ قال : « إن من البيان لسحراً ») البيان : البلاغة والفصاحة . قال صعصعة بن صوحان : « صدق نبى الله ، فإن الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق ، فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق » . وقال ابن عبد البر : تأولته طائفة على الذم ؛ لأن السحر مذموم ، وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح ، لأن الله تعالى مدح البيان . قال : وقد قال عمر بن عبد العزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله . قال : « هذا والله السحر الحلال » انتهى . والأول أصح . والمراد به البيان الذى فيه تمويه على السامع وتلبيس ، كما قال بعضهم :

فى زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير

مأخوذ من قول الشاعر :

تقول : هذا مُجاج النحل ، تمدحه وإن تشأ قلت : ذا قيء الزنابير

مدحاً وذماً ، وما جاوزتَ وصفهما والحق قد يعتريه سوء تعبير

قوله : (إن من البيان لسحراً) هذا من التشبيه البليغ ، لكون ذلك يعمل عمل السحر ، فيجعل الحق فى قالب الباطل ، والباطل فى قالب الحق . فيستميل به قلوب الجهال ، حتى يقبلوا الباطل وينكروا الحق ، ونسأل الله الثبات والاستقامة على الهدى .

وأما البيان الذى يوضح الحق ويقرره ، ويبطل الباطل ويبينه . فهذا هو الممدوح . وهكذا حال الرسل وأتباعهم ، ولهذا علت مراتبهم فى الفضائل ، وعظمت حسناتهم .

وبالجملة : فالبيان لا يحمد إلا إذا لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب ، وتغطية الحق وتحسين الباطل . فإذا خرج إلى هذا فهو مذموم . وعلى هذا تدل الأحاديث كحديث الباب وحديث : « إن الله يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها » رواه أحمد وأبو داود .

فيه مسائل :

الأولى : أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت .

الثانية : تفسير العيافة والطرق .

الثالثة : أن علم النجوم نوع من السحر .

الرابعة : العقد مع النفث من ذلك .

الخامسة : أن النميمة من ذلك .

السادسة : أن من ذلك بعض الفصاحة .

❊ ❊ ❊

باب (ما جاء فى الكهان ونحوهم)

روى مسلم فى صحيحه عن بعض أزواج النبى ﷺ ، عن النبى ﷺ قال :

قوله : (باب ما جاء فى الكهان ونحوهم)

الكاهن : هو الذى يأخذ عن مسترق السمع ، وكانوا قبل المبعث كثيراً . وأما بعد المبعث فإنهم قليل ؛ لأن الله تعالى حرس السماء بالشُّهُب . وأكثر ما يقع فى هذه الأمة ما يخبر به الجن أولياءهم من الإنس عن الأشياء الغائبة بما يقع فى الأرض من الأخبار . فيظنه الجاهل كشفاً وكرامة [1] ، وقد اغتر بذلك كثير من الناس يظنون المخبر لهم بذلك عن الجن ولياً لله . وهو من أولياء الشيطان . كما قال تعالى (٦ : ١٢٨) : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس . وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض . وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا . قال : النار مثواكم خالدين فيها ، إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم ﴾ .

قوله : (روى مسلم فى صحيحه عن بعض أزواج النبى ﷺ ، عن النبى ﷺ قال : « من أتى عَرَّافاً فسأله عن شىء فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوماً ») .

قوله : (عن بعض أزواج النبى ﷺ) هى حفصة ، ذكره أبو مسعود الثقفى ، لأنه ذكر هذا الحديث فى الأطراف فى مسندها .

---

(١) والواقع أن ذلك من تآلف روح الشيطان القرين مع روح قرينه الإنسان الخبيث فيتناجيان ويتكلم الشيطان مع قرينه بما يحب من الأخبار التى يتلقاها الشيطان عن الشيطان الآخر قرين الإنسان الآخر . وهكذا فإن لكل إنسان قريناً من الشيطان كما جاء ذلك فى القرآن والسنة ، فيخبر شيطان الإنس بما أوحى إليه شيطان الجن من أخبار السائل وأحواله فى منزله وخصوصية نفسه مما ألقاه إليه الشيطان القرين ، فيظن الجهلة والمغفلون أن ذلك عن صلاح وتقوى وكرامات ؛ وأنه بصلاحه قد كشف الحجاب عنه . وهذا من أضل الضلال ومن أعظم الخذلان وإن اعتقدوه وخدع به كثير ممن ينتسب إلى ظاهر العلم والصلاح .

« من أتى عَرَّافاً فسأله عن شيء فصدَّقه ، لم تقبَل له صلاة أربعين يوماً » .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « مَن أتى كاهناً فصدَّقه بما يقول ، فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ » . رواه بو داود .

وللأربعة والحاكم . وقال : صحيح على شرطهما عن النبى ﷺ [1] « من أتى عرَّافاً أو كاهناً فصدَّقه بما يقول ،

قوله : (من أتى عرافاً) سيأتى بيان العراف إن شاء الله تعالى . وظاهر هذا الحديث : أن الوعيد مرتب على مجيئه وسؤاله ، سواء صدقه أو شك فى خبره . فإن فى بعض روايات الصحيح : « من أتى عرافاً فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » .

قوله : (لم تقبل له صلاة) إذا كانت هذه حال السائل ، فكيف بالمسئول ؟ قال النووى وغيره : معناه أنه لا ثواب له فيها ، وإن كانت مجزئة بسقوط الفرض عنه ، ولا بد من هذا التأويل فى هذا الحديث ، فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة . ا هـ ملخصاً .

وفى الحديث : النهى عن إتيان الكاهن ونحوه . قال القرطبى : يجب على من قدر على ذلك من محتسب وغيره أن يقيم من يتعاطى شيئاً من ذلك من الأسواق وينكر عليهم أشد النكير ، وعلى من يجىء إليهم ، ولا يغتر بصدقهم فى بعض الأمور ، ولا بكثرة من يجئ إليهم ممن ينتسب إلى العلم ، فإنهم غير راسخين فى العلم بل من الجهال بما فى إتيانهم من المحذور .

قال : (وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » رواه أبو داود) .

وفى رواية أبى داود : « أو أتى امرأة - قال مسدد : امرأته حائضاً - أو أتى امرأة . قال مسدد : امرأته فى دبرها - فقد برئ مما أنزل على محمد ﷺ » فناقل هذا الحديث من السنن حذف منه هذه الجملة واقتصر على ما يناسب الترجمة .

قال : (وللأربعة والحاكم - وقال : صحيح على شرطهما عن « من أتى عَرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) .

هكذا بيّض المصنف لاسم الراوى. وقد رواه أحمد والبيهقى والحاكم عن أبى هريرة مرفوعاً.

قوله : (من أتى كاهناً) قال بعضهم : لا تعارض بين هذا وبين حديث « من أتى عرافاً فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » هذا على قول من يقول : هو كفر دون كفر ، أما على قول من يقول بظاهر الحديث فيسأل عن وجه الجمع بين الحديثين . وظاهر الحديث :

---

(١) بياض بالأصل .

فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ » .

ولأبى يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً . وعن عمران بن حصين -رضى الله عنه - مرفوعاً : « ليس منا مَن تَطير أو تُطيِّر له، أو تَكهن أو تُكهِّن له ،

أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأى وجه كان . وكان غالب الكهان قبل النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين .

قوله : (فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) قال القرطبى : المراد بالمنزل الكتاب والسنة . اهـ وهل الكفر فى هذا الموضع كفر دون كفر ، فلا ينقل عن الملة ، أم يتوقف فيه ، فلا يقال : يخرج عن الملة ولا يخرج ؟ وهذا أشهر الروايتين عن أحمد رحمه الله تعالى .

قال : (ولأبى يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً) .

« أبو يعلى » اسمه أحمد بن على بن المثنى الموصلى الإمام صاحب التصانيف كالمسند وغيره روى عن يحيى بن معين وأبى خيثمة وأبى بكر بن أبى شيبة وخلق ، وكان من الأئمة الحفاظ: مات سنة سبع وثلاثمائة . وهذا الأثر رواه البزار أيضاً ، ولفظه : « من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » ، وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر ؛ لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر، والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضاً[1] .

قال : (وعن عمران بن حصين - رضى الله عنه - مرفوعاً : « ليس منا من تطيَّر أو تُطيِّر له ، أو تكَهن أو تكُهِّن له ، أو سَحَر أو سُحِر له ، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » رواه البزار بإسناد جيد ، ورواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله : « ومن أتى كاهناً - إلى آخره) .

قوله : (ليس منا) [2] فيه : وعيد شديد يدل على أن هذه الأمور من الكبائر وتقدم أن الكهانة والسحر كفر .

قوله : (من تطير) أى فعل الطيرة (أو تطير له) أى قبل قول المتطير له وتابعه وكذا معنى (أو تكهن أو تكهن له) كالذى يأتى الكاهن ويصدقه ويتابعه ، وكذلك من عمل الساحر له السحر .

فكل من تلقى هذه الأمور عمن تعاطاها فقد برئ منه رسول الله ﷺ لكونها إما شركاً ،

---

(١) وذلك لأن فى الكتاب المنزل : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير ﴾ ، وقال فى سورة الأنعام : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ ، وقال فى سورة الجن : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً من ارتضى من رسول ﴾ فمن صدق العراف والكاهن فقد كذب بهذه الآيات ، ومن كذبها كفر .

(٢) فيه دليل على نفى الإيمان الواجب ، وهو لا ينافى ما تقدم من أن الطيرة : شرك ؛ وأن الكهانة كفر .

أو سَحر ، أو سُحر له ، ومَن أتى كاهناً فصدَّقهُ بما يقول ، فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ » رواه البزار بإسناد جيد .

ورواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله : « ومن أتى - إلى آخره » .

قال البغوى : العراف : الذى يدَّعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة . ونحو ذلك .

وقيل : هو الكاهن . والكاهن : هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل . وقيل : الذى يخبر عما فى الضمير .

وقال أبو العباس بن تيمية : العرَّاف : اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم فى معرفة الأمور بهذه الطرق .

كالطيرة ، أو كفراً ، كالكهانة والسحر ، فمن رضى بذلك وتابع عليه فهو كالفاعل لقبوله الباطل واتباعه .

قوله : (رواه البزار) هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق ، أبو بكر البزار البصرى صاحب المسند الكبير ، وروى عن ابن بشار وابن المثنى وخلق . مات سنة اثنتين وتسعين ومائتين .

قوله : (قال البغوى - إلى آخره) البغوى - بفتحتين - هو الحسين بن مسعود الفرّاء الشافعى ، صاحب التصانيف وعالم أهل خراسان . كان ثقة فقيهاً زاهداً . مات فى شوال سنة ست عشرة وخمسمائة رحمه الله تعالى .

قوله : (العرّاف : الذى يدعى معرفة الأمور) ظاهره : أن العرّاف هو الذى يخبر عن الوقائع كالسرقة وسارقها ، والضالة ومكانها .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : إن العراف اسم للكاهن والمنجم والرّمال ونحوهم ، كالحازر الذى يدعى علم الغيب ، أو يدعى الكشف .

وقال أيضاً : والمنجم يدخل فى اسم العراف ، وعند بعضهم هو معناه .

وقال أيضاً : والمنجم يدخل فى اسم الكاهن عند الخطابى وغيره من العلماء ، وحكى ذلك عن العرب. وعند آخرين: هو من جِنس الكاهن، وأسوأ حالاً منه، فيلحق به من جهة المعنى .

وقال الإمام أحمد : العرافة : طَرَف من السحر . والساحر أخبث .

وقال أبو السعادات : العرّاف : المنجم ، والحازر : الذى يدعى علم الغيب ، وقد استأثر الله تعالى به .

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى -:من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفاً، وعرافاً .

والمقصود من هذا : معرفة أن من يدعى معرفة علم شىء من المغيبات ، فهو إما داخل فى اسم الكاهن ، وإما مشارك له فى المعنى فيلحق به . وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة فى بعض الأحيان يكون بالكشف . ومنه ما هو من الشياطين ويكون بالفأل والزجر والطيرة والضرب بالحصى والخط فى الأرض والتنجيم والكهانة والسحر ، ونحو هذا من علوم الجاهلية ، ونعنى بالجاهلية كل من ليس من أتباع الرسل عليهم السلام ، كالفلاسفة والكهان والمنجمين ، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبى ﷺ ، فإن هذه علوم لقوم ليس لهم بما جاءت به الرسل صلى الله عليهم وسلم [1] ، وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهناً وعرّافاً أو فى معناهما ، فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد . وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام، فادعوا بها علم الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، وادعوا أنهم أولياء ، وأن ذلك كرامة .

ولا ريب أن من ادعى الولاية ، واستدل بإخباره ببعض المغيبات فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن ؛ إذ الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن التقى : إما بدعاء ، أو أعمال صالحة لا صنع للولى فيها ، ولا قدرة له عليها ، بخلاف من يدعى أنه ولى ويقول للناس : اعلموا أنى أعلم المغيبات ، فإن هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب ، وإن كانت أسباباً محرمة كاذبة فى الغالب ، ولهذا قال النبى ﷺ فى وصف الكهان : « فيكذبون معها مائة كذبة » فبين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة ، وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعى الولاية والعلم بما فى ضمائر الناس ، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه ؛ لأن فى دعواه الولاية تزكية النفس المنهى عنها بقوله تعالى (٥٣ : ٣٢) : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ وليس هذا من شأن الأولياء ، فإن شأنهم الإزراء على نفوسهم وعيبهم لها ، وخوفهم من ربهم فكيف يأتون الناس ويقولون : اعرفوا أننا أولياء ، وأنا نعلم الغيب ؟ وفى ضمن ذلك طلب المنزلة فى قلوب الخلق واقتناص الدنيا بهذه الأمور . وحسبك بحال الصحابة والتابعين - رضى الله عنهم - ، وهم سادات الأولياء ، أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شىء ؟ لا والله ، بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن ، كالصديق - رضى الله عنه -، وكان عمر - رضى الله عنه - يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكى فى صلاته ، وكان يمرّ بالآية فى ورده من

---

(١) ومعنى الجاهلية : الإعراض عن العلم المنزل من الله على رسله هدى ورحمة ، والاعتماد على التقاليد والعادات والظنون والتخرصات ، وما يوحى به الشياطين ، ويحددها قول الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ ، وقد عادت الجاهلية إلى الناس اليوم مثل الجاهلية الأولى وشراً منها ، ولا يمنع وجود القرآن والحديث لأنهم اتخذوهما مهجورين ، فوجودهما حجة عليهم فقط ، ولا يغرنك منهم عمائم ولحى وصور فما وراءها إلا جاهلية وعقلية عامية قد تكون شراً من عقلية من يتبعون أذناب الإبل والبقر . ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ .

وقال ابن عباس – فى قوم يكتبون أبا جاد وينظرون فى النجوم – : « ما أرى مَن فعل ذلك له عند الله من خلاق » .

الليل فيمرض منها ليالى يعودونه ، وكان تميم الدارى يتقلب على فراشه ولا يستطيع النوم إلا قليلاً خوفاً من النار ثم يقوم إلى صلاته . ويكفيك فى صفات الأولياء ما ذكره الله تعالى فى صفاتهم فى سورة الرعد والمؤمنين والفرقان والذاريات والطور (١) ، فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء ، لا أهل الدعوى والكذب ومنازعة رب العالمين فيما اختص به من الكبرياء والعظمة وعلم الغيب ، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر ، فكيف يكون المدعى لذلك ولياً لله ؟ ولقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين، ولبسوا بها على خفافيش القلوب . نسأل الله السلامة والعافية فى الدنيا والآخرة .

قوله : (وقال ابن عباس – فى قوم يكتبون أبا جاد – إلى آخره) هذا الأثر رواه الطبرانى عن ابن عباس مرفوعاً ، وإسناده ضعيف . ولفظه : « رُبَّ مُعَلِّم حروف أبي جاد دارسٍ فى النجوم ، ليس له عند الله خلاق يوم القيامة » ، ورواه حميد بن زَنْجويه عنه بلفظ : « ربَّ ناظرٍ فى النجوم ومتعلم حروف أبى جاد ليس له عند الله خلاق » .

قوله : (ما أرى) يجوز فتح الهمزة بمعنى : لا أعلم . ويجوز ضمها بمعنى : لا أظن .

وكتابة « أبى جاد » وتعلمها لمن يدعى بها علم الغيب هو الذى يسمى علم الحرف (٢) ، وهو الذى جاء فيه الوعيد ، فأما تعلمها للتهجى وحساب الجمل فلا بأس به .

قوله : (وينظرون فى النجوم) أى ويعتقدون أن لها تأثيراً كما سيأتى فى باب التنجيم . وفيه من الفوائد : عدم الاغترار بما يؤتاه أهل الباطل من معارفهم وعلومهم كما قال تعالى

---

(١) قال تعالى : ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ [١٣ : ١٩ ، ٢٤] الآيات إلى ٢٤ ، وقوله : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب * الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ ، وقوله : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ (الآيات إلى ٦١) ، وقوله : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ (الآيات إلى ٧٦) ، وقوله : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ﴾ [٥١ : ١٥] (الآيات إلى ١٩) ، وقوله : ﴿ إن المتقين فى جنات ونعيم ﴾ [٥٢ : ١٧] (الآيات إلى ٢٨) .

هذا وفى القرآن الكريم صفات المؤمنين كثيرة جداً ؛ بل أكثر آى القرآن فى وصف الإيمان وأهله ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ومن أدل الدلائل على أن الجهل ضرب على القلوب نطاقاً كثيفاً أن يعتقد الناس هذه الدرجة الرفيعة لعباد الرحمن فى قوم يبولون على ثيابهم وهم فى غاية القذر والوسخ ، ولا يركعون لله ركعة ؛ وقد سلبوا كل نعمة إلا الحيوانية ، وربما تكلم الشيطان على ألسنتهم بالكلمة يفتن بها أولئك الجاهلين ، ولا قوة إلا بالله .

(٢) وينسبه الدجالون المشركون إلى جعفر الصادق ، ولهم فى ذلك كلام كثير فى منتهى الكفر ، والظاهر أنه من وضع الرافضة الذين استجابوا لسلفهم اليهود فأعملوا فى هدم الإسلام كل معول .

فيه مسائل :

الأولى : لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن .

الثانية : التصريح بأنه كفر .

الثالثة : ذكر من تُكُهِّن له .

الرابعة : ذكر من تُطير له .

الخامسة : ذكر من سحر له .

السادسة : ذكر من تعلم أبا جاد .

السابعة : ذكر الفرق بين الكاهن والعراف .

* * *

باب (ما جاء في النُّشْرة)

عن جابر : « أن رسول الله ﷺ سئل عن النُّشرة ؟ فقال : هي من عمل الشيطان »

(٤٠ : ٨٣) : ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

قوله : (باب ما جاء في النُّشْرة)

بضم النون ، كما في القاموس . قال أبو السعادات : النشرة : ضرب من العلاج والرقية ، يعالج به من يظن أن به مساً من الجن ، سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء ، أي: يكشف ويزال .

قال الحسن : النُّشرة من السحر . وقد نشرت عنه تنشيراً ، ومنه الحديث : « فلعل طباً أصابه ، ثم نشره بقل أعوذ برب الناس » أي : رقاه .

وقال ابن الجوزي : النشرة : حل السحر عن المسحور . ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر .

قوله : (عن جابر - رضي الله عنهما - : « أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة ؟ فقال : هي من الشيطان » رواه أحمد بسند جيد ، وأبو داود ، وقال : سئل أحمد عنها ، فقال ابن مسعود: يكره هذا كله ») .

هذا الحديث رواه أحمد ، ورواه عنه أبو داود في سننه ، والفضل بن زياد في كتاب المسائل عن عبد الرزاق عن عقيل بن معقل بن منبه عن جابر ، فذكره . قال ابن مفلح : إسناد جيد وحسن الحافظ إسناده .

قوله : (سئل عن النشرة) والألف واللام في « النشرة » للعهد أي النشرة المعهودة التي كان أهل الجاهلية يصنعونها هي من عمل الشيطان .

رواه أحمد بسند جيد ، وأبو داود ، وقال : سئل أحمد عنها فقال : ابن مسعود يكره هذا كله .

وفى البخارى عن قتادة : « قلت لابن المسيب : رجل به طِب أو يؤخذ عن امرأته ، أيُحَلّ عنه أو يُنْشر ؟ قال : لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ما ينفع فلم ينه عنه » . اهـ .

وروى عن الحسن أنه قال : « لا يَحِلُّ السحر إلا ساحر » .

قوله : (وقال : سئل أحمد عنها فقال : ابن مسعود يكره هذا كله) أراد أحمد - رحمه الله - أن ابن مسعود يكره النشرة التى هى من عمل الشيطان كما يكره تعليق التمائم مطلقاً .

قوله : (وللبخارى عن قتادة : قلت لابن المسيب : « رجل به طب أو يؤخَذُ عن امرأته أيُحَلُّ عنه ، أو يُنَشّر ؟ قال : لا بأس به : إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ما ينفع فلم يُنه عنه») .

قوله : (عن قتادة) هو ابن دعامة - بكسر الدال - الدوسى ، ثقة ، فقيه ، من أحفظ التابعين . قالوا : إنه ولد أكمه . مات سنة بضع عشرة ومائة .

قوله : (رجل به طب) بكسر الطاء . أى : سحر ، يقال : طُبّ الرجل - بالضم - إذا سحر . ويقال : كنوا عن السحر بالطب تفاؤلاً ، كما يقال للديغ : سليم .

وقال ابن الأنبارى : الطب من الأضداد . يقال : لعلاج الداء : طب ، والسحر من الداء يقال له : طب .

قوله : (يؤخَّذ) بفتح الواو مهموزة وتَشديد الخاء المعجمة وبعدها ذال معجمة ، أى يحبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها . والأخذ - بضم الهمزة - الكلام الذى يقوله الساحر .

قوله : (أيُحل) بضم الياء وفتح الحاء مبنى للمفعول .

قوله : (أو ينشر) بتشديد المعجمة .

قوله : « لا بأس به » يعنى : أن النشرة لا بأس بها ؛ لأنهم يريدون بها الإصلاح ، أى إزالة السحر ، ولم ينه عما يراد به الإصلاح ، وهذا من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم أنه سحر .

قوله : (وروى عن الحسن أنه قال : « لا يحل السحر إلا ساحر ») هذا الأثر ذكره ابن الجوزى فى جامع المسانيد .

والحسن: هو ابن أبى الحسن، واسمه: يسار - بالتحتية والمهملة - البصرى الأنصارى مولاهم. ثقة فقيه ، إمام من خيار التابعين. مات سنة عشر ومائة - رحمه الله- ، وقد قارب التسعين .

قال ابن القيم : النشرة حل السحر عن المسحور ، وهى نوعان :

أحدهما : حل بسحر مثله ، وهو الذي من عمل الشيطان ، وعليه يُحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب ، فيبطل عمله عن المسحور . **والثانى** : النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة . فهذا جائز .

قوله : (قال ابن القيم : النشرة حل السحر عن المسحور ، وهى نوعان : حل بسحر مثله، وهو الذى من عمل الشيطان - إلى آخره) ومما جاء فى صفة النشرة الجائزة : ما رواه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبى سليم قال : « بلغنى أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله ، تقرأ فى إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور [1]: الآية التى فى سورة يونس (١٠ : ٨١ ، ٨٢) : ﴿ فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ ، وقوله (٧ : ١١٨ - ١٢٠): ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾ إلى آخر الآيات الأربع وقولهم (٢٠ : ٦٩) : ﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ .

وقال ابن بطال فى كتاب وهب بن منبه : أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضر به بالماء ويقرأ فيه آية الكرسى والقوافل ، ثم يحسو منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به يذهب عنه كل ما به ، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله .

قلت: قول العلامة ابن القيم: «والثانى: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة فهذا جائز » يشير رحمه الله إلى مثل هذا ، وعليه يحمل كلام من أجاز النشرة من العلماء .

والحاصل : أن ما كان منه بالسحر فيحرم ، وما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة فجائز . والله أعلم .

---

(١) مثل هذا لا يعمل فيه برأى ليث بن أبى سليم ولا برأى ابن القيم [*] ولا غيرهما ؛ وإنما يعمل بالسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ ولم يجئ عنه ﷺ شىء مما يقول ابن أبى سليم ولا ابن القيم . وما ينقل عن وهب بن منبه فعلى سنة الإسرائيليين لا على هدى خير المرسلين . ومن باب هذا التساهل دخلت البدع ثم الشرك الأكبر . وعلى المؤمن الناصح لنفسه أن يعض بالنواجذ على هدى رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ويتجنب المحدثات وإن كانت عمن يكون فكل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا رسول الله ﷺ .

(*) قوله : (مثل هذا لا يعمل فيه برأى ليث بن أبى سليم ولا برأى ابن القيم) إلخ . أقول : اعتراض الشيخ حامد على ما ذكره الشارح عن ابن أبى سليم ووهب بن منبه وابن القيم ليس فى محله ، بل هو غلط من الشيخ حامد ، لأن التداوى بالقرآن الكريم والسدر ونحوه من الأدوية المباحة ليس من باب البدع بل هو من باب التداوى ، وقد قال النبى ﷺ : « عباد الله تداوو ولا تتداووا بحرام » وثبت فى سنن أبى داود فى كتاب الطب أن النبى ﷺ قرأ فى ماء فى إناء وصبه على المريض ، وبهذا يعلم أن التداوى بالسدر وبالقراءة فى الماء وصبه على المرضى ليس فيه محذور من جهة الشرع ، إذا كانت القراءة سليمة وكان الدواء مباحاً، والله ولى التوفيق .

فيه مسائل :

الأولى : النهى عن النشرة .

الثانية : الفرق بين المنهى عنه والمرخص فيه عما يزيل الإشكال .

❊ ❊ ❊

باب (ما جاء فى التطير)

وقول الله تعالى (٧ : ١٣١) : ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله

قوله : (باب ما جاء فى التطير)

أى : من النهى عنه والوعيد فيه ، مصدر تطيَّر يتطير ، و« الطِّيرة » بكسر الطاء وفتح الياء، وقد تسكن : اسم مصدر من تطير طِيرة ، كما يقال : تخير خِيرة ، ولم يجىء فى المصادر على هذه الزنة غيرهما ، وأصله : التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما ، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم ، فنفاه الشارع وأبطله ، وأخبر أنه لا تأثير له فى جلب نفع ولا دفع ضر .

قال المدائنى : « سألت رُؤْبة بن العجاج قلت : ما السانح ؟ قال : ما ولاك ميامنه . قلت : فما البارح ؟ قال : ما ولاك مياسره . والذى يجىء من أمامك فهو الناطح والنطيح ، والذى يجىء من خلفك فهو القاعد والقعيد » .

ولما كانت الطيرة من الشرك المنافى لكمال التوحيد الواجب ، لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته [(١)] ، ذكرها المصنف رحمه الله فى كتاب التوحيد ، تحذيراً مما ينافى كمال التوحيد الواجب .

قوله : (وقول الله تعالى (٧ : ١٣١) : ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله - الآية ﴾ ذكر تعالى هذه الآية فى سياق قوله : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه - الآية ﴾ المعنى : أن آل فرعون كانوا إذا أصابتهم الحسنة - أى الخِصْب والسعة والعافية ، كما فسره مجاهد وغيره - قالوا : لنا هذه ، أى نحن الجديرون والحقيقون به ونحن أهله وإن تصبهم سيئة - أى بلاء وقحط - تطيروا بموسى ومن معه ، فيقولون : هذا

---

(١) وذلك بتعلق القلب بها خوفاً وطمعاً ، ومنافاتها للتوكل على الله الذى لا ينفع ولا يضر غيره ، واعتقاد النفع والضر فى طائر ونحوه لا علم عنده ولا قصد ، وإنما تذهب وتجئ فى ضرورات معايشها وشئونها . فاعتقاد أن لهذه الحركات ذات اليمين وذات الشمال أثراً فى جلب خير أو دفع ضر من سخف العقول وفساد الفطر ، وتمكن الخرافات والجهل وعمى القلوب ، وهذا اعتقاد المنجمين فى النجوم التى سخرها الله تعالى تجرى فى بروجها ومداراتها المستقر لها ، اعتقدوا لها تأثيراً فى الكون وهو اعتقاد الصابئة الذين أرسل الله إليهم إبراهيم عليه السلام .

ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

وقوله (٣٦ : ١٩) : ﴿ قالوا : طائركم معكم أئِن ذُكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴾ .

وعن أبي هريرة – رضى الله عنه – : أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا عَدوَى

بسبب موسى وأصحابه أصابنا بشؤمهم . فقال الله تعالى : ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ قال ابن عباس : « طائرهم : ما قضى عليهم وقدر لهم » ، وفى رواية : « شؤمهم عند الله ومن قبَله » أى إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله .

قوله : ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أى أن أكثرهم جهال لا يدرون. ولو فهموا وعقلوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسى –عليه السلام- إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبعه .

قوله : (وقوله تعالى (٣٦ : ١٩) : ﴿ قالوا : طائركم معكم – الآية ﴾ المعنى – والله أعلم – حظكم وما نابكم من شر معكم ؛ بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين ، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا . بل ببغيكم وعدوانكم . فطائر الباغى الظالم معه ، فما وقع به من الشر فهو سببه الجالب له . وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله ، كما قال تعالى (٦٨ ٣٥ ، ٣٦) : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، ما لكم كيف تحكمون ؟ ﴾ ويحتمل أن يكون المعنى : طائركم معكم ، أى راجع عليكم ، فالتطير الذى حصل لكم إنما يعود عليكم . وهذا من باب القصاص فى الكلام . ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام : « إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم » [1] ذكره ابن القيم رحمه الله .

قوله تعالى : ﴿ أئن ذُكِّرتم ﴾ أى من أجل أنَّا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام ، ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ قال قتادة : أئن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا ؟

ومناسبة الآيتين للترجمة : أن التطير من عمل أهل الجاهلية والمشركين . وقد ذمهم الله تعالى به ومقتهم ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن التطير وأخبر أنه شرك . كما سيأتى فى أحاديث الباب .

قال : (وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « لا عَدْوَى ولا طِيرَة ولا هامَة ولا صَفَر » أخرجاه . زاد مسلم : « ولا نوْء ولا غُول ») .

قال أبو السعادات : « العدوى » اسم من الإعداء . كالدعوى . يقال : أعداه الداء يعديه إعداء : إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء .

وقال غيره : « لا عدوى » هو اسم من الأعداء ، وهو مجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره والمنفى نفس سراية العلة أو إضافتها إلى العلة . والأول هو الظاهر .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن أنس رضى الله عنه .

وفى رواية لمسلم : أن أبا هريرة كان يحدث بحديث لا عدوى ، ويحدث عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يُورد مُمْرِض على مُصِح » ، ثم إن أبا هريرة اقتصر على حديث : « لا يورد ممرض على مصح » ، وأمسك عن حديث : « لا عدوى » فراجعوه وقالوا : سمعناك تحدث به ، فأبى أن يعترف به . قال أبو مسلمة - الراوى عن أبى هريرة : فلا أدرى أنسى أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر ؟

وقد روى حديث : « لا عدوى » جماعة من الصحابة : أنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، والسائب بن يزيد ، وابن عمر ، وغيرهم ، وفى بعض روايات هذا الحديث : « وفِرّ من المجذوم كما تفر من الأسد » .

وقد اختلف العلماء فى ذلك . وأحسن ما قيل فيه قول البيهقى ، وتبعه ابن الصلاح ، وابن القيم ، وابن رجب ، وابن مفلح وغيرهم : أن قوله : « لا عدوى » على الوجه الذى يعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى ، وإن هذه الأمور تعدى بطبعها . وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شىء من الأمراض سبباً لحدوث ذلك ، ولهذا قال : « فِرّ من المجذوم كما تفر من الأسد » ، وقال : « لا يورد ممرض على مصح » ، وقال فى الطاعون : « من سمع به فى أرض فلا يقدم عليه » ، وكل ذلك بتقدير الله تعالى . ولأحمد والترمذى عن ابن مسعود مرفوعاً : « لا يعدى شىء - قالها ثلاثاً - فقال أعرابى : يا رسول الله ، إن النُّقْبَة [1] من الجرَب تكون بِمشْفَر البعير أو بذنبه فى الإبل العظيمة فَتَجْرَب كلها ؟ فقال رسول الله ﷺ : فمن أجرب الأول ؟ لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصائبها رزقها » فأخبر ﷺ أن ذلك كله بقضاء الله وقدره ، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان فى عافية . فكما أنه يؤمر أن لا يلقى نفسه فى الماء وفى النار، مما جرت العادة أنه يهلك أو يضر . فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم ، والقدوم على بلد الطاعون . فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف ، فالله سبحانه هو خالق الأسباب ومسبباتها . لا خالق غيره ، ولا مقدر غيره . وأما إذا قوى التوكل على الله والإيمان بقضاء الله وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب ، اعتماداً على الله ، ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر ؛ ففى هذه الحال تجوز مباشرة ذلك ، لا سيما إذا كانت مصلحة عامة أو خاصة ، وعلى هذا يحمل الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى : « أن النبى ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه فى القصعة ، ثم قال : كل بسم الله ، ثقة بالله وتوكلاً عليه » ، وقد أخذ به الإمام أحمد . وروى ذلك عن عمر وابنه وسلمان - رضى الله عنهم - . ونظير ذلك ما روى

(١) النقبة - بضم النون وسكون القاف والباء الموحدة - أول شىء يظهر من الجرب ، وجمعها : نقب - لأنها تنقب الجلد أى تخرقه .

ولا طِيرَةَ .

عن خالد بن الوليد - رضى الله عنه - أنه أكل السم ، ومنه مَشْى سعد بن أبى وقاص وأبى مسلم الخولانى على متن البحر ، قاله ابن رجب - رحمه الله - .

قوله : (ولا طيرة) قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - : يحتمل أن يكون نفياً أو نهياً : أي لا تطيروا ، ولكن قوله فى الحديث : « لا عدوى ولا صفر ولا هامة » يدل على أن المراد النفى وإبطال هذه الأمور التى كانت الجاهلية تعانيها . والنفى فى هذا أبلغ من النهى ؛ لأن النفى يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره ، والنهى إنما يدل على المنع منه .

وفى صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم : أنه قال لرسول الله ﷺ : « ومنا أُناس يتطيرون قال : ذلك شىء يجده أحدكم فى نفسه فلا يصدنكم » فأخبر أن تأذِّيه وتشاؤمه بالطيرة إنما هو فى نفسه وعقيدته ، لا فى المتطير به ، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذى يطيره ويصده لما رآه وسمعه ، فأوضح ﷺ لأمته الأمر ، وبيَّن لهم فساد الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة ، ولا فيها دلالة ، ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه ، ولتطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم إلى حد وحدانيته تعالى التى أرسل بها رسله ، وأنزل بها كتبه ، وخلق لأجلها السموات والأرض ، وعمر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد ، فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهم ؛ لئلا يبقى فيها علقة منها ، ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار ألبتة .

فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى ، واعتصم بحبله المتين ، وتوكل على الله ، قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها ، وبادر خواطرها من قبل استمكانها .

قال عكرمة : كنا جلوساً عند ابن عباس ، فمر طائر يصيح ، فقال رجل من القوم : خير خير ، فقال له ابن عباس : لا خير ولا شر . فبادره بالإنكار عليه ، لئلا يعتقد تأثيره فى الخير والشر . وخرج طاوس مع صاحب له فى سفر ، فصاح غراب ، فقال الرجل : خير ، فقال طاوس : وأى خير عند هذا ؟ لا تصحبنى . اهـ ملخصاً .

وقد جاءت أحاديث ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة ، كقوله ﷺ : « الشؤم فى ثلاث : فى المرأة ، والدابة ، والدار » ونحو هذا .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : إخباره ﷺ بالشؤم فى هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التى نفاها الله سبحانه ، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعياناً مشؤومة على من قاربها وساكنها ، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها شؤم ولا شر ، وهذا كما يعطى سبحانه الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه ، ويعطى غيرهما ولداً مشؤوماً يريان الشر على وجهه ، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية وغيرها ؛ فكذلك الدار والمرأة والفرس . والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس ، فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركة ،

ولا هامَةَ ولا صفر » أخرجاه .

زاد مسلم : « ولا نَوْءَ ، ولا غُول » .

ويقضى بسعادة من قاربها وحصول اليمن والبركة له ، ويخلق بعضها نحوساً يتنحس بها من قاربها . وكل ذلك بقضائه وقدره ، كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة ولذ بها من قاربها من الناس . وخلق ضدها وجعلها سبباً لألم من قاربها من الناس ، والفرق بين هذين النوعين مدرك بالحس ، فكذلك فى الديار والنساء والخيل . فهذا لون والطيرة الشركية لون . انتهى .

قوله : (ولا هامة) بتخفيف الميم على الصحيح . قال الفراء : الهامة طير من طير الليل . كأنه يعنى البومة . قال ابن الأعرابى: كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم، يقول: نَعَتْ إلىّ نفسى أو أحداً من أهل دارى ، فجاء الحديث بنفى ذلك وإبطاله .

قوله : (ولا صفر) بفتح الفاء ، روى أبو عبيدة فى غريب الحديث عن رؤبة أنه قال : هى حيَّة تكون فى البطن تصيب الماشية والناس ، وهى أعدى من الجرب عند العرب . وعلى هذا : فالمراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من العدوى . وممن قال بهذا سفيان بن عيينة والإمام أحمد والبخارى وابن جرير .

وقال آخرون : المراد به شهر صفر ، والنفى لما كان أهل الجاهلية يفعلونه فى النسىء ، وكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه ، وهو قول مالك .

وروى أبو داود عن محمد بن راشد عمن سمعته يقول : إن أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر ، ويقولون : إنه شهر مشؤوم ، فأبطل النبى ﷺ ذلك . قال ابن رجب : ولعل هذا القول أشبه الأقوال ، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهى عنها ، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء ، وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال فى النكاح فيه خاصة .

قوله : (ولا نوء) النوء واحد الأنواء ، وسيأتى الكلام عليه فى بابه إن شاء الله تعالى .

قوله : (ولا غول) هو بالضم اسم ، وجمعه أغوال وغيلان . وهو المراد هنا .

قال أبو السعادات : الغول واحد الغيلان ، وهو جنس من الجن والشياطين ، كانت العرب تزعم أن الغول فى الفلاة تتراءى للناس ، تتلون تلوناً فى صور شتى وتغولهم : أى تضلهم عن الطريق وتهلكهم ، فنفاه النبى ﷺ وأبطله .

فإن قيل : ما معنى النفى ، وقد قال النبى ﷺ : « إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان »[1].

أجيب عنه : بأن ذلك كان فى الابتداء ، ثم دفعها الله عن عباده . أو يقال : المنفى ليس

---

(١) قال السيوطى فى الجامع الصغير : رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة وهو ضعيف .

ولهما عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا عَدْوَى ولا طِيرَةَ ويُعْجِبُنى الفَأْلُ ، قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمةُ الطَّيِّبة » .

وجود الغول ، بل ما يزعمه العرب من تصرفه فى نفسه ، أو يكون المعنى بقوله : « لا غول » أنها لا تستطيع أن تضل أحداً مع ذكر الله والتوكل عليه . ويشهد له الحديث الآخر : « لا غول ، ولكن السعالى سحرة الجن » أى ولكن فى الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل . ومنه الحديث : « إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان » أى ادفعوا شرها بذكر الله . وهذا يدل على أنه لم يرد بنفيها عدمها . ومنه فى حديث أبى أيوب : « كان لى تمر فى سَهوة فكانت الغول تجيء فتأخذ » .

قوله : (ولهما عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبنى الفأل ، قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة) .

قوله : (ويعجبنى الفأل) قال أبو السعادات : الفأل ، مهموز فيما يسر ويسوء ، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء ، وربما استعملت فيما يسر . يقال : تفاءلت بكذا وتفاولت ، على التحقيق والقلب ، وقد أولع الناس بترك الهمزة تخفيفاً ، وإنما أحب الفأل لأن الناس إذا أمَّلوا فائدة الله ، ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوى فهم على خير ، وإذا قطعوا آمالهم ورجاءهم من الله تعالى كان ذلك من الشر . وأما الطيرة فإن فيها سوء الظن بالله وتوقع البلاء والتفاؤل : أن يكون رجل مريض فيسمع آخر يقول : يا سالم ، أو يكون طالب ضالَّة فيسمع آخر يقول : يا واجد ، فيقع فى ظنه أنه يبرأ من مرضه ويجد ضالته . ومنه الحديث : « قيل: يا رسول الله ، ما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة » .

قوله : (قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة) بين ﷺ أن الفأل يعجبه . فدل على أنه ليس من الطيرة المنهى عنها .

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - : ليس فى الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك ، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة، وموجب الفطرة الإنسانية التى تميل إلى ما يوافقها ويلائمها. كما أخبرهم ﷺ أنه حبب إليه من الدنيا النساء والطيب ، وكان يحب الحلواء والعسل ، ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان ويستمع إليه ويحب معالى الأخلاق ومكارم الشيم .

وبالجملة يحب كل كمال وخير وما يفضى إليهما ، والله سبحانه قد جعل فى غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته ، وميل نفوسهم إليه ، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر ونحو ذلك، فإذا قرعت هذه الأسماع الأسماء استبشرت بها النفوس ، وانشرح لها الصدر ، وقوى بها القلب ، وإذا سمعت أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال . فأحزنها ذلك ، وأثار لها خوفاً وطيرة وانكماشاً وانقباضاً عما قصدت له وعزمت عليه ، فأورث لها ضرراً فى الدنيا ونقصاً فى الإيمان ومقارفة الشرك .

ولأبى داود بسند صحيح عن عُقبة بن عامر قال : « ذُكرتْ الطِّيرةُ عند رسول الله ﷺ فقال : أحسنُها الفألُ ، ولا تَرُدُّ مسلماً ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وقال الحليمى : وإنما كان ﷺ يعجبه الفأل ؛ لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق ، والتفاؤل حسن ظن به ، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال .

قوله : (ولأبى داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال : « ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ . فقال : أحسنها الفأل ، ولا ترد مسلماً ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك ») .

قوله : (عن عقبة بن عامر) هكذا وقع فى نسخ التوحيد . وصوابه : عن عروة بن عامر كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما . وهو مكى اختلف فى نسبه ، فقال أحمد : عن عروة ابن عامر القرشى ، وقال غيره : الجهنى . واختلف فى صحبته ، فقال الماوردى : له صحبة . وذكره ابن حبان فى ثقات التابعين . وقال المزى : لا صحبة له تصح .

قوله : (فقال : أحسنها الفأل) قد تقدم أن النبى ﷺ كان يعجبه الفأل . ورویّ الترمذى وصححه عن أنس - رضى الله عنه - : « أن النبى ﷺ كان إذا خرج لحاجته يحب أن يسمع: يا نجيح ، يا راشد » ، وروى أبو داود عن بريدة : « أن النبى ﷺ كان لا يتطير من شىء ، وكأن إذا بعث عاملاً سأله عن اسمه . فإذا أعجبه فرح به ، وإن كره اسمه رؤى كراهية ذلك فى وجهه » وإسناده حسن وهذا فيه استعمال الفأل . قال ابن القيم : أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها ، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ولكنه خير منها ، ففصل بين الفأل والطيرة؛ لما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفع أحدهما ، ومضرة الآخر، ونظير هذا : منعه من الرقى بالشرك ، وإذنه فى الرقية إذا لم يكن فيها شرك لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة.

قوله : (ولا ترد مسلماً) قال الطيبى : تعريض بأن الكافر بخلافه .

قوله : (اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت) أى لا تأتى الطيرة بالحسنات . ولا تدفع المكروهات ، بل أنت وحدك لا شريك لك الذى تأتى بالحسنات ، وتدفع السيئات ، و« الحسنات » هنا النعم ، و« السيئات » المصائب ، كقوله (٤ : ٧٨ ، ٧٩) ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك ، قل : كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً . ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ، ففيه نفى تعليق القلب بغير الله فى جلب نفع أو دفع ضر ، وهذا هو التوحيد ، وهو دعاء مناسب لمن وقع فى قلبه شىء من الطيرة ، وتصريح بأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً ، ويعد من اعتقدها سفيهاً مشركاً .

قوله : (ولا حول ولا قوة إلا بك) استعانةٌ بالله تعالى على فعل التوكل ، وعدم الالتفات

وعن ابن مسعود مرفوعاً : « الطِّيَرَة شِرْك ، الطِّيرة شرك . وما منا إلا ولكن الله يُذْهِبُه بالتوكل » رواه أبو داود والترمذى وصححه . وجعل آخره من قول ابن مسعود .

إلى الطيرة التى قد تكون سبباً لوقوع المكروه عقوبة لفاعلها . وذلك الدعاء إنما يصدر عن حقيقة التوكل الذى هو أقوى الأسباب فى جلب الخيرات ودفع المكروهات .

و« الحول » التحول والانتقال من حال إلى حال ، و« القوة » على ذلك بالله وحده لا شريك له . ففيه التبرئ من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته وهذا هو التوحيد فى الربوبية ، وهو الدليل على توحيد الإلهية الذى هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة ، وهو توحيد القصد والإرادة ، وقد تقدم بيان ذلك بحمد الله .

قوله : (عن ابن مسعود – رضى الله عنه – مرفوعاً : « الطِّيرة شرك ، الطِّيرة شرك ، وما منا إلا ، ولكن الله يذهبه بالتوكل » رواه أبو داود والترمذى وصححه وجعل آخره من قول ابن مسعود) .

ورواه ابن ماجه وابن حبان . ولفظ أبى داود « الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، الطيرة شرك. ثلاثاً » وهذا صريح فى تحريم الطيرة ، وأنها من الشرك ؛ لما فيها من تعلق القلب على غير الله تعالى .

قال ابن حمدان : تكره الطيرة ، وكذا قال غيره من أصحاب أحمد .

قال ابن مفلح : والأولى القطع بتحريمها لأنها شرك ، وكيف يكون الشرك مكروهاً الكراهية الاصطلاحية ؟

قال فى شرح السنن : وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبها ، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى .

قوله : (وما منا إلا) قال أبو القاسم الأصبهانى ، والمنذرى : فى الحديث إضمار ، التقدير : وما منا إلا وقد وقع فى قلبه شىء من ذلك . ا هـ .

وقال الخلخالى : حذف المستثنى لما يتضمنه من الحالة المكروهة . وهذا من أدب الكلام .

قوله : (ولكن الله يذهبه بالتوكل) أى لكن لما توكلنا على الله فى جلب النفع ودفع الضر أذهبه الله عنا بتوكلنا عليه وحده .

قوله : (وجعل آخره من قول ابن مسعود) قال ابن القيم : وهو من الصواب ؛ فإن الطيرة نوع من الشرك .

ولأحمد من حديث ابن عمرو : « مَنْ رَدَّته الطِّيَرَةُ عن حاجته فقد أشرك . قالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : أن تقول : اللهم لا خَيرَ إلا خيرُك ، ولا طَيرَ إلا طيرُك ، ولا إله غيرك » .

قال : (ولأحمد من حديث ابن عمرو : « مَنْ ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك ، قالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : أن تقول : اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك) .

هذا الحديث رواه أحمد والطبرانى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وفى إسناده ابن لهيعة(١) وبقية رجاله ثقات .

قوله : (من حديث ابن عمرو) وهو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمى أبو محمد . وقيل : أبو عبد الرحمن . أحد السابقين المكثرين من الصحابة ، وأحد العبادلة الفقهاء . مات فى ذى الحجة ليالى الحرة - على الأصح - بالطائف (٢) .

قوله : (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك) وذلك أن الطيرة هى التشاؤم بالشىء المرئى أو المسموع ، فإذا رده شىء من ذلك عن حاجته التى عزم عليها كإرادة السفر ونحوه ، فمنعه عما أراده وسعى فيه ما رأى وما سمع تشاؤماً ، فقد دخل فى الشرك ، كما تقدم ، فلم يخلص توكله على الله بالتفاته إلى ما سواه ، فيكون للشيطان منه نصيب .

قوله : (فما كفارة ذلك ؟) إلى آخره . فإذا قال ذلك وأعرض عما وقع فى قلبه ولم يلتفت إليه ، كفّر الله عنه ما وقع فى قلبه ابتداء ؛ لزواله عن قلبه بهذا الدعاء المتضمن للاعتماد على الله وحده ، والإعراض عما سواه .

وتضمن الحديث : أن الطيرة لا تضر من كرهها ومضى فى طريقه ، وأما من لم يخلص توكله على الله واسترسل مع الشيطان فى ذلك ، فقد يعاقب بالوقوع فيما يكره ؛ لأنه أعرض عن واجب الإيمان بالله ، وأن الخير كله بيده . فهو الذى يجلبه لعبده بمشيئته وإرادته ، وهو الذى يدفع عنه الضر وحده بقدرته ولطفه وإحسانه ، فلا خير إلا منه ، وهو الذى يدفع الشر

---

(١) هو عبد الله بن لهيعة الحضرمى الغافقى المصرى قاضيها وعالمها ومسندها ، قال الإمام أحمد : احترقت كتبه. وهو صحيح الكتاب . ومن كتب عنه قديماً فسماعه صحيح . مات سنة ١٧٤ هـ .

(٢) واقعة الحرة وفتنة الأقوى : الموقعة التى كانت من أهل الشام فى أهل المدينة ، بعث يزيد بن معاوية أهل الشام لقتال أهل المدينة حين امتنعوا عن بيعته فغلبوا على أهلها واستباحوها ثلاثاً ، وقتل خلق كثير من أصحاب رسول الله ﷺ ورضى عنهم ؛ وكان ذلك سنة خمس وستين (*) .

(*) قوله : (وكان ذلك سنة خمس وستين) أقول الصواب سنة ثلاث وستين .

وله من حديث الفضْل بن عباس رضى الله عنه : « إنما الطِّيرة ما أمضاك أو ردَّك » .

فيه مسائل :

الأولى : التنبيه على قوله: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ مع قوله: ﴿طائركم معكم﴾.

الثانية : نفى العدوى .

الثالثة : نفى الطيرة .

الرابعة : نفى الهامة .

الخامسة : نفى الصفر .

السادسة : أن الفأل ليس من ذلك ، بل مستحب .

السابعة : تفسير الفأل .

الثامنة : أن الواقعَ فى القلوب من ذلك مع كراهته لا يضرُّ ، بل يُذْهبُه الله بالتوكل .

التاسعة : ذكر ما يقول مَنْ وَجده .

العاشرة : التصريح بأن الطيرة شرك .

الحادية عشرة : تفسير الطيرة المذمومة .

❊ ❊ ❊

عن عبده ، فما أصابه من ذلك فبذنبه ، كما قال تعالى (٤ : ٧٩) : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ .

قوله : (وله من حديث الفضل بن عباس : « إنما الطيرة ما أمضاك أو ردّك ») .

هذا الحديث عند الإمام من حديث الفضل بن عباس قال : « خرجت مع رسول الله ﷺ يوماً ، فبرّح ظبى ، فمال فى شقه فاحتضنته ، فقلت : يا رسول الله ، تطيرت فقال : إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك » ، وفى إسناده انقطاع ، أى بين مسلمة راويه وبين الفضل وهو الفضل بن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبى ﷺ . قال ابن معين : قتل يوم اليرموك . وقال غيره : قتل يوم مرج الصُّفّر سنة ثلاث عشرة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة . وقال أبو داود : قتل بدمشق ، كان عليه درع رسول الله ﷺ .

قوله : (إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك) هذا حد الطيرة المنهى عنها : أنها ما يحمل الإنسان على المضى فيما أراده ، ويمنعه من المضى فيه كذلك . وأما الفأل الذى كان يحبه النبى ﷺ فيه نوع بشارة ، فيسرّ به العبد ولا يعتمد عليه ، بخلاف ما يمضيه أو يرده ؛ فإن للقلب عليه نوع اعتماد ، فافهم الفرق . والله أعلم .

باب (ما جاء فى التنجيم)

قال البخارى فى صحيحه : قال قتادة :

قوله : (باب ما جاء فى التنجيم)

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : التنجيم : هو الاستدلال بالأحوال الفلكية ، على الحوادث الأرضية .

وقال الخطابى : علم النجوم المنهى عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التى ستقع فى مستقبل الزمان ، كأوقات هبوب الرياح ومجئ المطر ، وتغير الأسعار ، وما فى معناها من الأمور التى يزعمون أنها تدرك معرفتها بمسير الكواكب فى مجاريها ، واجتماعها وافتراقها ، يدّعون أن لها تأثيراً فى السفليات . وهذا منهم تحكّم على الغيب ، وتعاط لعلم قد استأثر الله به ، لا يعلم الغيب سواه .

قوله : (قال البخارى فى صحيحه : قال قتادة : خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينة للسماء، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به » .

هذا الأثر علقه البخارى فى صحيحه . وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم . وأخرجه الخطيب فى كتاب النجوم عن قتادة ، ولفظه قال : « إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً للشياطين . فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به . وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا فى هذه النجوم كهانة : من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا . ولعمرى ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود ، والطويل والقصير ، والحسن والدميم ، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشىء من هذا الغيب . ولو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذى خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شىء » . انتهى [1] .

فتأمل ما أنكره هذا الإمام مما حدث من المنكرات فى عصر التابعين . وما زال الشر يزداد فى كل عصر بعدهم حتى بلغ الغاية فى هذه الأعصار ، وعمت به البلوى فى جميع الأمصار ،

---

(١) فى قرة العيون : وقول قتادة رحمه الله تعالى يدل على أن علم التنجيم هذا قد حدث فى عصره فأوجب له إنكاره على من اعتقده وتعلق به ؛ وهذا العلم مما ينافى التوحيد ويوقع فى الشرك لأنه ينسب الحوادث إلى غير من أحدثها وهو الله سبحانه بمشيئته وإرادته كما قال تعالى : ﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ ﴾ [٣٥ : ٣] ، وقال : ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ [٢٧ : ٦٥] .

« خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينة للسماء، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يُهتدَى بها . فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ ، وأضاع نصيبه ، وكلف ما لا عِلْمَ له به » . انتهى .

فمقلّ ومستكثر . وعزَّ فى الناس من ينكره ، وعظمت المصيبة به فى الدين . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

قوله : (خلق الله هذه النجوم لثلاث) قال تعالى (٦٧ : ٥) : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ ، وقال تعالى (١٦ : ١٦) : ﴿ وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾ .

وفيه : إشارة إلى أن النجوم فى السماء الدنيا ، كما روى ابن مَردويه عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « أما السماء الدنيا : فإن الله خلقها من دخان ، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ، وزينها بمصابيح ، وجعلها رجوماً للشياطين . وحفظاً من كل شيطان رجيم » .

قوله : (وعلامات) أى : دلالات على الجهات (يهتدى بها) أى يهتدى بها الناس فى ذلك . كما قال تعالى (٦ : ٩٧) : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ﴾ أى لتعرفوا بها جهة قصدكم ، وليس المراد أنه يهتدى بها فى علم الغيب ، كما يعتقده المنجمون ، وقد تقدم وجه بطلانه ، وأنه لا حقيقة له كما قال قتادة : « فمن تأول فيها غير ذلك » أى : زعم فيها غير ما ذكر الله فى كتابه من هذه الثلاث فقد أخطأ . حيث زعم شيئاً ما أنزل الله به من سلطان ، وأضاع نصيبه من كل خير ؛ لأنه شغل نفسه بما يضره ولا ينفعه .

فإن قيل : المنجم قد يصدق ؟ قيل : صدقه كصدق الكاهن ، يصدق فى كلمة ويكذب فى مائة . وصدقه ليس عن علم ، بل قد يوافق قدراً ، فيكون فتنة فى حق مَن صدقه .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله (١٦ : ١٥ ، ١٦) : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون * وعلامات ﴾ ، فقوله : « وعلامات » معطوف على ما تقدم مما ذكره فى الأرض ، ثم استأنف فقال : ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ ذكره ابن جرير عن ابن عباس بمعناه .

وقد جاءت الأحاديث عن النبى ﷺ بإبطال علم التنجيم ، كقوله : « من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر : زاد ما زاد » [(١)] .

وعن رجاء بن حَيوَة : أن النبى ﷺ قال : إن مما أخاف على أمتى : التصديق بالنجوم ،

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عباس .

وكره قتادة : تعلُّم منازل القمر ، ولم يُرَخِّص ابن عيينة فيه . ذكره حرب عنهما . ورخص فى تعلم المنازل أحمد وإسحاق .

والتكذيب بالقدر ، وحيف الأئمة » رواه عبد بن حميد ، وعن أبى مِحجن مرفوعاً : « أخاف على أمتى ثلاثاً : حيف الأئمة ، وإيماناً بالنجوم ، وتكذيباً بالقدر » رواه ابن عساكر ، وحسنه السيوطى .

وعن أنس - رضى الله عنه - مرفوعاً : « أخاف علىٰ أمتى بعدى خصلتين : تكذيباً بالقدر، وإيماناً بالنجوم » رواه أبو يعلى وابن عدى والخطاب فى كتاب النجوم ، وحسنه السيوطى أيضاً. والأحاديث فى ذم التنجيم والتحذير منه كثيرة .

قوله : (وكره قتادة تعلم منازل القمر ، ولم يرخص ابن عيينة فيه ، ذكره حرب عنهما ، ورخص فى تعلم المنازل أحمد وإسحاق) .

قال الخطابى : أما علم النجوم الذى يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذى يعرف به الزوال، وتُعلم به جهة القبلة . فإنه غير داخل فيما نهى عنه . وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً أكثر من أن الظل ما دام متناقصاً فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقى ، وإذا أخذ فى الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربى ، وهذا علم يصح إدراكه بالمشاهدة ، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوه من الآلات التى يستغنى الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته . وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة . فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة من الأئمة الذين لا نشك فى عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها ، وصدقهم فيما أخبروا به عنها ، مثل أن يشاهدها بحضرة الكعبة ، ويشاهدها على حال الغيبة عنها ، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة ، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذ كانوا عندنا غير متهمين فى دينهم ، ولا مقصرين فى معرفتهم . انتهى [(١)] .

وروى ابن المنذر عن مجاهد : « أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل منازل القمر » ، وروى عن إبراهيم : « أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدى به » قال ابن رجب : والمأذون فى تعلمه التسيير لا علم التأثير ؛ فإنه باطل محرم ، قليله وكثيره . وأما علم التسيير فيتعلم ما يحتاج إليه منه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور .

قوله : (ذكره حرب عنهما) هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو محمد الكرمانى الفقيه

---

(١) وحقيقة علم الفلك معرفة حركات النجوم والكواكب وتنقلاتها ومنازلها . وقد اخترع لمعرفة ذلك آلات حاسبة ومنظارات مقربة ، ومراصد كاملة الأسباب والآلات عرفوا بها شيئاً كثيراً جداً من العوالم العلوية ؛ حتى أصبحت كأنها على هذه الأرض . وكل ذلك لا يصح أن يختلف فيه مطلقاً ؛ لأنه كعلم الحساب أما أن ينسب إلى هذه النجوم والكواكب شىء من الحوادث على الأرض من موت أو حياة أو حرب أو سلم يكون فى المستقبل ، فهذا هو الذى لا شك فى كذبه وأنه ضلال .

وعن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مُدْمِن الخمر، ومصدق بالسحر ، وقاطع الرحم » رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه .

فيه مسائل :

الأولى : الحكمة فى خلق النجوم .

الثانية : الرد على من زعم غير ذلك .

من جلة أصحاب الإمام أحمد . روى عن أحمد وإسحاق وابن المدينى وابن معين وغيرهم . وله كتاب المسائل التى سئل عنها الإمام أحمد وغيره . مات سنة ثمانين ومائتين .

وأما إسحاق : فهو ابن إبراهيم بن مخلد أبو أيوب الحنظلى النيسابورى ، الإمام المعروف من جلة أصحاب الإمام أحمد . روى عن أحمد وإسحاق وابن المدينى وابن معين وغيرهم . وله كتاب المسائل التى سئل عنها الإمام أحمد وغيره . مات سنة ثمانين ومائتين .

قال : (وعن أبى موسى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر » رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه).

هذا الحديث رواه أيضاً الطبرانى والحاكم وقال : صحيح . وأقره الذهبى . وتمامه : « ومن مات وهو يدمن الخمر سقاه الله من نهر الغوطة : نهر يجرى من فروج المومسات ، يؤذى أهلَ النار ريح فروجهن » .

قوله : (وعن أبى موسى) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضّار - بفتح المهملة وتشديد الضاد - أبى موسى الأشعرى ، صحابى جليل . مات سنة خمسين .

قوله : (ثلاثة لا يدخلون الجنة) هذا من نصوص الوعيد التى كره السلف تأويلها . وقالوا: أمِرُّوها كما جاءت، ومن تأولها فهو على خطر من القول على الله بلا علم . وأحسن ما يقال: إن كل عمل دون الشرك والكفر المخرج عن ملة الإسلام فإنه يرجع إلى مشيئة الله ، فإن عذبه فقد استوجب العذاب ، وإن غفر له فبفضله وعفوه ورحمته .

قوله : (مدمن الخمر) أى المداوم على شربها .

قوله : (وقاطع الرحم) يعنى القرابة كما قال تعالى (٤٧ : ٢٢) : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ الآية .

قوله : (ومصدق بالسحر) أى مطلقاً . ومنه التنجيم ؛ لما تقدم من الحديث . وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة .

قال الذهبى فى الكبائر : ويدخل فيه تعلم السيميا وعملها ، وعقد المرء عن زوجته ، ومحبة الزوج لامرأته ، وبغضها وبغضه ، وأشباه ذلك بكلمات مجهولة ، قال : وكثير من الكبائر - بل عامتها إلا الأقل -يجهل خلق من الأمة تحريمه ، وما بلغه الزجر فيه، ولا الوعيد عليه. اهـ.

الثالثة : ذكر الخلاف فى تعلم المنازل .

الرابعة : الوعيد فيمن صدق بشىء من السحر ، ولو عرف أنه باطل .

* * *

باب (ما جاء فى الاستسقاء بالأنواء)

وقول الله تعالى (٥٦ : ٨٢) : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تُكذِّبون ﴾ .

وعن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

قوله : (باب ما جاء فى الاستسقاء بالأنواء)

أى من الوعيد ، والمراد نسبة السّقْيا ومجىء المطر إلى الأنواء ، و« الأنواء » جمع « نَوْء » وهى منازل القمر ، قال أبو السعادات : وهى ثمان وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة منزلة منها ، ومنه قوله تعالى (٣٦ : ٣٩) : ﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾ يسقط فى الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر ، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت من المشرق ، فتنقضى جميعها مع انقضاء السنة . وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر ، وينسبونه إليها ، ويقولون : « مطرنا بنوء كذا وكذا » ، وإنما سمى نَوْءًا ؛ لأنه إذا سقط الساقط منها ناء الطالع بالمشرق ، أى نهض وطلع .

قال : (وقوله تعالى (٥٦ : ٨٢) : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ روى الإمام أحمد والترمذى - وحسنه - وابن جرير وابن أبى حاتم والضياء فى المختارة عن علىّ -رضى الله عنه- ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ وتجعلون رزقكم ﴾ يقول : شكركم ، ﴿ أنكم تكذبون ﴾ تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، بنجم كذا وكذا » ، وهذا أولى ما فسرت به الآية . وروى ذلك عن على وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراسانى وغيرهم . وهو قول جمهور المفسرين . وبه يظهر وجه استدلال المصنف رحمه الله بالآية .

قال ابن القيم - رحمه الله - : أى تجعلون حظكم من هذا الرزق الذى به حياتكم : التكذيب به، يعنى القرآن . قال الحسن : تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون . قال : وخسر عبد لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب .

قوله : (وعن أبى مالك الأشعرى - رضى الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال : « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة » ، وقال : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقوم يوم القيامة وعليها سِربال من قَطِرَان وَدِرْعٌ من جَرَب » رواه مسلم) .

« أبو مالك » اسمه الحرث بن الحرث الشامى . صحابى تفرد عنه بالرواية أبو سلام . وفى الصحابة أبو مالك الأشعرى اثنان غير هذا .

« أربعٌ فى أُمَّتى من أمر الجاهلية لا يتركونَهُنَّ: الفخر بالأحساب، والطعن فى الأنساب،

قوله : (أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن) ستفعلها هذه الأمة إما مع العلم بتحريمها أو مع الجهل بذلك ، مع كونها من أعمال الجاهلية المذمومة المكروهة المحرمة . والمراد بالجاهلية هنا : ما قبل المبعث ، سموا بذلك لفرط جهلهم ، وكل ما يخالف ما جاء به الرسول ﷺ فهو جاهلية ، فقد خالفهم رسول الله ﷺ فى كثير من أمورهم أو أكثرها ، وذلك يدرك بتدبر القرآن ومعرفة السنة . ولشيخنا - رحمه الله - مصنف لطيف ذكر فيه ما خالف رسول الله ﷺ فيه أهل الجاهلية ، بلغ مائة وعشرين مسألة [1] .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - : أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذماً لمن لم يتركه ، وهذا يقتضى أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم فى دين الإسلام ، وإلا لم يكن فى إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها ، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم ، وهذا كقوله تعالى (٣٣ : ٣٣) : ﴿ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهلية الأولى ﴾ فإن فى ذلك ذماً للتبرج وذماً لحال الجاهلية الأولى ، وذلك يقتضى المنع من مشابهتهم فى الجملة .

قوله : (الفخر بالأحساب) أى التعاظم على الناس بالآباء ومآثرهم ، وذلك جهل عظيم ، إذ لا كرم إلا بالتقوى ، كما قال تعالى (٤٩ : ١٣) : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وقال تعالى (٣٤ : ٣٧) : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زُلْفَى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاءُ الضِّعْفِ بما عملوا وهم فى الغُرُفات آمنون ﴾ .

ولأبى داود عن أبى هريرة مرفوعاً : « إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَة الجاهلية، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقى ، أو فاجر شقي ، الناس بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، لَيَدَعَنَّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجُعلان » .

قوله : (والطعن فى الأنساب) أى الوقوع فيها بالعيب والتنقص . ولما عيَّر أبو ذر رضى الله عنه رجلاً بأمه [2] قال له النبى ﷺ : « أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية » متفق عليه. فدل على أن الطعن فى الأنساب من عمل الجاهلية ، وأن المسلم قد يكون فيه شىء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية ، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه . قاله شيخ الإسلام رحمه الله .

(١) كتاب مسائل الجاهلية ، طبع فى المطبعة السلفية وهو نفيس جداً ككل كتب شيخ الإسلام التى تفيض علماً ونوراً ، رحمه الله .

(٢) وإنما عيره بسوادها فقط ، فقال له : يا ابن السوداء ، فكيف بالناس اليوم وقد أطلقوا لأقلامهم وألسنتهم العنان ؟ .

والاستسقاء بالنجوم ، والنِّياحة » .

وقال : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سِربال من قَطران ، ودِرْعٌ من جَرَب » رواه مسلم .

قوله : (والاستسقاء بالنجوم) أي نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم . كما أخرج الإمام أحمد وابن جرير عن جابر السوائى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أخاف على أمتى ثلاثاً : استسقاء بالنجوم ، وحَيْف السلطان ، وتكذيباً بالقدر » .

فإذا قال قائلهم : مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا فلا يخلو : إما أن يعتقد أن له تأثيراً فى إنزال المطر ، فهذا شرك وكفر . وهو الذي يعتقده أهل الجاهلية كاعتقادهم أن دعاء الميت والغائب يجلب لهم نفعاً ، أو يدفع عنهم ضراً ، أو أنه يشفع بدعائهم إياه ، فهذا هو الشرك الذى بعث الله رسوله ﷺ بالنهى عنه وقتال من فعله ، كما قال تعالى (٨ : ٣٩) : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ والفتنة الشرك ، وإما أن يقول : مطرنا بنوء كذا مثلاً ، لكن مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده . ولكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم ، والصحيح : أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم ولو على طريق المجاز ، فقد صرح ابن مفلح فى الفروع : بأنه يحرم قول : « مُطرنا بنوءِ كذا » وجزم فى الإنصاف بتحريمه ولو على طريق المجاز ، ولم يذكر خلافاً . وذلك أن القائل لذلك نسب ما هو من فعل الله تعالى الذى لا يقدر عليه غيره إلى خلق مسخر ، لا ينفع ولا يضر ، ولا قدرة له على شىء ، فيكون ذلك شركاً أصغر . والله أعلم .

قوله : (والنياحة) أى رفع الصوت بالندب على الميت [1] لأنها تَسخُّط بقضاء الله ، وذلك ينافى الصبر الواجب ، وهى من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة .

قوله : (النائحة إذا لم تتب قبل موتها) فيه تنبيه على أن التوبة تكفر الذنب وإن عظم ؛ هذا مجمع عليه فى الجملة ، ويكفر أيضاً بالحسنات الماحية والمصائب ، ودعاء المسلمين بعضهم لبعض ، وبالشفاعة بإذن الله ، وعفو الله عمن شاء ممن لا يشرك به شيئاً . وفى الحديث عن ابن عمر مرفوعاً : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِرْ » رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان .

قوله : (تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب) قال القرطبى : السربال واحد السرابيل ، وهى الثياب والقُمُصْ ، يعنى أنهن يُلَطّخن بالقطران ، فيكون لهن كالقمص، حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن أعظم ، وروائحتهن أنتن ، وألمهن بسبب الجرب أشد . ووى عن ابن عباس : إن القطران هو النحاس المذاب [2] .

---

(١) وضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية .

(٢) ذكر ذلك الحافظ ابن كثير وغيره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد سرابيلهم من قطران ﴾ [١٤ : ٤٩ ، ٥٠] .

ولها عن زيد بن خالد رضى الله عنه قال : « صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحُدَيبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس ، فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : (ولهما [١] عن زيد بن خالد رضى الله عنه قال : « صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحُدَيبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس ، فقال : أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مُطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى ، كافر بالكوكب ، وأما من قال : مُطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بى ، مؤمن بالكوكب ») .

زيد بن خالد الجهنى صحابى مشهور ، مات سنة ثمان وستين ، وقيل : غير ذلك ، وله خمس وثمانون سنة .

قوله : (صلى لنا رسول الله ﷺ) أى بنا ، فاللام بمعنى الباء . قال الحافظ : وفيه إطلاق ذلك مجازاً . وإنما الصلاة لله .

قوله : (بالحديبية) بالمهملة المضمومة وتخفيف يائها وتثقل [٢] .

قوله : (على إثر سماء كانت من الليل) بكسر الهمزة وسكون المثلثة على المشهور ، وهو ما يعقب الشىء .

قوله : (سماء) أى مطر ؛ لأنه ينزل من السحاب ، والسماء يطلق على كل ما ارتفع .

قوله : (فلما انصرف) أى من صلاته ، أى التفت إلى المأمومين ، كما يدل عليه قوله : «أقبل على الناس» ويحتمل أنه أراد السلام .

قوله : (هل تدرون) لفظ استفهام ومعناه التنبيه . وفى النسائى : « ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة؟» وهذا من الأحاديث القدسية . وفيه: إلقاء العالم على أصحابه المسألة ليختبرهم .

قوله : (قالوا : الله ورسوله أعلم) فيه : حسن الأدب للمسئول عما لا يعلم أن يكل العلم إلى عالمه .وذلك يجب [٣] .

---

(١) رواه البخارى فى الصلاة فى باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم ؛ وفى الاستسقاء فى باب قول الله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ ورواه مسلم فى كتاب الإيمان .

(٢) قرية على حدود الحرم ؛ وتسمى الآن الشميسى ، وكان فيها صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ والمشركين سنة ست من الهجرة ؛ وكان هذا الصلح الفتح المبين .

(٣) وردهم هذا إنما كان يصح حينما كان الرسول ﷺ فى حياته الدنيا حاضر المجلس ؛ فإن الواجب رد العلم إلى الله ثم إليه ، وأما بعد أن مات وفارق هذه الدنيا فلا ينبغى رد العلم إلا إلى الله وحده ، فمن الخطأ استعمال الناس هذه الجملة الآن وقولهم : « الله ورسوله أعلم » .

قال : قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر . فأما مَن قال : مُطِرْنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب . وأما من قال : مُطرنا بَنْوءِ كذا وكذا ، فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب » .

قوله : (أصبح من عبادى) الإضافة هنا للعموم بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر ، كقوله تعالى (٦٤ : ٢) : ﴿ هو الذى خلقكم : فمنكم كافر ، ومنكم مؤمن ﴾ .

قوله : (مؤمن بى وكافر) إذا اعتقد أن للنوء تأثيراً فى إنزال المطر فهذا كفر ؛ لأنه أشرك فى الربوبية ، والمشرك كافر ، وإن لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر ؛ لأنه نسب نعمة الله إلى غيره ، ولأن الله لم يجعل النوء سبباً لإنزال المطر فيه ، وإنما هو فضل من الله ورحمة يحبسه إذا شاء ، وينزله إذا شاء .

ودل هذا الحديث على أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره ولو على سبيل المجاز وأيضاً الباء تحتمل معانى ، وكلها لا تصدق بهذا اللفظ ، فليست للسببية ولا للاستعانة ، لما عرفت من أن هذا باطل . ولا تصدق أيضاً على أنها للمصاحبة ؛ لأن المطر قد يجىء فى هذا الوقت وقد لا يجىء فيه ، وإنما يجىء المطر فى الوقت الذى أراد الله مجيئه فيه برحمته وحكمته وفضله . فكل معنى تحمل عليه الباء فى هذا اللفظ المنهى عنه فاسد . فيظهر على هذا : تحريم هذه اللفظة مطلقاً لفساد المعنى[1]. وقد تقدم القطع بتحريمه فى كلام صاحب الفروع والإنصاف.

قال المصنف – رحمه الله – : (وفيه التفطن للإيمان فى هذا الموضع) يشير إلى أنه الإخلاص.

قوله : (فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته) فالفضل والرحمة صفتان لله ، ومذهب أهل السنة والجماعة : أن ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الذات : كالحياة والعلم ، وصفات الأفعال ، كالرحمة التى يرحم بها عباده : كلها صفات لله قائمة بذاته ليست قائمة بغيره ، فتفطن لهذا فقد غلط فيه طوائف .

وفى هذا الحديث : أن نِعَم الله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده ، وهو الذى يحمد عليها، وهذه حال أهل التوحيد .

قوله : (وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا) إلى آخره ، تقدم ما يتعلق بذلك .

قال المصنف – رحمه الله – : (وفيه : التفطن للكفر فى هذا الموضع) .

يشير إلى أن نسبة النعمة إلى غير الله كفر ، ولهذا قطع بعض العلماء بتحريمه ، وإن لم يعتقد تأثير النوء بإنزال المطر ، فيكون من كفر النعم ؛ لعدم نسبتها إلى الذى أنعم بها ،

---

(١) وكذلك مثلها مما يستعمله الجاهلون كقولهم : يا ربنا بمحمد وبينته ؛ ونحو ذلك من ألفاظ فى توسلاتهم ودعواتهم الجاهلية .

ولهما من حديث ابن عباس بمعناه ، وفيه : « قال بعضهم : لقد صدق نَوء كذا وكذا . فأنزل الله هذه الآيات (٥٦ : ٧٥ - ٨٢) : ﴿ فلا أُقسم بمواقع النجوم ، وإنه

ونسبتها إلى غيره ، كما سيأتى فى قوله تعالى (١٦ : ٨٣) : ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾ .

قال القرطبى فى شرح حديث زيد بن خالد : وكانت العرب إذا طلع نجم من المشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطر أو ريح ، فمنهم من ينسبه إلى الطالع ، ومنهم من ينسبه إلى الغارب ؛ نسبة إلى إيجاد واختراع ، ويطلقون ذلك القول المذكور فى الحديث . فنهى الشارع عن إطلاق ذلك ، لئلا يعتقد أحد اعتقادهم ولا يتشبه بهم فى نطقهم . انتهى .

قوله : فمنهم من ينسبه نسبة إيجاد - يدل على أن بعضهم كان لا يعتقد ذلك ، كما قال تعالى (٢٩ : ٦٣) : ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ فدل على أن منهم من يعرف ويقر بأن الله هو الذى أوجد المطر ، وقد يعتقد هؤلاء أن للنوء فيه شيئاً من التأثير ، والقرطبى فى شرحه لم يصرح أن العرب كلهم يعتقدون ذلك المعتقد الذي ذكره . فلا اعتراض عليه بالآية للاحتمال المذكور .

قوله : (ولهما من حديث ابن عباس بمعناه ، وفيه : قال بعضهم : « لقد صدق نوء كذا وكذا فأنزل الله هذه الآيات (٥٦ : ٧٥ - ٨٢) : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم * فى كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين* أفبهذا الحديث أنتم مدهنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ؟ ﴾ .

وبلفظه عن ابن عباس قال : « مُطر الناس على عهد النبى ﷺ ، فقال النبى ﷺ : أصبح من الناس شاكر ، ومنهم كافر ، قالوا : هذه رحمة الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا ، قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ » .

هذا قسم من الله عز وجل ، يقسم بما شاء من خلقه على ما شاء . وجواب القسم : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ فتكون « لا » صلة لتأكيد النفي ؛ فتقدير الكلام : ليس الأمر كما زعمتم فى القرآن أنه سحر ، أو كهانة ، بل هو قرآن كريم . قال ابن جرير : قال بعض أهل العربية : معنى قوله (فلا أقسم) فليس الأمر كما تقولون ، ثم استؤنف القسم بعد ، فقيل : قسم بمواقع النجوم . قال ابن عباس : يعنى نجوم القرآن ، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ثم نزل مفرقاً فى السنين بعد[1]، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية.

---

(١) الآية تدل على أنه ما زال فى الكتاب المكنون حتى كان ينزل به جبريل منجماً ، فكان ينزل مباشرة إلى النبى ﷺ ولا مفهوم لما قاله بعض المفسرين أنه نزل إلى السماء الدنيا مرة ثم كان ينزل بعد ذلك إلى رسول الله ﷺ منها.

ومواقعها : نزولها شيئاً بعد شيء . وقال مجاهد : مواقع النجوم مطالعها ومشارقها . واختاره ابن جرير . وعلى هذا فتكون المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه - وهو القرآن - من وجوه:

أحدها : أن النجوم جعلها الله يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن يهتدى بها فى ظلمات الغى والجهل. فتلك هداية فى الظلمات الحسية، والقرآن هداية فى الظلمات المعنوية. فجمع بين الهدايتين مع ما فى النجوم من الزينة الظاهرة ، وفى القرآن من الزينة الباطنة ومع ما فى النجوم من الرجوم للشياطين ، وفى القرآن من رجوم شياطين الجن والإنس . والنجوم وآياته المشهودة العيانية ، والقرآن آياته المتلوة السمعية ، مع ما فى مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول . ذكره ابن القيم رحمه الله .

وقوله : ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ قال ابن كثير : أى وإن هذا القسم الذى أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به عليه .

وقوله : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ هذا هو المقسم عليه ، وهو القرآن ، أي إنه وحى الله وتنزيله وكلامه ، لا كما يقول الكفار : إنه سحر أو كهانة ، أو شعر . بل هو قرآن كريم : أي عظيم كثير الخير ؛ لأنه كلام الله .

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - : فوصفه بما يقتضى حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته؛ فإن الكريم هو البهى الكثير الخير العظيم ، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله . والله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالكرم ، ووصف به كلامه ، ووصف به عرشه ، ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره ، ولذلك فسر السلف « الكريم » بالحسن . قال الأزهرى : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والله تعالى كريم جميل الفعال . وإنه لقرآن كريم يحمد ، لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة .

وقوله : ﴿ فى كتاب مكنون ﴾ أى فى كتاب معظم محفوظ موقر ، قاله ابن كثير .

وقال ابن القيم - رحمه الله تعالى - : اختلف المفسرون فى هذا ، فقيل : هو اللوح المحفوظ والصحيح أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة ، وهو المذكور فى قوله (٨٠ : ١٣ - ١٦): ﴿فى صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدى سفرة * كرام بررة ﴾ ويدل على أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة قوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه .

قوله : (لا يمسه إلا المطهرون) قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : « لا يمسه رلا المطهرون . قال : الكتاب الذى فى السماء » ، وفى رواية : « لا يمسه إلا المطهرون يعنى الملائكة » . وقال قتادة : « لا يمسه عند الله إلا المطهرون ، فأما فى الدنيا فإنه يمسه المجوسى النجس والمنافق الرجس»، واختار هذا القول كثيرون . منهم ابن القيم - رحمه الله - ورجحه.

وقال ابن زيد : زعمت قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون ، كما قال تعالى (٢٦ : ٢١٠ - ٢١٢) : ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ وما ينبغى لهم وما يستطيعون ﴾ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ قال ابن كثير : هذا قول جيد . وهو لا يخرج عن القول قبله . وقال البخارى - رحمه الله تعالى - فى صحيحه فى هذه الآية : « لا يجد طعمه إلا من آمن به » .

قال ابن القيم رحمه الله : هذا من إشارة الآية وتنبيهها ، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقاً ، وأنزله على رسوله وحياً . لا ينال معانيه إلا من لم يكن فى قلبه حرج منه بوجه من الوجوه .

وقال آخرون : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ أي من الجنابة والحدث . قالوا : ولفظ الآية خبر ومعناه الطلب . قالوا : والمراد بالقرآن ههنا المصحف . واحتجوا على ذلك بما رواه مالك فى الموطأ عن عبد الله بن محمد بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : « إن فى الكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم : أن لا يمس القرآن إلا طاهر » [(١)] .

وقوله : ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ قال ابن كثير : هذا القرآن منزل من الله رب العالمين وليس كما يقولون : إنه سحر أو كهانة أو شعر ، بل هو الحق الذى لا مرية فيه ، وليس وراءه حق نافع . وفى هذه الآية : أنه كلام الله تكلم به .

قال ابن القيم رحمه الله : ونظيره (٣٢ : ١٣) : ﴿ ولكن حق القول منى ﴾ ، وقوله (١٦ : ١٠٢) : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ هو إثبات علو الله تعالى على خلقه فإن النزول والتنزيل الذى تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشىء من أعلى إلى أسفل ، ولا يرد عليه قوله (٣٩ : ٦) : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ لأنا نقول : إن الذى أنزلها فوق سمواته . فأنزلها لنا بأمره .

قال ابن القيم رحمه الله : وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه لهم وتصرفه فيهم ، وحكمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، وإنعامه عليهم ، وأن من هذا شأنه مع

(١) قال الحافظ ابن كثير : ورواه أبو داود فى المراسيل من حديث الزهرى . قال : قرأت فى صحيفة عند أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم . . إلخ . قال : ومثل هذا لا ينبغى الأخذ به . وقد أسنده الدارقطنى عن عمرو ابن حزم ، وعبد الله بن عمر ، وعثمان بن أبى العاص . وفى إسناد كل منهما نظر ، وقال الحافظ فى التلخيص الحبير : وقد ضعف النووى وابن كثير فى الإرشاد وابن حزم حديث حكيم بن حزام وحديث عمرو بن حزم جميعاً . والضمير فى الآية يعود على الكتاب المكنون ؛ فهى صريحة فى أنهم الملائكة . والمقصود بالآية ما قال ابن زيد - الرد على قريش زعمها أنه تنزلت به الشياطين - فليس فى الآية دليل ولا شبه دليل لمن يقول : إن المصحف لا يمسه إلا طاهر .

أفبهذا الحديث أنت مُدْهِنُون * وتجعلون رزقكم أنكم تُكذِّبون ؟ ﴾ .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الواقعة .

الثانية : ذكر الأربع التى من أمر الجاهلية .

الثالثة : ذكر الكفر فى بعضها .

الرابعة : أن من الكفر ما لا يُخرج من الملة .

الخامسة : قوله : « أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر » بسبب نزول النعمة .

السادسة : التفطن للإيمان فى هذا الموضع .

السابعة : التفطن للكفر فى هذا الوضع .

الثامنة : التفطن لقوله : « لقد صدق نوء كذا وكذا » .

التاسعة : إخراج العالم للتعليم للمسألة بالاستفهام عنها ، لقوله : « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ » .

الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سُدًى ، ويدعهم هَمَلاً ، ويخلقهم عبثاً . لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم ؟ فمن أقرّ بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله . واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به ، وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق ، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس ، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء .

قوله : ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مُدْهنون ؟ ﴾ قال مجاهد : أتريدون أن تمالئوهم فيه ، وتركنوا إليهم ؟

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - : ثم وبخهم على وضعهم الإدهان فى غير موضعه ، وأنهم يداهنون فيما حقه أن يصدع به ويعرف به ، ويعض عليه بالنواجذ ، وتثنى عليه الخناصر وتعقد عليه القلوب والأفئدة ، ويحارب ويسالم لأجله ، ولا يلتوى عنه يمنة ولا يسرة ولا يكون للقلب التفات إلى غيره ، ولا محاكمة إلا إليه ، ولا مخاصمة إلا به ، ولا اهتداء فى طرق المطالب العالية إلا بنوره ، ولا شفاء إلا به ، فهو روح الوجود ، وحياة العالم ، ومدار السعادة وقائد الفلاح وطريق النجاة ، وسبيل الرشاد ، ونور البصائر . فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ، ولم ينزل للمداهنة ، وإنما نزل بالحق وللحق ، والمداهنة إنما تكون فى باطل قوى لا تمكن إزالته ، أو فى حق ضعيف لا تمكن إقامته ، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل ، فأما الحق الذى قام به كل حق فكيف يداهن به ؟

قوله : (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ تقدم الكلام عليها أول الباب ، والله تعالى أعلم.

العاشرة : وعيد النائحة .

* * *

باب

قول الله تعالى (٢ : ١٦٥) : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ .

قوله : (باب قول الله تعالى (٢ : ١٦٥) : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾) .

لما كانت محبته سبحانه هي أصل دين الإسلام الذى يدور عليه قطب رحاه ، فبكمالها يكمل، وبنقصها ينقص توحيد الإنسان ، نبه المصنف على ذلك بهذه الترجمة :

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً - الآية ﴾ قال فى شرح المنازل[١]: أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً ، فهذا ند فى المحبة لا فى الخلق والربوبية ، فإن أحداً من أهل الأرض لا يثبت هذا الند، بخلاف ندّ المحبة ، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً فى الحب والتعظيم . ثم قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ وفى تقدير الآية قولان : أحدهما : والذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التى يحبونها ويعظمونها من دون الله .

وروى ابن جرير عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ يحبونهم كحب الله ﴾ مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد ، ﴿ والذين آمنوا أشد حباً ﴾ من الكفار لأوثانهم ، ثم روى عن ابن زيد قال : هؤلاء المشركون أندادهم آلهتهم التى عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله من حبهم آلهتهم . انتهى .

والثانى : والذين آمنوا أشد حباً لله من المشركين بالأنداد لله ؛ فإن محبة المؤمنين خالصة ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها ، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة . والقولان مرتبان على القولين فى قوله تعالى : ﴿ يحبونهم كحب الله ﴾ فإن فيها قولين أيضاً ، أحدهما : يحبونهم كما يحبون الله ، فيكون قد أثبت لهم محبة الله ، ولكنها محبة أشركوا فيها مع الله تعالى أندادهم . والثانى : أن المعنى : يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله ، ثم بين تعالى أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يرجح القول الأول ويقول : إنما ذموا بأن شركوا بين الله وبين أندادهم فى المحبة ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له ، وهذه التسوية المذكورة فى

---

(١) مدارج السالكين أول الجزء الثالث من طبعة المنار .

قوله تعالى حكاية عنهم وهم فى النار ، أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم وهى محضرة معهم فى العذاب (٢٦ : ٩٧ ، ٩٨) : ﴿ تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ومعلوم أنهم ما سووهم برب العالمين فى الخلق والربوبية [١] وإنما سووهم به فى المحبة والتعظيم ، وهذا أيضاً : هو العدل المذكور فى قوله تعالى (٦ : ١) : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ به غيره فى العبادة التى هى المحبة والتعظيم .

وقال تعالى (٣ : ٣١) : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ وهذه تُسمى آية المحبة . قال بعض السلف : ادّعى قوم محبة الله ، فأنزل الله تعالى آية المحبة : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها ، فدليلها وعلامتها : اتباع الرسول ﷺ ، وفائدتها وثمرتها : محبة المرسِل لكم ، فما لم تحصل منكم المتابعة فمحبتكم له غير حاصلة ، ومحبته لكم منتفية .

وقال تعالى (٤ : ٥٤) : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ﴾ ذكر لهم أربعُ علامات :

إحداها : أنهم أذلة على المؤمنين ، قيل : معناه أرقاء رحماء مشفقين عاطفين عليهم ، فلما ضمن « أذلة » هذا المعنى عداه بأداة « على » قال عطاء رحمه الله : للمؤمنين كالولد لوالده وكالعبد لسيده ، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ .

العلامة الثالثة [٢] : الجهاد فى سبيل الله بالنفس واليد والمال واللسان . وذلك تحقيق دعوى المحبة .

العلامة الرابعة : أنهم لا تأخذهم فى الله لومة لائم . وهذه علامة صحة المحبة . فكل محب أخذه اللوم على محبوبه فليس بمحب على الحقيقة . وقال تعالى (١٧ : ٥٧) : ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ فذكر المقامات الثلاثة : الحب ، وهو ابتغاء القرب إليه ، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة . والرجاء والخوف يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب ، ومن المعلوم قطعاً أنه لا يتنافس إلا فى قرب من يحب قربه ، وحب قربه تبع لمحبة ذاته ، بل محبة

(١) فى قرة العيون : وقد وقع الشرك فى الربوبية أيضاً فى كثير من الخاصة والعامة فى آخر هذه الأمة فاعتقدوا أن لهؤلاء الأموات تصرفاً فى الكون ونحو ذلك .

(٢) لم يذكر الثانية ، ولعله اكتفى بما فى كلام عطاء من الإشارة إليها بقوله : وعلى الكافرين أشداء .

ذاته أوجبت محبة القرب منه ، وعند الجهمية والمعطلة : ما من ذلك كله شيء ؛ فإنه عندهم لا تقرب ذاته من شيء ، ولا يقرب من ذاته شيء ، ولا يحب ، فأنكروا حياة القلوب ، ونعيم الأرواح وبهجة النفوس ، وقرة العيون ، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة . ولذلك ضربت قلوبهم بالقسوة وضرب دونهم ودون الله حجاب على معرفته ومحبته ، فلا يعرفونه ولا يحبونه ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته ، فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم ، بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله ، ويزمونهم بالأدواء التى هم أحق بها وأهلها . وحسب ذى البصيرة وحياة القلب ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله تعالى ومعرفته وتوحيده . والله المستعان .

وقال - رحمه الله تعالى - أيضاً : لا تحد المحبة بحد أوضح منها ، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء. فحدها وجودها ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة ، وإنما يتكلم الناس فى أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها . وأجمع ما قيل فى ذلك : ما ذكره أبو بكر الكتانى عن الجنيد .

قال أبو بكر : « جرت مسألة فى المحبة بمكة - أعزها الله - فى أيام الموسم - فتكلم الشيوخ فيها ، وكان الجنيد أصغرهم سناً ، فقالوا : هات ما عندك يا عراقى . فأطرق رأسه ، ودمعت عيناه ، ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هيبته ، وصفا شرابه من كأس مودته ، وانكشف له الحياء من أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو لله وبالله ، ومع الله، فبكى الشيوخ . وقالوا: ما على هذا مزيد ، جبرك الله يا تاج العارفين».

وذكر رحمه الله تعالى : أن الأسباب الجالبة للمحبة عشر :

أحدها : قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به .

الثانى : التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض .

الثالث : دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال ، فنصيبه من المحبة على قدر هذا .

الرابع : إيثار محابه على محابِّك عند غلبات الهوى .

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلبه فى رياض هذه المعرفة وميادينها.

السادس : مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة .

السابع : وهو أعجبها انكسار القلب بين يديه .

الثامن : الخلوة وقت النزول الإلهى [1] وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة .

التاسع : مجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم ، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ، ومنفعة لغيرك .

---

(١) وذلك إذا مضى ثلثا الليل كما فى حديث النزول .

وقوله (٩ : ٢٤) : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ .

عن أنس : أن رسول الله ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » أخرجاه .

العاشر : مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل .

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ، ودخلوا على الحبيب .

قوله : (وقول الله تعالى (٩ : ٢٤) : ﴿ قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾) .

أمر الله نبيه ﷺ أن يتوعد من أحب أهله وماله وعشيرته وتجارته ومسكنه فآثرها ، أو بعضها على فعل ما أوجبه الله عليه من الأعمال التى يحبها الله تعالى ويرضاها ، كالهجرة والجهاد ونحو ذلك .

قال العماد ابن كثير -رحمه الله تعالى -: أى إن كانت هذه الأشياء: ﴿أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا ﴾ أى انتظروا ماذا يحل بكم من عقابه . روى الإمام أحمد وأبو داود - واللفظ له - من حديث أبى عبد الرحمن السلمى عن عطاء الخراسانى عن نافع عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلَّط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم » .

فلا بد من إيثار ما أحبه الله من عبده وأراده على ما يحبه العبد ويريده ، فيحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه ، ويوالى فيه ويعادى فيه ، ويتابع رسوله ﷺ كما تقدم فى آية المحنة ونظائرها .

قوله : (وعن أنس - رضى الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » أخرجاه) أى البخارى ومسلم .

قوله : (لا يؤمن أحدكم) أى الإيمان الواجب ، والمراد كماله ، حتى يكون الرسول أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين ، بل ولا يحصل هذا الكمال إلا بأن يكون الرسول أحب إليه من نفسه ، كما فى الحديث : « أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : يا رسول الله لأنت أحب إلىّ من كل شىء إلا من نفسى ، فقال : والذي نفسى بيده ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . فقال له عمر : فإنك الآن أحبُّ إلىّ من نفسى ، فقال : الآن يا عمر» رواه البخارى .

ولهما عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ مَن كن فيه

فمن قال : إن المنفى هو الكمال ، فإن أراد الكمال الواجب الذي يذم تركه ويعرّض للعقوبة فقد صدق ، وإن أراد أن المنفى الكمال المستحب ، فهذا لم يقع قط فى كلام الله ورسوله ﷺ. قاله شيخ الإسلام - رحمه الله - .

فمن ادعى محبة النبى ﷺ بدون متابعته وتقديم قوله على قول غيره فقد كذب ، كما قال تعالى (٢٤ : ٤٧) : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ﴾ فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول ﷺ ، لكن كل مسلم يكون محباً بقدر ما معه من الإسلام ، وكل مسلم لا بد أن يكون مؤمناً ، وإن لم يكن مؤمناً الإيمان المطلق ؛ لأن ذلك لا يحصل إلا لخواص المؤمنين .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : وعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر ، أو ولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه ، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله ، فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل . لكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم يحصل شيئاً فشيئاً ؛ إن أعطاهم الله ذلك وإلا فكثير من الناس لا يصلون إلى اليقين ولا إلى الجهاد ، ولو شُكِّكُوا لشكوا ، ولو أُمروا بالجهاد لما جاهدوا ؛ إذ ليس عندهم من علم اليقين ما يدرأ الريب ، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه على الأهل والمال ، فهؤلاء إن عرفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة ؛ وإن ابتلوا بمن يدخل عليهم شبهات توجب ريبهم ، فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب ، وإلا صاروا مرتابين ، وانتقلوا إلى نوع من النفاق . انتهى .

وفى هذا الحديث : أن الأعمال من الإيمان ، لأن المحبة عمل القلب .

وفيه : أن محبة الرسول ﷺ واجبة تابعة لمحبة الله لازمة لها ، فإنها محبة لله ولأجله ، تزيد بزيادة محبة الله فى قلب المؤمن وتنقص بنقصها ، وكل من كان محباً لله فإنما يحب فى الله ولأجله كما يحب الإيمان والعمل الصالح . وهذه المحبة ليس فيها شيء من شوائب الشرك كالاعتماد عليه ورجائه فى حصول مرغوب فيه أو دفع مرهوب منه . وما كان فيها ذلك فمحبته مع الله ، لما فيها من التعلق على غيره والرغبة إليه من دون الله ، فبهذا يحصل التمييز بين المحبة فى الله ولأجله ، التى هى من كمال التوحيد ، وبين المحبة مع الله التى هى محبة الأنداد من دون الله ، لما يتعلق فى قلوب المشركين من الإلهية التى لا تجوز إلا لله وحده .

قوله : (ولهما عنه - أي البخارى ومسلم . عن أنس رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » .

وفى رواية : « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله إلخ ») .

قوله : (ثلاث) أي ثلاث خصال .

قوله : (من كنَّ فيه) أى وجدت فيه تامة .

قوله : (وجد بهن حلاوة الإيمان) الحلاوة هنا : هى التى يعبر عنها بالذوق ؛ لما يحصل به من لذة القلب ونعيمه وسروره وغذائه ، وهى شىء محسوس يجده أهل الإيمان فى قلوبهم .

قال السيوطى رحمه الله فى التوشيح : « وجد حلاوة الإيمان » فيه : استعارة تخييلية ، شبه رغبة المؤمن فى الإيمان بشىء حلو ، وأثبت له لازم ذلك الشىء ، وأضافه إليه .

وقال النووى : معنى حلاوة الإيمان : استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق : وإيثار ذلك على أغراض الدنيا ، ومحبة العبد لله بفعل طاعته وترك مخالفته ، وكذلك الرسول ﷺ .

قال يحيى بن معاذ : حقيقة الحب فى الله : أن لا يزيد بالبر ، ولا ينقص بالجفاء .

قوله : (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) يعنى بالسوى : ما يحبه الإنسان بطبعه ، كمحبة الولد والمال والأزواج ونحوهما ، فتكون « أحب » هنا على بابها .

وقال الخطابى : المراد بالمحبة هنا : حب الاختيار لا حب الطبع . كذا قال .

وأما المحبة الشركية التى قد تقدم بيانها فقليلها وكثيرها ينافى محبة الله ورسوله . وفى بعض الأحاديث : « أحبوا الله بكل قلوبكم » فمن علامات محبة الله ورسوله : أن يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله ، ويؤثر مرضاته على ما سواه ، ويسعى فى مرضاته ما استطاع ، ويبعد عما حرمه الله ويكرهه أشد الكراهة ، ويتابع رسوله ويمتثل أمره ويترك نهيه كما قال تعالى (٤ : ٨٠) : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ فمن آثر أمر غيره على أمره وخالف ما نهى عنه فذلك علَم على عدم محبته لله ورسوله ؛ فإن محبة الرسول من لوازم محبة الله ، فمن أحب الله وأطاعه أحب الرسول وأطاعه . ومن لا فلا ؛ كما فى آية المحبة ونظائرها . والله المستعان .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : أخبر النبى ﷺ أن هذه الثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان ؛ لأن وجود الحلاوة للشىء يتبع المحبة له . فمن أحب شيئاً واشتهاه إذا حصل له مراده، فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك ، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذى هو المحبوب أو المشتهى . قال : فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح تتبع كمال محبة العبد الله وذلك بثلاثة أمور : تكميل هذه المحبة ، وتفريغها ، ودفع ضدها . فتكميلها : أن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما ، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيما بأصل الحب ، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب ، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها .

قلت : ومحبة الله تعالى تستلزم محبة طاعته ، فإنه يحب من عبده أن يطيعه . والمحب يحب ما يحبه محبوبه ولا بد .

أحبَّ إليه مما سواهما وأن يُحبَّ المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أنَ يُقذف فى النار » .

وفى رواية : « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى » إلى آخره .

ومن لوازم محبة الله أيضاً : محبة أهل طاعته ، كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده فمحبة ما يحبه الله ومن يحبه الله من كمال الإيمان ، كما فى حديث ابن عباس الآتى .

قال : وتفريغها : أن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، قال : ودفع ضدها : أن يكره ضد الإيمان كما يكره أن يقذف فى النار .

قوله: (أحب إليه مما سواهما) فيه جمع ضمير الله تعالى وضمير رسوله ﷺ، وفيه قولان :

أحدهما : أنه ثنى الضمير هنا إيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين ، لا كل واحدة ، فإنها وحدها لاغية . وأمر بالإفراد فى حديث الخطيب [1] إشعاراً بأن كل واحد من العصيانين مستقل بإلزام الغواية ؛ إذ العطف فى تقدير التكرير ، والأصل استقلال كل من المعطوفين فى الحكم .

الثانى : حمل حديث الخطيب على الأدب والأولى ، وهذا على الجواز .

وجواب ثالث : وهو أن هذا وارد على الأصل ، وحديث الخطيب ناقل فيكون أرجح .

قوله : (كما يكره أن يقذف فى النار) أى يستوى عنده الأمران . وفيه : رد على الغلاة الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص فى حقه مطلقاً ، وإن تاب منه .

والصواب : أنه إن لم يكن يتب كان نقصاً ، وإن تاب فلا ، ولهذا كان المهاجرون والأنصار – رضى الله عنهم – أفضل هذه الأمة مع كونهم فى الأصل كفاراً فهداهم الله إلى الإسلام، والإسلام يمحو ما قبله وكذلك الهجرة ، كما صح الحديث بذلك .

قوله : (وفى رواية : لا يجد أحد) هذه الرواية أخرجها البخارى فى الأدب من صحيحه . ولفظها : « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .

---

(١) وذلك ما رواه مسلم وأبو داود والنسائى من حديث عدى بن حاتم : « أن خطيباً خطب عند النبى ﷺ فقال: من يطع الله تعالى ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ، فقال له ﷺ : بئس الخطيب أنت ، قل : من يعص الله تعالى ورسوله فقد غوى » .

قال النووى : سبب الإنكار عليه أن الخطبة شأنها البسط والإيضاح ، واجتناب الإشارات والرموز ، قال : ولهذا ثبت أن رسول الله كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً لتفهم عنه ، قال : وإنما ثنى الضمير فى قوله : « أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » لأنه ليس خطبة وعظ وإنما هو تعليم حكم ، فكلما قل لفظه كان أقرب إلى حفظه بخلاف الخطبة . اهـ .

أقول : ولعلها حادثة حال لها ظروفها التى اقتضت أن يقول رسول الله ﷺ ذلك . والله أعلم .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «من أحب فى الله، وأبغض فى الله ووالَى فى الله، وعادى فى الله، فإنما تُنال ولاية الله بذلك ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان وإن كثرت

وقد تقدم أن المحبة هنا عبارة عما يجده المؤمن من اللذة والبهجة والسرور والإجلال والهيبة ولوازم ذلك ، قال الشاعر :

أهابُك إجـلالاً ، وما بك قُدرة علىَّ ، ولكن ملء عين حبيبها

قوله : (وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « من أحب فى الله ، وأبغض فى الله، ووالى فى الله ، وعادى فى الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصومه ، حتى يكون كذلك . وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يُجدِى على أهله شيئاً » رواه ابن جرير) .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم الجملة الأولى منه فقط .

قوله : (من أحب فى الله) أى أحب أهل الإيمان بالله وطاعته من أجل ذلك .

قوله : (وأبغض فى الله) أى أبغض من كفر بالله وأشرك به وفسق عن طاعته لأجل ما فعلوه مما يسخط الله وإن كانوا أقرب الناس إليه ، كما قال تعالى (٥٨ : ٢٢) : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله - الآية ﴾ .

قوله : « ووالى فى الله » هذا والذى قبله من لوازم محبة العبد لله تعالى ، فمن أحب الله تعالى أحب فيه ، ووالى أولياءه ، وعادى أهل معصيته وأبغضهم ، وجاهد أعداءه ونصر أنصاره . وكلما قويت محبة العبد لله فى قلبه قويت هذه الأعمال المترتبة عليها ، وبكمالها يكمل توحيد العبد ، ويكون ضعفها على قدر ضعف محبة العبد لربه ؛ فمقلّ ومستكثر ومحروم .

قوله : (فإنما تنال ولاية الله بذلك) أي توليه لعبده . و« ولاية » بفتح الواو لا غير : أي الأخوة [١] والمحبة والنصرة ، وبالكسر الإمارة ، والمراد هنا الأول . ولأحمد والطبرانى عن النبى ﷺ قال : « لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله ، فإذا أحب لله وأبغض لله ، فقد استحق الولاية لله » ، وفى حديث آخر : « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله عز وجل » رواه الطبرانى .

قوله : (ولن يجد عبد طعم الإيمان) إلى آخره . أى لا يحصل له ذوق الإيمان ولذته وسروره وإن كثرت صلاته وصومه ، حتى يكون كذلك ، أى حتى يحب فى الله ، ويبغض فى الله ، ويعادى فى الله ، ويوالى فيه .

---

(١) لعل كلمة « الأخوة » زائدة أو مبدلة عن كلمة أخرى تناسب المقام .

صلاته وصومه حتى يكون كذلك ، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر ادنيا ، وذلك لا يُجدِى على أهله شيئاً » رواه ابن جرير .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وتقطعتْ بهم الأسباب ﴾ [٢ : ١٦٦] قال : «المودَّة» .

وحديث أبى أمامة مرفوعاً : « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان» رواه أبو داود .

قوله : (وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدى على أهله شيئاً) أى لا ينفعهم بل يضرهم ، كما قال تعالى (٤٣ : ٦٧) : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ فإذا كانت البلوى قد عمت بهذا فى زمن ابن عباس خير القرون فما زاد فى الأمر بعد ذلك إلا شدة ، حتى وقعت الموالاة على الشرك والبدع والفسوق والعصيان ، وقد وقع ما أخبر به ﷺ بقوله : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ » (١) . وقد كان الصحابة - رضى الله عنهم - من المهاجرين والأنصار فى عهد نبيهم ﷺ وعهد أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - يؤثر بعضهم بعضاً على نفسه محبة فى الله وتقرباً إليه ، كما قال تعالى (٥٩ : ٩) : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : « لقد رأيتُنا على عهد رسول الله ﷺ وما منا أحدٌ يري أنه أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم » رواه ابن ماجه .

قوله : (وقال ابن عباس فى قوله تعالى (٢ : ١٦٦) : ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ قال: « المودة » هذا الأثر رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه.

قوله : (قال : المودّة) أى التى كانت بينهم فى الدنيا خانتهم أحوج ما كانوا إليها ، وتبرأ بعضهم من بعض ، كما قال تعالى (٢٩ : ٢٥) : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودَّة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ، ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ .

قال العلامة ابن القيم فى قوله تعالى (٢ : ١٦٦ ، ١٦٧) : ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتَّبَعوا ورأوا العذاب - الآيتين ﴾ فهؤلاء المتبوعون كانوا على الهدى ، وأتباعهم ادعوا أنهم على طريقهم ومنهاجهم ، وهم مخالفون لهم سالكين غير طريقهم ، ويزعمون أن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم ، فيتبرأون منهم يوم القيامة . فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله . وهذا حال كل من اتخذ من دون الله وليجة وأولياء ، يوالى لهم ، ويعادى لهم ، ويرضى لهم ، ويغضب لهم، ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ فهذه هى

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة ، والترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود . وقد شرحه الحافظ ابن رجب شرحاً نفيساً سماه « كشف الكربة فى وصف حال أهل الغربة » طبع مراراً .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية البقرة .

الثانية : تفسير آية براءة .

الثالثة : وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال .

الرابعة : نفى الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام .

الخامسة : أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها .

السادسة : أعمال القلب الأربع التى لا تنال ولاية الله إلا بها ، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها .

السابعة : فهم الصحابى للواقع : أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا .

الثامنة : تفسير ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ .

التاسعة : أن من المشركين من يحب الله ﴿ حباً شديداً ﴾ .

العاشرة : الوعيد على من كان الثمانية [1] أحب إليه من دينه .

الحادية عشرة : أن من اتخذ نداً تساوى محبته الله فهو الشرك الأكبر .

❊ ❊ ❊

باب

قول الله تعالى (٣ : ١٧٥) : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ، فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ .

الأعمال التى كانت فى الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه ، يجعلها الله هباء منثوراً ، لا ينتفع منها صاحبها بشىء أصلاً ، وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة : أن يرى سعيه ضائعاً . وقد سعد أهل السى النافع بسعيهم ، انتهى ملخصاً .

قوله : (باب قول الله تعالى (٣ : ١٧٥) : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوِّف أولياءه ، فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾) .

الخوف من أفضل مقامات الدين وأجلها ، وأجمع أنواع العبادة التى يجب إخلاصها لله تعالى . قال الله تعالى (٢١ : ٢٨) : ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ ، وقال تعالى (١٦ : ٥٠) : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ ، وقال تعالى (٥٥ : ٤٦) : ﴿ ولمن خاف مقام ربه

---

(١) هى الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن .

جنتان ﴾ ، وقال تعالى (١٦ : ٥١) : ﴿ فإياى فارهبون ﴾ ، وقال تعالى (٥ : ٤٤) : ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ ، وأمثال هذه الآيات فى القرآن كثير .

والخوف من حيث هو على ثلاثة أقسام :

أحدها : خوف السر ، وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره ، كما قال تعالى عن قوم هود - عليه السلام - إنهم قالوا له (١١ : ٥٤ ، ٥٥) : ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال : إنى أشهد الله ، واشهدوا أنى برئ مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ ، وقال تعالى (٣٩ : ٣٦) : ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ وهذا هو الواقع من عباد القبور ونحوها من الأوثان ، يخافونها ويخوفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة لله ، وهذا ينافى التوحيد .

الثانى : أن يترك الإنسان ما يجب عليه ، خوفاً من بعض الناس ، فهذا محرم ، وهو نوع من الشرك بالله المنافى لكمال التوحيد ، وهذا هو سبب نزول هذه الآية ، كما قال تعالى (٣: ١٧٣ - ١٧٥) : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم * إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ ، وفى الحديث : « إن الله يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك : إذا رأيت المنكر أن لا تغيره ؟ فيقول : رب خشية الناس ، فيقول : إياى كنت أحق أن تخشى » [1] .

الثالث : الخوف الطبيعى ، وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك . فهذا لا يذم ، كما قال تعالى فى قصة موسى عليه السلام (٢٨ : ٢١) : ﴿ فخرج منها خائفاً يترقب ﴾ - الآية .

ومعنى قوله : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ﴾ أى يخوفكم أولياءه ، ﴿ فلا تخافوهم وخافون ﴾ وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره ، وأمر لهم أن يقصروا خوفهم على الله ، فلا يخافون إلا إياه ، وهذا هو الإخلاص الذى أمر الله به عباده ورضيه منهم ، فإذا أخلصوا له الخوف وجميع العبادة أعطاهم ما يرجون وأمنهم من مخاوف الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى (٣٩ : ٣٦) : ﴿ أليس الله بكاف عبده ؟ ويخوفونك بالذين من دونه - الآية ﴾.

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - : ومن كيد عدو الله : أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه ، لئلا يجاهدوهم ، ولا يأمروهم بمعروف ، ولا ينهوهم عن منكر . وأخبر

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبى سعيد بلفظ : « لا يحقر أحدكم نفسه ، قالوا : يا رسول الله ، وكيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : يرى أمراً لله فيه مقال ثم لا يقول فيه ، فيقول الله عز وجل له يوم القيامة : ما منعك أن تقول فىَّ كذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس ، فيقول : فإياى كنت أحق أن تخشى » ذكره ابن كثير عند تفسير قول الله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴾ الآيات .

وقوله (٩ : ١٨) : ﴿ إنما يعْمُر مساجد الله مَن آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أُولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ .

وقوله (٢٩ : ١٠) : ﴿ ومن الناس من يقول : آمنا بالله ، فإذا أُوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله - الآية ﴾ .

تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه . ونهانا أن نخافهم . قال : والمعنى عند جميع المفسرين : يخوفهم بأوليائه . قال قتادة : يعظمهم فى صدوركم ، فكلما قوى إيمان العبد زال خوف أولياء الشيطان من قلبه ، وكلما ضعف إيمانه قوى خوفه منهم . فدلت هذه الآية على أن إخلاص الخوف من كمال شروط الإيمان .

قوله : (وقول الله تعالى (٩ : ١٨) : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله - الآية ﴾) .

أخبر تعالى أن مساجد الله لا يعمرها إلا أهل الإيمان بالله واليوم الآخر ، الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم ، وأخلصوا له الخشية دون من سواه ، فأثبت لهم عمارة المساجد بعد أن نفاها عن المشركين ؛ لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح ، والمشرك وإن عمل فعمله (٢٤ : ٣٩) : ﴿ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ (١٤ : ١٨) : ﴿ كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ﴾ وما كان كذلك فالعدم خير منه، فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان الذى معظمه التوحيد مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع ، وذلك كله داخل فى مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والجماعة .

قوله : ﴿ ولم يخش إلا الله ﴾ قال ابن عطية : يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة ، ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية. وينبغى أن يخشى فى ذلك كله قضاء الله وتصريفه.

وقال ابن القيم رحمه الله : الخوف عبودية القلب . فلا يصلح إلا لله ، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب .

قوله : ﴿ فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : « يقول : إن أولئك هم المهتدون، وكل « عسى » فى القرآن فهى واجبة » [1]، وفى الحديث : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان ، قال الله تعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ » رواه أحمد والترمذى والحاكم عن أبى سعيد الخدرى .

قوله : (٢٩ : ١٠) : ﴿ ومن الناس من يقول : آمنا بالله ، فإذا أوذىَ فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾) .

---

(١) قال ابن كثير : قال ابن عباس : « كقوله لنبيه ﷺ : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ ، وهى الشفاعة » ، وقال محمد بن إسحاق بن يسار : « وعسى » فى القرآن من الله حق .

. . . .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدَّعون الإيمان بألسنتهم ، ولم يثبت فى قلوبهم : إنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة فى الدنيا اعتقدوا أنها من نقمة الله بهم ، فارتدوا عن الإسلام ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : « يعنى فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذى فى الله » .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين : إما أن يقول أحدهم : آمنا ، وإما أن لا يقول ذلك . بل يستمر على السيئات والكفر ، فمن قال : آمنا امتحنه ربه . وابتلاه وفتنه . والفتنة : الابتلاء والاختبار ، ليتبين الصادق من الكاذب ، ومن لم يقل : آمنا ، فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه . فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه وابتلى بما يؤلمه ، ومن لم يؤمن بهم ولم يطعهم عوقب فى الدنيا والآخرة وحصل له ما يؤلمه ، وكان هذا الألم أعظم وأدوم من ألم أتباعهم . فلا بد من حصول الألم لكل نفس ، آمنت أو رغبت عن الإيمان ، لكن المؤمن يحصل له الألم فى الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة ، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء ، ثم يصير فى الألم الدائم ، والإنسان لا بد أن يعيش مع الناس ، والناس لهم إرادات وتصورات ، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها ، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه ، وإن وافقهم حصل له العذاب تارة منهم وتارة من غيرهم ، كمن عنده دين وتقًى حلَّ بين قوم فُجَّار ظلمة لا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم ، فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرِّهم فى الابتداء ، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم ، وإن سلم منهم فلا بد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم .

فالحزم كل الحزم فى الأخذ بما قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها لمعاوية - رضى الله عنه - : « من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً » [1] .

فمن هداه الله وألهمه رشده ، ووقاه الله شر نفسه ، امتنع من الموافقة على فعل المحرم ، وصبر على عداوتهم ، ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة ، كما كانت للرسل وأتباعهم .

ثم أخبر تعالى عن حال الداخل فى الإيمان بلا بصيرة وأنه إذا أُوذى فى الله جعل فتنة الناس له ، وهى أذاهم ونيلهم إياه بالمكروه ، وهو الألم الذى لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم ، جعل ذلك فى فراره منه وتركه السبب الذى يناله به : كعذاب الله الذى فرّ منه المؤمنون بالإيمان .

(١) رواه الترمذى عن عائشة عن النبى ﷺ وسيأتى .

فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فرّوا من ألم عذاب الله إلى الإيمان ، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قرب ، وهذا لضعف بصيرته فرّ من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله . فجعل ألم فتنة الناس فى الفرار منه بمنزلة عذاب الله . وغُبن كل الغبن إذ استجار من الرَّمْضاء بالنار . وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد . وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال: إنى كنت معكم، والله أعلم بما انطوى عليه صدره من النفاق. انتهى.

وفى الآية : رد على المرجئة والكرَّامية ، ووجهه : أنه لم ينفع هؤلاء قولهم : آمنا بالله ، مع عدم صبرهم على أذى من عاداهم فى الله ، فلا ينفع القول والتصديق بدون العمل . فلا يصدق الإيمان الشرعى على الإنسان إلا باجتماع الثلاثة : التصديق بالقلب وعمله ، والقول باللسان ، والعمل بالأركان . وهذا قول أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفيه الخوف من مداهنة الخلق فى الحق . والمعصوم من عصمة الله .

قوله : (عن أبى سعيد – رضى الله عنه – مرفوعاً : « إن من ضَعف اليقين : أن ترضى الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذُمَّهم على ما لم يؤتك الله : إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره » .

هذا الحديث رواه أبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى ، وأعله بمحمد بن مروان السدى وقال : ضعيف ، وفيه أيضاً عطية العوفى : ذكره الذهبى فى الضعفاء والمتروكين ، ومعنى الحديث صحيح ، وتمامه : « وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح فى الرضى واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط » .

قوله : (إن من ضعف اليقين) الضعف يضم ويحرك ، ضد القوة ، ضعُف ككرم ونصر ، ضعفاً ، وضعفة ، وضعافية ، فهو ضعيف وضعوف وضعفان ، والجمع : ضعاف وضعفاء وضعفة وضَعَفى وضعافى ، أو الضعَّف – بالفتح – فى الرأى ، وبالضم فى البدن ، فهى ضعيفة وضعوف . و« اليقين » كمال الإيمان . قال ابن مسعود : « اليقين الإيمان كله ، والصبر نصف الإيمان » رواه أبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الزهد من حديثه مرفوعاً . قال : ويدخل فى ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق ، كما فى حديث ابن عباس مرفوعاً : « فإن استطعت أن تعمل بالرضى فى اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً » ، وفى رواية : « قلت : يا رسول الله ، كيف أصنع باليقين ؟ قال : أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك » .

قوله : (أن ترضى الناس بسخط الله) أى : تؤثر رضاهم على رضى الله ، وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له

بسخط الله ، وأن تحمَدهم على رزق الله ، وأن تَذُمّهم على ما لم يؤتك الله ، إن رزق لا يجرُّه حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره » .

سخط خالقه وربه ومليكه ، الذى يتصرف فى القلوب ويفرج الكروب ويغفر الذنوب . وبهذا الاعتبار يدخل فى نوع الشرك ؛ لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله . وتقرب إليه بما يسخط الله ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله ، ووفقه لمعرفته ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله ، وتنزيهه تعالى عن كل ما ينافى كماله ، ومعرفة توحيده فى ربوبيته وإلهيته . وبالله التوفيق .

قوله : (وأن تحمدهم على رزق الله) أى على ما وصل إليك من أيديهم ، بأن تضيفه إليهم وتحمدهم عليه ، فإن المتفضل فى الحقيقة هو الله وحده الذى قدره لك وأوصله إليك ، وإذا أراد أمراً قيَّض له أسباباً ، ولا ينافى هذا حديث : « من لا يشكر الناس لا يشكر الله »[1] لأن شكرهم إنما هو بالدعاء لهم ، لكون الله ساقه على أيديهم ، فتدعو لهم أو تكافئهم ، لحديث : « من صنع إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه »[2] فإضافة الصنيعة إليهم لكونهم صاروا سبباً فى إيصال المعروف إليك ، والذى قدره وساقه هو الله وحده » .

قوله : (وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله) لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم . فلو قدره لك لساقته المقادير إليك . فمن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده ، وأنه هو الذى يرزق العبد بسبب وبلا سبب ، ومن حيث لا يحتسب ، لم يمدح مخلوقاً على رزق ، ولم يذمه على منع ، ويفوض أمره إلى الله ، ويعتمد عليه فى أمر دينه ودنياه . وقد قرر النبى هذا المعنى بقوله فى الحديث : « إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره » كما قال تعالى (٣٥ : ٢) : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ .

قال شيخ الإسلام – رحمه الله – : اليقين يتضمن اليقين فى القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته ، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره ، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً لا بوعده ولا برزقه ، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك : إما ميل إلى ما فى أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم ، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب فى الدنيا والآخرة . فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤونتهم ، وإرضاؤهم بما يسخطه إنما يكون خوفاً منهم ورجاء لهم ، وذلك من ضعف اليقين . وإذا لم يقدّر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك ، فالأمر فى ذلك إلى الله لا لهم ، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فإذا ذممتهم على ما لم يقدّر كان ذلك من ضعف يقينك ، فلا تخفهم ولا

---

(١) رواه أبو داود والترمذى – وقال : حسن صحيح – وابن حبان عن أبى هريرة .
(٢) رواه أبو داود والنسائى بإسناد صحيح ، كذا فى كشف الخفا .

وعن عائشة - رضى الله عنها - : أن رسولَ الله ﷺ قال : « من التمس رِضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رِضى الناس بسخط الله سَخِط الله عليه وأسخط عليه الناس » رواه ابن حبان فى صحيحه .

ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك ، ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود ، ومن ذمه الله ورسوله منهم فهو المذموم . ولما قال بعض وفد بنى تميم : « أى محمد أعطنى ، فإن حمدى زَيْن وَذَمِّى شَيْن ، قال النبى ﷺ : « ذاك » ، ودل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص ، وأن الأعمال من مسمى الإيمان .

قوله : (وعن عائشة - رضى الله عنها - : أن رسول الله ﷺ قال : « من التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس » رواه ابن حبان فى صحيحه) .

هذا الحديث رواه ابن حبان بهذا اللفظ، ورواه الترمذى عن رجل من أهل المدينة قال: «كتب معاوية - رضى الله عنه - إلى عائشة - رضى الله عنها - : أن اكتبى لى كتاباً توصينى فيه ، ولا تكثرى علىَّ ، فكتبت عائشة - رضى الله عنها - إلى معاوية : سلام الله عليك، أما بعد: فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من التمس رِضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله، وكَلَه الله إلى الناس، والسلام عليك» رواه أبو نعيم فى الحلية .

قوله : (من التمس) : أى طلب .

قال شيخ الإسلام : وكتبت عائشة إلى معاوية ، وروى أنها رفعته : « من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً » هذا لفظ المرفوع . ولفظ الموقوف : « من أرضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً » وهذا من أعظم الفقه فى الدين ؛ فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه وكان عبده الصالح ، والله يتولى الصالحين ، والله كاف عبده (٦٥ : ٢ ، ٣) : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب . وأما كون الناس كلهم يرضون عنه فقد لا يحصل ذلك ، لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض ، وإذا تبين لهم العاقبة : « ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً » كالظالم الذى يعضُّ على يديه . وأما كون حامده ينقلب ذاماً ، فهذا يقع كثيراً ويحصل فى العاقبة ، فإن العاقبة للتقوى لا تحصل ابتداء عند أهوائهم ا هـ .

وقد أحسن من قال :

إذا صح منك الود يا غاية المنى   فكل الذى فوق التراب تراب

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية آل عمران .

الثانية : تفسير آية براءة .

الثالثة : تفسير آية العنكبوت .

الرابعة : أن اليقين يضعف ويقوى .

الخامسة : علامة ضعفه . . ومن ذلك هذه الثلاث .

السادسة : أن إخلاص الخوف لله من الفرائض .

السابعة : ذكر ثواب من فعله .

الثامنة : ذكر عقاب من تركه .

❊ ❊ ❊

باب

قول الله تعالى (٥ : ٢٣) : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ .

قال ابن رجب - رحمه الله - : فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب ؟ أم كيف يرضى التراب بسخط الملك الوهاب ؟ إن هذا لشيء عجاب .

وفي الحديث : عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على الله ، وأن العقوبة قد تكون في الدين . عياذاً بالله من ذلك ، كما قال تعالى (٩ : ٧٧) : ﴿ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ .

قوله : (باب قول الله تعالى (٥ : ٢٣) : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾) .

قال أبو السعادات : يقال : توكل بالأمر ، إذا ضمن القيام به ، ووكلت أمري إلى فلان . إذا اعتمدت عليه ، ووكّل فلان فلاناً ، إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته ، أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه . ا هـ .

وأراد المصنف رحمه الله : بهذه الترجمة بالآية : بيان أن التوكلّ فريضة يجب إخلاصه لله تعالى ، فإن تقديم المعمول يفيد الحصر : أي وعلى الله فتوكلوا لا على غيره ، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها ، لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة ، فإنه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدنيوية ، دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى ، فهو من أعظم منازل ﴿ إياك نعبد ، وإياك نستعين ﴾ فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا

بكمال التوكل على الله ، كما فى الآية ، وكما قال تعالى (١٠ : ٨٤) : ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ ، وقوله (٧٣ : ٩) : ﴿ رب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو فاتخذْهُ وكيلاً ﴾ ، والآيات فى الأمر به كثيرة جداً . قال الإمام أحمد -رحمه الله - : « التوكل عملَ القلب » .

وقال ابن القيم فى معنى الآية المترجم بها : فجعل التوكل على الله شرطاً فى الإيمان ، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه ، وفى الآية الأخرى (١٠ : ٨٤) : ﴿ وقال موسى : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ ، فجعل دليل صحة الإسلام التوكل ؛ وكلما قوى إيمان العبد كان توكله أقوى ؛ وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل ، وإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الإيمان ولا بد . والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة ، وبين التوكل والإيمان ، وبين التوكل والتقوى ، وبين التوكل والإسلام ، وبين التوكل والهداية .

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ، ولجميع أعمال الإسلام ، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس ، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن ، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - : وما رجا أحد مخلوقاً ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك (٢٢ : ٣١) : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فكأنما خَرَّ من السماءِ فَتَخْطَفُهُ الطيرُ أَوْ تَهْوِى به الريحُ فى مكانٍ سَحِيق ﴾ .

قال الشارح - رحمه الله تعالى - : قلت لكن التوكل على الله قسمان :

أحدهما : التوكل فى الأمور التى لا يقدر عليها إلا الله ، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت فى رجاء مطلوبهم : من نصر أو حفظ أو رزق أو شفاعة ، فهذا شرك أكبر .

الثانى : التوكل فى الأسباب الظاهرة ، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله تعالى عليه من رزق ، أو دفع أذى ونحو ذلك ، فهو نوع شرك أصغر . والوكالة الجائزة : هى توكيل الإنسان فى فعل ما يقدر عليه نيابة عنه ، لكن ليس له أن يعتمد عليه فى حصول ما وُكل فيه ، بل يتوكل على الله فى تيسير أمره الذى يطلبه بنفسه أو نائبه ، وذلك من جملة الأسباب التى يجوز فعلها، ولا يعتمد عليها بل يعتمد على المسبب الذى أوجد السبب والمسبب.

قال : (وقول الله تعالى (٨ : ٢ - ٤) : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم - الآيات ﴾) .

قال ابن عباس فى الآية : « المنافقون لا يدخل فى قلوبهم شىء من ذكر الله عند أداء فرائضه ولا يؤمنون بشىء من آيات الله ، ولا يتوكلون على الله ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال : ﴿ إنما المؤمنون الذين

وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

وقوله (٨ : ٦٤) : ﴿ يا أيها النبيُّ حَسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ .

إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ فأدوا فرائضه » [١] رواه ابن جرير وابن أبى حاتم . وَوَجَلُ القلب من الله يستلزم القيام بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه . قال السدى : ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ هو الرجل يريد أن يظلم ، أو قال : يَهِمَّ بمعصية ، فيقال له : اتق الله ، اتق الله ، فيجل قلبه » [٢] رواه ابن أبى شيبة وابن جرير .

قوله : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ استدل الصحابة - رضى الله عنهم - والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرها على زيادة الإيمان ونقصانه .

قال عمير بن حبيب الصحابى : « إن الإيمان يزيد وينقص، فقيل له : وما زيادته ونقصانه؟ قال : إذا ذكرنا الله وخشيناه فذلك زيادته ، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا ، فذلك نقصانه » رواه ابن سعد .

وقال مجاهد : « الإيمان يزيد وينقص ، وهو قول وعمل » رواه ابن أبى حاتم .

وحكى الإجماع على ذلك الشافعى وأحمد وأبو عبيد وغيرهم رحمهم الله تعالى .

قوله : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي يعتمدون عليه بقلوبهم ، مفوضين إليه أمورهم فلا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يرغبون إلا إليه ، يعلمون أن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف فى الملك وحده ، والمعبود وحده لا شريك له . وفى الآية وصف المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإحسان ، وهى : الخوف ، وزيادة الإيمان ، والتوكل على الله وحده . وهذه المقامات تقتضى كمال الإيمان ، وحصول أعماله الباطنة والظاهرة . مثال ذلك : الصلاة ، فمن أقام الصلاة وحافظ عليها ، وأدى الزكاة كما أمره الله استلزم ذلك العمل بما يقدر عليه من الواجبات ، وترك جميع المحرمات ، كما قال تعالى (٢٩ : ٤٥) : ﴿ إن الصلاة تَنْهَى عن الفحشاء والمنكر ، ولَذِكْرُ الله أكبرُ ﴾ .

قال : (وقوله (٨ : ٦٤) : ﴿ يا أيها النبيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَن اتبعك من المؤمنين ﴾) قال ابن القيم - رحمه الله - : أى الله وحده كافيك وكافى أتباعَك ، فلا تحتاجون معه إلى أحد وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - .

وقيل : المعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون .

قال ابن القيم -رحمه الله-: وهذا خطأ محض لا يجوز حمل الآية عليه؛ فإن الحسب والكفاية

---

(١) تمامه عند ابن جرير : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ . يقول : تصديقاً ، ﴿ وعلى ربهم يتوكلون﴾، يقول: لا يرجون غيره » .

(٢) عند ابن جرير : هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية ، أحسبه قال : فينزع عنه .

وقوله (٦٥ : ٣) : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ .

لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة ، قال الله تعالى (٨ : ٦٢) : ﴿ وإن يريدوا أن يَخْدَعوك فإنَّ حَسْبَكَ الله ، هو الذى أَيَّدَكَ بِنَصْرِه وبالمؤمنين ﴾ ففرق بين الحسب والتأييد ، فجعل الحسب له وحده وجعل التأييد له بنصره وبعباده ، وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب ، فقال تعالى (٣ : ١٧٣) : ﴿ الذين قال لهم الناسُ إن الناسَ قد جمعوا لكم فَاخْشَوهُمْ ، فزادهم إيماناً ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ ولم يقولوا : حسبنا الله ورسوله ، ونظير هذا قوله سبحانه (٩ : ٥٩) : ﴿ وقالوا حسبنا الله سَيُؤْتينا الله من فضله ورسوله ، إنا إلى الله راغبون ﴾ فتأمل كيف جعل الإيتاء لله والرسول ، وجعل الحسب له وحده ، فلم يقل : وقالوا : حسبنا الله ورسوله ، بل جعله خالص حقه ، كما قال : ﴿ إنا إلى الله راغبون ﴾ ، فجعل الرغبة إليه وحده ، كما قال تعالى : ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده ، كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلف لا يكون إلا له ، سبحانه وتعالى . انتهى .

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة ، فإذا كان هو الكافى لعبده وجب ألا يتوكل إلا عليه ، ومتى التفت بقلبه إلى سواه وَكَلُه الله إلى من التفت إليه ، كما فى الحديث : « مَنْ تَعَلَّقَ شيئاً وُكِلَ إليه » .

قال : (وقول الله تعالى (٦٥ : ٣) : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾) .

قال ابن القيم رحمه الله وغيره : أي كافيه . ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذى لا بد منه ، كالحر والبرد والجوع والعطش : وأما أن يضره بما يبلغ به مراده منه فلا يكون أبداً ، وفرق بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء ، وفى الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذى يتشفى به منه ، قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته ، فقال : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ فلم يقل : فله كذا وكذا من الأجر ، كما قال فى الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافىَ عبدَه المتوكل عليه وحسبه وواقيه ، فلو توكل العبد على الله حق توكله ، وكادته السموات والأرض ومَن فيهن ، لجعلَ الله له مخرجاً ، وكفاه رزقه ونصره . انتهى .

وفى أثر رواه أحمد فى الزهد عن وهب بن منبه قال : « قال الله عز وجل فى بعض كتبه : بعزتى ، إنه من اعتصم بى فكادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن ، فإنى أجعل له من ذلك مخرجاً ، ومن لم يعتصم بى ، فإنى أقطع يديه من أسباب السماء ، وأخسف من تحت قدميه الأرض ، فأجعله فى الهواء ثم أكلُه إلى نفسه ، كفى بى لعبدى مآلاً ، إذا كان عبدى فى طاعتى أعطيه قبل أن يسألنى ، وأستجيب له قبل أن يدعونى ، فأنا أعلم بحاجته التى نرفق به منه » .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : «حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقِىَ فى النار ، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا له : (إنَّ الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل)» . رواه البخارى والنسائى .

وفى الآية : دليل على فضل التوكل ، وأنه أعظم الأسباب فى جلب المنافع ودفع المضار ؛ لأن الله تعالى علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط . فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه ؛ لأن الله تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له ، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حَسْباً له .

وفيها : تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل ، لأنه تعالى ذكر التقوى ، ثم ذكر التوكل ، كما قال تعالى (٥ : ١١) : ﴿ واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ فجعل التوكل مع التقوى الذى هو قيام بالأسباب المأمور بها ، فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض ، وإن كان مشوباً بنوع من التوكل ، فلا ينبغى للعبد أن يجعل توكله عجزاً، ولا عجزه توكلاً، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التى لا يتم المقصود إلا بها كلها. ذكره ابن القيم بمعناه.

قال : (وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها : إبراهيم ﷺ حين ألقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له : ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ رواه البخارى والنسائى .

قوله : (حسبنا الله) أي كافينا ، فلا نتوكل إلا عليه . قال تعالى (٣٩ : ٣٦) : ﴿أليس الله بكاف عبده ؟ ﴾ .

قوله : (ونعم الوكيل) أى نعم الموكول إليه ، كما قال تعالى (٢٢ : ٧٨): ﴿واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير ﴾ ومخصوص « نعم » محذوف تقديره « هو » .

قال ابن القيم - رحمه الله - : هو حسب من توكل عليه وكافى من لجأ إليه ، وهو الذى يُؤَمِّن خوف الخائف ، ويُجير المستجير ، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه ، وانقطع بكليته إليه ، تولاه وحفظه وحرسه وصانه ، ومن خافه واتقاه ، أمنه مما يخاف ويحذر ، ويجلب إليه ما يحتاج إليه من المنافع .

قوله : (قالها إبراهيم ﷺ حين ألقى فى النار) قال تعالى : (٢١ : ٦٨ - ٧٠) : ﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا : يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ .

قوله : (وقالها محمد ﷺ حين قالوا له : ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ ، وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أحد : «بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكَرَّة عليهم ، فخرج النبى ﷺ فى سبعين راكباً حتى انتهى إلى حمراء الأسد ، فألقى الله الرعب فى قلب أبى سفيان . فرجع إلى مكة بمن معه ، ومرّ به ركب من عبد القيس فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة . قال : فهل أنتم

فيه مسائل :

الأولى : أن التوكل من الفرائض .

الثانية : أنه من شروط الإيمان .

الثالثة : تفسير آية الأنفال .

الرابعة : تفسير الآية فى آخرها .

الخامسة : تفسير آية الطلاق .

السادسة : عظم شأن هذه الكلمة : أنها قول إبراهيم ومحمد ﷺ فى الشدائد .

* * *

باب

قول الله تعالى (٧ : ٩٩) : ﴿ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ .

مبلغون محمداً عنى رسالة ؟ قالوا : نعم . قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم . فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان . فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل » ، ففى هاتين القصتين فضل هذه الكلمة العظيمة ، وأنها قول الخليلين عليهما الصلاة والسلام فى الشدائد . وجاء فى الحديث : « إذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » .

قوله : (باب قول الله تعالى (٧ : ٩٩) : ﴿ أفأمنوا مكر الله ، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ .

قصد المصنف - رحمه الله - بهذه الآية التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب وأنه ينافى كمال التوحيد ، كما أن القنوط من رحمة الله كذلك . وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وأرشد إليه سلف الأمة والأئمة .

ومعنى الآية : أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذّبين للرسل بيّن أن الذى حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله وعدم الخوف منه ، كما قال تعالى (٧ : ٩٦ - ٩٨): ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ؟ أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضُحًى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ أي الهالكون، وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالسّراء والنِّعَم ، فاستبعدوا أن يكون ذلك مكراً .

قال الحسن - رحمه الله - : « من وسَّع الله عليه فلم يَرَ أنه يمكر به فلا رأى له » .

وقال قتادة : « بَغتَ القومَ أمرُ الله ، وما أخذ الله قوماً قطُّ إلا عند سَلْوتهم ونعمتهم وغِرَّتهم . فلا تغتروا بالله » .

وفي الحديث : «إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج» رواه أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم .

وقال إسماعيل بن رافع : « من الأمن من مكر الله : إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة » رواه ابن أبى حاتم .

وهذا هو تفسير المكر فى قول بعض السلف : « يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه ، ويملى لهم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر » ، وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك ، ذكره ابن جرير بمعناه .

قال : (وقول الله تعالى (١٥ : ٥٦) : ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ .

القنوط : استبعاد الفرج واليأس منه . وهو يقابل الأمن من مكر الله . وكلاهما ذنب عظيم وتقدم ما فيه لمنافاته لكمال التوحيد .

وذكر المصنف - رحمه الله تعالى - هذه الآية مع التى قبلها تنبيهاً على أنه لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته، بل يكون خائفاً راجياً، يخاف ذنوبه ويعمل بطاعته، ويرجو رحمته كما قال تعالى (٣٩ : ٩) : ﴿ أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يَحْذَرُ الآخرةَ ويرجو رحمة ربه ﴾ ، وقال (٢ : ٢١٨) : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ فالرجاء مع المعصية وترك الطاعة غرور من الشيطان : ليوقع العبد فى المخاوف مع ترك الأسباب المنجية من المهالك ، بخلاف حال أهل الإيمان الذين أخذوا بأسباب النجاة خوفاً من الله تعالى وهرباً من عقابه ، وطمعاً فى المغفرة ، ورجاء لثوابه.

والمعنى : أن الله تعالى حكى قول خليله إبراهيم - عليه السلام - ، لما بشَّرَته الملائكة بابنه إسحاق (١٥ : ٥٤) : ﴿ قال أبشّرتمونى على أنْ مَسَّنِىَ الكِبَرُ ، فبم تبشرون ؟ ﴾ لأن العادة أن الرجل إذا كبر سنه وسن زوجته استبعد أن يولد له منها . والله على كل شىء قدير ، فقالت الملائكة : ﴿ بشرناك بالحق ﴾ الذى لا ريب فيه ، فإن الله إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون ، ﴿ فلا تكن من القانطين ﴾ أى من الآيسين ، فقال عليه السلام : ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك وأعظم ؛ لكنه - والله أعلم - قال ذلك على وجه التعجب .

قوله : ﴿ إلا الضالون ﴾ قال بعضهم : إلا المخطئون طريق الصواب ، أو إلا الكافرون ، كقوله (١٢ : ٨٧) : ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ «سئل عن الكبائر؟ فقال: الشركُ بالله واليأسُ من روح الله ، والأمنُ من مكر الله » .

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « أكبر الكبائر : الإشراك بالله ، والأمن من مكرِ الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأسُ من رَوْحِ الله » رواه عبد الرزاق .

قوله : (وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ « سئل عن الكبائر ؟ قال: « الشرك بالله ، واليأس من روْح الله ، والأمنُ من مكر الله ») .

هذا الحديث رواه البزار وابن أبى حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس: ورجاله ثقات إلا شبيب بن بشر ، فقال ابن معين : ثقة ، ولَيَّنَه أبو حاتم ، وقال ابن كثير : فى إسناده نظر ، والأشبه أن يكون موقوفاً .

قوله : (الشرك بالله) هو أكبر الكبائر . قال ابن القيم رحمه الله : الشرك بالله هضْمٌ للربوبية ، وتنقُّصٌ للإلهية ، وسوء ظن برب العالمين . انتهى .

ولقد صدق ونصح . قال تعالى (٦ : ١) : ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ وقال تعالى (٣١ : ١٣) : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ولهذا لا يغفره الله إلا بالتوبة منه .

قوله : (واليأس من روح الله) أي قطع الرجاء والأمل من الله فيما يخافه ويرجوه ، وذلك إساءة ظن بالله ، وجهل به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته .

قوله : (والأمنُ من مكر الله) أى من استدراجه للعبد ، وسلبه ما أعطاه من الإيمان ، نعوذ بالله من ذلك ، وذلك جهل بالله وبقدرته ، وثقة بالنفس وعجب بها .

واعلم أن هذا الحديث لم يُرد به حَصْرَ الكبائر فى الثلاث ، بل الكبائر كثيرة وهذه الثلاث من أكبر الكبائر المذكورة فى الكتاب والسنة . وضابطها : ما قاله المحققون من العلماء : كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب . زاد شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : أو نفى الإيمان .

قلت : ومن برئ منه رسول الله ﷺ ، أو قال : « ليس منا من فعل كذا وكذا » .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - : « هى إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع ، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار » .

قوله : (وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « أكبر الكبائر : الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله » رواه عبد الرزاق) .

ورواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود - رضى الله عنه - .

قوله : (أكبر الكبائر : الإشراك بالله) أى فى ربوبيته أو عبادته . وهذا بالإجماع .

قوله : (والقنوط من رحمة الله) قال أبو السعادات : هو أشد اليأس .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الأعراف .

الثانية : تفسير آية الحِجْرِ .

الثالثة : شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله .

الرابعة : شدة الوعيد فى القنوط .

❊ ❊ ❊

باب (من الإيمان بالله : الصبر على أقدار الله)

وفيه : التنبيه على الرجاء والخوف ، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس ، بل يرجو رحمة الله . وكان السلف يستحبون أن يقوى فى الصحة الخوف ، وفى المرض الرجاء . وهذه طريقة أبى سليمان الدارانى وغيره . قال : وينبغى للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف ؛ فإذا غلب الرجاء الخوف فسد القلب . قال تعالى (٦٧ : ١٢) : ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ ، وقال (٢٤ : ٣٧) : ﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ ، وقال تعالى (٢٣ : ٦٠ ، ٦١) : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجِلَةٌ أنهم إلى ربهم راجعون❊ أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾ ، وقال تعالى (٣٩ : ٩) : ﴿أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه - الآية ﴾ . قدم الحذر على الرجاء فى هذه الآية . .

قوله : (باب من الإيمان بالله : الصبر على أقدار الله)

قال الإمام أحمد : ذكر الله تعالى الصبر فى تسعين موضعاً من كتابه . وفى الحديث الصحيح « الصبر ضياء » رواه أحمد ومسلم ، وللبخارى ومسلم مرفوعاً : « ما أُعْطِىَ أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » قال عمر - رضى الله عنه - : « وجدنا خير عيشنا بالصبر » رواه البخارى .

قال على - رضى الله عنه - : « إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد - ثم رفع صوته - فقال : ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له » .

واشتقاقه : من صبر إذا حبس ومنع . والصبر حبس النفس عن الجزع ، وحبس اللسان عن التشكى والتسخط ، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما . ذكره ابن القيم رحمه الله .

واعلم أن الصبر ثلاثة أقسام : صبر على ما أمر الله به ، وصبر عما نهى عنه ، وصبر على ما قدّره من المصائب .

وقوله تعالى (٦٤ : ١١) : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه، والله بكل شيء عليم ﴾ .

قال عَلْقمة : « هو الرجلُ تصيبه المصيبة فيعلمُ أنها من عند الله ، فيرضى ويسلم » .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « اثنتان فى الناس هُمَا بهم كفرٌ :

قوله : (وقول الله تعالى (٦٤ : ١١) : ﴿ ومن يؤمن بالله يَهْدِ قلبه ﴾) .

وأول الآية : ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ﴾ أي بمشيئته وإرادته وحكمته ، كما قال فى الآية الأخرى (٥٧ : ٢٢) : ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير ﴾ ، وقال (٢ : ١٥٥ - ١٥٧) : ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ .

قوله : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ قال ابن عباس فى قوله ﴿ إلا بإذن الله ﴾ : « إلا بأمر الله » يعنى عن قدره ومشيئته ، ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ أى من أصابته مصيبة فعلم أنها بقدر الله فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا هدًى فى قلبه . ويقيناً صادقاً ، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه .

قوله : ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته. وذلك يوجب الصبر والرضا .

قوله: (قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى ويسلم»).

هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبى حاتم .

وعلقمة : هو ابن قيس بن عبد الله النخعى الكوفى . ولد فى حياة النبى ﷺ ، وسمع من أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم - رضى الله عنهم - . وهو من كبار التابعين وأجلائهم وعلمائهم وثقاتهم . مات بعد الستين .

قوله : (هو الرجل تصيبه المصيبة - إلخ) هذا الأثر رواه الأعمش عن أبى ظبيان . قال : « كنا عند علقمة فقرئ عليه هذه الآية : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ قال : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم » هذا سياق ابن جرير .

وفى هذا دليل على أن الأعمال من مسمى الإيمان . قال سعيد بن جبير : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ يعنى يسترجع . يقول : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ . وفى الآية : بيان أن الصبر سبب لهداية القلوب ، وأنها من ثواب الصابرين .

قوله : (وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال : «اثنتان فى الناس هما بهم كفر : الطعن فى النسب ، والنياحة على الميت ») .

أى : هما بالناس كفر حيث كانتا من أعمال الجاهلية ، وهما قائمتان بالناس ولا يسلم

الطعنُ فى النَّسب ، والنياحة على الميت » .

ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً : « ليس مِنَّا من ضرب الخدود ، وشقَّ الجيوب ، ودعا بدَعْوَي الجاهلية » .

منهما إلا من سلمه الله تعالى ، ورزقه علماً وإيماناً يستضئ به . لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً كالكفر المطلق . كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمناً الإيمان المطلق . وفرق بين الكفر المعرف باللام كما فى قوله : « ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة » [1] وبين كفر منكّر فى الإثبات .

قوله: (الطعن فى النسب) أى عيبه ، يدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه .

قوله : (والنياحة على الميت) أى رفع الصوت بالندب ، وتعداد فضائل الميت ؛ لما فيه من التسخط على القدر المنافى للصبر ، كقول النائحة : واعضداه ، واناصراه ، ونحو ذلك .

وفيه : دليل على أن الصبر واجب ، وأن من الكفر ما لا ينقل عن الملة .

قوله : (ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً : « ليس مِنَّا من ضرب الخدود ، وشقَّ الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية ») .

هذا من نصوص الوعيد . وقد جاء عن سفيان الثورى وأحمد كراهية تأويلها ؛ ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ ، فى الزجر ، وهو يدل على أن ذلك ينافى كمال الإيمان الواجب .

قوله : (من ضرب الخدود) وقال الحافظ : خُص الخد لكونه الغالب ، وإلا فضرْب بقية الوجه مثله .

قوله : (وشق الجيوب) هو الذى يدخل فيه الرأس من الثوب ، وذلك من عادة أهل الجاهلية حزناً على الميت .

قوله : (ودعا بدعوى الجاهلية) قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - : هو ندب الميت . وقال غيره: هو الدعاء بالويل والثبور . وقال ابن القيم - رحمه الله - : الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية ، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ ، وتفضيل بعضهم على بعض ، يدعو إلى ذلك ، ويوالى عليه ويعادى . فكل هذا من دعوى الجاهلية .

وعند ابن ماجه وصححه ابن حبان عن أبى أمامة « أن رسول الله ﷺ لعن الخامشة وجهها، والشاقة جيبها ، والداعية بالويل والثبور » .

وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر ، وقد يعفى عن الشىء اليسير من ذلك إذا كان

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى عن جابر بن عبد الله بألفاظ متقاربة .

وعن أنس - رضى الله عنه - : أن رسولَ الله ﷺ قال : « إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّلَ له العقوبة فى الدنيا ،

صدقاً ، وليس على وجه النوح والتسخط ، نص عليه أحمد - رحمه الله - ؛ لما وقع لأبى بكر وفاطمة - رضى الله عنهما - لما توفى رسول الله ﷺ .

وليس فى هذه الأحاديث ما يدل على النهى عن البكاء ؛ لما فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ لما مات ابنه إبراهيم قال : « تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون » [1] ، وفى الصحيحين عن أسامة بن زيد - رضى الله عنه - : «أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته [2] ولها صبى فى الموت ، فرُفع إليه ونفسه تَقَعْقَع كأنها شَنّ، ففاضت عيناه ، فقال سعد : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » .

قوله : (وعن أنس - رضى الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال: « إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّل له العقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة») .

هذا الحديث رواه الترمذى والحاكم ، وحسنه الترمذى ، وأخرجه الطبرانى والحاكم عن عبد الله بن مغفل ، وأخرجه ابن عَدى عن أبى هريرة ، والطبرانى عن عمار بن ياسر .

قوله : (إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا) أى يصب عليه البلاء والمصائب لما فرط من الذنوب منه ، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافى به يوم القيامة .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - : المصائب نعمة ؛ لأنها مكفرات للذنوب ، وتدعو إلى الصبر فيثاب عليها . وتقتضى الإنابة إلى الله والذل له ، والإعراض عن الخلق ، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة ، فنفس البلاء يكفر الله به الذنوب والخطايا ، وهذا من أعظم النعم. فالمصائب رحمة ونعمة فى حق عموم الخلق ، إلا أن يدخل صاحبها بسببها فى معاصى أعظم مما كان قبل ذلك فيكون شراً عليه من جهة ما أصابه فى دينه ، فإن من الناس من إذا ابتلى بفقر أو مرض أو وجع حصل له من النفاق والْجزع ومرض القلب والكفر الظاهر وترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له الضرر فى دينه ، فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة ، لا من جهة نفس المصيبة ، كما أن من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة كانت فى حقه نعمة دينية ، فهى بعينها فعل الرب عز وجل ورحمة للخلق . والله تعالى محمود عليها . فمن ابتلى فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة فى دينه ، وحصل له بعد ما كفّر من خطاياه رحمة ، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه ، قال تعالى (٢ : ١٥٧) :

---

(١) رواه البخارى وغيره . (٢) هى زينب كما فى صحيح البخارى .

وإذا أراد بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه حتى يُوافى به يوم القيامة » .

وقال ﷺ: « إن عِظَم الجزاء مع عظَم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم ،

﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات . فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك . انتهى ملخصاً .

قوله : (وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه) أى أخّر عنه العقوبة بذنبه « حتى يوافى به يوم القيامة » وهو بضم الياء وكسر الفاء منصوباً بحتى مبنياً للفاعل . قال العزيزي : أي لا يجازيه بذنبه فى الدنيا حتى يجيء فى الآخرة مستوفر الذنوب وافيها ، فيستوفى ما يستحقه من العقاب . وهذه الجملة هى آخر الحديث . فأما قوله : وقال النبى ﷺ : « إن عِظم الْجزاء مع عظم البلاء » إلى آخره ، فهو أول حديث آخر ، لكن لما رواهما الترمذى بإسناد واحد وصحابى واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد .

وفيه : التنبيه على حسن الرجاء وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك ، كما قال تعالى (٢ : ٢١٦) : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

قوله : (وقال النبى ﷺ : « إن عظم الْجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ؛ فمن رضى فله الرضى ، ومن سخط فله السخط » . حسنه الترمذى) .

قال الترمذى : حدثنا قتيبة ، حدثنا الليث عن يزيد بن أبى حبيب عن سعد بن سنان عن أنس ، فذكر الحديث السابق ثم قال : وبهذا الإسناد عن النبى ﷺ أنه قال : « إن عظم الْجزاء - الحديث » ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . ورواه ابن ماجه ، وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد رفعه : « إذا أحب الله قوماً ابتلاهم ، فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع » قال المنذرى : رواته ثقات .

قوله : (إن عظم الجزاء) بكسر العين وفتح الظاء فيها ، ويجوز ضمها مع سكون الظاء . أى : من كان ابتلاؤه أعظم كمية وكيفية .

وقد يحتج بهذا الحديث من يقول : إن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا ، ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط ، إلا إذا كانت سبباً لعمل صالح ، كالصبر والرضا والتوبة والاستغفار ، فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها ، وعلى هذا يقال فى معنى الحديث : إن عظم الجزاء مع عظم البلاء إذا صبر واحتسب .

قوله : (وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم) ، ولهذا ورد فى حديث سعد : « سئل النبى ﷺ : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ؛ يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقّة ابتلى على قدر دينه ،

فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » حسنه الترمذى .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية التَّغابن .

الثانية : أن هذا من الإيمان بالله .

فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » رواه الدارمى وابن ماجه والترمذى وصححه .

وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد ، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء فى أنفسهم الذى هو فى الحقيقة رحمة ، ولا يدفعه عنهم إلا الله ، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا دفعاً ، فلأن لا يملكوه لغيرهم أولى وأحرى ، فيحرم قصدهم والرغبة إليهم فى قضاء حاجة أو تفريج كربة ، وفى وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة ما لا يحصى .

قوله : (فمن رضى فله الرضا) أي من الله تعالى . والرضا قد وصف الله تعالى به نفسه فى مواضع من كتابه ، كقوله تعالى (٩٨ : ٨) : ﴿ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ ومذهب السلف وأتباعهم من أهل السنة : إثبات الصفات التى وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسول الله ﷺ على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل . فإذا رضى الله تعالى عنه حصل له كل خير ، وسلم من كل شر ، والرضا : هو أن يسلم العبد أمره إلى الله ، ويحسن الظن به ، ويرغب فى ثوابه . وقد يجد لذلك راحة وانبساطاً ؛ محبة لله وثقة به ، كما قال ابن مسعود - رضى الله عنه - : « إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح فى اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط .

قوله : (ومن سخط) وهو بكسر الخاء . قال أبو السعادات : السخط الكراهية للشىء وعدم الرضا به ، أي من سخط على الله فيما دبره فله السخط ، أى من الله ، وكفى بذلك عقوبة . وقد يستدل به على وجوب الرضا . وهو اختيار ابن عقيل ، واختار القاضى عدم الوجوب ، ورجحه شيخ الإسلام وابن القيم .

قال شيخ الإسلام : ولم يجىء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر ، وإنما جاء الثناء على أصحابه . قال : وأما ما يروى « من لم يصبر على بلائى ولم يرض بقضائى فليتخذ رباً سوائى » ، فهذا إسرائيلى ، لم يصح عن النبى ﷺ .

قال شيخ الإسلام : وأعلى من ذلك - أي من الرضا - أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها . ا هـ والله أعلم .

الثالثة : الطعن فى النسب .

الرابعة : شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية .

الخامسة : علامة إرادة الله بعبده الخير .

السادسة : إرادة الله به الشر .

السابعة : علامة حب الله للعبد .

الثامنة : تحريم السخط .

التاسعة : ثواب الرضا بالبلاء .

* * *

باب (ما جاء فى الرياء)

وقول الله تعالى (١٨ : ١١٠) : ﴿ قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحَى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعباده ربه أحداً ﴾ .

قوله : (باب ما جاء فى الرياء)

أى : من النهى والتحذير . قال الحافظ : هو مشتق من الرؤية والمراد به : إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها . والفرق بينه وبين السمعة : أن الرياء لما يُرى من العمل كالصلاة والسمعة لما يُسمع كالقراءة والوعظ والذكر، ويدخل فى ذلك التحدث بما عمله.

قوله (وقول الله تعالى (١٨ : ١١٠) : ﴿ قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾ أى : ليس لى من الربوبية ولا من الإلهية شىء ، بل ذلك كله لله وحده لا شريك له ، أوحاه إلىّ ، ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ أى : يخافه ، ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ .

قوله : ﴿ أحداً ﴾ نكرة فى سياق النهى تعم ، وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة والصالحين والأولياء وغيرهم .

قال شيخ الإسلام – رحمه الله –: أما اللقاء: فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة ، وقالوا : لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى يوم القيامة ، وذكر الأدلة على ذلك .

قال ابن القيم – رحمه الله تعالى – فى الآية : أى كما أن الله واحد لا إله سواه ، فكذلك ينبغى أن تكون العبادة له وحده لا شريك له – فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية ، فالعمل الصالح : هو الخالص من الرياء المقيدُ بالسنة .

وفى الآية دليل على أن أصل الدين الذى بعث الله به رسوله ﷺ والمرسلين قبله ، هو إفراده

وعن أبى هريرة مرفوعاً : « قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى تركتُه وشِرْكَه » رواه مسلم .

تعالى بأنواع العبادة ، كما قال تعالى (٢١ : ٢٥) : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه : أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ والمخالف لهذا الأصل من هذه الأمة أقسام : إما طاغوت ينازع الله فى ربوبيته وإلهيته ، ويدعو الناس إلى عبادته ، أو طاغوت يدعو الناس إلى عبادة الأوثان ، أو مشرك يدعو غير الله ويتقرب إليه بأنواع العبادة أو بعضها ، أو شاك فى التوحيد: أهو حق ، أم يجوز أن يجعل لله شريك فى عبادته ؟ أو جاهل يعتقد أن الشرك دين يقرب إلى الله ، وهذا هو الغالب على أكثر العوام لجهلهم وتقليدهم من قَبلهم ؛ لما اشتدت غُرْبَةُ الدين ونسى العلم بدين المرسلين .

قوله : (وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - مرفوعاً : « قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه » رواه مسلم) .

قوله : (من عمل عملاً أشرك فيه غيرى) أي من قصد بعمله غيرى من المخلوقين تركته وشركه . ولابن ماجه « فأنا منه برئ وهو للذى أشرك » قال الطيبى : الضمير المنصوب فى قوله : « تركته » يجوز أن يرجع إلى العمل .

قال ابن رجب - رحمه الله - [1] : واعلم أن العمل لغير الله أقسام : فتارة يكون رياء محضاً كحال المنافقين ، كما قال تعالى (٤ : ١٤٢) : ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسَالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾ وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن فى فرض الصلاة والصيام . وقد يصدر فى الصدقة أو الحج الواجب أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التى يتعدى نفعها ؛ فإن الإخلاص فيها عزيز ، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط ، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة .

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء ، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه - وذكر أحاديث تدل على ذلك . منها : هذا الحديث ، وحديث شَدَّاد بن أوس مرفوعاً « من صلى يُرائى فقد أشرك ، ومن صام يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك ، وإن الله عز وجل يقول : أنا خير قسيم لمن أشرك بى ، فمن أشرك بى شيئاً فإن جَده وعمله وقليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به ، وأنا عنه غنى » رواه أحمد ، وذكر أحاديث فى المعنى، ثم قال : فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء ، مثل أخذ أجرة للخدمة أو أخذ شىء من الغنيمة أو التجارة ، نقص بذلك أجر جهاده ، ولم يبطل بالكلية .

قال ابن رجب: وقال الإمام أحمد - رحمه الله -: التاجر والمستأجر والمكرى أجرهم على قدر ما يخلص من نياتهم فى غزواتهم ، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره.

---

(١) فى شرح حديث « إنما الأعمال بالنيات » من جامع العلوم والحكم .

وعن أبى سعيد مرفوعاً : « ألا أُخبرُكم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح الدّجال ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : الشرك الخفى ، يقوم الرجل فيصلى فيُزين صلاته ، لما يرى من نظرِ رجل » رواه أحمد .

وقال أيضاً فيمن يأخذ جُعل الجهاد : إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس ، كأنه خرج لدينه إن أعطى شيئاً أخذه . وروى عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : « إذا أجمع أحدكم على الغزو فعوضه الله رزقاً فلا بأس بذلك ، وأما إن كان أحدكم إن أعطى دراهم غزا وإن لم يعط لم يغز ، فلا خير فى ذلك » ، وروى عن مجاهد رحمه الله : أنه قال فى حج الجمّال وحج الأجير ، وحج التاجر : « هو تام لا ينقص من أجرهم شيء » أى لأن قصدهم الأصلى كان هو الحج ، دون التكسب . قال : وأما إن كان أصل العمل لله ، ثم طرأ عليه نية الرياء : فإن كان خاطراً ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف ، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا ، فيجازى على أصل نيته ؟ فى ذلك اختلاف بين العلماء من السلف ، قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير ، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك ، وأنه يُجازَى بنيته الأولى ، وهو مروى عن الحسن وغيره . وفى هذا المعنى جاء حديث أبى ذرّ عن النبى ﷺ : « أنه سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه ، فقال : تلك عاجل بشرى المؤمن » رواه مسلم . انتهى ملخصاً .

قلت : وتمام هذا المقام يتبين فى شرح حديث أبى سعيد إن شاء الله تعالى .

قوله : (وعن أبى سعيد - رضى الله عنه - مرفوعاً : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح الدجال ؟ قالوا : بلى ، قال : الشرك الخفى ، يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل » رواه أحمد) .

وروى ابن خزيمة فى صحيحه عن محمد بن لَبيد قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : أيها الناس ، إياكم وشِرْك السرائر ، قالوا : يا رسول الله وما شرك السرائر ؟ قال : يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه . فذلك شِرْك السرائر » .

قوله : (عن أبى سعيد الخدرى) تقدم .

قوله : (الشرك الخفى) سماه خفياً لأن صاحبه يظهر أن عمله لله وقد قصد به غيره ، وأشركه فيه بتزيين صلاته لأجله ، وعن شداد بن أوس قال : « كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر » رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخلاص ، وابن جرير فى التهذيب ، والطبرانى والحاكم وصححه .

قال ابن القيم : وأما الشرك الأصغر ، فكيسير الرياء ، والتصنع للخلق ، والحلف بغير الله وقول الرجل للرجل : ما شاء الله وشئت ، وهذا من الله ومنك ، وأنا بالله وبك ، ومالى إلا

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الكهف .

الثانية : الأمر العظيم فى رد العمل الصالح إذا دخله شىء لغير الله .

الثالثة : ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى .

الرابعة : أن من الأسباب : أنه تعالى خير الشركاء .

الخامسة : خوف النبى ﷺ على أصحابه من الرياء .

السادسة : أنه فسر ذلك بأن يصلى المرء لله ، لكن يُزيّنها لما يرى من نظر رجل إليه.

* * *

باب (من الشرك : إرادة الإنسان بعمله الدنيا)

الله وأنت ، وأنا متوكل على الله وعليك ، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا . وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب حال قائله ومقصده . انتهى .

ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله ، وكذلك المتابعة ، كما قال الفضيل ابن عياض رحمه الله فى قوله تعالى (٦٧ : ٢) : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ قال : «أيكم أخلصه وأصوبه ، قيل : يا أبا على ، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً فالخالص ما كان لله ، والصواب ما كان على السنة » .

وفى الحديث من الفوائد : شفقة النبى ﷺ على أمته ونصحه لهم ، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال ، فإذا كان النبى ﷺ يخافه على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم ، فغيرهم ممن هو دونهم بأضعاف أولى بالخوف من الشرك ، أصغره وأكبره .

قوله : (باب من الشرك : إرادة الإنسان بعمله الدنيا)

فإن قيل : فما الفرق بين هذه الترجمة وبين ترجمة الباب قبله ؟

قلت : بينهما عموم وخصوص مطلق ، يجتمعان فى مادة ، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس والتصنع لهم والثناء ، فهذا رياء كما تقدم بيانه ، كحال المنافقين . وهو أيضاً إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس ، وطلب المدحة منهم والإكرام . ويفارقه الرياء بكونه عمل عملاً صالحاً ، أراد به عرضاً من الدنيا ، كمن يجاهد ليأخذ مالاً ، كما فى الحديث : « تعس عبدُ الدينار » أو يجاهد للمغنم أو غير ذلك من الأمور التى ذكرها شيخنا عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وغيره من المفسرين فى معنى قوله تعالى (١١ : ١٥) : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴾ .

وقوله تعالى (١١ : ١٥، ١٦) : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نُوَفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون ، أُولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النارُ وحبط ما صنعوا فيها ، وباطلٌ ما كانوا يعملون ﴾ .

وأراد المصنف - رحمه الله - بهذه الترجمة وما بعدها : أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافى كمال التوحيد الواجب ، ويحبط الأعمال ، وهو أعظم من الرياء ؛ لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله ، وأما الرياء فقد يعرض له فى عمل دون عمل ، ولا يسترسل معه ، والمؤمن يكون حذراً من هذا وهذا .

قال : (وقوله تعالى (١١ : ١٥ ، ١٦) : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كان يعلمون ﴾) .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما-: ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا ﴾ أى ثوابها، وزينتها» أى مالها ﴿ نوف ،﴾أي نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور فى المال والأهل والولد ﴿ وهم فيها لا يبخسون ﴾ لا ينقصون ، ثم نسختها (١٧ : ١٨ ، ١٩) : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ الآيتين » رواه النحاس فى ناسخه .

قوله : « ثم نسختها » أي قيدتها ، فلم تبق الآية على إطلاقها [1] .

وقال قتادة : « من كانت الدنيا همه وطلبته ونيته جازاه الله بحسناته فى الدنيا ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء ، وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة » ذكره ابن جرير بسنده ، ثم ساق حديث أبى هريرة عن ابن المبارك عن حَيوة بن شريح قال : حدثنى الوليد بن أبى الوليد أبو عثمان أن عُقبة بن مسلم حدثه أن شُفَيَّ بن ماتع الأصبحى حدثه : « أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : أبو هريرة ، قال : فدنوت منه حتى قعدت بين يديه ، وهو يحدث الناس . فلما سكت وخلا . قلت : أنشُدك بحقٍّ وبحقٍّ لما حدثتنى حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عَقَلْته وعلمته . قال : فقال أبو هريرة : أفعل ، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ فى هذا

---

(١) من العجيب جداً دعوى النسخ [*] ، فإن الآيتين فى معنى واحد . وتفسير النسخ بتقييد مطلقها - يعنى بالمشيئة - كذلك غير واضح ، والظاهر أنها تثبت رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(*) قوله : (من العجيب جداً دعوى النسخ) إلخ . أقول : ليس فى ذلك ما يتعجب منه ، لأن معنى النسخ عند السلف أوسع من معناه عند الفقهاء ، لأن السلف يطلقون النسخ على تقييد المطلق وتخصيص العام لكونهما غير المعنى المفهوم من النص المطلق والنص العام ، ومعلوم أن آية هود مطلقة ظاهرها أن مريد الدنيا بأعمال يعطى مراده ، وآية الإسراء بينت أنه لا يعطى من ذلك إلا ما شاء الله وإن ذلك أيضاً لا يحصل إلا لمن أراده الله ، فاتضح من ذلك أن طالب الدنيا بأعماله قد يعطى مراده إذا شاء الله ذلك ، وقد يعمل ولا يحصل له ما أراد ، لأن الله سبحانه لم يشأ ذلك ، وهذا واضح جداً ، والله أعلم .

البيت ما فيه أحد غيرى وغيره ، ثم نَشَغ أبو هريرة نَشْغَة [(١)] ، ثم أفاق فقال : لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ فى هذا البيت ما فيه أحد غيرى وغيره ، ثم نَشغ أبو هريرة نَشْغة أخرى ثم مال خاراً على وجهه ، واشتد به طويلاً ، ثم أفاق فقال : حدثنى رسول الله ﷺ : « إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى القيامة ليقضى بينهم وكلُّ أمَّة جاثية ، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل قُتل فى سبيل الله ، ورجل كثير المال ، فيقول الله تبارك وتعالى للقارئ : ألم أعلمك ما أنزلتُ على رسولى ؟ قال: بلى يا رب . قال : فماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار . فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان قارىء ، فقد قيل ذلك ، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له : ألم أوسّع عليك حتى لم أدَعْك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى يا رب ، قال : فما عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم وأتصدق ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان جواد ، فقد قيل ذلك . ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقال له : فبماذا قتلت؟ فيقول : أُمرتُ بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال : فلان جرىء ، فقد قيل ذلك ، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتى، فقال : يا أبا هريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعّر بهم النار يوم القيامة » [(٢)] .

وقد سئل شيخنا المصنف - رحمه الله - عن هذه الاية فأجاب بما حاصله : ذكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم ، ولا يعرفون معناه .

فمن ذلك : العمل الصالح الذى يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله : من صدقة وصلاة، وصلة وإحسان إلى الناس ، وترك ظلم ، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصاً لله ، لكنه لا يريد ثوابه فى الآخرة ، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته ، أو حفظ أهله وعياله ، أو إدامة النعمة عليهم ، ولا همة له فى طلب الجنة والهرب من النار ، فهذا يعطى ثواب عمله فى الدنيا وليس له فى الآخرة من نصيب. وهذا النوع ذكره ابن عباس.

---

(١) نشغ : بفتح النون والشين المعجمة وبعدها غين معجمة ؛ أى شهق حتى كاد يغشى عليه أسفاً وخوفاً .

(٢) تمام الحديث عند ابن جرير وغيره ، قال أبو عثمان الوليد : فأخبرنى عقبة أن شفياً هو الذى دخل على معاوية فأخبره بهذا . قال أبو عثمان : وحدثنى العلاء بن أبى حكيم : أنه كان سيافاً لمعاوية - قال : فدخل عليه رجل فحدثه بهذا عن أبى هريرة ، فقال معاوية : وقد فعل بهؤلاء هذا ؟ فكيف بمن بقى من الناس ؟ ثم بكى معاوية بكاء شديداً حتى ظننا أنه هلك ، وقلنا : قد جاء هذا الرجل بشر . ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه فقال : صدق الله ورسوله : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ قال المنذرى : ورواه ابن خزيمة فى صحيحه .

النوع الثانى : وهو أكبر من الأول وأخوف ؛ وهو الذي ذكره مجاهد فى الآية : أنها نزلت فيه : وهو أن يعمل أعمالاً صالحة ونيته رياء الناس ، لا طلب ثواب الآخرة .

النوع الثالث : أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً ، مثل أن يحج لمال يأخذه أو يهاجر لدنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، أو يجاهد لأجل المغنم ، فقد ذكر أيضاً هذا النوع فى تفسير هذه الآية ، وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم ، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد ، كما هو واقع كثيراً .

النوع الرابع : أن يعمل بطاعة الله مخلصاً فى ذلك لله وحده لا شريك له ، ولكنه على عمل يكفّره كفراً يخرجه عن الإسلام ، مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله ، أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية ، إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله فى الدار الآخرة ، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم ، فهذا النوع أيضاً قد ذكر فى هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره ، وكان السلف يخافون منها ، قال بعضهم : لو أعلم أن الله تقبل منى سجدة واحدة لتمنيت الموت لأن الله تعالى يقول (٥ : ٢٧) : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ .

ثم قال : بقى أن يقال : إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله ، طالباً ثواب الآخرة ، ثم بعد ذلك عمل أعمالاً قاصداً بها الدنيا ، مثل أن يحج فرضه لله ، ثم يحج بعده لأجل الدنيا كما هو واقع ، فهو لما غلب عليه منهما . وقد قال بعضهم : القرآن كثيراً ما يذكر أهل الجنة الخلص وأهل النار الخلص ، ويسكت عن صاحب الشائبتين ، وهو هذا وأمثاله . ا هـ .

قوله : (فى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : أن رسول الله ﷺ قال : «تَعِس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخَميصة ، تعس عبد الخَميلة ، إن أُعطى رضِى ، وإن لم يُعط سخط ، تعس وانتُكس ، وإذا شيك فلا انتُقش . طُوبى لعبد أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، أشعث رأسه ، مُغبَّرة قدماه ، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وإن كان فى الساقة كان فى الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شَفَع لم يشفَّع .

قوله : (فى الصحيح) أى صحيح البخارى .

قوله : (تعس) هو بكسر العين ويجوز الفتح ، أى سقط ، والمراد هنا : هلك ، قاله الحافظ . وقال فى موضع آخر : وهو ضد سَعد : أى شقى . وقال أبو السعادات : يقال تعس يتعس : إذا عثَر وانكب لوجهه ، وهو دعاء عليه بالهلاك .

قوله : (عبد الدينار) هو المعروف من الذهب كالمثقال فى الوزن .

الدينار ، تَعِسَ عبد الدرهم ، تَعِسَ عبدُ الخميصة ، تعس عبدُ الخميلة ، إن أعطَى رضيَ، وإن لم يُعط سَخِط ، تعِسَ وانْتُكِسَ ، وإذا شِيْك فلا انْتُقِشَ .

قوله : (تعس عبد الدرهم) وهو من الفضة ، قدره الفقهاء بالشعير وزناً ، وعندنا منه درهم من ضرب بنى أُمية وهو زنة خمسين حبة شعير وخُمسا حبة ، سماه عبداً له ؛ لكونه هو المقصود بعمله ، فكل من توجه بقصده لغير الله فقد جعله شريكاً له فى عبوديته كما هو حال الأكثر .

قوله : (تعس عبد الخميصة) قال أبو السعادات : هى ثوب خَزٍّ أو صوف معلَّم ، وقيل : لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء مُعلَّمة ، وتُجمع على خمائص . والخميلة - بفتح الخاء المعجمة - وقال أبو السعادات : ذات الخمل - ثياب لها خمَل من أى شىء كان .

قوله : (تعس وانتكس) قال الحافظ : هو بالمهملة ، أى عاوده المرض . وقال أبو السعادات : أى انقلب على رأسه ، وهو دعاء عليه بالخيبة . قال الطيبى : فيه الترقى بالدعاء عليه ؛ لأنه إذا تعس انكبّ على وجهه ، وإذا انتُكِس انقلب على رأسه بعد أن سقط .

قوله : (وإذا شيك) أى أصابته شوكة ، ﴿ فلا انتقش ﴾ أى فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش ، قاله أبو السعادات .

والمراد : أن من كانت هذه حاله فإنه يستحق أن يدعى عليه بما يسوءه فى العواقب ، ومن كانت هذه حاله فلا بد أن يجد أثر هذه الدعوات فى الوقوع فيما يضره فى عاجل دنياه وآجل أخره .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : فسماه النبى ﷺ عبد الدينار والدرهم وعبد القطيفة وعبد الخميصة . وذكر فيه ما هو دعاء بلفظ الخبر ، وهو قوله : « تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش » ، وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح ؛ لكونه تعس وانتكس ، فلا نال المطلوب ، ولا خلص من المكروه ، وهذه حال من عبد المال . وقد وصف ذلك بأنه « إن أعطى رضى ، وإن مُنِعَ سَخِط » ، كما قال تعالى (٩ : ٥٨) : ﴿ ومنهم من يَلْمِزُكَ فى الصدقات ، فإن أعطوا منها رَضوا ، وإن لم يُعْطَوْا منها إذا هم يَسْخَطون ﴾ فرضاؤهم لغير الله وسخطهم لغير الله ، وهكذا حال من كان متعلقاً منها برياسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه ، إن حصل له رضى ، وإن لم يحصل له سخط ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له ؛ إذ الرق والعبودية فى الحقيقة هو رِقُّ القلب وعبوديته ، فما استرقَ القلب واستعبده فهو عبده - إلى أن قال :

وهكذا أيضاً طالب المال ، فإن ذلك يستعبده ويسترقه ، وهذه الأمور نوعان .

فمنها : ما يحتاج إليه العبد ، كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك ؛

فهذا يطلب من الله ويرغب إليه فيه ، فيكون المال عنده يستعمله فى حاجته بمنزلة حماره الذى يركبه ، وبساطه الذى يجلس عليه ، من غير أن يستعبده فيكون هلوعاً .

ومنها : ما لا يحتاج إليه العبد ، فهذا ينبغى أن لا يعلق قلبه بها ؛ فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها ، وربما صار مستعبداً ومعتمداً على غير الله فيها ، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله ولا حقيقة التوكل عليه ، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله ، وشعبة من التوكل على غير الله ، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميلة » ، وهذا هو عبد لهذه الأمور ، ولو طلبها من الله ، فإن الله إذا أعطاه إياها رضى ، وإن منعه إياها سخط ، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله ، ويسخطه ما يسخط ، ويُحبُّ ما أحبه الله ورسوله ، ويبغض ما أبغض الله ورسوله ، ويوالى أولياء الله ويعادى أعداء الله ، فهذا الذى استكمل الإيمان ، انتهى ملخصاً .

قوله : (طوبى لعبد) قال أبو السعادات : « طوبى » اسم الجنة ، وقيل : هى شجرة فيها ويؤيد هذا ما روى ابن وهب بسنده عن أبى سعيد قال : « قال رجل : يا رسول الله ، وما طوبى ؟ قال : شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » ، ورواه الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى سمعت عبد الله بن لهيعة ، حدثنا درَّاج أبو السمح : أن أبا الهيثم [1] حدثه عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ : « إن رجلاً قال : يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك ، قال : طوبى لمن رآنى وآمن بى ، وطوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى . قال له رجل : وما طوبى ؟ قال : شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » وله شواهد فى الصحيحين وغيرهما ، وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه ههنا أثراً غريباً عجيباً ، قال وهب رحمه الله : « إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها : زَهْرها رياط ، وورقها بُرود [2] ، وقضبانها عَنْبر ، وبطحاؤها ياقوت ، وترابها كافور ، وَوَحْلها مسك ، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل ، وهى مجلس لأهل الجنة ، فبينما هم فى مجلسهم إذ أتتهم الملائكة من ربهم يقودون نُجُباً مزمومة بسلاسل من ذهب ، وجوهها كالمصابيح من حسنها ، ووبَرها كخز

(١) ابن لهيعة وأبو الهيثم ضعيفان ، كما صرح بذلك الإمامان أحمد وأبو داود . وقد روى البخارى ومسلم من حديث سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها » .

(٢) الرياط : جمع ريطة - بفتح الراء المهملة - ثوب كالملاءة . قيل : كل ثوب رقيق لين . والبرد : كالعباءة[*] .

(*) قوله : (والبرد كالعباءة) فيه نظر ، والصواب أن البرد لا يشبه العباءة ، بل هو نوع آخر ، قال فى القاموس ما نصه : « البرد بالضم ثوب مخطط جمعه أبراد وأبرد وبرود : وأكسية يلتحف بها الواحدة بالهاء) انتهى .

المرعِزَّى من لينه ، عليها رحال ألواحها من ياقوت ، ودفوفها من ذهب ، وثيابها من سندس واستبرق ، فينيخونها ويقولون : إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه ، قال : فيركبونها قال : فهى أسرع من الطائر ، وأوطأ من الفراش ، خبا من غير مِهنة ، يسير الراكب إلى جنب أخيه ، وهو يكلمه ويناجيه ، لا تصيب أُذن راحلة منها أُذن صاحبتها ، ولا برك راحلة بَرك صاحبتها ، حتى إن الشجرة لتنتحى عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه . قال : فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه ، فإذا رأوه قالوا : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، وحق لك الجلال والإكرام ، قال : فيقول تبارك وتعالى عند ذلك ، أنا السلام ومنى السلام ، وعليكم حقت رحمتى ومحبتى ، مرحباً بعبادى الذين خشونى بالغيب وأطاعوا أمرى ، قال : فيقولون : ربنا إنا لم نعبدك حق عبادتك ولم نقدرك حق قدرك ، فائذن لنا بالسجود قدامك ، قال : فيقول الله : إنها ليست بدار نَصَب ولا عبادة، ولكنها دار ملك ونعيم ، وإنى قد رفعت عنكم نَصَب العبادة ، فسلونى ما شئتم ، بأن لكل رجل منكم أمنيته ، فيسألونه ، حتى إن أقصرهم أمنية ليقول : ربى ، تنافس أهل الدنيا فى دنياهم فتضايقوا فيها ، رب فآتنى من كل شىء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا ، فيقول الله تعالى : لقد قَصَّرت بك اليوم أمنيتك . ولقد سألت دون منزلتك ، هذا لك منى وسأتحفك بمنزلتى ؛ لأنه ليس فى عطائى نكد ولا قصَر يَد قال : ثم يقول : اعرضوا على عبادى ما لم تبلغ أمانيهم ولم يخطر لهم على بال . قال : فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم (1) التى فى أنفسهم ، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مُقرَّنة على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة ، على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة ، فى كل قبة منها فرش من فرش الجنة مظاهرة ، فى كل قبة منها جاريتان من الحور العين ، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة ، وليس فى الجنة لون إلا وهو فيهما ، ولا ريح طيب إلا قد عَبَق بهما ، ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة ، حتى يظن من يراهما أنهما من دون القبة ، يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض فى ياقوتة حمراء ، يريان له من الفضل على صحابته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل . ويرى لهما مثل ذلك ، ثم يدخل عليهما فيحييانه ويقبلانه ويعانقانه ويقولان له : والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك ، ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفاً فى الجنة ، حتى ينتهى كل رجل منهم إلى منزلته التى أعدت له » .

وقد روى هذا الأثر ابن أبى حاتم بسنده عن وهب بن منبه وزاد : « فانظروا إلى مواهب ربكم الذي وهب لكم ؛ فإذا بقباب فى الرفيق الأعلى ، وغرف مبنية بالدر والمرجان ، أبوابها من ذهب ، وسررها من ياقوت ، وفرشها من سندس واستبرق ، ومنابرها من نور ، يفور من

(1) فى ابن جرير « حتى يقضوهم أمانيهم » وفى ابن كثير « حتى تقصر بهم أمانيهم » .

أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس ، عنده مثل الكوكب الدرى فى النهار المضىء ، وإذا بقصور شامخة فى أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها ، فلولا أنه مُسَخَّر إذاً لالتمع الأبصار ، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض . وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر ، وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالأرجوان الأصفر ، مُبَوَّبَة بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء ، قوائمها وأركانها من الجوهر ، وشُرَفها قباب من لؤلؤ ، وبروجها غرف من المرجان ، فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم ، قربت لهم براذين من ياقوت أبيض منفوخ فيها الروح ، تحتها الولدان المخلدون ، بيد كل وليد منهم حَكَمة برذون من تلك البراذين ، ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت ، سرر موضونة مفروشة بالسندس والاستبرق ، فانطلقت بهم تلك البراذين تزف بهم ، فينظرون رياض الجنة . فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا الملائكة قعوداً على منابر من نور ينتظروهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامة ربهم ؛ فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم وما سألوا وما تمنوا ، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان : جنتان ذواتا أفنان ، وجنتان مدهامتان ، وفيهما عينان نضاختان وفيهما من كل فاكهة زوجان ، وحور مقصورات فى الخيام ، فلما تبوَّءوا منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم : « هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم » وربنا قال : هل رضيتم ثواب ربكم ؟ قالوا : ربنا رضينا فارض عنا ، قال : فبرضائى عنكم أحللتكم دارى ونظرتم إلى وجهى ، فعند ذلك قالوا : (الحمد لله الذى أذهب عنا الحَزَنَ إن ربنا لغفور شكور، الذى أحلَّنا دار المقامة من فضله ، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) وهذا سياق غريب وأثر عجيب ولبعضه شواهد فى الصحيحين [1] .

وقال خالد بن مَعدان : « إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى ، ضُروع كلها ، ترضع صبيان أهل الجنة ، وإن سَقْط المرأة يكون فى نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة ، فيبعث ابن أربعين سنة » رواه ابن أبى حاتم .

قوله : (أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله) أى فى جهاد المشركين .

قوله : (أشعث) مجرور بالفتحة لأنه اسم لا ينصرف للوصيفة ووزن الفعل ، و(رأسه)

---

(١) قال : روى هذا الحافظ ابن كثير فى تفسير قوله تعالى فى سورة الرعد : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ [١٣ : ٢٩] ، وقال فيه ابن كثير : أنه سياق غريب وأثر عجيب . ا هـ . وظاهر عليه صيغة الإسرائيليات الملفقة . وكم لوهب بن منبه وكعب الأحبار من هذه الخرافات والآثار السخيفة التى تمجها الفطر السليمة وقد فتن الناس بهذه الإسرائيليات وفسدت بها عقائد كثير منهم ولا حول ولا قوة إلا بالله .

مُغْبَرَّةٌ قدماه ، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وإن كان فى السَّاقة كان فى السَّاقَة، إن استأْذَنَ لم يُؤذَن له ، وإن شفع لم يُشَفَّع » .

مرفوع على الفاعلية ، وهو طائر الشعر ، شَغَله الجهاد فى سبيل الله عن التنعم بالأدهان وتسريح الشعر .

قوله : (مغبرة قدماه) هو بالجر صفة ثانية لعبد .

قوله : (إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة) هو بكسر الحاء أي حماية الجيش عن أن يهجم العدو عليهم .

وقوله : (كان فى الحراسة) أى غير مقصر فيها ولا غافل ، وهذا اللفظ يستعمل فى حق من قام بالأمر على وجه الكمال .

قوله : (وإن كان فى الساقة كان فى الساقة) أي فى مؤخرة الجيش ، يقلب نفسه فى مصالح الجهاد ، فكل مقام يقوم فيه إن كان ليلاً أو نهاراً ، رغبة فى ثواب الله وطلباً لمرضاته ومحبة لطاعته .

قال ابن الجوزى - رحمه الله - : وهو خامل الذكر لا يقصد السمو .

وقال الخلخالى : المعنى : ائتماره بما أمر ، وإقامته حيث أُقيم ، لا يفقد من مقامه ، وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشد مشقة . انتهى . وفيه فضل الحراسة فى سبيل الله .

قوله : (إن استأذن لم يؤذن له) أى إن استأذن على الأمراء ونحوهم لم يؤذن له ؛ لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة؛ لأنه ليس من طلابها، وإنما يطلب ما عند الله لا يقصد بعمله سواه.

قوله : (وإن شفع) بفتح أوله وثانيه (لم يشفّع) بفتح الفاء مشددة ، يعنى لو ألجأته الحال إلى أن يشفع فى أمر يحبه الله ورسوله لم تقبل شفاعته عند الأمراء ونحوهم .

وروى الإمام أحمد ومسلم عن أبى هريرة مرفوعاً : « رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبَرّه » .

قال الحافظ : فيه ترك حب الرياسة والشهرة ، وفضل الخمول والتواضع . انتهى .

وروى الإمام أحمد أيضاً عن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قال : قال عثمان - رضى الله عنه - وهو يخطب على منبره : « إنى محدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ، لم يكن يمنعنى أن أحدثكم به إلا الظن بكم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : حرسُ ليلة فى سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها » .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن المبارك : قال عبد الله بن محمد قاضى نصيبين : حدثنى محمد بن إبراهيم بن أبى سُكينة أنه أملى عليه عبد الله بن المبارك هذه

فيه مسائل :

الأولى : إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة .

الثانية : تفسير آية هود .

الثالثة : تسمية الإنسان المسلم عبدَ الدينار والدرهم والخميصة .

الرابعة : تفسير ذلك بأنه إن أُعطىَ رضىَ ، وإن لم يعط سخط .

الخامسة : قوله : « تعسَ وانتكس » .

السادسة : قوله : « وإذا شيك فلا انتقش » .

السابعة : الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات .

❊ ❊ ❊

الأبيات بطَرسوس وواعده الخروج ، وأنشدها معه إلى الفضيل بن عياض فى سنة سبع وسبعين ومائة . قال :

يا عابد الحرمين لو أبصـــرتنا	لعلمت أنك فى العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه	فنحـــورنا بدمائنا تتخضــــب
أو كان يتعب خيـله فى باطل	فخـيولهم يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم، ونحن عبيرنا	رَهَج السنابك والغبار الأطيب
ولقـد آتانا مـن مقــــال نبينا	قول صحيح صادق لا يكـذب
لا يستوى غبار خيل الليل فى	أنف امرئٍ ودخان نار تلهـب
هـذا كـتاب الله ينطـق بيننا :	ليس الشـهيد بميت لا يكـذب

قال : فلقيت الفضيل بكتابه فى المسجد الحرام ، فلما قرأه ذرفت عيناه فقال : صدق أبو عبد الرحمن ونصحنى ، ثم قال : أنت ممن يكتب الحديث ؟ قلت : نعم ، قال لى : اكتب هذا الحديث ، وأملى علىّ الفضيلُ بن عياض : حدثنا منصور بن المعتمر عن أبى صالح عن أبى هريرة : « أن رجلاً قال : يا رسول الله ، علمنى عملاً أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله فقال : هل تستطيع أن تصلى فلا تفتر ، وتصوم فلا تفطر ؟ فقال : يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك ، ثم قال النبى ﷺ : فوالذي نفسى بيده لو طُوِّقت ذلك ما بلغت فضل المجاهدين فى سبيل الله، أما علمت أن فرس المجاهد لَيسْتنّ فى طِوَله فيكتب له بذلك حسنات؟»[1].

---

(١) روى البخارى حديث سؤال الرجل هذا عن أبى هريرة . وفيه : فقال أبو هريرة : « فإن فرس المجاهد ليستن يمرح فى طوله فيكتب له حسنات » والطول : الحبل . والاستنان : العدو، وروى مسلم مثله قريب منه فى فضل الجهاد فى سبيل الله .

باب (من أطاع العلماء والأمراء فى تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله ، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله)

وقال ابن عباس : « يُوشكُ أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول الله ﷺ ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر ؟ » .

قوله : (باب من أطاع العلماء والأمراء فى تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله ، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله)

لقول الله تعالى (٩ : ٣١) : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ وتقدم تفسير هذا فى أصل المصنف رحمه الله عند ذكر حديث عدى بن حاتم رضى الله عنه .

قوله : (وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : « يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول الله ﷺ ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر ؟ ») .

قوله : (يوشك) بضم أوله وكسر الشين المعجمة : أي يقرب ويسرع .

وهذا القول من ابن عباس - رضى الله عنهما - جواب لمن قال : « إن أبا بكر وعمر - رضى الله عنهما - لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج ، ويريان أن إفراد الحج أفضل » أو ما هو معنى هذا ، وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب ، ويقول : « إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط فقد حلَّ من عمرته شاء أم أبى » لحديث سُراقة ابن مالك حين أمرهم النبى ﷺ أن يجعلوها عمرة ، ويحلُّوا إذا طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة ، فقال سراقة : « يا رسول الله ﷺ ألعامنا هذا أم للأبد ؟ فقال : بل للأبد » والحديث فى الصحيحين وحينئذ فلا عذر لمن استفتى أن ينظر فى مذاهب العلماء وما استدل به كل إمام ويأخذ من أقوالهم ما دل عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك ، كما قال تعالى (٤ : ٥٩): ﴿ فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ .

وللبخارى ومسلم وغيرهما : أن النبى ﷺ قال : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أهديت ، ولولا أن معى الهدى لأحللت » (١) هذا لفظ البخارى فى حديث عائشة - رضى الله عنها - ، ولفظه فى حديث جابر : « افعلوا ما أمرتكم به ، فلولا أنى سُقتُ الهدْى لفعلت مثل الذى أمرتكم » فى عدة أحاديث تؤيد قول ابن عباس .

---

(١) قال ذلك حين أمرهم فى حجة الوداع أن يفسخوا حجهم إلى العمرة ، ليكونوا متمتعين ووجدوا فى أنفسهم من ذلك لقرب ذهابهم إلى منى وقصر المدة التى يقيمونها فى مكة متمتعين بنسائهم حتى قالوا : نذهب إلى منى ومذاكيرنا تقطر منياً » انظر زاد المعاد فى حجة الرسول ﷺ .

وقال الإمام أحمد : عجبتُ لقوم عرفوا الإسناد وصحتَه ، ويذهبون إلى رأى سفيان .

وبالجملة : فلهذا قال ابن عباس لما عارضوا الحديث برأى أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما- : « يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء - الحديث » .

وقال الإمام الشافعى - رحمه الله - : « أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد » .

وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى : « ما منا إلا راد ومردود عليه ، إلا صاحب هذا القبر ﷺ » وكلام الأئمة فى هذا المعنى كثير .

وما زال العلماء رحمهم الله يجتهدون فى الوقائع : فمن أصاب منهم فله أجران ، ومن أخطأ فله أجر ، كما فى الحديث [1] ، لكن إذا استبان لهم الدليل أخذوا به وتركوا اجتهادهم. وأما إذا لم يبلغهم الحديث ، أو لم يثبت عن النبى ﷺ عندهم فيه حديث ، أو ثبت وله معارض أو مخصص ونحو ذلك ، فحينئذ يسوغ للإمام أن يجتهد . وفى عصر الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى إنما كان طلب الأحاديث ممن هى عنده باللُّقَى والسماع ، ويسافر الرجل فى طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين ، ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف ودونوا الأحاديث ورووها بأسانيدها ، وبينوا صحيحها من حسنها من ضعيفها . والفقهاء صنفوا فى كل مذهب ، وذكروا حجج المجتهدين ، فسهل الأمر على طالب العلم ، وكل إمام يذكر الحكم بدليله عنده، وفى كلام ابن عباس - رضى الله عنهما - ما يدل على أن من بلغه الدليل فلم يأخذ به - تقليداً لإمامه - فإنه يجب الإنكار عليه بالتغليظ ؛ لمخالفته الدليل .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن عمر البزاز ، حدثنا زياد بن أيوب ، حدثنا أبو عبيدة الحداد عن مالك بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال : « ليس منا أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبى ﷺ » .

وعلى هذا : فيجب الإنكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء ، كائناً من كان ونصوص الأئمة على هذا ، وأنه لا يسوغ التقليد إلا فى مسائل الاجتهاد التى لا دليل فيها يرجع إليه من كتاب ولا سنة ، فهذا هو الذى عناه بعض العلماء بقوله : لا إنكار فى مسائل الاجتهاد ، وأما من خالف الكتاب والسنة : فيجب الرد عليه ، كما قال ابن عباس والشافعى ومالك وأحمد ، وذلك مجمع عليه ، كما تقدم فى كلام الإمام الشافعى رحمه الله تعالى .

قوله : (وقال الإمام أحمد : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأى سفيان والله تعالى يقول (٢٤ : ٦٣) : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ أتدرى ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك ، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع فى قلبه شىء من الزّيغ فيهلك) .

---

(١) إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا أخطأ فله أجر .

والله تعالى يقول (٢٤ : ٦٣) : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ أتدرى ما الفتنة ؟ الفتنة : الشرك ،

هذا الكلام من الإمام أحمد – رحمه الله – رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب . قال الفضل عن أحمد : « نظرت فى المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ فى ثلاث وثلاثين موضعاً ، ثم جعل يتلو : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة – الآية ﴾ ، فذكر من قوله : الفتنة الشرك – إلى قوله – : فيهلك » ، ثم جعل يتلو هذه الآية (٤ : ٦٥) : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ .

وقال أبو طالب عن أحمد وقيل له : « إن قوماً يدعون الحديث ويذهبون إلى رأى سفيان وغيره ، فقال : أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ، ويذهبون إلى رأى سفيان وغيره . قال الله تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ أتدرى ما الفتنة ؟ الفتنة : الكفر . قال الله تعالى (٢ : ٢١٧) : ﴿والفتنة أكبر من القتل ﴾ فيدعون الحديث عن رسول الله ﷺ وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأى » ذكر ذلك عنه شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى – .

قوله : (عرفوا الإسناد) أى إسناد الحديث وصحته ، فإذا صح إسناد الحديث فهو صحيح عند أهل الحديث وغيرهم من العلماء .

وسفيان : هو الثورى الإمام الزاهد ، العابد الثقة الفقيه ، وكان له أصحاب يأخذون عنه ، ومذهبه مشهور يذكره العلماء رحمهم الله فى الكتب التى يذكر فيها مذاهب الأئمة ، كالتمهيد لابن عبد البر ، والاستذكار له ، وكتاب الإشراف على مذاهب الأشراف لابن المنذر والمحلى لابن حزم ، والمغنى لأبى محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة الحنبلى . وغيره هؤلاء .

فقول الإمام أحمد رحمه الله : « عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته إلخ » إنكار منه لذلك وأنه يؤول إلى زيغ القلوب الذى يكون به المرء كافراً . وقد عمت البلوى بهذا المنكر ، خصوصاً ممن ينتسب إلى العلم ، نصبوا الحبائل فى الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة ، وصدوا عن متابعة الرسول ﷺ وتعظيم أمره ونهيه ، فمن ذلك قولهم : لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد والاجتهاد قد انقطع [1] ، ويقول : هذا الذى قلدته أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه، ونحو ذلك من الأقوال التى غايتها ترك متابعة الرسول الله ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى ، والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ ، وغيره من الأئمة يخالفه ويمنع قوله بدليل،

---

(١) فى قرة العيون : وقد أخطأوا فى ذلك . وقد استدل الإمام أحمد رحمه الله بقوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » إن الاجتهاد لا ينقطع .

فما من إمام إلا والذى معه بعض العلم لا كله . فالواجب على كل مكلف ، إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله وفهم معنى ذلك : أن ينتهى إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه، كما قال تعالى (٧ : ٣) : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون ﴾ ، وقال تعالى (٢٩ : ٥١) : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم؟ إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ وقد تقدم حكاية الإجماع على ذلك ؛ وبيان أن المقلد ليس من أهل العلم، وقد حكى أيضاً أبو عمر بن عبد البر وغيره الإجماع على ذلك.

قلت : ولا يخالف فى ذلك إلا جهال المقلدة ، لجهلهم بالكتاب والسنة ، ورغبتهم عنهما ، وهؤلاء وإن ظنوا أنهم اتبعوا الأئمة فإنهم فى الحقيقة قد خالفوهم ، واتبعوا غير سبيلهم . كما قدمنا من قول مالك والشافعى وأحمد ، ولكن فى كلام أحمد رحمه الله إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم ، وإنما ينكر على من بلغته الحجة وخالفهم لقول إمام من الأئمة، وذلك إنما ينشأ عن الإعراض عن تدبر كتاب الله وسنة رسوله والإقبال على كتب من تأخر والاستغناء بها عن الوحيين ، وهذا يشبه ما وقع من أهل الكتاب الذين قال الله فيهم (٩ : ٣١) : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ كما سيأتى بيان ذلك فى حديث عدى ابن حاتم ، فيجب على من نصح نفسه إذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها وعرف أقوالهم أن يعرضها على ما فى الكتاب والسنة ، فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه لا بد أن يذكر دليله والحق فى المسألة واحد ، والأئمة مثابون على اجتهادهم ، فالمنصف يجعل النظر فى كلامهم وتأمله طريقاً إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهناً وتمييزاً للصواب من الخطأ بالأدلة التى يذكرها المستدلون ، ويعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه ، والأدلة على هذا الأصل فى كتاب الله أكثر من أن تحصر ، وفى السنة كذلك ، كما أخرج أبو داود بسنده عن أناس من أصحاب معاذ : « أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال: كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بكتاب الله تعالى ، قال : فإن لم تجد فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ ، قال : فإن لم تجد فى سنة رسول الله ﷺ ولا فى كتاب الله ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو ، قال : فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله » وساق بسنده عن الحارث بن عمر عن أناس من أصحاب معاذ بن جبل - رضى الله عنه - : « أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن - بمعناه » (*) .

والأئمة رحمهم الله لم يقصروا فى البيان ، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة ، لعلمهم أن من العلم شيئاً لم يعلموه ، وقد يبلغ غيرهم ، وذلك كثير ، كما لا يخفى على من نظر فى أقوال العلماء .

(*) حديث ضعيف . قال البخارى : لا يصح هذا الحديث (التاريخ الكبير : ٢/٢٧٧) مصححة .

لعله إذا رَدّ بعض قوله أن يقع فى قلبه شىء من الزيغ فيهلك » .

قال أبو حنيفة - رحمه الله - : إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن الصحابة - رضى الله عنهم - فعلى الرأس والعين ، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال .

وقال : إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه فاتركوا قولى لكتاب الله . قيل : إذا كان قول رسول الله ﷺ يخالفه ؟ قال : اتركوا قولى لخبر الرسول ﷺ ، وقيل : إذا كان قول الصحابة يخالفه ؟ قال : اتركوا قولى لقول الصحابة .

وقال الربيع : سمعت الشافعى رحمه الله يقول : إذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله ﷺ فخذوا سنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت .

وقال : إذا صح الحديث بما يخالف قولى فاضربوا بقولى الحائط .

وقال مالك : كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ .

وتقدم له مثل ذلك ، فلا عذر لمقلد بعد هذا ، ولو استقصينا كلام العلماء فى هذا لخرج عما قصدناه من الاختصار ، وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى [1] .

قوله : (لعله إذا رد بعض قوله) أى قول الرسول ﷺ : (أن يقع فى قلبه شىء من الزيغ فيهلك) نبه رحمه الله أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيغ القلب ، وذلك هو الهلاك فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى (٦١ : ٥) : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - فى معنى قول الله تعالى (٢٤ : ٦٣) : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ فإذا كان المخالف لأمره قد حُذر من الكفر والشرك ؛ أو من العذاب الأليم دل على أنه قد يكون مفضياً إلى الكفر والعذاب الأليم . ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب الأليم هو مجرد فعل المعصية ، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من الاستخفاف فى حق الأمر؛ كما فعل إبليس لعنه الله تعالى . ا هـ .

وقال أبو جعفر بن جرير - رحمه الله تعالى - عن الضحاك : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمر أن تصيبهم فتنة ﴾ قال : « يطبع على قلبه فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه فتضرب عنقه».

قال أبو جعفر بن جرير : أدخلت « عن » لأن معنى الكلام : فليحذر الذين يلوذون عن أمره ، ويدبرون عنه معرضين .

قوله : (أو يصيبهم) فى عاجل الدنيا عذاب من الله موجع على خلافهم أمر رسول الله ﷺ.

---

(١) فى قرة العيون : فعلى من اشتغل بمصنفات أهل مذهبه أن ينظر فى أقوال المخالفين وما استدلوا به متبعاً فيكون متبعاً للدليل مع من كان معه . وبالله التوفيق .

عن عَدِىٍّ بن حاتم : « أنه سمع النبى ﷺ يقرأ هذه الآية (٩ : ٣١) : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أُمِروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ فقلت له : إنا لسنا نعبدهم . قال : أليس يحرمون ما أحلَّ الله ، فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله ، فتحلونه ؟ فقلت : بلى، قال : فتلك عبادتهم » رواه أحمد والترمذى وحسنه .

قوله : (عن عدى بن حاتم - رضى الله عنه - : أنه سمع النبى ﷺ يقرأ هذه الآية (٩ : ٣١) ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم - الآية ﴾ ، فقلت له : إنا لسنا نعبدهم . قال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ فقلت : بلى ، قال : فتلك عبادتهم » رواه أحمد والترمذى وحسنه) .

هذا الحديث قد روى من طرق ، فرواه ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى ، وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى .

قوله : (عن عدى بن حاتم) أي الطائى المشهور . وحاتم هو ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج - بفتح الحاء - المشهور بالسخاء والكرم . قدم عدى على النبى ﷺ فى شعبان سنة تسع من الهجرة فأسلم ، وعاش مائة وعشرين سنة .

وفى الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان فى معصية الله عبادة لهم من دون الله ، ومن الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله ؛ لقوله تعالى فى آخر الآية : ﴿ وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ونظير ذلك قوله تعالى (٦ : ١٢١) : ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ، ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ وهذا قد وقع فيه كثير من الناس مع من قلدوهم لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلَّد ، وهو من هذا الشرك . ومنهم من يغلو فى ذلك ويعتقد أن الأخذ بالدليل - والحالة هذه - يكره ، أو يحرم ؛ فعظمت الفتنة . ويقول : هم أعلم منا بالأدلة ، ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد . وربما تفوهوا بذم من يعمل بالدليل ، ولا ريب أن هذا من غربة الإسلام ، كما قال شيخنا رحمه الله فى المسائل .

فتغيرت الأحوال ، وآلت إلى هذه الغاية ، فصارت عند الأكثر عبادة الرهبان هى أفضل الأعمال ، ويسمونها ولاية ، وعبادة الأحبار هى العلم والفقه ، ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين ، وعبد بالمعنى الثانى من هو من الجاهلين .

وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله : فقد عمت بها البلوى قديماً وحديثاً فى أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهلم جراً . وقد قال تعالى (٢٨ : ٥٠) : ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، وَمَنْ أَضَلُّ ممن اتبع هواه بغير هُدًى من الله؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية النور .

الثانية : تفسير آية براءة .

الثالثة : التنبيه على معنى العبادة التى أنكرها عدى .

الرابعة : تمثيل ابن عباس بأبى بكر وعمر ، وتمثيل أحمد بسفيان .

الخامسة : تغير الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هى أفضل الأعمال ، وتسمى الولاية . وعبادة الأحبار : هى العلم والفقه ، ثم تغيرت الحال إلى أن عُبِدَ من دون الله من ليس من الصالحين ، وعُبد بالمعنى الثانى من هو من الجاهلين .

❊ ❊ ❊

باب

قول الله تعالى (٤ : ٦٠ - ٦٢) : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أُمروا أن يكفروا به

وعن زياد بن حُدير قال : قال لى عمر - رضى الله عنه - : « هل تعرف ما يهدمُ الإسلام؟ قلت : لا . قال : يهدمه زَلَّة العالم ، وجدال المنافق بالقرآن ، وحكم الأئمة المضلين » . رواه الدارمى .

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون .

باب : (قول الله تعالى (٤ : ٦٠ - ٦٢) : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك - الآيات ﴾) . قال العماد ابن كثير - رحمه الله تعالى - : والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة ، وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل ، وهو المراد بالطاغوت ههنا .

وتقدم ما ذكره العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - فى حده للطاغوت ، وأنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع ، فكل من حاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقد حاكم إلى الطاغوت الذى أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به ، فإن التحاكم ليس إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ومن كان يحكم بهما ، فمن تحاكم إلى غيرهما فقد تجاوز به حده ، وخرج عما شرعه الله ورسوله ﷺ ، وأنزله منزلة لا يستحقها ، وكذلك من عبد شيئاً دون الله فإنما عبد الطاغوت ، فإن كان المعبود صالحاً صارت عبادة العابد له راجعة إلى الشيطان الذى أمره بها ، كما قال تعالى (١٠ : ٢٨ - ٣٠) : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم ، فزيَّلنا بينهم ، وقال شركاؤهم : ما كنتم

إيانا تعبدون * فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إنْ كنَّا عن عبادتكم لغافلين * هنالك تَبلُوا كُل نفس ما أسلفت وَرُدُّوا إلى الله مولاهم الحق ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ ، وكقوله (٣٤: ٤٠) : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه ، أو كان شجراً أو حجراً أو قبراً أو غير ذلك مما يتخذه المشركون أصناماً على صور الصالحين والملائكة وغير ذلك ، فهى من الطاغوت الذى أمر الله تعالى عباده أن يكفروا بعبادته ، ويتبرأوا منه ، ومن عبادة كل معبود سوى الله . كائناً من كان ، وهذا كله من عمل الشيطان وتسويله ، فهو الذى دعا إلى كل باطل وزَينه لمن فعله ، وهذا ينافى التوحيد الذى هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله . فالتوحيد : هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله ، كما قال تعالى (٦٠ : ٤) : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه، إذ قالوا لقومهم إنَّا براءٌ منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ وكل من عبد غير الله فقد جاوز به حده وأعطاه من العبادة ما لا يستحقه .

قال الإمام مالك رحمه الله : « الطاغوت : ما عبد من دون الله » .

وكذلك من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله فقد ترك ما جاء به الرسول ﷺ ورغب عنه ، وجعل لله شريكاً فى الطاعة ، وخالف ما جاء به رسول الله ﷺ فيما أمره الله تعالى به فى قوله (٥ : ٤٩) : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ ، وقوله تعالى (٤ : ٦٥) : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ فمن خالف ما أمر الله به ورسوله ﷺ بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله ، أو طلب ذلك اتباعاً لما يهواه ويريده ، فقد خلع ربقة الإسلام والإيمان من عنقه ، وإن زعم أنه مؤمن ، فإن الله تعالى أنكر على من أراد ذلك ، وأكذبهم فى زعمهم الإيمان لما فى ضمن قوله : « يزعمون » من نفى إيمانهم ، فإن « يزعمون » إنما يقال غالباً لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب لمخالفته لموجبها ، وعمله بما ينافيها ، يحقق هذا قوله : ﴿ وقد أمروا أن يكفروا به ﴾ لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد ، كما فى آية البقرة ، فإذا لم يحصل هذا الركن لم يكن موحداً . والتوحيد هو أساس الإيمان الذى تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعدمه ، كما أن ذلك بين فى قوله تعالى (٢ : ٢٥٦) : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى - الآية ﴾ وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به .

وقوله : ﴿ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ يبين تعالى فى هذه الآية : أن التحاكم

وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً. فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ﴾ .

وقوله (٢ : ١١) : ﴿ وإذا قيل لهم : لا تفسدوا فى الأرض قالوا : إنما نحن مصلحون ﴾ .

إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويزينه لمن أطاعه ، ويبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله . وأكده بالمصدر ، ووصفه بالبعد ، فدل على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى .

ففى هذه الآية أربعة أمور . الأول : أنه من إرادة الشيطان . الثانى : أنه ضلال . الثالث : تأكيده بالمصدر . الرابع : وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى .

فسبحان الله ! ما أعظم هذا القرآن وما أبلغه ، وما أدله على أنه كلام رب العالمين ، أوحاه إلى رسوله الكريم ، وبلغه عبده الصادق الأمين ، صلوات الله وسلامه عليهم .

قوله : ﴿ وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾ بين تعالى أن هذه صفة المنافقين ، وأن من فعل ذلك أو طلبه ، وإن زعم أنه مؤمن فإنه فى غاية البعد من الإيمان .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : هذا دليل على أن من دُعى إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى أنه من المنافقين .

قوله : ﴿ ويصدون ﴾ لازم وهو بمعنى يعرضون ؛ لأن مصدره « صدوداً » فما أكثر من اتصف بهذا الوصف ، خصوصاً ممن يدعى العلم ، فإنهم صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلى أقوال من يخطئ كثيراً ممن ينتسب إلى الأئمة الأربعة فى تقليدهم من لا يجوز تقليده ، واعتمادهم على قول من لا يجوز الاعتماد على قوله ، ويجعلون قوله المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هو المعتمد عندهم الذي لا تصح الفتوى إلا به . فصار المتبع للرسول ﷺ بين أولئك غريباً ، كما تقدم التنبيه على هذا فى الباب الذى قبل هذا .

فتدبر هذه الآيات وما بعدها يتبين لك ما وقع فيه غالب الناس من الإعراض عن الحق وترك العمل به فى أكثر الوقائع . والله المستعان .

وقوله (٢ : ١١) : ﴿ وإذا قيل لهم : لا تفسدوا فى الأرض قالوا : إنما نحن مصلحون ﴾ قال أبو العالية فى الآية : يعنى لا تعصوا فى الأرض ؛ لأن من عصى الله فى الأرض ، أو أمر بمعصية الله : فقد أفسد فى الأرض ؛ لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله . وقد أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام فى قوله تعالى (١٢ : ٧٠ - ٧٢) : ﴿ ثم أذن

وقوله : (٧ : ٥٦) : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ .

مؤذن : أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ إلى قوله : ﴿ قالوا : تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ﴾ فدلت الآية على أن كل معصية فساد فى الأرض .

ومناسبة الآية للترجمة : أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين ، وهو من الفساد فى الأرض .

وفى الآية : التنبيه على عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء ، وإن زخرفوها بالدعوى . وفيها: التحذير من الاغترار بالرأي ، ما لم يقم على صحته دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فما أكثر من يصدق بالكذب ويكذب بالصدق إذا جاءه ، وهذا من الفساد فى الأرض ، ويترتب عليه من الفساد أمور كثيرة تخرج صاحبها عن الحق وتدخله فى الباطل ، نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة .

فتدبر تجد ذلك فى حال الأكثر إلا من عصمه الله ، ومنَّ عليه بقوة داعى الإيمان ، وأعطاه عقلاً كاملاً عند ورود الشهوات ، وبصراً نافذاً عند ورود الشبهات ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

قوله (٧ : ٥٦) : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ قال أبو بكر بن عياش فى الآية : إن الله بعث محمداً ﷺ إلى أهل الأرض وهم فى فساد ، فأصلحهم الله بمحمد ﷺ . فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين فى الأرض .

وقال ابن القيم – رحمه الله – : قال أكثر المفسدين : لا تفسدوا فيها بالمعاصى ، والدعاء إلى غير طاعة الله ، بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل ، وبيان الشريعة ، والدعاء إلى طاعة الله ؛ فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به : هو أعظم فساد فى الأرض ، بل فساد الأرض فى الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره ، فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ ، هو أعظم فساد فى الأرض ، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود المطاع ، والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ ، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة . ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح فى الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ، وكل شر فى العالم وفتنة وبلاد وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه: مخالفة رسوله ، والدعوة إلى غير الله ورسوله . اهـ .

ووجه مطابقة هذه الآية للترجمة : أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعظم ما يفسد الأرض من المعاصى ، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وهو سبيل المؤمنين ، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وهو سبيل المؤمنين ، كما

وقوله (٥ : ٥٠) : ﴿ أفحكْمَ الجاهلية يَبْغون ؟ ومن أحسنُ من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ ﴾ .

عن عبد الله بن عَمرو – رضى الله عنهما – : أن رسول الله ﷺ قال : « لا يؤمن

قال تعالى (٤ : ١٥) : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تولى ونُصْلِه جهنم وساءت مصيراً ﴾ .

قوله : (وقول الله تعالى (٥ : ٥٠) : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ ﴾) .

قال ابن كثير رحمه الله : ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير ، الناهى عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات كما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكزخان الذى وضع لهم « الياسق » وهو عبارة عن كتاب أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية ، وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره وهواه . فصارت فى بنيه شرعاً يقدمونها على الحكم بالكتاب والسنة ، فمن فعل ذلك : فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم بسواه فى قليل ولا كثير [1] .

قوله : (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ ﴾ استفهام إنكار ، أي لا حكم أحسن من حكمه تعالى وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس له فى الطرف الآخر مشارك ، أى : ومن أعدل من الله حكماً لمن عقل عن الله شرعه ، وآمن وأيقن أنه تعالى أحكم الحاكمين وأرحم بعباده من الوالدة بولدها ، العليم بمصالح عباده ، القادر على كل شىء ، الحكيم فى أقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره ؟

وفى الآية : التحذير من حكم الجاهلية ، واختياره على حكم الله ورسوله ؛ فمن فعل ذلك فقد أعرض عن الأحسن ، وهو الحق ، إلى ضده من الباطل .

قوله : (عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » قال النووى : حديث صحيح ، رويناه فى كتاب الحجة بإسناد صحيح) .

هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسى الشافعى فى كتاب « الحجة على

---

(١) ومثل هذا وشر منه : من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها فى الدماء والفروج والأموال ، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله ، ولا ينفعه أى اسم تسمى به ، ولا أى عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام والحج ونحوها .

أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » قال النووى : حديث صحيح ، رويناه فى كتاب الحجة بإسناد صحيح (*) .

تارك المحجة » بإسناد صحيح ، كما قاله المصنف رحمه الله عن النووى . ورواه الطبرانى وأبو بكر بن عاصم ، والحافظ أبو نعيم فى الأربعين التى شرط لها أن تكون من صحيح الأخبار ، وشاهده فى القرآن قوله تعالى (٤ : ٦٥) : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ الآية ، وقوله (٣٣ : ٣٦) : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيَرة من أمرهم ﴾ ، وقوله (٢٨ : ٥٠) : ﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ﴾ ونحو هذه الآيات .

قوله : ﴿ لا يؤمن أحدكم ﴾ أى لا يكون من أهل كمال الإيمان الواجب الذى وعد الله أهله عليه بدخول الجنة والنجاة من النار . وقد يكون فى درجة أهل الإساءة والمعاصى من أهل الإسلام .

قوله : (حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) . « الهوي » بالقصر ، أى : ما يهواه وتحبه نفسه وتميل إليه ، فإن كان الذى تحبه وتميل إليه نفسه ، ويعمل به تابعاً لما جاء به رسول الله ﷺ لا يخرج عنه إلى ما يخالفه فهذه صفة أهل الإيمان المطلق ، وإن كان بخلاف ذلك أو فى بعض أحواله أو أكثرها انتفى عنه من الإيمان كماله الواجب ، كما فى حديث أبى هريرة : «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » [1] يعنى أنه بالمعصية ينتفى عنه كمال الإيمان الواجب ، وينزل عنه فى درجة الإسلام ، وينقص إيمانه ، فلا يطلق عليه الإيمان إلا بقيد المعصية ، أو الفسوق ، فيقال : مؤمن عاص ، أو يقال : مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته ، فيكون معه مطلق الإيمان الذى لا يصح إسلامه إلا به [2] . كما قال تعالى (٤ : ٩٢) : ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ والأدلة على ما عليه سلف الأمة وأئمتها - : أن الإيمان قول وعمل ونية ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية : من كتاب الله تعالى وسنة رسوله

(*) الحديث ضعيف - راجع جامع العلوم والحكم لابن رجب . مصححة .

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) فى قرة العيون : وهذا التوحيد الذى لا يشوبه شرك ولا كفر . وهذا هو الذى يذهب إليه أهل السنة والجماعة خلافاً للخوارج والمعتزلة ، فإن الخوارج يكفرون بالذنوب والمعتزلون لا يطلقون عليه الإيمان يقولون بتخليده فى النار ، وكلا الطائفتين ابتدع فى الدين وترك ما دل عليه الكتاب والسنة . وقد قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [٤ : ٤٨] فقيد مغفرة ما دون الشرك بالمشيئة وتواترت الأحاديث بما يحقق ما ذهب إليه أهل السنة . فقد أخرج البخارى وغيره عن أنس عن النبى ﷺ قال : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وفى قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وفى قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير » .

ﷺ - أكثر من أن تحصر . فمن ذلك قوله تعالى (٢ : ١٤٣) : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أى صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة ، وقول النبى ﷺ لوفد عبد القيس : « آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ شهادة أن لا إله إلا الله» الحديث، وهو فى الصحيحين والسنن ، والدليل على أن الإيمان يزيد قوله تعالى (٧٤ : ٣١) : ﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ الآية ، وقوله (٩ : ١٢٤) : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً ﴾ الآية خلافاً لمن قال : إن الإيمان هو القول ، وهم المرجئة ، ومن قال : إن الإيمان هو التصديق كالأشاعرة . ومن المعلوم عقلاً وشرعاً : أن نية الحق تصديق ، والعمل به تصديق ، وقول الحق تصديق . وليس مع أهل البدع ما ينافى قول أهل السنة والجماعة ، ولله الحمد والمنة . قال الله تعالى (٢ : ١٧٧) : ﴿ ليس البر إن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ إلى قوله : ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ أى فيما عملوا به فى هذه الآية من الأعمال الظاهرة والباطنة . وشاهده فى كلام العرب قولهم : حملة صادقة . وقد سمى الله تعالى « الهوى » المخالف لما جاء به الرسول ﷺ إلهاً ، قال تعالى (٢٥ : ٤٣) : ﴿ فأرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال بعض المفسرين : لا يهوى شيئاً إلا ركبه .

قال ابن رجب رحمه الله : أما معنى الحديث : فهو أن الإنسان لا يكون مؤمناً كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهى وغيرها . فيحب ما أمر به ، ويكره ما نهى عنه ، وقد ورد فى القرآن بمثل هذا المعنى فى غير موضع ، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله ، أو أحب ما كرهه الله ، كما قال تعالى (٤٧ : ٢٨) : ﴿ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما أوجب عليه منه ؛ فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلاً ، وأن يكره ما يكرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه ، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهاً كان ذلك فضلاً . فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب ذلك له أن يحب بقلبه ما يحب الله ورسوله ، ويكره ما يكرهه الله ورسوله . فيرضى ما يرضى به الله ورسوله ، ويسخط ما يسخط الله ورسوله ، ويعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض ، فإن عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك ، بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله ، وترك ما يحبه الله ورسوله ، مع وجوبه والقدرة عليه - دل ذلك على نقص محبته الواجبة ، فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة التى هى ركن العبادة إذا كملت . فجميع المعاصى تنشأ عن تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله . وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى فى مواضع من كتابه ، فقال تعالى (٢٨ : ٥٠) : ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله؟﴾ وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع . ولهذا سمى أهلها أهل الأهواء ،

وقال الشعبى : « كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة فقال اليهودى: نتحاكم إلى محمد - لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة ، وقال المنافق : نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة . فاتفقا أن يأتيا كاهناً فى جُهينة فيتحاكما إليه، فنزلت : ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾ الآية .

وقيل : نزلت فى رجلين اختصما فقال أحدهما : نترافع إلى النبى ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف ، ثم ترافعا إلى عمر ، فذكر له أحدهما القصة . فقال للذى لم يرض برسول الله ﷺ : أكذلك ؟ قال : نعم ، فضربه بالسيف فقتله » .

❊ ❊ ❊

وكذلك المعاصى إنما تنشأ من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه ، وكذلك حب الأشخاص : الواجبُ فيه أن يكون تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ ، فيجب على المؤمن محبة ما يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عموماً ؛ ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان : أن يحب المرء لا يحبه إلا لله [1] فتحرم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عموماً ، وبهذا يكون الدين كله لله ومن أحب لله وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله: فقد استكمل الإيمان ، ومن كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه : كان ذلك نقصاً فى إيمانه الواجب ، فتجب التوبة من ذلك . انتهى ملخصاً .

ومناسبة الحديث للترجمة : بيان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصى فى أقوالهم وأفعالهم وإرادتهم .

قوله : (وقال الشعبى) هو عامر بن شُراحيل الكوفى ، عالم أهل زمانه ، وكان حافظاً علامة ، ذا فنون . كان يقول : « ما كتبت سوداء فى بيضاء » [2] ، وأدرك خلقاً كثيراً من الصحابة وعاش بضعاً وثمانين سنة . قاله الذهبى .

وفيما قاله الشعبى ما يُبين أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى . ويكون أشد عداوة منهم لأهل الإيمان ، كما هو الواقع فى هذه الأزمنة وقبلها من إعانة العدو على المسلمين ، وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان . ومن تدبر ما فى التاريخ وما وقع منهم من الوقائع عرف أن هذا حال المنافقين قديماً وحديثاً ، وقد حذر الله نبيه ﷺ من طاعتهم والقرب منهم ، وحضه على جهادهم فى مواضع من كتابه ، قال تعالى (٦٦ : ٩) : ﴿ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم - الآية ﴾ ، وفى قصة عمر -

---

(١) لما روى البخارى وغيره « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ؛ وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » .

(٢) لشدة حفظه واستغنائه به عن الكتابة .

باب (من جحد شيئاً من الأسماء والصفات)

وقول الله تعالى (١٣ : ٣٠) : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ، قل : هو ربى ، لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾ .

رضى الله عنه - وقتله المنافق الذى طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودى : دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق . وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة للنبى ﷺ والأذى له، والإظهار لعداوته ، فانتقض به١ عهده ، وحل به قتله، وروى مسلم فى صحيحه عن عمر: سمعت جابراً يقول : قال رسول الله ﷺ : « من لكعب بن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله ، قال محمد بن مَسْلمة : يا رسول الله ، أتحب أن أقتله ؟ قال : نعم ، قال : ائذن لى فلأقل ، قال : قل ، فأتاه فقال له ، وذكر بينهما وقال : إن هذا الرجل قد أراد صدقه وقد عنَّانَا . فلما سمعه قال : وأيضاً والله لتَملُّنَّه ، قال : إنا قد اتبعناه الآن ، ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير أمره ، قال : وقد أردتُ أن تُسلفنى سلفاً . قال : فما ترهننى ؟ قال: ما تريد ، قال : ترهننى نساءكم ؟ قال : أنت أجمل العرب ، أنرهنك نساءنا ؟ قال : ترهنونى أولادكم ؟ قال : يُسبُّ ابن أحدنا فيقال : رُهن فى وَسْقين من تمر ، ولكن نرهنك اللأمة - يعنى السلاح - قال : فنعم . وواعده أن يأتيه بالحارث وأبى عبس بن جبر وعباد بن بشر . قال : فجاءوا فدعوه ليلاً فنزل إليهم - قال سفيان : قال غير عمرو : قالت له امرأته : إنى أسمع صوتاً كأنه صوت دم . قال : إنما هذا محمد بن مسلمة ورضيعه وأبو نائلة [(١)] إن الكريم لو دعى إلى طعنة ليلاً لأجاب ، قال محمد : إنى إذا جاء سوف أمد يدى إلى رأسه ؛ فإذا استكمنت منه فدونكم ، قال : فلما نزل - وهو متوشح . فقالوا : نجد منك ريح الطيب ، قال: نعم ، تحتى فلانة أعطر نساء العرب ، قال : فتأذن لى أن أشم منه ؟ قال : نعم فَشُمَّ، فتناول فشم ، ثم قال : أتأذن لى أن أعود ؟ قال : فاستمكن من رأسه ، ثم قال : دونكم ، قال : فقتلوه » .

وفى قصة عمر : بيان أن المنافق المغموص بالنفاق إذا أظهر نفاقه قتل ، كما فى الصحيحين وغيرهما : أن النبى ﷺ إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفاً للناس ، فإنه قال : « لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » فصلوات الله وسلامه عليه .

قوله : (باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات)

وقول الله تعالى (١٣ : ٣٠) : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ، قل : هو ربى ، لا إله إلا هو عليه توكلت ، وإليه متاب ﴾) .

---

(١) قال النووى : هكذا هو فى جميع النسخ . قال القاضى رحمه الله : قال لنا شيخنا القاضى الشهيد : صوابه أن يقال : إنما هو محمد ورضيعه أبو نائلة . وكذا ذكر أهل السير أن أبا نائلة كان رضيعاً لمحمد بن مسلمة ، ووقع فى صحيح البخارى ورضيعى أبو نائلة .

سبب نزول هذه الآية معلوم فى كتب التفسير وغيرها . وهو أن مشركى قريش جحدوا اسم « الرحمن » عناداً ، وقال تعالى (١٧ : ١١٠) : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياماً تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ ، و« الرحمن » اسمه وصفته ، دل هذا الاسم على أن الرحمة وصفه سبحانه ؛ وهى من صفات الكمال ، فإذا كان المشركون جحدوا اسماً من أسمائه تعالى، وهو من الأسماء التى دلت على كماله سبحانه وبحمده ، فجحود معنى هذا الاسم ونحوه من الأسماء يكون كذلك ، فإن جَهْم بن صفوان ومن تبعه يزعمون أنها لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى ، وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم ، فلهذا كفرهم كثيرون من أهل السنة . قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

ولقد تقلد كفرهم خمسون فى ... عشر من العلماء فى البلدان

واللالكائىّ الإمام حـــكاه عنـ ... ـهم بل حكاه قبله الطبرانى

فإن هؤلاء الجهمية ومن وافقهم على التعطيل جحدوا ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله ، وبنوا هذا التعطيل على أصل باطل أصَّلوه من عند أنفسهم ، فقالوا : هذه الصفات هى صفات الأجسام ، فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسماً ، هذا منشأ ضلال عقولهم ، لم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين ، فشبهوا الله فى ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه ، ثم عطلوه من صفات كماله ، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات ؛ فشبهوا أولاً ، وعطلوا ثانياً ، وشبهوه ثالثاً بكل ناقص ومعدوم : فتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته وهذا هو الذى عليه سلف الأمة وأئمتها ، فإنهم أثبتوا لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ ، إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل . فإن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات يحتذى حذوه ، فكما أن هؤلاء المعطلة يثبتون لله ذاتاً لا تشبه الذوات ، فأهل السنة يقولون ذلك ، ويثبتون ما وصف الله به نفسه ، ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله ، لا تشبه صفاته صفات خلقه ؛ فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولم يتناقضوا ، وأولئك المعطلة كفروا بما فى الكتاب والسنة من ذلك ، وتناقضوا فبطل قول المعطلين بالعقل والنقل ، ولله الحمد والمنة ، وإجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسلمين .

وقد وصف العلماء رحمهم الله تعالى فى الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم فى إبطال هذه البدع وما فيها من التناقض والتهافت : كالإمام أحمد رحمه الله تعالى فى رده المشهور ، وكتاب السنة لابنه عبد الله ، وصاحب الحيدة عبد العزيز الكنانى فى رده على

وفى صحيح البخارى قال على : « حَدِّثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يُكَذَّب الله ورسوله ؟ » .

بشر المريسى ، وكتاب السنة لأبى عبد الله المروزى ، ورد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد . وهو بشر المريسى ، وكتاب التوحيد لإمام الأئمة محمد بن خزيمة الشافعى ، وكتاب السنة لأبى بكر الخلال ، وأبى عثمان الصابونى الشافعى ، وشيخ الإسلام الأنصارى ، وأبى عمر بن عبد البر النمرى ، وخلق كثير من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم ، وأهل الحديث ومن متأخريهم أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة ، وشيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه وغيرهم رحمهم الله تعالى ، فللَّه الحمد والمنة على بقاء السنة وأهلها مع تفرق الأهواء وتشعب الآراء . والله أعلم .

قوله : (وفى صحيح البخارى عن على - رضى الله عنه - : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟) .

« على » هو أمير المؤمنين أبو الحسن على بن أبى طالب ، وأحد الخلفاء الراشدين ، وسبب هذا القول - والله أعلم - ما حدث فى خلافته من كثرة إقبال الناس على الحديث ، وكثرة القصاص وأهل الوعظ ، فيأتون فى قصصهم بأحاديث لا تعرف من هذا القبيل [1] ، فربما استنكرها بعض الناس وردها ، وقد يكون لبعضها أصل أو معنى صحيح ، فيقع بعض المفاسد لذلك ، فأرشدهم أمير المؤمنين - رضى الله عنه - إلى أنهم لا يحدثون عامة الناس إلا بما هو معروف ينفع الناس فى أصل دينهم وأحكامه ، من بيان الحلال والحرام الذى كلفوا به علماً وعملاً ، دون ما يشغل عن ذلك ، مما قد يؤدى إلى رد الحق وعدم قبوله ، فيفضى بهم إلى التكذيب ، ولا سيما مع اختلاف الناس فى وقته ، وكثرة خوضهم وجدلهم .

وقد كان شيخنا المصنف - رحمه الله - لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم فى أصل دينهم وعباداتهم ومعاملاتهم الذى لا غنى لهم عن معرفته ، وينهاهم عن القراءة فى مثل كتب ابن الجوزى : كالمنعش ، والمرعش ، والتبصرة ، لما فى ذلك من الإعراض عما هو أوجب وأنفع وفيها ما الله به أعلم مما لا ينبغى اعتقاده . والمعصوم من عصمه الله .

وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنه - ينهى القصاص عن القصص، لما فى قصصهم من الغرائب والتساهل فى النقل وغير ذلك ، ويقول : « لا يقص إلا أمير أو مأمور » ، وكل هذا محافظة على لزوم الثبات على الصراط المستقيم علماً وعملاً

---

(١) وقد كان هؤلاء القصَّاص لعدم تحريهم الصدق سبباً فى وضع كثير من الأحاديث على رسول الله ﷺ ؛ ذكرها أئمة الجرح والتعديل ، وحذروا الناس منها . ودونوا دواوين الصحاح والسنن والمسانيد . فلا ينبغى لأحد اليوم أن ينسب إلى النبى ﷺ حديثاً إلا بذكر من خرجه ، وخير وأولى : أن يشفعه ببيان درجته من الصحة أو الضعف ؛ إذا كان فى غير الصحيحين .

ونية وقصداً ، وترك كل ما كان وسيلة إلى الخروج عنه من البدع ووسائلها ، والله الموفق للصواب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قوله : (وروى عبد الرزاق عن معمر ، عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس : « أنه رأى رجلاً انتفض - لما سمع حديثاً عن النبى ﷺ فى الصفات استنكاراً لذلك - فقال : ما فَرَق هؤلاء ؟ يجدون رقة عند محكمه ، ويهلكون عند متشابهه » .

قوله : (وروى عبد الرزاق) هو ابن همام الصنعانى المحدث ، محدث اليمن صاحب التصانيف ، أكثر الرواية عن معمر بن راشد صاحب الزهرى ، وهو شيخ عبد الرزاق يروى عنه كثيراً .

ومعمر - بفتح الميمين وسكون العين - أبو عروة بن أبى عَمرو ، راشد الأزدى الحرانى ثم اليمانى ، أحد الأعلام من أصحاب محمد بن شهاب الزهرى ، يروى عنه كثيراً .

قوله : (عن ابن طاوس) هو عبد الله بن طاوس اليمانى . قال معمر : كان من أعلم الناس بالعربية . وقال ابن عُيينة : مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

قوله : (عن أبيه) هو طاوس بن كَيْسان الجَندى - بفتح الجيم والنون - الإمام العلم ، قيل: اسمه ذَكوان ، قاله ابن الجوزى .

قلت : وهو من أئمة التفسير ومن أوعية العلم . قال فى تهذيب الكمال : عن الوليد الموقرى عن الزهرى قال : « قدمت على عبد الملك بن مروان ، فقال : من أين قدمت يا زهرى ؟ قال : قلت : من مكة ، قال : ومن خَلَّفت يسودها وأهلها ؟ قلت : عطاء بن أبى رباح ، قال : فمن العرب أم من الموالى ! قلت : من الموالى ، قال : فَبِمَ سادهم ؟ قال : قلت : بالديانة والرواية ، قال : إن أهل الديانة والرواية لينبغى أن يسودوا ، قال : فمن يسود أهل اليمن ؟ قلت : طاوس بن كيسان ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال : قلت : من الموالى ؟ قال : فبم سادهم ؟ قلت : بما ساد به عطاء ، قال : إنه لينبغى ذلك ، قال : فيمن يسود أهل مصر ؟ قلت : يزيد بن حبيب ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال : قلت : من الموالى ، قال : فمن يسود أهل الشام ؟ قلت : مكحول ، قال : فمن العرب أم من الموالى؟ قال : قلت : من الموالى ، عبد نوبى أعتقته امرأة من هذيل ، قال : فمن يسود أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهْران ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال : قلت : من الموالى . قال : فمن يسود أهل خراسان ؟ قال : قلت : الضحاك بن مزاحم ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال : قلت : من الموالى ، قال : فمن يسود أهل البصرة ؟ قال : قلت: الحسن البصرى ، قال : فمن العرب أم من الموالى ؟ قال : قلت : من الموالى ، قال : ويلك ، ومن يسود أهل الكوفة ؟ قال : قلت : إبراهيم النخعى ، قال : فمن العرب أم من

عن ابن عباس : « أنه رأى رجلاً انتفض - لما سمع حديثاً عن النبى ﷺ فى الصفات - استنكاراً لذلك - فقال : ما فَرَقُ هؤلاء ؟ يجدون رِقّة عند مُحكمه ويهلكون عند متشابهه» انتهى .

الموالى ؟ قال : قلت : من العرب ، قال : ويلك يا زهرى ، فرجت عنى ، والله لتسودن الموالى على العرب فى هذا البلد ، حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها ؟ قال : قلت : يا أمير المؤمنين ، إنما هو دين مَن حفظه ساد ومن ضيعه سقط » .

قوله : (عن ابن عباس) قد تقدم ، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن ، ودعا له النبى ﷺ ، وقال : « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » ، وروى عنه أصحابه أئمة التفسير : كمجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعطاء بن أبى رباح ، وطاوس وغيرهم .

قوله : (ما فرق هؤلاء ؟) يستفهم من أصحابه ، يشير إلى أناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس ، فإذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن ومعناه حصل معهم فَرَق أى خوف ، فإذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين له ، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذى أوجبه الله تعالى على عباده المؤمنين[1] ، قال الذهبى: حدث وكيع عن إسرائيل بحديث: « إذا جلس الرب على الكرسى » فاقشعر رجل عند وكيع ، فغضب وكيع ، وقال : « أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها » أخرجه عبد الله بن أحمد فى كتاب الرد على الجهمية ، وربما حصل معهم من عدم تلقيه بالقبول ترك ما وجب من الإيمان به ، فتشبه حالهم حال من قال الله فيهم (٢ : ٨٥) : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ ﴾ فلا يسلم من الكفر إلا من عمل بما وجب عليه فى ذلك ، من الإيمان بكتاب الله كله واليقين ، كما قال تعالى (٣ : ٧) : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأُخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذّكر إلا أولوا الألباب ﴾ ، فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس - رضى الله عنهما - تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن ، وهو حق لا يرتاب فيه مؤمن، وبعضهم يفهم منه غير المراد من المعنى الذى أراد الله ، فيحمله على غير معناه ؛ كما جرى لأهل البدع ، كالخوارج والرافضة والقدرية ، ونحوهم مما يتأول بعض آيات القرآن على بدعته . وقد وقع منهم الابتداع والخروج عن الصراط المستقيم ؛ فإن الواقع من أهل البدع وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس .

---

(١) قال الشيخ رحمه الله فى قرة عيون الموحدين : وقد ظهر من البدع فى زمن ابن عباس بدعة القدرية كما فى صحيح مسلم وغيره فقتل من دعاتهم غيلان ، قتله هشام بن عبد الملك لما أصر على قوله بنفى القدر ، ثم بعد ذلك أظهر الجعد بن درهم بدعة الجهمية، فقتله خالد بن عبد الله القسرى يوم الأضحى بعد صلاة العيد بمكة ا هـ.

وسبب هذه البدع جهل أهلها وقصورهم فى الفهم ، وعدم أخذ العلوم الشرعية على وجهها، وتلقيها من أهلها العارفين لمعناها الذين وفقهم الله تعالى لمعرفة المراد ، والتوفيق بين النصوص، والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضاً ، ورد المتشابه إلى المحكم ، وهذه طريقة أهل السنة والجماعة فى كل زمان ومكان ، فللّه الحمد لا نحصى ثناء عليه .

(ذكر ما ورد عن علماء السلف فى المتشابه)

قال فى الدر المنثور : أخرج الحاكم - وصححه - عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : «كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد ، فنزل القرآن من سبعة بواب على سبعة أحرف : زجر ، وأمر ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال . فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وافعلوا ما أمرتم به ، وانتهوا عما نهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله ، واعلموا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه ، وقولا : آمنا به كل من عند ربنا » .

قال : وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله تعالى (٣ : ٧) : ﴿ فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه - الآية ﴾ قال : طلب القوم التأويل ، فأخطأوا التأويل وأصابوا الفتنة ، وطلبوا ما تشابه منه ، فهلكوا بين ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿آيات محكمات﴾ قال : « منهن قوله تعالى (٦ : ١٥١ - ١٥٣) : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ إلى ثلاث آيات ، ومنهن (١٧ : ٢٣ - ٣٩) : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ إلى آخر الآيات » .

وأخرج ابن جرير من طريق أبى مالك عن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مُرّة عن ابن مسعود وناس من الصحابة - رضى الله عنهم - : « المحكمات : الناسخات التى يعمل بهن ، والمتشابهات : المنسوخات » .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن إسحاق بن سويد أن يحيى بن يَعمُر وأبا فاختة تراجعا هذه الآية : ﴿ هُنَّ أُمُّ الكتاب ﴾ فقال أبو فاختة : « هن فواتح السور ، منها يستخرج القرآن : ﴿ ألم ذلك الكتاب ﴾ ، منها استخرجت البقرة ، و﴿ الم * الله لا إله إلا هو ﴾ منها استخرجت آل عمران . وقال يحيى : هن اللاتى فيهن الفرائض ، والأمر والنهى والحلال والحرام ، والحدود وعماد الدين » [(١)] .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير قال : « ﴿ المحكمات ﴾ فيهن حجة الرب

(١) تمام الأثر عند ابن جرير « وضرب لذلك مثلاً ، فقال : أم القرى مكة ، وأم خراسان مرو ، وأم المسافرين : الذى يجعلون إليه أمرهم ، ويعنى بهم فى سفرهم ، قال : فذاك أمهم » .

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر « الرحمن » أنكروا ذلك ، فأنزل الله فيهم: ﴿ وهُمْ يكْفُرُون بالرحمن ﴾ .

فيه مسائل :

الأولى : عدم الإيمان بجحد شىء من الأسماء والصفات .

وعصمة العباد ، ودفع الخصوم والباطل ، ليس فيها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه ، ﴿وأخر متشابهات﴾ فى الصدق ، لهن تصريف وتحريف وتأويل ، ابتلى الله بهن العباد ، كما ابتلاهم بالحلال والحرام ، لا يصرفن إلى الباطل ، ولا يحرفن عن الحق » .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان : « إنما قال ﴿هن أُم الكتاب﴾ لأنه ليس من أهل دين لا يرضى بهن ، ﴿ وأخر متشابهات ﴾ يعنى فيما بلغنا « الم » ، و« المص »، و«المر» .

قلت : وليس فى هذه الآثار ونحوها ما يشعر بأن أسماء الله تعالى وصفاته من المتشابه ، وما قال النفاة من أنها من المتشابه دعوى بلا برهان .

قوله : (ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك ، فأنزل الله فيهم (١٣ : ٣٠) : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾) روى ابن جرير عن قتادة : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ ذكر لنا أن نبى الله ﷺ زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال مشركوا قريش [1] : لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك لقد ظلمناك ، ولكن اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله فقال أصحاب رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، دعنا نقاتلهم ، فقال : لا ، اكتبوا كما يريدون ، إنى محمد بن عبد الله ، فلما كتب الكاتب «بسم الله الرحمن الرحيم » قالت قريش : أما الرحمن فلا نعرفه ، وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ، فقال أصحابه : دعنا نقاتلهم ، قال: لا، ولكن اكتبوا كما يريدون ».

وروى أيضاً عن مجاهد قال : قوله (١٣ : ٣٠) : ﴿ كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا عليهم الذى أوحينا إليك ، وهم يكفرن بالرحمن ، قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾ قال : « هذا ما كاتب عليه رسول الله ﷺ قريشاً فى الحديبية ، كتب « بسم الله الرحمن الرحيم » قالوا : لا نكتب الرحمن ، ولا ندرى ما الرحمن ؟ ولا نكتب إلا باسمك اللهم . قال الله تعالى : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ الآية » .

وروى أيضاً عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : « كان رسول الله ﷺ يدعو ساجداً: يا رحمن يا رحيم ، فقال المشركون : هذا يزعم أنه يدعو واحداً ، وهو يدعو مثنى مثنى ، فأنزل الله (١٧ : ١١٠) : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ الآية » .

---

(١) الذى كان يقول ذلك هو سهيل بن عمرو الذى ندبته قريش ليتولى عنها عقد هذا الصلح مع رسول الله ﷺ.

الثانية : تفسير آية الرَّعْد .

الثالثة : تركُ التحديث بما لا يفهم السامع .

الرابعة : ذكر العِلَّة أنه يُفضى إلى تكذيب الله ورسوله ، ولو لم يتعمد المنكر .

الخامسة : كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك ، وأنه أهلكه .

❊ ❊ ❊

باب

قول الله تعالى (١٦ : ٨٣) : ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون﴾ .

قوله : (باب قول الله تعالى (١٦ : ٨٣) : ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴾) .

ذكر المصنف – رحمه الله – ما ذكر بعض العلماء فى معناها . وقال ابن جرير : فإن أهل التأويل اختلفوا فى المعنىّ بالنعمة . فذكر عن سفيان عن السدى ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾ قال : « محمد ﷺ » ، وقال آخرون : بل معنى ذلك أنهم يعرفون أن ما عدد الله تعالى ذكره فى هذه السورة من النعم من عند الله ، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك ؛ ولكنهم ينكرون ذلك فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم .

وأخرج عن مجاهد : ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾ ، قال : هى المساكن والأنعام وما يرزقون منها ، والسرابيل من الحديد والثياب ، تعرف هذا كفار قريش ثم تنكره بأن تقول : هذا كان لآبائنا فورّثونا إياه » وقال آخرون : معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم : من رزقكم ؟ أقروا بأن الله هو الذى يرزقهم ، ثم ينكرونه بقولهم : رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا .

وذكر المصنف مثل هذا عن ابن قتيبة ، وهو أبو محمد بن عبد الله بن مسلم قتيبة بن الدِّيْنَوَرِى قاضى مصر [(١)] النحوى اللغوى ، صاحب المصنفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة ، اشتغل ببغداد : وسمع الحديث على إسحاق بن راهويه وطبقته ، توفى سنة ست وسبعين ومائتين .

وقال آخرون ما ذكره المصنف : « عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلى » أبو عبد الله الكوفى الزاهد ، عن أبيه وعائشة وابن عباس . وعنه قتادة وأبو الزبير والزهرى ، وثقه أحمد وابن معين . قال البخارى : مات بعد العشرين ومائة ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾ قال : « إنكارهم إياها : أن يقول الرجل : لولا فلان ما كان كذا وكذا ، ولولا فلان ما

---

(١) لعله قاضى الدينور ؛ فإنه لم يتول القضاء إلا فيها .

قال مجاهد ما معناه : (هو قول الرجل : هذا مالى ، ورثته عن آبائى) .

وقال عَون بن عبد الله : « يقولون : لولا فلان لم يكن كذا » .

وقال قتيبة : « يقولون : هذا بشفاعة آلهتنا » .

وقال أبو العباس - بعد حديث زَيْدَ بن خالد الذى فيه : أن الله تعالى قال : « أصبح من عبادى مؤمنٌ بى وكافر - الحديث » وقد تقدم - وهذا كثير فى الكتاب والسنة ، يَذُمُّ سبحانه مَنْ يُضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به .

قال بعض السلف : هو كقولهم : كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقاً ، ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسِنة كثير .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير معرفة النعمة وإنكارها .

الثانية : معرفة أن هذا جار على ألسنة كثير .

الثالثة : تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة .

الرابعة : اجتماع الضدين فى القلب .

* * *

أصبت كذا وكذا » . واختار ابن جرير القول الأول ، واختار غيره أن الآية تعم ما ذكره العلماء فى معناها ، وهو الصواب ، والله أعلم .

قوله : (قال مجاهد) هو شيخ التفسير : الإمام الربانى ، مجاهد بن جَبْر المكى مولى بنى مخزوم . قال الفضل بن ميمون : سمعت مجاهداً يقول : عرضت المصحف على ابن عباس مرات ؛ أقفه عند كل آية ، وأسأله : فيم نزلت ؟ وكيف نزلت ؟ وكيف معناها ؟ توفى سنة اثنتين ومائة ، وله ثلاث وثمانون سنة رحمه الله .

قوله : (وقال أبو العباس) هو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية ، الإمام الجليل - رحمه الله - بعد حديث زيد بن خالد - وقد تقدم فى باب ما جاء فى الاستسقاء بالأنوار . قال : وهذا كثير فى الكتاب والسنة ، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به . قال بعض السلف : هو كقولهم : كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقاً ، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير . اهـ .

وكلام شيخ الإسلام يدل على أن حكم هذه الآية فيمن نسب النعم إلى غير الله الذى أنعم بها وأسند أسبابها إلى غيره ، كما هو مذكور فى كلام المفسرين المذكور بعضه هنا .

قال شيخنا رحمه الله : وفيه اجتماع الضدين فى القلب ، وتسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة .

باب

قول الله تعالى (٢ : ٢٢) : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ .

قوله : (باب قول الله تعالى (٢ : ٢٢) : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾) .

الند : المثل والنظير . وجعل الند لله : هو صرف أنواع العبادة - أو شىء منها لغير الله ؛ كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم ويدفع عنهم ، ويشفع لهم . وهذه الآية فى سياق قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ قال العماد ابن كثير رحمه الله فى تفسيره : قال أبو العالية : لا تجعلوا لله أنداداً أى عدلاء شركاء ، وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدى وأبو مالك وإسماعيل بن أبى خالد .

وقال ابن عباس : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ أى لا تشركوا بالله شيئاً من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه ربكم لا رب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذى يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق الذى لا شك فيه ، وكذلك قال قتادة . وعن قتادة ومجاهد : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ قال : أكفاء من الرجال تطيعونهم فى معصية الله. وقال ابن زيد : « الأنداد » هى الآلهة التى جعلوها معه ، وجعلوا لها مثل ما جعلوا له . وعن ابن عباس : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ أشباهاً . وقال مجاهد : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ قال : تعلمون أنه إله واحد فى التوراة والإنجيل وذكر حديثاً فى معنى هذه الآية الكريمة ، وهو ما فى مسند أحمد عن الحارث الأشعرى أن نبى الله ﷺ قال : « إن الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات : أن يعمل بهن ، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، وأنه كاد أن يبطئ بها ، فقال له عيسى عليه السلام : إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهن ، وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإما أن تبلغهن ، وإما أن أبلغهن ، فقال : يا أخى ؛ إنى أخشى إن سبقتنى أن أُعذب أو يخسف بى . قال : فجمع يحيى بن زكريا بنى إسرائيل فى بيت المقدس ، حتى امتلأ المسجد وقُعد على الشرَف ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن ، وآمركم أن تعملوا بهن : أولاهن : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورِق فجعل يعمل ويؤدى غَلّته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله خلقكم ورزقكم ، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وآمركم بالصلاة ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، وآمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل

قال ابن عباس فى الآية : « الأنداد : هو الشركُ ، أخفى من دَبيب النملِ على صَفَاة سوداء فى ظُلْمَة الليل ، وهو أن تقول : والله ، وحياتك يا فلان ، وحياتى ، وتقول : لولا كُلَيبة هذا لأتَانا اللصوص ، ولولا البطُّ فى الدار لأتانا اللصوص ، وقول الرجل

رجل معه صُرة من مسك فى عصابة كلهم يجد ريح المسك ، وإن خَلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وآمركم بالصدقة : فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال لهم : هل لكم أن أفتدى نفسى منكم ؟ فجعل يفتدى بالقليل والكثير حتى فَكَّ نفسه ، وآمركم بذكر الله كثيراً : فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً فى أثره ، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وإن العبد أحصنُ ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله ، قال : وقال رسول الله ﷺ : وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن : الجماعة ، والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد فى سبيل الله ، فإنه من خرج من الجماعة قِيْدَ شبر فقد خلع رِبْقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثَى[1] جهنم ، قالوا : يا رسول الله ، وإن صلّى وصام ؟ فقال: وإن صلّى وصام، وزعم أنه مسلم فادعوا المسلمين بأسمائهم التى سماهم الله عز وجل : المسلمين المؤمنين ، عباد الله ».

وهذا حديث حسن ، والشاهد منه فى هذه الآية قوله : « إن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » ، وهذه الآية دالة على توحيد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له . وقد استدل بها كثير من المفسرين على وجود الصانع . وهى دالة على ذلك بطريق الأولى . والآيات الدالة على هذا المقام فى القرآن كثيرة جداً ، وسئل أبو نواس عن ذلك . فأنشد :

تأمل فى نبات الأرض، وانظر إلى آثار ما صــــنع المليــك
عيــون من لُجـين ناظـــرات بأحداق هى الذهب الســبيك
على قُضُب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شـــــريك

وقال ابن المعتز :

فيا عجباً ، كيف يعصَى الإلـ ـه ، أم كيف يجحده الجاحد ؟
وفــى كــل شــــىء له آية تدل عــلى أنــه واحـــــد

قوله : (وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – فى الآية : الأنداد هو الشرك ، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل وهو أن تقول : والله ، وحياتك يا فلان وحياتى، وتقول : لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص ؛ ولولا البط فى الدار لأتانا اللصوص ،

---

(١) الجثا : بضم الجيم وفتح الثاء المثلثة مقصوراً – جمع وهو الشىء المجموع قال ابن الأثير : وتروى هذه الكلمة « جثىّ » بضم الجيم وكسر الثاء وتشديد الياء – جمع جاث : وهو الذي يجلس على ركبتيه .

لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها فلاناً ، هذا كلُّه به شركٌ » رواه ابن أبى حاتم .

وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال : « مَن حلفَ بغير الله فقد كفر ، أو أشرك » رواه الترمذى ، وحسنه وصححه الحاكم .

وقال ابن مسعود : « لأَن أحلفَ بالله كاذباً أحبُّ إلىَّ من أن أحلف بغيره صادقاً » .

وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها فلاناً ، هذا كله به شرك » رواه ابن أبى حاتم) بين ابن عباس - رضى الله عنهما - أن هذا كله من الشرك ، وهو الواقع اليوم على ألسن كثير ممن لا يعرف التوحيد ولا الشرك : فتنبه لهذه الأمور ، فإنها من المنكر العظيم الذى يجب النهى عنه والتغليظ فيه لكونه من أكبر الكبائر، وهذا من ابن عباس - رضى الله عنهما - تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى .

قوله : (وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » [1] رواه الترمذى وحسنه وصححه الحاكم) .

قوله : (فقد كفر أو أشرك) يحتمل أن يكون شكاً من الراوى . ويحتمل أن تكون « أو » بمعنى الواو ، فيكون قد كفر وأشرك ، ويكون من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر ، كما هو من الشرك الأصغر ، وورد مثل هذا عن ابن مسود بهذا اللفظ .

قوله : (وقال ابن مسعود: « لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلىَّ من أن أحلف بغيره صادقاً»).

ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذباً كبيرة من الكبائر ، لكن الشرك أكبر من الكبائر ، وإن كان أصغر ، كما تقدم بيان ذلك ، فإذا كان هذا حال الشرك الأصغر ، فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود فى النار ؟ كدعوة غير الله والاستغاثة به ، والرغبة إليه ، وإنزال حوائجه به ، كما هو حال الأكثر من هذه الأمة فى هذه الأزمان وما قبلها : من تعظيم القبور ، واتخاذها أوثاناً ، والبناء عليها ، واتخاذها مساجد ، وبناء المشاهد باسم الميت لعبادة من بُنيت باسمه وتعظيمه ، والإقبال عليه بالقبول والأقوال والأعمال . وقد عظمت البلوى بهذا الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله ، وتركوا ما دل عليه القرآن العظيم من النهى عن هذا الشرك وما يوصل إليه

---

(١) وذلك لأن حقيقة اليمين والقصد منه : إنما هو تأكيد الحالف قوله بالقسم المحلوف به الذى يقدر أن ينتقم منه ويعاقبه إن كان كاذباً . ولذلك ترى أكثر العامة يحلفون بالله كذباً غير مبالين ، فإذا استحلفوا بمن يعظمونه من الموتى والأولياء ويعتقدون له السر والتصرف تكعكعوا وصدقوا وإن كان فى ذلك ذهاب بعض ما يحرصون عليه من منفعة، يضحون بها خوفاً من عقاب وانتقام وتصرف ذلك الولى فيهم . ويؤكدون اعتقادهم هذا بحكايات مكذوبة يذيعها سدنة هذه المعابد الوثنية لجر النفع المادى باعتقاد العامة فى أوليائهم ، فيحكون أن رجلاً سرق سمكة مملحة وأكلها فاستحلفه المسروق منه بالله فأقسم بالله ثلاث مرات بأنه لم يأخذها ولم يرها فلم يحصل له شىء ، فاستحلفه بأحمد البدوى ، فما كاد يلفظ الاسم حتى سبقت السمكة من بطنه ولفظها . وذلك منهم اعتقاد أن البدوى أغير وأعز وأقدر من الله الحى القيوم العزيز الحكيم . قبحهم الله وأخزاهم .

وعن حذيفة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان » رواه أبو داود بسند صحيح .

قال الله تعالى (٧ : ٣٧) : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ، حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا : أينما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ كفرهم الله تعالى بدعوتهم من كانوا يدعونه من دونه فى دار الدنيا . وقد قال تعالى (٧٢ : ١٨) : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ ، وقال تعالى (٧٢ : ٢٠ ، ٢١) : ﴿ قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً * قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ﴾ وهؤلاء المشركون عكسوا الأمر ، فخالفوا ما بلغ به الأمة وأخبر به عن نفسه ﷺ ، فعاملوه بما نهاهم عنه من الشرك بالله والتعلق على غير الله ، حتى قال قائلهم :

يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن فى معادى آخذاً بيدى ... فضلاً ؛ وإلا فقل : يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

فانظر إلى هذا الجهل العظيم ، حيث اعتقد أنه لا نجاة له إلا بعياذه ولياذه بغير الله ، وانظر إلى هذا الإطراء العظيم الذى تجاوز الحد فى الإطراء الذى نهى عنه ﷺ بقوله : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » رواه مالك وغيره [1]، وقد قال تعالى (٦ : ٥٠) : ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك ﴾ .

فانظر إلى هذه المعارضة العظيمة للكتاب والسنة ، والمحادة لله ورسوله . وهذا الذى يقوله هذا الشاعر [2] هو الذى فى نفوس كثير ، خصوصاً ممن يدعون العلم والمعرفة ، ورأوا قراءة هذه المنظومة ونحوها لذلك وتعظيمها من القربات ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

قوله : (وعن حذيفة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ، ثم شاء فلان » رواه أبو داود بسند صحيح) .

---

(١) رواه البخارى عن ابن عباس عن عمر فى باب قول الله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم ﴾ من كتاب أحاديث الأنبياء وفى كتاب الحدود فى باب رجم الحبلى فى الزنا إذا أحصنت . قال الحافظ فى الفتح (ج٦ ص٣١٤) تقول : أطريت فلاناً : مدحت فأفطرت فى مدحه .

(٢) هو البوصيرى فى قصيدته المشهورة بالبردة ؛ التى هى عند الناس بمنزلة القرآن وربما عظمها بعضهم أكثر . فإنه يواظب على قراءتها أكثر مما يواظب على قراءة القرآن .

وجاء عن إبراهيم النَّخعي : « أنه يكره أن يقول : أعوذ بالله وبك ويجوز أن يقول: بالله ثم بك . قال : ويقول : لولا الله ثم فلان ، ولا تقولوا : لولا اللهُ وفلانٌ » .

وذلك لأن المعطوف بالواو يكون مساوياً للمعطوف عليه ، لكونها إنما وضعت لمطلق الجمع، فلا تقتضى ترتيباً ولا تعقيباً ، وتسوية المخلوق بالخالق شرك إن كان فى الأصغر - مثل هذا - فهو أصغر ، وإن كان فى الأكبر فهو أكبر . كما قال الله تعالى عنهم فى الدار الآخرة (٢٦ : ٩٧ ، ٩٨) : ﴿ تالله إن كنا لفى ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين ﴾ بخلاف المعطوف بثم فإن المعطوف بها يكون متراخياً عن المعطوف عليه بمهملة . فلا محذور لكونه صار تابعاً .

قوله : (وجاء عن إبراهيم النخعى : « أنه يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك ، ويجوز أن يقول : بالله ثم بك ، قال : ويقول : لولا الله ثم فلان ، ولا تقول : لولا الله وفلان ») .

وقد تقدم الفرق بين ما يجوز وما لا يجوز من ذلك ، وهذا إنما هو فى الحى الحاضر الذى له قدرة وسبب فى الشىء ، وهو الذى يجرى فى حقه مثل ذلك ، وأما فى حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهم ، ولا قدرة لهم على نفع ولا ضر ، فلا يقال فى حقهم شىء من ذلك ، فلا يجوز التعلق عليه بشىء ما بوجه من الوجوه ، والقرآن يبين ذلك وينادى بأنه يجعلهم آلهة إذا سُئلوا شيئاً من ذلك ، أو رغب إليهم أحد بقوله ، أو عمله الباطن أو الظاهر. فمن تدبر القرآن ورزق فهمه صار على بصيرة من دينه . وبالله التوفيق .

والعلم لا يؤخذ قسراً وإنما يؤخذ بأسباب ذكرها بعضهم فى قوله :

أخـــى ، لن تنال العلم إلا بســـتة	ســأنبيك عن تفصـــــيلها ببيان
ذكاء ، وحرص ، واجتهاد ، وبلغة	وإرشــــاد أســـتاذ ، وطـــول زمان

وأعظم من هذه الستة : من رزقه الله تعالى الفهم والحفظ ، وأتعب نفسه فى تحصيله فهو الموفق لمن شاء من عباده ، كما قال تعالى (٤ : ١١٣) : ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى حيث قال :

والجهل داء قاتل وشـــــفاؤه	أمـران فـى التركيب متفقـــان
نص من القرآن ، أو من سنة	وطـــــبيب ذاك العالم الربانى
والعلم أقســــام ثلاث ، مالها	من رابع ، والحـــق ذو تبيان
علم بأوصـــــاف الإله وفعله	وكذلك الأســـماء للرحـــمن
والأمـر والنهـى الذى هو دينه	وجــــــزاؤه يوم المعاد الثانى
والكل فى القرآن والسنن التى	جـــاءت عن المبعوث بالقرآن
والله ما قال امرؤ متحـــــذلق	بســــــواهما إلا من الهذيان

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية البقرة فى الأنداد .

الثانية : أن الصحابة - رضى الله عنهم - يفسرون الآية النازلة فى الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر .

الثالثة : أن الحلف بغير الله شرك .

الرابعة : أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغَموس .

الخامسة : الفرق بين الواو وثُمَّ فى اللفظ .

باب (ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله)

عن ابن عمر - رضى الله عنهما - : أن رسول الله ﷺ قال : « لا تحلفوا بآبائكم ، من حُلف له بالله فليُصَدِّق ، ومن حُلِف له بالله فلْيَرْضَ ، ومن لم يرضَ فليس من الله » رواه ابن ماجه بسند حسن .

قوله : (باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله)

(عن ابن عمر - رضى الله عنهما - : أن رسول الله ﷺ قال : « لا تحلفوا بآبائكم ، من حلف له بالله فليصدق ، ومن حُلف له بالله فليرض ، ومن لم يرض فليس من الله » رواه ابن ماجه بسند حسن) .

قوله : (لا تحلفوا بآبائكم) تقدم النهى عن الحلف بغير الله عموماً .

قوله : (من حلف له بالله فليصدق) هذا مما أوجبه الله على عباده ، وحضّهم عليه فى كتابه قال تعالى (٩ : ١١٩) : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ ، وقال (٣٣: ٣٥) : ﴿ والصادقين والصادقات ﴾ ، وقال (٤٧ : ٢١) : ﴿ فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ وهو حال أهل البر ، كما قال تعالى (٢ : ١٧٧) : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ إلى قوله : ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ .

وقوله : (ومن حُلف له بالله فليرض ، ومن لم يرض فليس من الله ﴾ أما إذا لم يكن له بحكم الشريعة على خصمه إلا اليمين فأحلفه ، فلا ريب أنه يجب عليه الرضا ، وأما إذا كان فيما يجرى بين الناس ، مما قد يقع فى الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك ، فهذا من حق المسلم على المسلم : أن يقبل منه إذا حلف له معتذراً أو متبرئاً من تهمة . ومن حقه عليه: أن يحسن به الظن إذا لم يتبين خلافه ، كما فى الأثر عن عمر - رضى الله عنه - : « ولا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شراً وأنت تجد لها فى الخير محملاً » .

فيه مسائل :

الأولى : النهى عن الحلف بالآباء .

الثانية : الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى .

الثالثة : وعيد من لم يرض .

❊ ❊ ❊

باب (قول ما شاء الله وشئت)

عن قُتَيلة : « أن يهودياً أتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، فقال :

وفيه : من التواضع والألفة والمحبة وغير ذلك من المصالح التى يحبها الله ما لا يخفى على من له فهم . وذلك من أسباب اجتماع القلوب على طاعة الله ، ثم إنه يدخل فى حسن الخلق الذى هو أثقل ما يوضع فى ميزان العبد ، كما فى الحديث [1] وهو من مكارم الأخلاق ، فتأمل أيها الناصح لنفسه ما يصلحك مع الله تعالى : من القيام بحقوقه ، وحقوق عباده ، وإدخال السرور على المسلمين ، وترك الانقباض عنهم والترفع عليهم . فإن فيه من الضرر ما لا يخطر بالبال ولا يدور بالخيال . وبسط هذه الأمور وذكر ما ورد فيها مذكور فى كتب الأدب وغيرها . فمن رزق ذلك والعمل بما ينبغى العمل به منه ، وترك ما يجب تركه من ذلك : دل على وفور دينه ، وكمال عقله . والله الموفق والمعين لعبده الضعيف المسكين . والله أعلم .

قوله : (باب قول : ما شاء الله وشئت)

(عن قُتَيلة : « أن يهودياً أتى النبى ﷺ فقال : إنكم تشركون ، تقولون : ما شاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة ، فأمرهم النبى ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة وأن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت » رواه النسائى وصححه) .

قوله : (عن قتيلة) بمثناة مصغرة بنت صيفى الأنصارية صحابية مهاجرة ، لها حديث فى سنن النسائى ، وهو المذكور فى الباب ، ورواه عنها عبد الله بن يسار الجعفى .

وفيه : قبول الحق ممن جاء به كائناً من كان ، وفيه : بيان النهى عن الحلف بالكعبة ، مع أنها بيت الله التى حجها وقصدها بالحج والعمرة فريضة . وهذا يبين أن النهى عن الشرك بالله عام لا يصلح منه شىء ، لا لملك مقرب ولا نبى مرسل ، ولا للكعبة التى هى بيت الله فى أرضه ، وأنت ترى ما وقع من الناس اليوم من الحلف بالكعبة وسؤالها ما لا يقدر عليه إلا الله

---

(١) رواه الترمذى - وقال : حسن صحيح . وابن حبان ، عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله ليبغض الفاحش البذئ » ورواه أبو داود مختصراً .

إنكم تشركون تقولون : ما شاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة ، فأمرهم النبى ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : وربِّ الكعبة ، وأن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت » رواه النسائى وصححه .

وله أيضاً عن ابن عباس – رضى الله عنهما – : « أن رجلاً قال للنبى ﷺ : ما شاء

ومن المعلوم أن الكعبة لا تضر ولا تنفع . وإنما شرع الله لعباده الطواف بها والعبادة عندها وجعلها للأمة قبلة ، فالطواف بها مشروع والحلف بها ودعاؤها ممنوع . فميِّز أيها المكلف بين ما يشرع وما يمنع ، وإن خالفك من خالفك من جهلة الناس الذين هم كالأنعام ، بل هم أضل سبيلاً .

قوله : (إنكم تشركون ، تقولون : ما شاء الله وشئت ﴾ والعبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله ، ولا قدرة له على أن يشاء شيئاً إلا إذا كان الله قد شاءه ، كما قال تعالى (٨١ : ٢٨ ، ٢٩) : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ، وقوله (٧٦ : ٢٩ ، ٣٠) : ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً * وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ .

وفى هذه الآيات والحديث : الرد على القدرية والمعتزلة نُفاة القدر ، الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله تعالى من العبد وشاءه ، وسيأتى ما يبطل قولهم فى « باب ما جاء فى منكرى القدر » إن شاء الله تعالى ، وأنهم مجوس هذه الأمة .

وأما أهل السنة والجماعة فتمسكوا بالكتاب والسنة فى هذا الباب وغيره . واعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى فى كل شىء مما يوافق ما شرعه الله وما يخالفه ، من أفعال العباد وأقوالهم . فالكل بمشيئة الله وإرادته . فما وافق ما شرعه رضيه وأحبه ، وما خالفه كرهه من العبد ، كما قال تعالى (٣٩ : ٧) : ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ الآية .

وفيه : بيان أن الحلف بالكعبة شرك ؛ فإن النبى ﷺ أقر اليهودى على قوله : « إنكم تشركون » .

قوله : (وله أيضاً عن ابن عباس – رضى الله عنهما – [1] : « أن رجلاً قال للنبى ﷺ : ما شاء الله وشئت ، قال : أجعلتنى لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده ») .

هذا يقرر ما تقدم من أن هذا شرك ؛ لوجود التسوية فى العطف بالواو .

---

(١) قال ابن كثير (ج١ ص١٠٤) : وقال سفيان بن سعيد الثورى عن الأجلح عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس . وساقه .

رواه ابن مردويه وأخرجه النسائى وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس عن الأجلح عنه ، وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد ، والله أعلم .

الله وشئت ، فقال : أجعلتني لله نداً ؟ ما شاء الله وحده » .

ولابن ماجه : عن الطُّفيل - أخى عائشة لأمها - قال : « رأيتُ كأنى أتيت على نفرٍ من اليهود ، قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون : عُزير ابنُ الله . قالوا: وإنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد ، ثم مررت بنفرٍ من النصارى فقلت : إنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : المسيحُ ابن الله ، قالوا : وإنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : ما شاء وشاء محمد ، فلما أصبحتُ أخبرتُ بها من أخبرت، ثم أتيتُ النبى ﷺ فأخبرته ، قال : هل أخبرت بها أحداً ؟ قلت : نعم ، قال: فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعدُ ، فإن طُفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من

وقوله : (أجعلتني لله نداً ؟) فيه : بيان أن من سوّى العبد بالله ولو فى الشرك الأصغر فقد جعله نداً لله ، شاء أم أبى ، خلافاً لما يقوله الجاهلون ، مما يختص بالله تعالى من عبادة ، وما يجب النهى عنه من الشرك بنوعيه ، و« من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » .

قوله [1] : (ولابن ماجه عن الطفيل أخى عائشة لأمها قال : « رأيت فيما يرى النائم كأنى أتيت على نفر من اليهود ؛ فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن اليهود . قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : عزيراً ابن الله ، قالوا : وإنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد ، ثم مررت بنفر من النصارى ، فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن النصارى ، قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله ، قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد ، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ، ثم أتيت النبى ﷺ فأخبرته فقال : هل أخبرت بها أحداً ؟ قلت : نعم ، قال : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعنى كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا : ما شاء الله وحده ») .

قوله : (عن الطفيل أخى عائشة لأمها) هو الطفيل بن عبد الله بن سَخْبرة أخو عائشة لأمها ، صحابى له حديث عند ابن ماجه ، وهو ما ذكره المصنف فى الباب .

وهذه الرؤيا حق أقرها رسول الله ﷺ وعمل بمقتضاها ، فنهاهم أن يقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، وأمرهم أن يقولوا : « ما شاء الله وحده » .

وهذا الحديث والذى قبله أمرهم فيه أن يقولوا : « ما شاء الله وحده » . ولا ريب أن هذا

---

(١) قال ابن كثير فى التفسير (ج١ ص١٠٣) : وقال حماد بن سلمة : حدثنا عبد الملك بن عمير عن ربعى بن خراش عن الطفيل بن سخبرة أخى عائشة لأمها - وساقه - ثم قال : - هكذا رواه ابن مردويه فى تفسير الآية . وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر عن عبد الملك بن عمير به بنحوه .

أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعنى كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله وحده » .

أكمل فى الإخلاص وأبعد عن الشرك من أن يقولوا : « ثم شاء فلان » لأن فيه التصريح بالتوحيد المنافى للتنديد من كل وجه . فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال فى مقام التوحيد والإخلاص .

قوله : (كان يمنعنى كذا وكذا أن أنهاكم عنها) ورد فى بعض الطرق : « أنه كان يمنعه الحياء منهم » (١) وبعد هذا الحديث الذى حدثه به الطفيل عن رؤياه خطبهم ﷺ فنهى عن ذلك نهياً بليغاً ، فما زال ﷺ يبلغهم حتى أكمل الله له الدين وأتم له به النعمة ، وبلّغ البلاغ المبين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

وفيه معنى قوله ﷺ : « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » (٢) .

قلت : وإن كانت رؤيا منام فهى وحى، يثبت بها ما يثبت بالوحى أمراً ونهياً، والله أعلم.

---

(١) لعل الذى كان يمنعه ﷺ أنه لم يكن الله أوحى إليه فيها شيئاً . فلما أوحى إليه بلغه ، أما الحياء فى تبليغ الأوامر والنواهى (*) ، فهذا ما لا يليق برسول الله ﷺ ، والله أعلم .

(٢) هذا الحديث إنما يخبر به النبى ﷺ عما كان يرى قبل النبوة (**) ، وهو يتحدث فى غار حراء من الرؤيا التى كانت تجئ مثل فلق الصبح . وذلك فى الدور الذى كان يهيئه الله فيه يتلقى الوحى ، وكان ذلك الدور ستة أشهر ، وهى بالنسبة إلى مدة النبوة الثلاثة والعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزءاً منها ، والله أعلم .

(*) قوله : (أما الحياء فى تبليغ الأوامر والنواهى » إلخ . أقول : هذا كلام جيد ، والجواب عن الرواية التى ذكرها الشارح ، وهى قوله : (ورد فى بعض الطرق أنه كان يمنعه الحياء منهم) أن يقال : إن صحت هذه الرواية ، فمعنى ذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يستحى منهم أن ينهاهم عن شىء لم يوحى ليه أن ينهى عنه ، وإن كان هو يستحسن تركه ، فلما جاءه الوحى بالنهى عنه بسبب الرؤيا المذكورة نهاهم عن ذلك ، كما أمرهم ﷺ بالتماس ليلة القدر فى السبع الأواخر من رمضان لما تواطئت رؤياهم على أنها فى السبع الأواخر ، وكان ذلك سبباً بشرعية مزيد الاجتهاد فى السبع المذكورة .

(**) قوله : (هذا الحديث إنما يخبر به النبى ﷺ عما كان يرى قبل النبوة) إلخ . يريد الشيخ حامد رحمه الله بهذا الكلام أن قول النبى ﷺ عن الرؤيا الصالحة أنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، أنه خبر عما قد وقع ومضى ، وليس الأمر كذلك بل الروايات الواردة فى هذا البيان تدل على أن مراد النبى ﷺ الخبر عن جنس الرؤيا فى الماضى والمستقبل ، وأنها تفيد وتحصل بها البشرى ، وأن فائدتها جزء من أجزاء النبوة المتضمنة الأخبار عن المغيبات ، ولهذا اختلفت ألفاظ الروايات فى ذلك ، ففى بعضها جزء من النبوة ، وفى بعضها غير ذلك ، ولو كان المراد ما قاله الشيخ حامد لم تتنوع العبارات عنها ، ووجه التنوع والله أعلم أن الرؤيا الصالحة فى حد ذاتها تختلف بحسب صلاح الرائى وما يكتشف رؤياه من القرائن والشواهد الدالة على صدق الرؤيا، وقد نص العلماء على ما ذكرناه ، قال النووى رحمه الله فى شرح مسلم ما نصه : (قال القاضى : أشار الطبرى إلى أن هذا الاختلاف راجع إلى اختلاف الرائى ، فالمرء الصالح تكون رؤياه جزء من ستة وأربعين جزءاً ، والفاسق جزء من سبعين جزءاً ، وقيل: المراد أن الخفى منها جزء من سبعين ، والجلى جزء من ستة وأربعين) ، ثم نقل عن الخطابى عن بعض أهل العلم نحو ما قاله الشيخ حامد ، ثم نقل عن المازرى ما نصه : (وقيل : المراد أن المنامات شبهاً مما حصل له وميز به من النبوة بجزء من ستة وأربعين) انتهى والله أعلم .

فيه مسائل :

الأولى : معرفة اليهود بالشرك الأصغر .

الثانية : فهم الإنسان إذا كان له هوى .

الثالثة : قوله ﷺ : « أجعلتني لله نداً ؟ » ، فكيف بمن قال : « مالى من ألوذ به سواك » والبيتين بعده .

الرابعة : أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله : « يمنعنى كذا وكذا » .

الخامسة : أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحى .

السادسة : أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام .

* * *

باب (من سبَّ الدهر فقد آذَى الله)

وقول الله تعالى (٤٥ : ٢٤) : ﴿ وقالوا : ما هى إلا حياتُنا الدُّنيا نموت ونَحْيا ، وما يُهْلِكُنا إلا الدَّهْرُ ، وما لهم بذلك مِنْ عِلم ، إنْ هُمْ إلا يَظُنُّون ﴾ .

قوله : (باب من سب الدهر فقد آذى الله)

وقول الله تعالى (٤٥ : ٢٤) : ﴿ وقالوا : ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾) .

قال العماد ابن كثير فى تفسيره : يخبر تعالى عن دهرية الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد ، ﴿ وقالوا : ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ ما ثم إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثم معاد ولا قيامة ، وهذا يقوله مشركوا العرب المنكرون للمعاد ، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم ، وهم ينكرون البدأة والرجعة . وتقول الفلاسفة الدهرية الدورية ، المنكرون للصانع ، المعتقدون أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شىء إلى ما كان عليه . وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ؛ فكابروا المعقول وكذبوا المنقول ، ولهذا قالوا : ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ قال الله تعالى : ﴿وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ أى يتوهمون ويتخيلون . فأما الحديث الذى أخرجه صاحبا الصحيح وأبو داود والنسائى من رواية سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : يؤذينى ابن آدم يَسُبُّ الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب الليل والنهار » [1] ، وفى رواية : « لا تسبوا الدهر

---

(١) فى ابن كثير : « اقلب ليله ونهاره » .

في الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « قال الله تعالى : يؤذينى ابن آدم، يَسُبُّ الدهرَ وأنا الدهرُ ، أُقَلِّبُ الليلَ والنهارَ » .

فإنى أنا الدهر » ، وفى رواية : « لا يقل ابن آدم : يا خيبة الدهر ، فإنى أنا الدهر ، أرسل الليل والنهار ، فإذا شئت قبضتهما » [1] . ا هـ .

قال فى شرح السنة : حديث متفق على صحته أخرجاه من طريق معمر من أوجه عن أبى هريرة قال : ومعناه أن العرب كان من شأنها ذم الدهر أى سبه عند النوازل ؛ لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره . فيقولون : أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر؛ فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها فكان مرجع سبها إلى الله عز وجل ، إذ هو الفاعل فى الحقيقة للأمور التى يصنعونها فنهوا عن سب الدهر . ا هـ باختصار .

وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جداً بهذا الطريق [٢] . قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار ، وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا ، فقال الله فى كتابه : ﴿ وقالوا : ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ . ويسبون الدهر . فقال الله عز وجل : « يؤذينى ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب الليل والنهار » .

وكذا رواه ابن أبى حاتم عن أحمد بن منصور عن سريج بن النعمان عن ابن عيينة مثله . ثم روى عن يونس عن ابن وهب عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يقول الله تعالى : يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر ، بيدى الليل والنهار » ، وأخرجه صاحب الصحيح والنسائى من حديث يونس بن يزيد به .

وقال محمد بن إسحاق عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : استقرضت عبدى فلم يعطنى ، ويسبنى عبدى ، يقول : وادهراه ، وأنا الدهر » .

قال الشافعى وأبو عبيد وغيرهما من الأئمة فى تفسير قوله : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » كانت العرب فى جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خيبة الدهر فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله تعالى . فكأنما إنما سبوا الله سبحانه ؛ لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة ، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ؛ لأن الله هو الدهر الذى يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال ، هذا أحسن ما قيل فى تفسيره – وهو المراد – والله أعلم .

---

(١) هذه الرواية ليست فى نسخ ابن كثير المطبوعة بأيدينا ، وهى فى تفسير البغوى .

(٢) أى من طريق سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « كان أهل الجاهلية » إلخ .

وفى رواية : « لا تسبوا الدهر ؛ فإن الله هو الدهر » .

فيه مسائل :

الأولى : النهى عن سب الدهر .

الثانية : تسميته آذى الله .

الثالثة : التأمل فى قوله : « فإن الله هو الدهر » .

الرابعة : أنه قد يكون ساباً ، ولو لم يقصده بقلبه .

❊ ❊ ❊

وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية فى عَدِّهم « الدهر » من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث . ا هـ .

وقد بين معناه فى الحديث بقوله : « أُقَلِّب الليلَ والنهار » وتقليبه تصرفه تعالى فيه بما يحبه الناس ويكرهونه .

وفى هذا الحديث زيادة لم يذكرها المصنف رحمه الله تعالى ، وهى قوله : « بيدى الأمر ».

قوله : (وفى رواية : « لا تسبوا الدهر ؛ فإن الله هو الدهر ») .

معنى هذه الرواية : هو ما صرح به فى الحديث من قوله : « وأنا الدهر ؛ أقلب الليل والنهار » يعنى أن ما يجرى فيه من خير وشر بإرادة الله وتدبيره بعلم منه تعالى وحكمة ، لا يشاركه فى ذلك غيره ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فالواجب عند ذلك حمده فى الحالتين وحسن الظن به سبحانه وبحمده ، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة . كما قال تعالى (٧: ١٦٨) : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ ، وقال تعالى (٢١ : ٣٥) : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ ونسبة الفعل إلى الدهر ومسبته كثيرة ، كما فى أشعار المولدين ، كابن المعتز والمتنبى وغيرهما . وليس منه وصف السنين بالشدة ونحو ذلك ، كقوله تعالى (١٢ : ٤٨) : ﴿ ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد ﴾ الآية ، وقال بعض الشعراء :

إن الليالى من الزمان مهولة تُطْوَى وتنشر بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السـرور قصار

وقال أبو تمام :

أعوام وصل كاد يُنْسـى طـيبها ذِكر النوى ، فكـأنها أيام
ثم انبرت أيام هجـر أعقبت نحوى أسًى ، فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنهـا وكأنهـم أحـلام

باب (التسمى بقاضى القضاة ونحوه)

فى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « إن أَخْنَع اسمٍ عند الله رجلٌ تسمى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله » .

قال سفيان : « مثل شاهان شاه » .

قوله : (باب التسمى بقاضى القضاة ونحوه)

ذكر المصنف رحمه الله هذه الترجمة إشارة إلى النهى عن التسمى بقاضى القضاة قياساً على ما فى حديث الباب ، لكونه شبهه فى المعنى فينهى عنه .

قوله : (فى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله » [1] .

لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله تعالى ، فهو ملك الأملاك ، لا ملك أعظم ولا أكبر منه مالك الملك ذو الجلال والإكرام . وكل ملك يؤتيه الله من يشاء من عباده فهو عارية يسرع ردها إلى المعير . وهو الله تعالى ، ينزع المِلكَ من مُلْكِه تارة ، وينزع المُلْكَ منه تارة [2] ، فيصير لا حقيقة له سوى اسم زال مسماه ، وأما رب العالمين فملكه دائم كامل لا انتهاء له بيده القسط يخفضه ويرفعه ، ويحفظ على عباده أعمالهم بعلمه سبحانه وتعالى ، وما تكتبه الحفظة عليهم، فيجازى كل عامل بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كما ورد فى الحديث : « اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله ، أسألك من الخير كله ، وأعوذ بك من الشر كله » .

قوله : (قال سفيان) يعنى ابن عيينة « مثل شاهنشاه » [3] عند العجم عبارة عن ملك الأملاك، ولهذا مثل به سفيان ؛ لأنه عبارة عنه بلغة العجم .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى . قال العزيزى فى الشرح الكبير : وفى الباب غيره أيضاً ، وفى قرة العيون : لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله فهو ملك الأملاك ، لأنه هو الملك فى الحقيقة له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير يتصرف فى الملوك وغيرهم بمشيئته وإرادته كما قال تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ﴾ [٣ : ٢٦] الآية ، فلا ينبغى أن يعظم المخلوق بما يشبه ما يعظم به الخالق جل وعلا ، وما كان مثل ذلك فينهى عنه كالذى ترجم به المصنف ؛ لأنه لا يصدق هذا المعنى إلا على الله ، فلا يصلح أن يسمى به المخلوق ، لأن كل لفظ يقتضى التعظيم والكمال لا يكون إلا له تعالى وتقدس دون غيره .

(٢) قال تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ؛ وتعز من تشاء وتذل من تشاء ﴾ [٣ : ٢٦] .

(٣) قال الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (ج١٢ ص٤٣) : فى حوادث سنة ٤٢٩ : وفى رمضان منها لقب جلال الدولة - السلجوقى - شاهنشاه الأعظم ، ملك الملوك بأمر الخليفة القائم بالله . وخطب له بذلك على المنابر=

= فنفرت العامة من ذلك ، ورموا الخطباء بالآجر ، ووقعت فتنة شديدة بسبب ذلك ، واستفتوا القضاة والفقهاء فى ذلك ؛ فأفْتى أبو عبد الله الصيمرى - الشافعى - أن هذه الأسماء يعتبر فيها القصد والنية . وقد قال الله تعالى : ﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾ ، وقال : ﴿ وكان وراءهم ملك ﴾ وإذا كان فى الأرض ملوك جاز أن يكون بعضهم فوق بعض وأعظم من بعض ، وليس فى ذلك ما يوجب النكير ؛ والمماثلة بين الخالق والمخلوقين .

وكتب القاضى أبو الطيب الطبرى : « إن إطلاق (ملك الملوك) جائز ويكون معناه ملك ملوك الأرض وإذا جاز أن يقال كافى الكفاة وقاضى القضاة جاز أن يقال : ملك الملوك ، وإذا كان فى اللفظ ما يدل على أن المراد به ملك الأرض زالت الشبهة . ومنه قولهم : اللهم أصلح الملك ، فيصرف الكلام إلى المخلوقين » .

وكتب التميمى الحنبلى نحو ذلك .

وأما الماوردى صاحب الحاوى الكبير فقد نقل عنه أنه أجاز ذلك أيضاً ، والمشهور عنه ما نقله ابن الجوزى والشيخ أبو منصور بن الصلاح فى أدب المفتى أنه منع من ذلك وأصر على المنع منه ، مع صحبته للملك جلال الدولة ، وكثرة ترداده عليه ووجاهته عنده ، وأنه امتنع من الحضور فى مجلسه حتى استدعاه جلال الدولة فى يوم عيد ؛ فلما دخل عليه دخل وهو وجل خائف أن يوقع به مكروهاً ، فلما واجهه قال له جلال الدولة : قد علمت أنه إنما منعك من موافقة الذين جوزوا ذلك مع صحبتك إياى ووجاهتك عندى : دينك واتباعك الحق وأن الحق آثر عندك من كل أحد ؛ ولو حابيتَ أحداً من الناس لحابيتنى ، وقد زادك ذلك عندى صحبة ومحبة وعلو مكانة . قال ابن كثير : والذى حمل القاضى الماوردى على ذلك المنع هو اتباع السنة التى وردت بها الأحاديث الصحيحة من غير وجه . قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان بن عيينة عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : (أخنع اسم عند الله يوم القيامة رجل تسمى بملك الأملاك) قال الزهرى : سألت أبا عمرو الشيبانى عن « أخنع اسم » قال : « أوضع » وقد رواه البخارى عن على بن المدينى عن ابن عيينة . وأخرجه مسلم من طريق همام عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل تسمى ملك الأملاك ، لا ملك إلا الله عز وجل » ، وقال الإمام أحمد : حدثنى محمد بن جعفر ، حدثنا عوف عن خلاس عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اشتد غضب الله على من قتله نبى ، غضب الله على رجل تسمى بملك الأملاك ، لا ملك إلا الله عز وجل » . اهـ .

وقال العزيرى فى الشرح الكبير : أى سمى نفسه ؛ أو سماه غيره فرضى به وأقره ونحوه وما فى معناه شاه شاهان، والعجم تقدم المضاف إليه على المضاف ، وألحق به ملك شاه . قيل : وإذا امتنع التسمى بما ذكر فباسم من له هذا الوصف كالله والجبار والرحمن أولى .

قال القرطبى : وحاصل الحديث أن من تسمى بهذا الاسم انتهى من الكبر إلى الغاية التى لا تنبغى لمخلوق ، وأنه قد تعاطى ما هو خاص بالإله الحق لما ثبت فى الفطرة أنه لا مالك لجميع الخلائق إلا الله ، فلا يصدق هذا الاسم إلا بالحقيقة عليه سبحانه وتعالى ، فعوقب على ذلك من الإذلال والاسترذال بما لم يعاقب به مخلوق ؛ والمالك من له الملك ؛ والملك أمدح ، والمالك أخص . وكلاهما واجب لله تعالى .

وقال الطيبى : قوله : « لا مالك إلا الله » استئناف لبيان تعليل تحريم التسمية ، فنفى جنس الملاك بالكلية ، لأن المالك الحقيقى ليس إلا هو ؛ ومالكية الغير مستردة إلى مالك الملوك ، فمن تسمى بذلك نازع الله سبحانه وتعالى فى رداء كبريائه ، واستنكف أن يكون عبده ، لأن وصف المالكية مختص بالله عز وجل لا يتجاوزه ، والمملوكية بالعبد لا تتجاوزه . فمن تعدى طوره فله الخزى فى الدنيا والعار ؛ وفى الآخرة الإلقاء فى النار . اهـ .

ومن العجائب التى لا تخطر بالبال ما نقله ابن بزيزة عن بعض شيوخه أن أبا العتاهية - الشاعر المشهور - كان له =

وفى رواية : « أغيظُ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه » .

قوله : « أخنع » يعنى : أوضع .

قوله : (وفى رواية : « أغيظ رجل على الله وأخبثه ») .

قوله : (أغيظ) من الغيظ وهو مثل الغضب والبغض ، فيكون بغيضاً إلى الله ، مغضوباً عليه [١] ، والله أعلم .

قوله : (وأخبثه) وهو يدل أيضاً على أن هذا خبيث عند الله فاجتمعت فى حقه هذه الأمور لتعاظمه في نفسه وتعظيم الناس له بهذه الكلمة التى هى من أعظم التعظيم ، فتعظمه فى نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل ، وضعه عند الله يوم القيامة ، فصار أخبث الخلق وأبغضهم إلى الله وأحقرهم ؛ لأن الخبيث البغيض عند الله يكون يوم القيامة أحقر الخلق وأخبثهم ، لتعاظمه فى نفسه على خلق الله بنعم الله .

قوله : (« أخنع » يعنى : أوضع) [٢] هذا هو معنى « أخنع » فيفيد ما ذكرناه فى معنى «أغيظ» أنه يكون حقيراً بغيضاً عند الله .

= ابنتان سمى إحداهما الله ، وسمى الأخرى الرحمن ، وهذا من أعظم القبائح ؛ وأشد الجرائم والفضائح . وقيل: إنه تاب .

وألحق بعض المتأخرين بملك الأملاك : حاكم الحكام . وقد شدد الزمخشرى النكير عليه فقال فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ رب غريق فى الجهل والجور من متقلدى الحكومة فى زمننا قد لقب أقضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين ، فاعتبر واستعبر . ا هـ ، واعترضه ابن المنير بأن خبر « أقضاكم علىّ » يؤخذ منه جواز أن يقال لأعدل القضاة وأعلمهم فى زمنه « قاضى القضاة » ، ورد عليه وشنع العلم العراقى منتصراً للزمخشرى . ومن النوادر : أن العز بن جماعة رأى أباه فى النوم ، فسأله عن حاله فقال : ما كان علىّ أضر من هذا الاسم ، فنهى الموثقين أن يكتبوا له فى الأسجال : قاضى القضاة ، بل قاضى المسلمين .

وقال ابن القيم : وتحريم التسمية بسيد الناس ، وسيدة الكل ، كما تحرم بسيد ولد آدم ، فإن ذا ليس لأحد إلا للرسول ﷺ . ا هـ .

قال أبو طاهر - غفر الله لهما - : ولعله يلحق بذلك ما تعارف عليه الناس فى بعض البلدان الإسلامية : كصاحب العزة ؛ وصاحب الجلالة ، ونحو ذلك ، وكل هذه الألقاب إنما شاعت فى الناس من وقت دخول الأعاجم وتمكن دولتهم فى البلاد الإسلامية ، وأنهم لم يكن لهم من العدل والدين والاستقامة والعلم والفضل ما يتزينون به عند الله والناس ، بل لعله كان لهم ضد ذلك ؛ فخشوا أن يسقطوا من أعين العامة فاخترعوا لهم تلك الأسماء والألقاب ما يلقى فى نفوسهم الوهم والتعظيم المتكلف والتبجيل المصطنع . ولقد كان السلف الصالح رضى الله عنهم يدعون بعضهم بعضاً بأسمائهم أو بوظائفهم، وقلوبهم مملوءة من المحبة والتوقير والإجلال لعلمائهم وأمرائهم، لما لهم من العلم والفضل والعدل والبر والإحسان التى جملهم الله بها ، نسأل الله أن يعيد للناس هذا فهو أنفع وأصلح مما هم عليه اليوم من هذه المداهنات والتملقات المتكلفة بالباطل .

(١) ويؤيده « اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك » أخرجه الطبرانى .

(٢) « أخنع » بفتح الهمزة والنون بينهما معجمة ساكنة أى أدخلها فى الخنوع؛ وهو الذل والضعة والهوان، ذكره=

فيه مسائل :

الأولى : النهى عن التسمى بملك الأملاك .

الثانية : إن ما فى معناه مثله ، كما قال سفيان .

الثالثة : التفطن للتغليظ فى هذا ونحوه ، مع القطع بأنَّ القلبَ لم يقصد معناه .

الرابعة : التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه .

❊ ❊ ❊

باب (احترام أسماء الله تعالى ، وتغيير الاسم لأجل ذلك)

عن أبى شريح : « أنه كان يُكْنَى أبا الحكم، فقال له النبى ﷺ: إن الله هو الحكَم،

وفيه التحذير من كل ما فيه تعاظم ، كما أخرج أبو داود عن أبى مِجْلز قال : « خرج معاوية رضى الله عنه على ابن الزبير وابن عامر . فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير ، فقال معاوية لابن عامر : اجلس ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعدة من النار » ، وأخرجه الترمذى أيضاً ، وقال : حسن .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : « خرج علينا رسول الله ﷺ متكئاً على عصا ، فقمنا إليه ، فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم ، يعظم بعضهم بعضاً » رواه أبو داود .

قوله : (أغيظ رجل) هذا من الصفات التى تمر كما جاءت ، وليس شىء مما ورد فى الكتاب والسنة إلا ويجب اتباع الكتاب والسنة فى ذلك وإثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى ، إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل كما تقدم . والباب كله واحد ، وهذا هو قول أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الفرق الناجية من الثلاث والسبعين فرقة ، وهذا التفرق والاختلاف إنما حدث فى أواخر القرن الثالث وما بعده كما لا يخفى على من له معرفة بما وقع فى الأمة من التفرق والاختلاف والخروج عن الصراط المستقيم، والله المستعان .

قوله : (باب احترام أسماء الله تعالى ، وتغيير الاسم لأجل ذلك)

(عن أبى شريح : « أنه كان يكنى أبا الحكم ، فقال له النبى ﷺ : إن الله هو الحكم ، وإليه الحكم ، فقال : إن قومى إذا اختلفوا فى شىء أتونى فحكمت بينهم فرضى كلا الفريقين

= الزمخشرى . وفى رواية « أخنى » من الخنا بمعنى الفحش فى القول ، ويحتمل أن يكون من قولهم : أخنى عليه الدهر أي أهلكه ، وذكر أبو عبيد أنه ورد بلفظ « أنخع » بتقديم النون على الخاء المعجمة وهو بمعنى أهلك . قال ابن بطال : وإذا كان الاسم أذل الأسماء كان من تسمى به أشد ذلاً يوم القيامة أى أشدهم ذلاً وصغاراً . وفى قرة العيون : وهذا من الصفات التى تمر كما جاءت من غير تحريف ولا تأويل ، ولا تشبيه ولا تمثيل ؛ والله أعلم .

فقال : ما أحسن هذا فمالك من الولد ؟ قلت : شريح ومسلم وعبد الله ، قال : فمن أكبرهم؟ قلت : شريح ، قال : فأنت أبو شريح » رواه أبو داود وغيره) .

قوله : (عن أبى شريح) قال فى خلاصة التذهيب : هو أبو شريح الخزاعى ، اسمه خويلد ابن عمرو [١] أسلم يوم الفتح ، له عشرون حديثاً ، اتفقا على حديثين وانفرد البخارى بحديث، وروى عنه أبو سعيد المقبرى ونافع بن جبير وطائفة . قال ابن سعد : مات بالمدينة سنة ثمان وستين . وقال الشارح : اسمه هانئ بن يزيد الكندى ، قاله الحافظ ، وقيل : الحارث الضبابى، قاله المزّى .

قوله : (يكنى) الكنية ما صدر بأب أو أم ونحو ذلك ، واللقب ما ليس كذلك [٢] كزين العابدين ونحوه .

وقول النبى ﷺ : (إن الله هو الحكم وإليه الحكم) فهو سبحانه الحكم فى الدنيا والآخرة ؛ يحكم بين خلقه فى الدنيا بوحيه الذي أنزل على أنبيائه ورسله ؛ وما من قضية إلا والله فيها حكم بما أنزل على نبيه من الكتاب والحكمة ، وقد يسر الله معرفة أكثر ذلك لأكثر العلماء من هذه الأمة ؛ فإنها لا تجتمع على ضلالة ، فإن العلماء وإن اختلفوا فى بعض الأحكام فلا بد أن يكون المصيب فيهم واحداً ، فمن رزقه الله تعالى قوة الفهم ، وأعطاه ملكة يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء ، يسر له ذلك بفضله ومنّه عليه ، وإحسانه إليه ، فما أجَلَّها من عطية ، فنسأل الله من فضله .

قوله : (وإليه الحكم فى الدنيا والآخرة) كما قال تعالى (٤٢ : ١٠) : ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ ، وقال (٤ : ٥٩) : ﴿ فإن تنازعتم فى شيء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ فالحكم إلى الله هو الحكم إلى كتابه والحكم إلى رسوله هو الحكم إليه فى حياته وإلى سنته بعد وفاته [٣] .

وقد قال ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن : « بِمَ تحكم ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد؟ قال : بسنة رسول الله ﷺ ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى ، فقال : الحمد لله الذى وفق رَسولَ رسولِ الله إلى ما يرضى رسول الله » ، فمعاذ من أَجَلِّ علماء الصحابة بالأحكام ومعرفة الحلال من الحرام ، ومعرفة أحكام الكتاب والسنة ، ولهذا ساغ له الاجتهاد إذا

(١) وبهامش الخلاصة : وقيل : عمرو بن خويلد وقيل : هانئ بن عمرو ، وقيل : خويلد بن شريح بن عمرو، كذا فى الكنى كتاب ابن الملقن وجامع الأصول .

(٢) فى كتب العربية : اللقب : ما أشعر بمدح أو ذم ، كزين العابدين ونحوه .

(٣) يعنى رد الحكم إلى الله : رد الحكم إلى كتابه ، ورد الحكم إلى الرسول ﷺ ورد الحكم إليه فى حياته ، ثم رده إلى سنته بعد وفاته ﷺ .

فقال : إن قومى إذا اختلفوا فى شىء أتونى فحكمت بينهم ، فرضىَ كلا الفريقين ، فقال: ما أحسن هذا ، فمالك من الولد ؟ قال : شُريح ، ومسلم ، وعبد الله . قال : فمن أكبرهم ؟ قلت : شريح . قال : فأنت أبو شريح » رواه أبو داود وغيره .

لم يجد للقضية حكماً فى كتاب الله ، ولا فى سنة رسوله ﷺ بخلاف ما يقع اليوم وقبله من أهل التفريط فى الأحكام ممن يجهل حكم الله فى كتابه وسنة رسوله ، فيظن أن الاجتهاد يسوغ له مع الجهل بأحكام الكتاب والسنة وهيهات (1) .

وأما يوم القيامة فلا يحكم بين الخلق إلا الله عز وجل إذا نزل لفصل القضاء بين العباد ، فيحكم بين خلقه بعلمه . وهو الذى لا يخفى عليه خافية من أعمال خلقه (٤ : ٤٠) : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لَدُنْه أجراً عظيماً ﴾ والحكم يوم القيامة إنما هو بالحسنات والسيئات ، فيؤخذ للمظلوم من الظالم ، من حسناته بقدر ظلامته إن كان له حسنات ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم ، فطرح على سيئات الظالم لا يزيد على هذا مثقال ذرة ، ولا ينقص هذا عن حقه بمثقال ذرة .

قوله : (فإن قومى إذا اختلفوا فى شىء أتونى فحكمت بينهم فرضى كلا الفريقين ، فقال : ما أحسن هذا) فالمعنى – والله أعلم – : أن أبا شريح لما عرف منه قومه أنه صاحب إنصاف وتحرٍّ للعدل بينهم ، ومعرفة ما يرضيهم من الجانبين ، صار عندهم مرضياً ، وهذا هو الصلح؛ لأن مداره على الرضى لا على الإلزام ، ولا على الكهان وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ولا على الاستناد إلى أوضاع أهل الجاهلية من أحكام كبرائهم وأسلافهم التى تخالف حكم الكتاب والسنة ، كما قدْ يقع اليوم كثيراً ؛ كحال الطواغيت الذين لا يلتفتون إلى حكم الله ولا إلى حكم رسوله . وإنما المعتمد عندهم ما حكموا به بأهوائهم وآرائهم (2) .

---

(1) وبخلاف الصنف الآخر : الذين يعنون بأقوال الناس وآرائهم فيحفظونها متوناً وشروحاً مهما كانت معقدة وطويلة ، ثم يقدمونها فى العبادات والأحكام بين يدى الله ورسوله ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، لهذا حرم الناس من خير وهدى وعز وسلطان بهذا العزل لكتاب الله وسنة رسوله عن وظيفتهما .

(2) فى قرة العيون : وأما ما يحكم به الجهلة من الأعراب ، ونحوهم من سوالف آبائهم وأهوائهم فليس من هذا الباب لما فيه من النهى الشديد والخروج عن حكم الله ورسوله إلى ما يخالفه ، كما قال تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [٥ : ٤٤] ، وهذا كثير ، فمن الناس من يحكم بين الخصمين برأيه وهواه ، ومنهم من يتبع فى ذلك سلفه ويحكم بما كانوا يحكمون به ، وهذا كفر إذا استقر وغلب على من تصدى لذلك ممن يرجع الناس إليه إذا اختلفوا . ا هـ .

والنص الصحيح فى إبطال حكم السوالف من حكام البدو غير المتدينين هو قوله تعالى: ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ وأبو شريح كان من قضاة الجاهلية قبل الإسلام ، ولذلك كنوه بـ «بأبى الحكم » ، فأنكرها عليه النبى ﷺ وغيرها ، ولفظ « الحكم » بفتحتين لا ينهى عنه فى الإسلام لقوله تعالى : ﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ﴾ وذلك لأنه يحكم بما شرعه الله من صلح وإصلاح وقد أذن الله للمؤمنين بأن يحكموا بين الناس بالعدل .

فيه مسائل :

الأولى : احترام أسماء الله وصفاته ، ولو لم يقصد معناه .

الثانية : تغيير الاسم لأجل ذلك .

الثالثة : اختيار أكبر الأبناء للكُنْية .

* * *

باب (من هَزَل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول)

وقول الله تعالى (٩ : ٦٥) : ﴿ ولئن سألتهم ليقولنَّ : إنما كنا نخوض ونلعب ، قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ ﴾ .

عن ابن عمر ، ومحمد بن كعب ، وزيد بن أسْلَم ، وقتادة - دخل حديثُ بعضهم فى بعض - أنه قال رجل فى غَزْوة تَبوك : « ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء أرْغَبُ بطوناً ، ولا أكذب ألسُناً ، ولا أجبنُ عند اللقاء ؛ يعنى رسولَ الله ﷺ وأصحابه القراء . فقال له

وقد يلتحق بهذا بعض المقلدة لمن لم يسغ تقليده ، فيعتمد على قول من قلده ويترك ما هو الصواب ، الموافق لأصول الكتاب والسنة . والله المستعان .

وقول رسول الله ﷺ : « فمالك من الولد ؟ قال : شريح ، ومسلم ، وعبد الله . قال : فمن أكبرهم ؟ قلت : شريح . قال : فأنت أبو شريح » رواه أبو داود وغيره فيه : تقديم الأكبر فى الكنية وغيرها غالباً ، وجاء هذا المعنى فى غير ما حديث . والله أعلم .

قوله : (باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول)

أى : فقد كفر .

قوله : (وقول الله تعالى (٩ : ٦٥) : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن : إنما كنا نخوض ونلعب قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ ﴾) .

قال العماد ابن كثير رحمه الله فى تفسيره : قال أبو مَعْشَر المدنى عن محمد بن كعب القُرظى وغيره : « قالوا : قال رجل من المنافقين : ما أرى مثل قُرَّائنا هؤلاء ؟ أرغبنا بطونا [(١)] وأكذبنا ألسناً ، وأجبننا عند اللقاء فرُفع ذلك إلى رسول الله ﷺ ، وقد ارتحل وركبَ ناقته، فقال : يا رسول الله ، إنما كُنَّا نخوض ونلعب ؛ ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق، فقال : ﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ، إن نعْفُ عن طائفة منكم نعذِّب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ وإن رجليه ليسفعان [(٢)] الحجارة ، وما

---

(١) فى تفسير ابن كثير وتفسير ابن جرير : « ما أرى قرآئنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً » .

(٢) سفع الطائر ضريبته - كمنع - لطمها بجناحيه ، وسفع فلان فلاناً لطمه وضربه ، والمعنى أن الحجارة تضرب رجليه من سرعة المسير وأنه مشغول عن ذلك .

عَوْفُ بن مالك : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه ، فجاء ذلك الرجلُ إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحلَ وركبَ ناقته ، فقال : يا رسول الله ، إنما كنَّا نخوض ونتحدثُ حديثَ الركب نقطع به عنا الطريق ، قال ابن عمر : كأنى أنظر متعلقاً بنسَعة ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة تَنكبُ رجليه ، وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب ، فيقولَ له رسول الله ﷺ:

يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بنِسْعَة ناقة رسول الله ﷺ » [١] ، وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال : « قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ، ولا أكذب ألسناً ، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل فى المجلس : كذبتَ ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن . قال عبد الله بن عمر : وأنا رأيته متعلقاً بحقْب ناقة رسول الله ﷺ تَنكُبه الحجارة ، وهو يقول : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعبَ ، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ » ، وقد رواه الليث عن هشام بن سعد بنحو من هذا .

وقال ابن إسحاق : « وقد كان جماعة من المنافقين منهم : وَديعة بن ثابت أخو بنى أمية بن زيد بن عمرو بن عوف ، ورجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له : مُخْشى بن حمِير ، يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تَبوك فقال بعضهم لبعض : أتحسَبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنا بكم غداً مُقرّنين فى الحبال ؛ إرجافاً وترهيباً للمؤمنين ، فقال مخشى بن حمير : والله لوددت أنى أقاضى على أن يُضْرَبَ كلُّ رجل منا مائة جلدة ، وأنا نتفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه، وقال رسول الله ﷺ - فيما بلغنى - لعمار ابن ياسر : أدرك القوم فإنهم قد احترقوا ، فسلهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا وكذا ، فانطلق إليهم عمار ، فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه . فقال وديعة بن ثابت - ورسول الله واقف على راحلته - فجعل يقول وهو آخذ بحقها : يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب فقال مخشى بن حمير : يا رسول الله قعد بى اسمى واسم أبى، فكأن الذى عناه أى بقوله تعالى : ﴿ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة ﴾ فى هذه الآية : مخشى بن حمير ، فسُمِّى عبدَ الرحمن ، وسأل الله أن يُقتل شهيداً لا يُعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر » .

---

(١) النسعة - بكسر النون وسكون المهملة ، سير مضفور يجعل زماماً للبعير وغيره (*) .

(*) قوله : (النسعة بكسر النون وسكون المهملة سير مضفور يجعل زماماً للبعير وغيره » أقول فى قوله : يجعل زماماً للبعير نظر والصواب أن النسعة حبل يشد به الرحل ولا يطلق على الزِمام . قال فى القاموس : (النسع بالكسر : سير ينسج عريضاً على هيئة أعنة النعال ، يشد به الرحال والقطعة منه نسعة ، وسمى نسعاً لطوله . انتهى المقصود .

﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ ما يلتفت إليه ، وما يزيده عليه » .

وقال عكرمة فى تفسير هذه الآية : « كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول : اللهم إنى أسمع آية وأنا أعنى تَقْشَعِرّ منها الجلود وتَجلُ منها القلوب ، اللهم فاجعل وفاتى قتلاً فى سبيلك ، لا يقول أحد أنا غَسّلتَ ، أنا كفنت ، أنا دفنت ، قال : فأصيب يوم اليمامة ، فما أحد من المسلمين إلا وقد وُجِدَ غيرُه » .

وقوله : (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ أى بهذه المقالة التى استهزأتم بها ، ﴿ إن نعفُ عن طائفة منكم ﴾ أى مخشى بن حمير ﴿ نعذّب طائفة ﴾ أى لا يعفى عن جميعكم ؛ ولا بد من عذاب بعضكم ﴿ إنهم كانوا مجرمين ﴾ أى بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة . انتهى .

قال شيخ الإسلام : وقد أمره الله تعالى أن يقول لهم : ﴿ قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ وقول من يقول : إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم : لا يصح ؛ لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر ، فلا يقال : قد كفرتم بعد إيمانكم ؛ فإنهم لا يزالوا كافرين فى نفس الأمر ، وإن أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان ، فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم ؛ وهم مع خواصهم ما زالوا كذلك ، ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين .

وقال رحمه الله فى موضع آخر : فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم : إنما تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له ؛ بل إنما كنا نخوض ونلعب ، وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدراً بهذا الكلام ، ولو كان الإيمان فى قلبه لمنعه أن يتكلم بهذا الكلام، والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه . كقوله تعالى (٢٤ : ٤٧ - ٥٢) : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ﴾ إلى قوله : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول ، وأخبر أن المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا ، فبين أن هذا من لوازم الإيمان . انتهى .

وفيه : بيان أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به [١] وأشدها خطراً إرادات

---

(١) ومن هذا الباب الاستهزاء بالعلم وأهله ؛ وعدم احترامهم لأجله [*] .

(*) قوله : (ومن هذا الباب الاستهزاء بالعلم وأهله وعدم احترامهم لأجله) أقول هذا القول فيه إجمال ، والصواب التفصيل فإن كان الاستهزاء بالعلم الشرعى أو بالعلماء لأجله فلا شك أن ذلك ردة عن الإسلام ، لأنه تنقص لما عظمه الله واستخفاف به ، وفى ضمن ذلك احتقاره والتكذيب به ، أما إن كان الاستهزاء بالعلماء يرجع إلى أمر آخر كالملابس أو حرص بعضهم على الدنيا أو اعتيادهم خلاف ما عليه الناس من العوائد التى لا تعلق لها بالشرع أو لما يشبه ذلك ، فهذا وأشباهه لا يكون ردة عن الإسلام لأنه لا يرجع إلى الدين وإنما يرجع إلى أمور أخرى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

فيه مسائل :

الأولى : وهى العظيمة – أن مَنْ هَزَل بهذا : إنه كافر .

الثانية : أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان .

الثالثة : الفرقُ بين النميمة ، وبين النصيحة لله ولرسوله .

الرابعة : الفرقُ بين العفو الذى يُحبُّه الله ، وبين الغِلْظة على أعداءِ الله .

الخامسة : أن من الاعتذارِ ما لا ينبغى أن يُقبلَ .

❊ ❊ ❊

باب

قول الله تعالى (٤١ : ٥٠ : ﴿ ولئن أذقْناه رحمةً منَّا من بعد ضَرَّاء مَسَّته ليقولنَّ : هذا لى ، وما أظن الساعة قائمةً ، ولئن رُجعْتُ إلى ربِّىَ إن لى عنده للحُسْنَى ، فلنُنبِّئنَّ الذين كفروا بما عملوا ، ولنُذيقنَّهم من عذابَ غليظ ﴾ .

قال مجاهد : « هذا بعملى وأنا محقوق به » .

وقال ابن عباس : « يريد من عندى » .

وقوله : ﴿ قال : إنما أوتيته على علم عندى ﴾ قال قتادة : على علم منى بوجوه المكاسب » .

وقال آخرون : « على علم من الله أنى له أهل » ، وهذا معنى قول مجاهد : « أوتيته على شرف » .

القلوب . فهى كالبحر الذي لا ساحل له . ويفيد الخوف من النفاق الأكبر . فإن الله تعالى أثبت لهؤلاء إيماناً قبل أن يقولوا ما قالوه ، كما قال ابن أبى مُليكة : « أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه » ، نسأل الله السلامة والعفو والعافية فى الدنيا والآخرة .

قوله : (باب قول الله تعالى (٤١ : ٥٠) : ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته﴾) الآية .

ذكر المصنف – رحمه الله تعالى – عن ابن عباس وغيره من المفسرين فى معنى هذه الآية وما بعدها ما يكفى فى المعنى ويشفى .

قوله : (قال مجاهد : هذا بعملى وأنا محقوق به . وقال ابن عباس : « يريد من عندى ». وقوله : ﴿قال : إنما أوتيته على علم عندى﴾ قال قتادة : « على علم منى بوجوه المكاسب » ، وقال آخرون : «على علم من الله أنى له أهل» وهذا معنى قول مجاهد : أوتيته على شرف»).

وليس فيما ذكروه اختلاف ، وإنما هى أفراد المعنى .

وعن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن ثلاثة من بنى إسرائيل : أبرصَ ، وأقرعَ ، وأعمى ، فأراد الله أن يَبْتَلِيَهم ، فبعث إليهم مَلَكاً ، فأتى الأبرصَ ، فقال : أىُّ شيء أحبُّ إليك ؟ قال : لونٌ حسن ، وجلد حسن ، ويَذْهَبُ عنى الذى قد قَذَرنى الناسُ به . قال : فمسحه فذهب عنه قَذَره ، فأعْطِىَ لوناً حسناً وجلداً حسناً . قال: فأىُّ المال أحبُّ إليك ؟ قال : الإبل أو البقر - شك إسحاق - فأعطِىَ ناقة عُشَراء، وقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأقرعَ ، فقال : أىُّ شيء أحبُّ إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عنى الذى قد قَذَرنى الناس به ، فمسحه ، فذهب عنه ، وأعطى شعراً حسناً ، فقال : أىُّ المال أَحبُّ إليك ؟ قال : البقر أو الإبل ، فأعطى بقرة حاملاً، قال : بارك الله لك فيها ، فأتى الأعمى ، فقال : أىُّ شيء أَحبُّ إليك ؟ قال : أن يردَّ الله إلىَّ بصَرى فأبصر به الناس ، فمسحه ، فردَّ الله إليه بصَره ، قال : فأىُّ المال أحبُّ

قال العماد ابن كثير - رحمه الله - فى معنى قوله تعالى (٣٩ : ٤٩) : ﴿ ثم إذا خوَّلناه نعمة منا قال : إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ﴾ يخبر أن الإنسان فى حال الضر يضرع إلى الله تعالى وينيب إليه ويدعوه ، ثم إذا خوّله نعمة منه طغى وبغى ، و﴿ قال : إنما أوتيته على علم﴾ أى لما يعلم الله من استحقاقى له ، ولولا أنى عند الله حظيظ لما خوَّلنى هذا [(١)] ، قال تعالى: ﴿بل هى فتنة ﴾ أي ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصى ؟ مع علمنا المتقدم بذلك ، ﴿ بل هى فتنة ﴾ [(٢)] أي اختبار ، ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ فلهذا يقولون ما يقولون ، ويدعون ما يدعون ، ﴿ قد قالها الذين من قبلهم ﴾ أي قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ، ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ أى فما صح قولهم ، ولا نفعهم جمعهم ، وما كانوا يكسبون ، كما قال تعالى مخبراً عن قارون (٢٨ : ٧٦ - ٧٨) : ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين* قال : إنما أوتيته على علم عندى ، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ؟ ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ ، وقال تعالى (٣٤ : ٣٥) : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ ا هـ .

قوله : (وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن ثلاثة من بنى إسرائيل - الحديث [(٣)] .

---

(١) فى تفسير ابن كثير زيادة : قال قتادة : « على علم عندى : على خير عندى » .

(٢) فى ابن كثير : « مع علمنا بذلك فهى فتنة » .

(٣) وقد حذفناه من الشرح منعاً للتكرار .

إليك ؟ قال : الغنم ، فأُعطىَ شاة والداً ، فأنْتجَ هذان ، وَوَلَّد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم ، قال : ثم إنه أتى الأبرصَ فى صورته وهيئته ، فقال : رجلٌ مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلوغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال - بعيراً أتَبَلَّغُ به فى سفرى ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال : كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يَقْذَرُك الناس فقيراً ، فأعطاك الله عز وجل المال ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر ، فقال : إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنتَ وأتى الأقرعَ فى صورته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، وردَّ عليه مثل ما ردَّ عليه هذا ، فقال : إن كنتَ كاذباً فَصيَّرَك الله إلى ما كنتَ ، قال : وأتى الأعمى فى صورته ، فقال : رجلٌ مسكين وابنُ سبيل . قد انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليومَ إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رَدَّ عليك بصرك شاةً أتَبَلَّغُ بها فى سفرى ، فقال : قد كنت أعمى فرَدَّ الله إلىَّ بصرى ، فخذْ ما شئتَ ، ودَعْ ما شئتَ ، فوالله لا أَجْهَدُك اليومَ بشىء أخذته لله . فقال : أمْسكْ مالك ، فإنما ابتُليتم ، فقد رضىَ الله عنك ، وسَخطَ على صاحبيك » أخرجاه .

(أخرجاه) أى البخارى ومسلم ، والناقة العشراء - بضم العين وفتح الشين وبالمد - هى الحامل .

قوله : (أنتج) وفى رواية: « فنتج » معناه : تولى نتاجها ، والناتج للناقة كالقابلة للمرأة.

قوله : (ولد هذا) هو بتشديد اللام ، أى تولى ولادتها ، وهو بمعنى (أنتج) فى الناقة ؛ فالمولِّد والناتج والقابلة بمعنى واحد ؛ لكن هذا للحيوان ، وذلك لغيره .

وقوله : (انقطعت بى الحبال) هو بالحاء المهملة والباء الموحدة : هى الأسباب .

قوله : (لا أجهدك) معناه : لا أشق عليك فى رد شىء تأخذ ، أو تطلبه من مالى ، ذكره النووى .

وهذا حديث عظيم ، وفيه معتبر : فإن الأولَين جحدا نعمة الله ، فما أقر لله بنعمة ، ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها ، ولا أديا حق الله فيها ، فحلَّ عليهما السخط . وأما الأعمى فاعترف بنعمة الله ، ونسبها إلى من أنعم عليه بها ، وأدى حق الله فيها ، فاستحق الرضا من الله بقيامه بشكر النعمة لما أتى بأركان الشكر الثلاثة التى لا يقوم الشكر إلا بها : وهى الإقرار بالنعمة ، ونسبتها إلى المنعم ، وبذلها فيما يحب .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - [1] : أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه

(١) فى مدارج السالكين (ج٢ ص١٣٥ - ١٤٤) .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآية .

الثانية : ما معنى : (ليقولنَّ هذا لى) .

الثالثة : ما معنى قوله : ﴿ إنما أُوتيته على علم عندى ﴾ .

الرابعة : ما فى هذه القصة العجيبة من العِبَرِ العظيمة .

❊ ❊ ❊

باب

قول الله تعالى (٧ : ١٩٠) : ﴿ فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون ﴾ .

الخضوع له ، والذل والمحبة ، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلاً بها لم يشكرها ، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضاً ، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها ، ومن عرف النعمة والمنعم بها ، وأقرَّ بها ولم يجحدها ، ولكن لم يخضع له ولم يحبه ويرض به ، وعنه لم يشكره أيضاً ، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقر بها ، وخضع للمنعم بها ، وأحبه ورضى به وعنه ، واستعملها فى محابه وطاعته ، فهذا هو الشاكر لها ، فلا بد فى الشكر من علم القلب ، وعمل يتبع العلم ، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له .

قوله : (قذرنى الناس) بكراهة رؤيته وقربه منهم .

قوله : (باب قول الله تعالى (٧ : ١٩٠) : ﴿ فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون ﴾) .

قال الإمام أحمد رحمه الله فى معنى هذه الآية : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة عن الحسن عن سَمُرة عن النبى ﷺ قال : « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سَمِّيه عبد الحارث ؛ فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش . وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره » وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار بُندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به . ورواه الترمذى فى تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه . ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعاً ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . ورواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيره عن أبى زرعة الرازى عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به مرفوعاً [1] .

---

(١) قال الحافظ ابن كثير : والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه : =

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا سهيل بن يوسف عن عمرو عن الحسن (جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال : « كان هذا فى بعض أهل الملل ولم يكن بآدم » . وحدثنا بشر ابن معاذ قال : حدثنى يزيد ، حدثنا سعيد عن قتادة قال : « كان الحسن يقول : « هم اليهود والنصارى ، رزقهم الله أولاداً فهوّدوا ونَصّروا » وهذا إسناد صحيح عن الحسن رحمه الله .

قال العماد ابن كثير فى تفسيره : وأما الآثار : فقال محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال : « كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فتعبدهم لله وتسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك ، فيصيبهم الموت ؛ فأتاهما إبليس فقال : أما إنكما لو تسميانه بغير الذى تسميانه به لعاش ، فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث ، ففيه أنزل الله : ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة ﴾ الآية ، وقال العوفى عن ابن عباس : « فأتاهما الشيطان ، فقال : هل تدريان ما يولد لكما ؟ أم هل تدريان ما يكون ، أبهيمة أم لا ؟ وزين لهما الباطل، إنه لغوى مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا فقال لهما الشيطان : إنكما ألم تسمياه بى لم يخرج سوياً ومات كما مات الأول . فسميا ولدهما عبد الحارث ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما ، فتعالى الله عما يشركون ﴾ ».

وذكر مثله عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . ورواه ابن أبى حاتم . وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ، ومن الطبقة الثانية : قتادة والسدى وجماعة من الخلف ؛ ومن المفسرين والمتأخرين جماعات لا يحصون كثرة .

قال العماد ابن كثير : وكأن أصله - والله أعلم - مأخوذ من أهل الكتاب [1] .

= أحدها : أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصرى . وقد وثقه ابن معين . ولكن قال أبو حاتم الرازى : لا يحتج به. ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعاً ، فالله أعلم .

الثانى : أنه قد روى من قول سمرة نفسه ، وليس مرفوعاً ، كما قال ابن جرير .

الثالث : أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا . فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه - ثم ساق ابن كثير الروايات عن الحسن ، بمثل ما روى ابن جرير عنه ثم قال : هذه أسانيد صحيحة عن الحسن : أنه فسر الآية بذلك ؛ وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية . ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره ، ولا سيما مع تقواه وورعه . فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابى ؛ ويحتمل أنه تلقاه عن بعض أهل الكتاب من آمن منهم ، مثل كعب أو وهب بن منبه أو غيرهما كما سيأتى بيانه إن شاء الله، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع . والله أعلم . ا هـ .

وقال الإمام أبو محمد بن حزم فى كتاب الملل والنحل : وهذا الذى نسبوه إلى آدم من أنه سمى ابنه عبد الحارث خرافة موضوعة مكذوبة من تأليف من لا دين له ولا حياء ؛ لم يصح سندها قط ، وإنما نزلت الآية فى المشركين على ظاهرها . ا هـ .

(١) قال ابن كثير : وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب ، أما نحن فعلى مذهب =

قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم مُعبَّد لغيرِ الله ، كعبد عمرو ، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك ، وحاشى عبدَ المطلب .

قلت : وهذا بعيد جداً .

قوله : (قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله ، كعبد عمرو ، وعبد الكعبة ، وما أشبه ذلك ، حاشَى عبد المطلب) .

ابن حزم : هو عالم الأندلس ، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبى الظاهرى صاحب التصانيف . توفى سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وله اثنتان وسبعون سنة .

وعبد المطلب هذا : هو جد رسول الله ﷺ ، وهو ابن هاشم بن عبد مناف بن قُصَىٍّ بن كلاب بن مُرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وما فوق عدنان مختلف فيه . ولا ريب أنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام .

حكى - رحمه الله - اتفاق العلماء على تحريم كل ما عُبد لغير الله ؛ لأنه شرك فى الربوبية والإلهية ؛ لأن الخلق كلهم ملك لله وعبيد له ، استعبدهم لعبادته وحده ، وتوحيده فى ربوبيته وإلهيته ، فمنهم من عبد الله ووحده فى ربوبيته وإلهيته ، ومنهم من أشرك به فى إلهيته وأقر له بربوبيته وأسمائه وصفاته ، وأحكامه القدرية جارية عليهم ولا بد ، كما قال تعالى (١٩ : ٩٣) : ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾ فهذه هى العبودية العامة . وأما العبودية الخاصة فإنها تختص بأهل الإخلاص والطاعة ، كما قال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ؟ ﴾ ونحوها .

قوله : (حاشى عبد المطلب) هذا استثناء من العموم المستفاد من « كل » وذلك أن تسميته بهذا الاسم لا محذور فيها ؛ لأن أصله من عبودية الرق ، وذلك أن المطلب أخو هاشم قدم المدينة ، وكان ابن أخيه « شيبة » هذا قد نشأ فى أخواله بنى النجار من الخزرج ؛ لأن هاشماً تزوج فيهم امرأة ، فجاءت منه بهذا الابن ، فلما شب فى أخواله ، وبلغ سن التمييز سافر به عمه المطلب إلى مكة بلد أبيه وعشيرته [1] ، فقدم به مكة وهو رديفه ، فرآه أهل مكة وقد تغير

= الحسن البصرى فى هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، وإنما المشركون من ذريته ؛ ولهذا قال : ﴿فتعالى الله عما يشركون ﴾ .

فائدة : قال شيخنا العلامة الشيخ عبد الله بن حسن ال الشيخ - أطال الله حياته لنفع المسلمين - أما قوله تعالى فى آخر الآية : ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ فليس المراد به آدم وحواء ، لأن الكلام قد تم قبله ، وهذا ابتداء كلام مستأنف ، وإنما المراد به المشركون ، وما ساقه الشارح رحمه الله فى قوله تعالى : ﴿ فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما ﴾ هو القول المعتمد الذى يدل عليه ظاهر القرآن . اهـ .

(١) وكانت أمه سلمى قد شرط أبوها عمرو بن يزيد الخزرجى النجارى على هاشم أن تلد عنده بالمدينة. فولدت=

وعن ابن عباس فى الآية : قال « لما تَغشَّاها آدم حملت ، فأتاهما إبليس . فقال : إنى صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة لتُطيعننى أو لأجعلنَّ له قَرنَى أيْل فيخرج من بطنك فَيَشقَّه ، ولأفعلنَّ ولأفعلنَّ ، يخوِّفهما ، سمِّياه عبد الحارث ، فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتاً ، ثم حملت ، فأتاهما ، فقال مثل قوله : فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتاً ، ثم حملت فأتاهما ، فذكر لهما ، فأدركهما حُبُّ الولد ، فسمياه عبد الحارث ، فذلك قوله: ﴿ جعلا له شركاء فيما آتاهما ﴾ » رواه ابن أبى حاتم .

لونه بالسفر ، فحسبوه عبداً للمطلب ، فقالوا : هذا عبد المطلب ، فعلق به هذا الاسم لزمه ؛ فصار لا يذكر ولا يدعى إلا به (١) ، فلم يبق للأصل معنى مقصود . وقد قال النبى ﷺ : «أنا ابن عبد المطلب » (٢) ، وقد صار معظماً فى قريش والعرب ، فهو سيد قريش وأشرفهم فى جاهليته ، وهو الذى حفر زمزم وصارت له السقاية وفى ذريته من بعده ، و« عبد الله » والد رسول الله ﷺ أحد بنى عبد المطلب ، وتوفى فى حياة أبيه . قال الحافظ صلاح الدين العلائى فى كتاب الدرة السنية فى مولد خير البرية : كان سن أبيه عبد الله حين حملت منه آمنة برسول الله ﷺ نحو ثمانية عشر عاماً ، ثم ذهب إلى المدينة ليمتار منها تمراً لأهله فمات بها عند أخواله بنى عدى بن النجار ، والنبى ﷺ حملٌ على الصحيح . انتهى .

قلت : وصار النبى ﷺ لما وضعته أمه فى كفالة جده عبد المطلب .

قال الحافظ الذهبى : وتوفى أبوه عبد الله وللنبى ﷺ ثمانية وعشرون شهراً ، وقيل : أقل من ذلك ، وقيل : وهو حمل . توفى بالمدينة ، وكان قد قدمها ليمتار تمراً ، وقيل : بل مرّ بها راجعاً من الشام ، وعاش خمسة وعشرين سنة . قال الواقدى : وذلك أثبت الأقاويل فى سنه ووفاته . وتوفيت أمه آمنة بالأبواء ، وهى راجعة به ﷺ إلى مكة من زيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار ، وهو يومئذ ابن ست سنين ومائة يوم . وقيل : ابن أربع سنين . ماتت أمه حملته أم أيمن مولاته إلى جده ، فكان فى كفالته إلى أن توفى جده ، وللنبى ﷺ ثمان سنين، فأوصى به إلى عمه أبى طالب . ا هـ .

قوله : (وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى الآية) قد قدمنا نظيره عن ابن عباس فى المعنى.

= له شيبة . ومات هاشم فى الشام ، فبقى شيبة بالمدينة عند أخواله بنى عدى بن النجار سبع سنين حتى ذهب عمه المطلب إليه وأحضره إلى مكة .

(١) واسمه العلم : شيبة الحمد .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن البراء بن عازب - وسأله رجل من قيس : أفررتم عن رسول الله يوم حنين ؟ فقال: « لكن رسول الله لم يفر . كانت هوازن رماة وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا ؛ فأكببنا على الغنائم فاستقبلتنا بالسهام . ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء وإن أبا سفيان آخذ بزمامها يقول : أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ، اللهم نزل نصرك » وكنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله ﷺ ، وإن الشجاع الذى يحاذى به ».

وله بسند صحيح عن قتادة قال : « شركاء فى طاعته ، ولم يكن فى عبادته » .

وله بسند صحيح عن مجاهد فى قوله : ﴿ لئن آتيتنا صالحاً ﴾ قال : « أشفقا أن لا يكون إنساناً » وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما .

فيه مسائل :

الأولى : تحريم كل اسم معبد لغير الله [(١)] .

الثانية : تفسير الآية .

الثالثة : أن هذا الشرك فى مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها .

الرابعة : أن هِبةَ الله للرجل البنتَ السوية من النعم .

الخامسة : ذكر السلف الفرق بين الشرك فى الطاعة والشرك فى العبادة .

* * *

باب

قول الله تعالى (٧ : ١٨٠) : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذَرُوا الذين يُلْحدُون فى أسمائه - الآية ﴾ .

قوله : (وله بسند صحيح عن قتادة قال : «شركاء فى طاعته ، ولم يكن فى عبادته») .

قال شيخنا - رحمه الله - : إن هذا الشرك فى مجرد تسمية ، لم يقصدا حقيقته التى يريدها إبليس ، وهو محمل حسن يبين أن ما وقع من الأبوين من تسميتهما ابنهما عبد الحارث إنما هو مجرد تسمية لم يقصدا تعبيده لغير الله . وهذا معنى قول قتادة : « شركاء فى طاعته ولم يكن فى عبادته » .

قوله : (باب قول الله تعالى (٧ : ١٨٠) : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه - الآية ﴾ [(٢)] .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » أخرجاه فى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة . ورواه البخارى عن أبى اليمان عن أبى الزناد عن الأعرج عنه ، وأخرجه الجوزجانى عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب بسنده مثله .

---

(١) كتسمية عبد على وعبد الحسين وغلام الحسين ، وعبد النبى وعبد الرسول .

(٢) فى قرة عيون الموحدين : أراد رحمه الله بهذه الترجمة الرد على من يتوسل بالأموات ، وأن المشروع هو التوسل بالأسماء الحسنى والصفات العليا ، والأعمال الصالحة .

ذكر ابن أبى حاتم عن ابن عباس : « ﴿ يلحدون فى أسمائه ﴾ : يشركون » .
وعنه : « سمُّوا اللات من الإله ، والعُزَّى من العزيز » .
وعن الأعمش : « يدخلون فيها ما ليس منها » .

وزاد بعد قوله : « يحب الوتر : هو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى الحميد ، المحصى، المبدىء ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد الماجد ، الواحد، الأحد ، الفرد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرءوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المعطى ، المانع، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور» ، ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب ، وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة، ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث ، والذى عوّل عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانى عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك . أي أنهم جمعوها من القرآن . كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان وأبى زيد اللغوى . والله أعلم .

هذا ما ذكره العماد ابن كثير فى تفسيره ، ثم قال : ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة فى تسعة وتسعين ، بدليل ما رواه أحمد عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبى سلمة الجهنى عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال : « ما أصاب أحداً قط هَم ولا حَزَن فقال : اللهم إنى عبدك ابن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماضٍ فىَّ حكمك ، عَدْلٌ فىَّ قضاؤك ، أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب هَمِّى وغمى ، إلا أذهب الله همه وحزنه ،

وأبدله مكانه فرحاً ، فقيل : يا رسول الله ؛ ألا نتعلمها ؟ فقال : بلى ، ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها » ، وقد أخرجه أبو حاتم وابن حبان فى صحيحه .

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ﴾ قال: « إلحاد الملحدين : أن دعوا اللات فى أسماء الله » ، وقال ابن جريج عن مجاهد : ﴿ وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ﴾ قال : « اشتقوا اللات من الله ، واشتقوا العُزَّى من العزيز » .

وقال قتادة : « يلحدون : يشركون » ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : «الإلحاد : التكذيب » .

وأصل الإلحاد فى كلام العرب : العدول عن القصد ، والميل والجور والانحراف . ومنه اللحد فى القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر . قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالإشـ ـراك والتعطـــيل والنكـــران

وأسماء الرب تعالى كلها أسماء وأوصاف تعرّف بها تعالى إلى عباده ، ودلت على كماله جل وعلا .

وقال رحمه الله : فالإلحاد : إما بجحدها وإنكارها ، وإما بجحد معانيها وتعطيلها ، وإما بتحريفها عن الصواب ، وإخراجها عن الحق بالتأويلات ، وإما أن يجعلها أسماء لهذه المخلوقات كإلحاد أهل الاتحاد . فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون ، محمودها ومذمومها ، حتى قال زعيمهم : هو المسمى بمعنى كل اسم ممدوح عقلاً وشرعياً وعرفاً ، وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . انتهى .

قلت : والذى عليه أهل السنة والجماعة قاطبة ، متقدمهم ومتأخرهم : إثبات الصفات التى وصف الله بها نفسه ، ووصفه بها رسول الله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، كما قال تعالى (٤٢ : ١١) : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ وأن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات يحتذى حدوده ومثاله ، فكما أنه يجب العلم بأن لله ذاتاً حقيقة لا تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين فله صفات حقيقة لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين ، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ، أو تأوله على غير ما ظهر من معناه ، فهو جهمى ، قد اتبع غير سبيل المؤمنين ، كما قال تعالى (٤ : ١١٥) : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما

تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين : نولِّه ما تولى، ونُصله جهنم وساءت مصيراً﴾ .

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى أيضاً :

(فائدة جليلة)

ما يجرى صفة أو خبراً على الرب تبارك وتعالى أقسام :

أحدها : ما يرجع إلى نفس الذات ، كقولك : ذات ، وموجود .

الثانى : ما يرجع إلى صفاته ونعوته ؛ كالعليم ، والقدير ، والسميع ، والبصير .ة

الثالث : ما يرجع إلى أفعاله ، كالخالق ، والرازق .

الرابع : التنزيه المحض ، ولا بد من تضمنه ثبوتاً ؛ إذ لا كمال فى العدم المحض ، كالقدوس ، والسلام .

الخامس : ولم يذكره أكثر الناس - وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة ، بل دال على معان ، نحو المجيد ، العظيم ، الصمد ؛ فإن المجيد: من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال ، ولفظه يدل على هذا . فإنه موضوع للسعة والزيادة والكثرة ، فمنه « استمجد المرخ والعفار » [1] وأمجد الناقة : علفها ، ومنه ﴿ذو العرش المجيد﴾ صفة للعرش ، لسعته وعظمته وشرفه . وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترناً بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ ؛ لأنه فى مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء ، وكثرته ودوامه ، فأتى فى هذا المطلوب باسم يقتضيه ، كما تقول : اغفر لى وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم ، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته . وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه . ومنه الحديث الذى فى الترمذى « ألظوا بياذا الجلال والإكرام » ، ومنه « اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنتَ المنان ، بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام » فهذا سؤال له ، وتوسل إليه بحمده ، وأنه : لا إله إلا هو المنان ، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته ، وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعاً عند المسئول . وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد .

السادس : صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر ، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغنى الحميد ، الغفور القدير ، الحميد المجيد ، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة فى القرآن . فإن « الغنى » صفة كمال ، و« الحمد » كذلك ، واجتماع

(١) المرخ - شجر سريع الورى والاشتعال . والعفار - كسحاب : شجر يتخذ منه الزناد ، والمراد : كثرت النار؛ ويضرب المثل للكثرة .

فيه مسائل :

الأولى : إثبات الأسماء .

الثانية : كونها حسنى .

الثالثة : الأمر بدعائه بها .

الرابعة : ترك من عارضَ من الجاهلين الملحدين .

الخامسة : تفسير الإلحاد فيها .

السادسة : وعيد من ألحد .

❋ ❋ ❋

باب (لا يقال : السلام على الله)

فى الصحيح عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « كنا إذا كنا مع النبى ﷺ فى الصلاة قلنا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان وفلان ، فقال النبى ﷺ : «لا تقولوا : السلامُ على الله ، فإن الله هو السلام » .

«الغنى» مع « الحمد » كمال آخر ، فله ثناء من غناه ، ثناء من حمده ، وثناء من اجتماعهما ، وكذلك الغفور القدير ، والحميد المجيد ، والعزيز الحكيم ، فتأمله ؛ فإنه من أشرف المعارف.

قوله : (باب لا يقال : السلام على الله)

قوله : (فى الصحيح عن ابن مسعود - إلخ) هذا الحديث رواه البخارى ومسلم ، وأبو داود والنسائى ، وابن ماجه ، من حديث شقيق بن سلمة عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال: « كنا إذا جلسنا مع رسول الله ﷺ فى الصلاة . قلنا : السلام على الله قبل عباده ، السلام على فلان وفلان - الحديث » وفى آخره ذكر التشهد الأخير . رواه الترمذى من حديث الأسود بن يزيد عن ابن مسعود ، وذكر فى الحديث سبب النهى عن ذلك بقوله : « فإن الله هو السلام ومنه السلام » ، وقد كان النبى ﷺ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة يستغفر ثلاثاً ، ويقول : « اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » ، وفى الحديث : « إن هذا هو تحية أهل الجنة لربهم تبارك وتعالى » ، وفى التنزيل ما يدل على أن الرب تبارك وتعالى يسلم عليهم فى الجنة ، كما قال تعالى (٣٦ : ٥٨) : ﴿ سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم﴾ .

ومعنى قوله : « إن الله هو السلام » إن الله سالم من كل نقص ، ومن كل تمثيل ، فهو الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل عيب ونقص .

قال العلامة ابن القيم فى بدائع الفوائد : السلام اسم مصدر ، وهو من ألفاظ الدعاء ،

. . . .

يتضمن الإنشاء والإخبار ، فجهة الخبرية فيه لا تناقض الجهة الإنشائية . وهو معنى السلام المطلوب عند التحية ، وفيه قولان مشهوران :

الأول : أن السلام هنا هو الله عز وجل ، ومعنى الكلام : نزلت بركته عليكم ، ونحو ذلك فاختير فى هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم « السلام » دون غيره من الأسماء .

الثانى : أن السلام مصدر بمعنى السلامة ، وهو المطلوب المدعو به عند التحية ، ومن حجة أصحاب هذا القول : أنه يأتى مُنكراً ، فيقول المسلّم : « سلام عليكم » ولو كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل كذلك ، ومن حجتهم : أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى ؛ وإنما المقصود منه : الإيذان بالسلامة خبراً ودعاء .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : وفصل الخطاب أن يقال : الحق فى مجموع القولين . فكل منهما بعض الحق ، والصواب فى مجموعهما . وإنما يتبين ذلك بقاعدة ، وهى : أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل فى كل مطلوب ، ويتوسل بالاسم المقتضى لذلك المطلوب المناسب لحصوله ، حتى إن الداعى متشفع إلى الله تعالى متوسل به إليه ، فإذا قال : رب اغفر لى وتب علىَّ إنك أنت التواب الغفور فقد سأله أمرين ، وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه . وقال ﷺ لأبى بكر رضى الله عنه وقد سأله ما يدعو به : « قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » ، فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التى هى أهم عند الرجل ، أتى فى طلبها بصيغة اسم من أسماء الله تعالى وهو « السلام » الذى تطلب منه السلامة ، فتضمن لفظ السلام معنيين : أحدهما : ذكر الله ، والثانى : طلب السلامة وهو مقصود المسلم ، فقد تضمن « سلام عليكم » اسماً من أسماء الله ، وطلب السلامة منه . فتأمل هذه الفائدة . وحقيقته : البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب . وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه ، فمن ذلك قولهم : سلمك الله ومنه دعاء المؤمنين على الصراط « رب سلم سلم » ومنه سلم الشيء لفلان ، أي خلص له وحده . قال تعالى (٣٩ : ٢٩) : ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل ﴾ أي خالصاً له وحده لا يملكه معه غيره . ومنه السِّلم ضد الحرب ؛ لأن كل واحد من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر ، ولهذا بنى فيه على المفاعلة ، فقيل : المسالمة مثل المشاركة ، ومنه : القلب السليم ، وهو النقى من الدغل والعيب . وحقيقته : الذى قد سلم لله وحده فخلص من دغل الشرك وغله ، ودغل الذنوب والمخالفات ، فهو مستقيم على صدق حبه ، وحسن معاملته . وهذا هو الذى ضمن له النجاة من عذاب الله والفوز بكرامته . ومنه أخذ الإسلام ، فإنه من هذه المادة ؛ لأنه الاستسلام والانقياد لله ، والتخلص من شوائب الشرك ؛ فسلم لربه وخلص له ، كالعبد الذى سلم لمولاه

فيه مسائل :

الأولى : تفسير السلام .

الثانية : أنه تحية .

الثالثة : أنها لا تصلح لله .

الرابعة : العلة فى ذلك .

الخامسة : تعليمهم التحية التى تصلح لله .

* * *

باب (قول : اللهم اغفر لى إن شئت)

فى الصحيح عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقلْ أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت ، لِيَعْزِم المسألة ؛ فإن الله لا مُكْرِه له » .

ليس له فيه شركاء متشاكسون . ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم الخالص لربه ، وللمشرك به .

قوله : (باب قول : اللهم اغفر لى إن شئت)

يعنى : أن ذلك لا يجوز ، لورود النهى عنه فى حديث الباب .

قوله : (فى الصحيح عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقل أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت ، ليعزم المسألة ؛ فإن الله؟ لا مُكره له » ﴾ بخلاف العبد ، فإنه قد يعطى السائل مسألته لحاجته إليه ، أو لخوفه أو رجائه ، فيعطيه مسألته وهو كاره . فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلّق حصول حاجته على مشيئة المسئول ، مخافة أن يعطيه وهو كاره ، بخلاف رب العالمين ، فإنه تعالى لا يليق به ذلك لكمال غناه عن جميع خلقه ، وكمال جوده وكرمه ، وكلهم فقير إليه ، محتاج لا يستغنى عن ربه طرفة عين ، وعطاؤه كلام . وفى الحديث : « يَمينُ الله مَلأى ، لا يغيضها نفقة سَحّاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يَغِضْ ما فى يمينه ، وفى يده الأخرى القِسْطُ يخفضه ويرفعه » [1] يعطى تعالى لحكمة ، ويمنع لحكمة ، وهو الحكيم الخبير . فاللائق

---

(١) رواه البخارى فى عدة مواضع من الجامع ومسلم عن أبى هريرة وفيه زيادة « وكان عرشه على الماء » بعد «خلق السموات والأرض » ، وفى تفسير سورة هود من البخارى أول الحديث « أنفق أُنْفِق عليك ، وقال : « يد الله ملأى - الحديث » قال الحافظ فى الفتح : وترد رواية : « يمين الله » على من فسر اليد هنا بالنعمة ، وأبعد منه فسرها بالخزائن . ا هـ . ومعنى : « يغيضها » ينقصها ، يقال : غاض الماء إذا نقص ، ومعنى « سحاء » أى دائمة الصب والعطاء الكبير .

ولمسلم : « وليُعْظِم الرغبةَ ، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه » .

فيه مسائل :

الأولى : النهى عن الاستثناء فى الدعاء .

الثانية : بيان العلة فى ذلك .

الثالثة : قوله : « ليعزم المسألة » .

الرابعة : إعظام الرغبة .

الخامسة : التعليل لهذا الأمر .

❊ ❊ ❊

بمن سأل الله أن يعزم المسألة ، فإنه لا يعطى عبده شيئاً عن كراهة ، ولا عن عظم مسألة . وقد قال بعض الشعراء فيمن يمدحه :

ويعظم فى عين الصغير صغارها ويصغر فى عين العظيم العظائم

وهذا بالنسبة إلى ما فى نفوس أرباب الدنيا ، وإلا فإن العبد يعطى تارة ، ويمنع أكثر ويعطى كرهاً ؛ والبخل عليه أغلب . وبالنسبة إلى حاله هذه فليس عطاؤه بعظيم ، وأما ما يعطيه الله تعالى عباده فهو دائم مستمر يجود بالنوال قبل السؤال ، من حين وضعت النطفة فى الرحم ، فنعمه على الجنين فى بطن أُمه دارّة ، يربيه أحسن تربية ، فإذا وضعته أمه عطف عليه والديه ورباه بنعمه حتى يبلغ أشدّه ، يتقلب فى نعم الله مدة حياته ، فإن كانت حياته على الإيمان والتقوى ازدادت نعم الله تعالى عليه إذا توفاه أضعاف أضعاف ما كان عليه فى الدنيا من النعم التى لا يقدر قدرها إلا الله ، مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين . وكل ما يناله العبد فى الدنيا من النعم وإن كان بعضها على يد مخلوق فهو بإذن الله وإرادته وإحسانه إلى عبده ، فالله تعالى هو المحمود على النعم كلها ، فهو الذى شاءها وقدّرها ، وأجراها عن كرمه وجوده وفضله ، فله النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن . قال تعالى (١٦ : ٥٣) : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ وقد يمنع سبحانه عبده إذا سأله لحكمة وعلم بما يصلح عبده من العطاء والمنع ، وقد يؤخر ما سأله عبده لوقته المقدر ، أو ليعطيه أكثر . فتبارك الله رب العالمين .

وقوله : (ولمسلم : وليعظم الرغبة) أى فى سؤاله ربه حاجته ؛ فإنه يعطى العظائم كرماً وجوداً وإحساناً . فالله تعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه ، أى ليس شيء عنده بعظيم ، وإن عظم فى نفس المخلوق ؛ لأن سائل المخلوق لا يسأله إلا ما يهون عليه بذله ، بخلاف رب العالمين ، فإن عطاءه كلام (٣٦ : ٨٢) : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

باب (لا يقول : عبدى وأَمَتى)

فى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقلْ أحدُكم : أطعمْ ربَّك ، وَضِّىءْ ربَّك ، وليقلْ : سيِّدى ومولاى ، ولا يقل أحدكم : عبدىَ وأمتى ، وليقل : فَتَاى وفتاتى وغلامى » .

وفيه مسائل :

الأولى : النهىُ عن قولِ : عبدى وأمتى .

الثانية : لا يقول العبد : ربِّى ، ولا يقال له : أَطْعِمْ ربَّك .

الثالثة : تعليم الأول قول : فتاى ، وفتاتى ، وغلامى .

الرابعة : تعليم الثانى قول : سيدى ومولاى .

الخامسة : التنبيه للمراد ، وهو تحقيق التوحيد حتى فى الألفاظ .

قوله : (باب : لا يقول : عبدى وأمتى)

ذكر الحديث الذى فى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم : أطعم ربك ، وضىء ربك ، وليقل : سيدى ومولاى ، ولا يقل أحدكم: عبدى وأمتى ، وليقل : فتاى وفتاتى وغلامى ») .

هذه الألفاظ المنهى عنها ، وإن كانت تطلق لغة ، فالنبى ﷺ نهى عنها تحقيقاً للتوحيد ، وسداً لذرائع الشرك ، لما فيها من التشريك فى اللفظ ؛ لأن الله تعالى هو رب العباد جميعهم، فإذا أطلق على غيره شاركه فى الاسم ، فينهى عنه لذلك ، وإن لم يقصد بذلك التشريك فى الربوبية التى هى وصف الله تعالى . وإنما المعنى أن هذا مالك له ، فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار . فالنهى عنه حسماً لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق ، وتحقيقاً للتوحيد ، وبعداً عن الشرك حتى فى اللفظ ، وهذا من أحسن مقاصد الشريعة ، لما فيه من تعظيم الرب تعالى ، وبعده عن مشابهة المخلوقين ، فأرشدهم ﷺ إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ ، وهو قوله : «سيدى ومولاى » ، وكذا قوله : « ولا يقل أحدكم : عبدى وأمتى » لأن العبيد عبيد الله ، والإماء إماء الله . قال الله تعالى (١٩ : ٩٣) : ﴿ إنْ كلٌّ من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾ ففى إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريك فى اللفظ ، فنهاهم عن ذلك تعظيماً لله تعالى ، وأدباً وبعداً عن الشرك ، وتحقيقاً للتوحيد وأرشدهم إلى أن يقولوا : «فتاى وفتاتى وغلامى » وهذا من باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد ، فقد بلّغ ﷺ أمته كل ما فيه لهم نفع ؛ ونهاهم عن كل ما فيه نقص فى الدين . فلا خير إلا دلّهم عليه ، خصوصاً فى تحقيق التوحيد ، ولا شر إلا حذرهم منه ، خصوصاً ما يقرب من الشرك لفظاً ، وإن لم يقصد به . وبالله التوفيق .

باب (لا يَرُدُّ مَنْ سألَ بالله)

عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ : «من سألَ بالله فأعطوه، ومن استعاذ بالله فأعيذوه ،

قوله : (باب : لا يردُّ من سأل بالله)

ظاهر الحديث النهى عن رد السائل إذا سأل بالله ، لكن هذا العموم يحتاج إلى تفصيل بحسب ما ورد فى الكتاب والسنة ، فيجب إذا سأل السائل ماله فيه حق كبيت المال أن يجاب فيعطى منه على قدر حاجته وما يستحقه وجوباً ، وكذلك إذا سأل المحتاج من فى ماله فضل فيجب أن يعطيه على حسب حاله ومسألته ، خصوصاً إذا سأل من لا فضل عنده ، فيستحب أن يعطيه على قدر حال المسئول ما لا يضر به ولا يضر عائلته ، وإن كان مضطراً وجب أن يعطيه ما يدفع ضرورته .

ومقام الإنفاق من أشرف مقامات الدين ، وتفاوت الناس فيه بحسب ما جبلوا عليه من الكرم والجود ، وضدهما من البخل والشح . فالأول : محمود فى الكتاب والسنة . والثانى : مذموم فيهما . وقد حث الله تعالى عباده على الإنفاق لعظم نفعه وتعديه وكثرة ثوابه . قال الله تعالى (٢ : ٢٦٧ ، ٢٦٨) : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ﴾ ، وقال تعالى (٥٧ : ٧) : ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ ، وذلك الإنفاق من خصال البر المذكورة فى قوله (٢ : ٧٧) : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين – الآية ﴾ فذكره بعد ذكر أصول الإيمان وقبل ذكر الصلاة ، وذلك – والله أعلم – لتعدى نفعه ، وذكره تعالى فى الأعمال التى أمر بها عباده ، وتعبدهم بها ووعدهم عليها الأجر العظيم . قال تعالى (٣٣ : ٣٥) : ﴿ إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ .

وكان النبى ﷺ يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء ، نصحاً للأمة وحثاً لهم على ما ينفعهم عاجلاً وآجلاً . وقد أثنى الله سبحانه على الأنصار رضى الله عنهم بالإيثار ؛ فقال تعالى (٥٩ : ٩) : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه : فأولئك هم المفلحون ﴾ والإيثار من أفضل خصال المؤمن كما تفيده هذه الآية الكريمة ، وقد قال ومن دعاكم فأجيبوه ، ومَنْ صَنَع إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له ، حتى تروا أنكم قد كافأتموه » رواه أبو داود والنسائى بسند صحيح .

فيه مسائل : **الأولى** : إعاذة من المستعاذ بالله .

الثانية : إعطاء من سأل بالله ، **الثالثة** : إجابة الدعوة .

الرابعة : المكافأة على الصنيعة ، **الخامسة** : أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه .

السادسة : قوله : حتى ترون أنكم قد كافأتموه .

تعالى (٧٦ : ٨ ، ٩) : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ .

والآيات والأحاديث فى فضل الصدقة كثيرة جداً ، ومن كان سعيه للآخرة رغب فى هذا ورغّب ، وبالله التوفيق .

قوله : (ومن دعاكم فأجيبوه) هذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض : إجابة دعوة المسلم ، وتلك من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمين .

قوله : (ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه) ندبهم ﷺ إلى المكافأة على المعروف ، فإن المكافأة على المعروف من المروءة التى يحبها الله ورسوله ، كما دل عليه هذا الحديث ، ولا يهمل المكافأة على المعروف إلا اللئام من الناس ، وبعض اللئام يكافئ على الإحسان بالإساءة ، كما يقع كثيراً من بعضهم ، نسأل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ، بخلاف حال أهل التقوى والإيمان ، فإنهم يدفعون السيئة بالحسنة ؛ طاعة لله ومحبة لما يحبه لهم ويرضاه ، كما قال تعالى (٢٣ : ٩٦ - ٩٨) : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن السيئة ، نحن أعلم بما يصفون ، وقل : رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ ، وقال تعالى (٤١ : ٣٤ ، ٣٥) : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم* وما يلقاها إلا الذين صبروا * وما يلقاها إلا ذو حَظٍّ عظيم ﴾ وهم الذين سبقت لهم من الله تعالى السعادة .

قوله : (فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له ﴾ أرشدهم رسول الله ﷺ إلى أن الدعاء فى حق من لم يجد المكافأة مكافئة للمعروف ، فيدعو له على حسب معروفه .

قوله : (تروا - بضم التاء - تظنوا أنكم قد كافأتموه) ويحتمل أنها مفتوحة بمعنى : تعلموا. ويؤيده ما فى سنن أبى داود من حديث ابن عمر « حتى تعلموا » فتعين الثانى للتصريح به . وفيه « من سألكم بالله فأجيبوه » أى إلى ما سأل . فيكون بمعنى : أعطوه ، وعند أبى داود فى رواية أبى نُهيك عن ابن عباس : « من سألكم بوجه الله فأعطوه » ، وفى رواية عبيد الله القواريرى لهذا الحديث : « ومن سألكم بالله » كما فى حديث ابن عمر .

❊ ❊ ❊

باب (لا يُسْأل بوجه الله إلا الجنة)

عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة » رواه أبو داود.

قوله : (باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة)

ذكر فيه حديث جابر - رواه أبو داود عن جابر - قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يسأل بوجه الله إلا الجنة » .

وهنا سؤال : وهو أنه قد ورد فى دعاء النبى ﷺ عند منصرفه من الطائف حين كذبه أهل الطائف ومن فى الطائف من أهل مكة ، فدعا النبى ﷺ بالدعاء المأثور : « اللّهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تَكلُنى ؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُنى ، أو إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، غير أن عافيتك هى أوسع لى » ، وفى آخره : « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يَحُلّ علىّ غضبك ، أو ينزلَ بى سَخطك ، لك العُتْبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » [1] . والحديث المروى فى الأذكار : «اللهم أنت أحق من ذُكر ، وأحق من عُبد - وفى آخره - : أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له السموات والأرض » ، وفى حديث آخر : « أعوذ بوجه الله الكريم ، وباسم الله العظيم وبكلماته التامة ، من شر السامة واللامة ، ومن شر ما خلقت أى رب ، ومن شر هذا اليوم ومن شر ما بعده ، ومن شر الدنيا والآخرة » وأمثال ذلك فى الأحاديث المرفوعة بالأسانيد الصحيحة أو الحسان .

فالجواب : أن ما ورد من ذلك فهو فى سؤال ما يقرب إلى الجنة ، أو ما يمنعه من الأعمال التى تمنعه من الجنة ، فيكون قد سأل بوجه الله وبنور وجهه ما يقرب إلى الجنة كما فى الحديث الصحيح : « اللهم إنى أسألك الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول وعمل » بخلاف ما يختص بالدنيا كسؤال المال والرزق والسعة فى المعيشة رغبة فى الدنيا ؛ مع قطع النظر عن كونه أراد بذلك ما يعينه على عمل الآخرة ، فلا ريب أن الحديث يدل على المنع من أن يسأل حوائج دنياه بوجه الله . وعلى هذا : فلا تعارض بين الأحاديث كما لا يخفى ، والله أعلم .

وحديث الباب من جملة الأدلة المتواترة فى الكتاب والسنة على إثبات الوجه لله تعالى ، فإنه صفة كمال ، وسلبه غاية للنقص والتشبيه بالناقصات ، كسلبهم جميع الصفات أو بعضها ، فوقعوا فى أعظم مما فروا منه ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، وطريقة أهل السنة

---

(١) رواه ابن إسحاق والطبرانى عن عبد الله بن جعفر .

فيه مسائل :

الأولى : النهى عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب .

الثانية : إثباتُ صِفة الوجه .

* * *

باب (ما جاء فى اللَّوِّ)

وقول الله تعالى (٣ : ١٥٤) : ﴿ يقولون : لو كان لنا من الأمر شىءٌ ما قُتِلنا ههنا ﴾ .

والجماعة سلفاً وخلفاً : الإيمان بما وصف الله به نفسه فى كتابه ، ووصفه به رسوله ﷺ فى سننه على ما يليق بجلال الله وعظمته ، فيثبتون له ما أثبته لنفسه فى كتابه وأثبته له رسوله ﷺ وينفون عنه مشابهة المخلوق ؛ فكما أن ذات الرب لا تشبه الذوات ، فصفاته كذلك لا تشبه الصفات ، فمن نفاها فقد سلبه الكمال .

قوله : (باب ما جاء فى اللّوّ)

أى : من الوعيد والنهى عنه عند الأمور المكروهة ، كالمصائب إذا جرى بها القدر ، لما فيه من الإشعار بعدم الصبر والأسى على ما فات ، مما لا يمكن استدراكه ، فالواجب التسليم للقدر، والقيام بالعبودية الواجبة ، وهو الصبر على ما أصاب العبد مما يكره ، والإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان الستة ، وأدخل المصنف رحمه الله تعالى أداة التعريف على « لو » ، وهذه فى هذا المقام لا تفيد تعريفاً كنظائرها ؛ لأن المراد هذا اللفظ كما قال الشاعر :

رأيت الوليد بن اليزيد مباركاً   شديداً بأعباء الخلافة كاهله

وقوله : (وقول الله عز وجل (٣ : ١٥٤) : ﴿ يقولون : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا ﴾) ، قاله بعض المنافقين يوم أُحد ؛ لخوفهم وجزعهم وخَوَرهم .

قال ابن إسحاق : فحدثنى يحيى بن عَبَّاد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير : « لقد رأيتُنى مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم ، فما منا رجل إلا ذقنه فى صدره ، قال : فوالله إنى لأسمع قول مُعَتِّب بن قُشير ما أسمعه إلا كالحُلم : لو كان لنا من الأمر شىء ما قُتلنا ههنا ، فحفظتها منه ، وفى ذلك أنزل الله عز وجل : ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا ﴾ لقول متعب » رواه ابن أبى حاتم . قال الله تعالى : ﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ أى هذا قدر مقدّر من الله عز وجل ، وحكم حتم لازم لا محيد عنه ولا مناص منه .

وقوله (٣ : ١٦٩) : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم – وقَعَدوا –: لو أطاعونا ما قُتِلوا ﴾.

وقوله : (٣ : ١٦٩) : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم – وقعدوا – لو أطاعونا ما قُتلوا –الآية﴾.

قال العماد ابن كثير : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم – وقعدوا – لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ أي لو سمعوا مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل . قال الله تعالى : ﴿ قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ أى إذا كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت ؛ فينبغى لكم أن لا تموتوا ، والموت لا بد آت إليكم ، ولو كنتم فى بروج مشيدة ، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ، قال مجاهد عن جابر بن عبد الله : « نزلت هذه الآية فى عبد الله بن أُبىّ وأصحابه » يعنى أنه هو الذى قال ذلك ، وأخرج البيهقى عن أنس : أن أبا طلحة قال : « غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أُحد ، فجعل يسقط سيفى وآخذه ، ويسقط آخذه . قال : والطائفة الأخرى – المنافقون – ليس لها هَم إلا أنفسهم ، أجبن قوم ، وأرعبه ، وأخذله للحق ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ إنما هم أهل ريب وشك بالله عز وجل » .

قوله : (قد أهمتهم أنفسهم) يعنى لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ .

قال شيخ الإسلام – رحمه الله – : لما ذكر ما وقع من عبد الله بن أبىّ فى غزوة أُحد قال : فلما انخذل يوم أُحد وقال : « يَدَعُ رأيى ورأيه ، ويأخذ برأى الصبيان ؟ » أو كما قال – انخذل معه خلق كثير ، كان كثير منهم لم ينافق قبل ذلك ، فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان ، هو الضوء الذى ضرب الله به المثل ، فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق لماتوا على الإسلام ، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً ، الذين امتحنوا فثبتوا على المحنة ، ولا من المنافقين حقاً ، الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة . وهذا حال كثير من المسلمين فى زماننا أو أكثرهم ، إذا ابتلوا بالمحنة التى يتضعضع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم كثيراً ، وينافق كثير منهم ، ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالباً ، وقد رأينا من هذا ورأي غيرنا من هذا ما فيه عبرة . وإذا كانت العافية ، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين ، وهم مؤمنون بالرسل باطناً وظاهراً ، لكنه إيمان لا يثبت على المحنة ؛ ولهذا يكثر فى هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم، وهؤلاء من الذين قالوا : آمنا ، فقيل لهم : ﴿ لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) أى الإيمان المطلق الذى أهله هم المؤمنون حقّا ؛ فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق فى كتاب الله تعالى ، كما دل عليه الكتاب والسُّنَّة ، فلم يحصل لهم ريب عند المحن التى تقلقل الإيمان فى القلوب . انتهى .

قوله : وقد رأينا من هذا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة .

قلت : ونحن كذلك رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو ، من إعانتهم العدو على

في الصحيح عن أبي هريرة - رضى الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال : « احرص على ما ينفعُك ، واستعن بالله ولا تَعْجِزَ ، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل : لو أننى فعلتُ لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

المسلمين ، والطعن فى الدين ، وإظهار العداوة والشماتة ، وبذل الجهد فى إطفاء نور الإسلام ، وذهاب أهله ، وغير ذلك مما يطول ذكره . والله المستعان .

قوله : فى الصحيح - أى صحيح مسلم - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - : أن رسول الله ﷺ قال : احرص الحديث .

اختصر المصنف رحمه الله هذا الحديث ، وتمام : عن النبى ﷺ أنه قال : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كلٍّ خير ، احرص على ما ينفعك » أى : فى معاشك ومعادك ، والمراد : الحرص على فعل الأسباب التى تنفع العبد فى دنياه وأخراه مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة ؛ ويكون العبد فى حال فعله السبب مستعيناً بالله وحده دون كل ما سواه ليتم له سببه وينفعه ، ويكون اعتماده على الله تعالى فى ذلك ؛ لأن الله تعالى هو الذى خلق السبب والمسبب ، ولا ينفعه سبب إلا إذا نفعه الله به ، فيكون اعتماده فى فعل السبب على الله تعالى . ففعل السبب سُنَّة ، والتوكل على الله توحيد ، فإذا جمع بينهما :تم له مراده بإذن الله .

قول (ولا تعجزن) النون نون التأكيد الخفيفة ، نهاه ﷺ عن العجز ، وذمه ، والعجز مذموم شرعاً وعقلاً ، وفى الحديث : « الكيِّس من دانَ نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبعَ نفسه هواها ، وتمنّى عليه الأماني » [1] ، فأرشده ﷺ فى هذا الحديث إذا أصابه ما يكره أن لا يقول : لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن يقول : قدّر الله وما شاء فعل ، أى : هذا قدر الله ، والواجب التسليم للقدر ، والرضى به ، واحتساب الثواب عليه .

قوله : (فإن « لو » تفتح عمل الشيطان) أى : لما فيها من التأسف على ما فات والتحسر ولوم القدر ، وذلك ينافى الصبر والرضى ، والصبر واجب ، والإيمان بالقدر فرض ، قال تعالى (٥٧ : ٢٢ ، ٢٣) : ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ .

قال أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد » ، وقال الإمام أحمد : « ذكر الله الصبر فى تسعين موضعاً من القرآن » .

---

(١) رواه أحمد والترمذى وحسنه والحاكم ؛ وقال : صحيح على شرط البخارى وتعقبه الذهبى بأن فيه ابن أبى مريم وهو واه . وهذا من حديث شداد بن أوس . وهو عندهم بدون كلمة « الأمانى » .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - وذكر حديث الباب بتمامه - ثم قال فى معناه : لا تعجز عن مأمور ، ولا تجزع من مقدور ، ومن الناس من يجمع كلا الشرين ، فأمر النبى ﷺ بالحرص على النافع والاستعانة بالله ، والأمر يقتضى الوجوب ، وإلا فالاستحباب ، ونهى عن العجز وقال : « إن الله يلوم على العجز » والعاجز ضد : (الذين هم ينتصرون) فالأمر بالصبر والنهى عن العجز مأمور به فى مواضع كثيرة ؛ وذلك لأن الإنسان بين أمرين : أمر أُمِرَ بفعله فعليه أن يفعله ويحرص عليه ، ويستعين الله ولا يعجز ، وأمرٌ أصيب به من غير فعله ، فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه ، ولهذا قال بعض العقلاء - ابن المقفع وغيره - الأمور أمران : أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه ، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه ، وهذا فى جميع الأمور لكن عند المؤمن : الذى فيه حيلة هو ما أمره الله به ، وأحبه له ، فإن الله لم يأمره رلا بما فى حيلة له ، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وقد أمره بكل خير له فيه حيلة ، وما لا حيلة له فيه هو ما أصيب به من غير فعله . واسم الحسنات والسيئات يتناول قسمين ، فالأفعال مثل قوله تعالى (٦: ١٦٠) : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ ، ومثل قوله تعالى (١٧ : ٧) : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ﴾ ، ومثل قوله تعالى (٤٢ : ٤٠) : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ ومثل قوله تعالى (٢ : ٨١) : ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ﴾ إلى آيات كثيرة من هذا الجنس . والله أعلم .

والقسم الثانى : ما يجرى على العبد بغير فعله من النعم والمصائب ، كما قال تعالى (٤ : ٧٩) : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ والآية قبلها ، فالحسنة فى هاتين الآيتين : النعم ، والسيئة : المصائب ، هذا هو الثانى من القسمين .

وأظن شيخ الإسلام رحمه الله ذكره فى هذا الموضع ، ولعل الناسخ أسقطه . والله أعلم .

ثم قال رحمه الله : فإن الإنسان ليس مأموراً أن ينظر إلى القدر عند ما يؤمر به من الأفعال ولكن عند ما يجرى عليه من المصائب التى لا حيلة له فى دفعها ، فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم فاصبر عليه ، وارض وسلم ، قال تعالى (٦٤ : ١١) : ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ ولهذا قال آدم لموسى : « أتلومنى على أمر قَدَّرَهُ الله علىّ قبل أن أخلق بأربعين سنة ؟ فحج آدم موسى » لأن موسى قال له : « لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة » [1] فلامه على المصيبة التى حصلت بسبب فعله ؛ لا لأجل كونها ذنباً. وأما كونه لأجل الذنب - كما يظنه طوائف من الناس - فليس مراداً بالحديث ، فإن آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس . انتهى .

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن عمر بن الخطاب .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآيتين فى آل عمران .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله -: فتضمن هذا الحديث أصولاً عظيمة من أصول الإيمان.

أحدها : أن الله سبحانه موصوف بالمحبة وأنه يحب حقيقة .

الثانى : أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته ، وما يوافقها ، فهو القوى ، ويحب المؤمن القوى ، وهو وتر يحب الوتر ، وجميل يحب الجمال ، وعليم يحب العلماء ، ونظيف يحب النظافة ، ومؤمن يحب المؤمنين ، ومحسن يحب المحسنين ، وصابر يحب الصابرين ، وشاكر يحب الشاكرين .

ومنها : أن محبته للمؤمنين تفاضل ، فيحب بعضهم أكثر من بعض .

ومنها : أن سعادة الإنسان فى حرصه على ما ينفعه فى معاشه ومعاده ، والحرص : هو بذل الجهد واستفراغ الوسع . فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محموداً ، وكماله كله فى مجموع هذين الأمرين : أن يكون حريصاً ، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به ، فإن حرص على ما لا ينفعه ، أو فعل ما ينفعه من غير حرص : فاته من الكمال بقدر ما فاته من ذلك ، فالخير كله فى الحرص على ما ينفع .

ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئه وتوفيقه : أمره أن يستعين بالله ليجتمع له مقام ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله تعالى ، ولا يتم إلا بمعونة ، فأمره أن يعبده وأن يستعين به . فالحريص على ما ينفعه ، المستعين بالله ضد العاجز ، فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله ؛ وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده ، ومصدرها منه ، ومردها إليه .

فإن فاته ما لم يقدر له فله حالتان : عجز . وهو مفتاح عمل الشيطان ؛ فيلقيه العجز إلى «لو» ولا فائدة من « لو » ههنا ، بل هى مفتاح اللوم والعجز والسخط والأسف والحزن ، وذلك كله من عمل الشيطان ، فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح ، وأمره بالحالة الثانية . وهى النظر إلى القدر وملاحظته ، وأنه لو قدر له : لم يفته ولم يغلبه عليه أحد ، فلم يبق له ههنا أنفع من شهود القدر ، ومشيئة الرب النافذة التى توجب وجوب المقدور ، وإن انتفت امتنع وجوده ؛ ولهذا قال : « فإن غلبك أمر فلا تقل : لو أنى فعلت كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل » ، فأرشده إلى ما ينفعه فى الحالتين : حالة حصول المطلوب ، وحالة فواته ، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغنى عنه العبد أبداً ، بل هو أشد إليه ضرورة ، وهو يتضمن إثبات القدر ، والكسب والاختيار ، والقيام بالعبودية ظاهراً وباطناً فى حالتى حصول المطلوب وعدمه ، وبالله التوفيق .

الثانية : النهى الصريح عن قول : « لو » إذا أصابك شىء .

الثالثة : تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان .

الرابعة : الإرشاد إلى الكلام الحسن .

الخامسة : الأمر بالحرص على ما ينفع ، مع الاستعانة بالله .

السادسة : النهى عن ضد ذلك ، وهو العجز .

❊ ❊ ❊

باب (النهى عن سب الريح)

عن أُبَىِّ بن كعب – رضى الله عنه –: أن رسول الله ﷺ قال : «لا تَسُبُّوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح ، وخير ما فيها ، وخير ما أُمِرتْ به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها ، وشر ما أُمرت به » صححه الترمذى .

فيه مسائل :

الأولى : النهى عن سبّ الريح .

الثانية : الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره .

قوله : (باب النهى عن سب الريح)

(قوله : عن أبى بن كعب رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبوا الريح ، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيه وشر ما أمرت به » صححه الترمذى) .

لأنها – أي الريح – إنما تهب عن إيجاد الله تعالى وخلقه لها وأمره ؛ لأنه هو الذى أوجدها وأمرها ، فمسبتها مسبة للفاعل ، وهو الله سبحانه ، كما تقدم فى النهى عن سب الدهر ، وهذا يشبهه ، ولا يفعله إلا أهل الجهل بالله ودينه ، وبما شرعه لعباده ؛ فنهى ﷺ أهل الإيمان عما يقوله أهل الجهل والجفاء ، وأرشدهم إلى ما يجب أن يقال عند هبوب الرياح فقال : « إذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إن نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أُمرت به» يعنى إذا رأيتم ما تكرهون من الريح إذا هبت ، فارجعوا إلى ربكم بالتوحيد وقولوا : «اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها ، وخير ما أمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به » ففى هذا عبودية لله وطاعة له ولرسوله ، واستدفاع للشرور به ، وتعرض لفضله ونعمته ، وهذه حال أهل التوحيد والإيمان ، خلافاً لحال أهل الفسوق والعصيان الذين حُرِموا ذوق طعم التوحيد الذى هو حقيقة الإيمان .

الثالثة : الإرشاد إلى أنها مأمورة .

الرابعة : أنها قد تؤمر بخير ، وقد تؤمر بشرّ .

* * *

باب

قول الله تعالى (٣ : ١٥٤) : ﴿ يظنون بالله غير الحقِّ ظنَّ الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ، قل : إن الأَمر كلَّهُ لله ؛ يخفُون فى أنفسهم ما لا يُبدُون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمرِ شيء ما قُتلْنَا ههُنا ، قل : لو كنتم فى بيُوتكم لَبَرز الذين كُتِبَ عليهم القَتْلُ إلى مضاجعهمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ الله ما فى صُدوركم وليُمحِّصَ ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور ﴾ .

وقوله (٤٨ : ٦) : ﴿ الظانين بالله ظنَّ السوء عليهم دائرة السوء ﴾ .

قال ابن القيم فى الآية الأولى : ففُسِّرَ هذا الظنُّ بأنه سبحانه لا يَنْصُر رسوله ، وأن أمره سيضمحلُّ ، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقَدَر الله وحكمته ، فسر بإنكار الحكمة ،

قوله : (باب قول الله تعالى (٣ : ١٥٤) : ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله - الآية ﴾) .

وهذه الآية ذكرها الله تعالى فى سياق قوله تعالى فى ذكر وقعة أُحد : ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طائفةً منكم ﴾ يعنى أهل الإيمان والثبات والتوكل الصادق ؛ وهم الجازمون بأن الله تعالى ينصر رسوله ﷺ ، وينجز له مأموله ، ولهذا قال : ﴿ وطائفة قد أَهَمَّتهم أنفُسهم ﴾ يعنى لا يغشاهم النُّعَاس من الجزع والقلق والخوف ، ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ ، كما قال تعالى (٤٨ : ١٢) : ﴿ بل ظننتم أنْ لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وَزُيِّنَ ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السَّوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة ظنوا أنها الفيصلة ؛ وأن الإسلام قد باد وأهله وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الأمور الشنيعة .

عن ابن جريج قال : قيل لعبد الله بن أُبى : « قُتل بنو الخزرج اليوم ؟ قال : وهل لنا من الأمر من شيء ؟ » .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - فى الكلام على ما تضمنته وقعة أحد [1] : وقد فسر هذا الظن الذى لا يليق بالله سبحانه بأنه لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيمضحل ، وأنه يسلمه للقتل، وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره ، ولا حكمة له فيه ، ففسر بإنكار

---

(١) زاد المعاد (ج٢ ص١٠٣ - ١٠٦) وقد بسط القول فى ذلك أيضاً فى إغاثة اللهفان .

وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمرُ رسوله ، وأن يظهره الله على الدين كله . وهذا هو ظنُّ السَّوء الذى ظن المنافقون والمشركون فى سورة الفتح . وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظن غير ما يليقُ به سبحانه ، وما يليقُ بحكمته وحمده ووعده الصادق . فمن ظن أنه يُديلُ الباطلَ على الحقِّ إدالةً مستقرة يضمحلُّ معها الحق ، أو أنكر أن يكونَ ما جَرى بقضائه وقدره ، أو أنكر أن يكون قَدَرُه لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد ، بل زَعَم أن ذلك لمشيئة مجرَّدة ، فذلك ظن الذين كفروا ، فويلٌ للذين كفروا من النار .

وأكثر الناس يظنون بالله ظنَّ السَّوء ، فيما يختصُّ بهم ، وفيما يَفْعله بغيرهم ، ولا يَسْلَمُ من ذلك إلا مَنْ عَرَف الله وأسماءه وصفاته ، وموجِبَ حكمته وحمده فَلْيَعْتَنِ

الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ ، وأن يظهره على الدين كله ، وهذا هو ظن السوء الذى ظنه المنافقون والمشركون فى سورة الفتح حيث يقول (٤٨ : ٦) : ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء ، عليهم دائرة السوْء ، وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ ، وإنما كان هذا هو ظن السوء وظن الجاهلية – وهو المنسوب إلى أهل الجهل – وظن غير الحق ؛ لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاته المبرأة من كل عيب وسوء ، وبخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والإلهية ، وما يليق بوعده الصادق الذى لا يخلفه ، وبكلمته التى سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم ، ولجنده بأنهم هم الغالبون ، فمن ظن به أنه لا ينصر رسوله ولا يتم أمره ولا يؤيده ويؤيد حزبه ويعليهم ويظفرهم بأعدائهم ويظهرهم ، وأنه لا ينصر دينه وكتابه ، وأنه لا يديل الشرك على التوحيد ، والباطل على الحق إدالة مستقرة ، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً : فقد ظن بالله ظن السوء ، ونسبه إلى خلاف ما يليق بجلاله وكماله وصفاته ونعوته ، فإن حمده وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يُذل حزبَه وجنده ، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به ، فمن ظلم به ذلك : فما عرفه ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله ، وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره ، فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته ، وكذلك من أنكر أن يكون قَدّر ما قدّره من ذلك وغيره لحكمة بالغة وغاية محمودة يستحق الحمد عليها ، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة ، وغاية مطلوبة هى أحب إليه من فواتها ، وأن تلك الأسباب المكروهة له المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة ، لإفضائها إلى ما يحب وإن كانت مكروهة له ، فما قدرها سدى ولا شاءها عبثاً ولا خلقها باطلاً (٣٨: ٢٧) : ﴿ ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ .

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم ، وفيما يفعله بغيرهم ، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته ، وعرف موجب حكمته وحمده . فمن

اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا ، وَلْيَتُبْ إلى الله ، وَلْيَسْتَغْفِرْه من ظنه بربه ظَنَّ السوء .

قنط من رحمته وأيس من روحه : فقد ظن به السوء ، ومن جَوَّزَ عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم ، ويسوى بينهم وبين أعدائه : فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أنه يترك خلقه سُدًى معطلين عن الأمر والنهى ، لا يرسل إليهم رسله ولا ينزل عليهم كتبه ، بل يتركهم هَمَلاً كالأنعام : فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب فى دار يجازى المحسن فيها بإحسانه ، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله ، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين : فقد ظن به ظن السوء ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذى عمله خالصاً لوجهه على امتثال أمره ، ويبطله عليه بلا سبب من العبد ، وأنه يعاقبه بما لا صنع له فيه ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة له فى حصوله بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به ، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التى يؤيد بها أنبياءه ورسله ، ويجريها على أيديهم ليضلوا بها عباده ؛ وأنه يحسن من كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره فى طاعته ، فيخلده فى الجحيم فى أسفل سافلين ، وينعم من استنفد عمره فى عداوته وعداوة رسله ودينه ، فيرفعه إلى أعلى عليين ، وكلا الأمرين فى الحسن عنده سواء ؛ ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق ، وإلا فالعقل لا يقضى بقبح أحدهما وحسن الآخر ، فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه أخبر عنه نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل ، وترك الحق لم يخبر به وإنما رمز إليه رموزاً بعيدة ، وأشار إليه إشارات ملغزة ولم يصرح به وصرّح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل ، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم فى تحريف كلامه ن مواضعه ، وتأويله على غير تأويله ، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة والتأويلات التى هى بالألغاز والأحاجى [1] أشبه منها بالكشف والبيان ، وأحالهم فى معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه . بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفونه من خطابهم ولغتهم ، مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذى ينبغى التصريح به ، ويريحهم من الألفاظ التى توقعهم فى اعتقاد الباطل فلم يفعل ، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان . فقد ظن به ظن السوء ، فإنه إن قال : إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذى عبر به هو وسلفه ، فقد ظن بقدرته العجز ، وإن قال : إنه قادر ولم يبين، وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم ، بل يوقع فى الباطل المحال والاعتقاد الفاسد . فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء .

---

(١) يقال : كلمة محجية : مخالفة المعنى للفظ ، وهى إما من معنى الناحية ، وتقديرها أنها جاءت من غير حجاها ، أو من معنى الفطنة وهى الأحجية والأحجوة ، قال صاحب المثل السائر : وأما اللغز والأحجية فإنهما شيء واحد ، وهو كل معنى يستخرج بالحدس والحزر لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازاً ، ولا يفهم منه غرضه. انتهى من هامش الأصل نقلاً عن سر الليال .

. . . .

ومن ظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله ، وأن الهدى والحق فى كلامهم وعباراتهم ، وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال ، وظاهر كلام المُتَهوِّكين والحيارَى هو الهدى والحق ، فهذا من سوء الظن بالله .

فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء ، ومن الظانين بالله غير الحق ظن الجاهلية .

ومن ظن به أن يكون فى مُلكه ما لا يشاء ، ولا يقدر على إيجاده وتكوينه : فقد ظن بالله ظن السوء .

ومن ظن أنه كان معطلاً من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل ، ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل ، ثم صار قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن أنه لا يسمع ولا يبصر ، ولا يعلم الموجودات ولا عدد السموات ولا النجوم ، ولا بنى آدم وحركاتهم وأفعالهم ، ولا يعلم شيئاً من الموجودات فى الأعيان : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه لا سمع له ولا بصر ، ولا علم ولا إرادة ، ولا كلام يقوم به ، وأنه لا يكلم أحداً من الخلق ولا يتكلم أبداً ، ولا قال ، ولا يقول ، ولا له أمر ولا نهى يقوم به : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه ليس فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، وأن نسبة ذاته إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل سافلين ، وإلى الأمكنة التى يرغب عن ذكرها ، وأنه أسفل كما أنه أعلى ، وأن من قال : سبحان ربى الأسفل كان كمن قال : سبحان ربى الأعلى : فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه .

ومن ظن أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان ، ويحب الفساد كما يحب الإيمان والبر والطاعة والإصلاح : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى ، ولا يغضب ولا يسخط ، ولا يوالى ولا يعادى ، ولا يقرُب من أحد من خلقه ولا يقرب منه أحد ، وأن ذوات الشياطين فى القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه يسوى بين المتضادين ، أو يفرق بين المتساويين من كل وجه ، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها ، فيخلد فاعل تلك الطاعات فى الجحيم أبد الآبدين بتلك الكبيرة ، ويحبط بها جميع طاعاته ويخلد فى العذاب كما يخلد من لم يؤمن به طرفة عين ، واستنفد ساعات عمره فى مساخطة ومعاداة رسله ودينه : فقد ظن به ظن السوء .

ولو فَتَّشْتَ من فَتَّشْتَ لرأيت عنده تَعَنُّتاً على القَدَر وملامةً له ، وأنه كان ينبغى أن يكون كذا وكذا ، فمُسْتَقِل ومستكثر ، وفَتِّشْ نفسك ، هل أنتَ سالم ؟

فإن تَنْجُ منها تَنْجُ من ذى عظيمةٍ وإلا فإنى لا إخـــالُك ناجـياً

ومن ظن به أن له ولداً أو شريكاً ، أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه ، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه ، وأنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه . ويتوصلون بهم إليه ، ويجعلونهم وسائط بينه وبينهم ، فيدعونهم ويخافونهم ويرجعونهم : فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه .

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته ، كما يناله بطاعته والتقرب إليه : فقد ظن به خلاف حكمته ، وخلاف موجب أسمائه وصفاته ، وهو من ظن السوء .

ومن ظن به أنه إذا ترك شيئاً من أجله لم يعوضه خيراً منه ، أو من فعل شيئاً لأحله لم يعطه أفضل منه : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه يغضب على عبده ويعاقبه ويحرمه بغير جرم ولا سبب من العبد ، إلا بمجرد المشيئة ومحض الإادة : فقد ظن به ظن السوء .

ومن ظن به أنه إذا صدقه فى الرغبة والهبة ، وتضرع إليه وسأله ، واستعان به وتوكل عليه أنه يخيبه ولا يعطيه ما سأله : فقد ظن به ظن السوء ، وظن به خلاف ما هو أهله .

ومن ظن أنه يثيبه إذا عصاه كما يثيبه إذا أطاعه ، وسأله ذلك فى دعائه : فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده ، وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله .

ومن ظن به أنه إذا أغضبه وأسخطه وأوضع فى معاصيه ، ثم اتخذ من دونه أولياء ، ودعا من دونه مَلَكاً أو بشراً حياً أو ميتاً يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه ، ويخلصه من عذابه : فقد ظن به ظن السوء .

فأكثر الخلق بل كلهم - إلا من شاء الله - يظنون بالله غير الحق وظن السوء ؛ فإن غالب بنى آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ ، وأنه يستحق فوق ما شاءه الله وأعطاه ولسان حاله يقول : ظلمنى ربى ، ومنعنى ما أستحقه ، ونفسه تشهد عليه بذلك ، وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به . ومن فتش نفسه وتغلغل فى معرفة طواياها رأى ذلك فيها كامناً كمون النار فى الزناد ، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما فى زناده ، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنُّتاً ، (وتعتباً) على القدر وملامة له ، واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به وأنه كان ينبغى أن يكون كذا وكذا ، فمستقل ومستكثر ، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك ؟

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة وإلا فإنى لا أخـــالك ناجــــياً

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع ، وَلْيَتُبْ إلى الله ويستغفره فى كل وقت من ظنه بربه ظن السوء ، وليظن السوء بنفسه التى هى مادة كل سوء ، ومنبع كل شر المركبة على الجهل والظلم . فهى أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين ، وأرحم الراحمين ، الغنى الحميد ، الذى له الغنى التام ، والحمد التام ، والحكمة التامة ، المنزه عن كل سوء فى ذاته وصفاته ، وأفعاله وأسمائه ، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه ، وصفاته كذلك ، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة ، ورحمة وعدل ، وأسماؤه كلها حسنى :

فلا تظنَّنْ بربك ظنّ سَوء ... فإن الله أولى بالجميل
ولا تظن بنفسك قَط خيراً ... فكيف بظالم جانٍ جهول
وقل : يا نفس مأوى كل سَوء ... أترجو الخير من ميت بخيل ؟
وظُنّ بنفسك السوأى تجدها ... كذاك ، وخيرها كالمستحيل
وما بك من تقى فيها وخير ... فتلك مواهب الرب الجليل
وليس لها ولا منها ، ولكن ... من ألرحمن ، فاشكر للدليل

انتهى .

قوله : (الظانين بالله ظن السوء) قال ابن جرير فى تفسيره : ﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء ﴾ . الظانين بالله أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك ، ولن يُظهرك كلمته ، فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به ، وذلك كان ألسوء من ظنونهم التى ذكرها الله فى هذا الموضع . يقول تعالى ذكره : على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الذين ظنوا هذا الظن دائرة السوء : يعنى دائرة العذاب تدور عليهم به . واختلف القراء فى قراءة ذلك فقرأته عامة قراء الكوفة ﴿ دائرة السوء ﴾ بفتح السين وقرأ بعض قراء البصرة « دائرة السوء » بالضم ، وكان الفراء يقول : الفتح أفشى فى السين ، وقلَّ ما تقول العرب « دائرة السوء » بضم السين .

وقوله : ﴿ وغضب الله عليهم ولعنهم ﴾ يعنى ونالهم الله بغضب منه ولعنهم . يقول : وأبعدهم فأقصاهم من رحمته ﴿ وأعد لهم جهنم ﴾ يقول : وأعد لهم جهنم يصلونها يوم القيامة ﴿ وساءت مصيراً ﴾ يقول : وساءت جهنم منزلاً يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات .

وقال العماد ابن كثير - رحمه الله تعالى - : ﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء ﴾ أى : يتهمون الله فى حكمه ، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يُقتلوا ويذهبوا بالكلية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ وذكر فى معنى الآية الأخرى نحواً مما ذكره ابن جرير - رحمهما الله تعالى - .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية آل عمران .

الثانية : تفسير آية الفتح .

الثالثة : الإخبار بأنَّ ذلك أنواعٌ لا تُحْصَر .

الرابعة : أنه لا يسلمُ من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعَرفَ نفسه .

باب (ما جاء فى منكرى القدر)

وقال ابن عمر : « والذى نفس ابن عمر بيده ، لو كانَ لأحدهم مثلُ أُحد ذهباً ثم أنفقه فى سبيل الله ما قَبله الله منه ، حتى يُؤمنَ بالقدَر ، ثم استدل بقول النبى ﷺ : الإيمانُ أنْ تؤمنَ بالله وملائكته ، وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقَدَر خَيْره وشَرِّه» رواه مسلم .

قوله : (قال ابن القيم رحمه الله تعالى) الذى ذكره المصنف فى المتن قدمته لاندراجه فى كلامه الذى سقته من أوله إلى آخره .

قوله : (باب ما جاء فى منكرى القدر) أى : من الوعيد الشديد ، ونحو ذلك .

أخرج أبو داود عن عبد العزيز بن أبى حازم عن أبيه عن ابن عمر -رضى الله عنهما- عن النبى ﷺ قال : « القدَرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»(١) .

وعن عمر مولى غُفرة عن رجل من الأنصار عن حذيفة - وهو ابن اليمان - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل أمة مجوس ، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون : لا قدَر ، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ، ومن مرض منهم فلا تعودوه ، وهم شيعة الدجال ، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال » (٢) .

قوله : (وقال ابن عمر : والذى نفسى بيده - إلخ » حديث ابن عمر هذا أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عنْ يحيى بن يَعمر قال : « كان أول من تكلم فى القدر بالبصرة مَعبد الجهنى ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحِميرى حاجين ، أو

---

(١) قال فى عون المعبود (ج٤ ص٣٥٧) : قال الخطابى : إنما جعلهم مجوساً لمضاهاة مذهبهم مذاهب المجوس فى قولهم بالأصلين ، وهما النور والظلمة ، يزعمون أن الخير من فعل النور ، والشر من فعل الظلمة ، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره . اهـ . وقال المنذرى : هذا منقطع ، أبو حازم - سلمة بن دينار - لم يسمع من ابن عمر . وقد روى هذا الحديث من طرق عن ابن عمر ، وليس فيها شىء يثبت . اهـ .

(٢) قال المنذرى : عمر مولى غفرة - بضم الغين وسكون الفاء - لا يحتج بحديثه ، وهو رجل من الأنصار مجهول، وقد روى من طرق أخرى عن حذيفة ، ولا يثبت .

وعن عُبادة بن الصَّامت أنه قال لابنه : « يا بُنَىَّ ، إنك لن تَجِدَ طَعْمَ الإيمان حتى تَعْلَمَ أنَّ ما أصابَك لم يَكُنْ ليُخْطِئَك ، وما أخطأك لم يَكن ليصيبَك سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أولَ ما خَلقَ الله القَلَمَ ، فقال له : اكتبْ ، فقال : ربِّ ، وماذا أكتبُ؟

معتمرين . فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر؟ فوفق الله تعالى لنا عبد الله بن عمر داخلاً فى المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبى ، فظننت أن صاحبى سيكل الكلام إلىّ ، فقلت : أبا عبد الرحمن ، إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرأون القرآن ويتقفّرون العلم [1] يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أُنف ، فقال : إذا لقيتَ أولئك فأخبرْهم أنى منهم برىء ، وأنهم منى برآء ، والذى يحلف به عبد الله بن عمر ، لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه فى سبيل الله ما قبله الله منه ، حتى يؤمن بالقدر ، ثم قال : حدثنى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – قال : « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يُرَى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند رُكبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه . وقال : يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام ، قال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقتَ ، فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره قال : صدقت ، قال : فأخبرنى عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرنى عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال : فأخبرنى عن أماراتها ، قال : أن تلد الأمَة ربَّتها ، وأن تَرى الحُفاة العُراة العالة رعاءَ الشاء يتطاولون فى البنيان ، قال : فانطلق ، فلبثت ثلاثاً – وفى رواية : ملياً ثم قال : يا عمر أتدرى من السائل؟ قلتُ : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

ففى هذا الحديث أن الإيمان بالقدر من أصول الإيمان الستة المذكورة فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد ترك أصلاً من أصول الدين وجحده ، فيشبه من قال الله فيهم (٢ : ٨٥) : ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض – الآية﴾ .

قوله : (وعن عبادة) قد تقدم ذكره فى باب فضل التوحيد ، وحديثه هذا رواه أبو داود ، ورواه الإمام أحمد بكماله [2] ، قال: حدثنا الحسن بن سوار، حدثنا ليث عن معاوية عن أيوب

(١) يقال : اقتفرت الأثر ، أى تتبعته وقفوته . فمعنى يتقفرون العلم أى يتطلبونه .

(٢) المسند (ج٥ ص٣١٧) ، وهو عند أبى داود أخصر مما عند أحمد ومن طريق جعفر بن مسافر الهذلى أخبرنا يحيى بن حسان ، أخبرنا الوليد بن رباح عن إبراهيم بن أبى جميلة ، عن أبي حفصة قال : قال عبادة بن الصامت لابنه : . . . الحديث . وسكت عنه المنذرى .

قال : اكتبْ ؟ قال : اكتبْ مقادير كلِّ شيء حتى تقوم الساعة ، يا بُنَىَّ ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : من ماتَ على غيرِ هذا فليسَ منى » .

وفى رواية لأحمد : « إن أوّلَ ما خلق اللهُ تعالى القلم ، قال له : اكتب ، فجري فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » .

وفى رواية لابن وهب قال رسول الله ﷺ : « فمن لم يؤمن بالقدر خَيْره وشره : أَحْرَقَه الله بالنار » .

وفى المسند والسنن عن ابن الديلمى قال : « أتيت أُبَى بن كعب فقلت : فى نفسى شىء من القدَر ، فحدّثنى بشىء لعل الله يُذهبه من قلبى ، فقال : لو أنفقت مثل أُحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما

ابن زياد ، حدثنى عبادة بن الوليد بن عبادة ، حدثنى أبى قال : « دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت ، فقلت : يا أبتاه أوصنى واجتهد لى ، قال : أجلسونى ، قال : يا بنىّ إنك لن تجد طعم الإيمان ، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ، قلت : يا أبتاه فكيف لى أن أعلم ما خير القدر وشره ؟ قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يا بنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة ، يا بنىّ ، إن مت ولست على ذلك دخلت النار » ورواه الترمذى بسنده المتصل إلى عطاء بن أبى رباح عن الوليد بن عبادة عن أبيه ، وقال : حسن صحيح وغريب .

وفى هذا الحديث ونحوه : بيان شمول علم الله تعالى وإحاطته بما كان وما يكون فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى (٦٥ : ١٢) : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً﴾[١] .

وقد قال الإمام أحمد - رحمه الله - لما سئل عن القدر ؟ قال : « القدر قدرة الرحمن » واستحسن ابن عقيل هذا من أحمد - رحمه الله - .

المعنى : أنه لا يمنع عن قدرة الله شىء ، ونفاة القدر قد جحدوا كمال قدرة الله تعالى ، فضلوا عن سواء السبيل ، وقد قال بعض السلف : ناظروهم بالعلم ، فإن أقروا به خصموا ، وإن جحدوه كفروا .

قوله : (وفى المسند وسنن أبى داود عن ابن الديلمى) وهو أبو بسر - بالسين المهملة ، وبالباء المضمومة ، ويقال : أبو بشر - بالشين المعجمة وكسر الباء - وبعضهم صحح الأول واسمه عبد الله بن فيروز ، ولفظ أبى داود قال : « لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه،

---

(١) فى قرة العيون : والآيات فى إثبات القدرة كثيرة ، وقد استدل العلماء على إثبات القدر بشمول القدرة والعلم ، كما فى الآية .

أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مُت على غير هذا لكنت من أهل النار ، قال : فأتيت عبد الله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن ثابت ، فكلهم حدثنى بمثل ذلك عن النبى ﷺ » حديث صحيح . رواه الحاكم فى صحيحه .

فيه مسائل :

الأولى : بيان كيفية الإيمان بالقدر .

عذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم ، ولو أنفقت مثل أُحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار . قال : فأتيتُ عبدَ الله ابن مسعود قال مثل ذلك ، ثم أتيت حذيفة بن اليمان ، فقال مثل ذلك ، قال : ثم أتيت زيد ابن ثابت ، قال : فحدثنى عن النبى ﷺ مثل ذلك » [1] وأخرجه ابن ماجه .

وقال العماد ابن كثير - رحمه الله - : عن سفيان عن منصور عن ربعى بن حراش عن رجل عن علىّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله بعثنى بالحق ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر خيره وشره » ، وكذا رواه الترمذى عن النضر بن شميل عن شعبة عن منصور به ورواه من حديث أبى داود الطيالسى عن شعبة عن ربعى عن علىّ فذكره .

وقد ثبت فى صحيح مسلم من رواية عبد الله بن وهب وغيره عن أبى هانئ الخولانى عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله : « إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة - زاد ابن وهب - : وكان عرشه على الماء » رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن غريب .

وكل هذه الأحاديث وما فى معناها فيها الوعيد الشديد على عدم الإيمان بالقدر ، وهى الحجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم . ومن مذهبهم : تخليد أهل المعاصى فى النار [1] ، وهذا الذى اعتقدوه من أكبر الكبائر ، وأعظم المعاصى .

وفى الحقيقة إذا اعتبرنا إقامة الحجة عليهم بما تواترت به نصوص الكتاب والسنة من إثبات القدر فقد حكموا على أنفسهم بالخلود فى النار إن لم يتوبوا ، وهذا لازم لهم على مذهبهم هذا، وقد خالفوا ما تواترت به أدلة الكتاب والسنة من إثبات القدر ، وعدم تخليد أهل الكبائر من الموحدين فى النار .

---

(١) قال فى عون المعبود (ج٤ ص٣٦٢) : فيصير الحديث مرفوعاً . قال المنذرى : وفى إسناده أبو سفيان الشيبانى ، وثقه ابن معين وغيره ، وتكلم فيه أحمد وغيره .

(٢) فى قرة العيون : وهذا الذى اعتقدوه من أكبر الكبائر وأعظم البدع ، وكثير منهم وافقوا الجهمية فى نفى صفات الرب تعالى وتقدس .

الثانية : بيان فرض الإيمان .

الثالثة : إحباط عمل من لم يؤمن به .

الرابعة : الإخبار أن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به .

الخامسة : ذكر أول ما خلق الله .

السادسة : أنه جرى بالمقادير فى تلك الساعة إلى قيام الساعة .

السابعة : بَرَاءَته ﷺ ممن لم يؤمن به .

الثامنة : عادَة السلفِ فى إزالة الشبهة بسؤال العلماء .

التاسعة : أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته ، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط .

❊ ❊ ❊

باب (ما جاء فى المصورين)

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : «ومن أظْلم ممن ذهب يخلقُ كخلقى، فليخلقوا ذَرَّةً أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة» أخرجاه.

ولهما عن عائشة - رضى الله عنها - : أن رسول الله ﷺ قال : « أشَدُّ الناسِ عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله » .

ولهما عن ابن عباس : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « كل مُصوِّرٍ فى النار ، يُجعل له بكل صورةٍ صوّرها نفْسٌ يعذب بها فى جهنم » .

قوله : (باب ما جاء فى المصورين) أى : من عظيم عقوبة الله لهم وعذابه .

وقد ذكر النبى ﷺ العلة : وهى المضاهاة بخلق الله ؛ لأن الله تعالى له الخلق والأمر ، فهو رب كل شىء ومليكه ، وهو خالق كل شىء ، وهو الذى صور جميع المخلوقات ، وجعل فيها الأرواح التى تحصل بها الحياة ، كما قال الله تعالى (٣٢ : ٧ - ٩) : ﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ❊ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ❊ ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة وصار مضاهئاً لخلق الله ، فصار ما صوره عذاباً له يوم القيامة ، وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ ، فكان أشد الناس عذاباً؛ لأن ذنبه من أكبر الذنوب .

فإذا كان هذا فيمن صور صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان ؛ فكيف بحال من سوّى المخلوق برب العالمين ، وشبهة بخلقه ، وصرف له شيئاً من العبادة التى ما خلق الله

ولهما عنه مرفوعاً : « من صور صورة فى الدنيا كُلِّف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ » .

ولمسلم عن أبى الهيَّاج قال : « قال لى على : ألا أبْعثُك على ما بعثَنى عليه رسول الله ﷺ ؟ ألا تَدَعَ صورةً إلا طَمَسْتها ، ولا قَبْراً مُشْرِفاً إلا سَوَّيْته » .

الخلق إلا ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه ؟ فتسوية المخلوق بالخالق بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه ، وجعله شريكاً له فيما اختص به تعالى وتقدس ؛ هو أعظم ذنب عُصى الله تعالى به ، ولهذا أرسل رسله ، وأنزل كتبه ؛ لبيان هذا الشرك والنهى عنه وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى ، فنجى الله تعالى رسله ومن أطاعهم ، وأهلك من جحد التوحيد ، واستمر على الشرك والتندي، فما أعظمه من ذنب (٤:٤٨ ، ١١٦) : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ، (٢٢ ، ٣١) ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق﴾ .

قوله : (ولمسلم عن أبى الهياج الأسدى - حيان بن حصين - قال : قال لى على - رضى الله عنه -) هو أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضى الله عنه - .

قوله : (ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ ؟ ألا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته) [1] .

فيه تصريح بأن النبى ﷺ بعث علياً لذلك . أما الصور : فلمضاهاتها لخلق الله ، وأما تسوية القبور : فلما فى تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها ، وهو من ذرائع الشرك ووسائله . فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله من مصالح الدين ومقاصده وواجباته ، ولما وقع التساهل فى هذه الأمور وقع المحذور ، وعظمت الفتنة بأرباب القبور ، وصارت محطاً لرحال العابدين المعظمين لها ، فصرفوا لها جل العبادة : من الدعاء والاستعانة والاستغاثة والتضرع لها ، والذبح لها ، والنذور ، وغير ذلك من كل شرك محظور .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - [2] : ومَن جمع بين سنة رسول الله ﷺ فى القبور ، وما أمر به ونهى عنه ، وما كان عليه أصحابه ، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم ، رأي أحدهما مضاداً للآخر ، مناقضاً له بحيث لا يجتمعان أبداً ، فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور ، وهؤلاء يصلون عندها وإليها ونهى عن اتخاذها مساجد ، وهؤلاء يبنون عليها المساجد،

---

(١) فى قرة العيون : فهذا ما صح عن النبى ﷺ من إنكار هذه الأمور وإزالتها : ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم ﴾ [٢ : ٥٩] ، فأكثروا التصوير واستعملوه وأكثروا البناء على القبور وزخرفوها وجعلوها أوثاناً ، وزعموه ديناً وهو أعظم المنكرات وأكبر السيئات ، تعظيماً للأموات وغلواً ، وعبادة لغير الله بأنواع العبادة التى هى حق الله على عباده .

(٢) فى إغاثة اللهفان الجزء الأول .

ويسمونها مشاهد ، مضاهاة لبيوت الله . ونهى عن إيقاد السرج عليها ، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها ، ونهى عن أن تتخذ عيداً ، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر ، وأمر بتسويتها ، كما روى مسلم فى صحيحه عن أبى الهياج الأسدى - فذكر حديث الباب - وحديث ثمامة بن شُفَى وهو عند مسلم أيضاً قال: « كنا مع فَضالة بن عُبيد بأرض الروم بردوس ، فتُوُفِّى صاحب لنا ، فأمر فضالة بقبره فسوّى ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها » ، وهؤلاء يبالغون فى مخالفة هذين الحديثين ويرفعونها عن الأرض كالبيت ، ويعقدون عليها القباب ، ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه كما روى مسلم فى صحيحه عن جابر - رضى الله عنه - قال : « نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر ، وأن يقعد عليه ، وأن يبنى عليه » ، ونهى عن الكتابة عليها ، كما روى أبو داود فى سننه عن جابر : أن رسول الله ﷺ « نهى عن تجصيص القبور ، وأن يكتب عليها » قال الترمذى : حديث حسن صحيح ، وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ، ويكتبون عليها القرآن وغيره ، ونهى أن يزاد عليها غير ترابها ، كما روى أبو داود عن جابر أيضاً : أن رسول الله ﷺ « نهى أن يجصص القبر ، أو يكتب عليه ، أو يزاد عليه » ، وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والجص والأحجار [1] . قال إبراهيم النخعى : كانوا يكرهون الآجر على قبورهم .

والمقصود أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذيها أعياداً ، الموقدين عليها السرج ، الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ محادون لما جاء به ، وأعظم ذلك : اتخاذها مساجد ، وإيقاد السرج عليها ، وهو من الكبائر ، وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه .

قال أبو محمد المقدسى : ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله ، ولأن فيه تضييعاً للمال فى غير فائدة ، وإفراطاً فى تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام . قال : ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر ، ولأن النبى ﷺ قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذّر ما صنعوا » متفق عليه ، ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها ؛ وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم ، والتمسح بها والصلاة عندها . انتهى .

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً ، ووضعوا لها مناسك ،

---

(١) اختصر المؤلف كلام ابن القيم ما يأتى :

« ونهى عمر بن عبد العزيز أن يبنى القبر بآجر ، وأوصى أن لا يفعل ذلك بقبره وأوصى الأسود بن يزيد أن لا تجعلوا على قبرى آجراً . وأوصى أبو هريرة حين حضرته الوفاة أن لا يضربوا على قبرة فسطاطاً . وكره الإمام أحمد أن يضرب على القبر فسطاطاً » . ا هـ إغاثة اللهفان (ج١ ص١٠٣) .

حتى صنف بعض غلاتهم فى ذلك كتاباً وسماه مناسك حج المشاهد ، مضاهاة منه القبور بالبيت الحرام ؛ ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام ، ودخول فى دين عباد الأصنام ، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده ، من النهى عما تقدم ذكره فى القبور ، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه ، ولا ريب أن فى ذلك من المفاسد ما يعجز عن حصره .

فمنها : تعظيمها الموقع فى الافتتان بها ، ومنها : اتخاذها أعياداً ، ومنها : السفر إليها .

ومنها : مشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسدانتها ، وعُبَّادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام ، ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد ، والويل عندهم لقَيِّمها ليلة يطفىء القنديل المعلق عليها ، ومنها : النذر لها ولسدنتها ، ومنها : اعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء وينصر على الأعداء ، ويستنزل غيث السماء ، وتفرج الكروب ، وتقضى الحوائج ، وينصر المظلوم ، ويجار الخائف إلى غير ذلك ، ومنها : الدخول فى لعنة الله ورسوله باتخاذ المساجد عليها ، وإيقاد السرج عليها ، ومنها : الشرك الأكبر الذي يفعل عندها .

ومنها : إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم ، فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبروهم ، ويكرهونه غاية الكراهية ، كما أن المسيح - عليه السلام - يكره ما يفعله النصارى عند قبره ، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم . ويوم القيامة يتبرأون منهم ، كما قال تعالى (٢٥ : ١٧ ، ١٨) : ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ، فيقول : أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء ، أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا : سبحانك ! ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر. وكانوا قوماً بوراً ﴾ قال الله تعالى للمشركين : ﴿ فقد كذبوكم بما تقولون ﴾ وقال تعالى (٥ : ١١٦) : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس اتخذونى وأُمىَ إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ! ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق - الآية ﴾ ، وقال تعالى (٣٤: ٤٠ ، ٤١) : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك ! أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ .

ومنها [1] : إماتة السنن وإحياء البدع .

ومنها : تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله ، فإن عُباد القبور يقصدونها مع التعظيم

(١) اختصر المؤلف من كلام ابن القيم ما يأتى : ومنها مشابهة اليهود والنصارى فى اتخاذ المساجد والسرج عليها. ومنها محادة الله ورسوله ، ومناقضة ما شرعه فيها . ومنها التعب العظيم مع الوزر الكبير والإثم العظيم .

والاحترام ، والخشوع ورقة القلب ، والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه فى المساجد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريباً منه .

ومنها [١] : أن الذى شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكّر الآخرة ، والإحسان إلى المزور بالدعاء له ، والترحم عليه ، والاستغفار له ، وسؤال العافية له ؛ فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت ، فقلَب هؤلاء المشركون الأمر ، وعكسوا الدين ، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت ودعاءه والدعاء به ، وسؤاله حوائجهم ، واستنزال البركة منه ، ونصره لهم على الأعداء ، ونحو ذلك ، فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت ، وكان رسول الله ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القبور سداً للذريعة ، فلما تمكن التوحيد فى قلوبهم أذن لهم فى زيارتها على الوجه الذى شرعه ، ونهاهم أن يقولوا هُجراً ، ومن أعظم الهجر : الشرك عندها قولاً وفعلاً .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله : « زوروا القبور، فإنها تذكّر الموت » [٢] ، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « مر رسول الله ﷺ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه ، فقال : السلام عليكم يا أهل القبور ، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر » رواه أحمد والترمذى وحسنه [٣] .

فهذه الزيارة التى شرعها رسول الله ﷺ لأمته ، وعلمهم إياها ، هل تجد فيها شيئاً مما يعتمده أهل الشرك والبدع ؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه ؟ وما أحسن ما قال مالك بن أنس - رحمه الله - : « لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها » ، ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم عرضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك .

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه ، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبى ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة ، وجعل ظهره إلى جدار القبر، ثم دعا [٤] ونص على ذلك الأئمة الأربعة : أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء ، حتى لا يدعو عند القبر ، فإن الدعاء عبادة . وفى

---

(١) زاد فى الإغاثة : ومنها أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد وخراب المساجد ، ودين الله الذى بعث به رسول الله بضد ذلك ، ولهذا لما كانت الرافضة من أبعد الناس عن العلم والدين عمروا المشاهد وخربوا المساجد .

(٢) حذف المؤلف رحمه الله من كلام ابن القيم حديث عليّ عند الإمام أحمد : « إنى كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها فإنها تذكر الآخرة » .

(٣) حذف المؤلف رحمه الله حديث ابن مسعود : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروا القبور فإنها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة » رواه ابن ماجه . وحديث أبى سعيد « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن فيها عبرة » رواه الإمام أحمد .

(٤) قال ابن القيم : فقال سلمة بن وردان : « رأيت أنس بن مالك رضى الله عنه يسلم على النبى ﷺ ثم يسند ظهره إلى جدار القبر ثم يدعو » .

ما أذن فيه رسول الله ﷺ من الدعاء لأصحابه ، والاستغفار لهم والترحم عليهم ، وأخرج أبو داود عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبرى عيداً وصلوا علىَّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » وإسناده جيد ، ورواته ثقات مشاهير .

وقوله : (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً) أى لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور ، فأمر بتحرى النافلة فى البيوت ، ونهى عن تحرى النافلة عند القبور ، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم .

ثم إن [1] فى تعظيم القبور واتخاذها أعياداً من المفاسد العظيمة التى لا يعلمها إلا الله ما يغضب لأجله كل من فى قلبه وقار لله وغيره على التوحيد ، وتهجين وتقبيح للشرك ؛ ولكن ما لجرح بميت إيلام .

فمن المفاسد : اتخاذها أعياداً والصلاة إليها ، والطواف بها ، وتقبيلها واستلامها ، وتعفير الخدود على ترابها ، وعبادة أصحابها ، والاستغاثة بهم ، وسؤالهم النصر والرزق والعافية ، وقضاء الدين ، وتفريج الكربات ، وإغاثة اللهفات ، وغير ذلك من أنواع الطلبات ، التى كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم ، فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيداً ، وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد ، فوضعوا لها الجباه ، وقبّلوا الأرض ، وكشفوا الرؤوس ، وارتفعت أصواتهم بالضجيج ، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج ، ورأوا أنهم قد أربوا فى الربح على الحجيج ؛ فاستغاثوا بمن لا يبدىء ولا يعيد ، ونادوا ولكن من مكان بعيد ، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين ، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر من صلى إلى القبلتين، فتراهم حول القبر رُكعاً وسجداً ، يبتغون فضلاً من الميت ورضواناً ، وقد ملأوا أكفهم خيبة وخسراناً .

فلغير الله - بل للشيطان - ما يُراق هناك من العبرات ، ويرتفع من الأصوات ، ويطلب من الميت من الحاجات ، ويُسأل من تفريج الكربات ، وإغاثة اللهفات ، وإغناء ذوى الفاقات ، ومعافاة ذوى العاهات والبليات ، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين ، تشبيهاً بالبيت الحرام الذى جعله الله مباركاً وهدى للعالمين ، ثم أخذوا فى التقبيل والاستلام ، أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام ؟ ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود ، التى يعلم الله أنها لم تُعَفر كذلك بين يديه فى السجود ، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق ، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذا لم يكن لهم عند الله من خلاق ، وقد قربوا لذلك الوثن القرابين ، وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين ، فلو رأيتهم يهْنىء

(١) الذى فى نسخ إغاثة اللهفان التى بأيدينا المخطوطة والمطبوعة أن قول المؤلف رحمه الله : « ثم إن فى تعظيم القبور . . . إلخ » فصل متقدم قبل ما نقله المؤلف هنا .

فيه مسائل :

الأولى : التغليظ الشديد فى المصورين .

الثانية : التنبيه على العلة ، وهو تركُ الأدب مع الله ، لقوله : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى » .

الثالثة : التنبيه على قدرته ، وعجزهم لقوله : « فليخلقوا ذرة أو حبة أو شعيرة » .

الرابعة : التصريح بأنهم أَشَدُّ الناس عذاباً .

الخامسة : أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور فى جهنم .

السادسة : أنه يكلَّف أن ينفخ فيها الروح .

السابعة : الأمر بطمسها إذا وجدت .

❊ ❊ ❊

باب (ما جاء فى كثرة الحلف)

وقول الله تعالى (٥ : ٨٩) : ﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾ .

بعضهم بعضاً ويقول : أجزل الله لنا ولكم أجراً وافراً وحظاً ، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام ، فيقول : لا ، ولا بحجك كل عام .

هذا ، ولم نتجاور فيما حكيناه عنهم ، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم ؛ إذ هى فوق ما يخطر بالبال ، ويدور فى الخيال ، وهذا مبدأ عبادة الأصنام فى قوم نوح كما تقدم ، وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور : سد الذريعة إلى هذا المحظور ، وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه ، وأحكم فى نهيه عنه وتوعده عليه، وأن الخير والهدى فى اتباعه وطاعته ، والشر والضلال فى معصيته ومخالفته . ا هـ كلامه رحمه الله تعالى [(١)] .

قوله : (باب ما جاء فى كثرة الحلف) أى : من النهى عنه والوعيد .

(وقول الله تعالى (٥ : ٨٩) : ﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾ .

قال ابن جرير : لا تتركوها بغير تكفير ، وذكر غيره من المفسرين عن ابن عباس يريد لا تحلفوا وقال آخرون : احفظوا أيمانكم عن الحنث فلا تحنثوا .

والمصنف أراد من الآية المعنى الذى ذكره ابن عباس ؛ فإن القولين متلازمان ، فيلزم من كثرة

---

(١) اختصره المؤلف رحمه الله تعالى وتصرف فيه بالتقديم والتأخير على حسب ما بيدى من نسخ إغاثة اللهفان والله يرحم الجميع ويغفر لنا ولهم .

عن أبي هريرة – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحلف مَنْفقةٌ للسِّلْعة ، ممحقة للكسب » أخرجاه .

وعنْ سلمان : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله

الحلف كثرة الحنث مع ما يدل عليه من الاستخفاف ، وعدم التعظيم لله ، وغير ذلك مما ينافى كمال التوحيد الواجب أو عدمه .

قوله : (عن أبي هريرة – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للكسب » أخرجاه) أي البخارى ومسلم ، وأخرجه أبو داود والنسائى .

والمعنى : أنه إذا حلف على سلعته أنه أعطى فيها كذا وكذا ، أو أنه اشتراها بكذا وكذا ، وقد يظنه المشترى صادقاً فيما حلف عليه ، فيأخذها بزيادة على قيمتها ، والبائع كذاب ، وحلف طمعاً فى الزيادة ، فيكون قد عصى الله تعالى ، فيعاقب بمحق البركة ، فإذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التى دخلت عليه بسبب حلفه ، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأساً ، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته ، وإن تزخرفت الدنيا للعاصى فعاقبتها اضمحلال وذهاب وعقاب .

قوله : (وعن سلمان – رضى الله عنه – : أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : أُشَيْمِط زان ، وعائل مستكبر ، ورجل جعل الله بضاعته ، لا يشترى إلا بيمينه ، ولا يبيع إلا بيمينه » رواه الطبرانى بسند صحيح) .

و« سلمان » لعله سلمان الفارسى ، أبو عبد الله ، أسلم مقدم النبى ﷺ المدينة ، وشهد الخندق ، روى عنه أبو عثمان النهدى وشرحبيل بن السمط وغيرهما . قال النبى ﷺ : «سلمان منا أهل البيت ، إن الله يحب من أصحابى أربعة : علياً ، وأبا ذر ، وسلمان ، والمقداد » أخرجه الترمذى ، وابن ماجه . قال الحسن : كان سلمان أميراً على ثلاثين ألفاً يخطب بهم فى عباءة يفترش نصفها ويلبس نصفها . توفى فى خلافة عثمان – رضى الله عنه – قال أبو عبيدة : سنة ست وثلاثين عن ثلاثمائة وخمسين سنة ، ويحتمل أنه سلمان بن عامر ابن أوس الضبى .

قوله : (ثلاثة لا يكلمهم الله [1]) نفى كلام الرب تعالى وتقدس عن هؤلاء العصاة دليل على أنه يكلم من أطاعه ، وأن الكلام صفة من صفات كماله . والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شىء وأبينه . وهذا هو الذى عليه أهل السنة والجماعة من المحققين قيام الأفعال

---

(١) فى قرعة العيون : هذا وعيد شديد فى حقهم ، لأنه قد تواتر أنه تعالى يكلم أهل الإيمان ويكلمونه فى عرصات القيامة والأدلة على ذلك فى الكتاب والسنة أظهر شىء وأبينه . وفيه الرد على الجهمية والأشاعرة نفاة صفة الكلام .

ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : أُشَيْمِط زان ، وعائلٌ مستكبرٌ ، ورجل جعل (الله) بضاعته ، لا يشترى إلا بيمينه ، ولا يبيع إلاّ بيمينه » رواه الطبرانى بسند صحيح .

بالله سبحانه ، وأن الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئاً فشيئاً ولم يزل متصفاً به . فهو حادث الآحاد قديم النوع ، كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعى وأحمد وسائر الطوائف ، كما قال تعالى (٣٦ : ٨٢) : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون ﴾ فأتى بالحروف الدالة على الحال والاستقبال أيضاً ، وذلك فى القرآن كثير .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : فإذا قالوا لنا - يعنى النفاة : فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به . قلنا : ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة ؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل . ولفظ الحوادث مجمل ، فقد يراد به الأعراض والنقائص ، والله تعالى منزه عن ذلك - ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك، مما دل عليه الكتاب والسنة ، والقول الصحيح : هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون : لم يزل الله متكلماً إذا شاء كما قال ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة . اهـ.

قلت : ومعنى قيام الحوادث به تعالى: قدرته عليها، وإيجاده لها بمشيئته وأمره. والله أعلم.

قوله : (ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) لما عظم ذنبهم عقوبتهم ، فعوقبوا بهذه الثلاث التى هى أعظم العقوبات .

قوله : (أشيمط زان) صغره تحقيراً له [١] وذلك لأن داعى المعصية ضعف فى حقه ، فدل على أن الحامل له على الزنا : محبة المعصية والفجور ، وعدم خوفه من الله ، وضعف الداعى إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليظ العقوبة عليه ، بخلاف الشاب ؛ فإن قوة داعى الشهوة منه قد تغلبه مع خوفه من الله ، وقد يرجع على نفسه بالندم ولومها على المعصية ، فينتهى ويراجع .

وكذا العائل المستكبر ليس له ما يدعوه إلى الكبر ؛ لأن الداعى إلى الكبر فى الغالب كثرة المال والنعم والرياسة . و« العائل » الفقير لا داعى له إلى أن يستكبر ، فاستكباره مع عدم الداعى إليه ، يدل على أن الكبر طبيعة له ، كامن فى قلبه ، فعظمت عقوبته ؛ لعدم الداعى إلى هذا الخلق الذميم ، الذى هو من أكبر المعاصى .

قوله : (ورجل جعل الله بضاعته) بنصب الاسم الشريف ؛ أي الحلف به ، جعله بضاعته لملازمته له وغلبته عليه ، وهذه أعمال تدل على أن صاحبها إن كان موحداً فتوحيده ضعيف وأعماله ضعيفة ، بحسب ما قام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصى العظيمة على قلة الداعى إليها ، نسأل الله السلامة والعافية ، ونعوذ بالله من كل عمل لا يحبه ربنا ولا يرضاه .

---

(١) تصغير أشمط ، وهو الذى بشعره شمط ، أى شيب .

وفى الصحيح عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير أُمتى قرنى ، ثم الذين يَلُونهم ، ثم الذين يلونهم – قال عمران : فلا أدرى : أذكرَ بعد قرن مرتين أو ثلاثاً ؟ – ثم إن بعدكم قومٌ يشهدون ولا يُستَشهدون ، ويخونون ولا يُؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السِّمَن » .

قوله : (وفى الصحيح) أى صحيح مسلم ، وأخرجه أبو داود والترمذى . ورواه البخارى بلفظ : « خيركم » [1] .

قوله : (عن عمران بن حصين – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « خير أُمتى قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم – قال عمران : فلا أدرى : ذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً ؟ – ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن) .

قوله : (خير أمتى قرنى) الفضيلة أهل ذلك القرآن فى العلم والإيمان والأعمال الصالحة التى يتنافس فيها المتنافسون ، ويتفاضل فيها العاملون ، فغلب الخير فيها وكثر أهله ، وقلّ الشر فيها وأهله ، واعتز فيها الإسلام والإيمان ، وكثر فيها العلم والعلماء ، (ثم الذين يلونهم) فضلّوا على من بعدهم لظهور الإسلام فيهم وكثرة الداعى إليه ، والراغب فيه والقائم به . وما ظهر فيه من البدع أنكر واستعظم وأُزيل ، كبدعة الخوارج والقدرية والرافضة ، فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت ، فأهلها فى غاية الذل والمقت والهوان والقتل فيمن عاند منهم ولم يتب .

قوله : (فلا أدرى أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً ؟) هذا شك من راوى الحديث عمران بن حصين – رضى الله عنه – . والمشهور فى الروايات : أن القرون المفضلة ثلاثة ، الثالث دون الأولين فى الفضل ؛ لكثرة البدع فيه ، لكن العلماء متوافرون ، والإسلام فيه ظاهر ، والجهاد فيه قائم، ثم ذكر ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء فى الدين ، وكثرة الأهواء .

فقال : (ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون) لاستخفافهم بأمر الشهادة وعدم تحريهم للصدق ، وذلك لقلة دينهم ، وضعف إسلامهم .

قوله : (ويخونون ولا يؤتمنون) يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير منهم أو أكثرهم.

قوله : (وينذرون ولا يوفون) أى لا يؤدون ما وجب عليهم ، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم .

قوله : (ويظهر فيهم السمن) لرغبتهم فى الدنيا ، ونيل شهواتهم والتنعم بها ، وغفلتهم عن الدار الآخرة والعمل لها. وفى حديث أنس: « لا يأتى على الناس زمان إلا والذى بعده شر

---

(١) بل رواه باللفظين ، برواية « خير أمتى أهل قرنى » فى فضائل الصحابة ، ورواية « خيركم » فى عدة مواضع منه .

وفيه عن ابن مسعود : أن النبى ﷺ قال : « خير الناس قَرْنى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجىء قوم تَسْبق شهادةُ أحدهم يَمِينَه ، ويمينُه شهادتَه » .

وقال إبراهيم : « كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار » .

فيه مسائل :

الأولى : الوصية بحفظ الأيمان .

الثانية : الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للبركة .

الثالثة : الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشترى إلا بيمينه .

منه حتى تلقوا ربكم » قال أنس : سمعته من نبيكم ﷺ ، فما زال الشر يزيد فى الأمة ، حتى ظهر الشرك والبدع فى كثير منهم، حتى فيمن ينتسب إلى العلم ويتصدر للتعليم والتصنيف(1) .

قلت : بل قد دعوا إلى الشرك والضلال والبدع ، وصنفوا فى ذلك نظماً ونثراً ، فنعوذ بالله من موجبات غضبه .

قوله : (وفيه عن ابن مسعود - رضى الله تعالى عنه - : أن النبى ﷺ قال : « خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجىء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » (2) .

قلت : وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا ونسى المعاد ، فخف أمر الشهادة واليمين عنده تحملاً وأداء ؛ لقلة خوفه من الله وعدم مبالاته بذلك ، وهذا هو الغالب على الأكثر ، والله المستعان . فإذا كان هذا قد وقع فى صدر الإسلام الأول فما بعده أكثر بأضعاف ، فكن من الناس على حذر .

قوله : (قال إبراهيم - هو النخعى - كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار » وذلك لكثرة علم التابعين وقوة إيمانهم ومعرفتهم بربهم ، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ لأنه من أفضل الجهاد ، ولا يقوم الدين إلا به . وفى هذا الرغبة فى تمرين الصغار على طاعة ربهم ، ونهيهم عما يضرهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

---

(1) فى قرة العيون : فحدث التفرق والاختلاف فى الدين أو حدث الغلو فى أهل البيت من بنى أميه فى المشرق لما كان لهم دولة وبنو المساجد على القبور وغلوا فى أربابها وظهرت دولة القرامطة وظهر فيهم الكفر والإلحاد فى شرائع الدين ، ومذهبهم معروف وظهر فيهم من البدع ما يطول عده وكثر الاختلاف والخوض فى أصول الدين ، وما زال أهل السنة على الحق ، ولكن كثرت البدع والأهواء حتى عاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، نشأ على هذا الصغير وهرم عليه الكبير .

(2) فى قرة العيون : فى هذا الحديث أن خير القرون ثلاثة بلا شك .

الرابعة : التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعى .

الخامسة : ذَمُّ الذين يحلفون ولا يستحلفون .

السادسة : ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة ، وذكر ما يحدث .

السابعة : أن الذين يشهدون ولا يستشهدون .

الثامنة : كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد .

* * *

باب (ما جاء فى ذمة الله وذمة نبيه)

وقوله (١٦ : ٩١) : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتهم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ .

وعن بُرَيدة قال : « كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّر أميراً على جيش أو سَرِيَّة ، أوصاه

قول : (باب ما جاء فى ذمة الله وذمة رسوله) وقول الله تعالى (١٦ : ٩١) : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتهم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ .

قال العماد ابن كثير : وهذا مما يأمر الله تعالى به ، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة ، ولهذا قال : ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ ولا تعارض بين هذا وقوله : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ ، وبين قوله : ﴿ ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم ﴾ أى لا تتركوها بلا تكفير ، وبين قوله ﷺ فى الصحيحين : « إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير منها وتحللتها – وفى رواية – : وكفّرت عن يمينى » لا تعارض بين هذا كله وبين الآية المذكورة هنا وهى ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ لأن هذه الأيمان المراد بها : الداخلة فى العهود والمواثيق ، لا الأيمان الواردة على حث أو منع ، ولهذا قال مجاهد فى الآية : يعنى الحلف أى حلف الجاهلية. ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : « لا حلف فى الإسلام ، وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة » ، وكذا رواه مسلم ، ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه ؛ فإن فى التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه .

وقوله تعالى : (إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها .

قوله : (عن بُريدة) هو ابن الحُصيب الأسلمى . وهذا الحديث من رواية ابنه سليمان عنه . قاله فى المفهم .

بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، فقال : اغزوا بسم الله ، فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تَغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً . وإذا لقيت عدوَّك من المشركين ، فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتهن ما أجابوك فاقْبل منهم ، وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ،

قوله : (قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله تعالى) فيه من الفقه : تأمير الأمراء ، ووصيتهم .

قال الحربى : السرية : الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها . والجيش : ما كان أكثر من ذلك . وتقوى الله : التحرز بطاعته من عقوبته .

قلت : وذلك بالعمل بما أمر به والانتهاء عما نهى عنه .

قوله : (ومن معه من المسلمين خيراً) أي ووصاه بمن معه أن يفعل معهم خيراً : من الرفق بهم ، والإحسان إليهم ، وخفض الجناح لهم ، وترك التعاظم عليهم ، قوله : (اغزوا باسم الله) هذا أى اشرعوا فى فعل الغزو مستعينين بالله مخلصين له . قلت : فتكون الباء فى « بسم الله » هنا للاستعانة والتوكل على الله .

قوله : (قاتلوا من كفر بالله) هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاربين وغيرهم . وقد خصص منهم من له عهد ، والرهبان والنسوان ، ومن لم يبلغ الحلم ، وقد قال متصلاً به : «ولا تقتلوا وليداً» ، وإنما نهى عن قتل الرهبان والنسوان ؛ لأنه لا يكون منهم قتال غالباً ، وإن كان منهم قتال أو تدبير قتلوا .

قلت : وكذلك الذرارى والأولاد .

قوله : (ولا تَغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا) الغلول : الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها . والغدر : نقض العهد ، والتمثيل هنا : التشويه بالقتيل ، كقطع أنفه وأذنه والعبث به ، ولا خلاف فى تحريم الغلول والغدر ، وفى كراهية المثلة .

قوله : (وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال - أو خصال) الرواية بالشك وهو من بعض الرواة . ومعنى الخلال والخصال واحد .

قوله : (فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم) قيدناه عمن يوثق بعلمه وتقييده بنصب « أيتهن » على أن يعمل فيها « أجابوك » لا على إسقاط حرف الجر . و« ما » زائدة ، ويكون تقدير الكلام : فإلى أيتهن أجابوك فاقبل منهم ، كما تقول : جئتك إلى كذا وفى كذا . فيعدى إلى الثانى بحرف الجر .

قلت : فيكون فى ناصب « أيتهن » وجهان : ذكرهما الشارح . الأول : منصوب على الاشتغال . والثانى : على نزع الخافض .

قوله : (ثم ادعهم إلى الإسلام) كذا وقعت الرواية فى جميع نسخ كتاب مسلم « ثم

ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين .

فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجرى عليهم حكم الله تعالى ، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفَئ شىء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم ، فإن هم أبوا فاستعن بالله ، وقاتلهم ،

ادعهم» بزيادة « ثم » والصواب إسقاطها ، كما روى فى غير كتاب مسلم ، كمصنف أبى داود وكتاب الأموال لأبى عبيدة ؛ لأن ذلك هو ابتداء تفسير الثلاث الخصال .

وقوله : (ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين) يعنى المدينة . وكان فى أول الأمر وجوب الهجرة إلى المدينة على كل من دخل فى الإسلام ، وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن من أهل مكة وغيرهم (1) .

قوله : (فإن أبوا أن يتحولوا) يعنى : أن من أسلم ولم يهاجر ولم يجاهد لا يُعطى من الخمس ولا من الفئ شيئاً . وقد أخذ الشافعى - رحمه الله - بالحديث فى الأعراب ، فلم ير لهم من الفئ شيئاً ، وإنما لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، كما أن أهل الجهاد وأجناد المسلمين لا حق لهم فى الصدقة عنده ، ومصرف كل مال فى أهله ، وسوّى مالك - رحمه الله - وأبو حنيفة - رحمه الله - بين المالين ، وجوّزا صرفهما للضعيف .

قوله : (فإن هم أبو فاسألهم الجزية) فيه حجة لمالك وأصحابه ، والأوزاعى فى أخذ الجزية من كل كافر : عربياً كان أو غيره ، كتابياً كان أو غيره . وذهب أبو حنيفة - رحمه الله - إلى أنها تؤخذ من الجميع ، إلا من مشركى العرب ومجوسهم . وقال الشافعى : لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب: عرباً كانوا أو عجماً، وهو قول الإمام أحمد فى ظاهر مذهبه، وتؤخذ من المجوس.

قلت : لأن النبى ﷺ أخذها منهم ، وقال : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

وقد اختلفوا فى القدر المفروض من الجزية . فقال مالك : أربعة دنانير على أهل الذهب ، وأربعون درهماً على أهل الوِرق ، وهل ينقص منها الضعيف أو لا ؟ قولان . وقال الشافعى : فيه دينار على الغنى والفقير ، وقال أبو حنيفة - رحمه الله - والكوفيون : على الغنى ثمانية وأربعون درهماً ، والوسط أربعة وعشرون درهماً ، والفقير اثنا عشر درهماً ، وهو قول أحمد ابن حنبل - رحمه الله - . قال يحيى بن يوسف الصرصرى الحنبلى - رحمه الله - :

---

(1) فى قرة العيون : وكذلك إذا ظهرت المعاصى فى بلدة ، نص عليه الفقهاء فى كتبهم . ا هـ . يعنى إذا غلبت المعاصى وأهلها ولم يقدر ولا يجد سبيلاً للإنكار عليهم . أما إذا وجد السبيل لإقامة الحجة ، فإن بقاءه يكون واجباً لتبليغ الدين خصوصاً إذا كان يدعو إلى التوحيد ومحاربة الشرك والبدع ويجد من يسمع له ويصغى إليه وينتفع بدعوته . والله الموفق .

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم ، أهْوَنُ من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حُكم الله ، فلا تنزلهم ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدرى : أتصيب فيهم حكم الله أم لا ؟ » رواه مسلم .

وقاتل يهـودا والنصارى وعصبة المجـ   وس ، فإن هم سـلموا الجزية أصدد

على الأدون اثنى عشر درهماً افرضن   وأربعـة من بعـد عشـرين زيـد

لأوسطهم حالاً ، ومن كان موسـراً   ثمانيـة مـع أربعـين لتنقـد

وتسـقط عن صبيانهم ونسـائهم   وشـيخ لهـم فانٍ وأعمى ومقعـد

وذى الفقر والمجنون أو عبد مسـلم   ومن وجـبت منهـم عليه فيهـتدى

وعند مالك وكافة العلماء : على الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون غيرهم ، وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين، لا ممن نأى بداره، ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين أو حربهم.

قوله : (وإذا حاصرت أهل حصن) الكلام إلى آخره فيه حجة لمن يقول من الفقهاء وأهل الأصول : إن المصيب فى مسائل الاجتهاد واحد ، وهو المعروف من مذهب مالك وغيره ووجه الاستدلال به : أنه ﷺ قد نص على أن الله تعالى قد حكم حكماً معيناً فى المجتهدات ، فمن وافقه فهو المصيب ، ومن لم يوافقه فهو المخطئ .

قوله : (وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه - الحديث ﴾ الذمة: العهد ، وتخفر : تنقض ، يقال : أخفرت الرجل : إذا نقضت عهده ، وخفرته : أجرته ، ومعناه : أنه خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء بالعهد ، كجملة الأعراب ، فكأنه يقول : إن وقع نقض من متعد معتد كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله تعالى ، والله أعلم .

قوله : (وقول نافع وقد سئل عن الدعوة قبل القتال (١) ، ذكر فيه : أن مذهب مالك يجمع بين الأحاديث فى الدعوة قبل القتال . قال : وهو أن مالكاً قال : لا يقاتل الكفار قبل أن يُدْعَوا ولا تلتمس غرتهم إلا أن يكونوا قد بلغتهم الدعوة ، فيجوز أن تلتمس غرتهم ، وهذا الذى صار إليه مالك هو الصحيح ؛ لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصبية ، وإنما يقاتلون للدين ، فإذا علموا بذلك أمكن أن يكون ذلك سبباً مميلاً لهم إلى

---

(١) ليس فى نسخ المتن التى بأيدينا قول نافع هذا ، فليحرر .

فيه مسائل :

الأولى : الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين .

الثانية : الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً .

الثالثة : قوله : « اغزوا بسم الله فى سبيل الله » .

الرابعة : قوله : « قاتلوا من كفر بالله » .

الخامسة : قوله : « استعن بالله وقاتلهم » .

السادسة : الفرق بين حُكم الله وحُكم العلماء .

السابعة : فى كون الصحابى يحكم عند الحاجة ، بحكم لا يدرى : أيوافق حكم الله أم لا ؟

❊ ❊ ❊

باب (ما جاء فى الإقسام على الله)

عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان ، فقال الله عز وجل : مَن ذا الذى يتألَّى علىَّ أن لا أغفر لفلان ؟ إنى قد غفرت له ، وأحبطتُ عملك » رواه مسلم .

الانقياد إلى الحق ، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين ، فقد يظنون أنهم يقاتلون للملك وللدنيا فيزيدون عتواً وبغضاً ، والله أعلم .

قوله : (باب ما جاء فى الإقسام على الله)

ذكر المصنف فيه حديث (جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان ، قال الله عز وجل : من ذا الذى يتألى علىّ أن لا أغفر لفلان ؟ إنى قد غفرت له ، وأحبطت عملك » رواه مسلم) .

قوله : (يتألى) أى يحلف ، والألية بالتشديد الحلف ، وصح من حديث أبى هريرة ، قال البغوى فى شرح السنة - وساق بالسند إلى عكرمة بن عمار - قال : « دخلت مسجد المدينة فنادانى شيخ قال : يا يمامى ، تعال ، وما أعرفه ، قال : لا تقولن لرجل : والله لا يغفر الله لك أبداً ولا يدخلك الجنة . قلت : ومن أنت يرحمك الله ؟ قال : أبو هريرة ، فقلت : إن هذه كلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب ، أو لزوجته أو لخادمه ، قال : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن رجلين كانا فى بنى إسرائيل متحابين أحدهما مجتهد فى العبادة ، والآخر ؛ كأنه يقول مذنب ، فجعل يقول : أقصر عما أنت فيه . قال : فيقول : خلّنى وربى قال : فوجده يوماً على ذنب استعظمه فقال : أقصر ، فقال : خلنى وربى ، أبعثت علىّ رقيباً

وفى حديث أبى هريرة : « أن القائل رجل عابد . قال أبو هريرة : تكلم بكلمة أوقت دنياه وآخرته » .

وفيه مسائل :

الأولى : التحذير من التألى على الله .

الثانية : كون النار أقرب إلى أحدنا من شِرِك نعله .

الثالثة : أن الجنة مثل ذلك .

الرابعة : فيه شاهد لقوله : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة » إلخ .

الخامسة : أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه .



فقال : والله لا يغفر الله لك ولا يدخلكَ الجنة أبداً . قال : فبعث الله إليهما ملكاً ، فقبض أرواحهما ، فاجتمعا عنده ؛ فقال للمذنب : ادخل الجنة برحمتى ، وقال للآخر : أتستطيع أن تحظر على عبدى رحمتى ؟ قال : لا يا رب ، قال : اذهبوا به إلى النار . قال أبو هريرة : والذى نفسى بيده ، لتكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته » ورواه أبو داود فى سننه ، وهذا لفظه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - يقول : « كان رجلان فى بنى إسرائيل متآخيين فكان أحدهما يذنب ، والآخر مجتهد فى العبادة ، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول : أقصر ؛ فوجده يوماً على ذنب فقال له : أقصر ، فقال : خلنى وربى ، أبعثت علىّ رقيباً ؟ قال : والله لا يغفر الله لك ، ولا يدخلك الجنة ، فقبضت أرواحهما ؛ فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال لهذا المجتهد : أكنت بى عالماً ، أو كنت على ما فى يدى قادراً ؟ فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة . وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار » .

قوله : (وفى حديث أبى هريرة أن القاتل رجل عابد) يشير إلى قوله فى هذا الحديث : «أحدهما مجتهد فى العبادة» وفى الأحاديث : بيان خطر اللسان ، وذلك يفيد التحرز من الكلام كما فى حديث معاذ : « قلت : يا رسول الله ؛ وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكُبّ الناس فى النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد لسنتهم ؟ » [1] ، والله أعلم .

---

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه . وقال الترمذى : حسن صحيح . وفى قرة العيون : وفيه معنى قوله ﷺ: « إن الرجل ليتلكم بالكلمة ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه » .

باب (لا يُستشفع بالله على خلقه)

عن جُبير بن مطعم رضى الله عنه قال : « جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، نُهِكَت الأنفس ، وجاع العيال ، وهلكت الأموال ، فاستسق لنا ربك ، فإنا نستشفع بالله عليك ، وبك على الله ، فقال النبى ﷺ : سبحان الله ! سبحان الله ! فما زال يسبح حتى عُرف ذلك فى وجوه أصحابه ، ثم قال : ويحك ، أتدرى ما الله ! إن شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يُستشفع بالله على أحد » ، وذكر الحديث ، رواه أبو داود [(١)] .

قوله : (باب لا يستشفع بالله على خلقه)

وذكر الحديث [(٢)] وسياق أبى داود فى سننه أتم مما ذكره المصنف - رحمه الله - ولفظه :

(عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال : « أتى رسول الله ﷺ أعرابى فقال : يا رسول الله ، جهدت الأنفس ، وضاعت العيال ، ونهكت الأموال وهلكت الأنعام ، فاستسق الله لنا ، فإنا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ، قال رسول الله ﷺ : ويحك ، أتدرى ما تقول ؟ وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه ، ثم قال : ويحك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، ويحك ، أتدرى ما الله ؟ إن عرشه على سمواته لهكذا - وقال بأصابعه مثل القبة عليه - وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب » .

قال ابن بشار فى حديثه : « إن الله فوق عرشه ، وعرشه فوق سمواته » .

قال الحافظ الذهبى : رواه أبو داود بإسناد حسن عنده فى الرد على الجهمية من حديث محمد ابن إسحاق بن يسار [(٣)]

قوله : (ويحك [(٤)] إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه) فإنه تعالى رب كل شىء ومليكه، والخير كله بيده ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ؛ ولا راد لما قضى ، وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديراً . إنما أمره إذا أراد شيئاً

---

(١) يعنى أن المصنف ساق حديث جبير بن مطعم ناسبا له إلى أبى داود ولكنه اختصره .

(٢) فى قرة العيون : هذا الحديث رواه أبو داود ورضيه على عادته فيما كان عنده صحيحاً أو حسناً ، وسكت عليه . ا هـ أقول : بل تكلم أبو داود على سنده ، فخطأ بعض رواته فى سياقه وصوب من قال : إنه روى كتابة من نسخة وهب بن جرير لا تحديثاً ، وأن مداره فيها على محمد بن إسحاق عنعنة لا سماعاً .

(٣) يشير بذلك إلى ضعف الحديث لأن محمد بن إسحاق مدلس . وانظر الكلام على الحديث وشروح الأئمة له فى عون المعبود (ج٤ ص٣٧٠) .

(٤) فى قرة العيون : ويحك كلمة تقال للزجر . قوله : « أتدرى ما الله ؟ » فيه إشارة إلى قلة علمه بعظمة الله وجلاله .

أن يقول له : كن ، فيكون ، والخلق وما فى أيديهم ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء . وهو الذى يشفّع الشافع إليه ، ولهذا أنكر على الأعرابى .

قوله : (وسبح الله كثيراً وعظمه) لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وبحمده « إن شأن الله أعظم من ذلك » .

وفى هذا الحديث : إثبات علو الله على خلقه ، وأن عرشه فوق سمواته . وفيه : تفسير الاستواء بالعلو كما فسره الصحابة والتابعون والأئمة ، خلافاً للمعطلة والجهمية والمعتزلة ومن أخذ عنهم ، كالأشاعرة ونحوهم ممن ألحد فى أسماء الله وصفاته وصرفها عن المعنى الذى وضعت له ودلت عليه من إثبات صفات الله تعالى التى دلت على كماله جل وعلا ، كما عليه السلف الصالح والأئمة ومن تبعهم ممن تمسك بالسنة ، فإنهم أثبتوا ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله من صفات كماله ، على ما يليق بجلاله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل.

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - فى مفتاح دار السعادة - بعد كلام سبق فيما يُعرّف العبد بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته - قال بعد ذلك .

والثانى : أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة ، فتفتح له أبواب السماء ؛ فيجول فى أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها ، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهى به سير القلب إلى عرش الرحمن ، فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته ، ويري السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، ويرى الملائكة حافّين من حول العرش لهم زَجل بالتسبيح والتحميد ، والتقديس والتكبير ، والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التى لا يعلمها إلا ربها ومليكها ؛ فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين ، وإعزاز قوم وإذلال آخرين ، وإنشاء ملك وسلب ملك ، وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتبيانها وكثرتها : من جبر كسير ، وإغناء فقير ، وشفاء مريض ، وتفريج كرب ، ومغفرة ذنب ، وكشف ضر ، ونصر مظلوم ، وهداية حيران ، وتعليم جاهل ورَدِّ آبق ، وأمان خائف، وإجارة مستجير ، ومدد لضعيف وإغاثة لملهوف وإعانة لعاجز ، وانتقام من ظالم ، وكف لعدوان ؛ فهى مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة ، تنفذ فى أقطار العوالم ، لا يشغله سمع شىء منها عن سمع غيره ، ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على اختلاف لغاتها وتبيانها واتحاد وقتها ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، ولا تنقص ذرة من خزائنه ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . فحينئذ يقوم القلب بين يدى الرحمن مطرقاً لهيبته خاشعاً لعظمته عانياً لعزته ، فيسجد بين يدى الملك الحق المبين ، سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد ، فهذا سفر القلب ، وهو فى وطنه وداره ومحل ملكه ، وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه فياله من سفر ما أبركه وأروجه ، وأعظم ثمرته وربحه ، وأجل منفعته وأحسن عاقبته ، سفر

هو حياة الأرواح ، ومفتاح السعادة ، وغنيمة العقول والألباب ، لا كالسفر الذى هو قطعة من العذاب . ا هـ كلامه رحمه الله .

وأما الاستشفاع بالرسول ﷺ فى حياته ، فالمراد به : استجلاب دعائه وليس خاصاً به ﷺ بل كل حى صالح يرجى أن يستجاب له ، فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة ، كما قال النبى ﷺ لعمر لما أراد أن يعتمر من المدينة : « لا تنسنا يا أخى من صالح دعائك » [1] ، وأما الميت : فإنما يشرع فى حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفى غير ذلك . وهذا هو الذى يشرع فى حق الميت ، وأما دعاؤه فلم يشرع ، بل قد دل الكتاب والسنة على النهى عنه والوعيد عليه ؛ كما قال تعالى (٣٥ : ١٣ ، ١٤) : ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ۞ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم » ﴾ فبين الله تعالى أن دعاءه من لا يسمع ولا يستجيب شرك يكفر به المدعو يوم القيامة : أى ينكره ويعادى من فعله ، كما فى آية الأحقاف (٤٦ : ٦) : ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداَء ، وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر ، والصحابة - رضى الله عنهم - لا سيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين ، لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم : أنهم أنزلوا حاجتهم بالنبى ﷺ بعد وفاته، حتى فى أوقات الجدب، كما وقع لعمر -رضى الله عنه - لما خرج ليستسقى بالناس خرج بالعباس عم النبى ﷺ ، فأمره أن يستسقى لأنه حى حاضر يدعو ربه [2] ، فلو جاز أن يستسقى بأحد بعد وفاته لاستسقى عمر - رضى الله عنه- والسابقون الأولون بالنبى ﷺ ، وبهذا يظهر الفرق بين الحى والميت ؛ لأن المقصود من الحى دعاؤه إذا كان حاضراً، فإنهم فى الحقيقة إنما توجهوا إلى الله بطلب دعاء من يدعوه ويتضرع إليه ، وهم كذلك يدعون ربهم ، فمن تعدى المشروع إلى ما لا يشرع ضل وأضل ، ولو كان دعاء الميت خيراً لكان الصحابة إليه أسبق وعليه أحرص ، وبهم أليق ، وبحقه أعلم وأقوم ، فمن تمسك بكتاب الله نجا ، ومن تركه واعتمد على عقله وهلك ، وبالله التوفيق .

---

(١) رواه أبو داود وأحمد فى المسند (ج١ ص٢٩ ، ج٢ ص٥٩) عن عبد الله بن عمر : « أن عمر استأذن النبى ﷺ فى العمرة ، فأذن له ، فقال : يا أخى أشركنا فى صالح دعائك ، ولا تنسنا » قال عبد الرزاق فى حديثه: فقال عمر : « ما أحب أن لى بها ما طلعت عليه الشمس » لقوله : يا أخى .

(٢) رواه البخارى . وقد حصل ذلك فى عام الرمادة سنة ثمان عشرة ، ودام القحط تسعة أشهر . قال الحافظ فى الفتح (ج٢ ص٣٣٩) : وقد بين الزبير بن بكار فى الأنساب صفة ما دعا به العباس فى هذه الواقعة والوقت الذى وقعت فيه ، فأخرج بإسناده أن العباس لما استسقى به عمر قال : « اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه القوم إليك بى لمكانى من نبيك ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ، ونواصينا إليك بالتوبة ، فاسقنا الغيث » ، فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس .

فيه مسائل :

الأولى : إنكاره على من قال : « نستشفع بالله عليك » .

الثانية : تغيره تغيراً عرف فى وجوه أصحابه من هذه الكلمة .

الثالثة : أنه لم ينكر عليه قوله : « نستشفع بك على الله » .

الرابعة : التنبيه على تفسير سبحان الله .

الخامسة : أن المسلمين يسألونه ﷺ الاستسقاء .

* * *

باب (ما جاء فى حماية النبى ﷺ حمى التوحيد ، وسدِّه طرق الشرك)

عن عبد الله بن الشِّخِّير[1] - رضى الله عَنه - قال : « انطلقتُ فى وفد بنى عامر إلى رسول الله ﷺ ؛ فقلنا : أنت سيدنا ، فقال : السيد الله تبارك وتعالى ، قلنا : وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً ، فقال : قولوا بقولكم ، أو بعض قولكم ، ولا يستجرينكم الشيطان » رواه أبو داود بسند جيد .

قوله : (باب ما جاء فى حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك)

حمايته ﷺ حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال التى يضمحل معها التوحيد أو ينقص [2] وهذا كثير فى السنة الثابتة عنه ﷺ كقوله : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » وتقدم قوله : « إنه لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث بالله عز وجل » ونحو ذلك ، ونهى عن التمادح وشدد القول فيه ، كقوله لمن مدح إنساناً : «ويلك قطعت عنق صاحبك - الحديث » أخرجه أبو داود عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه : «أن رجلاً أثنى على رجل عند النبى ﷺ فقال له : قطعت عنق صاحبك -ثلاثاً » ، وقال : «إذا لقيتم المداحين ، فاحثوا فى وجوههم التراب » أخرجه مسلم والترمذى وابن ماجه عن المقداد ابن الأسود .

---

(١) قال فى أسد الغابة : عبد الله بن الشخير بن عوف بن كعب بن وقدان بن الحيرش . . العامرى ثم الكعبى ثم من بنى الحريش وهو بطن من بنى عامر بن صعصعة ، له صحبة ؛ سكن البصرة - ثم ساق بسنده إلى مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه أنه قال : « قدمت على رسول الله ﷺ فى رهط من بنى عامر ، فقالوا : يا رسول الله، أ نت سيدنا وأنت والدنا وأنت أفضلنا علينا فضلاً ؛ وأنت أطولنا علينا طولاً ، وأنت الجفنة الغراء ، وأنت وأنت فقال : قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان » ، وقولهم : « أنت الجفنة الغراء » كانت العرب تدعو السيد المطعام (جفنة) لأنه يضعها ويطعم الناس فيها ، فسمى باسمها ، و(الغراء) البيضاء أى أنها مملوءة بالشحم والدهن ، قاله أبو السعادات فى النهاية) .

(٢) فى قرة العيون : وقد اشتمل هذا الكتاب - على اختصاره - على أكثر ذلك والنهى عما ينافى التوحيد أو يضعفه ، يعرف ذلك من تدبره وعرف ما تضمنه باباً باباً .

وعن أنس – رضى الله عنه – : « أن ناساً قالوا : يا رسول الله ، يا خيرنا ، وابن خيرنا، وسيدَنا وابن سيدنا ، فقال : يا أيها الناس ، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله [(١)] ، ما أُحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل » رواه النسائى بسند جيد .

وفى هذا الحديث : « نهى عن أن يقولوا : أنت سيدنا ، وقال : السيد الله تبارك وتعالى» ونهاهم أن يقولوا : « وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً » ، وقال : « لا يستجرينكم الشيطان » .

وكذلك قوله فى حديث أنس : « أن ناساً قالوا : يا رسول الله ، يا خيرنا وابن خيرنا » إلخ . كره ﷺ أن يواجهوه بالمدح فيفضى بهم إلى الغلو ، وأخبر ﷺ أن مواجهة المادح للممدوح بمدحه – ولو بما هو فيه – من عمل الشيطان ؛ لما تفضى محبة المدح إليه من تعاظم الممدوح فى نفسه وذلك ينافى كمال التوحيد ؛ فإن العبادة لا تقوم إلا بقطب رحاها الذى لا تدور إلا عليه ، وذلك غاية الذل فى غاية المحبة ، وكمال الذل يقتضى الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى ، وأن لا يرى نفسه إلا فى مقام الذم لها ، والمعاتبة لها فى حق ربه ، وكذلك الحب لا تحصل غايته إلا إذا كان يحب ما يحبه الله ، ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات ، ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه ، والمادح يغره من نفسه فيكون آثماً ، فمقام العبودية يقتضى كراهة المدح رأساً ، والنهى عنه صيانة لهذا المقام ، فمتى أخلص العبد الذل لله والمحبة له : خلصت أعماله وصحت ، ومتى أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب : دخل على مقام العبودية بالنقص أو الفساد ، وإذا أداه المدح إلى التعاظم فى نفسه والإعجاب بها وقع فى أمر عظيم ينافى العبودية الخاصة ، كما فى الحديث : « الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى فمن نازعنى شيئاً منهما عذبته » [(٢)] ، وفى الحديث : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » [(٣)] ، وهذه الآفات قد تكون محبة المدح سبباً لها وسلماً إليها ، والعجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وأما المادح فقد يفضى به المدح إلى أن ينزل الممدوح منزلة لا يستحقها ؛ كما يوجد كثيراً فى أشعارهم من الغلو الذي

---

(١) رواه مسلم من حديث أبى سعيد وأبى هريرة ، ورواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان .

(٢) رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص [(*)] بإسناد رجاله رجال الصحيح .

(٣) فى قرة العيون : فأعلى مراتب العبد هاتان الصفتان : العبودية الخاصة ، والرسالة ، وللنبى ﷺ أكملهما .

وقد أخبر الله تعالى أنه وملائكته يصلون عليه ، وأثنى عليه بأحسن ثناء وأبلغه ، وشرح له صدره ووضع عنه وزره ورفع له ذكره ، فلا يذكر فى الأذان والتشهد والخطب إلا ذكر معه ، صلوات الله وسلامه عليه .

(*) قوله : (رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص) إلخ . أقول : وأخرجه مسلم فى صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « لا يدخل النار أحد فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ولا يدخل الجنة أحد فى قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء » .

فيه مسائل :

الأولى : تحذير الناس من الغلوّ .

الثانية : ما ينبغى أن يقول : مَنْ قيل له : أنت سيدنا .

الثالثة : قوله : « لا يستجرينكم الشيطان » مع أنهم لم يقولوا إلا الحق .

الرابعة : قوله : « ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى » .

❊ ❊ ❊

نهى عنه الرسول ﷺ وحذر أمته أن يقع منهم ، فقد وقع الكثير منه حتى صرحوا فيه بالشرك فى الربوبية والإلهية والملك ، كما تقدمت الإشارة إلى شىء من ذلك . والنبى ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يمدح ، صيانة لهذا المقام ، وأرشد الأمة إلى ترك ذلك نصحاً لهم، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده ، أو يضعفه من الشرك ووسائله (٢ : ٥٩) : ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم ﴾ ورأوا أن فعل ما نهاهم ﷺ عن فعله قربة من أفضل القربات ، وحسنة من أعظم الحسنات .

وأما تسمية العبد بالسيد : فاختلف العلماء فى ذلك .

قال العلامة بن القيم فى بدائع الفوائد : اختلف الناس فى جواز إطلاق السيد على البشر . فمنعه قوم ، ونقل عن مالك ، واحتجوا بقول النبى ﷺ لما قيل له : « يا سيدنا » ، قال : «السيد الله تبارك وتعالى » وجوَّزه قوم ، واحتجوا بقول النبى ﷺ للأنصار : « قوموا إلى سيدكم » [1] وهذا أصح من الحديث الأول . قال هؤلاء : السيد أحد ما يضاف إليه ، فلا يقال للتميمى سيد كندة ، ولا يقال الملك سيد البشر ، قال : وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم ، وفى هذا نظر ، فإن السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو فى منزلة المالك ، والمولى ، والرب ، لا بمعنى الذى يطلق على المخلوق . انتهى .

قلت : فقد صح عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال فى معنى قول الله تعالى (٦ : ١٦٤) : ﴿ قل أغير الله أبغى رباً ﴾ « أى إلهاً وسيداً » ، وقال فى قوله الله تعالى : ﴿ الله الصمد ﴾ : « أنه السيد الذى كمل فى جميع أنواع السؤدد » ، وقال أبو وائل : « هو السيد الذى انتهى سؤدده » . وأما استدلالهم بقول النبى ﷺ للأنصار : « قوموا إلى سيدكم » ، فالظاهر : أن النبى ﷺ لم يواجه سعداً به ، فيكون فى هذا المقام تفصيل ، والله أعلم .

---

(١) فى هذا حين رأى سعد بن معاذ آتياً على حمار قد أسندوه ؛ لأنه كان مريضاً من جرح أصابه من المشركين فى الخندق وقد دعا به رسول الله ﷺ ليحكم فى بنى قريظة بعد أن حاصرهم وقبلوا أن ينزلوا على حكم سعد ، فكان هذا القول منه ﷺ ؛ لأنه مريض ولا يستطيع أن ينزل عن الحمار وحده فأمرهم أن يقوموا لينزلوه ؛ ولأنه جاء لهذه القضية ، فأراد أن يجعل له من التعظيم ما يناسب هذه الواقعة ، وكان سعد بن معاذ سيد الأوس ورئيسهم رضى الله عنهم .

باب

ما جاء فى قول الله تعالى (٣٩ : ٦٧) : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرضُ جميعاً قَبْضَتُه يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « جاء حَبْر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال : يا محمد ، إنَّا نجد أن الله يجعل السموات على إصْبَع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء على إصبع والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، فيقول : أنا الملك فضحك النبى ﷺ حتى بَدَتْ نواجذه ، تصديقاً لقول الحبر ، ثم قرأ: ﴿ وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ » .

قوله : (باب قول الله تعالى (٣٩ : ٦٧) : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ أي من الأحاديث والآثار فى معنى هذه الآية الكريمة .

قال العماد ابن كثير - رحمه الله تعالى - : يقول تعالى : ما قدر المشركون الله حق قدره ، حتى عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذى لا أعظم منه ، القادر على كل شىء ، المالك لكل شىء ، وكل شىء تحت قهره وقدرته . قال مجاهد : نزلت فى قريش . وقال السُّدِّى : ما عظموه حق عظمته . وقال محمد بن كعب : لو قدروه حق قدره ما كذبوه . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم ، فمن آمن أن الله على كل شىء قدير، فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره .

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية ، الطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف ؛ وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف - وذكر حديث ابن مسعود كما ذكره المصنف - رحمه الله - فى هذا الباب ، قال : ورواه البخارى فى غير موضع من صحيحه ، والإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى كلهم من حديث سليمان بن مهران وهو الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن ابن مسعود بنحوه .

قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبى ﷺ فقال : يا أبا القاسم ، أبلغك أن الله تعالى يجعل الخلائق على إصبع ، والسموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والثرى على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع ، فيقول : أنا الملك ؟ فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ، قال : وأنزل الله : ﴿ وما قدروا الله حق قدره﴾ الآية » ، وهكذا رواه البخارى ومسلم والنسائى من طريق عن الأعمش به .

وفى رواية لمسلم : « والجبال والشجر على إصبع ، ثم يهزهن ، فيقول : أنا الملك أنا الله » .

وفى رواية للبخارى : « يجعلُ السمواتِ على إصبع ، والماء والثرى على إصباع ، وسائر الخلق على إصبع » أخرجاه .

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً : « يَطْوِى الله السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسين بن حسن الأشقر ، حدثنا أبو كدينة [1] عن عطاء عن أبى الضحى عن ابن عباس قال : « مرَّ يهودى برسول الله ﷺ وهو جالس ، فقال : كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله السموات على ذه - وأشار بالسبابة - والأرض على ذه ، والجبال على ذه . وسائر الخلق على ذه ؟ كل ذلك يشير بأصابعه ، فأنزل الله : ﴿ وما قدروا الله حق قدره﴾ » وكذا رواه الترمذى فى التفسير بسنده عن أبى الضحى مسلم بن صبيح به . وقال : حسن صحيح غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، ثم قال البخاى : حدثنا سعيد بن عفير ، حدثنا الليث ، حدثنى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبى سلمة بن عبد الرحمن : أن أبا هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يقبض الله الأرض ، ويطوى السماء بيمينه ، فيقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ » تفرد به من هذا الوجه ، ورواه مسلم من وجه آخر .

وقال البخارى فى موضع آخر : حدثنا مقدم بن محمد ، حدثنا عمى القاسم بن يحيى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع ، وتكون السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك » تفرد به أيضاً من هذا الوجه ، ورواه مسلم من وجه آخر .

وقد رواه الإمام أحمد من طريق آخر بلفظ أبسط من هذا السياق وطول ، فقال : حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة ، أنبأنا إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن عبيد الله بن مقسم عن ابن عمر : « أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية يوم على المنبر : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركُون ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها ، يقبل بها ويدبر ، يمجد الرب تعالى نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا : ليخرّن به » . اهـ .

قوله : (ولمسلم عن ابن عمر - الحديث) كذا فى رواية مسلم . قال الحميدى : وهى أتم، وهى عند مسلم من حديث سالم عن أبيه ، وأخرجه البخارى من حديث عبيد الله عن نافع عن

---

(١) اسمه يحيى بن المهلب البجلى الكوفى . قال الحافظ ابن حجر فى تقريب التهذيب : صدوق من السابعة روى له الترمذى والنسائى أيضاً .

اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين السبع ، ثم يأخذهن بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟».

وروى عن ابن عباس قال : « ما السموات السبع ، والأرضون السبع فى كَفِّ الرحمن إلا كخردلة فى يد أحدكم » .

وقال ابن جرير : حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد : حدثنى أبى قال : قال رسول الله ﷺ : « ما السموات السبع فى الكرسى إلا كدراهم سبعة أُلقيت فى تُرْسٍ » .

ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين ، وتكون السماء بيمينه » وأخرجه مسلم من حديث عبيد الله بن مقسم .

قلت : وهذه الأحاديث وما فى معناها تدل على عظمة الله وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته . وقد تعرف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته ، وعجائب مخلوقاته ، وكلها تعرف وتدل على كماله ، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له فى ربوبيته وإلهيته [1] ، وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلال الله وعظمته . إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، وهذا هو الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان ، واقتفى أثرهم على الإسلام والإيمان .

وتأمل ما فى هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبى ﷺ ربه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته وجلاله وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التى تدل على عظمته وتأمل ما فيها من إثبات علو الله تعالى على عرشه ، ولم يقل النبى ﷺ فى شىء منها : إن ظاهرها غير مراد ، وإنها تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه ، لو كان هذا حقاً بلّغه أمينه أُمته ، فإن الله أكمل به الدين وأتم به النعمة فبلّغ البلاغ المبين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين، وتلقى الصحابة -رضى الله عنهم- عن نبيهم ﷺ ما وصف به ربه من صفات كماله ونعوت جلاله ، فآمنوا به ، وآمنوا بكتاب الله وما تضمنه من صفات ربهم جل وعلا ؛ كما قال تعالى (٣ : ٧) : ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابعوهم ، والأئمة من المحدثين والفقهاء كلهم وصف الله بما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله ﷺ ، ولم يجحدوا شيئاً من الصفات، ولا قال أحد منهم : إن ظاهرها غير مراد ، ولا أنه يلزم من إثباتها التشبيه ، بل أنكروا على

---

(١) فى قرة العيون : وأن العبادة لا تصلح إلا له سبحانه وبحمده : ولا يصلح منها شىء لملك مقرب ولا لنبى مرسل ولا لمن دونهما .

وقال : قال أبو ذرّ - رضى الله عنه - : سمعت رسول الله يقول : « ما الكرسى فى العرش إلا كحلقة من حديد أُلقيت بين ظهرى فلاة من الأرض » .

وعن ابن مسعود قال : « بين السماء الدنيا والتى تليها خمسمائة عام ، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام ، وبين السماء السابعة والكرسى خمسمائة عام ، وبين الكرسى

من قال ذلك غاية الإنكار ؛ فصنفوا فى رد الشبهات المصنفات الكبار المعروفة الموجودة بأيدى أهل السنة والجماعة .

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رحمه الله تعالى-: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسوله ﷺ ، وكلام الصحابة والتابعين ، وكلام سائر الأئمة مملوءة كلها بما هو نص أو ظاهر : أن الله تعالى فوق كل شيء ، وأنه فوق العرش فوق السموات مستو على عرشه مثل قوله تعالى (٣٥ : ١٠) : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ ، وقوله تعالى (٣ : ٥٥) : ﴿ يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىَّ ﴾ ، وقوله تعالى (٤ : ١٥٨) : ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ ، وقوله تعالى (٧٠ : ٣ ، ٤) : ﴿ ذى المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ وقوله تعالى (٣٢ : ٥) : ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه ﴾ ، وقوله تعالى (١٦ : ٥٠) : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ ، وقوله تعالى (٢ : ٢٩) : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ﴾ ، وقوله تعالى (٧ : ٥٤) : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى لى العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ ، وقوله تعالى (١٠ : ٣) : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه - الآية ﴾ فذكر التوحيدين فى هذه الآية ، وقوله تعالى (١٣ : ٢) : ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش ﴾ ، وقوله تعالى (٢٥ : ٥٨ ، ٥٩): ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً * الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً ﴾ ، وقوله تعالى (٣٢ : ٤ ، ٥) : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون * يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ ، وقوله تعالى (٥٧ ٤) : ﴿ هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ فذكر عموم علمه وعموم قدرته وعموم إحاطته وعموم رؤيته ، وقوله تعالى (٦٧ ١٦ ، ١٧) : ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ؟ أم أمنتم من فى

والماء خمسمائة عام ، والعرشُ فوق الماء ، والله فوق العرش ، لا يخفى عليه شىء من أعمالكم » أخرجه ابن مهدى عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زرّ عن عبد الله .

السماء أن يرسل عليكم حاصباً ؟ فستعلمون كيف نذير ﴾ ، وقوله تعالى (٤١ : ٤٢) : ﴿تنزيل من حكيم حميد ﴾ ، وقوله تعالى (٤٥ : ٢) : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ ، وقوله تعالى (٤٠ : ٣٦ ، ٣٧) : ﴿ وقال فرعون : يا هامان ابْنِ لى صرحاً لعلى بلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه كاذباً ﴾ . انتهى كلامه رحمه الله .

قلت : وقد ذكر الأئمة - رحمهم الله تعالى - فيما صنفوه فى الرد على نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين ، فمن ذلك ما رواه الحافظ الذهبى فى كتاب العلو وغيره بالأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبى ﷺ أنها قالت فى قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ قالت : « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإقرار به إيمان ، والجحود به كفر » رواه ابن المنذر واللالكائى وغيرهما بأسانيد صحاح قال : وثبت عن سفيان بن عيينة - رحمه الله تعالى - : أنه قال لما سئل ربيعة بن أبى عبد الرحمن : كيف الاستواء ؟ قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق » ، وقال ابن وهب : « كنا عند مالك فدخل رجل فقال : يا أبا عبد الله ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استوى ؟ فأطرق مالك رحمه الله وأخذته الرّحضاء . وقال : الرحمن على العرش استوى ، كما وصف نفسه ، ولا يقال : كيف ؟ و«كيف» عنه مرفوع ، وأنت صاحب بدعة ، أخرجوه » رواه البيهقى بإسناد صحيح عن ابن وهب ، ورواه عن يحيى بن يحيى أيضاً ، ولفظه قال : « الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » .

قال الذهبى : فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله ، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير ، ونفوا عنه الكيفية . قال البخارى فى صحيحه : قال مجاهد ﴿ استوى ﴾ علا على العرش . وقال إسحاق بن راهويه : سمعت غير واحد من المفسرين يقول : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ أى ارتفع . وقال محمد بن جرير الطبرى فى قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ أى علا وارتفع .

وشواهده فى أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم ، فمن ذلك قول عبد الله بن رواحة رضى الله عنه :

شـــهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثـوى الكــافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف ... وفـوق العـرش رب العالمينا

ورواه بنحوه المسعودى عن عاصم عن أبى وائل عن عبد الله .

قاله الحافظ الذهبى - رحمه الله تعالى - ، قال : وله طرق .

وتحمله ملائكة شداد ملائكة الإله مسومينا

وروى الدارمى والحاكم والبيهقى بأصح إسناد إلى علىّ بن الحسن بن شقيق ، قالَ : سمعت عبد الله بن المبارك يقول : « نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته على العرش استوى ، بائن من خلقه ، ولا نقول كما قالت الجهمية » قال الدارمى : حدثنا حسن بن الصباح البزار ، حدثنا على بن الحسين بن شقيق عن ابن المبارك ، قيل له : « كيف نعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه » .

وقد تقدم قول الأوزاعى : كنا - والتابعون متوافرون - نقول : إن الله تعالى ذكره بائن من خلقه ، ونؤمن بما وردت به السنة .

وقال أبو عمر الطلمنكى فى كتاب الأصول : أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته . وقال فى هذا الكتاب أيضاً : أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز ، ثم ساق بسنده عن مالك قوله : الله فى السماء وعلمه فى كل مكان ، ثم قال فى هذا الكتاب : أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ ونحو ذلك من القرآن : أن ذلك علمه ، وأن الله فوق السموات بذاته مستو على عرشه كيف شاء ، وهذا لفظه فى كتابه .

وهذا كثير فى كلام الصحابة والتابعين والأئمة ، أثبتوا ما أثبته الله فى كتابه على لسان رسوله على الحقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته ، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين ، ولم يمثلوا ولم يكيفوا ، كما ذكرنا ذلك عنهم فى هذا الباب .

وقال الحافظ الذهبى : وأول وقت سمعت مقالة من أنكر أن الله فوق عرشه : هو الجعد بن درهم ، وكذلك أنكر جميع الصفات ، وقتله خالد بن عبد الله القسرى وقصته مشهورة ، فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية ، فأظهرها واحتج لها بالشبهات ، وكان ذلك فى آخر عصر التابعين ، فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر مثل الأوزاعى ، وأبى حنيفة ومالك ، والليث بن سعد ، والثورى ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وابن المبارك ، ومن بعدهم من أئمة الهدى ، قال الأوزاعى إمام أهل الشام على رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة: ما أخبرنا عبد الواسع الأبهرى بسنده إلى أبى بكر البيهقى : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنى محمد بن الجوهرى - ببغداد - حدثنا إبراهيم بن الهيثم ، حدثنا محمد بن كثير المصيصى ، سمعت الأوزاعى يقول : « كنا - والتابعون متوافرون - نقول : إن الله فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته» أخرجه البيهقى فى الصفات، ورواته أئمة ثقات.

وعن العباس بن عبد المطلب - رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : بينهما مسيرة خمسمائة سنة ، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكِثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، والله تعالى فوق ذلك ، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بنى آدم » أخرجه أبو داود وغيره.

وقال الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - : لله أسماء وصفات لا يسع أحد ردها ، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر ، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل ، ونثبت هذه الصفات وننفى عنه التشبيه ، كما نفى عن نفسه ، فقال : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ . ا هـ من فتح البارى .

قوله : (عن العباس بن عبد المطلب) ساقه المصنف - رحمه الله - مختصراً ، والذي في سنن أبى داود : عن العباس بن عبد المطلب قال : كنت فى البطحاء فى عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة ، فنظر إليها ، قال : « ما تسمون هذه ؟ » قالوا : السحاب ، قال : «والمزن» ، قال : « والعنان » ، قالوا : والعنان - قال أبو داود : لم أتقن العنان جيداً - قال: « هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض ؟ قالوا : لا ندرى . قال : إن بعد ما بينهما إما واحدة ، أو اثنتان ، أو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماء التى فوقها كذلك ، حتى عد سبع سموات ، ثم فوق السابعة بحر بين أسفله ، وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أو عال ، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه ، كما بين سماء إلى سماء ، ثم الله تعالى فوق ذلك » ، وأخرجه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن غريب ، وقال الحافظ الذهبى : رواه أبو داود بإسناد حسن [1] ، وروى الترمذى نحوه من حديث أبى هريرة وفيه : « ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام » ولا منافاة بينهما ؛ لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام هو على سير القافلة مثلاً ، ونيف وسبعون سنة على سير البريد ؛ لأنه يصح أن يقال : بيننا وبين مصر عشرون يوماً باعتبار سير العادة ، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد ، وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك فوقفه ، هذا آخر كلامه [2] .

---

(١) فى إسناده الوليد بن أبى ثور لا يحتج بحديثه . وقد ساقه أبو داود من غير طريق الوليد . وقال العلامة ابن القيم فى تهذيب سنن أبى داود : أما رد الحديث بالوليد بن أبى ثور ففاسد ، فإن الوليد لم ينفرد به بل تابعه عليه إبراهيم بن طهمان كلاهما عن سماك . ومن طريقه رواه أبو داود . ورواه أيضاً عمرو بن أبى قيس عن سماك . ومن حديثه رواه الترمذى عن عبد بن حميد أخبرنا عبد الرحمن بن سعد عن عمرو بن أبى قيس . ا هـ . ورواه ابن ماجه من حديث الوليد بن أبى ثور عن سماك . وأى ذنب لوليد فى هذا ؛ وأى تعلق عليه ؟ وإنما ذنبه روايته ما يخالف قول الجهمية وهى علته المؤثرة عند القوم . ا هـ .

(٢) فى قرة العيون : قلت : وهذا الحديث له شواهد فى الصحيحين وغيرهما مع ما يدل عليه صريح القرآن فلا عبرة بقول من ضعفه . =

فيه مسائل :

الأولى : تفسير قوله تعالى : ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ .

الثانية : إن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين فى زمنه ﷺ لم ينكرونها ولم يتأولوها .

الثالثة : أن الحبر لما ذكر للنبى ﷺ : صدَّقه ، ونزل القرآن بتقرير ذلك .

الرابعة : وقوع الضحك من رسول الله ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم .

الخامسة : التصريح بذكر اليدين ، وأن السموات فى اليد اليمنى ، والأرضين فى الأخرى .

السادسة : التصريح بتسميتها الشمال .

السابعة : ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك .

قلت : فيه التصريح بأن الله فوق عرشه كما تقدم فى الآيات المحكمات ، والأحاديث الصحيحة ، وفى كلام السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وهذا الحديث له شواهد فى الصحيحين وغيرهما ، ولا عبرة بقول مَن ضعَّفه لكثرة شواهده التى يستحيل دفعها ، وصرفها عن ظواهرها .

= وقد ابتدأ المصنف رحمه الله تعالى هذا المصنف العظيم ببيان توحيد الإلهية ، لأن أكثر الأمة ممن تأخر قد جهلوا هذا التوحيد ؛ وأتوا بما ينافيه من الشرك والتنديد ، فقام ببيان التوحيد الذى دعت إليه الرسل ونهوهم عما كانوا عليه من الشرك المنافى لهذا التوحيد . فالدعوة إلى ذلك هى أهم الأمور وأوجبها لمن وفقه الله لفهمه ، وأعطاه القدرة على الدعوة إليه ، والجهاد لمن خالفه ممن أشرك بالله فى عبادته ؛ فقرر هذا التوحيد كما ترى فى هذه الأبواب ؛ ثم ختم كتابه بتوحيد الأسماء والصفات ، لأن أكثر العامة ليس لهم التفات إلى هذا العلم الذى خاض فيه من ينتسب إلى العلم . وأما من ينتسب إلى العلم فهم أخذوا عمن خاض فى هذه العلوم ، وأحسنوا الظن بأهل الكلام ، وظنوا أنهم على شىء ، فقبلوا ما وجدوه عنهم ، فأقروا مذهب الجهمية ، وألحدوا فى توحيد الأسماء والصفات . وخالفوا ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة وأئمة الحديث والتفسير من المتقدمين وما زال أهل السنة متمسكين بذلك لكنهم قلوا . فهدى الله هذا الإمام إلى معرفة أنواع التوحيد فقررها بأدلتها ، فله الحمد على توفيقه وهدايته إلى الحق حين اشتدت غربة الإسلام فضل عنه من ضل من أهل القرى والأمصار وغيرهم ، وبالله التوفيق .

فقد اجتمع فى هذا المصنف أنواع التوحيد الثلاثة التى أشار إليها العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله :

والعلم أقسام ثلاث ، ما لها ... من رابع والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهى الذى هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثانى

وصلى الله على سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الثامنة : قوله كخردلة فى كف أحدكم .

التاسعة : عظم الكرسى بالنسبة إلى السماء .

العاشرة : عظم العرش بالنسبة إلى الكرسى .

الحادية عشرة : أن العرش غير الكرسى والماء .

الثانية عشرة : كم بين كل سماء إلى سماء .

الثالثة عشرة : كم بين السماء السابعة والكرسى .

الرابعة عشرة : كم بين الكرسى والماء .

الخامسة عشرة : أن العرش فوق الماء .

السادسة عشرة : أن الله فوق العرش .

السابعة عشرة : كم بين السماء والأرض .

الثامنة عشرة : كثف كل سماء مائة سنة .

التاسعة عشرة : أن البحر الذى فوق السموات أسفله وأعلاه خمسمائة سنة والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

وهذا الحديث كأمثاله يدل على عظمة الله وكماله ، وعظم مخلوقاته ، وأنه المتصف بصفات الكمال التى وصف بها نفسه فى كتابه ، ووصفه بها رسول الله ﷺ ، وعلى كمال قدرته ، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له ، دون كل ما سواه ، وبالله التوفيق .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس كتاب فتح المجيد

* * *